

A. U. B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



محمد صالح الدقر

لنقرن ٢٢٢٩٧٧

عصر الأئمة الإمامية

ونساجه
العلمي والأدبي

892.709
S163a A
v. 4
pt. 2
c. 1

تأليف الدكتور

محمود زكي سليم

المجلد الثامن

وهو القسم الثاني من الجزء الرابع

في أثر البيئة المصرية في الشعر

الطبعة الأولى

١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

مكتبة الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجيزة ٤٢٧٧٧

وَلِلْمُحَنِّمِ لِلْمُنَاغَةِ
شامخ الجيش - كنيسة الأرمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

أحمد لله ، جلّت نعمته ، وعظمت منته ، والصلاة والسلام على نبيه الكريم
سيدنا محمد سيّد الخلق ومعلم الأمم ، وعلى آله وأصحابه .

وبعد : هذا هو المجلد الثامن من موسوعة د عصر سلاطين المماليك ونتاجه
العلمي والأدبي ، . ومنه ومن المجلد السابع يتألف الجزء الرابع ، الذي تحدثنا فيه
عن البيئة المصرية في عصر المماليك ، وأثرها في الشعر .

والمجلد الثامن يتضمن من الباب الثاني أربعة فصول وهي :

الفصل الثاني : ويتحدث عن أثر البيئة السياسية في الشعر .

الفصل الثالث : ويتحدث عن أثر البيئة الثقافية في الشعر .

الفصل الرابع : ويتحدث عن أثر البيئة الاجتماعية في الشعر .

الفصل الخامس : ويتحدث عن الخصائص الفنية للشعر .

وذلك كله على نسق ما بيناه في مقدمة المجلد السابع ، بتفصيل .

وقد أتبعنا ذلك بخاتمة تضمنت نتائج هذا البحث ومقترحاتنا المستقاة منه ،
وبعض الاستدراكات .

وبهذا المجلد أكون قد أنهيت إخراج هذه الموسوعة الكبيرة . وإني أسأل
الله سبحانه وتعالى أن يجعلها نافعة للناس ، بمقدار ما قصدت منها وجهه
الكريم ؟

الفصل الثاني

في

اثر البيئة السياسية في الشعر

الشعر بين دوافع البيئة وموانعها

نعرض في هذا الفصل لآثار البيئة السياسية في الشعر . ونقصد بهذه الآثار كل شعر له صلة بالرجال الرسميين باعتبارهم رسميين . نعرض لهذه الآثار إيجاباً وسلباً . إذ أن البيئة السياسية بدوافعها تخطو بالشعر خطوات إلى الإمام في سبيل التعبير عنها وتسجيل حوادثها ومرائيها المختلفة ونزواتها وتقلباتها . وموانعها تقف في سبيل الشعر فتسكبت أنفاسه وتعوق تياره ، فتتسرب الأنفاس إلى سبيل أخرى ، ويتدفق التيار من وراء ذلك إلى مجارى جديدة . وربما تسكبتها وتعوق تيارها جملة .

وقد كانت البيئة السياسية في العصر الذي نتحدث عنه ذات دوافع وموانع . فقد كانت حوادثها ووقائعها صاحبة مدوية متتابعة ، لم تفرغ البلاد منها في الخارج والداخل . أما في الخارج فقد شغلت البلاد وسلاطينها وأمراؤها وجيشها بحروب التتار والصليبيين ، الفرنجة ، ومن ورائهم شعب محزون بنظر ، وأمة ملتاعة تترقب ، وإمكانات واسعة تحشد وتجمع وتساق وتسهمك ، وأيد عاملة تسخر وتحرم ، وتعين وتساعد ، في صبر عميق يكتم في طياته الألم ، وتريث واسع يترجم بين ثنایاه الأمل ، وإيمان وثيق ينبثق منه الرجاء في عون القدر . والدولة ماضية في حروبها لائتي ، وفي تجهيزاتها لا تمل ، وفي تجريداتها لا تهدأ . وتعيش بين انتصارها وفتوحاتها آناً ، وبين اندحارها وتراجعها آناً آخر وترج البلاد في

الأولى امتدادا للرقعة وسعة في السلطان وهزيمة للعدو وزهوا بالنصر ، فتعم البشائر وتمتلىء النفوس فرحا . وتخسر في الثانية فتتحسر وتضيق ويجروء عليها عدوها ، فتتداعى في حزن وابتئاس . وهكذا دواليك .

وأما في الداخل فقد شغلت البلاد وحكامها بفتن داخلية لا أول لها ولا آخر : مغامرات من الطامعين في العرش تنجم عنها حروب أهلية ، ومكايد مبيتة ، وثورات من العربان فيها النهب والسلب والخوف والقلق .

والشعراء رجع البيئمة ، ومرآة لأحاسيس الأمة ، وصدى في شعرهم لهذا الدوى الصاخب لحواشيها ووقائع حياتها . فكان عليهم أن يسجلوها ويخلدوا ذكرها ويفصلوا القول فيها ويشيدوا بمواضع الفخار منها ، ويترفقوا بأسباب الهزيمة فيها . فصنعوا ذلك ولسكن على وحى وريبة ، وعلى حرج وضيق ، فإن ما خلفوه في هذا الباب من الشعر ، لا يوائم جلال مامر من الحوادث والحروب بالبلاد ، ولا ما عانتها من تكاب أعدائها عليها ، ولا من تساطط الطامعين فيها ، ولا ما جمعوا لها من كيد عظيم . وبحسبك التتار وجبوشهم الجرارة ، وهى عديد الحصى ، لا تمل من إراقة الدماء والنهب ، وبحسبك الصليديون وأوشاب ما اجتمع لهم من مرتزقة الغرب الأفاقين ، وما زعموه من دين . وبحسبك العثمانيون وما تنزت به نفوسهم من آمال وأطماع في الأرض العربية ، وما عرفوا به من حيلة ودس وشراء ذمم وكيد .

لعل الشعراء قد صنعوا ما يوحى به إليهم الضمير الشعري ، وما تستوجبه عليهم أمانة الشعر التى حملتهم الأقدار إياها عن بلادهم ، ثم ضاع ما أنتجوه مع الزمان فأرخت عليه ذيل النسيان .

ولقد كان هناك طائفة من الأدباء ، وهم رؤساء دواوين الإنشاء وكبار كتابه وهم شديدا الصلة بالحكام ولا سيما السلاطين أولو الأمر ، وذلك بحكم منصبهم . وكثيرا ما كان السلطان يصحب معه في تحركاته وحروبه كاتب سره ، أو من يقوم

مقامه ، ليستب له التقاليد والمناشير والتباشير ونحوها ، التي يقتضيها المقام ،
خلال تحركاته أو حروبه . وبغلب على هؤلاء نظم الشعر . فلا بد أنهم سجلوا شيئاً
منه . ولو اجتمع لنا هذا القليل لوجدنا فيه للقول فسحة ، وللحديث سعة ،
وللدراسة ميداناً ، وللإستنباط مسلكاً ، والأضواء الجديدة على تاريخنا سرجاً .
ومع هذا فلدينا من هذا القليل إثارة ، ومن هذا النادر بقية ، سنشير إليها .

ولم يكن للسلطين سياسة متبعة ولا أريحية واسعة في إثابة الشعراء ، حتى
يكون لهذه الإثابة أثر في تشجيعهم على القول والتسجيل والتفصيل والوصف
والمدح تباعاً ، وحتى يكون لنا من الشعر كتاب واسع الصفحات كثير السطور ،
نقرأ فيه ما يكمل التاريخ أو يفسره ، أو يجلي غامضه ، أو يصحح خطأه ، أو
يعدل التواءه .

ومن باب أولى ، لم تكن لهم - وربما وبسبب عجمتهم - سياسة متبعة ولا خطة
مرسومة في تقريب الشعراء والسماع لهم والإصاخة لنصحهم إذا وجهوا . ولهذا
كان الشعراء إذا تحدثوا في أحداث السياسة وأخبار الحروب وأنباء
الانتصارات ، وذكروا العدو وما بيت ، والزاحف وما أعد ، كثيراً ما يلتوون
نحو المدح وما يقتضيه ، أو نحو الهجو وما يستلزمه . ولم يتحدثوا في صميم
السياسة واتجاهاتها .

على أنه لم يكن لكل شاعر هذه الحظوة لدى السلطين والحكام . بل لقد كان
المقربون إليهم - بحكم وظائفهم - قلة ، بينما الكثرة الكاثرة والعدد الأكبر
لا تدرى الدولة عن وجوده خبراً ، ولا تعرف لمكانه أثراً ، إلا قليلاً .

وإذا أضفت إلى ذلك عاملاً قد يكون له أهمية كبيرة في كبت الشعراء والإقلال
من أهميتهم في نظرهم ونظر الناس : استطعت أن تقدر ظروف شعراء هذه
الحقبة حق قدرها . ذلك العامل هو انصراف بعض الملوك من آل قلاوون وبرقوق
وقايتباي وغيرهم إلى معاضدة الزجالين واستنشادهم والسماع إليهم وإثابتهم - وربما

كان لعجمتهم دخل في هذا أيضاً — وبذلك نضج الزجل نضجاً محموداً . وراجت سوقه ونفقت بضاعته ، وشارك الشعر الفصيح في كثير من أبوابه ، كالوصف والغزل والمدح والرثاء وتسجيل الحوادث ونحو ذلك — على ما سنرى — بل لقد ترى الزجل ينفر إلى الميدان ، وقد وجب القول وطلب النظم وهيء المجال للحديث ، فيصول ويجول ويحدث ويفعل ويسجل ، بينما لا ترى للشعر جولة ، ولا لأبياته صوتاً . . . وهذا كله — على ما نرى — بسبب تسرب اليأس إلى نفوس الشعراء من حماية الدولة وتشجيعها .

بذلك تسرب إذا اليأس من الدولة وعوامل تشجيعها إلى نفوس الشعراء . ودفع بهم — على الأقل — إلى ميدان غير ميدان سياسة الدولة وحروبها وما يقتضيه هذا من ألوان القول . ومنهم من دفعه يأسه بعيداً عن هذه البلاد شعبيها وحكومتها معا ، وفر إلى ميدان جديد لعله يجد فيه مراحات للقول ومتسعاً للشعر يتنفس فيها ويجرى تياره في مجاريها .

وهذه هي الموانع التي أشرنا إليها ، وتلك هي آثارها السلبية .

اتجاه ابن نباتة :

وأصدق مثال وأدق دليل نسوقه في هذا المقام جمال الدين بن نباتة المصري . الذي كان — ولا ريب — أمير الشعراء في زمانه غير مدافع . إنك إذا تصفحت ديوانه وقرأت تبيانها ، لا تعثر فيه على قصائد ذات قيمة تنبئ عن ملك عظيم من ملوك مصر ، أو أمير كريم من أمراء مصر — إلا لمأماً لمأماً — ولقد كان ابن نباتة يعيش في زمان الناصر محمد بن قلاوون ، هذا الزمان الذي امتلأ بالحوادث وتحملته الاضطرابات والفتن ، وبحسبك أن تعلم أن الناصر نفسه خلع من عرشه مرتين ، وبعد كل مرة عاد . . . لم يسجل ابن نباتة في شعره شيئاً من حوادث ذلك الزمان ، ولا أشار إلى شيء من تقلبات السياسة فيه أو إثارة من فتنه وحروبه . لقد ترك البلاد جملة ونزح عنها إلى دمشق وحماة ليجد فيهما مرتزقا ، ولشعره

متنفسا . وهناك في حماة بدت الآثار السلبية للبيئة عليه . فاقد قربه ملك حماة المؤيد إسماعيل ، واحتفل بمقامه وأغدق عليه . وكذلك فعل ابنه الملك الأفضل معه — وكانا تابعين من أتباع الناصر ونائبين من نوابه — فظفر الشعر من لدن هذا الشاعر الكبير بحملة من القصائد الجيدة القوية المليئة التي سجلت مآثر هذين الملكيين الكريمين وأشادت بمحامدهما فأخلدت ذكرهما . ومدحهما بما يعيد إلينا ذكرى أبي تمام والمعتصم ، أو ذكرى البحترى والمتوكل ، أو ذكرى المتنبى وسيف الدولة بن حمدان . وظفرت منه أحراج حماة بتلك الفريدة التي سماها « مصائد الشوارد » ، والتي مدح بها الملك الأفضل ، ووصف رحلة الصيد التي خرجها إلى تلك الأحراج ، وما تضمنه تلك الأحراج من مباحج الطبيعة ومفاتها .

ويبدو أن اللون السياسي الذي كان يصبغ جو القاهرة ، كان هو اللون نفسه الذي يصبغ نياتها . أعنى بذلك أنه مهما كان للشاعر حينذاك من صلة بالسلطان والرؤساء ، لم يكن للشاعر حرية في أن يتناول أحداث السياسة كافة ، إذا هو تعرض لذكرها . لم تكن له سعة من الحرية لتناولها من جميع نواحيها وأطرافها . وأن يعبر عنها وفق مشيئته وهواه ، وبحسب عقيدته وما يراه . ولكن كان مضطراً إلى أن ينظر إليها بمرآة السلطان والحاكمين . وإن لا كان عرضة للعقاب أو المؤاخذة . ولهذا كان الشاعر في هذا المقام كثيراً ما ينجح نحو مدح السلطان وهجو أعدائه — كما أشرنا — .

ونستطيع أن نجد مصداق ما نقول في شعر محي الدين بن عبد الظاهر وما نظمته في وقائع الظاهر بيبرس وحروب المنصور قلاوون . وما دبحته يراعة شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي في مدح السلطان الناصر حسن بن الناصر بن قلاوون ، وما قصده ابن حجة الحموي في وقائع الملك المؤيد شيخ المماليك ، وهلم جرا .

وعلى هذا الغرار سار ابن نباتة في مؤيدياته وأفضالياته ، فكانت سياسياته مدائح ووصفيات في أغلب أمرهما . والأوضاع السياسية المفروضة حينذاك

صاحبة السيطرة على الموقف ولا ريب ، بل نستطيع أن نقول إن هذه الأوضاع المفروضة هي التي نشأ الشاعر فوجدها مسيطرة في كل مكان ، كأنما هي فطرة وطبيعة في هذا المجتمع ، فلم يكن من حظ المجتمع أن يوجه نقداً لأعمال السلاطين ولا أن يمرر إليهم توجيهات يسرون بمقتضاها في هذه الأعمال ، اللهم إلا من بعض شيوخ الدين الذين آتاهم الله بسطة في العلم ، وجرأة في الجنان ، وسعة ، من القول ، وبالغاً من الحجة ، ومغامرة في سبيل الحق ، أمثال المعز بن عبد السلام ، ومحى الدين النوى . ولكن قليل ما هم .

نذكر ذلك حينما ننظر في شعر ابن نباتة وشعر أضرابه من الشعراء ممن ذكرنا ومن لم نذكر ، ونسأل أين قولهم في ميدان السياسة ، وأين شعرهم في مجالاتها ، وكانت الدولة طالحة بأحداثها ، والشعب مشغولاً بفتنها ومغامراتها . فلا نجد أو لا نكاد نجد ، اللهم إلا وصف بعض الحروب والمعارك ، وما يتصل بها ، وفي شعر شعراء أقل من مستوى ابن نباتة .

اتجاه صفي الدين الحلبي :

نذكر ذلك أيضاً حينما ننظر في شعر شاعر كبير معاصر لابن نباتة ، وهو صفي الدين الحلبي . وهما شبيهان في أن كلا منهما نبابه المقام في بلده ، فطوحت به يد الغربة إلى بلاد قاصية يعرض فيها بضاعته من الشعر ، ويرجو من وراء ذلك لنفسه مرتزقا ومكانة . لقد نزح ابن نباتة من مصر إلى حماة حيث ملكها أبو الفداء إسماعيل ، ونزح صفي الدين من حلة بابل بالموصل إلى ماردين حيث ملكها المنصور الأرتقي ثم الصالح . لقد كان أبو الفداء بقية من سلالة الأيوبيين الأكراد . كانت له فراهة في الأدب وضلع في الشعر والنثر ، ودربة على التأليف ، وغاية في استضافة العلماء والأدباء . ولكن غلبت عليه ، فيما يبدو ، سياسة القاهرة . وخيم على سماء حماة ذلك أجو المضروب على سماء القاهرة . فقد كانت قصارى هذا الملك أو ابنه الأفضل أنهما تابعان من أتباع الناصر بن قلاوون ملك مصر ، كما أشرنا . ولم تضع الدولة في مصر ، نصب عينها برناجاً لتشجيع شاعر أو اصطناع آخر ،

إلا لضرورة تخلقها المناسبة ، ويبرز فيها الشاعر - حتى يتكلم بلسانها وينظم الشعر في سياستها . كما لم يستطع شاعر أن ينقدها أو يخوض في أخطائها أو ينتقصها أو يبرز معانيها ، أو يدلى برأى فيها ، إلا لما لما ، لأن أمور السياسة كانت قصرا على الحاكمين سلطانا وأمرأ . وكان كل سلطان جديد يتتبع أثر غريمه السابق وأتباعه قتلا وسجناً وكيداً .

أما المنصور الأرتقي فقد كان بقية من دول السلاجقة . وكان في دولته مستقلاً يحيط به الطامعون في ملكه من الروم وغيرهم . وبناهضه الثائرون في أطراف دولته . فكان موقفه في إمارته نمطا من أنماط مواقف سيف الدولة الحمداني في إمارته . فتهماً بذلك كله لصفى الدين أن يخوض معه ومع الصالح بشعره ، في صميم سياسة الدولة وتوجيه حروبها .

أما ابن نباتة فقد خلا شعره من هذا اللون ، على قدرة منه عليه وضلعة في نظمه . ولكن السبب - على ما نعتقد - هو الفرق بين بيئتين سياسيتين ، كما رأيت - بيئة شب فيها ابن نباتة ونشأ ونما - وبيئة شب فيها صفى الدين ولابس أحداثها والتأم فيها طبعه وجوها .

فرار بعض الشعراء :

وإذا كان ابن نباتة قد فر بشعره من مصر إلى غيرها - إلى الشام أو حماة - فإن بعض الشعراء قد فر بشعره من مصر إلى مصر نفسها ! أعنى بذلك أنه لم يرحل إلى غيرها . ولكنه رحل إلى شيء آخر غير الشعر . . . لقد رحل إلى العلم أو الكتابة أو الحرفة . . . أن هؤلاء الذين تحولوا عن الشعر ، تحولوا عنه بدافع هذه البيئة السياسية ، التي ظلت هي البيئة الأولى الدافعة الحافزة إلى قول الشعر زمنا طويلا ، قبل العصر الذي نحن بصددده . لقد كانت هي البيئة التقليدية التي تحرك الشعر والشعراء ، والبيئة التي ترفع من تشاء منهم إلى المستوى الذي تريده .

فركدت ربحها في العصر المذكور ، ولم ترحب بالشعر كما رحبت بالكتابة مثلا ، ولم تبش للشعراء كما بشت للكتاب والمنشئين مثلا ، أو للعلم والعلماء .

ولعل البيئة الاجتماعية تشاركها في هذا الإثم بعض المشاركة ، على أساس ضعف تشجيع الجماهير للشعراء ، وضيق تلقيهم نتائجهم بالقبول ، ونادرة تناول مجالس العلم والأدب والمناظرة لهذا النتاج بالدرس والبحث والنقد والتحليل .

ولو وقع هذا في البيئة الاجتماعية أو الثقافية ، على نمط مناسب ، لكان لرواج الشعر ونفاق سوقه حينذاك ، أثر كبير في تهذيبه وفي شحذ قرائح الشعراء ، وفي نتائجهم .

لهذا كله انحرف كثير من رجال الشعر والذين كانت تنبؤوا كبيرهم بمستقبل حافل في ميدان الشعر ، إلى طريق غير طريقه ، إلى طريق الكتابة والإنشاء ، وإلى طريق العلم والفقه والقضاء ، وإلى طريق الاحتراف بحرفة ما ، ولو كانت دنيا ، كالجزارة والحمامية والوراقة وغيرها .

فمن المنشئين ابن عبد الظاهر والشهاب الحلبي والصلاح الصفدي والتقي ابن حجة . ومن الفقهاء والقضاة ابن حجر العسقلاني وتقي الدين السبكي ، وابن دقيق العيد القشيري . ومن المحترفين أبو الحسين الجزار المصري ونصير الدين الحماي ، وسراج الدين الوراق ، وابن دانيال السكحال . وغيرهم كثير .

ولم ينحرفوا عن الشعر جملة ، ولم يتركوا ميدانه خلوا لغيرهم ، بل فاءوا إليه الفنية بعد الفنية ، أو قل جذبتهم إليه جواذبه ، وحركتهم إليه شياطينه وأبالسته . ودفعتهم إليه وساوسه . وكيف يسألونه وهو فطرة في نفوسهم وهبة طبيعية وهبها الله لهم ، وفن أصيل جبلوا عليه . لذلك عادوا إليه وفاءوا الآنة بعد الآنة ، والفنية بعد الفنية ، كما قلنا عادوا ولم تفارق نفوسهم مرارة الإنكار ، وفاءوا ولم تزايل خواطرهم مضاضة التجاهل والحرمان فنفضوا المضاضة شعرا ،

ونظموا المرارة قريضا . وبرز بعض شعرهم في باب النقد يصرخ مما جنته البيضة السياسية والاجتماعية عليهم ، وينعى عليها تجاهلها أو جهلها ، ويسخر بها ويتهمهم . ويمعن بعضهم في السخرية والتهمك حتى يسخر بالشعر نفسه ويتهمهم ، حينما وجدته صناعة لا تدر خيرا ولا تيسر رزقا ولا تمنح جاها ولا تنضر عيشا ولا تسد جوعة .
هذا جمال الدين بين نباتة يقول :

تقول بنى الجائعون أما ترى من الجوع شكوانا لـكل فريق
وقد كنت ذا نظم وسعى ببرنا فما جئت من هذا وذا بدقيق^(١)

وما إن فرابن نباتة من مصر وبلغ حماة حتى قال للملكها المؤيد :
فاجل عني حالا أراني منها كل يوم في غارة شعواء
فكفي من وضوح حال أنى في زمانى هذا من الأدباء
ضاع فيه لفظى الجهير وفضلى ضيعة السيف فى يد شلاء^(٢)
ويكرر ابن نباتة هذه المعانى ويزيدها وضوحا فى البيتين التالين :

لا عار فى أدبى إن لم ينل رتبا وإنما العار فى دهرى وفى بلدى
هذا كلامى وذا حظى فى عجبها منى لثروة لفظ وافتقار يد^(٣)

ولم ينسح ابن نباتة وحده على صناعة الشعر ولا على مواف بلده منها .
فهذا سراج الدين الوراق يصور مبلغ شغف الناس بالشعر فى هذين البيتين
الساخرين :

رفضوا الشعر جهـدهم ورموه بينهم بالهوان والازدراء
فلو ان الكتاب كان بأيدى هم محوا منه آية الشعراء^(٤)

(١) ديوان ابن نباتة قافية القاف .

(٢) و (٣) راجع ديوان ابن نباتة حرف القاف ثم فى الدال .

(٤) خزانة الأدب باب التورية .

ويرياً بنفسه عن أن يلقى الناس ، وقد علم منهم مقتهم للأديب وكرهيتهم للشعر فيقول .

أصون أديم وجهي عن أناس لقاء الموت عندهم الأديب
ورب الشعر عندهم بغيض ولو وافى به لهم حبيب (١)
تنطق الآيات بأن الجناية من البيئة الاجتماعية . والسكنها في الحق ، جناية
البيئة السياسية من قبلها . ولو جذبت البيئة السياسية بضبيع الشعراء وأعانهم
بشتى ضروب الإعانة - أو ببعضها - على صناعتهم ، لكان لذلك صدى أى
صدى في المجتمع . لقد كان السلاطين والأمراء أعاجم عن العربية ، فهم أعاجم
عن شعرها . ولم تدفعهم حاجة دوائهم إلى اصطناعه كما دفعتهم إلى اصطناع
الكتابة .

آثر فريق من الشعراء ، إذن ، الاحتراف بحرفة تيسر له الرزق وتحفظ له
الكرامة وتبقى ماء الوجه . ومن لطيف ما جنح إليه خيالهم بتوريانه وبدائعه أن
تحدثوا في شعرهم عن هذه الحرف ، ونظموا ما يتصل بها من المعاني في أساليب
متهمكة مريرة ، متفككة ساخرة ، وفي تعليقات قاسية هي وحى البيئة الحارمة
الضنيئة ، والمجتمع الكز المنكر الشحيح .

يقول أبو الحسين الجزار المصري - وكان يتعاطى صناعة الجزارة - يمدح
صناعته وينعى على صناعة الشعر والأدب ، في استعارة وتورية ، وفي
تعليل مر :

كيف لا أشكر الجزارة ماعشت حفاظا وأرفض الآدابا .
وبها صارت السكالب ترجيني وبالشعر كنت أرجو السكالب (٢)
ويكرر هذه المعاني في بيتين آخرين ، مع مداورة وعكس ، فيقول مفاضلا :

(١) خزنة الأديب ص ٢٤٦ .

(٢) خزنة الأدب باب التورية .

لا تعبنى بصنعة القصص فها أذكى من عنبر الآداب
كان فضلى على الكلاب فمذصر ت أديبا رجوت فضل الكلاب (١)

احترف إذن ، بعض الشعراء حرفا ، فكان منهم أبو الحسين الجزار - كما شهدت - وكان منهم الوراق والحمamy ، كما ذكرنا . وكان منهم الكحال مثل ابن دانيال الموصلى ، والخياط مثل زين الدين بن الرعاد ، وبائع الفقاع مثل علاء الدين ابن مليك ، والدهان مثل شمس الدين الدمشقي محمد بن على بن عمر المازنى .

هؤلاء وغيرهم ممن سلكوا فى طلب الرزق مسلكا غير مسلك الشعراء ، تحت تأثير ملابسات البيئة السياسية ، واتجاهات المجتمع المتأثر بمضاعفات السياسة وغيرها ، لم يهجروا الشعر جملة - كما نوهنا - وتفلتوا به إلى نواحي أخرى ، ولبوا دعاءه كلها نادى نفوسهم ، ولبي نداهم كلها هتفت به عواطفهم . واستجابوا لفنياتهم الشاعرة ، فكانت وحدها أحد حوافز الشعر عندهم ليرضوا نفوسهم ويروضوا خواطرهم . وعارن هذا الحافز - أعنى الفنية الشاعرة - حوافز أخرى نمتها البيئة الاجتماعية والبيئة الثقافية ، وسنشير إلى ذلك فيما بعد .

من نتاج البيئة السياسية

كان فى مقدمة نتاج الشعر بدافع من البيئة السياسية إذن ، ألوان من الشعر السياسى فيها كثير من المدح ، وفيها الفخر والحماسة والزهو والإشادة بالنصر ، ووصف الحرب ، فيها الهجاء الكثير للأعداء ، وفيها الخيلة عليهم وتوعدهم وإذارهم ، وفيها استطرادات إلى وصف آلات القتال من خيل وسيوف ورماح وقسي وغير ذلك . ونزعة النقد وتتبع سقطات الحكام والرؤساء ، كانت تترأى بين آن وآخر على قلق وخوف ، وفى إيجاز واقتضاب .

ومحي الدين بن عبد الظاهر كان كاتباً فذاً ومنشئاً قديراً ومؤلفاً بارعاً ، وكان شاعراً مجيداً جزل العبارة مبداً . وقيل إن ديوان الإنشاء بمصر كان يليه في عهد الملك الظاهر بيبرس ثلاثة رجال ، كان من بينهم القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ، وكان أرفعهم درجة (١) . وكان بحكم عمله في الديوان وثيق الصلة بالسلطان والأمراء ، ووثيق الصلة بسياسة الدولة ، ظاهرها وباطنها ، علماً بكل ما يتصل بحروب السلطان والاستعداد لها والخروج للقاء فيها ، والتحرك خلالها بغية النصر وهزيمة الأعداء ، خبيراً بأنباء الانتصارات والانهمزات ، ووقائع الغزو وحوادث الفتح ، وما إلى ذلك . فقد كان من أعماله هو ومن معه من الكتاب تسجيل هذه الأنباء والحوادث وذكر أخبار الفتوح في رسائل رسمية ، هي وثائق تاريخية عظيمة ، كانت تكتب وتشر وتسير إلى الآفاق لقراءتها وتناقضها . واعتاد كتابها حينذاك أن يفصلوا فيها القول ، ويسهبوا في الحديث ويسجلوا الأنباء بزائد من العبارة . واتبعوا في أساليبها النهج البديعي التقليدي حينذاك من سجع ونظام فقرات ومطابقة ومجانسة إلى غير ذلك ، مع مراعاة رسوم وأوضاع رسمية خاصة بهذه التباشير أو المناشير أو غيرها من الرسائل الديوانية . وكان محي الدين بن عبد الظاهر أحد الذين ابتدعوا لديوان الإنشاء هذه الرسوم والأوضاع والمصطلحات . يقول في ذلك صاحب فوات الوفيات إنه : وضع كثيراً من اصطلاحات الإنشاء ونظم الديوان . وبقيت نظمه واصطلاحاته معمولاً بها في مصر والشام إلى أن فتح العثمانيون مصر . (٢)

وكان الكتاب يسبغ في هذه الرسائل على السلطان وأمرائه وجيوشه آيات الحمد والثناء ، ويسكيل المديح كيلاً لا تريث فيه ولا مهادنة ولا تأني . وأصبحت هذه الظاهرة عادة وتقليداً متبعاً في الرسائل لا حول عنه .

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٤

(٢) فوات الوفيات ج ٢ في ترجمة محي الدين بن عبد الظاهر .

من هذا وذاك يتبين لنا أنه كان لابد لمحيي الدين بن عبد الظاهر أن ينظم أنباء فتوح سلطانه ، وأخباره تحركاته هو وأمرأؤه وجيوشه ، سعياً إلى رد العدو وكبح جماحه أو القضاء عليه ، وانتزاع ما انتزع من أرض السلطنة ، ورد ما سلب من ممتلكاتها ، وفتح ما تحصن وراءه من القلاع والحصون ، والاستيلاء على ممتلكاته ، ونشر المهابة بين صفوفه ، وضرب الخوف والقلق من حوله .

ومحيي الدين بن عبد الظاهر كاتب منشئ ، وشاعر قدير ، كما أشرنا ، والشاعر عادة أو غالباً ، يكون أكثر حساساً من الكاتب ، وفنه في نفسه أثبت ، وهو أشب عاطفة وأسرع استجابة إلى لقاء الحوادث وتسجيلها .

ونحن لانرتاب قط في أن هذا الرجل - أعني محيي الدين - سجل بشعره ما سجله بنثره ، وخلد الكثير من حوادث السياسة في زمانه وأنباء الحروب في أبياته ، كما خلدها بمنشأته - ولكن أين هذا الشعر وأين هذه الأبيات ؟ ليس لدينا منها غير القليل . ونحن لانشك أن كثيراً مما نظمه قد ضاع فيما ضاع من آثار الأدباء وآثار العلماء . . . وهذا القليل الباقي ينبئ عنه ويشير إليه . فليس من المستطاع تصديقه ، أن تمر كل هذه الحوادث أمام شاعر عظيم كابن عبد الظاهر ، ولا يسجلها ولا يشير إليها ، وهو بنفسه الذي يسجلها بقلبه المنشئ وسجعاته الطليقة ورسائله البديعة .

شجاعة بيبرس :

وقد كان الملك الظاهر بيبرس فارساً شجاعاً ، شجاع القلب وشجاع الرأي . كان شجاع القلب لا يهاب ، وشجاع الرأي لا يستأني فهو ضراب هامات ، وأخو فتكات ، وجوال ميادين ، ومقارع سلاطين ، لم تقف أطماعه عند حد ، فقد نشأ وترعرع وشب ووثب ، فلقى بلاد المسلمين تنوشها رماح أعدائها وتنتابها سيوف الطامعين فيها من التتار الوثنيين ، والفرنجية الصليبيين ، فهاله الأمر وكبر عليه الموقف ، وأنفتت نفسه أن تستذل بلاده لهؤلاء الأفاكين ، وأن يستباح أهل دينه لهؤلاء الطغاة (٢٠ - عصر المماليك)

الظالمين . وما إن آتاه الله الإمارة والملك . حتى هب يبذل الرأى ويعمل الحيلة ويدبر الكيد ويحكم الخطة ويجمع الصف ، ليرد أعداء المسلمين عن بلاد المسلمين ، ولسكى يشتت شملهم ويفلل كيدهم ويردهم داحرين . فأوقع بالتتار في « عين جالوت » ، تحت لواء ملكه المظفر قطز ، وكذلك في « بيسان » : وقضى على الخرافة التى قالت إنهم لا يهزمون . ثم لما آتاه الله السلطنة تتبع التتار والفرنجية قتلا وتشريداً ، وهزم الأتراك السلاجقة . وجرد جيشاً قوياً على بلاد الشام فأخضع الأمراء النافرين بها واحتازها إلى سلطنته . وغزا جملة بلاد ، منها ما فتحها أو ضمها إلى بلاده ، وكان في جملتها ألبيرة والكرك وحمص وبيسارية وأرسوف وصفد ويافا والشقيف وأنطاكية وحصن الأكراد وعكا وصافيتا ، وبلاد سيس .

هذا فضلاً على غزوه بلاد السودان واحتيازه جزءاً منها .

فتح بلاد سيس :

ومحي الدين بن عبد الظاهر يسجل في إحدى قصائده ، فتح الملك الظاهر بيبرس لبلاد سيس ، ذلك الفتح الذى تم في عام ٦٦٤ هـ .

ويجئ ابن عبد الظاهر — كما نوهنا — إلى المديح وإسباغ آيات الثناء على السلطان وأمرائه وجيوشه ، ويشيد بشجاعتهم وينوه بحبهم للإسلام . وهو إذ يسجل هذا الانتصار العظيم ، يسجله بروح إسلامية ، فهو نصر للإسلام والمسلمين . ويصف الظاهر بأنه « سيد الملوك » ، وبأنه « صار حصناً حصيناً للمسلمين » . وبأنه « ركن دين الله » ، وبأنه « أسد الله » . الخ .

وقد كانت بلاد سيس في يد الأرمين الصليبيين . ويحكمها « التكفور » ، وهو « ليفون بن هيتوم بن قسطنطين » .

ولهذه المستعمرة الصليبية تاريخ طويل في النزاع بين حكامها ومحتليها ، وبين السلطنة المصرية والمسلمين . وقد غزاها بيبرس وأحرق عاصمتها « سيس » ، وقبض على ملكها « ليفون » ، وحبس به بمصر . ثم أطلقه بعد مدة ، وفرض عليه

الجزية واسترد منه مدنا^(١) .

وبدأ ابن عبد الظاهر قصيدته بتساؤل الفرح الشاكر لله تعالى على هذا النصر المبين الذي أقربه العيون ، وهو فتح بلاد سبيس واحتيازها . فلم يصطنع ابن عبد الظاهر مقدمات ولا افتتاحات لهذه القصيدة ، والمقام لا يقتضى ذلك . فبدأ بالشكر توا وبذكر سببه وهو النصر . ثم أخذ يعرض صور الحملة المصرية وما تحتوى عليه من جند وخيل ، ومبلغ ما كانوا عليه من همة ومضاء وشجاعة ، ومقدار ما افتتحوها من مدن ، وما ذكوا من حصون ، وما أذلوا من ملوك وقواد ونوه بتولى «ليفون» وفرار التتار وهروب قائدهم «أبغا»^(٢) .

ويلاحظ أن الشاعر لم يخض في غمار السياسة ، ومسها مسارفقا . أفيكون هذا لجبن أو خوف حقيقة ، أو لجهل بالأمور وبعد عن اتجاهاتها ؟ إننى أستبعد أن يكون السبب شيئا مما ذكرنا ، فإن مكانة صاحب ديوان الإنشاء حينذاك ، ثم مكانة كاتب السر فيما بعد ، كانت من السمو والدنو إلى السلطان ومجالسه بحيث يعرف مجارى الأمور وأخطار الأحداث واتجاهات السياسة ، وخاصة بعد زمان ابن عبد الظاهر هذا . فإن ابنه فتح الدين - أول من لقب بكاتب السر - حظى

(١) راجع تشریف الأيام والعصور ص ٩٢ ، ٩٣ - وبلاد سبيس هي أرمينية الصغرى «قيلقية» وموقعها بين أنطاكية وطرسوس . وعاصمتها «سبيس» هكذا ينطقها عامة أهلها ، وصحة الاسم «سبسية» راجع السلوك - هامش ص ٥٤٩ (عن معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٦٥) وص ٥٦٨ من السلوك - وراجع أيضا «مصر في العصور الوسطى» للدكتور على إبراهيم حسن ص ٢٧٥ ، وفيه موجز لحروب بلاد سبيس مع مصر وعلاقتها من لدن الظاهر بيبرس وبعده - والتكفور لنظ أرمي معناه الملك المتوج - راجع هامش السلوك ص ٥٥١ - وكان غزو الظاهر بيبرس لها عام ٦٦٤ هـ وقاد جيشه الملك المنصور صاحب حماة - راجع السلوك ص ٥٤٩ ، وما بعدها إلى ٥٥٣ .

(٢) كان أبغا بن هولاكو يترقب الفرص ، فلما عين ما أصاب الفرنجة في سبيس ، تراجع وأرسل الرسل إلى السلطان الظاهر بيبرس ومعهم الهدايا يطلبون الصلح - راجع السلوك ص ٥٥٣ وفي حوادث أواخر سنة ٦٦٤ هـ ،

وفي غير هذه المرة كانت بين بعض الفرنجة وأبغا بن هولاكو مراسلات للتعاون ضد السلطات ، وقع منهم ذلك - مثلا - عام ٦٦٨ هـ (راجع السلوك ص ٥٨٤ . ٥٨٥) .

لدى السلطان المنصور قلاوون ، وكان منه بحيث لا نخطيء إذا قلنا إنه كان عنده أقرب من أمرائه إليه ، لقد ألقى إليه المنصور بمقالات الأمور وصارت جميع مكاتباتها إلى يده .

ما السبب إذن في أن محي الدين بن عبد الظاهر ، هذا الشاعر المجيد والكاتب القدير ، لم يخض في غمار السياسة بشعره ؟ نتساءل قبل أن نجيب على هذا السؤال ، ونقول : أخاض في غمارها في نثره ؟ أكتب رسائله الرسمية التي تعد وثائق تاريخية من وثائق الدولة يثوب إليها المؤرخون — أو ينبغي أن يثوبوا إليها — عندما يؤرخون هذه الفترة التاريخية من حياة مصر وشعبها وحكامها . الجواب على ذلك أنه تناول في رسائله أحداث السياسة على نمط قريب مما تناولها به في شعره .

والسبب واضح بين ، فإن سياسة الدولة الداخلية والخارجية كانت بيد السلاطين ومن إليهم من الحكام ، وما كان للشعب بحسب ما جرت به عليه تقاليد الحكم منذ زمن طويل ، أن يخوض في صميم السياسة ، وأن يكون له فيها رأى ، أو يسمح له بأن يبدى فيها رأيا . وكان ينوب عنه نيابة تقليدية — هي أشبه بالطبيعة والفطرة — قضاة الشرع وعلماء الدين في الجملة . والشعراء على غرار الشعب في هذا . وهم في هذه الدول ، ومن هذه الناحية نوعان : نوع متصل بالسلاطين والحكام بحكم منصبه ، فهو يخشى على ماله وجاهه ونفسه وأبنائه ، وليس له إلا أن يسير في الركاب ويتمسح بالاعتاب ، فإذا تحدث عن أحداث سياستهم في الداخل أو الخارج مسها مسارفقا وانساق فيها بما يلائمهم حتى يوافق هواه هوأهم ، فيبرز شعره مدحا وثناء . ونوع منفصل عن هؤلاء السلاطين والحكام فهو غير خبير بما هنالك ، ولا يدري من أمر السياسة وأحداثها إلا ما تطلقه القالة وتحدث به الشائعة ، فإذا هو رأى أن يسوق في شعره نقدا أو توجيها ، صنع ذلك في فكاهة يتستر وراءها ، أو في وجازة لا يطيل فيها . ولم يكن بين

الجمهير أحزاب ولا طوائف متنابهة في السياسة على نسق ما نرى بين الشعوب في العصور الحديثة .

وفي السياسة الخارجية بخاصة لم يكن هناك خلف قط بين الشعب وحكامه . لقد كان الحكام فيها ينفذون سياسة الشعب . هذه السياسة التي لم يرسمها الشعب في دستور ولا دستور ، وإنما هي أحاسيس وقرت في نفسه واتجاهات عامة جمعت بين القلوب فيه ، ومصالح مشتركة اقتضته التجمع من أجلها . وتركز هذه السياسة الخارجية في دفع العدو ومكافحة الطامعين الزاحفين على البلاد . وقد كان هؤلاء جميعاً أعداء العرب وأعداء المسلمين من تثار وثنين - حتى بعد أن أسلموا - ومن صليبيين مسيحيين . إن الشعب شديد الإحساس مرهقه من هذه الناحية ، لا يرضى أن يتحكم في بلاده غير مسلم ، مهما عدل وأنصف ، ومهما أعطى وأجزل .

ولقد كان السلاطين والأمراء ، وهم يحاربون التتار والصليبيين ، يحاربون أعداء العرب ويحاربون أعداء دين العرب . فالمشاعر مؤتلفة ، والأحاسيس متلاقية ، والأهداف موحدة مشتركة . لهذا كان الشعب سريع الإجابة لهؤلاء الحكام الغرباء عنه عندما ينفرون للقتال ، يقدم إليهم اليد العاملة ، والطعام الخزون ، والضرية المتأخرة والمفروضة ، ويهلل معهم حين النصر ، ويتحسر حين الهزيمة . وإنما يبدو منه ذلك لأنهم يحققون أهدافه ويسيرون به إلى أملة ، ويستبقون له خيرات بلاده . ولم يكن هناك بين الشعب وحكامه في انتهاج هذه السياسة خلف . ولم يكن هناك بين السلطان وأمراء دولته في اتباع هذه السياسة نزاع .

الخلف الحقيقي كان بين السلطان وأتباعه من الأمراء ، وبين الخارجين عليه من الأمراء الطامعين في السلطنة . ويعتبر هذا الخلف من صميم السياسة الداخلية التي لم يكن في مقدور الشعب أن يمسها من قريب أو بعيد . فإنه عاش فرأى حكامه هؤلاء يحكمونه ، فرضى بذلك رضا تقليدياً كأنه فطرة وطبيعة ، رضى بذلك بسبب أنهم مسلمون ، وأنهم يدافعون عن أرض الإسلام والعرب ، وأنهم أبدوا

في ميدان الدفاع بطولة تحدثت عنها أطراف الأرض ورددها لسان الزمان .
يؤيد ذلك أن العثمانيين الأنراك كانوا مسلمين ، ولما أخذ خطرهم يقترب من
البلاد رويدا رويدا ، كان سلاطينها يذودونهم عنها ويكافونهم دونها ، وهي بلاد
عربية ، مهما اختلف عليها الحكام . فكان الشعب يكافح معهم ، حتى إذا أصبح
الخطر قاب قوسين أو أدنى من البلاد ، وانهمز السلطان الغورى في موقعة
« مرج دابق » وزحف العثمانيون على البلاد ، وجهد الأشرف طومان باى
في جمع الصفوف وترديد القوى ، امتنع بعض الناس عن أن يدفعوا له الضرائب
حتى ينجلي الموقف ، ثم يدفعوها للغالب — ما دام مسلما^(١) . ولعل هؤلاء قد
خدعوا عن أنفسهم . غير أن جماعات الشعب كانت يقظة فلم تستسلم لهذا الفاتح
الجديد ، الذى لقي من الفاهرين شر ما لاقاه فاتح .

لا بدع إذا حينما نرى شاعرا خلا كابن عبد الظاهر يخوض في السياسة
— إذا تناولها في سطحية وعجلة وضيق ، على مقدار ما كانت متاحة له وللشعب
في ذلك الحين .

نذكر ذلك ونحن نتحدث عن إحدى قصائده في هذا الميدان وهى قصيدته
في فتح بلاد سييس عام ٦٦٤^(٢) ، والتي يقول في مطلعها سائلا سؤال الشاكر :
أى يوم بنصره قد حيننا وبه الله قد أقر العيوننا
يوم جزنا بلاد سييس وقلنا أى نصر من ربنا قد جزينا
ويذكر السلطان وأمرأه وجنوده ، وما يركبون من خيول مطهمة ملونة ،
بينها شقراء كالسلاف ، وصفراء كالتبر ، وأدهم كالليل ، وأشهب مثل الصبح المبين ،
وغيرها . يقول :

إذ تبدى السلطان بين نجسوم من بنى الترك يعشقون المنونا

(١) ابن آياس ج ٣ حوادث عام ٩٢٢ ، ٩٢٣ هـ .

(٢) راجع سلوك المقرئ ص ٥٥١ وما بعدها .

يركضون الجياد في حلبة النصر م فأكرم بمثلهم راكضينا
كل شقراء كالسلاف وصفراء م كستبر قد سرت الناظرينا
وجياد من الأدهم والشهب م ترينا ليلا وصبحا مبينا
وكيت قد راح حي كيت من غدورها لدى العابرينا
فوقها من بنى الحروب رجال لم يزالوا لربهم شاكرينا

ويشيد ابن عبد الظاهر بهؤلاء الأمراء والجنود - النجوم - ويذكر أنهم
أذلوا كثيراً من السادة والرؤساء، ونهبوا وأسروا فيهم، وانتصروا عليهم وفتحوا
مدنهم وحصونهم، وذلك بفضل سيد الملوك بيبرس . يقول الشاعر في ذلك :

كم أذلوا القروم نهباً وأسرا في انتصار وكم أعزوا القرونا
فتحوا المدن والحصون وكفوا كافرينا وسلموا المسلمينا
بسطة سيد الملوك ومن قد صار حصناً للمسلمين حصينا
ركن دين الإله بيبرس الظاهر م خير الملوك دنيا وديننا
أسد الله في الوجود أتاها بالسطى منه أخذل الظالمينا

ويسجل الشاعر بعد ذلك فرار الفرنجة وهروب التتار وما أصاب الجميع من
هزيمة ومعرة . فقال :

وتولى ليفون منه حسيरा خائبا خائفا لعينا مهينا
وكذاك التتار خوفا ورعبا قد تولوا من بأسه هارينا
آه لو أنهم أقاموا فقالوا أى يوم لشره قد حيننا
أنذروا بالجوش أبغا فولى هاربا لا يكذب الناقلينا

ويصور ابن عبد الظاهر صدى هذا الانتصار والفتح المبين في أهل البلاد
الأخرى ، وآمالهم في بيبرس ومنهم في أن يأتي إليهم غازيا فاتحا ليلقوا بين يديه
بمقاليد أمورهم وينقذهم من أعدائهم الذين يتحكمون فيهم ويسيطرون إليهم
ويسلبونهم حريتهم ، فيقول :

وترامت كل البلاد وقالت ليتنا مثل سيس كئنا غزينا
 ليت جيش السلطان وافي إلينا ليت أنا لخيلى قد وطينا
 ليت أنا فى حكمه وفداه كل مال الأنام أودع فينا
 ليت جيش السلطان جاء إلينا ليرانا لحكمه طائعيننا
 لو قدرنا نأتى إليه أتينا ولكننا من جملة الوافديننا

ويدعو الشاعر للسلطان فى الخاتمة بأن يمد الله فى عمره وينسأ فى أجله وأن يفديه سائر العالمين ، فيقول :

جعل الله عمره فى امتداد يتفداه سائر العالمين^(١)

الظاهر بيبرس يعبر الفرات :

وعاود الملك الظاهر بيبرس غزو الشام بغية لقاء التتار وإذلال الفرنجة. ففتح المدن المستعصية ودك الحصون وشارك جنوده وعماله يديه فى أعمالهم الحربية . وخاض الفرات وعبره إلى البيرة بخيله — عام ٦٧١ هـ — مطارداً فلول التتار . واندفع من خلفه جنوده حتى شتتوا شملهم وأبادوا جموعهم . فكانت هذه المغامرة وهذه النصره مثاراً لحماسة الشعراء وزهوهم . فاندفعوا يتغنون بها ويشيدون ببطولاتها^(٢) .

فقال ابن عبد الظاهر يذكر هذه الواقعة ، ويسجل المغامرة بروح إسلامية واضحة :

تجمع جيش الشرك من كل فرقة وظنوا بأنا لا نطيق لهم غلبا
 وجاءوا إلى شط الفرات ومادروا بأن جياذ الخيل تقطعها وثبا

(١) تشرىف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور تحقيق مراد كامل ، نشر وزارة الثقافة والإرشاد ص ٢١ — وليفون هو صاحب بلاد سيس كما مر بيانه .
 (٢) راجع سلوك المقرئى حوادث عام ٦٧١ هـ ، ص ٦٠٦ .

وجاءت جنود الله في العدد التي تميز لها الأبطال يوم الوغى عجا
فعمنا بسد من حديد سباحة إليهم فما استطاع العدو له نقبا (١)

ولم يكن محي الدين بن عبد الظاهر وحده الشاعر الذي تتبع حروب بيبرس،
أو تتبع بعضها وسجلها في شعره . فهناك الشاعر بدر الدين محمد بن يوسف
المهمندار . لقد نظم هذه الأبيات التي يصف فيها عبور الظاهر بيبرس نهر الفرات
بخيوله وجنده ، بحماسة وشهامة نادرة ، وهو يسوق خلف أعدائه ، يطاردهم
ويصيدهم ويقضى عليهم .

لقد نظم الشاعر المجيد هذه الأبيات التصويرية المتحركة المدوية التي تعتبر
مجتمع لوحات فنية بارعة، وصور بها مراحل المعركة المحتدمة من أولها إلى نهايتها .
نظمها وهو يشهد المعركة بعينه ويحسها بشاعره ويتابعها بعواطفه وآماله، وتنعكس
حقائقها في مخيلته فتتفثها صوراً شعرية أخاذة

فالخيل تشق العجاج ، وسنا الأسنة يكشف ظلام العثير ، وتقدم الشجعان وهي
الجبان . وتقدمت الخيل بفرساتها تعبر الفرات تدفعها حماسها وإيمانها ، فتبدو
من فوقه سدا من حديد ، أو بحرا في بحر . والعدو يتسابق في الهرب والفرار ،
فترده الرماح وتعيده السيوف ، فيقع صريعا قتيلا . وما زالوا حتى امتلأ الفضاء
بالأشلاء ، وسدت قتلى العدو طريق الجيش ، فانحرفت الخيل إلى المسالك الوعرة ،
تتبع فلولهم ، حتى جرت دماؤهم أنهارا ، وامتزج العجاج بالجميع حتى تراكم فوق
السيوف وعلاها كأنه الصدا . . . أفلا ترى أن هذه معركة مصورة بحركات من
فيها وعواطفهم المتتابعة ؟ وهذا مالا تقدر عليه صور المصورين ولا ريشة
المبدعين

يقول الشاعر :

لو عاينت عينك يوم نزالنا والخيل تطفح في العجاج الأكر

وسنا الأسنة والضيء من الظبا
وقد اطلنخ الامر واحتدم والوغى
لرأيت سدا من حديد ما يرى
طفرت وقد منع الفوارس ردها
ورأيت سيل الخيل قد بلغ الربا
لما سبقنا أسهما طاشت لنا
لم يفتحووا للرعى منهم أعينا
فقتلنا بقوا هربا ولكن ردهم
ما كان أجرى خيلنا فى إثرهم
كم قد فلقنا صخرة من صرخة
ملئوا الفضاء فعن قليل لم ندع
سددت علينا طرقنا قتلاهم
من كل أشهب خاض فى بحر الدما
وجرت دماؤهم على وجه الثرى
والظاهر السلطان فى آثارهم
ذهب العجاج مع النجيع بصقله
كشفا لأعيننا قتام العشير
ووهى الجبان وساء ظن المجترى
فوق الفرات وفوقه نار ترى
تجرى ولولا خيلنا لم تسكر
ومن الفوارس أبحرا فى البحر
منهم إلينا بالخيول الضمر
حتى كحلن بكل لدن أسمر
يوم الهزيمة رخ كل غضنفر
لو أنها برء وسهم لم تعثر
ولسكن ملأنا محجرا من محجر
فوق البسيطة منهم من مخبر
حتى جنحنا للمكان الأوعر
حتى بدا لعيوننا كالآشقر
حتى جرت منها مجارى الأنهر
يذرى الرءوس بكل غضب أبت
فكانه فى غمده لم يشهر^(١)

وقد أدلى الشاعر الأديب أبو الشناء شهاب الدين الحلبي بدلوه فى الدلاء ، وسجل
الواقعة موقعة على أوتار لفظية رقيقة ، وعبارات موسيقية عذبة ، فيها رنة الفرع
بالنصر على الأعداء ، ولحن الابتهاج بالظفر بهم ، ونصر الدين وحفظ البلاد . فما
هى ذى الرءوس تتراقص وأوتار القسى تتحرك مطربة ، والخيل تسبح لاتعلق

(١) مطالع البدور فى منازل السرور للغزولى - مخطوط - مكتبة الأزهر - ورقة رقم ١٢٩ ، ١٣٠
وفوات الوفيات ج ١ ص ١٠٩ وما بعدها فى ترجمة الظاهر بيبرس .

بذيوها هرج الصبا ، وإذا بأمواج الفرات تفاجأ ، فتحمل فوق متنها أمواجا ، وإذا
ببحر الخيل تقله مياه الأمطار — ماء النهر — وإذا الأعداء تتناثر أشلاؤهم وترش
الصعيد دماؤهم . ثم تبدأ المعركة فتتوافد إلى ميدانها الآساد والأطيار ، تقيم
أفراحها وأعراسها على آثار الأعداء ، وتتقدم المعازل والحصون ، مثنية على همة
المليك الذى حفظها ، وتعجل الناس إلى شكره لأنه منعها وحماها وعصمها .

يقول الشاعر مخاطبا الملك :

لما تراقصت الرؤوس وحركت	من مطربات قسيك الأوتار
خضت الفرات بسابح أقصى منى	هو الصبا من نعله الآثار
حملتك أمواج الفرات ومن رأى	بحرا سواك تقله الأمطار
وتقطعت فرقا ولم يك طودها	إذ ذاك إلا جيشك الجرار
رشت دماؤهم الصعيد فلم يطر	منهم على الجيش السعيد غبار
شكرت مساعيك المعازل والورى	والترب والآساد والأطيار
هذه منعت وهؤلاء حميتهم	وسقيت تلك وعمر ذى الإيثار ^(١)

ومن سجل الواقعة أيضا الشاعر ناصر الدين بن النقيب ومن أبياته :

ولما تراءينا الفرات بخيلنا سكرناه منا بالقوى والقوائم
فأوقفت التيار عن جريانه إلى حيث عدنا بالغنى والغنائم^(٢)

والشاعر موفق الدين عبد الله بن عمر المعروف بالوزان ومن أبياته :

الملك الظاهر سلطاننا نفديه بالمال وبالأهل
اقتحم الماء ليطفى به حرارة القلب من المغل^(٣)

(١) و(٢) و(٣) فوات الوفیات ج ١ ص ١٠٩ فى سياق ترجمة بئرس — وهناك شعراء آخرون ،
راجع زبدة الفكرة لبئرس الدوادارى ج ٩ ص ١١١ ، مصورة بمسكنة جامعة القاهرة .

موت بيهرس :

ومات الملك الظاهر بيهرس عام ٦٧٦ هـ - فرثاه ابن عبد الظاهر رثاء مرا ،
رثاء با كيا يدل على ما كان له به من صلة ، وما كان له عنده من مكانة . ثم يدل على
أنه بقي على مكانته من بعده لدى ولديه اللذين وليا الملك بالتعاقب ، وهما الملك
السعيد أبو المعالي محمد ، والملك العادل سيف الدين سلامش .

وقد رثاه ابن عبد الظاهر أكثر من مرثية ، فبكى عليه وتفجع لموته وأظمر
الحسرة واللوعة على فراقه ، وسجل الكثير من مآثره ، وفاض بالثناء عليه ، وأعاد
ذكرى أعماله المجيدة في سبيل الإسلام والمسلمين . ورد ذكر وقائعه مع الفرنجة
والتتار ، ومواقف الشجاعة والفروسية والعزم والحزم أثناء قتالهم . ويقول في
أول إحدى قصائد رثائه يتفجع :

ما مثل هذا الرزء قلب يحمل كلا ولا صبر جميل يحمل
الله أكبر إنها لمصيبة منها الرواسى خيفة تنزل .. الخ ،
وأخذ يذكر مآثره ومحامده ، فأراه مثل السهام ، وعزائم لا تقبل ...

لهفى على آرائه تلك التى مثل السهام إلى المصالح ترسل
لهفى على تلك العزائم كيف قد غفلت وكانت قبل ذا لا تغفل . الخ

ومن مرثيته هذه يذكر بعض مواقفه ويشيد بها ، يقول :

لله موقفه الذى فيه غدا للنصر يذهب حيث كل يذهل
وإذا التتار تألفت وتألبت فى مرج هوقى والكنائن تنبل (١)
حيث العدى قد أصبحت أجسادهم ما شاءت الفتكات فيها تفعل
فى كل رأس ضربة ما تنثنى حتى تعد بمنتهى الأرجل
وبكل صدر طعنة تحكى فما فيه الأسنان كالغور تكال

كم بالسهام لها سؤال قد بدا ولم بقتل أصبحت تتحلل
ويصل الشاعر ما بين مواقف بيرس والدين ، فيقول :

حيث الصفوف على الصفوف وماله عن موقف يرضى الخليفة معدل
والكفر قد بهتوا له إذ أبهروا حجباً عليه من الوقاية تسبل
وفي الأبيات الأربعة الآتية يعيد البكاء والتفجع ، ويبدى عذره في ذلك لما
كان له من مكانة عظيمة لدى بيرس وهو بذلك يرمى إلى تذكير ابنه الملك
السعيد بهذه المكانة حتى يستبقه فيها أو يرفعه إليها عنده . ويتهلل للملك القادم
ويستبشر ، جامعا بين ملائمت التهنئة والتعزية .

ولعل الشاعر الكبير جمال الدين بن نباتة قد تأثر به في هذا الفن فتماء ، وأطال
فيه في قصيدته البليغة التي رثى بها الملك المؤيد صاحب حماة ، وهنا فيها ابنه الملك
الأفضل بالملك . وهي قصيدته المشهورة التي مطلعها :

هنا محاذك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما
وإليك أبيات ابن عبد الظاهر قال :

أنا إن بكيت فإن عذرى واضح ولئن صبرت فإنني أتمثل
خلف السعيد لنا الشهيد فأدمع منهلة في أوجه تهمل
للناس من هذا ربيع آخر ومن الشهيد لهم ربيع أول
هذا إلى الرضوان راح وذاله من بيعة الرضوان حبل موصل^(١)
ويستمر الشاعر في تحسره على الراحل وتذكير خلفه بنفسه .

وردد ابن عبد الظاهر هذه المعاني في غير هذه المراثية . ويعاود ذكرى حروبه
ودفعه التتار والفرنجة فيقول :

هذا الذي قال الملوك لرعبه قل يا رسول وما عليك ملام

هذا الذى هزم التتار فأصبحوا تغتالهم عند الكرى الأحلام
هذا الذى قهر الفرنج فحكمهم تردىهم من رعبه الأوهام
تعست جياذ بعده قد أصبحت يسكى لها الإسراج والإلجام (١)

ثم يثنى الشاعر جيده إلى الملك السعيد فيستبشر به ويتفأل بمقدمه ، ويرجو
أن تعود أيام السرور على يديه ، وتلوح شمس العز بفضله ، إلى آخر هذه المرثية .
وأنت ترى أن قصارى ما حدثنا به الشاعر فى هذا الميدان ، ميدان السياسة
والصلة بالملوك والحكام ، وما يدور حولهم من أمور الحرب والقتال والضرب
والنزال ، والمساخطة والمدافعة ، مدائح ومراث تشيد بذكرهم وتخلد اسمهم وتسجل
محامدهم ، وأهاج موجهة إلى أعدائهم الذين هم فى الحق أعداء البلاد وأعداء
المسلمين والعرب .

والواقع أن كفاح أعداء المسلمين والعرب ، والدفاع عن بلادهم ، كان محور
سياسة السلاطين والشعب فى ذلك الزمان ، وهى السياسة التى وضعها الجميع
نصب أعينهم .

وفى سبيل ذلك رحبوا بالمسلمين الوافدين إليهم ، على اختلاف أجناسهم .
ورحبوا بمن جاء إليهم مسلماً مستأمناً .

لقد وفد إلى مصر فى عام ٦٦١ هـ ، جماعة كبيرة العدد من التتار الوثنيين ،
قل كانوا زهاء ألف نفس ، ومن بينهم طائفة من أعيانهم . فطلبوا الأمان
ورغبوا فى الإسلام .

فاحتفل بهم الظاهر بيبرس ، ورحب بهم وأنزلهم منزلاً رحباً ، ورتب لهم من
الرواتب ما يكفيهم .

وفي ذلك يقول القاضي محي الدين بن عبد الظاهر يخاطب بيبرس : -

يا مالك الدنيا الذي أضحي صلاحاً للأمم
يا من محاً بالعدل ما للظلم فينا من ظلم
يا من تساق له التنا ر غنيمة مثل الغنم
خافوا سيوفك إنها ستسوقهم نحو النقم
فأتوا لبابك كلهم يأوون منه إلى حرم
أمنوا به مما يخاف م من البلايا والسقم
جعلوا جنابك جنة ورأوا خيولك مستلم
بسطوا يميناً للهداية طالما خضبت بدم
أعطيتهم ما للملوك ففة القلوب من السقم
لازلت يا ملك الملوك لك الزمان من الخدم (١)

مع المنصور قلاوون :

وعلى هذا الغرار مضى ابن الظاهر في سياسياته وملوكياته، يمدح ويرثي ويسجل وقائع الحروب وأخبار الفتوح ويمس أمور السياسة مسافريقاً، لا يعمق ولا يطيل فيه .

واقداصل جبل ابن عبد الظاهر بالملك السعيد والملك العادل ابني بيبرس .
واسكن عهدهما لم يدم إلا ريثما استطاع الملك المنصور قلاوون أن يشب إلى العرش،
فاحتازه قسراً وحيلة ، وتمت له السلطنة وتربع على أريكته عام ٦٧٨ هـ . ومن ثم
اتصل جبل ابن عبد الظاهر به وصار من رجاله وكتابه ومنشئيه بل شاعريه .
واعتقادنا أنه تتبع فتوحات المنصور وغزواته وحروبه ، وأخذ كعادته ،
يسجلها ويصف أطوارها ووقائعها ، ويمدح ويهجو وفقاً لنهجه الذي رأيناه ، ويمس

السياسة بالمقدار الذى عرفناه ، ولو لم يبق من شعره هذا إلا القليل .
وقد كان المنصور قلاوون نمطا من بيمرس ، وثانيا له فى تأسيس دولة المماليك ،
بشجاعة فى الرأى والحيلة والسياسة ، وبقوة فى القتل والفتك ، وبتصميم وحرص
على الاحتفاظ بأملاك مصر خارج حدودها ، وبما تضمنه من أرض العرب
والمسلمين إلى سلطنتها الواسعة ، وبعزيمة ماضية وإرادة حازمة فى رد أعدائها عنها
وأعداء الدين من تتار وفرنجية .

لهذا ما عثم أن غزا بلاد الشام . وكان بها الأمير سنقر الأشقر ، الذى أعلن
بنفسه سلطانا عليها ، فما زال به حتى استسلم له ، وعادت بلاد الشام إلى السلطنة
المصرية خالصة . وأعد العدة للقاء التتار الذين أخذوا يهجمون على بلاد الشام ،
فغربوا مدينة حلب . فوثب عليهم قلاوون وشتت شملهم . وما زال بهم حتى
ارتدوا عن بلاد الشام مدحورين . وحاصر مدينة طرابلس أربعة وثلاثين يوما .
وكانت فى يد الفرنجة ، فانزعها منهم وأوقع بهم وخربها . ثم بنى على مقربة منها
مدينه طرابلس الحالية .

الاستيلاء على حمص :

وفى عام ٦٨٠ هـ وقعت موقعة رهيبه بين جيش مصر بقيادة قلاوون ، وجيوش
التتار أمام مدينة حمص ، استولى إثرها جيش مصر على المدينة بعد هزيمة
م ساحقة للتتار .

وقد عجل الشعراء ، فسجلوا الواقعة وأشادوا ببطوانتها ، وحملوا بأقلامهم
وبيانهم على التتار حملة صادقة . وكان فى مقدمة الشعراء محيى الدين بن عبد الظاهر .
فقال عن قلاوون ، والملائكة التى تنجده ، مشبها له بخالد بن الوليد :

لله فى حمص مقام قامه	والنار من بين الأسنة توهج
والناس قد فروا فلا ميث	والخلق قد هربوا فليس معرج
وهناك من نجد الملائك عصبه	جاءته للنصر المبين تروج

وهناك خالد قد أجار نزيله ونزبل خالد ليس ممن يزعج
فتنى العنان وما انتنى حتى بدا للدين من أمر الأعدى مخرج
ملك به ود العدى لو أنهم مما سبي أولادهم لم ينتجوا

ويمدحه مدحا محمسا فيقول :

والصبح لولا أنه من شهبه مافات ركض البرق منه مهملج
والليل لولا أنه من وهمه ما كان بالشهب الثواقب يسرج
والنصر لولا أنه من سيفه ما كان كرب في الوجود يفرج (١)

وقد أجاد وصف المعركة ووضح كثيرا من أطرافها ، الشاعر اللبق فتح الدين ابن محي الدين بن عبد الظاهر ، كاتب السر في عهد المنصور قلاوون . قال من مطلع قصيدة مخاطبا قلاوون :

الله أعطاك لا زيد ولا عمرو هذا العطاء وهذا الفتح والنصر
هذا المقام الذى لو لم تحل به لم يبق والله لا شام ولا مصر

ويتساءل تساؤل المؤكد المادح ، الذى يقرر حقيقة ، وإن بدت مدحا وثناء :

منذ الذى كان يلقي ذا العدو كذا أو يدرع لامة مالا مها الصبر (٢)
يأيها الملك المنصور قد كسرت جنودك المغل كسرا ماله جبر
ويذكر المغل وتجمعهم وتآلفهم مع الفرنجة الصليبيين ضد مصر ، وعدد جيوشهم ، والتقاء الجيشين وزمانه ، واستمرار القتال :

لما بغى جيش أبغا فى تجاسره ولن يمد له إلا القناجر
استجمع المغل والتكفور وانفقوا مع الفرنج ومن أردى به الكفر

(١) زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٨٢ . — وأوهج النار : أوقدها — والمهلج : المذل المنقاد .

(٢) لحن الشاعر فى البيت فخر المضارع المرفوع .

جاءت ثمانون ألفاً من بعوهم
 وافي الخميسان في يوم الخميس ضحى
 ولأرض حمص فكان البعث والنشر
 وامتدت الحرب حتى أذن العصر
 والسيف يركع والأعلام رافعة
 والخيول لا تغتدى إلا على جثث
 والسهل من أرؤس القتلى به وعرو الخ
 حتى يصل الشاعر إلى خاتمة هذه المعركة ، فيقول عن الأعداء :
 فكان أسلهم من أسلوه لأن يقوده القيد أو يسرى به الأسر .. الخ (١)

ونظم الشاعر المجيد ناصر الدين بن النقيب قصيدة بارعة في وصف المعركة ،
 تقع في نحو سبعين بيتاً . وهي مهللة مكبرة لما أصاب المسلمون من نصر ، وأصاب
 الكفر من اندحار . يقول في أولها :

هي النعمة العظمى هي النصر الكبرى
 هي المطلب الأسنى هي المنحة التي
 هي الوقعة الصماء والخطمة التي
 هي الفتك بالأعداء والظفر الذي
 هي اللفظ والمعنى هي البشر والبشرى
 لقد شرفت قدرا وقد عظمت ذكرا
 بها انكسر الكفر الذي لم يجد جبرا
 شفى القلب من أبغوا قدأثلج الصدر .. الخ
 ويشكر الشاعر الله جلّت قدرته على ما وهب من نصر ، ويمهد لمُدح قلاوون ،
 ويبين مكانته وبطولته فيقول :

فلله منا الحمد والشكر دائماً
 فقل لرؤوس المغل إن قلاونا
 هو الملك المنصور والله خاذل
 ويستعيد الشاعر بهذه المناسبة ذكريات الانتصارات السابقة على أعداء مصر
 والإسلام فيقول :

أنسيتم في عين جالوت ماجرى
 أما كان في عوم الفرات إليكم
 وفي العين قد أجرى دماءكم نهرا
 مقدمة الجيش الذي عبر البحر

وفي البيت السابق يشير إلى جيش مصر أيام الظاهر بيبرس ، حينما عبر
الفرات فقد كان يتقدمه الأمير قلاوون - حينذاك - وكان أول من ألقى بنفسه
في الماء على ظهر جواده ، فاندفع الجنود من خلفه . . .

واستمر الشاعر في حماسياته وذكرياته ووصفياته . ثم أخذ يربط بين بيبرس
وقلاوون . ومن أبيات الشاعر تترأى لنا وحدة الهدف بينهما ، بل وبين سلاطين
هذه الحقبة ، بل وبينهم وبين الشعب . يقول :

ومن مبلغ بيبرس أن قلاوونا حمى الشام من أعدائها وحمى مصر
سقى الله عهد الحى والميت منهما سخائب تكسو الأرض أردية خضرا
وحيا محيا طالع بعد غارب خلا لهم عن كل القلوب وقد سرا
وترى أن الشاعر قد ربط بين الشام ومصر ، فهما حينذاك يؤلفان وحدة
قوية ، ويأبى الشاعر إلا أن يفيض في شعره بما يتركز في نفسه ودماؤه من ضرورة
اكتمال الوحدة العربية ، وافتكاك البلاد العربية كافة من يد أعداء العرب ، فيضيف
بغداد إلى الشام ومصر ، ويفصح عن رجائها في أن يفتكها قلاوون من يد التتار .
فيقول :

وبغداد ترجو أن يسير لنحوها ويفتكها منهم بأسيافه قسرا . . الخ
ويذكر في الخاتمة مكة والمدينة ، ويبعث لهما بالتهنئة لهذا النصر ، وبذلك
تكتمل له وحدة شاملة واسعة ، بل وحدة كانت مكتملة . يقول :

فمن بهذا الفتح سكان مكة وهن به البيت المعظم والحجرا
وهن به من حل في أرض طيبة وسكانها بطنا وسكانها ظهرا .^(١)

ومن شارك في وصف المعركة الشاعر بدر الدين محمد بن عمر البزاز المنبجى .
وقد دار بمعانيه هذا المدار الذى شهدته من زملائه ، بحيث يقول في أول
قصيدته :

نشرت بنصرك للعلى أعـلام يامن تـفـاءل باسمه الإسلام^(١)
وسيلع هذا الشاعر وشعره في مناسبات قادمة . ويسدو أنه أحسن اتصاله
بآل قلاوون ، فصار أحد شعرائهم ومسجلى مفاخرهم .

ومما كان في يد الفرنجة « حصن المرقب » . قيل إنه مما عمره المسلمون بساحل
جبل بالشام ، وتكامل بناؤه في سنة ٥٤٥ هـ . ثم ما زال حتى اضطربت فيه الأمور
في نحو عام ٥١١ هـ ، فاستولى عليه الصليبيون بقيادة روجار صاحب انطاكية ،
فأخرج منه أهله ، وأسكن فيه الفرنجة والأرمن .

وكان حصنا منيعا حصينا كبيرا ، بنى فيه برج عظيم لا يرام لعلوه وصلابة
بناؤه . ولما استولى عليه الصليبيون ظل ذلك شجرا في حلق المسلمين ومصدرا
لألمهم وحزنهم ، كما كان الحصن ومن فيه من الأفاقيـن مصدر خوف وقلق للمسلمين ،
وبخاصة الذين يعيشون من حوله وعلى مقربة منه .

ولم يفتحه الملك صلاح الدين الأيوبي فيما فتح من بلاد الشام . وحاول الملك
الظاهر بيبرس استرداده ، فما استطاع ، بالرغم من أنه بذل الحيلة والقوة في
سبيل ذلك .

ثم استعد لفتحه الملك المنصور قلاوون ، فظل وهو بدمشق يعد العدة لذلك
ويجمع الجند ويكثر من جلب السلاح ويحشد الرأى والحيلة ويعيـء القوى دون
أن يعلم إنسان فيم استعداده ، ثم حاصره ثمانية وثلاثين يوما في أوائل عام ٦٨٤ هـ^(٢)
وما زال به وبأهله حتى استسلموا له وسلموا له الحصن والبرج ، وطردهم منه
إلى طرابلس . وكان ذلك النصر بشرى للمسلمين كافة وفتحا مينا كتبت به البشائر
إلى جميع الأقطار^(٣) .

(١) زبدة الفكرة ج ٩ ص ١٨٨ . وبه أبيات الشاعر .

(٢) راجع سلوك المقرئ ج ١ ص ٧٢٧ .

(٣) تشریف الأيام والعصور ص ٥٧٧ .

الشعر يسجل فتح حصن المرقب :

لقد شارك محي الدين بن عبد الظاهر ، فسجل هذا الحادث العظيم في شعره وفي أكثر من قصيدة ، وعلى النهج الذي رأيناه منه فيما مر في شعره عن يبيرس . وهذه بائنة عذبة رائقة مهللة ، مستبشرة تنبئ عن تجربة نفسية صادقة بدأها توا بالإشادة بفتح المنصور والدعوة إلى نشر أخبارها في سائر الأمصار ، وتوقع منه فتوحات أخرى جديدة ، وسماه أبا الفتح . يقول :

كم لك فتح غير هذا خبي	فاستوع فتوح الأرض واستوعب
وابشر وبشر وإلى سائر الآ	مصار فاكتب عنك واستكتب
وخلق المكتب كأسوارها	بأصفر من رنكك الذهب
لا تحسب النصره هذى وخذ	ماشتته من بعدها واحسب
أنت أبو الفتح وكم بعدها	يقول فتح إن هذا أبى

ثم أخذ يناديه نداء المعجب المتعجب المادح الذى لا يرى أن القول يسعفه دون أن يرفع الصوت ويدوى به ، كأنما ينشر هذه المحامد فى الآفاق وفى أسماع الناس ، فيقول له ويذكر المرقب :

يا ملك الأرض الذى عزمه	قد سهل المرقى إلى المرقب
يا من له الرعب الذى قد غدا	يملاً من شرق إلى مغرب
يا وارث الأرض الذى مذ بدا	مطلبه بالحق لم يحجب
يا من له الجيش الذى ما لمن	يطلبه فى الأرض من مهرب
يا هازم التاتار يا من له	قالوا وهم سيكون للندب

فما ذ قال التاتار للندب وهم سيكون ويستبكون ؟ قالوا إن « هلاون » وهو « هولاكو » زعيم التتار الفاجر الذى أسقط بغداد من قبل ، وكان هو وجيشه قوة لا تغلب ، قالوا إن هلاون هذا سباه المنصور وخوفه أكثر من مرة ، فى شخص زعماء التتار الذين جاءوا من بعده ، ومنهم آبغا ومنكو وغيرهما . . . ومن مات

منهم إنما مات من الخوف ، ومن عاش منهم إنما اختبأ من الرعب ، يقول :

قللون المنصور كم مرة هلاون المفهور منه سبي
في مثل آبغا ومنكرو وفي أحمد في أرغون في حشكب (١)
من مات منهم مات من خوفه ومن بقى من رعبه مختبى

ثم يعود ابن عبد الظاهر إلى نداء المنصور باعتباره فاتح هذا الحصن الحصين الذي كان فتحه أمل المسلمين . وذلك النداء تمهيد لطيف لوصف الحصن فيقول في تشبيهات طلية :

يا فاتح الحصن الذي فتحه يأتي به شكرك من يثرب
حصن عظيم القدر في سيرة لمن مضى قبلك لم يكتب
إذا بدا والغيم من حولة تقول : نجم لاح في غيب
وإن تلح للعين أبراجه يقال : هذا موكب السكوكب

ثم أخذ يذكر الحرب ويصف بعض ما كان لها من استعداد ، وما أعقبته من نصر ، وما تخللها من ظاهرات ، قال :

أنشبت حربا فيه كم رامها قبلك سلطان فلم تنشب
مذ رحمت منه تمتطي صهوة لم يبق حصن ثم لم يجنب
أخذت حق الدين من بعد ما مضت سنون وهو لم يطلب
وذات خطوكم لها وثبة عظيمة المسرى إلى المسرب
قد سقتها غابا وآسادهما تحملها في ضيق المذهب
كم نصب الأعداء من هول ما رأوه منها وهي لم تنصب
وكم لها قالوا وقد ركبت أى حصين بك لم يخرب
كأنما الأعناق أمست لها منابت الأملد والأرطب
وكم نقوب فيه صيرتها مهالك تأتيك بالمطلب

أيكارها ما افتضها معول إلا انثنت كالحامل المقرب
ثم أخذ يهنئه ويبشره ويتفائل له ويدعو ، فيقول :

فأهنا بفخر منه قد حزته أخباره من طيها تطي
وليس حصن بعدها مانع في الأبعد النائي وفي الأقرب
واعلم بأن السعد قد قال ذا وقال نصر الله بالموجب (١)

واهتدم ابن عبد الظاهر - على حد قوله - جملة من مقصورة ابن دريد (٢)،
وهي الرجزية التي مدح بها ابن دريد الشاه ابن ميكال وولديه ومطلعهما :
أما ترى رأسي حاكى لونه طرة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جزل الغضى
فحول ابن عبد الظاهر هذه الجملة التي اهتدمها - سرقها أو ضمنها - في
قصيدة له رجزية ، إلى مدح الملك المنصور وذكر مناقبه وفتح هذا الحصن وهو
« حصن المرقب »

والاهتدام في رأينا - في هذا المقام - لون من الصناعة يدل على أن الشاعر
ذو موهبة فنية مجدة مبتكرة . فليس من اليسير تحويل جملة من الأشطر في
قصيدة واحدة من طريقها إلى طريق جديد ، إن ذلك يتطلب حنكة وخبرة
وكياسة في الملاءمة بين الأشطر ومناسبتها الجديدة .

وهكذا أبى ابن عبد الظاهر إلا أن يبتدع في سياسياته أو ملوكياته - على
حد تعبيرنا - التي ترجحت بين ذكر أحداث السياسة ووقائع الحروب وما تستتبعه
من مدح أو هجاء أو حماسة دينية . أو تسوق إليه من زهو ونخر ، أو ما تقتضيه

(١) نثر في الأيام والعصور ص ٨٢ - وجنبه بجنبه : دفعه وكسر جنبه وأبعده - وأقرب
الحامل : قرب ولادها فهي مقرب - وطباء طبوا : دعاه كاطباء - والقول بالموجب : نوع من البديع ،
ويقال له أيضا : أسلوب الحكيم - وله تعاريف عدة ، ومنها مخاطبة المتكلم بكلام عكس كلامه ، مع
بنائه على أحد ألفاظه - والأدهم : القيد والفرس ،

(٢) أبو بكر بن دريد توفي عام ٣٢١ هـ .

من تهنة واستبشار . وكل هذه المعاني السكينة - أو الأغراض إذا شئت -
تنظمها عاطفة واحدة ، وتسوقها تجربة نفسية واحدة . مما يدل دلالة أكيدة
على صدق الشاعر ، وأنه يصدر في شعره هذا عن إيمان بما يقول ، وعن امتزاج
نفسى تام بالموضوع الذى ينظم نواحيه ويصور أطرافه .

وفى رجزيته تلك يبدأ ببدءاته المنصور - أو صرخاته إذا شئت -
صرخات الذى يريد أن يسمع الزمان ويملا من الدنيا الآذان ، على نمط مما رأيت
فيقول له :

يا شاهرا سيف انتصار قد حكى	طرة صبح تحت أذيال الدجى
ومشعلا نيرانه فى كفرهم	مثل اشتعال النار فى جزل الغضى
وأض يابساً روضهم بجيشه	من بعد ما قد كان مجاج الثرى
وقاذفا ملوكهم فى هوة	لاستقبل نفس من فيها هوى
ومن جرى أبغاله إلى مدى	فاعتاقه حمامه دون المدى
واستنزل الأعداء قسرا وهى من	عقاب لوج الجوى أعلى مستمى
ومن له الخيل التى قد أصبحت	ناشرة أكبادها قب السكى
يحملن كل شمرى باسل	شهم الجنان خائض بحر الوغى
لو مثل الحتف له قرنا لما	صدته عنه هيبة ولا انثنى
ولو حى المقدار عنه مهجة	لرامها أو يستبيح ما حى
والناس ألف منهم كواحد	وواحد كالآلف إن أمر عنى

وأخذ يخوض فى مدحه ويذكر انتصاراته على أعدائه ويسجل بعض فتوحاته ،
ومنها فتح حصن المرقب . قال :

قلاون الملك الذى سما به	قوم هم للناس غيث وجرى
هذا الذى مازال يسمو للعلا	بفعله حتى علا على العلا

لو كان يرقى أحد بوجوده ومجده إلى السماء لارتقى
 كم للتتار كسرة بسيفه فيها العمى أولى بهم من الهدى
 قد أصبحت سيرته جميعها فيها حديث حسن لمن وعى
 كم قال يوما للعدى حسامه أنا لذى الداء الدفين كالدوا
 كم قلعة من مثل صهيون ومن برزته فض لها صلد الصفا؟
 ومرقب مخلوق أرجاؤه مستصعب الآفاق وعر المرتقى
 أوفاه والشمس تمج ريقها والظل من تحت الحذاء كالحدا
 وكم له من بعدها من نصرة يعرق أعداء بها عرق المدى
 لازالت الأقدار تحمي ملكه من حيث لا يدري ومن حيث درى
 تغدو المنايا طائعات أمره ترضى الذى يرضى وتأبى ما أبى^(١)

وفاة قلاوون :

ونواصل الحديث عن ابن عبد الظاهر ونتاجه الشعرى بوحى من البيئة السياسية ، بمرثية حسنة ، رثى بها هذا الملك المنصور ، تقع فى نحو ٥٣ بيتاً من الشعر الجيد .

إن نغمة الحزن العميق والاهفة الأصلية ، تبدو فى هذه القصيدة ، وتترامى فى كل بيت من أبيانها على وجه التقريب ، لا تكاد ترى بيتاً من بينها لا ينبض بهذه النغمة أو يفيض بهذه اللفظة .

ولقد أجمل ابن عبد الظاهر أعمال هذا الملك وتحدث عنها ، ونفسه تشغلها هذه النغمة واللفظة . ولعل هذا الصدق فى الإحساس ، هو الذى شغله أيضاً عن أن يكون شاعراً حكماً وهو فى مقام الرثاء . شاعراً حكماً يستخلص العبرة من سياق الحوادث ، ويرسل العبارة عنها عامة شاملة .

(١) تشرىف الأيام والعصور ص ٨٣ .

لقد بدأ قصيدته ، وتحسبه في بدئه حكيماً ، فقد تحدث عن الموت والمقدور ، وأنه لا تنجى منه حماية ولا حذر ، ولا تنفع معه شفاعاة ولا فدية . وهذه المعاني عامة يرددها الناس والشعراء ، ولم يرسلها ابن عبد الظاهر عامة شاملة . فقد ضيق نطاقها بذكر المنصور قلاوون وهو جد معذور إذ أن نفسه مشغولة بحادث مرض هذا الملك ووفاته ، أكثر مما هي مشغولة بتصيد الحكمة أو تلبس المثل . وماذا حول الملك من أمور ووسائل وما هي ملايسات حياته ؟ إنها المعازل والحصون والمدائن والثغور والخيول والجيوش والأموال والذخائر والأسلحة والحديد والمنشآت وغير ذلك ، مما سيطر عليه الملك وقدر ، ونهى فيه وأمر .

لقد جمعها ابن عبد الظاهر وتابع ذكرها في مفتتح قصيدته ، اسكل منها بيت أو أكثر أو أقل . وبين أنها لا قيمة لها إزاء المقدور وقت نزوله ، ولو كان إنسان يفدى من القدر لكانت هذه كلها فدية للمنصور . لقد بدأ ابن عبد الظاهر قصيدته بهذا البيت الذى يحتوى على ما يشبه المعنى العام فبدأ أشبه بالحكمة فيقول :

لو تحامى ذا قدرة مقدور كان يحمى قلاوون المنصور
ثم تابع ذكر ما كان يسيطر عليه هذا الملك ، وبين أنه لم يستطع حمايته من الموت . قال بعد بيته الأول :

وحمته معازل وحصون	وحمته مدائن وثغور
وحماه من خيله كل طرف	كل طرف إذا رآه حسير
وحماه من جيشه كل شهم	كل سهم عن مرتماه قصير
كل ألف للحرب يقدم ألفاً	حبذا الجار منه والمجرور
وفداه من ماله كل مالو	كان ماء لقيلى هذى البحور
وفدته مراكم كن لولا	ه تولى خرابهن الكفور

وأنت تراه - على وجه التقريب - لا يذكر شيئاً من المعازل والحصون وغيرها ألا شفعه غالباً بوصف يشعر بقوة أو ميزة . فكل طرف من خيله يرتد

عنه البصر حسيراً ، وكل شهم في جيشه لا يبلغ السهم مرتماه وهكذا . وكان الشاعر يريد بذلك وصف هذه الأدوات والوسائل والملايسات التي عاش بها الملك أو أنشأها وصنعها . وهو مدح ضمنى للملك نفسه . يقول الشاعر من قصيدته على هذا الغرار :

وله من كتائب الكتب جيش منه تسطو على الصفوف السطور
ما حماه هذا ولا ذا ولا ذا كوجاءت بعد الأمور أمور
بعد أن أرسل العنان وقالت عكة إنتى إلى المصير

وكان المنصور قد بلغه عبث الفرنجة بعكا ومسليها ، فأهمه الأمر وأثاره الخبر ، وجمع لهم كيده ليأتيهم ، وحشد جيشه وسلاحه ليؤدبهم ويفتحها . وعول على المسير في شوال عام ٦٨٩ هـ . فأدركه المرض وأقعه عن المسير ، وكان مرضه هذا مرض الموت الذي وافاه في ذى العقدة .

وإلى هذا يشير ابن عبد الظاهر بيته الذي ذكر فيه عكة . والذي يقول بعده يصف استعداد المنصور للمسير إليها :

وتهادت إلى البلاد جنود كل سهل على سواها عسير
والمجانيق في الجبال تهادى كغياض على الرقاب تسير
قد بكأها الحماح حزنا على قطع غصون له بهن وكور
والطريف أن الشاعر في وصفه وفي تسجيله لأنواع معدات المنصور ، من حديد وسيوف وقنا وخيول وغير ذلك ، يلبسها ثوب الحزن والتفجع لوفاته . فالحديد ذاب قلبه ، والسيوف ثائرة ، والخيام كالقبور ، وصهيل الخيول نواح ، إلى غير ذلك . والشاعر في هذا يعكس شعوره هو ويخلع أحاسيسه على غيره . وفي سبيل ذلك يعقل ما لا يعقل أو يشخص ، فيبعث الحياة أو الحركة أو الإرادة في الجماد أو الحيوان . . . يقول :

والحديد استغاث مما شجاه من تلمظ وقال مالى عذير

ذاب قلبي ولم أخل قط أنى بعد داود ذا المصير أصبر
والمنايا تقول للحزم والعز م رويدا لا بد أنى أزور
فأنت والسيوف لم يبق إلا أنها من غمودها ستشور
والقنا أرسلت لها عذبات خاف من عظم فأهز الحذور
والخيام اغتدت من الحزن والشكل تراها كأنهن قبور
وصهيل الخيول يحكي نواحا والبواكي في كل دار تدور
قائلات خابت لغزو ظنون فالعدى للنذير منها ندور
أودعتها عزيمة صار منها للتهادى إلى الأعدى فتور
وظهور تنوء منه ظهور وصدور تغتم منه صدور
ثم طفق الشاعر يصف أحاسيس الناس إزاء هذا الحادث الجلل ، ويرسم
مشاعرهم ويصورها فقال :

كم قلوب لما تمرض قالت إن هذى الآمال فيها فطور
أم ترى الأرض قد بها خسف الله تعالى بالخلق فهي تمور
وتمنى كل امرئ لو يوافيه م نصيب من سقمه موفور
قد تجافاه عائدوه وقالوا أذيا مالنا إليه عبور
كيف لا وهو في جنان خيام وخيام الجنان فيها الحور
واغتدوا خيفة عليه ومنه لا أمير يرنو ولا مأمور
لم يزل سقمه يزيد وشكوا ه تنادى أن الحياة غرور
فأناه ما يذهل العقل واللب لديه ومنه يعمى البصير
وباغتضار له ملائكة الرحمة والعفو والقبول حضور

ثم عاد الشاعر إلى تفجعه . وصب ذلك في شكل أسئلة تعجبية ، فيها التحسر
والحزن وفيها العبرة والعظة . وصب هذه الأسئلة عن المتوفى نفسه ، الذى كان
له الملك وكان منه العدل والبر ، وكان منه القوة والشجاعة ، وكان منه هزيمة التتار
والفرنجية في حمص والمرقب وطرابلس وغيرها .

وهكذا انساب الشاعر ، وهو في ثوب حزنه ، يعدد محامد سلطانه من جديد ،
فيقول على لسان المنايا :

والمنايا تقول أين كان مجير إذا الزمان يحور
أين من كان ملكه يملأ الآر ض فكم منبر له وسرير
أين من كان عدله يكشف الظلم م ومنه داجى الظلام ينير
أين من شرد التتار بحمص فإلى اليوم جيشهم مكسور
وله المرقب استكان ولولا ه تغالت لابل تعالت صخور
والذى ذل فى طرابلس الكفر بعزله ونعم النصير

ووقف الشاعر وقفة محمودة عند ما بلغ إلى طرابلس ، التى عاشت فى أيدي
الفرنجة زمناً^(١) وعانى المسلمون من وراء ذلك عنتاً وألماً شديداً . لقد أبى
براع الشاعر إلا التصوير والرسم ، وألا الوقوف بجوار طرابلس بخياله البارع
فاستخضر ماضيها وحاضرها ، وصورها مزودين بوقائع التاريخ والحرب ،
فقال :

بعد أن خيمت بحار لديها وعليها جب لها مزور
وتسامت على ملوك سواه وهى من دونهم إليه تشير
حكمته يد السعادة فيها فأتاها من البلاء ثبور... الخ^(٢)
ثم عاد إلى المديح الممزوج بالتفجع ، وهو فى طريق الختام . . .

فى عصر الأشرف خليل :

وولى السلطنة الأشرف خليل بن قلاوون عام ٦٨٩ هـ بعد موت أبيه المنصور.

(١) افتتح الملك المنصور قلاوون مدينة طرابلس الصليبية عنوة بعد حصار دام ٣٤ يوماً ، وبعد
رميها بالجنايق . وكان بالساحل لنجدتها أربع سفائن حربية مجهزة أرساها ملك قبرص حينذاك . وكان
سقوطها فى ٤ ربيع الآخر عام ٦٨٨ هـ راجع سلوك المقريرى ج ١ ص ٧٤٦ ، ٧٤٧ .
(٢) تشرىف الأيام والعصور ص ١٨٠ .

واستمر في السلطنة إلى عام ٦٩٣ هـ . وكان غاشما مستبدا . اشتط في القبض على الأمراء وغيرهم وسجنهم أو خنقهم . فآدى ذلك إلى خنقهم عليه ومقاومتهم له ، حتى قتلوه قتلة شنيعة .

ولكن قد تم في أيامه وعلى يده . أعمال جليلة وفتوحات عظيمة ، ومنها فتح « عكا » التي عجز عن فتحها من سبقه من السلاطين . وكان أبوه المنصور فلاوون قد أعد العدة لفتحها ، فعاقه الموت عن ذلك - كما أشرنا . وقد فتحها الأشرف بعد رميها بالمنجانيق وهدم سورها وقلعتها . وكذلك فتح بيروت وقلعة الروم وغيرها من البلاد والمواضع التي كانت في أيدي الصليبيين .

هدية سياسية .

وكان متملك دنقلة وبلاد النوبة ، قد آخر إرسال بعض المقررات عليه ، معتذرا بخراب حل ببلاده ، فلم يقبل الأشرف منه عذره وأذره . فأرسل إلى الأشرف أخاه ويسمى « البرسى » ، ومعه فارس الدولة « جريس النوبى » . ومعهما « مطالعة » مضمونها طلب الرحمة واستمطار العفو وقبول العذر واستعطاف الخاطر الشريف . . . ومع الرسولين هدية قيمة وهى : « مائتا رقيق ، ومائتان من الجمال والهجى . ومائتا أردب من التمر ومائة وعشرون قنطارا من الشب ، وألف وخمسمائة رطل من السنباذج ، وأربعة من الأسود والفهود . إلى غير ذلك . (١) »

وكان ذلك فى صفر عام ٦٩٠ هـ . فقبل السلطان الهدية وأكرم الرسولين . وسجل الشاعر محي الدين بن عبد الظاهر هذه الزيارة بأبيات يشير فيها إلى إطاعة الأسود والأحمر للسلطان . وإلى سطوته على بلاد النوبة ، ونوه ببعض الهدايا التي أهديت إليه ، قال يخاطب السلطان :

(١) راجع « الألفاظ الخفية » ص ٣٩ وما بعدها ، والسنباذج بضم السين وسكون النون وفتح الذال حجر يحلوه به الصيقل السيوف .

أطاعك الأسود والأحمر
والدهر في حكمك تصريفه
قد خافت النوبة من نوبه
ما سودت أوجههم إذ هم
ومنها: - وكم هجين أصهب أرسلوا
وكل فهد كاسر جاسر
نقطه البدر بأنواره
لازلت يا خير ملوك الورى
وكل جنس طائعا يلتجى

فالملك يزهر بك بل يزهر
يطيع ما تنهى وما تأمر
أخرى عليهم منك تستنفر
قد يعضوها بالذى سيروا
كالسهم أو كالبرق إذ يخطر
من عين أفعى أبدا ينظر
دارهما من فوقه تنشر
بسيفك الإسلام يستنصر
لبابك المعمور بل يحشر (١)

لعب الشوانى: (٢)

واهتم الأشرف خليل ببناء «الشوانى» - وهى السفن الحربية - . وقد وصفها
الشاعر المنشئ محي الدين بن عبد الظاهر فى مقالة طويلة وصفا أدبيا متمعا .
وقامت «الشوانى» المذكورة بالألعاب استعراضية «مناورة» فى صفر عام ١٢٩١هـ .
وبدت فى أبهى زينة وركبت فيها المجانيق وقلاع الأخشاب والبندول والأبراج ،
واكتملت بها أدوات القتال وتجمع فوقها الجنود . وعرضت على أنظار الأشرف
خليل - الذى وقف على جانب من البحر قرب اللوق . فقال الشاعر مسجلا
الحادث مبدئا أهمية هذا الاستعداد :

أيا ملوكا أمسى له الله كاليا وشرف أياما له ولياليا
ومن جهز الجيشين فى طلب العسدى بهر وبهر جحفا وشوانيا
بجيش به ضاق الفضاء وآخر له أصبح البحر المحيط سواقيا
ففى ذا على اسم الله تركب موكبا وفى ذا على اسم الله تركب غازيا

(١) المرجع نفسه ، «الألطف الحفية» .

(٢) الشوانى كلمة أطلقت على السفن الحربية .

ويبين الشاعر أن هذا الاستعداد الضخم إنما هو في سبيل الله وفي سبيل دينه،
وفي مناهضة الكفار :

سددت ثغور الدين حتى كأنما بك الله قد شد الذي كان واهيا
وأقدمت حتى أصبح الكفر كلهم وكل امرئ منهم يقول: ورائيا
وأعلنت بالإيمان حتى نذيرهم يقول لهم إنا سمعنا مناديا
غزوتهم فالله يبقيك كافلا لنصر ويبقى الله عونك كافيا
بشهب ولا ترضى الرياح أعنة ودهم ولا ترضى الرواسي مراسيا

ويشير الشاعر إلى جزيرة قبرص التي اتخذ منها الفرنجة قاعدة بحرية
يتجمعون فيها ، ويعثون منها عصا باتهم ولصوصهم في سفن بحرية للإغارة
على شواطئ الشام ومصر آمنين دون أن تردهم سفن مصرية مقاتلة ترصد لهم
ونرد عاديتهم . يشير الشاعر إلى ذلك ويتوعد قائلا ، وكأنه يصور معركة قادمة :

فقل لبني الإفرنج ما قبرص لكم بحصن وليس اليم أن أم واقيا
ستأتكم هذه الشواني جواريا وكل غلام سوف يسبي جواريا
على كل طرف ساج ليس يرتضى بخوض ولو كان السماء مجاريا
إذا أقبلت هذى وتلك ترى لها بهر وبجر عاديا ومعاديا ... الخ (١)

فتيح عكا :

ومن طريف ما رواه المقرئ قوله إنه روى عن شرف الدين البوصيري
أنه رأى مناما قبل أن يخرج الأشرف خليل إلى عكا وفيه أن قائلا ينشد
هذه الأبيات :

قد أخذ المسلمون عكا وأشبعوا الكافرين صكا
وساق سلطاننا إليهم خيلا تدك الجبال دكا
وأقسم الترك منذ سارت لا تتركوا للفرنج ملكا

فأخبر البوصيرى بذلك جماعة من أحبابه (١)
أفلا يعتبر هذا ضرباً من الإيحاء والتوجيه ، وتصويراً لآمال النفوس
وهو اجسماً ، وحفزاً إلى تحقيقها .

وقد كان خروج السلطان الأشرف خليل لفتح عكا في ربيع الأول عام
٦٩٠ هـ . فنصبت حولها المجانيق وعدتها اثنان وتسعون منجنيقا . ووقع الحصار .
وأنت جموع الفرقة إليها أرسالا من البحر . وألح الجيش المصرى على أسوارها
فتمسكها . وما زال بها حتى انهارت وعلت فوقها رايات الإسلام . واقتحمها جنود
مصر بعد أن استعصت زمنا طويلا على ملوكها ، وهرب الفرقة في البحر ،
وهلك منهم كثير ، وأسر منهم وغنم ما لا يحصى ، وأخذ منهم كثير من النساء
والصبيان . وكانت مدة حصارها أربعة وأربعين يوما (٢)

وعاد الأشرف خليل إلى القاهرة في ٢٠ شعبان عام ٦٩٠ هـ — وكان عبوره
إلى القاهرة من باب النصر . وقد زينت القاهرة زينة عظيمة . فعندما حاذى باب
المارستان نزل إلى القبة المنصورية ، وقد غصت بالقصاة والأعيان والقراء والمشايخ
والفقهاء . فتلقوه كلهم بالدعاء حتى جلس . فأخذ القراء في القراءة .

وقام نجم الدين محمد بن فتح الدين محمد بن عبد الله بن مهمل بن غياث بن
نصر ، المعروف بابن العنبرى الواعظ . وصعد منبرا نصب له ، فجلس عليه .
وافتح ينشد قصيدة تشتمل على ذكر الجهاد ، وما فيه من الأجر . فلم يسعد فيها
بحظ . وذلك أنه افتتحها بقوله :

زر والديك وقف على قبريهما فكأ ننى بك قد نقلت إليهما

فعندما سمع الأشرف هذا البيت تطير منه ونهض قائما ، وهو يسب
الأمير بيدرا نائب السلطنة أشدة حنقه . وقال : ما وجد هذا شيئا يقوله سوى
هذا البيت؟

(١) سلوك المقرزى ج ١ ص ٧٦٦ حوادث عام ٩٦٠ هـ ،

(٢) السلوك ج ١ ص ٧٦٤ ، ٧٦٥ .

فأخذ يبدرا في تسكين حنقه والاعتذار له عن ابن العنبري ، بأنه قد انفرد في هذا الوقت بحسن الوعظ والانتظير له فيه ، إلا أنه لم يرزق سعادة في هذا الوقت ،

فلم يصغ السلطان إلى قوله وسار . فانفض المجلس على غير شيء (١)

وقد عجل الشعراء إلى تسجيل حادث هذا الفتح العظيم . ومنهم الشاعر الأديب ابن ضامن الضبيع . فقال يعزى دمي عكا ويتندر عليها :
أدمى السكنائس إن تكن عبثت بكم أيدى الليالى أو تغير حال
فلطالما سجدت لسكن فوارس شمم الأنوف ججاج أبطال
فعزاء عن هذا المصاب فإنه يوم بيوم والحروب سجال
هذا بذاك ولا نغير دهرنا واسكل دهر دولة ورجال (٢)

وقد كان فتح عكا ضربة قاضية أصابت الصليبيين في الصميم ، فترنحوا تحتها وضعفوا ، وملاً الحزن قلوبهم بل وتوارثت أجيالهم — على ما يبدو — هذا الحزن ، حتى وقتنا هذا . يدل ذلك ما قاله السير ولیم مویر في كتابه : « تاريخ دولة المماليك » ، عن الأشرف خليل ، بمناسبة فتح عكا وما بعدها من قلاع الصليبيين ، قال : « ولا يعزب عن بالنا ، أن الضربة القاتلة التي قضت على جنود الصليب كانت بيد رجل وضع الخلق كثيراً ، وهو السلطان خليل » (٣) .
ولعل المؤرخ يشير بذلك إلى أن الأشرف كان يقتل الأمراء ويشرب الخمر في رمضان ويفسق (٤) ولسكننا نقول له : لا يقل الحديد إلا الحديد ، والوضاعة لا تقلل من أهمية النصر .

(١) خطط المقریزی ج ٤ ص ٢٢٠ تحت عنوان : القبة المنصورية .

(٢) سلوک المقریزی حوادث عام ٦٩٠ ج ١ ص ٧٦٧ .

(٣) دولة المماليك البحرية للسير ولیم مویر ترجمة محمود عابدين وسليم حسن .

(٤) راجع سلوک المقریزی ج ١ ص ٧٩٢ .

الشهاب محمود الحلبي يسجل فتح عكا :

ويبرز في هذه الآونة ، وفي هذا الميدان الشاعر القدير أبو الثناء شهاب الدين محمود الحلبي ، فيسجل هذا الفتح المبين في قصيدة بارعة جيدة جزلة في نحو ٦٣ بيتاً ، قيل عنها - في إبانها - « البائية المشهورة »^(١) . وهو دليل على أنها سارت مع الركبان ، وتحدث بها كثير من بني الإنسان . وكأني به يعارض بها بائية أبي تمام في فتح عمورية .

ويطالعنا البيت الأول منها بخلاصة واضحة محددة للقضايا المصرية المعاصرة حينذاك ، وتصوير للمشاعر العامة الجارفة المشتركة ، ولمدى الامتزاج السياسي بين الشعب وحكامه الأتراك حينذاك ، ورضا الشعب عن أهداف هؤلاء الحكام التي هي أهدافه قبل أن تكون أهدافهم ، وغاياته قبل أن تصبح غايتهم ، وما هم إلا طارئون عليه وهو باق ، ومارون به وهو خالد .

هذه الأهداف والغايات التي قوامها الدين الواحد وعروبة المشاعر والمصلحة المشتركة ، والتي ترمي إلى حفظ بلاد العرب وحماية بلاد المسلمين ورعاية الدين ، ودرء أعدائهم عنهم في شتى بقاع العروبة والإسلام .

والشاعر في مطلع قصيدته هذه بارع الاستهلال قوى الدلالة على أغراض القصيدة ومراميها ، بل على أهداف الحرب والغاية منها . فهو يقول :

الحمد لله ذلت دولة الصلب وعز بالترك دين المصطفى العربي

ونزعة الإسلام تتبدى في قوله « الحمد لله » وقوله « دين المصطفى » . والمشاعر المشتركة تبدو في قوله « عز بالترك دين المصطفى العربي » ، وهي موجهة إلى حماية بلاد المسلمين والعرب من « دولة الصلب » .

وفي البيت دلالة على أن حرباً قامت شنها الأتراك حكام البلاد دفاعاً عنها

(٣) فوات الوفيات ج ١ ص ١٩٦ في سباق ترجمة الأشرف خليل .

وعن أهلها وعن دينها الذى هو دينهم . وأن هذه الحرب كانت ضد الصليبيين ،
وأن نتيجتها كانت الظفر والانتصار . هذا كله يستأهل إعلان الحمد لله وشكره
على ما أولاه .

وترى الشاعر فى البيتين التالين للمطلع يفصح عن هذا الإجمال فيه ويفصل
بعض التفصيل ، فيذكر أن الآمال كانت متعلقة بهذا الفتح وكانت النفوس تتمناه
وتشرب إليه ، ولاكنها لم تكن تتوقعه وتترقب حدوثه على هذا النحو الباهر ،
ولم يكن يقع فى حدس أحد ولا ظنه ، ولو أن الآمال طلبت أن ترى ذلك محققا
فى المنام ، لاستحيت من الطلب لبعده وصعوبة تنفيذه .

هذا الفتح هو فتح عكا . يذكر الشاعر هذا فى بيته الثالث . يعلنه فيحدد
موضعه ثم يجعل تفاصيل الواقعة مع نتائجها فى البيت نفسه .

يقول الشاعر :

هذا الذى كانت الآمال لو طلبت رؤياه فى النوم لاستحيت من الطلب
ما بعد عكا وقد هدت قواعدها فى البحر للشرك عند البر من أرب
ويجمع الشاعر بعد ذلك بين ماضى « عكا » وحاضرها . بين ماضيها الذى كانت
تعانى فيه من الصليبيين ، ويعانى العرب والمسلمون فيه ما يعانون من اغتصابها
وبعدها عن الوطن العربى الكبير ، وبين حاضرها وقد أصبحت فى يد المسلمين
وأن هذا مؤذن بزوال الصليبية ومؤد إلى هربهم إنجاء لهم والكفرهم . فيقول
واصفا لها بأنها « عقيلة » ، ويقول ذلك دلالة على منعها وأصالها وعزتها :

عقيلة ذهبت أيدى الخطوب بها دهرها وشدت عليها كف مغتصب
لم يبق من بعدها للكفر مذخرت فى البحر والبحر ما ينجى سوى الهرب
وعاد إلى ذكرها أملا بعيدا لم يدر فى الفكر ، أو الفكر فيه ضرب من ضروب
العجب :

كانت تخيلنا آمالنا فنرى أن التفكير فيها غاية العجب
والشاعر في البيت المذكور لا يؤخذ بالتكرار - أى تكرار المعنى - وإنما
ذلك فطرة في حديث النفس المتلهفة والعاطفة المتشوفة ، تردد المعنى المركز في
طواياها مرة بعد مرة ، لتعلنه ولتؤكد ، ولأنه - أولاً وقبل هذا - هو الذى
كان يشغلها ويشغل فراغها وتأملاتها ، فلا مناص لها من تكراره وترديد ذكره ،
كما تكرر في النفس وتردد ذكره في ضميرها .

وخاض الشاعر غمار المعركة وجاب أطرافها ، وصور جوانبها ورسم الكثير
من زواياها ، وألم بوقائعها . وها هو ذا يقترب من المدينة المحصنة والقلعة المنيعة ،
فيرى من حولها سورين داراً من حولها يحصنانه ويمنعان ساحاتها . فسور من
البر ، وسور من البحر . وأقيمت صفاح هناك حولها أكم من الرماح وأبراج من
اليلب ترمى بصواعقها من النبل ، وكأن هذه الأبراج وهى ترمى من بجانبها لها ،
غمام تبعث الصواعق من النبل ، وترمى الأرض بالشهب :

أما الحروب فكم قد أنشأت فتناً	شباب الوليد بها هولا ولم تشب
سوران بر وبحر حول ساحتها	داراً وأدناها أنأى من العطب
مصفتح بصفاح حولها أكم	من الرماح وأبراج من اليلب
مثل الغمام تهدى من صواعقها	بالنبل أضعاف ما تهدى من السحب
كأنما كل برج حوله فلك	من المجانيق ترمى الأرض بالشهب

وبينما القلعة المنيعة فى استعدادها وتوثيقها ، وبينما هى فى مباداتها وتحفزها
إذ تزحف عليها جنود مصر - وهى جنود الله - يقودها ملك غضبان لله ولدين
الله لا غضبان للملك ولا جاه ولا مال ولا نشب ولا غنيمة ولا غيرها .
وتبدو فى هذه المعانى النزعة الإسلامية مرة أخرى ، ومعها حماسها وأنفعتها
قوية منقضة انقضا هذا الجيش المفاجئ الغاضب . يقول الشاعر :

ففاجأتها جنود الله يقدمها غضبان لله لا للملك والنشب

ومن حق هذا القائد - السلطان - ومن حق جيشه المظفر ، أن تسبغ
عليهما آيات الحمد والثناء . قبل خوض المعركة المرتقبة ليستبين للناس وللتاريخ
أى قائد هو ، وأى جيش جيشه . فيذكر الشاعر أن هذه القلعة رامها قبله ملوك
وجيوش فعبزت عن الوصول إليها وعن اقتحامها وحوزها فلم ترض همة هذا
الملك أن تقعد كما قعدوا ، وأن ترضى بالعجز كما رضوا .

كم رامها ورماها قبله ملك جم الجيوش فلم يظفر ولم يجب
لم ترض همته إلا الذى قعدت للعجز عنه ملوك العجم والعرب .. الخ
فلما زحف عليها بجيشه أصبحت واقعة بين بحرين عظيمين . وجيشه
هذا من صفاته حب ، الحروب وخوضها . أما تركها فعار على جنوده ، وأما راحتهم
ففي القتال . وقد اغتربوا في سبيل الحرب وفضلوا ميادين الردى . . . وما زالوا
بالمدينة الحصينة حتى تسنموا أبراجها وافترعوا حماتها :

فأصبحت وهى فى بحرین مائلة ما بين مضطرم نارا ومضطرب
جيش من الترك ترك الحرب عندهم عار وراحتهم ضرب من الضرب
خاضوا إليها الردى والهجر فاشتبه الأمران واختلفا فى الحال والسبب
تسنموها فلم يترك تسنمهم فى ذلك الأفق برجا غير منقلب
أتوا حماتها فلم تمنع وقد وثبوا عنها مجانيقهم شيئا ولم يشب

وعادير الحمية الدينية إلى الشاعر ووثبت نفسه ، فند هيمة عن استكمال صور
المعركة ، ليفصل بين أبيات وصفه بدرات جديدة من أبيات شعره ، يفرغ فيها
طاقات هذه الحمية المعارضة . ويذكر فيها « عباد عيسى » الغاضبين و « جيش النصر »
الذى أطلعه الله ، وأن « المصطفى الهادى البشير » أشرف على ما قدم السلطان من
القرب ، وأنه « قرعينا » بهذا الفتح . وأن « السكبة الغراء » قد ابتهجت به .. الخ .
يقول ويردد ما كانت الآمال تتعلق به بشأن هذا اليوم حتى تم النصر فيه وسرت
الفرحة فى البر ، والخوف إلى البحر :

يا يوم عكا لقد أنسيت ما سبقت
لم يبلغ النطق حد الشكر منك فما
كانت تمنى بك الأيام مبعدة
أغضبت عباد عيسى إذ أبدتهم
وأطلع الله جيش النصر فابتدرت
وأشرف المصطفى الهادي البشير على
فقر عينا بهذا الفتح وابتهجت
وسار في الأرض سير الريح سمعته
به الفتوح وما قد خط في الكتب
عسى يقوم به ذو الشعر والخطب
فالحمد لله نلنا ذاك عن كذب
لله أي رضا في ذلك الغضب
طلائع النصر بين السمر والغضب
ما أساف الأشرف السلطان من قرب
بفتحه الكعبة الغراء في الحجب
فالبر في طرب والبحر في حرب

ثم عاد الشاعر إلى المعركة فصور منها فاصلا آخر ، خاضت فيه البيض في بحر
الدماء وغاصت الزرق في زرق العيون ، وتوقدت الحرب واشتد لهاها حتى ذاب
من حرها الحديد ، وهي من الهول أبطال كانوا كالأطواد ، وجرت الدماء بحرا إلى
البحر ، وتحكمت السيوف المصربة في أعدائها فسطت عليهم قتلا ، مع العفة عن الغنيمة .
يقول الشاعر في تشبيهات لطيفة موضحة :

وخاضت البيض في بحر الدماء وما
وغاص زرق القنا في زرق أعينهم
توقدت وهي غرق في دماهم
وذاب من حرها عنهم حديدهم
كم أبرزت بطلا كالطود قد بطلت
أجرت إلى البحر بحرا من دماهم
تحكمت وسطت فيهم قواضينا
كأنه وسنان الريح يطلبه
أبدت من البيض إلا ساق مختضب
كأنها شطن تهوى إلى قلب
فزادها الطفح منها شدة اللهب
فقيدتهم بها ذعرا يد الرهب
حواسه فغدا كالمنزل الخرب
فراح كالراح إذ غرقاه كالحبيب
قتلا وعفت لحاويها عن السلب
برج هوى ووراه كوكب الذهب
ثم عاودت الشاعر الحمية الإسلامية ، وأخذته نشوة النصر مرة أخرى ،
وملكه الزهو بملكه ومعجزته التي حاولها من قبله بطل الإسلام والعروبة
ناصر الدين صلاح الدين الأيوبي فلم تهيا له .

وفي لباقة الأديب وكياسة المذهب اللبيب ، يقرن الشهاب الحلبي بين اقتدار
الأشرف خليل على فتح عكا ، وبين امتناعها على صلاح الدين . فيعتبر ظفر
الأشرف بها ثاراً لامتناعها على صلاح الدين . فيقول مخاطباً الأشرف يهنئته
ويمدحه :

بشراك يا ملك الدنيا لقد شرفت بك الممالك واستعلت على الرتب
ما بعد عكا وقد لانت عريكتها لديك شيء تلاقيه على لغب
فانهض إلى الأرض فالدنيا بأجمعها مدت إليك نواصيها بلا نصب

حتى يقول عن عكا ، وقد امتنعت من قبله على صيد الملوك ، إنها هي التي
دعته إليها ، وهم الذين امتنعوا . . . وتلك لباقة أخرى وشاعرية كيسة ، وانظر
معى إلى التعبير بصيد الملوك « في هذه المناسبة . أنه مدح الأشرف ضمني ،
واحتراس في جانب الملوك . . .

يقول :

كم قد دعت وهي في أسر العدى زمنا صيد الملوك فلم تسمع ولم تجب
أتيتها يا صلاح الدين معتقدا بأن داعي صلاح الدين لم يجب
أسلت فيها كما سالت دماؤهم من قبل إحرازها بحرا من الذهب
أدركت ثار صلاح الدين إذ غضبت منه لسر طواه الله في اللقب

ومن التوفيق أن الأشرف خليلا كان يلقب بصلاح الدين ، وإليه يشير
الشاعر فيما مر من الأبيات ، واستطاع أن يستوحى من هذا التوافق بين الأشرف
والناصر صلاح الدين ، بعض المعاني والمشاعر كما رأينا . ويروى البيت الأخير
« في السكتب ، بدلا من « في اللقب » .

ويقال إن صلاح الدين الأيوبي كان قد وقف على كتاب ذكر فيه أن
السلطان صلاح الدين يفتح عكا ويخربها . فرجا أن يكون هو ، فلم يظفر (١) .

(١) عقد الجناح للبدر العيني المجلد (٦٨٩ / ٦٩٨ هـ) الورقة رقم ٢٦ مصور شمسي بدار
الكتب المصرية .

وكان هذا فاصلا جديدا ، عاد الشاعر بعده إلى ذكر الحرب واشتباكاتهما ، على نمط مما سبق بيابه . حتى قرن بفتح عكا ففتح مدينة صور ، فتمت به — على حد تعبير الشاعر — النعمة العظمى ، إذ لم يلجأ الجيش في فتحها إلى ضرب حصار ولا معاناة تعب .

يقول الشاعر :

وتمت النعمة العظمى وقد كملت بفتح صور بلا حصر ولا نصب
وصارت النار في أرجائها وعلت فأطفأت ما بصدر الدين من كرب

ويستمر الشاعر في وصفه حتى يقترب من نهاية قصيدته البديعة ، فيزجي الأمل وثابا فسيح الأطراف بين يدي الأشرف خليل فاتح عكا . . . ويخاطبه موجها ، ويأمل أن يفتح ما بعدهما من المدن والبلاد ، فإن من فتح هذين الحصنين لن يستعصى عليه غيرهما ، بل الصين أصبحت أدنى إلى يديه من حلب . يقول له ويدعو :

من كان مبدأه عكا وصور معا فالصين أدنى إلى كفيه من حلب
علا بك الملك حتى إن قبته على البرايا غدت ممدودة الطنب
فلا برحت قرير العين مبهيجا بكل فتح مبين المنح مرتقب (١)

ومن أدلى بدلوه في الدلاء وشارك في وصف معركة عكا وتسجيل حوادثها الشاعر شمس الدين بن الصائغ . وكان مما قاله يخاطب الملك الأشرف ويمدحه ويقرن بين فتح عكا :

يا أشرف الدنيا تمن فإنه فتح سواك بمثله لم يحلم
شبهت معتصم الخلافة همة فالروم منك ديارها لم تعصم
قابلت بلق جيوشهم بسوابق غر عليها الريح لم تتقدم
كم رعتها بسواد ليل أليل وصدمتها ببياض يوم أيوم

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ١٩٦ ط بولاق في ترجمة الأشرف خليل بن قلاوون وفيه نص القصيدة . وكذلك في البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ — انظر أيضا عقد الجمان للبدر العيني المجلد (٦٨٩—٦٩٨هـ) ورقة رقم ٥ مصور شمسى بدار الكتب ونهاية الأرب النورى المجلد ٢٩ .

وأعدتها للمسلمين ولم تكن منهم ترى التطهير إلا بالدم.. الخ (١)

ومنهم الشاعر بدر الدين محمد بن أحمد بن عمر المنبجى البزاز بالقاهرة الذى يقول فى مطلع قصيدته :

بلغت فى الملك أقصى غاية الأمل وفى شأوملوك الأعصر الأول
وحزت رق العلى بالجد مجتهدا وجزت غاياتها سبقا على مهل

ويشيد الشاعر بهذا الفتح المبين ويشير فى أكثر من بيت إلى ارتداد غير من الملوك الصيد عن فتحها وعجزهم عن بلوغ أمل المسلمين باستردادها ، فيقول :

وكم فتحت حصونا طالما رجعت لليأس عنها الملوك الصيد فى خجل
أنت الذى لم تدع للكفر من بلد يأوى إليه ولا للدين من أمل
أحرزت من عكة الغراء ما عجزت عنه الملوك بعزم غير منتثل
عقيلة المدن أمست من حصانها وصونها من ليالى الدهر فى عقل
لم قد دعيتها ملوك الأرض راغبة وعطفها عنهم بالتيه فى شغل . الخ (٢)

الشهاب الحلبى وقلعة الروم :

وفى عام ٦٩١ هـ فتح السلطان الأشرف خليل أيضا قلعة الروم بعد أن حاصرها خمسة وعشرين يوما - فانبرى للتهنئة الشاعر شهاب الدين الحلبى كذلك ، وسجل للملك وبلاده هذا النصر المبين والفتح العظيم ، فى قصيدة رائية جزلة .

ويبدو فى هذه القصيدة استراحة الشاعر وطمأنينة نفسه ورضا خاطره عن

(١) عقد الجمان للبدر العيني المجلد (٦٨٩-٦٩٨) ورقة رقم مصور شمسى بدار الكتب المصرية .

(٢) زبدة الفكرة لبيرس الدوادارى ج ٩ ص ٢٨٧ مصور بجامعة القاهرة - ونهاية الأرب للتورى

المجلد ٢٩ ص ٥٦ مصور بدار الكتب المصرية .

ونثل الكنانة : استخرج نبلها فنثره ، ونثل اللحم فى القدر وضعه فيها مقطعا - والعقل بسكون

وسطه : الحصن . وحرك للشعر .

هذا النصر الذى تلانصرا . واعتقادنا أنه يعبر بذلك عن مشاعر قومه ، وعن رضا نفوسهم بهذه الفتوحات المتلاحقة ، التى هى — بلاريب — ظفر اللدين والعروبه وأعدائهما . . .

وهذه الراحة والطمأنينة سوغتا للشاعر أن يسير ويبدأ فى نحو ستة أبيات فى مفتتح قصيدته فى وصف راية السلطان التى هى صفراء كالاصائل — وهى رمز النصر ومجتمع القلوب ، وهى راية الإسلام يقدمها النصر ، ويرتعب منها من يراها من أعدائه مثل كيقباز وكيخسرو .

وإذا خفقت هدت بنودها قوى الشرك وعلا الهدى ، وإذا نشرت وقت ضجيج الحرب كسفت النقع بلألائها ، وإذا سارت إلى الأعداء ، سارت تحتها السكتائب المظفرة ، ومعها الرماح والسيوف . . . الخ .

يقول الشاعر مخاطبا السلطان ، ولا ينسى لون الراية : —

لك الراية الصفراء يقدمها النصر فمن كيقباز إن رآها وكيخسرو
إذا خفقت فى الأرض هدت بنورها قوى الشرك واستعلى الهدى وانجلى الثغر
وأن نشرت مثل الأصائل فى وغى جلا النقع من لألاء طلعتها البدر
وأن يعمت زرق العدى سارت تحتها كتائب خضر تحتها البيض والسمر
كأن مشار النقع ليل وخفقمها بروق وأنت البدر والفلك والبحر
لها كل يوم أين سار لوأوها هدية تقليد يقدمها الدهر
وفتح بدا فى إثر فتح كأنما سماء بدت تترى كواكبها الزهر

ويستمر الشاعر فى الإشادة بمناقب السلطان وبشجاعته فى حروبه وهيمته فى القتال وتدبيره حتى زلت له الحصون العوانس والمعازل البكر ، وحتى هابته أعداؤه وأصبحت حصونهم لهم سجوناً ، وأخشابهم لهم قبورا . . .

فكم وطئت طوعا وكرها معازل مضى الدهر عنها وهى عانسة بكر
فإن رمت حصنا سابقتك كتائب من الرعب أو جيش يقدمه النصر
ففى كل قطر للعدى وحصونهم من الخوف أسياف تجرد أو خضر

فلا حصن إلا وهو سجن لأهله ولا خشب إلا لأرواحهم قبر
ويتفام الشاعر - كعادته - ويعتبر فتح هذه القلعة مقدمة لفتح غير ها .
ويستروح قليلا هنا - وقد ذكر قلعة الروم - إلى وصفها الوصف الشعري
الذى يوحى الخيال فيرسمها للقارىء فى لوحة من لوحات الطبيعة الساحرة ويزودها
باللون والحركة والعاطفة فيقول:

وما قلعة الروم التى حزت فتحها وإن عظمت إلا إلى غيرها جسر
محجة بين الجبال كأنها إذا ما تبدت فى ضمايرها سر
تفاوت وصفها فللحوت فيهما بحال وللنسر ينهما ذكر
فبعض رسا حتى جرى الماء فوقه وبعض سما حتى همى دونه القطر
يحيط به نهران تبرز فيهما كما لاح يوما فى قلائده النحر
نخاص متون السحب فيها كأنها إذا ما استدارت حول أبراجها نهر
على هضب صخر تكلم صخرها الحديد وفيها عن إجابتها وقر
لها طرق كالوهم أعياء سلوكها على الفكر حتى ما تخيله الفكر
إذا خطرت فيها الرياح تعثرت أو الذر يوما زال عن متنه الذر
يضل القطا فيها ويخشى عقابها الـ محقات ويهفو فى مراقبها النسر
فهى - كما ترى - قلعة محجة بين الجبال كأنها سر فى ضمايرها . وهى ذات ،
شاطيء يسبح فيه الحوت ، وذات جبال يمرح فيها النسر ، وعلى سفوحها الواطئة
تجرى المياه ، وعلى مرتفعاتها يهوى القطر ، ومن حولها نهران يدوران بها
بلعانها وأضوائها ، يبدوان كالقلائد فى نحرها أمام الرأى . وتستدير السحب
من حول أبراجها كما يستدير النهر ... إلى آخر هذه الأوصاف الطلية التى جعلت
فيها متعة من متع الطبيعة الساحرة .

هذا السحر الفاتن وهذا الجمال الباهر ، صبحه الملك الأشرف بجيشه الذى
تحكى أبطاله النجوم الزهر . ومعه سيوفه الصوارم كالأنهار ، ورماحه اللامعة
المضاحكة كالزهر ... واستمر الشاعر فى وصف الجيش ...

ويتعجب الشاعر بالأسلوب فيفتن فيه . ويذكر الوصف ثم يضرب عنه في البيت التالي ليعقب عليه بوصف جديد

وهكذا انتقل بتشبيهم من البحر إلى الليل ثم النهار ثم إلى الليوث . وفي كل واد من هذه الوديان يتبسّط له الخيال ويمد له الفن في رواقه . ويستعير ملائمات كل واد ليحبك من مجموعها صورة متواصلة الأطراف .

فهم كالبحر ، ولسكى تكتمل الصورة وتتم المماثلة ، يذكر سيوفهم أمواجاً ، وخيولهم سفناً ، وخردهم دراً . بل هم كالليل ، ولسكى تكتمل الصورة أيضاً وتتم المماثلة ، يذكر عوج سيوفهم أهلة ، ونبالهم اللامعة العاجلة أنجماً زهراً . بل هم كالنهار ، ولسكى تكتمل الصورة أيضاً وتتم المماثلة ، يذكر الجيوش شمساً ، والرايات الصفراء أصالاً . . وهم ليوث وما آجامها إلا قناها ، وما من يوم ظفر ، إلا ولهم فيه ظفر الخ .

ويستمر الشاعر في خياله وأناقته وحماسته ، حتى يندفع فيمزج مزجاً فنياً جميلاً بين الوصف والمديح والغزل والحماسة ، وهي ضروب من فنون الشعر نادرة الوجود في الشعر العربي ممزوجة . . . ولعلها من محاسن الشعراء في العصر المملوكي ، ولدها في قرأتهم ما كان لجنود الأتراك وأمراءهم من محاسن ومفاتيح ، تدفع إلى النسب الرطب والغزل العذب . واقتربت فيهم هذه المحاسن الخلقية بمحاسن الفروسية والشجاعة وحب القتال والمغامرة في سبيل الانتصار ، حتى ضرب بهم المثل في الجمال وحب القتال

يقول الشاعر :

فصبحتها بالجيش كالزهر بهجة	صوارمه أنهاره والقنا الزهر
وأبدعت بل كالبحر والبيض موجه	وجرد المذاكي السفن والخررد الدر
وأغربت بل كالليل عوج سيفه	أهله والنبل أنجمه الزهر
وأخطأت لابل كالنهار فشمس	جيوشك والآمال راياتك الصفر

ليوث من الأتراك آجامها القنا لها كل يوم في ذرا ظفر ظفر
فلا الريح تسرى بينهم لانسبا كها عليهم ولا ينهل من فوقهم قطر
يرى الموت معقودا بهذب نباههم إذا مارماها القوس والنظر الشزر
ففي كل سرج غصن بان مبهف وفي كل قوس مد ساعده بدر
إذا صدموا صم الجبال تزلزلت وأصبح سهلا تحت خيلهم الوعر
ولو وردت ماء الفرات خيولهم ل قيل هنا قد كان فيما مضى نهر

ثم صور الشاعر بعض خطوات المعركة وجوانبها ووقائعها فقال :

أداروا بهاسورا فأضحت كخنصر لدى خانم أوتحت منطقة خصر
وأجروا إليها من بحار أكفهم سحب ردى لم يخل من قطرها قطر
كأن المجانيق التي قن حولها رواعد سخط وبلها النار والصخر

ثم خاطب السلطان عقب ذلك وأشاد بشهامته . وحمد إليه الله سبحانه على
أن افتر هذا الثغر الذي كان ممتنعا من قبل ، فكان قذى في عين الدين ، وذخرا
لأهل الشرك . أما الآن فقد انعكس الأمر ، فيقول :

فأحرزتها بالسيف قهرا وهكذا فتوحك فيما قد مضى كله قصر
غدت بشعار الأشرف الملك الذي له الأرض داروهى من حسناتها قصر
وأضحت بحمد الله ثغرا ممنعا تبيد الليالى والعدى وهو مفتر
وكانت قذى في ناظر الدين فأنجلي وذخرا لأهل الشرك فانعكس الأمر^(١)

عصر الناصر بن قلاوون :

وقتل الأشرف خليل بعد وؤامرة دبرت ضده . وولى السلطنة مكانه أخوه
الناصر محمد ، عام ٦٩٣ هـ . وكان حدثا في سن التاسعة . ودبر له أمر دولته الأمير

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ١٩٨ ، في سياق ترجمة خليل بن قلاوون . وفيه نص القصيدة —
راجع أيضا عقد الجمان للبدر العيني المجاهد (٦٨٩-٦٩٨ هـ) مصور بدار الكتب المصرية ،

« كتيبغا » . وسرعان ما خلع سلطانه وقفز إلى السلطنة . فلبث نحو عامين سافر خلالها إلى بلاد الشام لتنظيم أمورها فخلعه نائب سلطنته الأمير « لاجين » بعد مؤامرة ، وقفز إلى السلطنة مكانه . فلبث قرابة عامين أيضا ، ثم دبرت مؤامرة فقتل . واستقر الرأي على عودة الناصر محمد بن قلاوون . فعاد في عام ٦٩٨ هـ . فأعد العدة للقاء التتار الزاحفين على بلاد الشام . ف وقعت بينهما معركة حامية في « سلمية » قرب بعلبك ، دارت الدائرة فيها على الناصر وجيشه . وطلب أهل دمشق الأمان من « غازان » ملك التتار ، فأمنهم .

إلا أن الناصر عاود الزحف إلى بلاد الشام عام ٧٠٢ هـ ، ولقى التتار في موقعة « مرج الصفر » أو « مرج راهط » أو « شقحب » ، فانتصر عليهم انتصارا عظيما ، وقتل منهم عددا كبيرا وغنم غنائم لا تحصى ودانت له بذلك بلاد الشام .

ثم فسد ما بينه وبين أتاك عسكره الأمير « بيبرس » ، فخلع نفسه واستقر بالسكر . فقفز « بيبرس » هذا إلى كرسي السلطنة ، فلبث بها أقل من عام ، وانحاز عدد كبير من الأمراء إلى الناصر محمد ، فسار بهم إلى بلاد الشام فملكها . ومن ثم عاد إلى مصر فدخلها منتصرا عام ٧٠٩ . وقبض على « بيبرس » وخنقه .

لبث الناصر محمد في السلطنة هذه المرة حتى عام ٧٤١ هـ . فنظم الدولة ونمي جيشها ، ومسح الأرض ، وألغى نيابة السلطنة ورحل إلى الشام وحلب ، ترقبا للقاء التتار ، ففروا من وجهه . وما زال حتى هبت سطوته وخطب باسمه على منابر كثيرة وخطب الملوك وده ، وحفر الخليج الناصري عام ٧٢٥ هـ ، وامتدت رقعة الدولة في زمانه من كل طرف من أطرافها . وامتلا عصره بكثير من أفذاذ العلماء والأدباء ، وقد أحصينا عدد الشعراء الذين شهدوا عصر الناصر هذا فكان عددهم — أو عدد من أحصيناهم — نحو مائتي شاعر .

ومنهم الفتح بن سيد الناس ، وابن الوردى . والوداعى والمعمار وابن نباتة والصفدى والحلى وابن دانيال ، وغيرهم من المشاهير ، عدا المنشئين الشعراء . وأبرز

هو لاء جميعاً في ميدان الأدب والشعر اثنان هما جمال الدين بن نباتة (٦٨٦ هـ - ٧٦٨ هـ) ، وصفي الدين الحلبي (٦٧٧ هـ - ٧٥٠ هـ) ، وهما بحق زعما الشعر في زمانهم .

ورحل ابن نباتة إلى بلاد الشام في نحو عام ٧١٦ هـ وعاش بها ردحا طويلا . فيكون قد عاش بمصر من قبل رحيله ما يقرب من ثلاثين عاما ، من بينها أكثر من عشرين عاما في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، فهو - بلاريب - بثقافته وأحاسيسه وعاداته وأفكاره مدين للبيئة المصرية بألوانها ، وهو - بلاريب - مترجم عنها متحدث باسمها صادر عن وحيها ، وإن بعد عنها .

على أنه - وقد عاش في بلاد الشام - في دمشق أو في حماة - لم يبعد عن البيئات المصرية ، فهو مغمور بها مغموس فيها ، فإن قلبه ظل مشغولا بمصر وبمن في مصر من أهله وأولاده وخلصائه وأحبابه . ولم تكن البيئة الشامية من بيئات السلطنة المصرية حينذاك إلا امتدادا للبيئة المصرية بشتى ألوانها وأحاسيسها وتقلباتها ، والوحدة العربية حينذاك وحدة شاملة ممتدة ، ووحدة واقعية بارزة في بلاد السلطنة المصرية . ومتطلعة إلى غيرها من بلاد العرب والمسلمين .

إلا أن ابن نباتة لم يقيض له الاتصال بالسلطان الناصر ، أو الانضمام إلى رجاله ، فبعد بذلك عن مجال السياسة . أما صفي الدين الحلبي ، فقد نشأ ببلده حلة بابل قرب الموصل بالعراق . وأخذ بين الآن والآن يجول هنا وهناك في بلاد العروبة والإسلام ، ومن بينها مصر زمن الناصر محمد بن قلاوون . فحسن اتصاله به ، وشارك على بعده ، مشاركة مافي سياسيات مصر ، بخلاف ابن نباتة .

إن السبيل الوحيد الذي كان يفتح أمام الشاعر حينذاك مجال القول والتجارب مع البيئة السياسية ومقتضياتها ، هو الاتصال بالسلطان ، إذ يقربه من الحوادث ويصله بأسباب الحروب ووقائع القتال .

والاستقراء يدلنا على صواب ما نقول . فله نظفر بشاعر يتحدث من بعد أو

قرب - في هذا العصر - حديثاً ذا شأن ، في هذا المجال ، ما لم يكن متصلاً بالسلطان .

وقد اتصل ابن نباتة - حقا - ببعض رجال الحكم في دمشق وحماة . اتصل بأبناء فضل الله العمرى ، وبملكى حماة المؤيد وابنه الأفضل ، واتصل بكاتب السرى بمصر علاء الدين بن الأثير ، ومدحهم ووصف وشكا وسأل . ولكنه لم يطرق معهم باب السياسة ولا ذكر الحرب . ولو قيض له الاتصال بالناصر لظفرنا منه بالنتائج الوفيرة في ميدان السياسة .

موقعة مرج راهط «شعجب» أو مرج الصفر .

لما عاد الناصر محمد بن قلاوون إلى عرشه العودة الأولى «٦٩٨هـ - ٧٠٨هـ» سرت الأنباء بقرب تحرك التتار على بلاد الشام ، فأخذ الناصر في الاستعداد يعاونه في ذلك الأميران «سلار» نائب سلطنته ، «ويبرس» الجاشنكير أتابك عسكره . ثم زحف بعسكر كثيف ، قيل نحو عشرين ألفاً . وكان على يمينته جمع وافر من العربان بقيادة الأمير عيسى بن مهنا . ولكن وقعت بين الصفوف فتنة كثيرة أصابت الروح المعنوية . فلما كان اللقاء مع التتار في «سلمية» في ربيع الأول عام ٦٩٩هـ ، أقبلوا عليهم في نحو مائة ألف جندي بقيادة غازان . وكاد الجيش المصرى يوقع فيهم هزيمة نكراء ، ثم انقلب الأمر وهرب الناصر وولى الأدبار . .

أخذ بعد ذلك يستعد للقائهم للمرة الثانية ، وتم له ذلك عام ٧٠٢هـ . إذ تواترت الأخبار بنزول غازان على الفرات وبدأ زحفه على بلاد الشام بقيادة الأمير قطلو شاه ، في عسكر كثيف يبلغ نحو خمسين ألفاً . حتى فر كثير من أهل حلب وحماة إلى دمشق ، بل استعد أهل دمشق للفرار . تخف الناصر برجاله متجهاً إليه من «مرج راهط» ، واتفقوا على المحاربة في «شعجب» ، وكان في جملة جيشه عدد من العربان ، ف وقعت معركة مروعة بين الطرفين ، أزال التتار من مواضعهم وحصدت رؤوسهم حصداً ، وعاد الجيش المصرى بعد أن هزم عدوه هزيمة ألقت الرعب في قلبه وعلمته (م ٥ - عصر المماليك)

الهيبة من الناصر ، فلم يجسر على التجمع للقائه مرة أخرى^(١) .

وكان لهذا الانتصار الحاسم رنة فرح في أرجاء مصر ، وتغنى به شعراؤها .
وتقدموا بالتهنئة والمدح إلى سلطانهم المنتصر الناصر محمد ، شاكرين الله سبحانه
وتعالى على نعمة النصر ، وعلى هزيمة أهل الكفر .

ومنهم الشاعر علاء الدين بن محي الدين بن عبد الظاهر ، يقول :

لقد تمت النعمى وأوضحت البشرى وقد أعقب الفتح المبين لنا نصرا
حبانا إله الخلق بالناصر والهدى على الشرك والإيمان قد غلب الكفرا
ويصف طغیان غازان وملوك التتار وكثرة جنودهم ويشير إلى هزيمة سلمية
وغیرها ، وانتصار مرج راهط :

ولما غزا غازان عقر ديارنا وأعطاه من يعطى ومن يمنع النصرا
تمرد طغيانا وتاه تجبرا ولم يرتفق سعيا ولم يستفق سكرنا
وجاء ملوك المغل كالرمل عدة وقد ملأت سهل البسيطة والوعرا
فأنصفت الأيام في الحكم بيننا فكانت له الأولى وكانت لنا الآخري
ويشيد بإقدام الناصر وعساكره وأمرائه ويحدد وقت المعركة وساعة النصر .
وأقبل سلطان الزمان مؤيدا يقود الجياد الجرد والعسكر المجرا
وكان نهار السبت بالناصر شاهدا بصدق وكان الوقت قد قارب العصرا
فلله در الترك كم سفكوا دما وكم قطعوا رأسا وكم جزروا نحرا
فولت ولا ذت بالجبال تحصنا ولولا تخاف القتل لاختارت الأسرا
فحمدا لسلطان الزمان محمد وشكرا لمولى قد أباد العدى قسرا

(١) راجع السلوك ج ١ ص ٨٨٥ وما بعدها ، ص ٩٣٠ وما بعدها - حوادث عام ٦٩٩ هـ ،
٢٧٧ هـ - وراجع أيضا بدائع الزهور في حوادث العامين المذكورين . وروى في السلوك أن الموقعة
كانت في « شقج » وروى في البدائع أنها كانت في « مرج راهط » وأن الموضع تحت جبل غباغب
قريبا من دمشق . وقيل إن رج راهط هو شقج وهو مرج الصفر أيضا - راجع العبر لابن خلدون
ج ٥ ص ٤١٧ ، ٤١٨ . وزبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ص ٤٢٠ ، مصور بجامعة القاهرة ،

.... الخ (١).

ومنهم الشاعر نجم الدين بن العيني ، وليس له بين يدينا غير هذه الأبيات الثلاثة التي يصور بها جو المعركة . لقد بدت له سهولها ضبابا وقد امتلأت بالفوارس والجناث فكأنما نهارها ليل ، ورماحها كواكب ، وفرسانها أسود ، تغدو الأسود لها ثعالب :

وإذا نظرت إلى السهول رأيتهما تحت الضباب فوارسا وجنائبا
فكأنما كسى النهار بها دجى داج وأطلعت الرماح كواكبا
خيل فوارسها الأسود يقودها أسد تصير لها الأسود ثعالبها (٢)

ومنهم الشاعر محمد البراز المنبجى الذى شهدناه يسجل انتصار جيش مصر فى معركة « عكا » وفتحها وفى غيرها . شارك هنا بقصيدة غراء حالية طلية ، أشار فى مطلعها كذلك إلى هزيمة « سلمية » وغيرها ، وأن الدهر جاء بهذا النصر اليوم معترداً عن تلك الإساءة ...

وإني على قدر ما يختاره القدر وجاء عمسا جناه الدهر يعتذر
وإن أساءت لياليه التى سلفت ظلما فقد أحسنت أيامه الآخر
وبعد إدراكك الثارات منتصرا فكل ذنب جناه قبل مغتفر

وأخذ يشيد بهذا الفتح العظيم الذى سعد به الإسلام ، ولم يشاهد الناس مثله منذ فتوح عمر - رضى الله عنه - وسارت بذكره الركبان ، ولم تحو مثله الأخبار والسير .

(٢٤١) راجع كتاب الدر الفاخر للدوادارى ص ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ - وقد نسب الأبيات الأولى إلى شرف الدين بن الوحيد بن عميد الوقت أو عبد الحميد . واعتقد أنه كنى بذلك عن (علاء الدين بن يحيى الدين ابن عبد الظاهر) راجع عقد الجمان للبدر العيني (٦٩٨ - ٨٠٧ هـ) ورقة رقم ٣٠٢ ، مصور شمسى بدار السكب الصرية ، وقد رويت الأبيات فيه باختلاف يسير ، هذا وقد ذكر البدر العيني أن علاء الدين هذا نظم مجلدا صغيرا فى الواقعة وتوصل إلى قراءته على الناصر دون علم سلار وبيبرس فنحه مائة دينار . واسمه « الروض الزاهر فى غزوة الملك الناصر » ، وتروى الأبيات فيه ببعض الاختلاف .

فتح على جهة الإسلام أسعده بالجد والسعد والتأييد منتظر
ما شاهد الناس فتحاً مثله أبداً إلا فتوحاً تولى أمرها عمر
سارت بأخبارها الركبان واقعة لم تحو أمثالها الأخبار والسير

ووصف البغاة الطغاة ، وما بيتوا من مكرو وما دبوا من كيد وما جمعوا من
جند ، فدا سوا بها بلاد المسلمين يغرم جهلهم ويخدعهم التيه والبطر ، وظنوا أن
الدهر سيستمر في محالفتهم كما جرى في « سلمية » وغيرها . وإذا به في هذه الواقعة ،
واقعة « شقحب » أو « مرج الصفر » يغدر بهم . فإذا بهم قتلى تحت السنايك بيد
عصابة الإسلام :

إن البغاة بنى خاقان أقدمهم على هلاكهم الطغيان والأشر
راموا وقد حشدوا غلباً فما غلبوا وحاولوا النصر تضليلاً فما نصروا
أتوا وقد مكر الله العزيز بهم فرد طغيانهم بالغیظ إذ مكروا
وضيقوا الأرض من سهل ومن جبل كأنما هم جراد فيه منتشر
داسوا بلادك لا يشئ أعنتهم عن قصدها جهلهم والتيه والبطر
غرتم فلتة في الدهر عن غلط منها فحلت بهم من بعدها العبر
ويقول للسلطان .

قابلتهم بجيوش ما لهم قبل ببأسها فلقد قلوا وإن كثروا
أفنتهم بليوث منك بأسلة وهل تقاوم آساد الشرى الحر
ويقول مفتخراً ومباهاً بهذا اليوم ، في نزعة إسلامية قوية :

يا واقعة المرج مرج الصفر افتخرت بك الوقائع في الآفاق والعصر
رفعت بالنصر أعلام الهدى ولقد جردت للشرك كسرا ليس ينتجبر
يوم تدارك جمع المسلمين به من لم يزل في يديه النفع والضرر
ويصف ما لحق الكفار من ذل وهوان وما أصابهم من تلف وبوار ، وما منوابه
من تفرق :

دارت عليهم رحاء الموت فانهمزوا فمالهم بعدها عين ولا أثر
وضاقت الأرض مذلولوا بمارحبت عليهم فهم بالخوف قد حصروا
والبسوا الذل حتى إن أشجعهم يأتى إليك بألف منهم نفروا
وبعدها قد أمناكل حادثة فما لنايبة ناب ولا ظفر
ويختتم زهوه بالناصر على بلائه ، شاكراله داعياً بدوام الملك .

هزت معاطفها الدنيا به فرحا وطاب بالأمن فى أيامه العمر... الخ^(١)

مطولة فريدة فى وصف المعركة

وللشاعر القاضى جمال الدين أبو بكر قاضى عجلون قصيدة فريدة مطولة تقع فى
أكثر من مائة وخمسة عشر بيتا . شارك بها مشاركة بارزة فى تسجيل هذا الفتح ،
والإشادة به وتمجيده وتمجيد مصر وجيشها العظيم ، وأعماله الجليلة وبطولاته الفريدة ،
فى سبيل نصر الدين والوطن . وقد ملأت الحماسة الإسلامية والوطنية معا نفس هذا
الشاعر البليغ ، فصدر عنها بقوة وجزالة ، وبإحاطة وشمول ، وبسعة تفصيل لحوادث
المعركة وتطوراتها وتحركات الجيوش فيها وما أصاب التتار فى ظلالها وفى أعقابها
من خسف وتلف ، وما منوا به من هزيمة نكراء .

ويبدأ بهذا المطلع الذى يدل على روح إسلامية عالية وعلى أمل فى الله قوى ،
وعلى ما كانت تنطوى عليه النفوس من رغبة جاححة فى الظفر بهؤلاء الأعداء
الأشرار الطغاة الذين طالما كادوا للعرب والمسلمين . يقول :

الله أكبر جاء النصر والظفر والحمد لله هذا كنت أنتظر
وأبرز القدر المحتوم بآثره سبحانه يبيديه النفع والضرر

ويهزأ الشاعر بالمنجمين ونجومهم ، ويبدو أنه كان فى الأمر ما يشبه تخرصات
المنجمين قبل فتح عمورية .

(١) ص ٩١ من كتاب الدر الفاخر للدوادارى . وص ٣٠٤ من عقد الجمان للبدر العيني المجلد

يقول :

أين النجوم وتأثير القربان وما تخروصوا فيه من إفك وما زجروا
قد دبر الله أمرا غير أمرهم وخاب ما زخرفوا فينا وما هجروا
ويمثل العسكر المصرى المنصور وقد أمدّه الله بجند من الملائكة :

وأقبل العسكر المنصور يقدمه من الملائك جند ليس ينحصر
ويشيد بهذا العسكر وأنه يتحرك لله وفي سبيل الله ، ولذلك تكون عاقبته
النصر . ويشيد بثورته وثباته في سبيل دينه ووطنه ليدرك تأثره ويبلغ طره .
وأنه ترك لذة النفس ومتعة الدنيا من أجل ذلك :

كناثة الله مصر جندها ثبتت لا ريب فيه وجند الله تنقصر
ثاروا سراعا إلى إدراك ثأرهم وهجروا في طلاب المجد وابتسكروا
وأسهروا أعيننا في الله مارقدت أكرم يقوم إذا نام الورى سهروا
ويقول :

وخلفوا خلفهم لذات أنفسهم وهاجروا ولذيد العيش قد هجروا
وبدا وصف المعركة بالحديث عن الزحف والتجمع وإرسال الكشافة :
وأوجفوا نفرا بالخييل ملجمة وبالركاب ولا ملوا ولا فستروا
حتى أتوا جلقنا في يوم ملجمة فيه الأسود أسود الغاب تهتصر
ويبدأ في تصوير مشاهد المعركة ، تصويرا حيا متحركا متتابعام مع مراعاة
نظير طريفة :

لها السنايك في الميدان قد حنيت صوالجا ولها روس العدى أكر
وكوثر الحرب قد راقّت مشاربه تحت العجاجة والأبطال تعتسكر
والنبيل ينقط والأقلام كاتبة والضرب يعرب والأبدان تستطر
حتى إذا عب مثل البحر جحفلنا ومدفينا على أعدائنا جزروا... الخ.

و يصف الشاعر ما أصاب الأعداء من أثر النيران المرسلّة والسيوف المسلولة
الناثرة حتى لا ذوا بشم الجبال هربا ، فلم ينفعهم لياذهم ومزقوا وشردوا وصاروا طعاما
للووحوش . ثم يتهم بهم تهكم الشامت القرير العين .

أصلوهم جاحما يشوى الوجوه وقد حمى الوطيس ونار الحرب تستعر
وأحرقتهم سراعا كل صاعقة من السيوف بنيران لها شرر
لاذوا بشم شماليخ الجبال فما حتمهم قتل منها ولا صور
ومزقوا شردا بين الزحام فكم شلو تنازع فيه الذئب والنمر
أين المفر وقد حام الحمام بهم هيهات لاملجأ يرجى ولا وزر
نادى بهم صارخ أغرى الفناء بهم فإن سألت فلا خبر ولا خبر
كم قد سهرتم دجى من خوفهم حذرا فالآن ناموا فلا خوف ولا حذر... الخ.

ويصور مصيرهم إلى بطون الوحش والطير :

لم يقبروا فى نواويس ولا جدت وإنما فى بطون الوحش قد قبروا
والطير ترعى نهارا لحمم فإذا ما الليل جن فى أقحافهم تسكر... الخ.

واندفع الشاعر اندفاعا حماسيا جارفا يدعو شجعان قومه إلى تعقب أعدائهم
بعامة من تتار و صليبيين . وأخذ يذكرهم بجرأهم الصليبيين حيالهم وأنهم صنعوا
بهم ما لا يصنع التتار فيقول :

هبوا إلى سييس من أحلام رقدتكم وسارعوا فى طلاب الثأر وابتدروا
بكل غير أن أخذ الروح همته فى غير نفس المنسايا ماله وطر
أيرقد الليل فى أمن وفى دعة عن كيد قوم لهم فى شأنكم سهر... الخ.
ويقول مثيرا للجزائم حافزا للهمم ، ضاربا على الوتر الحساس بذكر النساء ،
والعجائز والأطفال والضعاف ، والذين شقوا بغارات الأعداء فى بلاد الشام :
أشفوا صدوركم إن كنتم غيرا على نسائكم يا قوم وادركوا

كم من عجوز ومن شيخ ومكتهل ومن فتاة نماها الحسن والخفر
بيضاء خرعوبة بكر محجة لا الشمس تنظرها صونا ولا القمر... الخ

ويفيض الشاعر في هذه الإثارة الحماسية الصادقة النزعة ، ويستغرق فيها نحو
الثلاثين بيتا ملتهبة نارية . تفصح عن حقد كامن ومقت شديد الأعداء لما اقتترفوه
من الآثام وما اجترحوه من الجرائم وما ارتكبوه من الموبقات وما اشاعوه من
الفساد . ويقول محرضا المسلمين أن يصنعوا بهم مثل ما صنعوا :

بزوهم الملك قهرا عن جواركم وخربوا كل ماشادوا وما عمروا
وسارعوا واقتلوا منهم قتلوا وبادروا واسروهم إنهم أسروا... الخ

ويخصص الخطاب لأهل جلق ويدعوهم إلى الاستقامة والاتجاه إلى الله
سبحانه وتعالى توسلا إلى معونته ونصرته ، وسبيلا إلى دفع أعدائهم عنهم :
يا أهل جلق أمنا في مساكنكم وعاملوا الله رب العرش وانزجروا
صوموا وصلوا وزكوا وارحموا وصلوا وابغوا النجاة وحجوا البيت واعتمر وا... الخ
ويقول وكأنه يؤمنهم العاقبة :

ولا تخافوا من التاتار مجلبة من بعدما ارتفع التدليس والعمور
لم يطلبوا جلقا بغيا بظلمهم إلا وردوا على الأعقاب وانكسروا... الخ
وبعد استيفائه هذه الأغراض يتجه إلى ذكر خليفة زمانه وسلطانه
فيمتدحهما :

هما ملاذكم في كل نائبة الروح تفديهما والسمع والبصر

ويخص الخليفة بنحو اثني عشر بيتا من أبيات المديح - على غير عادة الشعراء
إذ ذاك ، فقد كان من دأبهم إغفال ذكر الخليفة بجانب السلطان . أما هذا
الشاعر فيقول ويبالغ - وقد كان الخليفة هو أبو الربيع سليمان المستسكن في بالله
العباسي - :

خليفة الله في الدنيا وطاعته فرض عليكم وهذا القول مختصر
ما زال مستكفيا بالله معتصما مستنصرا مستعينا وهو منتصر
لولاه في الأرض قد ماتت جوانبها وما سقاها إذا غيث ولا مطر
خليفة من بني العباس باقية به إلى الله نستسقى فتمطر ... الخ

ثم يخص السلطان بأبيات أخرى من المدح تبلغ نحو ثمانية عشر بيتا يختتم
بها هذه القصيدة الجامعة . ومنها قوله ، يصف هيئته وذل الملوك له :

ترى الملوك صفوفا حوله زمرا من فرط هيئته لا يرجع البصر
تذل أعناقهم صغرى لطاعته وليس يعصونه أمرا إذا أمروا

وينزع الشاعر نزعاً الوحدة الإسلامية والعربية الكبرى ، ويفيض لسانه بما
يحيش به جنانه من الآمال العريضة الواسعة التي يحلم بها شعب العروبة منذ ذلك
الزمان البعيد . ولم تسكن هذه الآمال حينذاك بصعوبة النوال ، ولا عسيرة
الوصول ، أن تجتمع البلاد العربية بل والإسلامية في دولة موحدة تنهض
برسالتها الإنسانية وتحمل دين الله وحضارة الإسلام في هذه الأرض . لقد كانت
السلطنة المصرية قد بلغت - كما أشرنا - جهة برقة من الغرب ، وأرض النوبة
من الجنوب ، وضاف الفرات وأرمينية من الشرق ، وضمت الشام وحلب
والحجاز ، وخضع لها اليمن خضوعاً مائلاً . فلم يبق إلا أن ينضم العراق ببغداد ،
وأن يعمل الجميع على تقوية الآصرة ، وتمكين الوحدة والنهوض إلى الهدف .

تلح هذه المعاني بين ثنايا أبيات هذا الشاعر الذي كان يعيش عام ٧٠٢ هـ لما
وقعت معركة « شقحب » ، وتمت الهزيمة على التتار . وهو في أبيانه تلك يمدح
الناصر محمد بن قلاوون سلطان هذه الدولة - بمناسبة انتصاره في المعركة
المذكورة - ويعقد عليه كل هذه الآمال . يقول مخاطباً المسلمين أن يصونوا
جيادهم التي يأمل أن يوردها السلطان الناصر نهر دجلة ، وهو يرمر بذلك إلى أمه

في فتح بغداد على يده وضمها إلى سلطنته توحيداً للعرب وجمعاً لـ كلمتهم :
صونوا جياذكم اللاتي بكم هميت في بارق الحرب والرمضاء تستعر
إننا لندرجوه من بغداد ينهلها بماء دجلة يرويها فتصطدر
ويجمع الشمل في دار السلام بمن يودها ويؤدون الذي نذروا
يؤمها وإمام المسلمين معا ثقوا بقولي فهذا منه منتظر
فالشام وافاه مع بغداد في قرن ومصر في مملكة والبحر
والعرب والعجم في ميمون قبضته ومن سطا بأسه قد حارت التتر... الخ (١)

هكذا كان الشعراء يسجلون حوادث السياسة ووقائع الحروب ، ويصورون
أمانى النفوس وآمال القلوب ، التي هي آمالنا اليوم وأمانينا . ومن هنا نفهم أن
أهدافنا اليوم ليست مدعاة ولا مزعومة . وإنما هي آمال الآباء والأجداد امتزجت
بدمائهم ونفوسهم ، ومنهم انحدرت إلينا وورثناها دعامة للحياة الصحيحة والعيش
الكريم وعنوانا للحق .

ويقول بدر الدين العيني : « وأحسن ما قيل في هذه الواقعة قصيدة شمس الدين
الطبي » .

والقصيدة — في الحق — فريدة في بابها لجملة أسباب ، منها أنها لم تبدأ بالمدح
ولا بما يشعر به أو يمهده ، وإنما بدأت مباشرة بالحديث عن القتال وذكر
أدواته . وأنها لم تتحدث عن قتال الواقعة نفسها أو أدوات ذاتها ، وإنما عجمت
القتال والأدوات . وأنها أوردت ذلك الحديث مشبها الغزل وما فيه من الوجد
والعشق والهيام ، فقد تغزل الشاعر في القتال وأدواته غزل المستهام المغرم

(١) الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، لأبي بكرانودادارى ، وهو الجزء التاسع
من كتابه الكبير كنز الدرر وجامع الفرص ٩٣ . وعقد الجمان لبدر العيني ، المجلد ٦٩٨-٧٠٧
ص ٣٠٣ .

والعاشق المتيم . وقد مزج فعلا مزج الموازن والمقارن ، بين ملابسات القتال
وملابسات الغزل والتشبيب واختار الأولى على الثانية . يقول وكأن في قوله
شيئا من الحكم الحماسية :

برق الصوارم للأبصار يختطف	والنقع يحكى سخابا بالدها تكف
أحلى وأعلى وأعلى قيمة وسنا	من ريق ثغر الغواني حين ترتشف
ومن قدود القنسامشى شغفت به	لا بالقدود التى قد زانها الهيف
ومن غدا بالحدود الحر ذا كف	فإننى بخدود البيض لى كف
ولامة الحرب فى عينى أحسن من	لام العذار الذى فى الخد منعطف
كلاهما زرد هذا يفيد وذا	يردى فشأنهما فى الفعل مختلف
والخيل فى طلب الأوتار صاهلة	ألد لحنا من الأوتار تختلف
ما مجلس الشرب والأقداح دائرة	كموقف الحرب والأبطال تزدلف
والعز من تحت ظل الرمح مقترن	بالعز والذل يأباه الفقى الصلف

ثم يأخذ الشاعر فى الحديث عن فتيان الإسلام الذين يحمونه ويقون ملته
وناصريه ويجاهدون فى سبيله ، فيعلى مكانتهم ويرفع منزلتهم فى حماسة بادية
وحمية بارزة فيقول :

لا عيش إلا لفتيان إذا انتدبوا	ثاروا وإن بذلوا فى غمة كشفوا
تقى بهم ملة الإسلام ناصرها	كما بقى الدرة المكنونة الصدف
وجاهدوا فى سبيل الله فانتصروا	من بعد ظلم ومما سادهم أنفوا
لما أتتهم جيوش الكفر يقدمهم	رأس الضلال الذى فى عقله خرف
جاءوا وكل مقام ظل مضطربا	منهم وكل مقام بات يرتجف

ثم يبدأ الشاعر فى وصف المعركة الأصيلية فى مرج الصفر ، فيخاطب هذا
المرج ويسأله عن حوادثه ويذاكره عن أبنائه فيقول :

يا مرج صفر بيضت الوجوه كما
أزهر روضك أزهى عند نفحته
غدران أرضك قد أضحيت لواردها
زالت على كتف المصري أرجلهم
فعلت من قبل فالإسلام يؤتف
أم يانعات رهوس قبل تقتطف
ممزوجة بدماء المغل تغترف
فليس يدرون أنى تؤكل الكتف

واستمر في وصف المعركة حتى قال مبينا عاقبة هؤلاء الأعداء بين الفرار
والأسر والقتل :

فروا من السيف ملعونين حيث سروا
ويقول :
وقتلوا في البرارى حيثما ثقفوا

وملت الأرض قتلاهم بما قذقت
والطير والوحش قد عافت لحومهم
ردوا فكل طريق نحو أرضهم
منهم وقد ضاق منها المهمة القذف
ففي مراح الضواري منهم قذف
يدل جاهلها الأشلاء والجيف .. الخ

ويأبى الشاعر إلا أن يظهر هو أيضا ما في نفسه من التطالع إلى استرداد
بغداد من يد التتار وضمها إلى بلاد السلطنة العربية المصرية، فيقول مرسلًا البشرى
بهلاكهم إلى ملك العراق !....!

يا برق بلغ إلى غازان قصتهم
بشر بهلكهم ملك العراق لىكى
ويختتم الشاعر بحمد الله سبحانه وتعالى ، ومدح السلطان الناصر :
فالحمد لله معطى النصر فاصره
وصف بقصتهم من فوق ما تصف
يعطيك حلوانها حلوان والنجف
وكاشف الضر حيث الحال منكشف (١)

(١) عقد الجمان للبدر العيني ، المجلد (٦٩٨ - ٨٧٠٧) ص ٣٠٦ - مصور بدار الكتب . -
والحلوان : بضم أوله ، أجرة الدلال والكاهن ومهر المرأة ، أو ما تعطاه على متعتها ، أو ما أعطى من
نحو رشوة . ويقال : لأحلونك حلوانك أى لأجزينك جزاءك . وحلوان بلد ، وقرية .

عين الشعر بين الناصر محمد والمظفر بيبرس :

وقد أشرنا من قبل إلى أن الناصر محمد بن قلاوون وعهده لم يسلمها من الفتن الضاربة .

فلنحدثك ببعض الطرائف عنها ، ولنذكر على أن عين الشعر كانت تلاحظها وتعيها وتتحدث أحيانا بلغتها عنها .

ذلك أنه قيل إن الملك الناصر المذكور لما سار إلى الكرك عام ٧٠٨ هـ وخلع نفسه من السلطنة على أثر خلاف بينه وبين أتابكيه «بيبرس الجاشنكير» اختار الأمراء بيبرس هذا سلطانا وقام بنصرته رجال عدة عاونوه على مله على ولقبوه بالمظفر .

منهم الخليفة العباسي أبو الربيع سليمان . وهو الذي عهد إليه بالسلطنة بعد نزول الناصر عنها ، وكتب له بذلك عهداً - ومنهم المنشئ علاء الدين بن عبد الظاهر وهو الذي أنشأ العهد المذكور .

ومنهم القاضي بدر الدين بن جماعة ، وهو الذي أفتى للمسلمين بقتال الناصر . ومنهم الشيخ شمس الدين بن عدلان ، أفتى بأن الناصر خارجي وقتاله جائز . ومنهم الشاعر الشيخ صدر الدين بن المرحل ، وكان قد نظم في الموضوع قصيدة هجا فيها الناصر وغمزه .

ولما عاد الناصر إلى مله ، شرع يعاتب أنصار بيبرس ، ويوبخهم على ما أقدمهم ويذكرهم بسيناتهم نحوه ... فقال للخليفة : -

هل أنا خارجي ، ويبيبرس من سلالة بني العباس ؟

وقال للقاضي علاء الدين بن عبد الظاهر : يا أسود الوجه ...

وقال للقاضي بدر الدين بن جماعة : كيف تفتي المسلمين بقتالي ؟ فقال معاذ الله أن تكون الفتوى كذلك ، وإنما الفتوى على مقتضى كلام المستفتي . « فعزله عن القضاء » .

وقال لصدر الدين بن المرحل : كيف تقول في قصيدتك :

ما للصبي وما للملك يكفله شأن الصبي بغير الملك مألوف
خلف ابن المرحل أنه ما قال هذا ، وإنما أعداؤه زادوا هذا البيت في القصيدة .
والعمو من شيم الملوك . فعفا الناصر عنه .
وجاء الشيخ شمس الدين بن عدلان يستأذن للدخول على الناصر . فلم يأذن له
وقال لدواداره : قل له : أنت أفقتت أنه خارجي وقتله جائز . مالك عنده دخول .
ولكن الدوادار عرف السلطان أنه يكفى ابن عدلان وابن المرحل ، ما قاله
الشارمساحي في حقهما ... وكان الأديب شهاب الدين أحمد بن عبيد الدائم
الشارمساحي الماجن ، قال في تهنئته للناصر بعودته :

ولى المظفر لما فاته الظفر وناصر الحق وافي وهو منتصر
وقد طوى الله من بين الورى فتنا كادت على عصبة الإسلام تنتشر
فقل لبيبرس إن الدهر ألبسه أثواب عارية في طولها فصر
لما تولى تولى الخير عن أمم لم يحمدا أمره فيها ولا شكروا
وكيف تمشى به الأحوال في زمن لا النيل أوفى ولا وافهم مطر
ومن يقوم ابن عدلان بنصرته وابن المرحل قل لي كيف ينتصر
وكان النيل لم يوف سنة تولى المظفر ، وارتفع السعر (١) .

ومن الطريف أن الزجل شارك في بعض هذه الحوادث . فإنه لما شح النيل
عام ٧٠٩ هـ وكان الناصر بن قلاوون قد خلع نفسه من السلطنة ، وولى مكانه المظفر
ركن الدين بيبرس . وكان بالناصر شيء من العرج ، وكان بسلاّر نائب السلطنة
بعض شعرات في فمه مع أنه أجرد ، فأطلق العامة على الناصر « الأعرج » ، وعلى
بيبرس « ركين » ، وعلى سلاّر « دقین » ، وغنوا بهذه المناسبة قائلين متفكّمين :
سلطانا ركين ونائبو دقین يجبنا الماء من أين
هاتوا لنا الأعرج يجي الماء يدحرج (٢)

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر سلاطين مصر - والدهر الفاخر للدواداري ص ١٩١ .

(٢) بدائع الزهور ج ١ حوادث عام ٧٠٩ .

وكان المظفر بيبرس الجاشنكير ، بعد أن سلب الملك من الناصر بن قلاوون قد أخذ يضايق الناصر . وكان هذا قد سار إلى السكر - كما روينا - وارتضاها مقاماله .. فلما رأى ذلك سار إلى دمشق عام ٧٠٨ هـ والتف به كثير من الأمراء فانتظم أمره بها . ثم زحف إلى مصر . ففر بيبرس من وجهه إلى أسوان ، وجلس الناصر على كرسي سلطنته يوم عيد الفطر ، ثم وجهه إلى بيبرس من أحضره فسيجنه ثم خنقه ... وكان ذلك عام ٧٠٩ هـ .

فقال الشاعر علاء الدين الوداعي يعبر عن الفرحة بعودة الناصر :

الملك الناصر قد أقبلت دولته مشرقة الشمس
عاد إلى كرسية مثلها عاد سليمان إلى الكرسي (١)

وقال الأديب صلاح الدين الصفدي في المعنى نفسه :

ثنى عطف مصر حين وافى قدوم الناصر الملك الخبير
فذل الجاشنكير بلا لقاء وأمسى وهو ذوجأش نكير
إذا لم تعضد الأقدار شخصا فأول ما يراع من النصير (٢)

وبرز إلى الميدان شعراء آخرون غير من نوهنا بهم ، نظموا في هذه العودة ، ومنهم ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر ، وشمس الدين بن سواده ، ومحمد بن موسى ، ومحمد المنبجي البزاز ، وناصر الدين بن النقيب ، قدموا التهنية للناصر . وامتزجت كلماتهم امتزاجا كبيرا بمدحه وذكر جهاده للأعداء وانتصاره عليهم . ويقول ناصر الدين بن النقيب :

عاد الملك صاحب الملك عادا ثم أبدى النعمة لنا وأعادا
مرحبا مرحبا بأوفى ملوك الأرض قدرا في ملكه وسدادا
ومن شعره ينوه بهيبته في قلوب أعدائه :

أسكن الخوف في قلوب أعاديته م فقلت تطوى الربا والوهادا

قرن الرعب في محمد بالنصر م ولم يشرع القنسا الميادا
وأذات له المهابة أعداه فأعطوه صاغرين القيادا.... الخ (١)

الالغاز في ميدان السياسة :

وكان الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري ، الذي كان مملوكا للمنصور
قلاوون ، وترقى في سلك الإمارة حتى بلغ نيابة السلطنة في عصر السلطان لاجين ،
قد حظى كذلك لدى الناصر بن قلاوون ، ثم فسد ما بينهما ، ففر مع جماعة إلى
« خربندا » ملك التتار ، فأعجب به وزوجه بترية حسناء .

وكان من أمره أنه لما فر من وجه الناصر بن قلاوون ، اتصل بالأمير جمال
الدين الأفرم نائب الشام ، وكان هو الآخر على غراره قد فسد ما بينه وبين
الناصر . فتذاكرا الأمر ورأى الأفرم أن يتصل بالشيخ صدر الدين بن الوكيل
الأديب الشاعر المعروف بابن المرحل ، ويطلب إليه أن يتعرف الأحوال بمصر ،
ويتحسس الأنباء ، ويفهم اتجاه الناصر بشأنهما ، ثم يكتب إليه في ذلك شعراء
ويلغز فيه ، حتى لا ينكشف أمره .

ونهض ابن المرحل بالأمر ، وعرف أن خاطر الناصر لا يزال متغيرا ، وأنهما
لن تطيب لهما الإقامة بمصر . وكتب إلى الأفرم أبياتا ساقها مساق الشوق
والحنين ، وملاها بالأسف والألم على ماضى من الأيام التي لن تعود ، وأظهر
التوجع للحالة الراهنة التي لم يعد فيها نصرة ولا نعيم ، ولم ترق فيها الآصال ،
ولا حركت ربح الصبا بطرب غصنا ، وأنه يلاقى ما يلاقى من الضنى ، إلى غير
ذلك

ففهم الأفرم ما يعنيه ابن المرحل ، فأرسل إليه جائزة ، ولحق بقراسنقر

(١) راجع أخبار هذه العودة وما قيل فيها من شعر في ص ١٩٠ إلى ١٩٥ من كتاب الدر الفاخر
للدوادارى .

ورحلا إلى ماردين والتحقا بالتتار

يقول ابن المرحل في أبياته :

أيا جيرة بالقصر كان لهم مغنى رحلتهم فعاد القصر لفظا بلامعنى
وأظلم لما غاب نور جماله وقد كان من شمس الضحا نوره أسنى
يعز علينا أن نرى الدار بعدكم وبما نحن فيها سادق مثلها كنا
ومنها يصف وحدته وتغير زمانه :

ولا غنت الورقا فأشجبت بصوتها ولا هزج يحزى ولا مطرب غنى
ولا رقت الآصال إلا صباية ولا حركت ريح الصبا طربا غصنا
إلى أن يقول - والإلغاز في هذا البيت :

وإني ألاقى ما ألاقى من الذى لسمعى قد أصمى وجسمى قد أضنى
ويختتم بهذين البيتين ، وهما من الوادى نفسه :
وكنتم لنا من إن دعونا يؤمنوا وإن هم دعوا أن يجمع الشمع أمنا
وإن عادت الأيام تجمع شملنا سجدنا لرب العرش شكرنا وشكرنا (١)

صفى الدين الحلى والناصر بن قلاوون والعلاء بن الأثير :

ولصفى الدين الحلى حديث جميل مع الناصر بن قلاوون ، ومع وزيره وكاتب
سره علاء الدين بن الأثير .

لقد ذهب صفى الدين إلى الحج عام ٥٧٢٣ هـ . فعرج في أوبته ، على مصر . فلقى
بها حفاوة بالغة وترحيبا عظيما . وكان صفى الدين لا يزال به خوف من العودة إلى
بلاد . وعندما دخل القاهرة مدح علاء الدين ، فرحب به وقدمه إلى السلطان
الناصر فرحب به أيضا .

(١) القصة والأبيات في ص ٢٤١ من كتاب الدر الفاخر للدوادارى . - راجع أيضا كتابنا
عصر سلاطين المماليك مجلد ١ ص ١٢٤ ، ٢٣٢ .

وقد عجبت كيف أن علاء الدين يحتفى كل هذه الحفاوة بصفى الدين ويقدمه إلى الناصر ، ولا يحتفى حفاوة مثلها بابن نباتة ولا يقدمه إلى الناصر . مع أنه أقرب إليه صوتا وأدنى دارا . . أعتقد أنه الخوف من أن يصل إلى الخطوة لدى الناصر وأن يستأثر بالرضا فيظفر بمنصب ديوان الإنشاء - أو أن غضب الناصر على أبيه امتد إليه فجاءه .

ومهما يكن من شيء فقد أشار ابن الأثير على صفى الدين بأن يجمع ديوان شعره .

على أن أثر علاء الدين بن الأثير فيه لم يقتصر على جمع ديوانه ، بل تعداه إلى نواح من النشاط أخرى ، فكثيرا ما كان أقترح عليه النظم فنظم ، وهزه للقريض بخاد وأجاد .

ومن ذلك أنه ذكر له مرة بيتين للشاب الظريف . فيهما جناس تام بين الضرب والعروض لانهاء مثله لغيره وهما :

أحسن كل الناس وجهها وفما إن لم يكن أحق بالحسن فمن
حكى الغزال مقلة ولفقة من ذا رآه مقبلا ولا افتتن (١)

فنظم صفى الدين على هذا الطراز أرجوزة في واحد وثلاثين بيتا ، جانس فيها بين ضرب كل بيت وعروضه جناسا تاما ، ومدح بها الناصر بن قلاوون . قال :

كم قد أفضنا من دموع ودماء على رسوم للديار ودم
وكم قضينا للبكاء منسكا لما تذكرنا بهن من سكن . . . الخ .

ومنها في مدح الملك الناصر بن قلاوون :

ملك غمدا لسائر الناس أبا إن سار في كسب الثناء أو ابن
الناصر الملك الذى فاض جدى خلفته ذا يزن أو ذا جدن . . . الخ (٢)

ولصفى الدين - فى ديوانه - ثلاث قصائد مدح بها الناصر بن قلاوون ، منها

النونية المجنسة السابقة . ومنها بائية عارض بها بائية للمتنبي . ونونية نظمها بمناسبة عيد كسر الخليج ، ووصف في مطلعها ربيع مصر .

والقصيدة البائية : تقع في أكثر من سستين بيتا . ويبدو أنها أولى مدائحه للناصر . فقد قيل في ديوانه إنه نظمها عند قدومه إلى مصر من الحجاز (١) وقد اقترح عليه أرباب الدولة معارضة قصيدة المتنبي التي مطلعها :

بأبي الشמוש الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلابيا
وقد بدأها صفي الدين بالغزل فقال :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا فجعلن حبسات القلوب ذوائبا
وجلون من صبح الوجوه أشعة غادرن فود الليل منها شائبا .. الخ (٢)
وانتقل بعد أبيات إلى مدح الناصر الذي استغرق أكثر من خمسة وأربعين بيتا من القصيدة . أجاد فيها صفي الدين إجادة واضحة . وهو الشاعر القدير الذي أسلم له أسلوب الشعر زمامه يصرفه أنى شاء وكيف شاء .

والملاحظ أن أمداح صفي الدين هذه تدور حول المعاني العامة التي تنسب عادة للملوك الصياد ، وتتصل بما لهم من خلق حسن ورأى صائب وحيلة بارعة وكرم ربح وشجاعة غامرة وخطوة على الأعداء وعدالة في الرعية ، ومهابة بادية وتقوى مشهورة ودعاية للدين مطردة ، إلى غير ذلك ... ولا تخلو الصور الشعرية المعبرة عن جزئيات هذه المعاني العامة من مبالغات وتهاويل . وهذا هو النسق الذي اتبعه صفي الدين في قصيدته .

ولم يتناول صفي الدين أحداث الحياة الواقعة في مصر ، ولا وقائع حروبها ولا مغامرات سلطانها العملية ، موضوعا لشعره وتسجيلاته وتصويراته . لم ينسج على منوال ابن عبد الظاهر ، ولا الشهاب الحلبي مثلا ، وإنما مشى في الطريق الذي مشى فيه ابن نباتة من ذلك ، وجنح جنوبا كاملا إلى المدح .

أقول ذلك ، وأعجب لصفي الدين ، كيف يرضى بهذا المديح العادى ، وهو الفارس المحارب والحماسى الملهب ، والذي لبث زمانه يحرص ملوك ماردین وغيرهم على مناجزة أعدائهم من الثائرين عليهم أو من التتار المناوئين لهم والطامعين فى أرضهم . ولعل سبب ذلك خلو الوقت - حينذاك - من كبريات حوادث السياسة .

والقصيدة النونية : تقع فى نحو سبعة وستين بيتا ، وقد استغرق فيها وصفه ربيع مصر نحو عشرين بيتا . ومستوى نسجها كمستوى سابقتها . ومدار معانيها مدار سابقتها أيضا . ومطلعها :

خلع الربيع على غصون البان حللا فواضلها على الكشبان
ومن مدحه للملك الناصر قوله :

الناصر الملك الذى فى عصره شكر الأطباء صنیعة السرحان
ملك إذا اكتحل الملوك بنوره خروا لهيبته على الأذقان ... الخ (١)

الناصر بن قلاوون فى شعر ابن نباتة :

وقد لاحظنا أن ابن نباتة على طول ما مدح أمراء الشام ومصر ووزاءهما كالمؤيد صاحب حماة وابنه الأفضل ، وكأبناء فضل الله العمرى وبخاصة شهاب الدين وعلاء الدين ، وككاتب السر علاء الدين بن الأثير وغيرهم ممن ذكرنا ومن لم نذكر - وقصارى هؤلاء جميعا أنهم أتباع للسلطان فى مصر ، وبخاصة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، نقول إنه على طول ما مدح هؤلاء ، لم ينوه فى قصيدة من قصائده مدحه باسم الناصر ولا عرض له بمدح ، إلا نادرا جدا . مع أن فرص الحديث عن الناصر تسنح له فى كل قصيدة ، إذا أراد لها أن تسنح .

يبدو لنا أن ابن نباتة تعمد أن يغفل اسم الناصر ، وأنف أن يذكره فى شعره أو ينوه به ، مادام هو لم يهتم به أو يتنبه إليه أو أغفل أمره . مع أن شعره

كان في عهد الناصر قد شرق وغرب ، وملاً الأذان وسارت به الركبان .

وإذا كان والد ابن نباتة قد أساء إلى السلطان الناصر ، بصورة من الصور ، وكان من أتباع خصمه بيبرس الجاشنكير ، فما ذنب عبقرية فذة ، ونفسية فسيحة المدى رحبة ، كابن نباتة ، تشرذ في خارج مصر ، وتحرم منها مصر هذا الحرمان الطويل الذي استمر نحو خمسين عاماً . . . إنها جنائية الصلف أو الغفلة . .

وربما يطالعك فيما سنعرضه عليك من شعر ابن نباتة في الناصر حسن بن الناصر محمد ، حين دعتة المقادير أخيراً إلى مدحه ، ذكر لأبيه الناصر . وسترى أن أنفة ابن نباتة لم تفارقه حتى في هذه المناسبة . فإن ذكر الناصر محمد بن قلاوون ، ذكره على عجلة ويسر ووجازة .

خلفاء الناصر بن قلاوون والشعر :

ومات الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٤١ هـ . فتوالى على السلطنة نحو اثني عشر سلطاناً من آل قلاوون ما بين أحداث وصغار ، وما بين شبان ماجنين لاهين في أغلب أمرهم . ف وقعت البلاد فريسة للفتن والمؤامرات الأهلية طيلة أربعين عاماً تقريباً . حتى انتقلت السلطنة إلى يد الجراكسة ، وأول سلاطينهم الظاهر برقوق .

وما يذكر أنه لما مات الناصر المذكور ، ولي السلطنة بعده ابنه المنصور سيف الدين أبو بكر . ثم خلع وقتل في قوص . وأقيم مكانه أخوه علاء الدين كجك ولقب بالملك الأشرف . وكانت سنه دون ست سنين . فقال بعض الشعراء في ذلك يصور طفولة السلطان ، والخلف بين أمرائه ، وإغفال المصالح العامة ما بين ذلك :

سلطاننا اليوم طفل والأكابر في خلف وبينهم الشيطان قد نزا

فكيف يطمع من يغشاه مظلمة أن يبلغ السؤل والسلطان ما بلغا^(١)

ولما ولي السلطان الكامل شعبان بن الناصر محمد عام ٥٧٤ هـ ، قال الشاعر جمال الدين بن نباتة يهنئته :

طلعة سلطاننا تبذت بكامل السعد في الطلوع
فاعجب لها منه كيف أبدت هلال شعبان في ربيع^(٢)

ويبدو أن ابن نباتة اتصل اتصالا ما بالسلطان الكامل شعبان . ولعل ذلك لأنه أعاده إلى التوقيع بديوان الإنشاء بالشام^(٣) ولذلك هنأه ثم مدحه في قصيدة أخرى تغزل في صدرها قائلا :

قسما بغض قوامه المتمايل إني لتعجبني عليه بلالي
ويطيب أفواه العواذل ذكره حتى أحم بلثم ثغر العاذل
رشا سرفت مدامعي في حبه ياللقتيال بكى لحب القاتل . . الخ
حتى يقول مادحا كعادته مع الملوك وغيرهم :

ملك رأيت الشهب ثم رأيت فوجدته أعبا على المتطاول
وقصدت عذب البحر ثم قصده فوجدته أدنى إلى المتناول
نقلت شمائله صفات جدوده نقل الرياض عن الغمام الهاطل . . الخ

ونعتقد أنه صرح في هذه القصيدة بسبب أمداحه لهذا السلطان — الكامل — وإن كان تصريحاً عاماً لا تخصيص فيه . فقد قال إنه فاز في الشام بما يفوق ظن الآمل ، وإنه قبض من مآربه بالكامل ، وأنه بذلك أمن ريب الزمان . يقول ويورى بلفظ «الكامل» في البيت الثاني :

(٢٠١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر سلاطين مصر .

(٣) راجع ابن نباتة المصري أمير شعراء الشرق .

من مبلغ الأهلين عني أننى فى الشام فزت بفوق ظن الآمل
وأخذت من ريب الزمان أمانه وقبضت حق مآربى بالكامل .. الخ (١)

ولبت الكامل فى الملك سنة وأياما ثم خلع وقتل . وكان من شرار الملوك
ظلمها وعسفا وفسقا . فقال صلاح الدين الصفدى يتهمكم ويسخر ببيت قلاوون ،
موريا :

بيت قلاوون سعادته فى عاجل كانت وفى آجل
حل على أملاكه للردى دين قد استوفاه بالكامل (٢)

وأقيم بعده أخوه زين الدين المظفر حاجى بن الناصر محمد عام ٧٤٧ هـ . وكان
أحق مندفعاً ، قبض على عدد من أمرائه وخنق آخرين وتلمى بتربية الطيور والحمام
واللعب بها ، وغفل عن شئون الدولة . فكانت عاقبته مؤامرة أطاحت به وقطعت
عنقه ، بعد سلطنة دامت سنة وثلاثة أشهر . فقال صلاح الصفدى :

أيها العاقل اللبيب تفكر فى المليك المظفر الضرغام
كم تمادى فى البغى والغى حتى كان بعث الحمام حد الحمام (٣)
وقال أيضا :

حان الردى للمظفر وفى التراب تعفر
كم قد أباد أميرا على المعالى توفر
وقاتل النفس ظللها ذنوبه مات كافر (٤)

(١) ديوان ابن نباتة ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ .

(٢) (٣ و٤) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر سلاطين مصر .

الزجل في الميدان :

وعاصر ملوك هذه الحقبة — أعني منذ وفاة الناصر محمد بن قلاوون إلى قيام دولة الجراكسة — عدد من الشعراء والزجالين ، وهم رجال الحلقة الثالثة التي يعتبر برهان الدين القيرواني رأسا لها . ومن جملتهم شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي . وبهاء الدين أبو حامد السبكي ، وبدر الدين بن الصاحب ، والعز الموصلي والفخر ابن مكائس ، وشهاب الدين العطار وغيرهم . ومن الزجالين قيم الزجل الكبير خلف الغباري .

ويبدو أن الزجل في هذه الحقبة وجد مراحا خصبا وسوقا رائجة لدى ملوكها من قلاوون آل قلاوون وأوائل الدولة الجركسية لعجمتهم الضاربة ولقرب العامة من أفهامهم وضعف فهمهم — في الجملة — للعربية الفصحى وشعرها ، هذا إلى انشغالهم بالفتن الداخلية .

وسنرى أن هذه الظاهرة اطر د وجودها على وجه التقريب ، إلى نهاية العصر ، أعني طول حكم دولة الجراكسة . وذلك لأمر منها — عدا ماسبق — بروز بعض الزجالين الممتازين في ميدان الأدب كالغباري والزيتوني . ومنها ندرة اتجاه السلاطين إلى اصطناع أحد الشعراء في دواوينهم ، ولو باعتباره كاتباً في الديوان لكي يستطيع أن يصحبهم في تحركاتهم ويطلع بحكم عمله على مجاري السياسة والفتن والحروب والمعارك ، فيعمل على تسجيلها . ولذلك لم نجد بين شعر من ذكرناهم من الشعراء وأضرابهم من زملائهم المعاصرين لهم شيئاً من انطباعات البيئة السياسية ، وصفا لحرب ، أو تسجيلاً لمعركة ، أو مدحاً لقائد ، أو إطراء لسلطان ، أو نعتاً لحيل أو سلاح أو فلم ، أو نحو ذلك من مقتضيات هذه البيئة .

نقول ذلك باستثناء شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي ، وباستثناء جمال الدين ابن نبانة من رجال الحلقة السابقة . فقد اتصل كل منهما بالسلطان الناصر حسن

ابن الناصر محمد ، بسبب ما وعلى نحو ما . فكان للبيئة السياسية من كل منهما نصيب
سنحدثك عنه بعد سطور .

وباستثناء تقي الدين بن حجة الحموى من بعدهما في الدولة الجركسية ، وفي
النصف الأول من القرن التاسع ، فقد اتصل بسبب ما بالملك المؤيد شيخ ،
وبعض وزرائه . فكان الاتجاه السياسى والرسمى نصيب من شعره ، سنحدثك
عنه أيضاً بعد صفحات .

ابن نباتة والناصر حسن :

أما جمال الدين بن نباتة المصرى ، فقد كان وهو بدمشق يتطلع إلى العودة لمصر
فاستدعاه السلطان الناصر حسن وأثابه وطيب خاطره ، وطلب إليه أن يقدم إليه
نسخة من ديوان شعره ووظفه في ديوان الإنشاء .

وكان السلطان الناصر حسن قد ولى السلطنة عام ٥٧٤٨ هـ بعد مقتل أخيه المظفر
حاجى . فلبث أقل من أربعة أعوام . ثم تآمر عليه بعض أمرائه فخلعوه وولوا
مكانه أخاه الملك الصالح . فامتألت أيامه فتناً وقلقل وحروباً أهلية ، بين مدبر
دولته الأمير طاز ، وأعدائه وأعداء السلطان . ثم خرج على طاعته بعض أمراء
الشام بزعامه نائب حلب « بليغا أروس » ، فسار إليهم وهزمهم . ثم مالبت أن دبر
له الأمير « شيخو العمرى » ، مؤامرة أودت به وبسلطنته ، وأعادت الناصر حسناً
إلى السلطنة عام ٥٧٥٥ هـ ، فلبث بها نحو سبع سنين آخر ، قام في خلالها بإنشاء مدرسته
المشهوره بحى القلعة . وأمر بإبطال كثير من ألوان الفساد والعادات السيئة .
وبنى فى زمانه الأمير « شيخو العمرى » - الذى صار أتاكسيا - خانقاه شيخو
المشهوره . ثم قتله أحد أتباعه . وما لبث أن ظهر بديلاً منه الأمير « صرغتمش » ،
نخشيته الناصر نخبه . فخلا جو السلطنة للأمير « بليغا » الناصرى مملوك الناصر
حسن ، الذى مالبت أيضاً أن ثار على سيده وخنقه ، وأقام مكانه فى السلطنة
المنصور محمد بن المظفر حاجى ، وذلك عام ٥٧٦٢ هـ .

وكان الناصر حسن إلى جانب حسناته ، له حسنة أخرى وهى عنايته بأهل الأدب والشعر وحبهم لها . ولا أدل على ذلك من أنه قرب إليه شهاب الدين بن أبى حجلة المغربي . حتى كأنه أصبح شاعره الأثير . وكذلك احتفل بابن نباتة . وإن كان ذلك قد صادف الشاعر فى أخريات حياته .

ورويانا أن ابن نباتة كان يتطلع إلى العودة إلى مصر ، وقد كان دائم الحنين إليها وإلى نيلها ، وكان دائم التذكر لأيام صباه بها ولأيام أنسه وإلى ملاعبه . وظل كذلك حتى كبرت سنه وضعف جسده وضائق سبل حيله . فتمنى لو يعود إلى بلاده ليموت بها ويدفن فى ثراها . يقول ذلك فى أبيات باكية من مرثية لصديقه - وما كان أكثر أصدقاءه وأعداءه معا - قاضى القضاة تقي الدين السبكي الذى توفى عام ٧٥٦هـ :

يا ثاريا والشنا والحمد ينشره بقيت أنت وأفتتنا يد الكرب
نم فى مقام نديم غير منقطع ونحن فى نار حزن غير متنب
من لى بمصر التى ضمتك تجمعنا ولو بطون الثرى فيها فىا طربى
ما أعجب الحال لى قلب بمصر وفى دمشق جسمى ودمع العين فى حلب

واستمر على أمه ورجائه حتى أرسل إليه السلطان الناصر حسن عام ٧٦١هـ يستقدمه ، فعاد فاحتفل السلطان بمقدمه - كما رويانا - وأكرمه - وكانت وظيفته التوقيع فى الديوان . ولكنه كان قد عجز عن موالة العمل والمثابرة عليه . فأعفاه السلطان من ذلك مع إجراء راتبه . وأمر بإعادة أبنائه الذين تركهم فى الشام إليه . لينضموا له فى مصر . فقرت عينه وهدأت نفسه . وبلغ آخر الأمر إلى أمنيته ، كما بلغ أعتاب منيته فمدحه ومدح كاتب سره علاء الدين ابن فضل الله .

ويبدو أن قصيدته الرائية التالية كانت من أوائل مدائحه للسلطان الناصر حسن ،

إن لم تكن أولها ، وهى على ما يبدو أول مطولة قالها فيه . فقد بلغت عدة أبياتها نحو سبعين بيتا .

وقد تغزل فى صدرها غزلا لبقا ، فيه مطالع من أشواقه إلى بلاده ومعالم من رغبته فى العودة إليها . فيقول :

بدت فى رداء الشعر باسممة الشجر فعوذتها بالشمس والليل والفجر
ولو شئت قسمت الذوائب مقسما بطيب ليال من ذوائبها العشر
وقبلتها مصرية حلوة اللبى أكرر فى تقبيلها السكر المصرى .. الخ .
إلى أن يقول :

وإنى لمشتاق إلى ظل روضة على النيل أروى العيش منها عن النضر
لئن حثنى باب البريد إلى مصر لقد حثنى باب الزيادة فى النذر
إلى مصر يحلونيلها مخصب الثرى فيغنى الورى فى الحالتين عن القطر .. الخ .
ويتخلص إلى مدح الناصر مبالغا ، فيعتبره إسكندر وقته وسلطان العباد
والمزدان بالعدل والتواضع ، وأنه جمع إلى قضاء عمر حلم عثمان ، وإلى بأس على
سماح أبى بكر ! وينوه بما قدمه من الإحسان للعلم والأدب والأخلاق ، إلى غير
ذلك . يقول :

سلام على إسكندر الوقت إن يفح شذا الذكر عنه فالسلام على الخضر
ويقول :

فهلك بلا جور وحكم بلا هوى وأزر بلا وزر وعز بلا كبر
قضا عمر فى حلم عثمان جامعا لبأس على فى سماح أبى بكر .. الخ .
ويقول :

بصوتك أركان الشريعة شيدت وصينت ثغور كلها باسم الشجر ... الخ
ويعود الشاعر فى خاتمة قصيدته إلى ذكر أمنيته ويتساءل عن تحقيقها تسأول
الآمل الضارع فيقول :

أحقا أرانى فى ثرى عتباته نباتا يحيى واكف المزن بالزهر
وأشد أمداحا تقول لمن أتت مدحتك بالشعرى وغيرك بالشعر
والقصيدة من أنفـس الشعر ، ومما استجابت به نفس الشاعر للملابسات
الحياة التى يحياها ، وتأثر فيها باتصاله برجالها الرسميين . غير أننا نلاحظ فيها
ملاحظتين :

الأولى :

أن الشاعر ظل على مبدئه من عدم ذكر الناصر محمد بن قلاوون . مع أن
مدح الناصر حسن - وهو ابنه - فرصة لذلك . ومدح أبيه مدح له . وحقا ذكره
ونوه به ولـكن فى عجلة وسرعة وتعميم . وذلك حيث يقول :

مضى الشفع من مرأى أبيه وجده وجاء فلا زالت له دولة الوتر
إلى ناصر من ناصر وكذا على مدى جده المنصور مسترسل النصر
أجل بيوت الملك بيت قلاوون وأنت أجل البيت يوارث الدهر . الخ^(١)
قارن هذه السرعة وهذا الإجمال بمداخه للملك الأفضل ، فإنه كان لا يمل من
تفصيل القول عن أبيه المؤيد ، حتى إنه وهو يهنئه بالملك أحال - أو كاد يحيل -
قصيدة التهنئة إلى مـرثية للملك المؤيد من تكرار بكائه عليه .

الثانية :

أن الشاعر لم يتعرض أبدا لذكر أعداء الناصر حسن المحليين - وما كان
أكثرهم كما رأيت - ولا لذكر ما كان بينه وبينهم من فتن ومؤامرات .
وبذلك يكون الشاعر قد استمر على التزام مذهبه فى هذه الناحية وهو ألا يمس
السياسة فى كثير ولا قليل حذرا من غدراتها . وإذا كان قد التزم مذهبه هذا فى
أوائل حياته ، فهو فى أواخرها أحق بالتزامه وأولى ، لئلا يعكـر على نفسه صفو

(١) دايون ابن نباتة فى حروف هذه القصائد .

الحياة إذا أقام بمصر ، سواء أبقى بها الناصر حسن أم فوز وهلك .

ولكن ما كان أحوج البيئة السياسية وما اكتنفها من جلي الحوادث ، إلى قلم ابن نباتة . لقد باعدت بينها وبينه ، فخرها رائع شعره ، حتى إذا قربته إليها كان قد جمد على مبدئه من التزام المديح . .

وعلى نسق مما رأيت تطلق شعر ابن نباتة في مدح الناصر حسن ، ونظم فيه أكثر من قصيدة وأكثر من مقطوعة . وشكره على أمره له بنسخ ديوانه .

ابن أبي حجلة والناصر حسن ورجال عصره :

ووفد على القاهرة واستوطنها شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي التلمساني . وقد ولد ببليد ، ونشأ بدمشق ثم جاء إلى القاهرة ، وولى بها بعض الوظائف ، ولبث حتى توفي .

وحسنت صلته بالسلطان الناصر حسن حفيد قلاوون - ٧٤٨ هـ - ٧٥٢ هـ ، وبعده من أمراء الدولة وأعيانها وعلماؤها وأدباؤها . واشترك في أحداث مصر السياسية والاجتماعية والأدبية . وراسل الشعراء فيها وساجلهم . وأصبح معدودا في جملة أدباؤها ورجالها ونظم فيها بعض أشعاره . وألف في حوادثها وأحوالها بعض مؤلفاته وقدمها إلى الناصر حسن . وبذلك وبغيره بدت آثار بيئاتها واغخه في شعره وتأليفه . وكان نصيب البيئة السياسية من شعره محمودا . وكذلك كان نصيب غيرها من البيئات .

ومن اتصل بهم ابن أبي حجلة ، من الرجال الرسميين ، الصاحب نخر الدين بن الخصيب الذي ولى الوزارة ، فهناه ابن أبي حجلة بالوزارة بقصيدة مدحه بها . وقد بدأها بغزل شهن عذب ، ونوه بحبه لمصر وأهلها ، ثم وصف أقلام الوزير وقدرتها على تصريف أمور الدولة ، وأثنى عليه وأشاد بمكارمه . وقال في مطلعها :

للحظك سهم في القلوب مصيب ولى منه حظ وافر ونصيب
وقال منوها بحب مصر ومتخلصا إلى المدح :

سقى مصر من كأس الغرام ربابه ليمسى بها الندمان وهو طروب
فقلبي لم يبرح محبا لأهلها وعيشي بها بآبن الخصب خصب
وزير لمصر منه كاف وكافل خبير بتدبير الأمور لبيب
وأخذ يصف أقلامه فيقول :

وأقلامه للجيش كالسمر لم تزل يتكف بها في النازلات خطوب الخ (١).

واتصل جبل مودة ابن أبي حجلة بكثير من أمراء زمانه - فضلا عن سلطان
عصره الناصر حسن ، كما سنحدثك - وفي جملة هؤلاء الأمراء :

الأمير سعد الدين بشير الجمدار الذي جدد الجامع الأزهر عام ٧٦١ هـ . وقد
مدحه ابن أبي حجلة ونوه بصنيعه ، فقال يخاطبه من قصيدة تغزل في صدرها
على عادته :

يا جامع الشمل يامن حسن مجلسه حوى المحاسن والآداب والملحاح
ما بات جامعها المعمور منصلحا إلا دعت لك فيه سائر الصلحا الخ (٢)
والأمير يلبغا العمرى الذى كان مملوكا للسلطان الناصر حسن . ثم أعتقه ورقاه
أميرا ، واستمر في رقى مطرد حتى سولت له نفسه فنازع أستاذه ، وأضمر كل منهما
الشر للآخر ، حتى استطاع يلبغا أن يقضى عليه ، وانفرد من بعده بالأمير في الدولة
أتا بكياء يولى في السلطنة من يشاء ويعزل من يشاء ، حتى ثار عليه بعض مماليكه هو
فقتلوه عام ٧٦٨ هـ . بعد أن عاش حياته في فتن وحروب أهلية بينه وبين أعدائه

(١) ديوان ابن أبي حجلة المغربي ، مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٢) ديوان ابن أبي حجلة - مخطوط بدار الكتب المصرية .

من الأمراء والماليك^(١) كما سبق أن نوهنا .

وعاد يلبغا مرة من دمشق فهناه ابن أبي حجلة بقصيدة جيدة ، تائية القافية ،
كأنما كان يعارض بها تائية ابن نباتة في السكال بن الزمـاسكـاني - وسنشير إليها -
فإنها مشربة بروحها ، ومنسوجة على منوالها ، وتقع في نحو ٦٩ بيتاً .

وقد بدأها بالغزل الرقيق ، وهو مسلكه الذي اعتاده غالباً في قصائد
المديح . ثم أفاض في مديح يلبغا وأشاد بهمته في الحروب وشجاعته في القتال ،
وكسره لأعدائه .

وغزله في صدرها غزل مذكر . وقد أكثر ابن أبي حجلة من هذا اللون .
وكان موضع غزله غلمان الأتراك . فإذا تناول غلاماً ، رآه كالسكوكب أو البدر ،
بل الهلال جبينه والسماء رقبته والنجم قرطه وبدر التـم مرآته ، وثغره الدر ،
وعارضه المسك وعذاره سطر من الحسن . . . إلى غير ذلك . ومنه
قوله :

بي أغيد نسبوه للخطا وله سهام لحظ لها فينا إصابات
سلطان حسن من الأتراك بات له من السكواكب مثل البدر هالات . . الخ

ومن أبياته يشيد بشجاعة يلبغا في القتال ، وبهمته في منازلة أعدائه :

أمير جيش غدت في كل نازلة لقومه في رءوس القوم نزلات
ساقـت عزاً مـه سـحب الجيوش لهم وبرقها سيفه والرعد كوسات
لخيله وأعاديـه إذا برزوا في موقف الحرب كرات وفرات . . الخ^(٢)

(١) راجع ترجمة يلبغا العمرى في الدرر الكامنة ج ٤ رقم ١٢١٨ - وفي كتابنا عصر سلاطين
الماليك مجلد ١ ص ١٥٢ .

(٢) ديوان ابن أبي حجلة . مخطوط بدار الكتب المصرية .

ويهمنا في هذا المقام أن نذكر صلة ابن أبي حجلة بالناصر حسن . ويبدو أنها كانت صلة طيبة متينة ، وأن الشاعر وجد من لدن هذا السلطان ما لم يحده . شاعر آخر وأنه أغدق عليه وأعطاه . ولا أدل على ذلك من حفاوة الشاعر البالغة بهذا السلطان . ذلك أنه ألف عدة كتب ورفعها إليه ، ومنها كتابه « ديوان الصبابة » ، وكتابه « سكر دان السلطان » ، وأنه مدحه بأكثر من قصيدة .

ولى السلطان الناصر حسن سلطنة مصر عام ٧٤٨ هـ . وكانت سنة آنذاك ثلاث عشرة سنة . ويبدو أن صغر سنه أملى لبعض أمراء زمانه أن ينشطوا للفتنة ، وتستشرى في نفوسهم الأطماع . ف وقعت فتنة ضارية بين نائب دمشق أرغون شاه وبين نائب طرابلس ، بالشام — جبغا — أدت إلى مصرع الاثنين معا . ثم تأمر بعض الأمراء بخلعوا السلطان وسجنوه بعد أن حكم أقل من أربع سنوات وولوا مكانه أخاه الصالح صلاح الدين عام ٧٥٢ هـ . ولكن الفتن استمرت في طريقها . و وقعت حرب أهلية بين الأمير طاز مدبر الدولة وبين أعدائه من الأمراء ، فانتصر عليهم وسجنهم . ثم خرج عن طاعة السلطان الأمير « بيبغا أروس » ، نائب حلب ومعه عدد من النواب في الشام ، ف وقعت فتنة طاحنة بسبب ذلك . فخرج الصالح في جند كفيف ففقدوا عليه . إلا أن الأمير « شيخو العمري » ، دبر مؤامرة ضده ، فخلعه وأعاد السلطان حسنا إلى ملكه عام ٧٥٥ هـ .

وما لبثت الأمور أن سارت في طريق الفتنة أيضاً ، إذ اغتال الأمير « شيخو » ، بعض مماليكه ، فأصبح الأمير صرغتمش منفردا بالنفوذ ، فخشيه السلطان حسن فقبض عليه وخنقه .

وكان للسلطان مملوكه « يلبغا الناصري » ، الذي رباه ورعاه . هذا الأمير ثار على سيده واستطاع أن يقبض عليه ويخنقه ويرميه في البحر فلم يعثروا على جثته . . . وذلك عام ٧٦٢ هـ . وقد نوهنا بشيء من ذلك .

وهكذا كان عهد الناصر حسن مليئاً بالفوضى والمؤامرات . وهو

صاحب مدرسته - المشهورة جمة القلعة وجامعة الضخم . وقد سبقت إشارتنا إلى ذلك أيضا .

لم يتعرض ابن أبي حجلة في قصائده التي مدح بها هذا السلطان إلى شيء من هذا النزاع ، ولم يشر إليه ولا نوه به ولا سجل شيئا من وقائعها . لقد اكتفى بالمدح الخالص والثناء العاطر ، الذي قدم بين يديه الغزليات الرقيقة .

حتى لقد اتصل حبله - من بعد الملك الناصر حسن - بالملك المنصور محمد بن المظفر حاجي - وهو ابن أخى الناصر حسن وقد ولى الملك بعد مقتل عمه ، وكان عمره أربعة وعشرين عاما ، فمناه ومدحه ونوه في آخر قصيدته هذه بالناصر حسن ، فترحم عليه وذكر مبراته له وإحسانه إليه وتقديره له ، دون أن يشير بشيء إلى مجرى السياسة والفتنة في زمانه .

وواضح أن سبب ذلك هو خوفه وخشيته من الأمير ويلبغا العمري ، الناصري الذي قتل سيده الناصر حسنا ، فقد كان هو الذي وكل إليه تدبير أمور الدولة وصار أتابكيا بها ، وذلك في عهد الملك المنصور بن حاجي المذكور . ويلبغا هذا هو الذي مدحه ابن أبي حجلة المغربي بالفصيدة التي سبق لنا التنويه بها والتمثيل ببعض أبياتها .

وبعد ، فقد مدح ابن أبي حجلة الناصر حسنا بقصيدة رائية جيدة تقع في نحو ٤٤ بيتا . وقدمها بغزل في المذكر والمؤنث رقيق ، ولاكنه استهلك فيه من أبياتها نحو ثلثيها . ويقول في مطلعها :

تبادره بالبدر منه بوادره وتحلو له عند المرور فوادره
وينتقل من غزله إلى مدحه فيقول :

أئن طاب ذلي في هواها فإنني وحقك بمن عز في مصر ناصره
ملك بهز الريح أعطاف قده كما اهتز غصن طار في الحب طائره
(م ٧ - عصر الممالك)

ويقول :

ملك أسود الغاب تحذر بأسه لأن ملوك الأرض طرا تحاذره
تروعهم شهب السما وبررقها وما هي إلا سمره وبواتره .. الخ (١)

وعلى نمط من هذه القصيدة ، ومن بحر ها ورويها نظم قصيدة أخرى في مدح
هذا السلطان في أكثر من ثلاثين بيتا ، قال في أولها متغزلا كعادته ، ويذكر ديار
أحبابه البعيدة والقريبة في المطلع :

لدى سمرات الخى برق يسامره يذكره بالشجر ما هو ذاكره
ومنها في مدح السلطان :

هو الناصر المنصور والعاذل الذى بباطنه ماجاز فى الملك ظاهره
له فى سبيل الله خير ذخيرة وحسن الثنا بين الملوك ذخائره .. الخ
ومنه قوله :

جزى الله عنه نصر ما هو أهله فكم أمنت فى قطرها من يحاوره
جواد غدت نعماء منا قريبة وإن بعدت فى السبق عناضوا مره .. الخ (٢)

وواضح أن نغمة السياسة الخاصة ، والتصدى لوصف الحروب والمعارك ،
والخط على أعداء الإسلام والعرب ، والدعوة الجارفة إلى مناهضتهم ومجاهدتهم ،
قد خف صوتها بعد عصر الناصر بن قلاوون . وسبب ذلك على ما يبدو ، انشغال
السلطين والأمراء بأطماعهم ومؤامراتهم بعضهم ضد بعض ، مرة بمصر ومرة
بالشام . ومع أن هذه الفتن هى بسبب البلاد وذات صلة وثقى بمصيرها ، لم يطرق

(١) مفتتح ديوان الصباية لابن أبى حجلة . - والسمرات : جمع سمرة بفتح فضم ، وهى الشجرة

من الطلح .

(٢) آخر ديوان الصباية لابن أبى حجلة .

الشعراء بابها ولا ولجوا أعتابها ، إلا على رحي و ريبة ، وفي تعميم وشمول . ولعل ذلك خوف وحذر من العاقبة ، والأيام قلب . أو لعله بسبب شعورهم - وهو من شعور الجماهير - أن الطرفين المتنازعين هما على حد سواء بالنسبة للملك والطمع فيه والعبث به ، فلا وجه لإيثار طرف على الآخر ، بخلاف موقفهم إزاء أعداء البلاد من التتار أو الصليبيين .

ولهذا اتجهت الأشعار الموجهة إلى رجال الحكم ، نحو المديح ، وكادت تكون مديحا خالصا ، بخلاف ما شهدناه من الشعر في عصر الناصر بن قلاوون وقبلة ، فقد كان المديح فيه لونا من ألوانه وصبغا من أصباغه ، وله نصيب من الآبيات قليل . ويبدأ الشاعر قصيدته بتكبيره الدين وبما يشعر بالنصر والظفر ، ويثني بضجيج الحرب وحديث السياسة والتحام الأبطال . أما الآن فيبدأ الشاعر بالغزل الطريف يؤنثه إذا شاء أو يذكره . وينساب منه إلى مديح السلطان كأنما يتغزل في غلام من الغلمان . . .

يقول ابن أبي حجلة من قصيدته السابقة في مدح السلطان حسن :

فدحى له مدح المحب حبيبه إذا زاره والليل قد نام ساهره
وحى له ما إن يقاس بغيره لأنى قيس الحب فيه وعامره ... الخ (١)

وقد مدح شاعر عصره برهان الدين القيراطي السلطان الناصر حسنا بقصيدة عامرة الآبيات ، فيها جزالته وفيها أيضا رفته . تبلغ عدتها نحو ٤٥ بيتا . وجرى فيها مجرى ابن أبي حجلة ، من تصديرها بالغزل التقليدي ، فاستهلك فيه سبعة عشر بيتا . وفي مطلعها يقول :

لم ينقلوا عنى الغرام مزورا ما كان حبيكم حديثا يفترى

وقضى مع سلطانه بقية الآيات مادحا . غير أنه افترق في بعضها عن منهج ابن أبي حجلة ، إذ اتجه بمدحه إلى الإشادة بفروسية السلطان وأنه وهبها ، كما وهب الرأي للملك وللإسلام ولمصر . ووصفه يوم الروح - أى يوم روح - وأشار إلى أثره في أعدائه وذكر جيشه وخيله وكأنه وصوارمه ، إلى غير ذلك ، يقول :

ما لاح يوم الروح كوكب سيفه إلا وأضحى في النفوس مؤثرا
لبست بحمر دماهم وبيضه أعداؤه ثوب الهلاك مشهرا
ذو الجيش تسبح في الدماء جياده فتظن أشهبها هنالك أحمر
عقدت حوافرها الغبار فألفت في الجو ما بين الثريا والثرى
خيل ترى تحت السكامة كأنها عقبان جو فوقها أسد الشرى ... إلخ (١)
ولعل القيراطى يقصد بأعدائه ، أعداءه المحليين ، ولم يفصح عنهم ...

الغبارى والأشرف شعبان :

وقتل السلطان الناصر حسن عام ٧٦٢ هـ . وولى السلطنة من بعده أربعة من آل قلاوون هم المنصور محمد بن حاجى ، والأشرف شعبان بن حسين ، والمنصور على بن الأشرف شعبان ، والصالح أمير حاج بن شعبان أيضا . وكان الزجل قد اشتد ساعده وقوى أزره بظهور قيمه القدير خلف الغبارى ، الذى شارك بزجله فى جملة فنون شعرية هامة ، فنافس الشعر منافسة قوية فيها ، ومن بينها الوصف والمدح والتهنئة والرثاء والغزل وتسجيل الحوادث وغير ذلك من الفنون .

وفى ميدان السياسة والاتصال برجال الدولة ، جال الغبارى وصال ، فى حين

(١) ديوان القيراطى (مطلع النيرين) مخطوط بالمكتبة الأزهرية ص ٢٩ .

توارى الشعر الفصيح عن هذا الميدان .
ولا بأس من أن ننوه ببعض صنيع هذا القيم الذى سد الفراغ بأزجاله ،
ولو إلى حد .

فمن ذلك زجله الفريد بمناسبة اعتلاء الأشرف شعبان كرسى السلطنة عام
٧٦٤ هـ ، فهناه تهنئة حارة ، وقال فى مطلعها :

حب قلبى شعبان موفوق رشيد وجما لو أشرق وما لو حدود
وأبوه الحسين وعمه الحسن وارث الملك من جدود لجدود

سل لحظك صارم لقتل العدى وأنت منصور طول المدى والسنين
زعق السعد بين يديك شاريش فرح القلب بعد ما كان حزين
ونصب لك كرسى على المملكة وظهر لك نصره بفتحو المبين
والعصايب من حولك اشتالت خفقت فى الركوب عليك البنود
فاحكم احكم فى مصرنا سلطان فجميع الملاح لحسنك جنود .. الخ (١)

وكان الأشرف شعبان قد ولى السلطنة وهو فى سن العاشرة عام ٧٧٤ هـ
ولبت فيها قرابة أربع عشرة سنة . فدبر له الملك الأمير « يلبغا العمرى » . وفى
عهده غزا صاحب قبرص مدينة الإسكندرية وخربها ، ولم يستطع الأشرف
للحاق به قبل فراره . وثارت ثائرة بعض الأمراء على السلطان وأتابكه « يلبغا »
حتى قضت عليهما . وتولى بعده ابنه المنصور ثم الصالح متوالين .

وكان لمقتل الأشرف شعبان رنة حزن وصدى ألم عميق فى نفس الغبارى ،
حتى إنه رثاه بزجلية رائعة بارعة أودعها مشاعره وأحاسيسه ، وبشأ آلامه
وأوجاعه لمقتل هذا السلطان . ويبدو أنه كان كثير البربه .

وانفردت هذه الزجلية - التي تقع في أكثر من ثمانين بيتاً - باحتوائها على جزء غير يسير من تاريخه في السلطنة والحوادث التي جرت عليه والمؤامرات التي دبرت ضده وأودت به أخيراً.

نقول - انفردت - لأننا حتى الآن ، أى حتى هذه السطور ، لم نجد فيما مر علينا من الشعر إلا وصفا للحروب الخارجية وأمداح الملوك والأمراء والوزراء . أما الفتن الداخلية والثورات المحلية والحروب الأهلية ، فلم تظفر بالذكر في هذا الشعر ، لهذا نحن نبش لهذه الزجلية من هذه الناحية .

وهناك في الحوادث التالية بعض الزجليات الأخرى التي تنحون نحوها ، ينظمها الغباري أيضاً ، وينظمها من بعده بدر الدين الزيتوني . ونعتقد أن الغباري هو الذي سن هذه السنة الحميدة ، التي خلا منها شعر العصر كله في هذه الناحية من حياته .

ويقول الغباري في مطلع الزجلية :

عن منازل طالع القلعة كوكب السعد اختفى حين بار
اقتران زحل مع المريخ كسوف شمس انتقل شعبان

وكان الأشرف شعبان قد ذهب إلى الحج - فانهز أعداؤه الفرصة ودبروا مؤامرة لقتله وهي التي أودت به . وفي ذلك يقول الغباري :

للحجاز لما نوى الأشرف ورجل مع جملة العشاق
خامرت ميه من العسكر ولرصد الغدر جو أجواق
قتلوه شركة وتاريخو للعراق ولا صبهان اتساق
وقد أضخى في الرمال مدفون والذي بيته في طرب فرحان
صار محير والحمام في الدوح ناح لفقدوا باختلاف ألحان

وتبدو رنة الحزن والأسى في الأبيات التالية ، وكذلك يبدو حب الغباري

الأكيد لهذا السلطان ، يرثيه في الأبيات وكأنه يتغزل فيه . . . يقول ، وفي كل بيت صورة شعرية أو أكثر :

ضم الأشرف قبرليت شعري هو لقنديل نور ضياه جامع
أر صدف فيه خالص الجوهر أوفلك فيه غاب قمر طالع
أو تقول غاب فيه أسد ضارى أو حفير جواه حسام قاطع
أو كناس فيه أحسن الغزلان أو حمى فيه أفرس الفرسان
أو جسد فيه روح من الأرواح أو سواد مقلة وفيه إنسان . . الخ (١)

الغبارى والظاهر برقوق :

وكان برقوق بن أنص الجركسى ، قد لمع نجمه في عهد السلطان المنصور على ابن شعبان الذى ولى السلطنة عام ٧٧٨هـ بعد مقتل أبيه . وما زال نجمه فى الصعود حتى صار أتاكيا وصارت أمور الدولة فى يديه .

ويبدو أن خلفا الغبارى استطاع أن يحظى عنده ، بدليل أنه فى عام ٧٨١هـ وقعت فتنة شعواء بين الأتابكى برقوق ، والأمير بركة أحد كبار الأمراء ، بسبب الأمير « إيتمش » ، وانتهت بهزيمة بركة والقبض عليه وسجنه . فتقدم الغبارى إلى برقوق بزجلية جيدة يهنئه فيها بانتصاره فى هذه الحرب الأهلية ، ويسجل وقائعها . وقد بدأها بقوله :

مصر صارت بعد انقباض فى انشراح وقلعها مزخرف والقصور
يا إلهى احفظ لنا برقوق واحرس الجند وانصر المنصور

* * *

جعل الله لكل واقعة سبب ونقول لك سبب هذه الواقعة
بركة راد يعمل على إيتمش وإلى الشام يسيروا سرعة

(١) راجع الزجلية جميعها فى بدائع الزهور ج ١ ص ٢٣٦ بولاق .

طلب الصلح بينهم برقوق فأرسلوا له اخلع عليه خلعه
وبقي بعض ما بقي في النفوس والعليل ما اشتفى بغل الصدور
وقد أمسوا على حذر بايتين وإيش يفيد الحذر مع المقدور.. الخ (١)

واعتدى عربان البحيرة على مدينة دمنهور في العام نفسه - ٧٨١ هـ
فسلبوا ونهبوا. فسير برقوق لردهم وتأديبهم جمعا من الأمراء على رأس حملة
تأديبية عظيمة. فأوقعوا بهم إيقاعا شديدا وأسروا كثيرا من نساءهم وأطفالهم.
وفر زعيمهم: « بدر بن سلام »، وسبق الأسرى إلى القاهرة فكان لدخولهم
وقع كبير.

وفي هذه الحادثة نظم الغباري في تفاصيلها زجلية ليس لها في موضوعها
زميلة مماثلة في الفصيح، على ما نعلم. يقول في أولها:

باسم رب السما أبتدى فارج الهم والكرب
ويفيد الذي حضر قصة الترك والعرب

* * *

جاء الخبر يوم الأربعاء بأن في ليلة الأحد
جاء دمنهور عرب خدوا سوقها واخربوا البلد
وابن سلام أميرهم هو الذي للجميع حشد
فبرزوا ايتمش سريع بمالك وروس نوب
وعدد ماها عدد ويطلبوا لهم طلب.. الخ (٢)

واعتلى برقوق السلطنة بعد أن انتزعها من الصالح أمير حاج. فهناه الغباري،
بزجلية جديدة ومدحه ودعاه، واستبشر بسلطنته. وقال:

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ٣٤٧.

(٢) بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٢ ولعل الحادثة كانت عام ٧٨٣ هـ لا ٧٨١ هـ.

أشرقت دولة المسلمين وزها نجم سعادها الزاهر
وصبح يوم العدل نور وظهر واختفى ليل الظلم بالظاهر

* * *

مصر صارت روضة بهذا الملك زاهيا طيب عبيرها منشوق
وبالاحمر تفاحها في البياض قد تخضب لسلطنة برقوق
ورأينا الشمس بلا زعفران صار مخلق بحملة المخلوق
حمل البسان صناعقو الزاهرة قابلتها شطفت من التامر
زعق الطير شاويش وغنى الحمام رقص الغصن والنسيم الزامر . . الخ (١)

ابن حجة والأمير منطاش :

إذا آلت سلطنة مصر في عام ٧٨٤ هـ إلى برقوق بن آنص الجركسي ، فكان أول ملوك الجراكسة بها . واشترى برقوق مملوكه « تمر بغا الأفضلي » الشهير بمنطاش . فرباه ثم أعتقه ورقاه إلى سلك الإمارة فمات منطاش أن صار مصدر قلق لسيده . فنفاه إلى بلاد الشام . وهناك استطاع منطاش أن يحدث فتنة أزاحت برقوقا من عرشه ، وأعادت إليه الملك الصالح أمير حاج من بني قلاوون . وتمكن منطاش من أن ينفرد بالسلطة في مملكة الصالح . ثم استمر على كيدته لبرقوق ، فرغب في القبض عليه . وكان برقوق مسجوناً في الكرك واجتمع إليه فيها كثير من الأتباع زحف بهم على بلاد الشام فملكها . فخرج إليه منطاش ومعه سلطانه الصالح بحملة كشيقة ، فانتصر عليهم برقوق وعاد إلى مصر سلطاناً .

وبقي منطاش في بلاد الشام يعيث بدمنها وبأطرافها . واجتمعت إليه فئات من الأمراء وطوائف من العربان والتركمان ، ملك بهم دمشق وحماة وحمص وبعليبك

وغيرها . حتى قاد إليه برقوق حملة قوية ناور أنه ببلاد الشام . ثم أعمل الحملة فقبض عليه . فما كان منه إلا أن انتحر .

يبدو أن الأديب الشاعر تقي الدين بن حجة الحموى اتصل في هذه الأثناء بالأمير « منطاش » وبخاصة في المدة التي ملك فيها مدن الشام ، وكذلك حصن سيواس ومدينة حماة حيث هزم أعداءه وقضى على الأحزاب المتجمعة ضده .

وقد مدحه ابن حجة بقصيدة (١) ، على الرغم من تسكفها ، امتلأت بحملة من المعاني والتصورات الطريفة الجميلة ، مع دقة في رعاية النظير . وأشاد فيها بشجاعته وفروسيته : ووصف حروبه ودخوله حماة ، وسجل له انتصاراته في حصن سيواس . وقال ابن حجة عن قصيدته هذه - وهو دائماً معجب بشعره ونتاجه - : « ولعمري أن رواة الركبان سارت بحديث محاسنها » ، مع أن تسكفها واضح - كما أشرنا - وبخاصة قياساً على شعر ابن نباتة والفيراطى والبرزاز وقاضى عجلون .

ومن أبياتها قوله :

إن أبرقت في سما الهيجا صوارمه	رأيت غيث دما الأبطال قد مطرا
فمن رأى منهم برقاً يلوح له	يظنه سيفه الماضى قد اشتهدا
له مطالعة في الحرب حين يرى	دم العدى فوق طرس الأرض قد سطرنا
أن راسل القوم أنشأ في رسائله	سجعات ضرب بها الهامات قد نشرنا
كتابه السيف والخطى له قلم	والرسل أسهم حتف توضح الخبرنا
إن كان قد نظم الأعداء مكيدتهم	فقل لهم إنه من قبلهم شعرا
لأنه ببديع السيف لف لنا	شملاً ولسكن لأرقاب العدى نشرنا
وخط من فوق ألواح الصدور لهم	باباً من الخوف فى أحشائهم وقرا

(١) ذكر ابن حجة أنه مدح منطاش الأفضلى بهذه القصيدة حينما كان كافلاً لحماة : أى نائباً عليها عن سلطان مصر . وكان ذلك فى مطالع شبابه . راجع خزانة الأدب لابن حجة - باب الموارد .

وصار يكتب بالهندي ويعجم بالخطى فعل شجاع قد قرا ودرى
 تراه بالرح بدرا حاملا غصنا وبالتريكة غصنا حاملا قرا
 إن جس عودا لضرب مال سامعه والخیل یرقصها إن حرك الوترا
 كأنما الهام أحداق أضربها سهد وأسیافه فی الحرب طیب کرى
 ومنها یدکر انتصاره على الأحزاب المتجمعة ضده فی حصن سیواس (١) ،
 قوله :

بالأمس فی حصن سیواس تجمعت م الأحزاب نحوک لما أن أتوا زمرا
 فأذکرونا سلیماننا وقد نفروا کأنمل من خوفهم یا آية الشعر
 جاءوا بعین لیقفوا منکم أثرا فما ترکتم لهم عینا ولا أثرا
 ومنها یدکر دخوله مدینة حماة ، وصعوده إلى حصن :

وقد دخلت حماة فہی قد حمیت یابرد قلبی بعزم قط ما فترا
 وقد تجاسر عاصیها وخراسکم طوعا وساق الجوارى نحوکم وجری
 ومنذ صعدت بحمص یوم وقفها حجت أعداک حتی ركبهم نفرا
 ترکتم لسیوف الهند أضحية لما غدوا لک یالیث الوغی بقرا (٢)

ابن حجة والامیر دمرداش الخاصکی :

وشیبه بحديثه مع « منطاش » حديثه مع الایمیر « المقر السبقی دمرداش
 الخاصکی » نائب الشام . فقد التحم بحیشه مع عصابة من الفرنجة عام ٨٠٩
 وبساحل طرابلس الشام نیابة عن سلطان مصر . فنهأه ابن حجة بانتصاره علیهم

(١) سیواس : بلدة بآسيا الصغری يمر بواديها نهر قزل أرمک ، وهی علی مسافة ستین میلا من
 قیساریة « سلوک المقریزی هامش ٣١٣ عن معجم البلدان لیاقوت » .
 (٢) دیوان ابن حجة الحوی « الثمرات الشهية » . وتأهیل الغریب له أيضا - باب المدیج -
 والتریکية : بیضة من الحديد .

ووصف موقعته معهم ، وما كان بينه وبينهم من المقاتلة ، وذكر كيف أنهم أتوه كقطع الليل وأنه أبادهم في ظلماته ، وسميهم « بنى الأصفر » . وسجل له ما نشره بانتصاره هذا في ربوع الشام من الأمن وطيب العيش ، وأنه حى حصن حماة من أعدائه . إلى غير ذلك .

وتلحظ الروح الإسلامية متفشية في بعض الآيات ، كما أنه اعتمد في بعضها على الاقتباس والتوجيه بأسماء سور القرآن الكريم .

وإليك بعض سطور هذه القصيدة ، قال في المطلع :

قرأت نهار الحرب في سورة النصر وأعداك تتلو في التغابن والحشر
إذا جاء نصر الله والفتح زلزلت عداك برعد الخوف يملك العصر
بنو الأصفر اسودت وجوه ليوشمهم وفي أسود البحر ارتدوا بالدماء الحمر
نثرت رقاب القوم مع نظم شملنا بحق لقد أبدعت في النظم والنثر
وفي قطع كالليل لما أتوانلت سيوفك في ظلماته سورة الفجر
بسطهم في البحر ثم كسرتهم نعم أنت عين الدهر في البسط والكسر . الخ

ومنها ، يذكر تأمين الشام على يديه وتأمين غيرها من البلاد والمدن :

وأمنتنا بالشام من بعد خوفنا وجاء الهنا من حيث ندرى ولا ندرى
وطيبة طاب العيش فيها لأهلها وهب نسيم الغرب من ذلك القبر
وحصن حماة أنت أنت حميته بعزيمة ليث لم يخف سطوة الدهر
رددت ملوك الأرض عنه بخيفة تقول وحق العصر إنالني خسر
أطاعك عاصيها ولكن لهم عصي فسنائلهم مارد إلا من النهر
وكم صمموا في أخذها وتجاثروا منعهم أن يقربوا طرف الجسر . الخ

وفي عدة آيات طريقة يصف أدوات حربه ويبرز عملها ، في تشبيهات وصور لطيفة ، وكلها تنبئ عن شجاعته وهمة نفسه وحفاظه على بلاد المسلمين والعرب . وأورد الشاعر وهو يصف سيوف الممدوح وقسيه وأوتار وقناه

وسنانه ، عدة من التوريات المناسبة ، وجملة من الألفاظ الاصطلاحية وجه بها ،
وراعى النظير مراعاة معجبة . يقول إن سيوفه كانت تجر العدى جهرافكأنها
أحرف الجر . وقسيه لازمت الركوع ، وقناه ظلت أغصانها تهتز ، وسنانه يكفى
أبالهب ، وهو منير كالصبح . . . إلى غير ذلك . يقول :

تجر العدى جهراف الخفض رءوسها سيوفك حتى خلتها أحرف الجر
وهذى قسى الحرب أمسى ركوعها لديك ولم تبرح ملازمة الوتر
وتهتز أغصان القنابك فرحة فهل راجعت أيامها فى ربا الزهر
أبالهب يكفى سنانك فى الوغى وتبت يد الأعداء منه إلى الحشر
به زجر الأقران قبل قرانه فقل لبنى لهب : كذا صنعة الزجر
سنان منير يشبه الصبح إن بدا طويل لسان وهو مع أنه جمرى
إذا رمت منه كتم سر عن العدى يسكن ذاك السر فى داخل الصدر

وقد نبهنا إلى ما فى أبيات ابن حجة من تكلف ، وهو كثير مراعاة الصناعة .
يؤثر مراعاة النظير ودقائق الملابس اللفظية ، فعاق شعره عن بلوغ الرتبة
النباتية والقيراطية .

ومن المعلوم أن تيمورلنك التترى شن كثيراً من غاراته على بلاد الشام إبان
سلطنة برقوق وابنه فرج . وأنهما رصدوا لصدده بعض جنودهما وإن لم يلتقوا به .
وقد خلا الشعر من ذكر هذه الحوادث . — على ما نعلم . —

ابن حجر العسقلانى والخليفة المستعين بالله :

وكان الملك المؤيد شيخ ، أميراً وكافلاً ببعض بلاد الشام قبل سلطنته ، وذلك
أيام سلطنة الناصر فرج بن برقوق ، قبل عام ٨١٤ هـ . وكون المؤيد لنفسه حينذاك
حاشية واصطنع رجالاً . وثار فى وجه الناصر فرج ، وعارونه فى ذلك الأمير
« نوروز » الحافظى صديقه ومن أكبر أمراء الشام حينذاك واستطاعا بعد
حروب وانتصارات وهزائم أن يقضيا على السلطان فرج بعد موقعة « اللجون »

بيدهما . ثم رأيا تقسيم النفوذ ، فيختص «نوروز» بناية الشام من غزة إلى
الفرات ، ويختص «شيخ» بالآتابكية في القاهرة — ليكون مدبر الدولة .
واتفقا حسما لما يمكن أن يدب بينهما من النزاع على السلطة ، أن يوليا الخليفة
المستعين بالله العباسي — خليفة ذلك الزمان — ملسكا وسلطانا على البلاد . فتم
ذلك عام ٨١٥ هـ وصار المستعين سلطانا . وقد لقبوه بالعدل . فكان هذا الوضع
غربيا وسط نظام المماليك المقروض من أول العصر ، لولاية السلطنة .

وتقدم الفقيه الحافظ الأديب الشاعر شهاب الدين بن حجر العسقلاني بتهنئته
ومدحه إلى الخليفة المستعين بالله العباسي ، أو الملك العادل . وقد بدأها بالمدح
مباشرة دون غزل في صدرها كما هي عادته ، فقال :

الملك أضحى ثابت الأساس	بالمستعين العادل العباسي
رجعت مكانة آل عم المصطفى	لمحلمها من بعد طول تناسي
ثاني ربيع الآخر الميمون في	يوم الثلاثاء حف بالأعراس
بقدم مهدي الأنام أمينهم	مأمون غيب طاهر الأنفاس
ذو البيت طاف به الرجاء فهل يرى	من قاصد متردد في الياس
فرع نما من هاشم في روضة	زاكي المنابت طيب الأغراس

وتبدو ريح السياسة وثيدة في هذا المديح ، معبرة — إذا صح هذا — عن
شعور الناس — أو شعور بعضهم على الأقل — فإن الشاعر يقول إن الملك أصبح
ثابت الأساس ، فهل كان قبل ذلك غير ثابت الأساس ؟ ، . . والشاعر يعلل قوله
هذا في البيت الثاني مباشرة ، وعبر بذلك عن شعوره أو عن أمله فيقول : رجعت
مكانة آل عم المصطفى لمحلمها

أفهل كان ثمة أمل أو تطلع إلى أن تعود الخلافة العباسية قوية ماسكة كما كانت
من قبل ويكون لها الملك والسلطان ؟ قد يكون شيء من ذلك في نفوس البعض
ولسكنه يكتمه أو لا يعمل له . على أن استقرارنا لحوادث التاريخ وتسلسل وقائعه
واستطلاع مشاعر الناس منها ، لا يعين على تصور شيء من ذلك في نفوسهم

حينذاك . فلعل الشاعر استوحى القول والمعنى من الملابس الوقتية ، وربما يكون قد وقر في نفسه - مع أنه المؤرخ الثبت - أن هذا الموضع سيدوم .
والشاعر يعترف في أبياته بالواقع المرير ، وهو أن هذه السلطنة جاءت الخليفة على غير قياس ، فيقول وقد ذكر الناصر فرجا :

بالخازل المدعو ضد فعالة بالناصر المتناقض الأساس
كم نعمة لله كانت عنده وكأنها في غربة وتناسي
ما زال سر الشربين ضلوعه كالنار أوصحبته للأرماس
كم سن سيئة عليه أثامها حتى القيامة ماله من آس
إلى أن يقول :

وأدالنا منه المليك بمالك أيامه صدرت بغير قياس
والشاعر قبل هذه الأبيات يكيل المديح ويسبغ الثناء على آل العباس جميعا بمناسبة بلوغ رجلهم هذا إلى كرسي السلطنة ، فيقول :

أسد إذا حضروا الوغى وإذا خلوا كانوا لمجلسهم ظباء كناس
مثل الكواكب نوره ما بينهم كالبدر أشرق في دجى الأغلاس
وبكفه عند العلامة آية قلم يضىء إضاءة المقياس
فلبشره للوافدين بهاشم يدعى والإجلال بالعباس
ويعود فيحمد الله على أن عاد الملك إلى بنى العباس بعد إبلاسه ، فيقول :

فالحمد لله المعز لدينه من بعد ما قد كان في الإبلاس
ولكنه يسارع بجانب ذلك إلى ذكر أمراء الدولة - وهم أصحاب السلطة الحقيقية والكلمة النافذة ومالكو القوة - فيقول ، وهو في قوله يعبر عن الواقع المرير المسلم به :

بالسادة الأمراء أركان العلى من بين مدرك ثاره ومواسى
نهضوا بأعباء المناقب وارتضوا فى منصب العليا الأشم الراسى

تركوا العدى صرعى بمعتزك الردى فآله يحرسهم من الوسواس
 وإمامهم بجلاله متقدم تقديم بسم الله فى القرطاس
 وهذا البيت الأخير يحدد بالضبط مركز الخليفة السلطان - إذ ذاك - فى
 وسط هذه المجموعة الضخمة من أمراء زمانه أصحاب الحل والعقد الحقيقين .
 ويبين أنه افتتح لهم فحسب ، وقد استبشرت به بلاد المسلمين .

فاستبشرت أم القرى والأرض من شرق وغرب كالعذيب وفاس
 ويضفى على العباس آيات المديح ويجمع فيه المناقب الحميدة التى كانت للعباس ،
 ويؤكد له جلود الزمان فى إبعاد السلطنة عنه من قبل . - وكأنى به فى توكيده
 هذا ، يتشكك فى استمرار هذا الوضع ! يقول مخاطباً له .

آيات مجدك لا يحاول جحدها فى الناس غير الجاهل الخناس
 ومناقب العباس لم تجمع سوى لحفيده ملك الورى العباس
 لا تنكروا المستعين رياسة فى الملك من بعد الجحود القاسى . الخ (١)
 ولم يستطع الشاعر فى كل ما تناوله فى قصيدته أن يذكر فى صراحة ، أن هذا
 الوضع ينبغى أن يتبع وينبغى أن يستمر ، وينبغى أن تكون السلطنة باطراد فى
 هذا البيت العباسى الثانى . ومهما يكن من شىء ، فقد شارك بجموده هذا فى تسجيل
 إحدى ظواهر المسرح السياسى فى بلاده .

قصائد أخرى لابن حجر :

وبمناسبة الحديث عن قصيدة هذا الشاعر - وهو الحافظ الراوية المؤرخ ابن
 حجر الفقيه الشافعى - لابد لنا من أن نذكر أن ديوانه يتضمن فى باب الملوكمات
 سبع قصائد : هذه القصيدة التى مدح بها السلطان الخليفة العباسى المستعين ،

(١) قصيدة ابن حجر فى ديوانه المخطوط بالمكتبة الأزهرية - وفى حسن المحاضرة للسيوطى ج ١
 باب ذكر خلفاء العباسيين فى مصر .

ومنها أربع قصائد مدح بها الملك الأشرف إسماعيل صاحب اليمن . والخامسة مدح ابنه الملك الناصر بن الملك الأشرف المذكور . والسادسة مدح بها الملك المنصور عبد العزيز صاحب تونس .

وهي قصائد مدح عادية مما يشهد فيها المادح بمناقب الممدوح ويثني عليه لشجاعته وعدله وكرمه وعفته ... الخ .

واعتماد الشاعر أن يتغزل في مقدمة كل قصيدة منها - على غير ما رأيناه في قصيدته في المستعين العباسي .

ونلاحظ بمناسبة هذه القصائد ملحوظتين :

الأولى : أن الشاعر بمدحه ملوك اليمن أو تونس - يفصح لنا عن مدى اتصال أدباء مصر ومصر ، بغيرها من البلاد العربية - كاليمن وتونس - وأن مشاعر الناس فيها كانت متبادلة وأن أمانهم متماثلة ، وأن هذا البعد الفسيح بين حدود البلاد العربية مع صعوبة المواصلات آنذاك ، لم يكن عقبة في سبيل التواصل أيا كان نوعه .

والثانية : أن الشاعر لقب كلا من ملك اليمن ، وملك تونس ، بأمير المسلمين ، فلهذا يقصد بذلك أنه ملك من ملوكهم ، وأمر من أمرائهم ، فحسب .

وإليك بعض أبيانه من قصيدته الأولى التي مدح بها الملك الأشرف إسماعيل صاحب اليمن . قال في مطلعها مشيبا :

صب للفيك بالآشواق محمود	فقيد صبر عن الأحباب مفقود
ناء عن الأهل والأوطان مغترب	وواجد ماله في الصبر موجود ^(١)
متيم قد بكى بعد الدموع دما	كأنما هو في عينيه مفصود... الخ .

ومنها في المدح قوله :

المالح الفضل صفوا فيض راحته والغيث إن جاد تعبانا ومكودود

(١) الموجود : كلمة أطلقت في العصر المملوكي على ما يملكه الإنسان ويدخره من مال ونحف ونحوها ،

والمنايع السرح حيث الأرض من دم من عاداه في خدّها المغبر توريد
والنقع ثار دخانا والظبا شررا وما سوى حطب الأجسام موقود
نام الرعاة وقلب البرق يخفق من رعب به وبطرف النجم تسميد
وفي قصيدته الثانية يسير على نمط من هذا ، ويقول له شاكر اهداياك إليه :
إليك أمير المسلمين بعثتها تضمن شكرى من طريف وتالد
فكم من أياد منك هن مرافقى على الدهر لو يسطو وهن سواعدى . الخ (١)
ولهذا الشاعر قصائد مديح أخرى وجهها إلى بعض الأمراء في مناسبات ،
وهي لا تخرج في جوهرها عن المدائح المعتادة .

ثم نعود إلى الحديث عن الأمير « شيخ » ، فإنه مالم يث بعد ستة أشهر تقريباً
أن وثب على السلطنة وخلع المستعين ، بحجة أن البلاد في حاجة إلى سلطان تركي
حازم يتولى بحسبته قيادتها ، وذلك عام ٨١٦ هـ . وتلقب بالمؤيد .

وقد قدم عليه من رجالات الشام عدد من اصطنعهم من قبل فيها ، فاستخدمهم
في بعض وظائف الدولة . وكان منهم الناصري بن البارزى ، فجعله رئيساً لديوان
الإنشاء ، وتقى الدين بن حجة الحموى شاعر زمانه فجعله منشئاً للديوان .

وكان من الطبيعي أن يشور في وجهه الأمير « نوروز » ، الحافظى . وقد استطاع
المؤيد أن يقبض عليه ويجز رأسه ومهد البلاد الشامية والحلبية ودانت له جميع
البلاد .

وقيل : إن المؤيد كان يفهم الشعر العربى وينظمه ، ويقرب أرباب الفنون .
وكانوا يتباهون في زمانه لجودة فهمه لفنونهم وحسن معرفته بها . وكان يغنى من
فن الموسيقى ويركز الفن . ومن نظمه :

فتنتنا سوائف وخدود وعيون نواعس وقودود
أسرتنا الظبا وهن نعاس وخضعنا لها ونحن الأسود (٢)

(١) راجع ديوان ابن حجر مخطوط بمكتبة الأزهر .

(٢) بدائع الزهور ج ٢ ص ٨ في سياق حديثه عن المؤيد .

ابن حجة والمؤيد شيخ :

ولتقى الدين بن حجة في المؤيد أكثر من مدحة سياسية ، وهى مشربة -
كالمعتاد - بالروح الإسلامية .

ومن بينها قصيدة رائية ، قيل ^(١) إن المراسيم الشريفة برزت له أن ينظمها
ليستوعب فيها الوقائع المؤيدية التى ما برح النصر بها مقترنا . . الخ . فنظم ابن
حجة هذه الرائية وأنشدها بين يدى المؤيد بقلعة الجبل فى يوم مشهود ولبس
بسببها تشريفة وعين فى ديوان الإنشاء .

وقد نوه ابن حجة فى هذه القصيدة بكثير من أعمال المؤيد الحربية وفتوحاته
ووقفاته الرائعة التى توحى بالشجاعة والصبر ، ولا سيما موقعته فى « اللجون » ^(٢)
وكان معه الأمير « نوروز » يعاونه ضد السلطان الناصر فرج وأمرائه وعسكره .
وقد أبدع ابن حجة فى بعض الأبيات كما ترى مما يلى ، قال :

كأس المسرة بالبرية دائر والكون بالملك المؤيد زاهر
ملك من الأنصار قد أمسى لدين محمد وله الأنام تهاجر
يا حامى الحرمين والأقصى ومن لولاه لم يسمر بمكة سامر
والله إن الله نحوك ناظر هذا وما فى العالمين مناظر
فرج على « اللجون » نظم عسكراً وأطاعه فى النظم بحر وافر
فأبنت منه زحافه فى وقفة يامن بأحوال الوقائع شاعر
وجميع هاتيك البغاة بأسرهم دارت عليهم من سطاك دوائر
وعلى ظهور الخيل ماتوا خيفة فكان هاتيك السروج مقابر

(١) راجع ديوانه المخطوط بالمكتبة الأزهرية .

(٢) اللجون : بلا. بالأردن على الحدود الشمالية بينه وبين طبرية عشرون ميلا ويبعد عن الرملة
أربعين ميلا « السلوك هامش ص ٨٤ و ص ٥٩٣ ، ٧٥٤ عن معجم البلدان لياقوت » . وهى بفتح اللام
وضم الجيم ، مع تشديد ها .

صغرت يا شيخ كبار ملوكهم قهرا وما في الخافقين مكابر
وكسرت ناصرهم وما مقداره في ملتقائك وربنا لك ناصر .. الخ
ومنها . يذكر إيقاعه بالفرنجية ، وهزيمتهم وانتصار الإسلام على
يديه . قال :

وكذا الفرنج سبطت على غربانهم من جو عزمك في الحروف كواسر
ولسان سيفك في الحروب بحده قد كلم الأعداء منه زماجر
وغدا على الإسلام منك وقاية لعزير منعتهما يذل الكافر
وتصفدت أعداك في صفد وهم عى وطرف البرج نحوك ناظر
والباب يتلو الفتح حين طرقتـه عند القتال وللفتوح أشائر
ومنها يذكر أعماله أخرى بنواحي الشام وأطرافها في المرقب وصهيون ،
والشهباء وصرخد ، قال :

وكذا فتوح الشام ذكرك خالد فيها وكم لك سيرة وسرائر
وعلوت آدم مرقب وجنيت من صهيون صموتها وأنت مسافر
هامت بك الشهباء شوقا جمجمت فركببتها ولك السعود مسائر
وبصرخد لك وقفة مشهورة وعليك من عين العناية ناظر
ويصف رحمه ونعال خيله في تصورات بديعة فيقول :

وإذا مددت يراع رحلك ماله إلا قلوب الدارعين محابر
ونعال خيلك كالعيون وما لها إلا جماجم من قتلت محاجر
صولحت مسئولولا وعدت مؤيدا للشام منصورا ونجمك ظاهر
ويعود الشاعر إلى ذكر التحام المؤيد بعسكر السلطان فرج ، فيقول :

وأناك عسكر مصر مع سلطانها في أثر ذاك وأنت ليث كاسر
فحصرتهم بالواديين وفرقت تلك الجموع وكل عقل طائر

وكتبت بالهندي فيهم أسطرا وصدورهم تحت الدروع مساطرا
سألوك صلحا بعد إذ فاجأهم هذا وأولهم بمصر عابر
لكنهم خانوك في أيمانهم مذ عاهدوك وأنت نعم الصابر
فورثت أرضهم وجثت ديارهم وملكت نصرهم ومات الناصر
وما زال الشاعر ماضيا في قصيدته هذه على نمط مما رأيت ، يذكر حروب
المؤيد وأعماله وأخلاقه واستيلاءه على سلطنة مصر . حتى قال في الختام :
لا زلت في مصر عزيزا حاكما والشام وادبها بعدلك زاهر
وتقع هذه القصيدة الفريدة في نحو ٨٤ بيتا . ولعل هذا الشاعر هو الوحيد
الذي تعرض في قصائده لوصف حرب أهلية .

واعلى الملك المؤيد عرش مصر ، بعد أن خلع المستعين بالله العباسي .
فنازعه « نوروز الحافظي » ، بالشام ، فجرد عليه المؤيد حملة ثم قبض عليه ودق
عنقه .

وعلى نمط من القصيدة السابقة نظم ابن حجة فريدة أخرى هنا بها المؤيد بهذه
المناسبة ومدحه وذكر ما كان منه من شجاعة وحيلة ، وما كان منه للإسلام من
نصر وظفر في هذه الواقعة وفي غيرها . وأنشدها بين يدي المؤيد بقلعة الجبل
بحضور قاضي القضاة وأعيان الدولة الشريفة . . . وخلع عليه المؤيد تشريفا يليق
بهذا المقام . . .

وقد بدأها الشاعر بقوله ، ذاكرا مقتل نوروز :

أبا النصر قد كنوك ياقاهر العدى ومن بعد هذا لقبوك المؤيدا
فللنصر والتأييد قد جئت ثالثاً فلا عجب أن صرت في الدهر أوحدا
ظفرت بنوروزين في عصرنا الذي به كل يوم منك بالبشر عيدا
ففي مصر نوروز الذي جاء بالوغي وبالشام نوروز الخثون الذي اعتدى

فهذا إلى كل القلوب محب وذا بغضه في كل قلب تأكيداً
ويذكر أيضاً تأييده للدين ونشره للمكارم والعدل فيقول :
وأيدت دين الهاشمي وآله وأمته حقاً نصحت محمداً
وكل عصاة الأرض مذصرت قبله أطاعوا وجاءوا خاضعين وسجداً
وأعداك قد قيدتهم بمكارم ومن وجد الإحسان قيماً تقيداً
ولما نشرت العدل في الأرض فاخترت بمنشورها لها أتاها بمجدداً
واستمر في قصيدته يذكر محامد المؤيد ووقائع حروبه ووقائع إحسانه معاً
في نحو ستين بيتاً بني بها هذه القصيدة .

وهكذا استطاع ابن حجة أن يتابع - إلى حد - تاريخ حياة الملك المؤيد في
سلطنته ، ويسجل شيئاً من حوادثها ، وأن يسهم بهذا النصيب في الاستجابة
لدواعي البيئة السياسية التي عاش فيها ردحاً من الزمن ، والتي كان من أهم مقوماتها
ودعائماً الدفاع عن المسلمين وبلادهم ودينهم ، وعن العروبة وأوطانها .

ابن حجة وصاحب تونس :

وهذه النزعة - في الواقع - لم تكن محدودة الأفق ببلاد المسلمين والعرب على
البحر المتوسط وسواحلها الشرقية وحدها . بل - في الحق - تعدتها إلى غيرها من
البلاد والآفاق . ويدلنا على ذلك القصة التالية :

فقد بلغ صاحب الأندلس محمد بن الأحمر استيلاء الفرنجة على مدينة سبته .
فبعث إلى صاحب تونس بقصيدة دالية يستنهض همته ويستنصره مطلعها :

حماء الهدى سبقا وإن بعد المدى فقد سألتكم نصرها ملة الهدى
وقد أجابه عنه أبو حامد القفصي بقصيدة ، واسكنه لم يوفق فيها فبعث صاحب
تونس إلى مصر رسولاً ومعه القصيدتان ، يطلب قصيدة أخرى مناسبة ليرد بها
على قصيدة صاحب الأندلس .

فنظم تقي الدين بن حجة قصيدة دالية من البحر والروى يرد بها على لسان صاحب تونس . وتقع في نحو ستين بيتا حماسياً يهدد فيها وينذر ، ويوعد .

ويقول فيها :

أجابكم عزم سبقنا به الندى وأسياقنا والله كذبت الصدى
وأخباركم في رفعها إن تقدمت إلينا فإن العزم قد صار مبتدا
ولا عيب في عطف لنا نحو نصركم وكيف وذاك العطف أمسى مؤكدا
وهمزات سمر الخط موصولة غدت بأرضكم إن كان قد بعد المدى
إلى أن يقول مليياً النداء :

فلبيك يامن بالندا صار معلنا وقد رفع الأعلام في حالة النداء
ومديدا ترجو من الشرق نصرة بعيشك فالمرجو قد بسط اليداء
نعم واشترينا منك ما كنت بائعا من العرض الفاني بقاء مخلدا
فلا سيف إلا فارق الجفن طرفه وطاب لذاك الجفن فيه تسهدا

ويقول واعدة ومتوعدا :

وإن لم نعالجكم بفرسان شرقنا وبالأمس قد رمت من الشرق منجدا
فليس كما قلتم نرى السيف صارما ولا الرمح عسالا ولا الطرف أجردا
ولا كانت السمر العوالي لدى الوغى تثنى ولا البيض المواضي لتغمدا
وذا الفرض لا يقضى إذا فات وقته وما نحن عند السير ننوى له الأدا
إذا ما تعبدنا وغنت سيوفنا عليهم يظنوا أن في القوم معبدا
فلا هيكل إلا وقد صار دارسا ولا بيعة إلا وتصبح مسجدا . الخ (١)

(١) راجع ديوان ابن حجة الحموي « جتي الجنتين » مخطوط بدار الكتب المصرية . وقد لحن الشاعر في بعض الكلمات .

ويطالعنا في زمن الملك المؤيد شيخ ، الأديب شمس الدين المنصوري ، محمد
ابن أحمد بن عمر ، ويعرف بابن كبل ، ٧٧٥ هـ - ٨٤٨ هـ . وقد مدح الملك المذكور
بقصيدة ذكر فيها طرفا من جهاده وكفاحه ، بدأها بقوله :

لقد جاء نصر الله والفتح قد بدا فأصبحت منصور اللواء مؤيدا
ويقول :

فأصبح شمل الملك ملتئما بهما وشمل أعاديك اللثام مبددا
ألارب يوم أسود صار أبيضاً بفتح جلا بالبيض ما كان أسودا
ويذكر الشاعر اللبق أن المؤيد جمع بين مصر والشام في سلطنته ، فجمع بذلك
بين أختين . . .

ثم يقدم الشاعر له تحليل ذلك وفتواه بقوله :

جمعت به الأختين مصرا وشامها وليس بحل جمع الأختين في الهدى
ولكن بدا أفتى الحسام وطالما رأيته تستفتي الحسام المهندا . الخ (١)

وزين الدين بن الخراط - المتوفى عام ٨٤٠ هـ - الكاتب الشاعر الأديب
يعتبر من حلبة ابن حجة الحموي . وبينها مشابهة أخرى منها أنه من مواليد حماة
كابن حجة ، وأنه طاف مثله ثم قطن القاهرة ومدح ملوكها ورؤساءها واشتغل
في كتابة الإنشاء أيام رئاسة الناصر ابن البارزي لديوان الإنشاء . وبعد ابن
حجة حل محله في الديوان . ومدح ابن البارزي .

وما يذكر أنه كان يعيش في عصر الأشرف برسباي وكان من مداحه . وقد
أرسل أهل المغرب إلى برسباي في طلب نجدة ، فشارك ابن الخراط بقصيدة
حماسية طنانة ، قال أبو المحاسن في المنهل الصافي : « إنه سمعها منه بلفظه ، وأقسم أن

(١) المنهل الصافي ، في محمد بن أحمد بن عمر « مخطوط بدار الكتب » .

أحدا غيره لا يستطيع أن يجيب بمثلها . . وأمن على ذلك شهاب الدين بن حجر العسقلاني (١) .

تأديب ملك قبرص :

وكانت جزيرة قبرص قد عاشت زمنا طويلا وهي محطة صليبية ، تتجمع فيها قوى الفرنجة ، ومن ثم تعتدى على سواحل مصر والشام وتتلصص على شواطئهما ، وتسيء إلى المسلمين .

وقد جهز لها السلطان الأشرف برسبای حملة بحرية قوية يعاونها جنود بريون . فدهمت الجزيرة وأوقعت بحاميتها وشنتت شمل جنودها ، وأسرت مملكتها « جينوس بن جاك » ، وغيره من رجاله ونسائه وصبيانها ، وهم نحو ألف إنسان . وقد عادت الحملة بهم إلى مصر في شوال عام ٨٢٩ هـ ودخلوا بهم القاهرة في موكب عظيم وخرجوا من باب زويلة إلى الرملة إلى القلعة ، و « جينوس » خلف الأسرى على بغل وهو مقيد بالحديد . فقبل الأرض بين يدي برسبای . وتأثر برسبای لهذا النصر وشكر الله عليه . وظل « جينوس » زمنا بمصر ، حتى فرض السلطان عليه جزية يؤديها سنويا ثم أطلق سراحه .

قال أبو المحاسن : « استمرت الجزية إلى يومنا هذا » .

وقد سجل زين الدين بن الخراط هذا الحادث الفريد في إحدى قصائده ، وبلغت عدتها ثلاثة وسبعين بيتا ، لم يثبت منها أبو المحاسن سوى سبعة أبيات من أولها ، وهي في مديح السلطان . وفيها يقول .

بشرالك يا ملك المليك الأشرف بفتوح قبرص بالحسام المشرف
فتح بشهر الصوم تم له فيا لك أشرف في أشرف في أشرف

(١) المنهل الصافي ج ٢ ورقة ٣٠٣ في ترجمة « عبد الرحمن بن محمد بن سليمان » .

فتحت تفتحت السماوات العلى من أجله بالنصر واللفظ الخفى . الخ (١)

وهكذا ترى أن الشعر الفصيح انتعش بعض الانتعاش في الميدان السياسى فى جيل ابن حجة الحموى . وقد يكون ذلك بسبب تتابع الحوادث السياسية نفسها ، ذات الطابع الخارجى ، ولو إلى حد .

إلا أننا نرى فيما يلى أن الأحداث السياسية والحروب الخارجية ، قد هدأت حدتها إلى حد كبير ، وتفاقم أمر الخلافات والحروب الأهلية الداخلية . الأمر الذى نرجح أنه السبب الأصيل فى تضائل خطى الشعر فى هذا الميدان ، إذ لم يعد له من العوامل والخوافز ما يدفعه إلى الظهور والبروز كما كان شأنه فى أوائل العصر ، وهى الفترة الخصبة فى حياة الدرة التى قضتها فى مكافأة أعدائها فى الخارج مكافأة ذات قيمة وحاسمة .

عودة الزجل :

وبعد فقد كان بروز ابن حجة الحموى فى ميدان السياسة بشعره ، رجعة للشعر الفصيح إلى هذا الميدان ، وصحوة بعد هذه الإغفاءة الطويلة التى انتهزها الزجل فاحتل الميدان وسد الفراغ ، فله الفضل ، بالرغم من تكلفه .

وننبه القارىء إلى أن هذه الظاهرة لم تتعد البيئة السياسية . أما ألوان البيئة الأخرى ، فإن الشعر لم يتخل عن أداء واجبه حيالها وعن الاستجابة لمقتضاياتها كما حدثناك به فى مناسبات أخرى .

وبعد ابن حجة نشاهد ظاهرة الزجل تعود مرة أخرى وتطغى ، ونرى الشعر بجانبه يتضاءل فى هذا الميدان ويستخذى . ويبدو أن سبب ذلك مانو هنا به من قبل ، أعنى ظهور زجال قدير جديد فى الميدان لا يقل مقدرة عن خلف الغبارى . وذلك هو بدر الدين الزيتونى .

يبرز بدر الدين الزيتوني في عصر قايتباي الذي بلغ سلطنة مصر عام ٨٧٢ هـ بعد أن توالى عليها عدة من ملوك الجراكسة امتلأت أيامهم بالفلاقل والفتن ، ومنهم أحمد بن المؤيد شيخ ، والظاهر ططر ، وابنه الصالح ، وبرزباي وابنه العزيز ، وجقمق ، وابنه ، وإينال ، وابنه ، وخشقدم ، وبلباي ، وتمرغا .

وقد حكم الأشرف قايتباي إلى عام ٩٠١ هـ فلبث في السلطنة بذلك زهاء تسع عشرة سنة . وامتلات أيامه كذلك بالحروب والفتن ولسكنه كان قوى الشكيمة احتمل مكاره الملك بقلب صلب . وكانت خزائن الدولة خاوية فاحتال حتى دبرها المال . وانقض الملك «سوار» أحد أمراء التركمان على أملاك الدولة في شمال الشام وحلب . فجرد عليه قايتباي الحملة تلو الأخرى ، حتى كانت حملة عظيمة من بينها ، بقيادة الأمير «يشبك الدرادار» عام ٨٧٥ هـ ، فهزمته وحاصرت قلاعه وبلغت إلى شواطئ نهر جيحون . وما زالت حتى قبضت على «سوار» وعدد ضخم من أتباعه ، فساقهم أسرى أذلاء إلى القاهرة . فقطع الملك رأس «سوار» وعلقه على باب زويلة . وأغار ملك العراقيين «حسن الطويل» على بلاد الشام فردّه على أعقابهم بحملة بقيادة «يشبك» أيضا . ووقعت فتن شديدة في مدينة حماة فأطفأها «يشبك» . وأمعن الأمير «يشبك» في السير شرق الفرات حتى بلغ مدينة الرها ، فحاصرها ، ولسكنه أصيب أمامها بهزيمة منكرة قتل بسببها وقتل جمع من المرافقين له أمراء وجنودا ، وكادت بلاد الشام وحلب بسبب ذلك يفلت زمامها من يد قايتباي ، لولا إسرعه بإرسال حملة جديدة بقيادة الأتابكي «أزبك بن ططخ» فأعادت الأمر إلى نصابه .

وبدأ العثمانيون معاكساتهم للدولة المصرية في أيامه وأخذوا يثيرون ضده الفتن والفلاقل . فقاتلهم أكثر من مرة وانتصر عليهم وساق أسراهم مصفدين في الأغلال . إلى غير ذلك مما لقيه قايتباي خلال مدة حكمه . واعتدى عليه بعض مماليكه فخن ومرض ومات عام ٩٠١ هـ .

وكان من أَرغب السلاطين في إنشاء الأبنية والعمائر النافعة ، ومنها برجه العظيم

بالإسكندرية . غير أنه كان كثير المصادرات وفرض الاتاوات وابتزاز الأموال من الأوقاف . وطاف في بلاد الشام وحلب زهاء أربعة أشهر وعرج على القدس .

الشهاب المنصوري يسجل حادث سوار :

وكان الشهاب المنصوري أحد شعراء عصر الأشرف قايتباي ، البارزين . وقد سجل حادث القبض على سوار ، ذلك القبض الذي تم عام ٨٧٧ هـ بعد ما دوح هذا الأمير الناثر رجال السلطان وجند .

وفي أبيانه التالية يحرض الشاعر سلطانه على شنق سوار على باب زويلة ، ويقول :

يأيها الملك الذي سطواته تغنى عن العسال والبتار
علق سوارا فوق باب زويلة إن كنت منه آخذا بالشار
فلأنت تعلم أن ذلك معصم ماكنت تتركه بغير سوار

ويبدو أن الأشرف قايتباي قد سمع فيما سمع ، نصيحة الشاعر واستجاب لتحريضه ، فشنق سوارا وعلق رأسه على باب زويلة . فقال الشاعر في ذلك مع ترحيبه بمقدم الأمير « يشبك » الدوادار قاهر الملك سوار ، وموريا بلفظ سوار :

منذ وافى الأمير يشبك مصرا حبذا مصر موطن الأوطار
لبست حجل نيلها وتحلى زند بابي زويلة بسوار (١)

الزيتوني يسجل رحلة قايتباي إلى الشام :

وقد تمت هذه الرحلة عام ٨٨٢ هـ . وقد طاف قايتباي في آفاق هذه البلاد

(١) بدائع ابن أبياس . حوات عام ٨٧٧ هـ .

وزار مدنها وقام بحملة أعمال إصلاحية جلية ثم عاد في حفاوة بالغة .

وقد سجل بدر الدين الزيتوني هذه الرحلة وحوادثها بموشحة زجلية طويلة .
وقد قال عنها ابن إياس الحنفى المؤرخ : « وهى من محاسن الفن كلها غرر وجناس تام » . وتبلغ نحو ٥٧ بيتا وهى موشحة نادرة المثال ، كنا نود لو حلت محلها أو زاملتها موشحة فصيحة . وقد تحدث فيها الناظم عن الفرسان من الأمراء والجنود الذين صحبوا قايتباى فى رحلته ، ووصوله إلى بلاد « سوار » شرق الفرات واتصاله بالأمراء والنواب وتقديم الرأى المهم والأوامر العادلة ، والإصلاحات التى قام بها ، والمواكب التى لقيته إلى غير ذلك — وقد قال فى مقدمتها :

سلطاننا الأشرف خرج فى أربعين من العساكر حين سافر حماء
ومن حلب عدى يروم الفرات فاسقى الخيول من ماء ور به حماء

* * *

فى مصر فرسان أربعين بالعدد لدورة المحمل يسوقوا الجياد
ورعهم ساكن قلوب الملوك يردوا الخارج وأهل العناد
فى ذا العدد راح الملك وافتخر بهم على سائر ملوك البلاد
وخوسوار لاقاه وفى صحبته ولد حسن بك بالخدم ما أباه
وخلع عليه أطمى وخلع على ولد حسن خلعة وشئت أباه . . الخ (١)

الزيتونى يرثى قايتباى :

ومات الأشرف قايتباى عام ٩٠١ هـ فرثاه بدر الدين الزيتونى بمرثية هى موشحة زجلية . وقد ضمنها كثير من حوادث زمانه ووقائعهم ومآثراته وفتنه بين الأمراء

ومنها يقول ويشير إلى ابنه الناصر :

يرحم الله سلطاننا الأشرف كان مؤيد على العدى ظاهر
وكذا بنو المظفر المنصور بنصر الله العادل الناصر

لما زاد الضعف بقايتباى والدوادار فى غاية الإمكان
وتوافق مع الأمير تمرار وطلع قانصوه إلى الميدان
وأقى القلعة مع كربتباى والأماراة وهدموا البنيان
هرب أقبردى وقيدوا تمرار وتولى سلطاننا الناصر
من يخالف أمره ومن يعصيه رد مقهور والأمر للقاهر . الخ (١)

الزيتونى يسجل ثورة عرب عزالة :

وولى السلطنة بعد قايتباى ابنه الناصر محمد عام ٥٩٠١ هـ . وكانت أيامه فتناطاحنة
ذهب من جرائها ، بعد أن حكم نحو سنتين وثلاثة أشهر . ووايها من بعده خاله
الظاهر قانصوه عام ٥٩٠٤ هـ . وفى أيامه بعث حملة تأديبية على بلاد حلب والتركمان
حيث انتشر بها نفوذ غريمه الأمير « أقبردى » الدوادار وأعوانه . فعادت
ومعها كثير من الأسرى . وأدب عرب عزالة الضاربين بجبهات البحيرة والعابثين
بنواحيها .

وقد سجل ثورة العربان وتأديب السلطان لهم ، بدر الدين الزيتونى إذ قال
من زجلية فى ذلك :

نحمد الله ونشكرو خالق الجسم والعصب
إذ نصرنا على العرب بالدوادار والعصب

والعرب أكثروا الفساد من عزالة وعزلوا
جو وعدوا وشرقوا وعلى الحرب عولوا
وأهلكوا الحرث والنسل في الضواحي وحملوا
من عزالة عرب طغوا عمرهم في الوغى ذهب
جتهم الترك أرخوا وواقعهم بما الذهب . الخ (١)

ومراده بالعرب ، العربان الذين كانوا يضربون في ظواهر المدن وأطراف
الريف في خيام أو نحوها ويعيشون معيشة فيها استقلال وحرية . وكانوا قليلي
الاختلاط بسكانها ، وكثيرا ما كانوا يتغفلون الناس والرؤساء ويغيرون على
المدن للسلب والنهب :

الزيتوني يرثي دولة الغوري :

ومضى عهد الظاهر قانصوه ومن بعده الأشرف جان بلاط ، والعاذل طومان
باي . ثم أهل عصر الأشرف الغوري ومن بعده الأشرف طومان باي آخر سلاطين
المماليك بمصر الذي قتل عام ٥٩٢٣ هـ .

في هذه العهود لا تكاد تجد ريحا للشعر الفصيح في ميدان السياسة وفي مجال
الاتصال بالرسميين . واستمر الزجل يؤدي دورا لا بأس به في هذا المقام وبخاصة
في مقتل الأشرف الغوري ، إلا نادرا .

فقد مرض السلطان الغوري بمرض في عينيه عانى منه مشقة كبيرة . فقال شاعر
مصر وقرن السلطوني ، الأديب محمد بن قانصوه بن صادق . يدعو للسلطان بالشفاء
عدة أبيات منها :

(١) ابن رياس ج ٢ ص ٣٥٨ ،

شفاك الله يا ملك البرايا من الداء الموكل بالعيون
وأذهب عنهما باللطف منه سقاما محدثا رخو الجفن... الخ
ولما شفى هنأه بأبيات منها :

يا ملكا عدله أرانا تبسما في فم الزمان
وقد حبانا بحار جود قصر عن عدها لساني
اهنا بيرة يلى بقاء مؤيدا مظهر النهانى
لا زلت المملك ذا نظام تبدى به جوهر المعانى (١)

ونقول وبخاصة، في مقتل الأشرف الغورى ، فإن لهذا المقتل أهمية كبيرة جداً في التاريخ المصرى . ذلك أن الغورى الذى ملك من عام ٩٠٦ هـ إلى عام ٩٢٢ هـ صادفته أمور جليلة وخطيرة في أيام حكمه . ومن ذلك تربص العثمانيين به وترقبهم لظروفه حتى يحاربوه طمعاً في امتلاك دولته . وقد خرج إليهم الغورى في حملة مصرية عظيمة كثيرة العدد والعدة . وكانت جديرة بالنصر والظفر لولا الخيانة التى سرت بين قوادها فنسكت فتلهم وفتت جمعهم ، فكانت عاقبتهم الهزيمة النكراء في موقعة « مرج دابق » ، عام ٩٢٢ هـ ، تلك الموقعة التى فتحت الأبواب على مصاريعها للاحتلال العثمانى للعين .

وقد سجل مصرع الغورى وحادث مقتله في المعركة الزجال البارع بدر الدين الزيتونى ، وبلغت مرثيته الباكية نحو ١١٧ بيتاً . سرد فيها المعركة بحوادثها وظروفها وملايساتها ومقدماتها ونتائجها وبكثير من أسماء أبطالها والمشاركين فيها . وإن تجد لزجلية هذه مثيلاً في الشعر أو الزجل ، تعرض لوصف الحملة وعدتها وخروجها ومواكبها .

وفي مقدمتها يقول :

غربت شمس دولة الغورى وابن عثمان نجمو طلوع ساير
وبهذا رب السماء قد حكم والفلك دار ولم يزل دابر

* * *

ابن عثمان باداه بأخذ القلع وبمنع التاجر مع الجلاب
أن يجيبوا إلى مصر مملوك ولا فروة سمور ولا سنجاب
ولا وشق ولا ثعلب يجلبوا ومن الصوف ما عاد يجينا ثياب
على الصوف يا ما قعدنا سنين ما يجي من عندو ولا تاجر
والأماره جو للملك قالوا ابن عثمان باغى علينا جابر

وتراه في هذه الأبيات قد أفصح عن الأسباب المباشرة للحروب ، وهى هذا
الحصار التجارى الذى ضربه ابن عثمان ، ومنع التجار من جلب الممالك إلى
مصر ، وإحضار الصوف ونحوه من الثياب الضرورية للبلاد المصرية .

وقال :

الأمير الكبير سمي سودون للعجم نسبتهو خلاف القياس
والمقر الأشرفى العالى هو أمير سلاح سمي أركاس
وبسودون رأس نوبة النوب لو رياضة مع سائر الأجناس
وانسباى هو حاجب الحجاب لو شجاعة فى الحرب بالباتر
ومحمد يدعى أمير أخور نجل سلطان أشرف عزيز ناصر

وفى هذه الأبيات يذكر الشاعر بعض الأسماء اللامعة من أمراء الدولة المشاهير
فى الحرب والقتال والفروسية . ومنهم سودون العجمى ، وأركاس ، وسودون
رأس النوبة ، وأنسباى حاجب الحجاب ، والناصر محمد بن الغورى ، ويقول
الشاعر :

أشهى النار لقتلة الغورى ولعللى أن أبلغ الأوطار
والتهانى ذات النهار عندى ويغنوا على وتر أوطار

بعد هذا ما أخشى غراب البين إن زعق في دارنا أو طار
والعجائب في قتلة الغورى راح برجلو لقتلتو خاطر
وحسبنا كل الحساب إلا ما جرى لو ما مر بالخاطر... إلخ^(١)
وفي هذه الأبيات ترى الشاعر يندب فقد هذا السلطان ويشتهي أن يشفى غليله
بقتل قتلته وإحراقهم بالنار وبعد ذلك لا يبالي شيئاً . ويذكر أنهم لم يدر بخلد هم
قط ، هذه الخاتمة الحزينة التي رحل إليها الغورى بقدميه .
أعتقد أن الشاعر يتحدث بذلك كله عن مشاعر الجماهير حينذاك ، وما حديثه
إلا رجوع لإحساسها^(٢).

بهذا كله نكون قد سائرنا العصر من أوله إلى آخره مستقرئين الشعر الفصيح
ومعه شيئاً من الزجل ، لنرى إلى أى حد تجاوب الشعر مع البيئة السياسية التي
عاش فيها متأثراً بها وبملايساتها وظروفها . لا ترتاب في أن الشعر في جملته
لم يقصر عن الاستجابة ، وفي الحق نرى أن استجابته للبيئات الأخرى كانت
أوسع وأتم ، وكانت أسرع وأكمل .
ولكن البيئة السياسية هي التي أضنت عليه بكثير من أسباب نشاطه — فإن
كان ثمة تقصير منه وإنما كان ذلك منه ضناً بضن ، وتقتيراً بتقتير .
ولا يهو لنا الأمر ، ففي البيئات الأخرى رى للغة وإقرار لعين المترقب .

(١) راجع بدائع الزهور ج ٥ حوادث رمضان عام ٩٢٢ هـ . ص ٩٦ .

(٢) راجع بدائع الزهور ج ٥ حوادث رجب عام ٩٢٢ هـ ص ١٩٧ وما بعدها . وفيها قصائد

رثاء للغورى ومصر ودولة الجراكسة من نظم ابن إياس ، ومحمد بن قانصوه بن صادق .

الفصل الثالث

في

أثر البيئة الثقافية في الشعر

بين العلم والشعر

قد ألمعنا إلى البيئة الثقافية فيما سبق . وشهدنا فيها كيف كان النشاط الثقافي ومدى نتاجه ، وذلك حينما توافرت أسبابه ودواعيه .

وشهدنا أن هذا النشاط اتجه أكثر ما اتجه إلى إحياء علوم الدين وبعثها ثم اتجه من بعد إلى إنعاش الأدب وفنون اللغة . وبذلك كانت الثقافة العلمية واسعة النطاق بعيدة الآفاق بالقياس إلى ثقافته الأدبية .

وعاش الشعراء في هذه البيئة وتأثروا باتجاهاتها . والشعراء بطبيعتهم وبطبيعة فنهم أسرع إلى التأثر بعناصر الثقافة الأدبية . ولـكنهم - بلاريب - قد أخذوا من الثقافة العلمية بنصيب ، كما أخذوا بنصيب آخر من فنون العربية . وقد كانت الثقافة العلمية مضروبا مشتركا بين عامة المثقفين كما رأينا .

ولانرتاب في أن الاشتغال بالعلم ينضج على الشاعرية ويوسع مجالاتها ويباعد بين آفاقها ، ويكسب الشاعر حنكة وتجربة وسعة معرفة في ميدانه ، ويزيده معاني وأفكارا ، ويقدره على حسن التصور وجودة التعبير . فالاشتغال بالعلم ضرورة لا بد منها لاكتمال الشاعرية .

لانرتاب في ذلك قط ، ولكن بشرط ألا يطغى الاشتغال بالعلم على النزعة الشاعرية وعلى الموهبة الفنية . وإن لازاحمها وشاب عنوبتها وكدر صفاءها ، وبلد من نشاطها وكبت من حيويتها .

وكذلك لانرتاب قط ، في أن ضعف ثقافة الشاعر ، وضيق معارفه ، وقلة
تمرسه بالعلم واطلاعه على تجارب علماء زمانه وعدم متابعتة لحركة النشاط العلمي
وتطوره في فهم ودقة وإحاطة مناسبة ، كل ذلك يجنى على شاعريته جناية كبيرة ،
ويحبسه في دائرة ضيقة من الحياة ، محدودة المعالم حائلة الألوان ، فيبدو نتاجه وعلى
وجهه سمات الهزال وصفات السقم ، لاسمو في تصوره ولا جديد في معانيه
ولا متبكر في أسلوبه ، ولا جدية منه في معارضة الحياة ولا مشاركة في الترفيه عنها
والترقي بها ، لأنه ضعيف الاتصال بها مفكك الروابط عنها .

شعراء علماء

نذكر ذلك لأننا في هذا العصر أمام طوائف من الشعراء ، تفاوتت ثقافتهم
واختلفت مقادير معارفهم ، وتنوعت ألوان تخصصاتهم وعلومهم . ولكن
جمعتهم جامعة الشعر ووصلت بينهم وشيجة الأدب .

فمنهم - على سبيل المثال : تقي الدين بن دقيق العيد القشيري رأس الشافعية
في زمانه ، التقى الورع الزاهد . ومنهم شهاب الدين بن حجر العسقلاني قاضي
قضاة الشافعي وحافظ الحديث ومؤرخ الصحابة وأعلام التاريخ وشارح البخاري .
وتقى الدين السبكي مجتهد زمانه وفقيهه وهكمل المجموع في شرح تهذيب الرافعي في
فقه الشافعية . وجلال الدين السيوطي الفقيه المحدث المؤرخ المفسر .

هؤلاء وأمثالهم يعتبرون رموسا وقما للحركة العلمية في عصر المماليك .
وكانوا شعراء ...

كان الشعر في نفوسهم منذ الصغر - كما هو الشأن الغالب - موهبة فطرية وطبيعة
نشأت معهم . ثم جذبتهم جواذب العلم ، ونزعت بهم نوازع الدين ، فدرسوا الفقه
والأصول والتفسير والحديث والسكلام وما إليه . ونبغوا في ذلك نبوغا رفعهم
إلى مصاف الأئمة المجتهدين ، تشهد بذلك مناصبهم العليا التي تولوها ، أو تلاميذهم

الكثير الذين تخرجوا بهم ، أو مؤلفاتهم العدة التي خلفوها .

ولكنهم لم يهجروا الشعر أو يهجرهم الشعر ، فمدحوا وتغزلوا ووصفوا واشتاقوا وحنوا وشكوا ونصحوا ، وحاجوا والغزوا وأجابوا السائل وأفتوا المستفتى ، ورثوا الحبيب الزائل ، ونظموا في الزهد أو في الحكمة أو في غير ذلك .

ولكن ، هل بلغوا القمة بشعرهم كما بلغوها بعلمهم وفقهم . هل كان نتاجهم في باب الشعر كما كان نتاجهم في باب الفقه والحديث والعقائد مثلا . لا . لم يكن .

ولماذا هذا لم يكن ، وقد بلغوا من ثقافة زمانهم مداها ، ومن معارف عصرهم أعلاها . ؟

ذلك لأنهم انجموا بجمع نفوسهم وبملء قلوبهم إلى الفقه والحديث ونحوهما ، فوهبوا لها الشباب الناضر والعمر الزاهر والفكر النائر والقلم الواثب الطائر . واعتبروا هذا أمانة يحملونها ورسالة يؤدونها ، فلم يسحرهم عنها وساوس الفن ، ولم يفتنهم عنها شياطين الشعر . فلموا عنه وعن سحره وساوسه وشياطينه ليؤدوا رسالة العلم حق الأداء ، ويبلغوا الأمانة حق التبليغ .

ولهذا لم تستطع ثقافتهم الواسعة أن ترفه عن شعرهم ، ولا أن تجذب بضبعه إلى الأمام ، ولا أن تنضح عليه فكرا أو معنى ، ولا أن تجود عليه بخيال أو صورة . وتلك جناية الثقافة ...

وذلك أيضا لأنهم تثقفوا للثقافة لا للشعر ، وتعلموا ليجيدوا الفقه لا ليجيدوا الأدب والنظم .

وغلبت عليهم في عباراتهم وأساليبهم وألفاظهم ، معاجم العلماء وغاض معين البشاشة في أبياتهم وغابت عنها عذوبة الشعر ومحاسن خياله ومفاتيح تصوره . إلا لما لما . وعلى وحى وارتباب ، قد تفيض البشاشة وتنفى العذوبة ، ويحسن الخيال وتفتن الصورة .

ومن المناسب أن نسوق إليك نموذجا من أشعارهم . وسترى في كثير منها سمة العلم الخشنة ، وجفاف عباراته . واتجاهها غالبا إلى مخاطبة العقل أكثر من مخاطبة النفس ، وإلى تقرير الحقيقة أكثر من بسط الخيال .

فمن ذلك ما نظمته تقي الدين السبكي في وصف الرافضة - وهم فرقة من الشيعة بايعوا زيد بن علي . ثم قالوا له تبرأ من الشيخين أبي بكر وعمر . فأبى وقال : كانا وزيرى جدى ، فتركوه ورفضوه - وكان قد وقف على كتاب لابن تيمية في الرد على ابن المطهر الرافضى ، فذكره وذكرهم ، فقال :

إن الروافض قوم لا خلاق لهم	من أجهل الناس فى علم وأكذبه
والناس فى غنية عن رد إفسكهم	لهجنة الرفض واستقباح مذهبه
وابن المطهر لم تطهر خلائقه	داع إلى الرفض غال فى تعصبه
لقد تقول فى الصحب الكرام ولم	يستحى مما افتراه غير منجبه
ولابن تيمية رد عليه وما	بمقصد الرد واستيفاء أضربه
لكنه خلط الحق المبين بما	يشوبه كدر فى صفو مشربه .. الخ (١)

ومن نظم تقي الدين بن دقيق العيد فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، قوله :

ياسائرا نحو الحجاز مشمرا	اجهد فديتك فى المسير وفى السرى
وإذا سهرت الليل فى طلب العلى	فحذار ثم حذار من خدع الكرى
فالقصد حيث النور يشرق ساطعا	والطرف حيث ترى الثرى متعطرا
قف بالمنازل والمناهل من لدن	وإلى قباء إلى حمى أم القرى (٢)

ومن نظم شهاب الدين بن حجر العسقلانى فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام أيضاً ، قوله :

لام العواذل كل صا د للقا وهلامهم عين الخطا لو يعلموا

لا يعلموا بين الهوى لكنهم لا موا عليه لأنهم لم يفهموا
إن أبرموني بالملام فإن لي صبراً سينقض كل ما قد أبرموا
ما شاهدوا ذاك الجمال وقد بدا فأنا الأصم عن الملام وهم عموا... الخ^(١)

ليس معنى ذلك أن شعرهم كله على هذا الغرار . ولكن عذوبة الشعر وسحره
ورقته كانت تعاودهم بين الفينة والفينة . وربما كان للغرض الشعري الذي طرّقه
أثر في ذلك .

فمن نظم تقي الدين السبكي قوله في الغزل :

قلبي ملكت فما به مرمى لواش أو قريب
قد حزت من أعشاره سهم المعلى والقيب
يحبيه قربك إن مننت ولو بمقدار تغيب
يا متلني ببعاده عني أما خفت الرقيب^(٢)

ومن رقيق غزل تقي الدين بن دقيق العيد قوله :

بالذي استعبد أرواح المحبين لذاتك
وبلطف من معانيك يرى من حركاتك
وبنور الحسن إذ يحويك من كل جهاتك
وبسر فوق ما يدرك طرفي من صفاتك
لا تذقني الموت في صدك عني بحيانك^(٣)

ومن رائق غزليات ابن حجر العسقلاني قوله :

طيف لمن أهوى ألما يطوى ذبول الليل لما
أهلا به لو أن طر في المنام يذوق طعما

(١) ديوان ابن حجر ، مخطوط . (٢) الطبقات السبكي ج ٦ في ترجمة التقي السبكي .

(٣) الطبقات ج ٦ ص ١٠

ونعم لقد أعييت في طلب الخيال خيال نعى
فأعجب لصب يدعى علما يحاول فيه خصما .. الخ (١)

شعراء أميون

ومنهم أيضا على سبيل المثال ، الشعراء الأميون :
إبراهيم المعمار : كان شاعراً جريئاً رقيق الشعر عذب العبارة لاذع النقد مر
النسكة . وهو صاحب البيتين الآتين المشهورين :

قد بلينا بأمير ظلم الناس وسبح
فهو كالجزار فينا يذكر الله ويذبح (٢)

وشرف الدين بن أسد المصرى ، قال عنه ابن شاعر الكسبي في كتابه :
« فوات الوفيات » ، إنه كان شاعراً ماجناً مهتكا ظريفاً ، وله شعر وزجل وموشحات ،
وكان شاعراً مطبوعاً قليل اللحن ، وله مؤلفات عدة ونوادير وأمثال (٣) .

وابن الربيع « مجاهد بن سليمان بن مرهف » ، ويعرف بالخطاط . ومن شعره
يخاطب برق نجد :

أعد يا برق ذكر أهيل نجد فإن لك اليد البيضاء عندي
أشيمك بارقا فيفضل عقلي فوا عجبا تفضل وأنت تهدي
ويسيك السحاب وأنت ممن تحمل بعض أشواقى ووعدى
بعثت مع النسيم لهم سلاما فما عطفوا على له برد (٤)

والأمير بيهرس الفارقاني . قيل : وكانت له مشاركة في العلم . وكان يزن الشعر
بالطباع ، وينظم منه مالا تمجده الأسماع . ومن شعره يتغزل :

(١) ديوان ابن حجر ، مخطوط .

(٢) فوات الوفيات ج ١ ص ٢٣٧

(٣) بدائع الزهور ج ١ ص ٣٣١ ط بولاق

(٤) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٨٠

من لى بظي غرير باللحظ يسبي الممالك
إذا تبدى بليل جلا سناه الحوالم
من حور رضوان أبهى لـكنه نجل مالك (١)
وغيرهم...

هؤلاء الشعراء أميون لم ينالوا شيئاً من معرفة القراءة والكتابة . فقاتهم
- ولا ريب ، - شيء كثير من ثقافة العصر ومعارفه .

ومسألة الشعراء الأميين مسألة يحفل بنا أن نشير إليها في تودة وهوادة
ليستقيم لنا أن ندال بوجودهم على حياة مصر الشاعرة الملممة التي أنجبت وولدت
شعراء أخلدوا ذكرها ، ورفعوا منارها ، وأذاعوا مآثرها . وكانوا رجعا
حسنا لبيئاتها .

والحق أنه قد دخل في عداد الشعراء ، أو دس نفسه بينهم ، عدد من الذين
نسميهم : « الشعاري » ، أو « المتشاعرين » ، وهذا يقع في كل عصر من عصور
الأدب وبخاصة في عصور العامية .

وقد عناهم - في عصر المماليك - الشاعر مجد الدين الخياط بقوله :

وفي متشاعري عصرى أناس أقل صفات شعرهم الجنون
يظنون القريض قيام وزن وقافية وما شئت تكون (٢)

وهؤلاء لا وزن لهم في مجال الحديث عن الشعر . ولكن الذي يعنيناهنا هو
الإشارة إلى الشعراء الأميين الذين أجادوا - بالرغم من أميتهم - نظم الشعر
الفصيح .

يعنيننا ذلك ، لأن بعض مؤرخي الأدب يعتبرهم من سقط الشعراء ، وكلفا

(١) توى الفارقاني عام ٨٠٠ هـ - راجع بدائع الزهور ج ١ ص ٣٥١ ط بولاق .

(٢) الدرر الكامنة ج ١ رقم ٣٤٢

في وجه شعراء العصر ينبغي إزالته . ويتخذ وجودهم دليلا على انحطاط الشعر والشعراء ، وعلى ضعف ثقافتهم ، ويقول إن الشعر قد هان أمره حتى اقتحم ميدانه الأميون ...

وكان إجادته الكتابة والقراءة وحسن المطالعة ، المصدر الأساسي للثقافة وإجادته الشعر ، وليست الموهبة الشعرية والفطرة الفنية هي الأساس الاصيل والدافع الأول .

ونحن لا ننكر كما أشرنا - أن الثقافة والاطلاع والاختصاص بنصيب من العلم ، زاد ضروري للشاعر الحريص على التجويد . ولكن ذلك وحده لا يخلق الموهبة ولا ينضج الشاعرية .

وقد كان كثير من شعراء الجاهلية ، ومن عاش بعدهم في عصور الفصحى ، أميين لا يقرءون ولا يكتبون ، ومع ذلك نظموا الشعر الجيد الرائع ، والجزل الممتع البديع . ذلك لأنهم كانوا أدباء أرباب مواهب ، وشعراء ذوي فطر فنية . لأنهم كانوا فصحاء بالسليقة ، وإن كانت فصاحتهم عصمتهم من الزلل ، وجنبتهم مزاق اللحن .

والأميون من شعراء العصر المملوكي ، كانوا قد ورثوا عن أسلافهم فساد السليقة ، وباتوا مغمورين في العامية والاستعجام . ولكن إلى جانب ذلك كانت لهم مواهب وفطر فنية شاعرة ، دفعتهم إلى النظم فأجادوا ، ولو إلى حد ، والتزموا الفصحى ولم ينحرفوا عنها إلا غرارا . ولم يسلم فحول الشعراء - بل وفصحاء الشعر من قبل - من الانحراف واللحن ..

فهذه إذن حسنة من حسناتهم - لا سيئة من سيئاتهم - ينبغي أن نذكرها لهم وأن نمجدها فيهم ، وأن نحمدهم عليها . فقد دللوا - على أقل تقدير - على خصب مصر وطيب تربتها المنجبة ، وعلى قدرتها على الإخصاب في الحقل الشعري ، وعلى حسن إيجائها إلى بنينا سواء منهم المتعلم أو الجاهل ، والفارسي أو الأمي . وبحسبك

لهؤلاء ثقافة ماجربوا في الحياة وما اختبروا من أحداثها وما سمعوا من أخبارها .
وهؤلاء الأميون المحسنون ، خير - في رأينا - في ميدان الشعر ، من بعض
المثقفين الذين فاتتهم فطرة الشعر وفنية النظم ، ثم أصروا على تعاطي هذه الصناعة
فلم يحسنوا ولم يجيدوا . ولا يزالون مصرين . . .

ثقافة الشعراء

أما من عدا هؤلاء وهؤلاء من الشعراء ، فعدد ضخم وطبقات متلاحقة
وأجيال متعاقبة ، تضمهم فيمن تضم ، وتجمعهم فيمن تجمع . وسننوه بهذه
الطبقات أو الأجيال الشاعرة في حديثنا عن أثر البيئة الاجتماعية .

ونعني بهذا العدد ، البقية ، وهم أكثر الشعراء . وقد نالوا من الثقافة العلمية
والثقافة الأدبية نصيبا ، يختلف باختلاف الأفراد ، فمنهم من نال نصيبا موفورا ،
فبلغ ما بلغ من مجد وسمعة ، وبلغ نتاجه ما بلغ من جودة وكثرة ، ومنهم من
نال نصيبا قليلا .

على أنه مما لا ريب فيه أنهم جميعاً عاجلوا من ألوان الثقافة الأدبية ، أكثر
مما عاجلوا من ألوان الثقافة العلمية . ولهذا فارقوا الصنف الأول - العلماء الشعراء -
وغلبت عليهم نزعة الأدب وظللهم ألوية الشعر ، فعاشوا أكثر ما عاشوا مخلصين
للفن مشغولين بهواتفه ، مسحورين برقاه ، مسبحين في محرابه .

وبلغ بعضهم في ثقافته بعامة حدا كبيرا أثر في نتاجه حتى خوله أن يقتعد
مقعد الزعامة الأدبية ، ويمسك بيده زماما من أزمته ، ويصبح قدوة يقتدى بها
غيره من أفاضل الشعراء والأدباء ، ويصبح صاحب لواء يسير في ظله أتباع
وأشباع . أو يصبح صاحب منهج ومسلك يجتمع عليه الخالصان والمحبون .

وإليك مثلا الأديب الكبير محي الدين بن عبد الظاهر ، وقد استطاع بأدبه

ونبوغه في الإنشاء أن يصل إلى مناصب ديوان الإنشاء . وما عثم أن أصبح صاحب هذا الديوان في عهد الملك الظاهر بيبرس . وسن للديوان كثيرا من رسومه وتقاليده المكتاتبة حتى قيل إن دستور له للديوان ظل مرعيا ومتبعاً طول العصر المملوكى إلى أن زال الديوان في العصر العثمانى .

وقد ألف كتابه « الروضة البهية في أخبار القاهرة المعزية » ، وهو كتاب مفقود ، وقد استفاد منه من ألف بعده في خطط القاهرة وذكره ونقلوا عنه ، كما قرئى . وهو دليل على سعة ثقافته .

ولابن عبد الظاهر باع طويل في ميدان الشعر ، فقد كان متابعاً - إلى حد كبير - أحداث السياسة في زمانه لقربه منها ومن الحكام ، فردد أنباءها في شعره وسجل الكثير منها - كما رأيت عند حديثنا عن أثر البيئة السياسية - ونظم في المدح والغزل والوصف وغير ذلك . واتجه في أسلوبه اتجاهها بديعياً .

وإليك مثلاً الأديب البارع شهاب الدين بن فضل الله العمرى ، تثقف فدرس علوم العربية على الشيخ كمال الدين بن قاضى شهاب وقاضى القضاة شمس الدين بن مسلم . وأخذ الفقه عن شهاب الدين بن المجد عبد الله ، والشيخ برهان الدين العزازى . والأحكام الصغرى على الشيخ تقى الدين بن تيمية الحرانى ، والعروض على الشيخ شمس الدين بن الصائغ وعلاء الدين الوداعى . وقرأ على الوداعى جملة من دواوين العرب . ودرس الأصول على الشيخ شمس الدين الأصفهانى . واللغة والنحو على أثير الدين أبى حيان^(١) .

وقد استطاع بأدبه ونبوغه في الإنشاء أيضا أن يصبح من كتاب ديوان الإنشاء المعدودين في القاهرة ودمشق .

وقد ألف كتابه المشهور «مسالك الأبصار» وهو مجموع تقويم وتاريخ وأدب وقصص وسير وأخبار ومجتمع نصوص . وله كتاب «التعريف بالمصطلح الشريف» ، وقد ضمنه النص على قوانين ورسوم ديوان الإنشاء في شتى مكاتبه ومراسلاته وابتدع فيها ما ابتدع ، وزوده بكثير من النماذج الطريفة لـكل قانون وكل رسم ، وهي من إنشائه .

ولابن فضل الله العمرى باع طويل أيضاً في ميدان الشعر . وقد وصف وتفكه وتغزل وتشوق ونقد ، وراسل وطارح إلى غير ذلك .

والشباب الظريف شمس الدين محمد بن سليمان الذي توفي في نحو السابعة والعشرين من عمره . وترك شعرا دل على ثقافة أدبية محمودة ، ودل على منهج في أسلوب الشعر رقيق ، حتى استحق بذلك لقبه الذي أطلق عليه .
ولا بأس من أن ننقل إليك ما وصفه به شهاب الدين بن فضل الله العمرى ، قال :

« نسيم سرى . ونعيم جرى وطيف ، لابل أخف موقعا منه في الكرى ،
لم يأت إلا بما خف على القلوب . وبرىء من العيوب . رق شعره فكاد أن يشرب ،
ودق فلا غرو ، للفضب أن ترقص ، وللحمام أن يطرب .
ولزم طريقة دخل فيها بلا استئذان ، وولج القلوب ولم يقرع باب الآذان .
وكان لأهل عصره ومن جاء على آثارهم افتتاحان بشعره ، وخاصة أهل دمشق .
فإنه بين غمائم حياضهم ربا . وفي كائهم رياضهم حبا . حتى تدفق نهره . وأينع
زهرة .

وقد أدركت جماعة من خلطائه لا يرون عليه تفضيل شاعر ، ولا يروون له شعرا إلا وهم يعظمونه كالشاعر . لا ينظرون له بيتا إلا كالبيت . ولا يقدمون عليه سابقا ، حتى ولو قلت : ولا امرأ القيس ، لما باليت .

ومرت له ولهم بالحنى أوقات ، لم يبق من زمانها إلا تذكرة . ولا من إحسانها إلا تشكره . وأكثر شعره ، لا بل كله رشيق الالفاظ ، سهل على الحفاظ . لا يخلو من الالفاظ العامية . وما تحلو به المذاهب الكلامية . فلهذا علق بكل خاطر ، وولع به كل ذاكر .

وعاجله أجله فاخترم . وأحرم أحباءه لذة الحياة وحرمة ^(١) .

وصفى الدين الحلى الناشئ ببلاد العراق ، والمطوف في آفاق البلاد العربية ومنها مصرها وشامها . لم تفصح كتب الأدب والتاريخ عن مدى ثقافته ونوعها وأسماء شيوخه . سوى أن ابن حجر العسقلاني روى : « أن صفي الدين تعاني صناعة الأدب فمهر في فنون الشعر كلها . وتعلم المعاني والبيان وصنف فيها » .

والناظر في ديوان صفي الدين يجده قد كتب في مقدمته مانصه : « إني كنت قبل أن أشب عن الطوق . وأعلم مادراعى الشوق . بهجا بالشعر نظما وحفظا . متقنا علومه معني ولفظا . وامقا بسبك القريض . كارها للسكسب بالتقريض » .

وروى الصفدى أن صفي الدين نظم الشعر وهو ابن سبع سنوات .

ويفهم من هذا كله أنه مال منذ حداثته إلى الأدب والشعر اطلاعا وإنتاجا . فأجاد وأفاد وبلغ الغاية من أشعاره وأهدافها حتى سارت بها الركبان .

ونظرة يسيرة إلى ديوانه ورسائله ومؤلفاته تفصح لك عن مقدار ما خط به من الثقافة الأدبية الواسعة ، ويبدو لك جليا مقدار سعة معجمه اللغوى سعة أفدرته على الأسلوب ومكنته من زمامه بوجهه كيف شاء . ويبدو لك أيضا ضخامة ما قرأ من أشعار السابقين وفهم مناهجهم ، حتى تمثلها في نفسه واهتمضمها . وبذلك امتلك ناصية التعبير وطرق التصوير يعلو بها ويهبط ويستوى حسبما يشاء ، ويبدع وابتكر أو يقلد ويحاكي وفق هواه .

(١) فوات الوفيات ترجمة الشاب الظريف ، نقل عن مسالك الأبصار ج ٢ ص ٢٦٣ ؟

وملاً جعبته بألوان البديع ودراسة المعاني والبيان . لقد درسها دراسة الفقيه العالم لا الشاعر الناظم فحسب . فوجهه هذا إلى ابتكار فن جديد هو فن البديعيات . فنظم بديعته وضمنها ألوانا من البديع بلغت نحواً من مائة وخمسين لونا . ثم شرحها في كتاب لطيف .

وروى أنه قبل نظم البديعية قرأ سبعين كتاباً ، وأنه قبل تأليف شرحها قرأ مائة وأربعين كتاباً^(١) .

وجمال الدين بن نباتة : الذي كان أمير شعراء زمانه ، كان أبوه أستاذا للحديث فرواه له ، وعلمه علوماً غيره . وقدمه إلى شيخ عصره الفقيه الراوية التقي الورع تقي الدين بن دقيق العيد القشيري فأحبه الشيخ وعنى به ، ولعله رواه الحديث وهو صغير فيمن يروى ، وعلمه مع من يعلم . وكان قد اختار له كتاب الحماسة ليقرأ فيه . وقد أباح له مكتبته يقرأ من كتبها ما يشاء ، وقد حدث ابن نباتة عن الإمام تقي الدين قال : إنه « ناولني كتاباً فإذا هو في الأدب - أحسبه من الذخيرة لابن بسام - فنظرت فيه فاستغرقت ، فجاء أبي ولم أشعر بمجيئه . فتعجب من تمكين الشيخ إياي لنظري في كتبه . وكان ذلك كشفاً من الشيخ . وتولعت بالنظم من ذلك الحين » . ونظم الشعر حقاً ولم يبلغ الحلم .

وقد أخذ علوم الحديث عن الشيخ غازي الحلاوى ، وعن الشيخ عبد العزيز الحصرى . وسمع على هذا الأخير مجموعة من الأحاديث خرجها له والده شمس الدين . ومن أخذ عنهم الحديث أيضاً عبد الرحيم الدميرى وابن خطيب المزة . وسمع عن الأبرقوهي السيرة النبوية بقراءة الشيخ فتح الدين بن سيد الناس . - وقد أجازته كثيرون .

وبالاطلاع على شعر ابن نباتة يشعر القارىء تماماً أنه كان كثير التقلب

(١) الدرر السكمنة في ترجمة الحلي ج ٢ رقم ٢٤٣٠ - وفوات الوفيات ج ١ ص ٣٥٦ .

في كتب الأدب وتاريخه والتاريخ العام، كما كان متمكنا من اللغة وقواعدها وبلاغتها،
خبيرا بمعاني كلماتها. وهذه هي الذخيرة التي عاونته على بلوغ القمة في إبراز مذهبه
في التورية والاستخدام وغيرهما من ألوان البديع.

ومؤلفات ابن نباتة خير شاهد على سعة علمه وكثرة أدبه وتنوع محفوظه من
شتى العلوم والمعارف ما بين تاريخ وتقويم وحوادث أدبية ولغة وغير ذلك.
وكذلك مجموعاته ومختاراته.

ومنها مجمع الفرائد وسرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، وزهر المنشور
وهو في فن الترسل. والفاضل من إنشاء الفاضل، وخبز الشعير، وتلطيف المزاج
في شعر ابن حجاج. وغير ذلك، عدا ديوان شعره ورسائله النثرية^(١).

وتقى الدين بن حجة الحموي: أديب زمانه وشاعره، ومنشئ الديوان الشريف
بمصر على عهد المؤيد شيخ. كان واسع الثقافة ضليعا بعلوم العربية وبخاصة علوم
البلاغة، مطالعا على أدب العربية وتاريخه في العصور السابقة له كافة، وكان ناقدا
ذوافة مقننا للأسلوب، ترى ذلك ماثلا في خزانة أدبه وكتابه «كشف اللثام»،
وغيرهما.

وقد تتلمذ للشيخ تقى الدين بن الخيشي الحنفي فقيه حماة وقاضيا. وتتلمذ
في الأدب والعربية على العلامة شمس الدين الهيتي. كما تتلمذ على الشاعر عز الدين
الموصلي صاحب البديعية التي عارضها ابن حجة فيما بعد. وكذلك أخذ عن قاضي
القضاة علاء الدين علي بن القضاي.

ومن الطريف ما رواه ابن حجة في خزانة الأدب إذ قال: إنه وهو في مطالع
شبابه، مدح تمرغا الأفضلي الشهير بمنطاش الأشرفي. وكان تمرغا حينذاك
كافلا لحماة. وذلك بقصيدة رائية بديعة. وقرأ أبياننا منها على شيخه قاضي القضاة
علاء الدين علي بن القضاي الحنفي. ومنها هذا البيت:

(١) ابن نباتة المصري أمير شعراء المشرق لعمر موسى باشا ط دار المعارف ص ٢١٠. - راجع
أيضا الدرر الكامنة والوفاء بالوفيات ج ١

كأنما الهام أحداق أضربها سهد وأسيافه في الحرب طيب كرى
فقال له شيخه : إن أبا الطيب هو أبو عذرة هذا المعنى ، حيث قال :

كأن الهام في الهيجايعون وقد طبعت سيوفك من رقاد
واستحسن شيخه منه ما في بيتته من زيادات في المعنى قى قوله : « أضربها
سهد » . وفي قوله : « طيب كرى » .

فأقسم ابن حجة أنه ما طالع حتى اليوم ديوان المتنبي ، وما كان طالع إلا ديوان
ابن نباتة والحلى^(١) .

ونرى أن ابن حجة وهو في مطالع شبابه قد قرأ ديواني أكبر شاعرين
في العصر المملوكي وهما ابن نباتة والحلى ، ويضم كل ديوان آلافا مؤلفة من أبيات
الشعر في مختلف الفنون والأغراض .

ولا بد أن ابن حجة قرأهما قراءة الدارس الواعى ، الفطن اليقظ . وهى
دراسة واسعة .

هذا ، وأمامك كتب ابن حجة شاهدة على فضله وعلمه وثقافته . ومنها خزنة
الأدب ، وكشف اللثام وتأهيل الغريب ، وثمرات الأوراق ، وغيرها^(٢) .

وبرهان الدين القيراطى : رأس الشعراء والأدباء بعد حلبة ابن نباتة ، وقد
أدركه وراسله وأخذ عنه وسلك طريقته في البديع والتورية ، وقد درس الأدب
وطلب العلم ولازم علماء عصره إلى أن برع في الفقه والأصول والعربية والحديث .
وقد سمع صحيح البخارى على ابن شاهد الجيش وسمع منه مشيخته . وكذلك سمع
من حسن بن السديد ، وسمع جزءا من السجستانى ، وبعض الغيلانيات على غيره .
وقد حدث بالقاهرة ببعض مروياته ، وتتلذذ له كثير من لعلمه وأدبه ومنهم

(١) خزنة الأدب باب الموارد .

(٢) راجع ترجمة ابن حجة في الضوء اللامع للسجاوى وتاريخ حماة للصاوى ط عام ١٣٣٢ وبمحة .
(م ١٠ - عصر المماليك)

أبو الفضل العراقي والحافظ نور الدين وبدر الدين البشتكي والجمال بن ظهيرة وولي الدين أبو زرعه وشمس الدين بن الجزري ونجم الدين المرجاني ، وغيرهم . وله الشعر البديع والنظم الرقيق . وقد تناول كثير آ من فنون الشعر ، بل هو أحد المقتنين فيه . نظم في الغزل والخريات والوصف والإخوانيات من عتاب وشوق ومدح وغير ذلك .

من أسباب نشاط الشعراء

هذه الطوائف من كرام الشعراء ارتزق كثير منهم عن غير طريق الشعر . وأفراد قلائل - كبن نباتة - استنماوا إلى التمسك به وحده . فعاشوا في شظف من من العيش ، وفي ضيق بالحياة . أما الباقون فقد ثنوا عنان العزم إلى غير الشعر فاحترف منهم بالكتابة من احترف ، وبالتجارة من تاجر ، وبالعمل في حرفة ما من عمل - وقد أشرنا إلى هذا الوضع في غير هذه المرة - وذلك لأنه لم يكن من سياسة الدولة ولا من تقاليد السلاطين والأمراء أن يحتضنوا الشعراء ويغدقوا عليهم الأموال والهبات ، كما كان أمراء العرب وملوكهم وخلفاؤهم قديماً يفعلون . وقد كان ذلك قميناً بأن يقتل فيهم المواهب ، أو يقلل من كفاياتها ، أو يعوق عملها الفني . لولا أن تعلقت هذه المواهب بما تعلقت به من الأسباب التي تعينها على الحياة ، وتساعدوها على العمل ، رتفتح أمامها سبيل البروز - كالكائن الحي الذي يدفعه حبه للحياة أن يتشبث بكل سبب من أسبابها يعرض له .

وفي البيئة الثقافية تلاقت مواهب الشعراء ببعض هذه الأسباب . وتلاقت في البيئة الاجتماعية بأسباب أخرى سنووه بها في حينها . وإليك بعض الأسباب أو الوسائل التي تلاقت بها هنا ، فكانت حوافز لها حفظت لها الحياة وهيأت لها العمل .

والرغبة في إظهار العلم : قد تكون أولى هذه الحوافز ، ولعلها كذلك أبرزها

وأوضحها . ولا نعى بها أن الشعراء - وقد أخذوا ، أو أخذ بعضهم بنصيب من العلم ، قل أو كثير ، عمدوا إلى إظهار ثقافتهم وإبراز معارفهم ، فيما ينظمونه من الشعر ، بمعنى تغذية الشعر بالفكرة . وتلوين الشعر تلويناً علمياً ، تتحول فيه الأفكار إلى تصورات أدبية ، أو تصطنع وسائل لإكمال الصورة الأدبية ، وتتميم الخيال الشعري ، وصيافته من النقص والسطحية والضيق وضعف اللون وبطء الحركة وما إلى ذلك .

لا . وإنما كانت المعارف والأفكار العلمية هي نفسها مادة النظم ، التي عنوا بإخراجها شعراً ، بدلاً من أن تكون نثراً . وهذه المعارف والأفكار نواضعت العصور واعتاد العلماء والمؤلفون أن يعبروا عنها بالنثر وأن يكتبوها إنشاءً في مؤلفاتهم ، بل اعتادوا أيضاً أن يصطنعوا لها من النثر أساليب خاصة هي الأساليب العلمية التي تنأى عادة عن مسارح الخيال الشعري والتصويرات الأدبية ، وتنحو نحو الترتيب المنطقي وسوق المصطلحات ونحو ذلك .

ولسكن في العصر المملوكي اتجه كثير من الشعراء إلى نظم هذه المعارف والأفكار العلمية وإخراجها في قصائد تطول أو تقصر ، وتزويدها بما ينبغي للأساليب العلمية أن تزود به . فنظموا في الفقه والمواريث والأحكام المختلفة ، وفي النحو والبلاغة والعروض والتاريخ وغير ذلك كما سنرى .

هذه ظاهرة من ظواهر الأدب الطاغية في العصر المملوكي . وبرجع وجودها في رأينا - إلى أن عدداً كبيراً من الشعراء الذين فطروا منذ الصغر على نظم الشعر - وكان من المحتمل أن يسكون لنا منهم شعراء مجيدون وأدباء ممتازون - اتجهوا إلى دراسة العلوم والتخصص في بعضها حتى صاروا فيها أساندة وأعلاماً وأئمة . ولكنهم لم يذسوا الشعر . وهو موهبة حبشية إلى نفس صاحبها أثيرة عنده ، لا يطارعه قلبه على هجرها ولا التجافي عنها ، بل هو يعود إليها بين الفينة والفينة يستروح لنفسه ويستلهم لخياله ويخلو إلى أحاسيسه . وهكذا عاد هؤلاء

العلماء إلى موهبتهم الشعرية للاسترواح والاستلهام والإخلاد طلباً للسكينة والطمأنينة النفسية، وتجريب الخيال. فنظموا ونوعوا في نظمهم. وكان في جملة نظم الأفكار والمعارف.

لقد وجدت موهبتهم سبيلاً من السبل إلى الحياة، ووسيلة من الوسائل للحركة والعمل، وأداة من الأدوات تعينها على الإنتاج، فاتخذتها حافزاً وسبباً لاستمرار وجودها واطراد نموها. وهكذا تنفست عن طريق النظم.

ربما يكونون قد سبقهم بعض العلماء بهذه الظاهرة. هذا لا يمنع أن نقول إن علماءنا الشعراء استجابوا لوحى البيئة ووحى النفس، استجابوا لمنطق التفاعل بين فطرتهم وسياق العصر، ولا حاجة لهم إلى تقليد أو محاكاة.

على أنك لو تتبعنا آثارهم في هذا الباب — وسنتبعه معاً في وجازاتنا ولا ريب — ترى أنهم يكادون يكونون أهل هذه الصناعة، ويخيل إليك أنهم مبتكروها أو أول المتيقظين لها، لكثرة ما طرّقه من أبوابها، ووفرة ما أنتجوه في كل باب.

وعلى هذا نظموا في حقائق العلوم، ونظموا البديعيات وهي في علوم البلاغة والبديع، وكتبوا الاستفتاء والفتوى شعراً، وسألوا وأجابوا، ولا غزوا وحاجوا، إلى غير ذلك مما سنشير إليه.

وحب البديع: عامل هام من عوامل نشاط الشعر. وانتشار البديع وتعلق الشعراء به في عصر من العصور ظاهرة أسلوبية جديدة باسترعاء النظر وبالدرس التعليل. وما هي — في رأينا — إلا طور حتمي من أطوار حياة الأساليب الأدبية.

وهي ظاهرة شديدة الارتباط بحياة المجتمع وطريقة تذوق أفراد وجماعاته للملابسات حيانهم في شتى نواحيها، ولابد أن أهل العصر المملوكي عاشوا في عصرهم

عيشا بديعيا . . أقصد أنهم في تصوراتهم وفي تصويراتهم وعباراتهم كانوا يصدرون عن حيل بديعية ومسالك طريفة من مسالك البديع ، كاصطناع التورية والاستخدام والمطابقة والتضمين ونحو ذلك . وأنهم في هذا متأثرون بمظاهر عصرهم وبآيات حضارته ومستواها . وقد كانت حضارة ملونة مزدانة تجنح نحو حب الظهور والمبالغة والتهويل والالتواء والزخرف . بدا هذا في مواكب السلاطين وخروج المحمل وإقامة معالم الأفراح في الزواج والموالد والأعياد والمواسم . وبدا في الصناعات والفنون ومنشآتها وأدواتها كالمنابر والثريات والبسط والزجاج ونحو ذلك .

على أن الأوضاع السياسية القائمة حينذاك كانت تدعو إلى اصطناع هذه الأساليب البديعية ، لما تتطلبه هذه الأوضاع من احتيال في مخاطبة الحكام ، والتواء ضروري في محادثتهم ، خوف غضبهم أو بطشهم ، فالمصانعة كانت ضرورية ، وهي في أسلوب المتكلم أحق بالرعاية حينذاك .

نريد أن نقرر أن الحياة السياسية والاجتماعية شريكتان في إقرار البديع في أسنة الناس والجمهير ، وفي طبعها بطابعها . ولكن للحياة الثقافية من ذلك أو في نصيب وأكبره . ذلك لأن الأدباء — كما درسنا — نشئوا على ما كان قد نشأ عليه أسلافهم من السكتاب البديعيين في العصرين الفاطمي والأيوبي ، وأخذوا عن القاضي الفاضل مذهبه وطريقته ، وأخذوا عن ابن الأثير صاحب المثل السائر ، وتأثروا بذلك دراسة وتذوقا ، فسبحروا بمذاهب المتقدمين في هذه الصناعة . وعاونتهم على هذا أو عاون على سحرهم وانبهارهم وإقرار هذه المذاهب في نفوسهم وأذواقهم ، نظرهم إلى القرآن الكريم وطريقة دراستهم لأساليبه ، فقد رأوا في كل نظم من نظم آياته لونا بلاغيا أو بديعيا ، وأخذوا أنفسهم بالاعتداء به والنسج على منواله . حتى أربت أنواع البديع عندهم على ما كان عند أسلافهم ، وزاد عددها زيادة صارخة وتنوعت تنوعا ، للعقل فيه — على ما نعتقد — أكثر

ماللدنوق . لقد بلغت أنواع البديع نحو مائة وخمسين نوعا . وتنوع النوع الواحد إلى أنواع كثيرة . وإليك الجنس مثلا ، فمنه التام والناقص ، ومنه المركب والمطلق والمذيل والملفق ، إلى غير ذلك . . .

ومهما يكن من شيء فقد كان البديع وألوانه المعدودات فيما مضى من العصور الأدبية ، مسلكا من مسالك الشعر ، وقالبا من قوالب الأساليب . ولسكنه في عصر الماليك أضحى غاية من الغايات التي ينظم الشعر من أجلها ، وهدفا من الأهداف التي يتبارى الشعراء ويتنافسون في سبيل الإجادة فيها وبلوغ الغاية منها . لقد ملك حب البديع على الأدباء والشعر نفوسهم وألسنتهم ، حتى أصبحوا يدورون في فلكه ، ويرون البلاغة كل البلاغة في إجادة أنواعه وفي ابتكار الأفكار والمعاني أحيانا ، وفقا لوحيه ، وصياغتها في قوالبه . وقد أقبلوا بجمع نفوسهم على إصابة أهدافه ، وشلغهم شاغله حتى أنتجوا في بابه وبدوافعه ، الكثير الرائع المبتكر المعجب : وبذا صار البديع أحد أسباب النشاط الشعري ، وإن كان غاية من أهم غاياته .

وبسبب حبهم للبديع ولوعهم به ، حمى وطيس المنافسة بينهم - كما أشرنا - وداروا في أجواء اللغة بحثا عن مفرداتها وما بينها من تضاد أو اشتراك أو ترادف وغيره من خصوصيات الألفاظ ، وافتنوا في التقاط ما منها يجود فيه المجاز أو الاستعارة أو الكناية أو غيرها . وأسرعوا إلى الشعر يصوغونه ويضمنونه ما التقطوه ، مصنفين منه ما حلا لهم من ألوان البديع .

وكان قصارى كثير منهم - أحيانا - نظم البيت أو البيتين أو المقطوعة فحسب ، دون القصيد الطويل ، مكتفياً بما ضمنه من الجنس أو التورية أو الاستخدام أو غير ذلك .

وكثيراً ما تتداعى الخواطر على لفظ تعذب فيه التورية - مثلا - فيتهالك عليه عدد من الشعراء ، يسبكونه في قوالبها ، كل منهم بحسب ذوقه وتصوره

ومقدرته الفنية . وهنا قد تتشابه الأفكار وتماثل الصور ، فتحدث السرقة وتظن الظنون . بل قد يندفع بعضهم إلى السرقة السافرة تحت تأثير حمى البديع ، غير مبال بالعاقبة .

وهكذا - كما ترى - فتح لهم حب البديع والتعلق به باباً واسعاً للنظم ، ونجاجة فسيحة للنشاط ، فتنافسوا وعارضوا وطارحوا وسرقوا وأكثروا من نظمه في مقطوعاتهم الغزلية والوصفية ونحوها ، وملئوها به أيضاً بطون مطولانهم .

وسنحدثك في الفصل الخامس حديثاً مفصلاً عن نتائجهم في هذا الباب ، مدعوماً بأمثله وشواهد .

والنقد الأدبي : قد تأثر في هذا العصر تأثراً واضحاً بولوع الأدباء بالبديع . وهو دائماً أحد الحوافز إلى النشاط الأدبي والشعري . والنقد الأدبي - كما نفهم الآن - هو النظر في النتاج الأدبي لأمة أو فرد ، لمعرفة مدى فنيته ولونها ، متخذين من الموازين الأدبية السليمة مقياساً للحكم على صدقه وقيمته ، وإبراز محاسنه ومساوئه . ومعنى هذا تحليله وتعليله لفظاً ونظماً وفكرة . وتوضيح المؤثرات فيه على اختلافها ، ومبلغ استجابته لبيئاته ، ومدى تأثيره بغيره من الآداب ، وتأثيره فيها .

والناقد يحتاج إلى سعة من اللغة والأدب والعلم . ودراسة دقيقة لمذاهب النقد والبلاغة قديمها وحديثها ، مع دراسة اجتماعية ونفسية حاذقة عميقة تتناول الفرد والمجتمع .

والنقاد بأحكامهم وإرشاداتهم - يعبرون غالباً عن ذوق معاصريهم وحاجات عصرهم ، ويوجهون الأدباء إلى ما ينبغي .

وقد عاش النقد الأدبي وعلوم البلاغة ، قبل العصر المملوكي . وشهدا أطوارا من الدراسة والبحث والتحول والإضافة والتنظيم ، حتى بلغا حداً من النضج محمودا . وكان لذلك كله آثار بعيدة المدى واضحة المعالم في اتجاهاتهما في العصر المذكور . ومن ثم في التأثير في أساليب الأدب شعرا وكتابة .

وأهم ما يجب منها من ذلك ، ذوق بديعي عام استحوذ على الأدباء والنقاد جميعا ، لم يعتمد على ما خلفه الأقدمون من قواعد في النقد البياني فحسب . وإن كانت هذه القواعد من أهم دعائمه ومصادر إلهامه ، وإن كان قد جمع كل أبواب البلاغة قديمها وجديدها تحت راية البديع .

ولقد أشرنا من قبل ، إلى مذهب القاضي الفاضل . وأشرنا إلى مدى تأثير أدباء العصر به . لقد كان القاضي الفاضل علما من أعلام الأدب شعرا وكتابة . وابتدع فيهما طريقتيه التي أساسها الإكثار من المحسنات . ومنها الجناس والطباق والتورية والاستخدام ، والإمعان في اصطناع التشبيه والاستعارة والتلميح إلى الحوادث والنوادر ، والتوجيه بالمصطلح ، والابهام والإقتباس ، وغير ذلك .

وقد انتشرت طريقتيه هذه على ما وصفنا - في العصر الأيوبي ، ونهج نهجه فيها أدباء العصر المملوكي كتابا وشعرا . حتى ظهر شاعر مصر الكبير جمال الدين بن نباتة ، فسار على دربه وتعصب لطريقته وأبرز معالمها ، واتجهت عنايته إلى إجادة التورية والاستخدام ، ومزج بين التورية والجناس خفف بها ثقله وأزال عقادته . وهكذا ، حتى لا نغلو إذا ذهبنا مذهب ابن حجة الحموي ، وعددنا ابن نباتة صاحب مذهب في أساليب الكتابة والشعر .

وسار أدباء العصر المملوكي تحت هذين اللوامين : اللواء الفاضلي واللواء النبائي . وانطبع بهما الذوق العام حتى أصبحا أساسا وميزانا يزن به النقاد أساليب الأدباء .

ترى ذلك ما ثلا بوضوح في كتاب « حسن التوسل » للشهاب الحلبي ،

و « خزانة الأدب » ، لتقى الدين بن حجة الحموى . وهما في مقدمة كتب النقد الأدبي في ذلك العصر . لقد تأثرا تأثراً ملحوظاً بمنهج القاضي الفاضل وابن نباتة . الأول بالقاضي الفاضل وابن الأثير والثاني بهما وابن نباتة .

ولم يقتصر الاهتمام بالنقد على ذلك ، بل انساق صلاح الدين الصفدى ، مع ولوعه بالجناس ، إلى تكلفه تكلفاً شديداً . وألف فيه وحده كتاباً أسماه « جنان الجناس » . فتمكّم به ابن نباتة وقرأه « جنان الجناس » . وحمل ابن حجة عليه حملة شديدة لهذا الولوع والتكلف . وكذلك حمل عليه كل من شهاب الدين بن أبى حجلة ، وبدر الدين البشتكى (١) .

وتوالى سرقات الأدباء بعضهم من بعض . وتفاقت سرقات الصفدى من شعر ابن نباتة . فألف ابن نباتة فى ذلك كتاباً سماه « خبز الشعير » جمع فيه بين شعره المسروق وشعر الصفدى .

وأشار ابن حجة فى كتابه « خزانة الأدب » ، فى أكثر من موضع إلى هذه السرقات جميعاً وسجل منها نماذج متعددة . ومن الطريف أن ابن حجة نفسه وقعت منه سرقات شعرية تعقبها أكثر من أديب . ومنهم معاصره « شمس الدين النواجى » . نقده النواجى وأفصح عن سرقاته فى كتاب سماه « المحجة فى سرقات ابن حجة » .

هذا كله يشعرنا بأن النقد الأدبى كان على شىء من النضج . وأنه كان أحد الشواغل الأدبية التى شغلت خواطر الأدباء . وهذا - ولا ريب - له أثره فى إنعاش الحركة الأدبية بعمامة . والشعر بخاصة . إذ كانت النقديات أكثر ماتوجه ،

إلى الشعر . ونقد الشعر من ألوان تقديره والتشجيع على نظمه ، والحفز إلى إحسانه وإجادته .

على أن النقد الأدبي كانت له أحيانا مراعات ، ومجالس يتناوله فيها الأدباء ، ويتبادلون فيه الرأي ، ويعرضون فيما بينهم ما طاب لهم من الشعر .

ومما يدلنا على ذلك ، مارواه تاج الدين السبكي في طبقاته ، عن تاج الدين المراكشي ، أنه « دخل عليه مرة ، وهو ينشد قول ابن تقي :

حتى إذا مالت به سنة الكرى زحزحته شيئا وكان معانق
أبعده عن أضلع تشتاقه كي لا ينام على وساد خافق
وقول الحكم بن عقال :

إن كان لابد من رقاد فأضلعي هاك من وساد
ونم على خفقها هدوءا كالطفل في هزة المهاد

وهو ومن عنده يقولون . إن قول الحكم أجدر بالصواب . فإنه لا يناسب المحب أن يبعد حبيبه . وينشدون قول صلاح الدين الصفدي في ذلك ردا على ابن تقي :

أبعده من بعد ما زحزحته ما أنت عند ذوى الغرام بعاشق
إن شئت قل : أبعدت عنه أضلعي ليكون فعل المستهام الواثق
أو قل فبات على اضطراب جوانحي كالطفل مضطجعا بمهد خافق

فقال السبكي :

إن ابن تقي ، ، وإن أساء لفظا حيث قال : « أبعده » ، فقد أحسن معنى . لأنه وصف أضلعه بالخفقان والاضطراب الزائد الذي لا يستطيع الحبيب النوم معه عليها . فقدم مصلحته على مصلحته ، وترك ما يريد لما يريد . وأبعده عما يقلقه . ولو قال : « أبعدت عنه أضلعا تشتاقه » ، لأحسن لفظا كما أحسن معنى .

وأما الحكم فإنه وصف خفقانه بالهدوء ، وهو خفقان يسير يشبه اضطراب سرير
الطفل . وهذا نقص . .

فوقع النزاع بين المتناقشين في ذلك ، وأرسلوا إلى القاضي شهاب الدين
أحمد بن فضل الله العمرى ، صورة سؤال عن الرجلين : ابن تقي والحكم . أيهما
المصيب . .

فكتب ابن فضل الله : قول ابن تقي عليه مأخذ . لكنه قول المحب الصادق
يكفيه في صدق المحبة قوله كي لا ينام على وساد خافق
ما الحب إلا ما يهد له الحشا ويهد أيسره فؤاد العاشق^(١)

وقد استطرد تاج الدين السبكي عقب ذلك ، فسجل نقداً له وللصلاح الصفدى
على بيت جرير . قال السبكي : « ويقرب من هذه النكتة أن جريراً قال :
طرتك صائدة الفؤاد وليس ذا وقت الزيارة فارجعى بسلام
فغيب عليه قوله « فارجعى » وهو نقد حسن . فليس أبشع من قول المحب
لمن يحبه : « ارجع » .

ورأيت الشيخ « صلاح الدين الصفدى » نفع الله به ، قد قال راداً عليه :
يا خجلة جرير من قول كفانا الله عاره
طرتك صائدة الفؤاد د وليس ذا وقت الزيارة
هل كان يلقى إن أتاه ه خيال من يهوى خسارة
أو كان قلب حوله هو من حديد أو حجارة
فعجبت له كيف ترك لفظة « ارجعى » وهو أبشع ما عيب به على جرير .
وقلت :

أما جرير فجر ثوب العار في دعوى الصباية وازدياد غرام
 إذ كذب الدعوى وقال لها وقد زارته في الغلس : ارجعي بسلام
 ثم قلت : لعل الشيخ صلاح الدين إنما ترك لفظة « الرجوع » لنكارتها . وقلت :
 إني لأعجب من جرير وقوله قولا غدوت به أنكرك حاله
 طرقتك صائدة الفؤاد وليس ذا وقت الزيارة فاستمع أقواله
 واعذر فلست بقادر والله أن أحكى الذى بعد الزيارة قاله
 فلما وقف الشيخ صلاح الدين على كلامى هذا كله ، زعم أنى أعترف له بحسن
 النقد ، وقال :

أما جرير فلم يكن صبا ولكن يدعى
 أو ما تراه أتنه صا ندة الفؤاد ولم ينع
 بل قال جهلا ليس ذا وقت الزيارة فارجعي
 لو كنت حاضر أمره قلت ارجعي وله اصفعي

قلت : « ولا يخفى أن هذه الاعتراضات كلها لفظية ، طرقت قائلها ولم يحقق ،
 فإن جرير لم يقصد رجوعها إلا للشفقة عليها من الزيارة في غير وقت الزيارة .
 فجاءه الاعتراض من لفظة « الرجوع » فقط . كما جاء ابن تقي من لفظة « الإبعاد »^(١)

وبما يشبهه ما سبق ، يبتان نظمهما ابن أبي حجلة المغربي ، يتندر على صلاح
 الدين الصفدى وسرقاته من ابن نباتة ، فقال :

إن ابن أيبك لم تزل سرقاته تأتى بكل قبيحة وقبيح
 نسب المعاني في النسيم لنفسه جملا فراح كلامه في الريح^(٢)

وقريب من هذا أيضا ، إنكار تقي الدين بن حجة الحموى على صفى الدين الحلى ،
 تفوقه في فن الإنشاء ، فقال مع التورية الطريفة :

قالوا صني الدين أشعاره ما للورى فى طرفها ممشى
وهكذا إنشاؤه مسكر قلت لهم والله ما أنشا (١)

هذا مثل أو أمثلة مما كان يشغل بال الأدباء من النقد . وما كانوا يتبادلونه من
الرأى ، أو يعقبون به . وهى أمثلة فيها سذاجة وسطحية . وهى أيضاً نادرة .
ولسكنها على كل حال ، تصور لنا أن النقد كان أحد شواغلهم فى مجالسهم وفى
مراسلاتهم ونحوها .

وبإضافة ذلك إلى ما أشرنا إليه من كتب النقد - على قلتها - نستطيع أن نذكر
أن النقد الأدبى - ونقد الشعر بخاصة والحديث عن سرقاته الأدبية - كانت بها
عناية ، وأن هذه العناية من شأنها أن تزيد فى نشاط الشعراء ، وأن توجههم نحو
ما ينبغى مما يتطلبه الذوق المعاصر لهم . وبعد ، فما هو نتاج هذا النشاط الذى
حفرته الثقافة وعواملها ؟ نحدثك عنه فيما يلى .

نتاج النشاط

تناول الشعراء - بدافع الثقافة جملة من الأغراض الشعرية فوهنا بها هنا أو
ببعضها فيما سبق من السطور . والآن نفصل لك الحديث فيها بعض التفصيل .
واضعين فى الاعتبار أنها صدى لألوان البيئة كلها بعامة ، والبيئة الثقافية بخاصة .
فنقول :

حقائق العلوم

يقال إن نظم حقائق العلوم ابتدأه أبان بن عبد الحميد اللاحقى فى العصر
العباسى . ومن بعده سار بعض الشعراء على نهجه .

(١) مجرى السوابق . وقهوة الإنشاء ، مخطوطان بدار الكتب المصرية - هذا وقد سبق لنا ذكر
حديث النقد فى المجلد السادس . رددناه هنا للمناسبة .

وازدهر هذا الغرض الشعري وأثر في بلاد الأندلس ، إذ نظم كثير من شعرائها حقائق النحو والصرف والقراءات والتاريخ والعروض والقافية وغيرها في قصائد قد تطول طولا غير معهود .

واشتهر من بينهم ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد ، بمنظومته في التاريخ ، ومنظومته في العروض . واشتهر ابن مالك النحوي بمنظومته الطويلة في النحو والصرف ، والتي اختصرها من بعد في ألف بيت ، فسميت « الألفية » . وكذلك الشاطبي بمنظومته في القراءات .

وانتقل هذا اللون من النظم من بلاد الأندلس إلى مصر والشام وغيرها من دول المشرق . وعاون على انتقاله رحلة بعض علماء الأندلس إلى المشرق كان مالك والشاطبي المذكورين .

وأعجب الناس في عصر المماليك بهذا الضرب من النظم . ويبدو أن ذلك كان بسبب نشاط الحركة العلمية والإقبال على نشر علوم الدين واللغة وتعلمها . ووجدت موهبة الشاعر فيه سببا لحياتها ونشاطها ونموها واستمرارها وإنتاجها . فتعلقت به ، على نحو ما أشرنا . وأقبل الشعراء على نظم الحقائق العلمية ليسروا للطلاب سبيل الإلمام بها وحفظها وسرعة استحضارها وقت الحاجة . فكتبوا مسائلها وقيدوا شواردها وقروا حقائقها على أن تجتمع وتكتنز وتتركز في بيوت من الشعر تسكن فيها فتعيش أبدا . ودلوا بذلك على سعة علم وإحاطة معرفة .

ولا نشك في أن هذه المنظومات عاونت على حفظ مسائل العلوم وأصولها ، وسهلت على الناشئين استذكارها . ثم إنها أصبحت متونا علمية طريفة احتاجت من بعد إلى شراح وموضحين . ومن ثم هب لها فريق من العلماء والمتخصصين ووضعوا لها المؤلفات الشارحة الموضحة ، متراوحة بين الطول والقصر ، لتشرح للطلاب ما غمض فيها ، وتفصل ما أجمل مع تزويدهم بالأمثلة والشواهد . ومنهم من استدرك

عليها أو نبيه أو حشى . . وهكذا تعددت الشروح وتنوعت وتوالت وكان لنا منها
ثروة علمية عظيمة القيمة لا يشتهان بها .

وترأى لبعض العلماء اختصار المطول ، وتوضيح الموجز . فتعددت
المختصرات والموجزات .

ويدهى أنه لا ذنب لهذه المنظومات العلمية ولا لناظميها ، إذا كان العلماء من
بعد قد وجدوا فيها غنية وكفاية فوقفوا عندها ، ولم يتجاوزوها إلى غيرها ، أو لم
يكادوا يتجاوزونها .

ومما سهل نظم العلوم والفنون في هذا العصر ، كما رأيت ، أن كثيراً من علمائه
كانوا شعراء بالفطرة ، موهوبين عدلت بهم ظروف حياتهم وضرورة السعى
لطلب الرزق والجاه ، عن طريق الشعر إلى طريق الفقه والعلم . فلما قبسوا من كل
من هذين مقداراً رأوا في هذا الضرب من النظم ما يجمع بين رغبتهم الفطرية ،
ورغبتهم الطارئة المسكوبة في حفظ العلوم والفنون . فزاجوا فيه بينهما .

وفي رأينا أن نظم حقائق العلوم ، يدل في جملة على مقدرة هؤلاء الناظمين
وعلى أنهم أوتوا نصيباً من الشاعرية - ذلك لأنهم استطاعوا أن يسخروا قوالب
الشعر لصب هذه الحقائق فيها ، وحفظها . ولولم يكونوا قادرين على الشعر
ما استطاعوا ذلك ولا اعتاص عليهم النظم . وإن كان هذا أشبه بصب العدس
المطهو اليابس في أواني الفالودج ، أكسبه الشكل دون أن يكسبه المذاق .

ولعل ما نظموه من ذلك ، يربو نتاجه على نتاج أى عصر آخر منه . ولا نبالغ
إذا قلنا إن عصر المماليك كان عصرأ ذهبياً لهذا الضرب من النظم . كما وتنوعا
وطولا . فقد أربت بعض القصائد على ألف بيت .

وظفر التاريخ، بخاصة بعناية ملحوظة ، إذ نظموا في حوادثه وفي سير رجاله ،

منظومات لا عدد لها ونظموا في الفقه والمواريث والقراءات والمنطق والعروض والنحو والسيرة النبوية ، بل ونظموا في الحساب والمساحة .

ولا بد لنا أن نسوق إلى القارئ طرفا من أخبار هذه المنظومات ، ليتبين إلى أى مدى بلغت عنايتهم بها . ففنها :

أن محي الدين بن عبد الظاهر له منظومة في سيرة الملك الظاهر بيبرس .

وأن شهاب الدين بن عربشاه المتوفى عام ٨٥٤هـ ، له قصيدة في العروض عدد أبياتها ١٨٣ بيتا سماها : « جلوة الأمداح » .

وأن صلاح الدين الصفدى المتوفى عام ٧٦٤هـ له أرجوزة نظم بها كتابا لابن عساكر في أمراء مصر . واسمها « تحفة ذوى الألباب » .

وأن برهان الدين البقاعى المتوفى عام ٨٨٥هـ له أرجوزة مشروحة اسمها « الباحة في على الحساب والمساحة » ، وهى فى نحو ٢٠٠ صفحة .

وأن جمال الدين أبا الحسين الجزار المتوفى عام ٦٧٩هـ له قصيدة تاريخية ذكر فيها حكام مصر إلى الملك الظاهر بيبرس واسمها « العقود الدرية فى الأمراء المصرية » (١) .

وأن شمس الدين الباعونى المتوفى عام ٨٧١هـ له أرجوزة تتضمن أسماء الأمراء والخلفاء والسلاطين الذين تولوا مصر من أول الإسلام إلى الأشرف برسباى . وذيلها ابن أخيه بهاء الدين الباعونى إلى زمن قايتباى . واسم الأرجوزة الأولى « تحفة الظرفاء فى تاريخ الخلفاء » واسم الثانية « الإشارة الوفية » وتسمى أيضا : « فرائد السلوك فى تاريخ الخلفاء والملوك » .

وأن شمس الدين الباعونى المذكور له أيضا قصيدة نظم فيها ملحة الإعراب

(١) راجع أخبار هذه المنظومات الخمس وأماكن وجودها فى كتاب جورجى زيدان « تاريخ آداب اللغة العربية » ج ٣ ص ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٧١ على الترتيب - ومنظومة الجزار مثبتة فى حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر أمراء مصر من بنى أيوب . الخ

للحربرى ، واسمها « ملخص تضمنين الملحة » .

وأن زين الدين بن الشحنة المتوفى عام ٨١٥ هـ له عدة أراجيز فى اللغة والدين والتصوف والأحكام والفرائض والمنطق ومنها أرجوزة فى البيان شرحها كثيرون .

وأن بدر الدين العينى المتوفى عام ٨٥٥ هـ له منظومة فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى ، تعرف « بالجوهرة » .

وأن بهاء الدين الباعونى المتوفى عام ٩١٠ هـ له - غير الأرجوزة التى أكملها منظومة عمه شمس الدين الباعونى - أرجوزة فى ٥٥٧ بيتا تشتمل على سيرة برسبای إلى قايتباى . واسمها « القول السديد الأظرف فى سيرة السعيد الملك الأشرف » . وله أرجوزة أخرى فى التربية اسمها « بهجة الخلد فى نصائح الولد » .

وأن للبارزى المتوفى عام ٦٨٣ هـ أرجوزة تاريخية فى سيرة النبى عليه الصلاة والسلام ، وفى الدول الإسلامية فى آسيا وإفريقية والأندلس ، وفى جغرافية المملكة الإسلامية وغير الإسلامية اسمها : « مداولة الأيام » .

وأن لجلال الدين السيوطى المتوفى عام ٩١١ هـ قصيدة رائية نظم فيها أسماء الخلفاء وسنوات وفاتهم اسمها : « تحفة الظرفاء فى أخبار الخلفاء » .

وأن تاج الدين بن عربشاه المتوفى عام ٩٠١ هـ له قصيدة فى ١٢٠٠ بيتا اسمها « مرشد الناسك لأداء المناسك » . يبدو أنها فى الفقه والعقائد والتصوف (١) .

وأن شمس الدين بن دانيال الموصلى المتوفى عام ٧١٠ هـ له أرجوزة فيمن ولى قضاء مصر ، من حين فتح العرب إلى عهد القاضى بدر الدين بن جماعة (٢) .

راجع أخبار هذه المنظومات الخمس وأما كن وجودها فى تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ج ٣ ص ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٣١ ، ٢٢٧ على الترتيب .

(٢) - أرجوزة ابن دانيال مثبتة فى حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر قضاء مصر .

(م ١١ - عصر المماليك)

وأن لجلال الدين السيوطى منظومة فى الفقه ، وهى نظم كتاب الروضة وتسمى « الخلاصة » .

وأن عبد العزيز الدرينى المتوفى عام ٦٩٧ هـ نظم كتاب التنبيه والوجيز .
وأن شمس الدين البرماوى ومحمد بن عبد الدايم ، المتوفى عام ٨٣١ هـ له منظومة فى الأصول -

وأن نجم الدين الخضر اوى المتوفى عام ٦٦٣ هـ نظم المفصل للزحشرى ، والإشارات لابن سينا ، والسيرة لابن هشام .

وأن نور الدين المقرئ ، على بن محمد بن الناصح ، المتوفى عام ٨٠١ هـ له قصيدة فى القراءات (١) .

وأن زين الدين بن الوردى الشاعر المشهور الفقيه ، نظم « البهجة الوردية » فى ٥٠٦٣ بيتا ، وهى فى فقه الشافعية ، أنى فيها على الحاوى الصغير بغالب ألفاظه (٢) .

وأن شهاب الدين التنوخى ، أحمد بن المنجا ، - وكان قاضيا عالما شاعرا وتوفى عام ٩٠٨ هـ - له كتاب « العقيدة » فى نحو ٧٠٠ بيت (٣) .

وأن شمس الدين بن القيم المتوفى عام ٧٥١ هـ له قصيدة نونية فى السنة - أى فى العقائد - اسمها « السكافية فى الانتصار للفرقة الناجية » (٤) .

وأن شمس الدين بن ناهض الفقاعى أنشأ عام ٨١٨ هـ سيرة الملك المؤيد شيخ نظما ونثرا (٥) .

وأن قاضى قضاة الشافعية تقى الدين السبكى له قصائد علمية كثيرة منها قصيدة

(١) راجع أخبار هذه المنظومات فى حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ١٥٩ ، ١٩٧ ، ٢٠٧ ،

١٩٤ ، ٢٤٢ على الترتيب . (٢) الدر الكامنة ج ٣ رقم ٤٧٢ ،

(٣) مختصر طبقات الحنابلة لمحمد جليل الشطى ص ٧٤ (٤) المصدر نفسه ص ٦١

(٥) خزائن الأدب لابن حجة باب الإبهام .

في الروافض . وقصيدة في حكم السماع . وقصيدة في نحو سبعين بيتاً في مسائل
فقهية اقترحها عليه ابنه تاج الدين . وقصيدة في حكم « لو » ، وبيان معانيها
وشروطها (١) .

وإليك نماذج من هذا اللون من الشعر :

نظم القاضي علاء الدين القونوي المتوفى عام ٧٢٧ هـ في « الشجاج » ، قصيدة
من أبياتها قوله :

إذا رمت إحصاء الشجاج فما كفا مفسرة أسماؤها متواليمة . .
فجراحة إن شقت الجلد ثم ما أسالت دما وهي المسماة دامية
وباضعة ما تقطع اللحم والتي لها الغوص فيه للتي مر تالية
وتلك لها وصف التلاحم بائن وما بعده السمحاق فافهمه واعية
وقل ذاك ما أفضى إلى الجلدة التي تكون وراء اللحم للعظم غاسية
وموضحة ما أوضح العظم واسمها منقلة ثم التي هي آتية
فأمومة أمت من الرأس أمة وقد بقيت أخرى بها العشر وافية
فدامغة تسمى بحرق جليدة هي الأم كيس للدماغ وحاوية
وهذا هو المشهور في عدها وإن ترد ضبط حكم الكل فاسمع مقالیه.. الخ

« والشجاج هو أن يشج البعض بعضاً . وشج رأسه كسره . والجراحة : تطلق
على عضو من أعضاء الإنسان . والباطضة : الشجة التي تقطع الجلد وتشق اللحم
شقا خفيفا وتدعى ، إلا أنها لا تسيل . والتلاحم : يقال الشجة المتلاحمة ، وهي
الضربة في الرأس التي أثرت فيه ولم تبلغ السمحاق . والسمحاق : قشرة رقيقة
فوق عظم الرأس ، وبها سميت الشجة إذا بلغت سمحاقا . وأفضى إليه : وصل إليه
وبلغه ولمسه . والمنقلة : بكسر القاف هي الشجة التي تنقل منها فراش العظام ، أو
هي قشور تكون على العظم دون اللحم . وفراش العظم : بفتح أوله رقيقها .

والمأمومة الشجة التي بلغت أم الرأس . والدامغة : الشجة التي بلغت الدماغ .
والجليدة : بالتصغير أم الدماغ ، وهي جلدة صغيرة رقيقة . . (١)

ونظم الكاتب الكبير شهاب الدين بن فضل الله العمرى قصيدة في تاريخ
الخلفاء الفاطميين ومن بعدهم ، اسمها حسن الوفاء بمشاهير الخلفاء . ومن
أبياتها يذكر خلفاء بني العباس بمصر :

وطار منهم نحو مصر قشعم	قد جاءها كما يجيء الطائر
قال : أخى مستنصر ووالدى	والده وهو الإمام الظاهر
فلقبوه مثله مستنصرا	وذاك إن جدد فهذا الناصر
وكان منه الظاهر السلطان ذا	خوف ومن بأسائه يحاذر
فبايعوا الحاكم بعد أن أتى	وفر فالتفت به العشائر
وهو أبو العباس أحمد الرضا	من ولد الراشد نجم الزاهر
وقام مستكف كفاه ربه	جميع ما يخاف ناه أمر
وبعده الواثق إبراهيم لا	عاد ولا دارت له الدوائر
والحاكم الآن إمام عصرنا	بشرى لنا إنا له نناصر (٢)

ولعلاء الدين الباجي ، العالم الفقيه الكبير المتوفى عام ٧١٤ هـ ، أرجوزة
طويلة تكلم فيها عن شروط العالم ، وتناول فيها مسائل كثيرة عن العقائد ، وتحدث
فيها عن المعتزلة والمتصوفة وغيرهم . وفي مطلعها يقول :

يقول أضعف العبيد الراجي	مغفرة على بن الباجي
الحمد لله على التوفيق	لفهم ما ألحق من تحقيق
وكم له من نعمة وجود	أوله إفاضة الوجود
ثم الصلاة والسلام الأبدى	على النبي المصطفى محمد

(١) طبقات الشافعية للسبكي ج ٦ ص ١٤٤

(٢) حسن المحاضرة ج ٢٠ ص ٦٤

ومنها في شروط العالم :

اعلم فدتك النفس يا حبيب أن السعيد العالم الأديب
وهو الذي حاز العلوم كلها وفك مشكلاتها وحلها
كالفقه والأصلين والتورث والنحو والتصريف والحديث
والعلم بالتفسير والمعاني ومنطق الأمين والبيان
والبحث واللغات والأخبار عن قصص الماضين في الأعصار
والطب للأبدان والقلوب وكل علم نافع مطلوب
واستثبت المنقول منها ضابطاً وحقق البرهان والمغالطاً... الخ

ومن إشاراته إلى بعض العقائد الصوفية مبيناً رأيه ، والطريقة المثلى للوصول..

وقد علمت شطحة العلاج في مقالته فإثره لا تقتف
إن الطريق همّة وحال ثمرها الأعمال لا المقال
واسلك طريق العلم والأعمال كلاهما محقق الآمال
هما طريق الفوز لا محالة يسلكها مشايخ الرسالة... الخ (١)

ولجلال الدين السيوطي أرجوزة تقع في نحو مائة وخمسين بيتاً بعنوان
« التثبیت عند التبییت » ، وهي مخطوطة . وموضوعها « أن سؤال الميت في قبره
حق ، وأن الإيمان به واجب » . وقد قسمت أبيات الأرجوزة أقساماً تناول كل
قسم منها موضوعات مما يأتي : وجوب الإيمان بالسؤال — حكمة السؤال —
الأمر بتلقين الميت بعد دفنه — اختصاص السؤال بهذه الأمة — أي أمة النبي
عليه الصلاة والسلام . سؤال من لم يدفن ، والمصلوب ، ومن تفرقت أجزاؤه ،
ومن أكلته السباع . ومن ينقل ، والغريق — من خصوا بأنهم لا يسألون —
سؤال الكافر وأطفال المشركين — اسم المملوكين وصفتهما وكيفية السؤال —

ذكر الملك الثالث والرابع - تكرير السؤال سبعة أيام . - فهذه عشرة موضوعات .

والقصيدة من ناحية النسيج ضعيفة وكثيرة الضرورات والأخطاء . ومن أبياتها بعد المقدمة :

اعلم هــداك الله للرشاد موفقاً لطرق السداد
أن الذى عليه أهل السنة لحجج أمضى من الأسنة
أن سؤال الملوك من قبر حق والایمان به فرض شهر
أنى به القرآن بالإشارة ووافقت آياته آثاره
تواترت به الأحاديث التى قد بلغت سبعين عند العدة ... الخ (١)

ب - الأسئلة والأجوبة

المساءلات أو الأسئلة والأجوبة ضرب شعري يمكن أن يندرج تحت الضرب السابق - أعنى حقائق العلوم والفنون - لأن موضوعها شرح هذه الحقائق وبسط الكلام فيها توضيحاً لها وبياناً لأمرها .

ومؤداها أن يرسل سائل سؤالاً إلى أحد العلماء يستوضحه موضوعاً من موضوعات العلم . ويستجلبه حقيقة من حقائقه . ويكون السؤال شعر - وقد يكون نثراً - فيجيبه المسئول بالشعر موضحاً له ما استبهم ومبيناً ما استغلق . وقد يرسل السؤال بغير ذكر اسم السائل ، وقد يكون هدفه منه - لا الإجابة - ولكن إثارة مشكلة أو فتنة .

وفي هذه المساءلات دلالة على يقظة فكرية لدى العامة ومن يعبرون عن

(١) مخطوطة التثبيت عند التثبيت ضمن مجموعة بمكتبة المتصورة رقم ٣٩ مجاميع ، ويوجد غيرها برقم ١٠٩ مباحث إسلامية .

مشاكلهم الدينية والعلمية ، ودلالة على شعور العلماء بضرورة حمل أمانة العلم وتأييدها للناس . ودلالة على سعة العلم والإحاطة بضرور المعرفة ، فضلا عن تأدية السؤال والجواب نظاما مما يضمن عليهما طرافة تلفت الأنظار .

ومن المساءلات ما أورده تاج الدين السبكي في طبقاته في سياق ترجمة علاء الدين الباجي ، خاصا بسؤال ورد في العقائد وفعل العيد . قال السبكي عن ناظم هذا السؤال مانصه :

« يقال إن هذا الناظم هو ابن الثمقي الذي ثبت عليه أقوال تدل على الزندقة ، وقتل بسيف الشرع الشريف في ولاية الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد القشيري . وكان مقصد هذا السائل الطعن على الشريعة . فانتدب أكبر علماء مصر والشام لجوابه نظاما . » (١)

وقال السبكي قبل ذلك ماموداه :

« لما ظهر هذا السؤال الذي أظهره بعض المعتزلة وكتم اسمه وجعله على لسان أهل الذمة ، رد عليه جمع من العلماء من بحر ورويه . ومنهم : علاء الدين الباجي ، وتقي الدين بن تيمية الحراني ، والأديب ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر ، وشمس الدين بن اللبان ، ونجم الدين الطوسي ، وعلاء الدين القونوي . »

وقد سجل السبكي نص السؤال ، وإجابات هؤلاء الأعلام عليه وهي قصائد طويلة . (٢) .

وروى ابن حجر العسقلاني في كتابه « الدرر الكامنة » أن تقي الدين بن تيمية الحراني الإمام الحنبلي المجتهد المعروف ، لما وقف على هذه الآيات ثنى إحدى

(١) راجع ترجمة علاء السباجي وقصيدته هذه في طبقات السبكي ج ٦ ص ٢٢٩ .

(٢) راجع طبقات السبكي في ترجمة علاء الباجي .

رجليه على الأخرى وأجاب في مجلسه قبل أن يقوم بمائة وتسعة عشر بيتاً .
وروى أن ناظم هذه الأبيات هو محمد بن أبي بكر السكاكيني .^(١)

ونص السؤال هو :

أيا علماء الدين ذمى دينكم	تخير دلوه بأوضح حجة
إذا ما قضى ربى بكفرى بزعمكم	ولم يرضه منى فما وجه حيلتى
دعانى وسد الباب عنى فهل إلى	دخولى سبيل بينوا لى قضى
قضى بضلالى ثم قال ارض بالقضاء	فهل أنا راض بالذى فيه شقوتى
فإن كنت بالملضى يا قوم راضيا	فربى لا يرضى لشؤم بليتى
وهل لى رضا ما ليس برضاه سيدى	وقد حرت دلو فى على كشف حيرتى
إذا شاء ربى الكفر منى مشيئة	فها أنا راض باتباع المشيئة
وهل لى اختيار أن أخالف حكمة	فبالله فاشفوا بالبراهين حجتي ^(٢)

ونسكتفى هنا بتسجيل أبيات من إحدى قصائد الرد عليه . وهى الأديب ناصر
الدين شافع بن عبد الظاهر . قال :

سألت ولم تعرب وكم من مباحث	جرت من أهيل العلم فى ذى الحقيقة
وما أنت يا ذمى مبتكرا لما	توهمته من دون ماضى البرية
نعم كل شئ كأن بقضائه	وتقديره حتما بأوضح حجة
وهل واقع ما لا يشاء بملكه	لقد ضل من ذا رأيه فى القضية
وإن الرضا غير القضاء فلا تكن	تنازع فيما شاء من مشيئة
له المحو والإثبات جل جلاله	فلا تعترض فى حكمه وثبت

(١) الدرر السكاك ج ١ رقم ٤٠٩ فى ترجمة ابن تيمية الحرانى .

(٢) طبقات السبكي ج ٦ ص ٢٢٩ .

وكن بجوابي مسلما ومسلما وكن باتباع الحق من خير أمة .. (١)

وروى تاج الدين السبكي أن القاضي صلاح الدين - لعله الصفدي (٢) -
بعث إلى الشيخ تقي الدين أبي الفتح محمد بن عبد اللطيف السبكي ، في بعض مسائل
النحو والفقه فأجابه الشيخ تقي الدين بأبيات من البحر والروى .
قال صلاح الدين من أبياته :

تقرر أن فعلا فعولا	مبالغتان في اسم الفاعلية
فكيف تقول فيما صح منه	وما الله بظلام البرية
أعطى القول إن فكرت فيه	سوى نفي المبالغة القوية
وكيف إذا توضحا بماء	طهور وهو رأى الشافعية
أزلنا الوصف عنه بفعل فرد	وذاك خلاف رأى المالكية .. إلخ

وقد أجابه الشيخ تقي الدين السبكي بأبيات من بحره ورويه ، مبينا رأى في
المسألتين فقال .

ومن جاء الحروب بلا سلاح	كمن عقد الصلاة بغير نية
فظلام كنزار وأيضا	فقد يأتى بمعنى الظالمية
وقد ينفي القليل لقلة في	فوائده بنفي الأكثرية
وقد ينحى به التكثير قصدا	لكثرة من يضام من البرية
وأما قوله ماء طهور	ونصرته لقول لمالكية
فجاء على مبالغة فعول	وساغ مجيئه للفاعلية
وقد ينحى به التكثير فضلا	لكثرة من يروم الظاهرية

(١) راجع قصة هذا السؤال والرد عليه في طبقات السبكي ج ٦ ص ٢٣٢ .

(٢) رجحنا أنه الصفدي إذ اعتاد السبكي أن يذكره هكذا « صلاح الدين » . وكانت بينهما مودة

والسؤال حول « ظلام » هل هو لنفي الظلم أو نفي المبالغة فيه . وحول « طهور » يتوضأ منه فرد . هل تزول طهارته كما تقول الشافعية أو لا تزول كما تقول المالكية .

والجواب أن « ظلام » المبالغة ، وتأتي للنسب في الآية الكريمة ، وأن « طهور » المبالغة وتأتي بمعنى طاهرة . وهى هنا بهذا المعنى .

وأرسل صلاح الدين الصفدى إلى الشيخ أبى حامد بن تقي الدين السبكي سؤالاً فى « صلاة الأعمى مأموماً ومؤتماً ومنفرداً » . قال وكأنه يلغز فى سؤاله :

أبا حامد إني بشكرك مطرب كأن ثنائى فى المسامع شين
لقد حزت فضل الفقه والأدب الذى يفوت الغنى من لا نداك يفوز
وفت المدى مهلاً إلى الغاية التى لها عن لحاق السابقين بروز
فأصبحت فى حل الغوامض آية تميل إلى طرق الهدى وتميز
كأن حروف المشكلات إذا أتت لديك على حل العويص رموز
ملككت فأخرج للمساكين فضلة فعندك من در البيان كنوز
تجيد القوافى والقوى فى بيانها فبيتك للمعنى الشرود حزين
سألت فخبر عن صلاة امرئ غدت يحار بسيط عندها ووجيز
تجوز إذا صلى إماماً ومنفرداً وإن كان مأموماً فليس تجوز
فأوف لنا كبل الهدى متصدقا فأنت بمصر والشام عزيز
فهنذا الذى يرجى وأنت كما ترى مجيد مجيب للسؤال مجيز
فأجابه الشيخ أبو حامد من بحره ورويه ، وبدأه بالثناء عليه كما بدأه . قال :

أيام من لشأو العلم بات يحوز ومن حاز فى الآداب ما اقتسم الورى
ومن ضاع عرف الفضل منه ولم يضع فليس لشيء منه عنه نشوز
سألت وما المسئول أعلم بالذى بجدواه عرف الجود فهو حزين
أردت ولا منه عليك بروز

وقلت : امرؤ لا يقتدى غير أنه إماما وفردا بالجواز يفوز
وذاك امرؤ أعمى نأى عنه سمعه وليس لأفعال الإمام يميز
فهاك جوابا واضحا قد أبنته ومثلى عن حل الصعاب ضموز... الخ (١)
وجواب أبى حامد يدل على : أنه الأعمى الأصم .

وهكذا نرى أن المساءلات الشعرية التى موضوعها حقائق العلوم كانت مجالا
من مجالات الشعر ، ومظهرا من مظاهر الفكر ، ومسرحا إخوانيا تنفست
فيه العلاقات الشخصية عن طريق الفن الشعرى .

الألغاز والأحاجي

وكما يكون اللغز أو الأحجية نثرا تسكون شعرا . وكما يكون موضوعها أدبيا
يكون علميا ، والغالب أن يقع اللغز أو الأحجية بطريق السؤال والجواب ، على
نمط ما رأينا فى المساءلات .

وشعر اللغز والأحجية أحد فنون الشعر التى تناولها شعراء العصر . لقد
أكثروا منه وأطالوا فيه وأجادوا .

وكما أنه مظهر من مظاهر الثقافة العلمية ، هو مظهر من مظاهر الثقافة الأدبية ،
فهو بجلى للثقافتين . وهو بلا ريب فى حاجة إلى سعة فكر وقوة ملاحظة وإحاطة
بالحقائق وقدرة على المماثلة وسيطرة لغوية وحيلة على التصحيف وتشابه الحروف ،
تعين على التعمية التى هى أساس الألغاز والمحاجاة .

من هذه الزاوية ننظر إلى هذا اللون من النظم الذى غمط بعض مؤرخى
الأدب حقه ، ونسبوا أهله إلى فراغ الفكر وفراغ الزمن ، وأنهم قصدوا به

(١) القصيدةتان عن كتاب « نكت الهميان فى نكت العميان » للصفدى ص ٤٩

فقط إلى التسلية . وأغفلوا جوانبه الأخرى .

وقد كتب ابن حجة في خزانة الأدب تحت عنوان « الألغاز » وهو في سياق حديثه عن الألوان البديعية ، فقال :

« هذا النوع - أعنى الألغاز - يسمى المحاجة والتعمية ، وهى أعم أسمائه . وهو أن يأتى المتكلم بعدة ألفاظ مشتركة من غير ذكر الموصوف ، ويأتى بعبارات يدل ظاهرها على غيره ، وباطنها عليه ، الخ (١) .

ونحن لا ننظر أيضا إلى هذا الفن الشعري على أساس أنه لون بديعى ، ولكن على أساس أنه لون من ألوان الفكر وأسلوب من أساليبه لإخراج المعانى وتصويرها فى ثوب مزدوج تلعب فيه المماثلة والتورية والتلميحات ونحوها دورها .

ويشترك فى صياغتها ذكاء الشاعر وحدة خاطره وقدرته على الإحاطة بصفات موصوفة واختبار الألفاظ التى تعمى فيها هذه الأوصاف . والتعمية لا تكون مستغلفة ولا تكون مبهمة الإبهام كله ، بل تكون لها مفاتيح يقع عليها ذكاء الملغز إليه وتستخدمها حدة خاطره هو الآخر .

وصناعة الألغاز والمحاجة وثيقة الصلة - كما رأيت - بباب الوصف ، والموازنة والجمع بين المتشابهات والمتضادات . وثيقة الصلة بالفكاهة والمدح ، وهى بعد ، ضرب من ضروب الإخوانيات تعلقت بها الفنية الشاعرة فتنفست عن طريقها . فإنها لا تعدو أن تكون سؤالا وجوابا بين صديقين حميمين . أو كأنها بينهما .

وبرزت هذه الصناعة فى العصر المملوكى بروزا قويا أكثر مما برزت فى أى عصر سابق . وقد تناولوا فيها موضوعات كشيخة مما يقع فى محيطهم كالآزهار

والنباتات والأطيار والأدوات المنزلية ونحوها . ومزجوا ذلك بالمدح وتبادل
الثناء .

وألغز أحمد بن عبد الملك العزازی الذي كان تاجرا بقيسارية جركس ،
وأرسله إلى صديقه ناصر الدين بن النقيب ، في « شهابه » .

فقال :

وما صفراء شاحبة وليكن يزينها النضارة والشباب
مكتبة وليس لها بنان منقبة وليس لها نقاب
تصيخ بها إذا قبلت فاما أحاديثا تلذ وتستطاب
ويحلو المدح والتشبيب فيها وما هي لاسعاد ولا رباب

فأجابه ناصر الدين بن النقيب من البحر والروى ، فقال :

أنت عجمية أعربت عنهما لسانان يكون لها انتساب
يفهم ما تقول ولا سؤال إذا حققت ذاك ولا جواب
يكاد لها الجماد يهز عطفها ويرقص في زجاجته الحباب^(١)

وألغز القاضي شهاب الدين محمود الحلبي في « من » ، وهو لغز علمي بعث به
إلى شيخه مجد الدين بن الظهير . فقال :

وما مفرد اللفظ مستعمل لجمع الذكور وجمع الإناث
يحرك بالحركات الثلاث فيغدو من الكلمات الثلاث

فكتب إليه الشيخ مجد الدين الجواب :

قريضك يا ملغزا في اسم من يميل إلى صلة كالذي

غدا حامل المسك يحدى الجليس منه ويحظى بعرف شذى (١)

وألغز صلاح الدين الصفدى فى «دينار» وأرسل اللغز إلى صديقه القاضى الخطيب البليغ شهاب الدين أبى العباس أحمد بن عبد الله بن مالك . وقد قدمه بالثناء عليه والتنويه بفضله ، قال :

يا فاضلا من	بحره	كل الورى	تغترف
ويا خطيبا	لفظه	در وسمى	صدف
إذا علا	منبره	قلت حمام	يهتف
ويا شهابا	كم به	عنا تجلت	سدف
ما مفرد	مذكر	منكر	معرف
فى جمعه	لم ينصرف	والجمع منه	يصرف
عروضه	واحدة	وضربه	مختلف
خميس	مدور	محرف	مشرف
منقش	وماله	كف حلاها	الشرف
أعيننا	فى عينه	شوقا له	لا تطرف
أصفر	لا من علة	توهنه	وتضعف
وليس يدرى	ما البلى	ولا براه	التلف
وناره	لم تلهب	ودينه	لا يعرف
بينه	لا برحت فى	سعد حياة	يكف
ودمت للفضل	الذى	ثمارة	تقتطف

فأجابه شهاب الدين أحمد المذكور من بحره ورويه ، وقارضه الثناء ، وحل له اللغز . قال :

(١) الأشباه والنظائر للسيوطى ج ٢ ص ٢٩٨ - نقلا عن التذكرة الصفدية .

يا واحدا في عصره لعبده يشرف
ويا إماماً عليه بين الورى لا يخلف
إن الذى ألغزته بأرض مصر يعرف
تهوى الملوك وصله كيف الكتيب المسدنف
متمم في عشقه كذا الريب الأهيف
عيوننا في عينه وما أراها تسعف
وحسنه ولفظه لمسمى يشنف
عذرا لعبد فهمه يقصر لا بل يضعف
عن نظم در صغته لأن نظمي صدف
مرصع في ذهب موقع مؤلف
في مثله فسيدي يلغز أو يصحف
لا زلت في سعادة أذياها ترفرف (١)

والغز محي الدين بن عبد الظاهر في « كوز » فقال :

وذى أذن بلا سمع له قلب بلا قلب
إذا استولى على حب فقل ما شئت في الصب

والغز أيضاً في « باب » فقال :

أى شيء تراه في الدور والكتب مجازاً هذا وذاك محقق
هو زوج وتارة هو فرد وهو فى أكثر الأحيان يطرق
وطليق فى نشأته ولكن بحديد من بعد ذلك يوثق
وهو فى القلب يستوى وتراه بان تصحيفه لمن يترفق (٢)

(١) راجع القصيدة فى « ألحان السواجم » للصغدى مخطوط بدار الكتب المصرية الورقة رقم ١٢

(٢) تأهيل الغريب ص ٨٨ ، خزنة الأدب باب الألفاظ ص ٤٨٠

ومن ألباز جمال الدين السبكي - الحسن بن علي - بن تقي الدين السبكي ، المتوفى عام ٧٥٥ هـ قوله :

يا أيها البحر علما والغمام ندى ومن به أضحت الأيام مفتخرة
أشكو إليك حبيبا قد كلفت به مورد الخد سبجان الذي فطره
خمساه قد أصبحا في زى عارضه وفيه بأس شديد قل من قهره
لا ريب فيه وفيه الريب أجمعه وفيه يابس ولين القامة النضرة
وفيه كل الورى لما تصحفه في ضيعة ببلاد الشام مشتهرة
قال صاحب شذرات الذهب ، في ترجمة جمال الدين السبكي : « لعل اللغز في
ريباس » . وقال ابن حجر في الدرر الكامنة في ترجمته أيضاً ، كذلك ^(١) .
قيـل :

« وأما الفواخت فهي عراقية وليست بحجازية . وفيها فصاحة وحسن
صوت . وصوتها في الحجازيات يشبه صوت المثلث ، وفي طبعها تأنس بالناس ،
وتعشش بالدور . وهذا الحيوان يعمر . وقد ظهر منه ما عاش خمساً وعشرين
سنة ، وما عاش أربعين سنة - على ما حكاه أرسطو -

وقد قال القاضي أمين الدين الأنصارى ملغزاً في فاختة :

وما طائرهم - وى الرياض تنزها ويسرح في أفنانها ويعود
هجاء اسمه خمس حروف نعدّها وخمساه حرف إن تأملت مفرد
وبعدهما تصحيف باقيه إن ترد بيانا له أفعى تبين وتشهد
وفيه أخ إن تهت عنه فاخته تدل على ما قد عنيت وترشد
فأجابه الشيخ زين الدين بن العجمي ، حالا لهذا اللغز ، ومادحاً وواصفاً
للفاخته بأوصاف جديدة ، ويلغز :

(١) شذرات الذهب ج ٦ ص ١٧٨ الدرر الكامنة ج ٢ رقم ١٦٠٣

أيا من له مجد أثيل وسودد
يفيد يسار المقترين يمينه
سؤالك عن أثى طروب ولم تزل
وتجذبني بالطوق حال نشيدها
يطير بها نحو النجاح جناحها
وفي بطن أثى لم تصور وإنما
يذكرني تذكراها أم هانيء
ومذبان منها الطرف أمست بعكسها
وإن حذفت ثاني الأخير فلم يكن
وأولها مع ما يليه وطرفها
وحرفان منها فرد حرف لناطق
وتفتتح فاهها حين نفقد ثالثاً
نخذه مبيناً مغضياً عن إساءتي
بقيت بقاء الدهر عزك باذخ
ولا زلت في الدنيا سعيداً مملوكاً
غدا دون مرماه سمك وفرقد
ويمناه من يمني الغمامة أجود
على عودها في الروض تشد وتنشد
لنحو التصابي لا أطيق أفند
فتبلغ ما تختار ثم وتقصد
يصورها من حبسها من يرقد
فتشرف في نفسي إذا وتمجد
تخاف الردى ممن لها يترصد
على بخاف بل يلوح ويشهد
لنفاقه بالمعنى الذي منه نقصد
وأف لمن بالعكس من ذاك يحدد
وتاليه يخشى من لها يتصيد
فإنك للإحسان أهل ومقصد
وفي مفرق الجوزا لسانك يعقد
وحظك في الأخرى النعيم المخلد^(١)

د - البديعيات

فن البديعيات صناعة فكرية أكثر منها صناعة أدبية . وهي ضرب من
ضروب شعر حقائق العلوم والفنون ، : ذلك لأنه في جملة ما نظم فيه من القصائد
يدور حول ذكر لوئين من الحقائق : حقائق الأصباغ البديعية ، وحقائق السيرة
النبوية . ولا ننكر أن النزعة الدينية لها صلة ما بوجود هذا الفن .

(١) مطالع البدور في منازل السرور - مخطوط بالمكتبة الأزهرية .

وهو أحد فنون الشعر المبتكرة في عصر المماليك . وقبل العصر المذكور لم يتنبه الشعراء إليه ولم تتجه نحوه خواطرهم . ومنذ ابتكاره وله سيطرة كبيرة في دولة الشعراء امتدت إلى زمن قريب .

وأول أسباب ابتكارهم له وتنبيههم له هو اتخاذه وسيلة لإظهار القدرة على سبك ألوان البديع . ومادفع الشعراء إلى ذلك إلاحبهم للبديع واعتبار ألوانه في جملتها دعائم بلاغية تعين على جمال تصوير المعاني ودقته .

وفن البديعيات الذروة التي بلغها الولوع بصناعة البديع . وقصائد البديعيات في الشعر شبيهة بمقامات الحريري في النثر . كلتاهما القمة التي بلغتها صناعة البديع .

وأول ما وجه الخواطر إليه ، بردة البوصيري - كما أشرنا عند الحديث عن المديح النبوى - وهى التي مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم مدحا مزوجا بالوجد وإظهار الشوق إليه وإلى دياره ، وذكر سيرته الشريفة والاستشفاع به عند الله سبحانه وتعالى .

وشرف الدين البوصيري شاعر عاش - كما تحدثنا - في مطالع عصر المماليك وتوفى عام ٦٩٥ هـ . وكان قد أصيب بفالج فاهتدى إلى نظم هذه القصيدة تمديحا بالرسول عليه السلام ، وتقربا إليه واستشفاعا به طلبا للشفاء . وقد شفى .

ومطلع البردة قوله :

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

وهى قصيدة - كما عرفنا - جيدة النسيج كثيرة الحكمة متعددة الأغراض يجرى أسلوبها على النهج البديعى دون تسكف في جملة ، ودون قصد أساسى إليه ، فجرى هيئا كدسا يسير المثنونة مقبولا ، ولم يلتزمه الشاعر في كل بيت منها ، ولم يلتزم عدم تكرار أنواعه .

فأعجب الشعراء بعد البوصيري بهذه البردة : بحر ها وقافيتها وأغراضها ،

ونزعها في المديح وأخذوا يعارضونها بقصائد على نظمها . « فكانت البديعيات » .
فالبديعيات إذن ، قصائد من بحر البسيط قافيتها ميمية مثل ميم البردة .
وموضوعها مدح الرسول عليه السلام والحديث عنه على طريقة البردة .
غير أن الغرض الأول والرئيسي من نظمها هو أن يتضمن كل بيت من أبياتها
نوعا بديعيا واحدا على الأقل . مع الإشارة أحيانا في البيت إلى اسم النوع الذي
يتضمنه ، بلفظ ما عن طريق التورية . وقد يشار إلى اسم النوع دون إيراد مثل
له في البيت .

بهذه الأمور اختلفت البديعيات عن البردة ، وصارت نماذج بديعية قبل أن
تكون شيئا آخر ، أو أصبحت كأنها كتاب في البديع يستعرض أنواعه ويمثل لها .
لقد تعرض كثير من الأدباء لشرح البديعيات . فشرحوا ألوان البديع فيها
دون أن يتعرضوا لشيء من السيرة النبوية الشريفة . صنع ذلك أكثر الشراح ،
ومنهم بعض ناظمي البديعيات .

لم يفتن إلى هذا الفن الشعري شاعر آخر قبل شعراء هذا العصر . إلا أن هناك
شاعرا اسمه « أمين الدين السليماني » - توفي عام ٦٧٠ هـ - اتجه إلى نظم أبيات
يتضمن كل بيت منها نوعا بديعيا ، دون أن يكون غرضه المديح النبوي ، ولم تكن
قافية أبياته ميمية ولا بحر ها من البسيط ، ولم يسم النوع البديعي . وإليك أبياتا من
نظمه : قال :

بعض هذا الدلال والإدلال حال بالهجر والتجنب حالي
حرت إذ حزت ربع قلبي وإدلا لي صبرا كثرت من إذلال
رق يا قاسي الفؤاد لأجفا ن قصار أسرى ليالي طوال .. إلخ^(١) .
في البيت الأول جناس لفظي بين الدلال والإدلال ، وبين حال وحالي —

وفي الثاني جناس خطي بين حرت وحزت ، وبين إدلالى وإذلالى - وفي الثالث طباق بين قصار وطوال .

وقصيدة السليمانى فى ٣٦ بيتاً ، سار فيها على هذا النمط . وقد تكون بدء النزعة البديعيات وإرهاصاً بميلاد فن جديد ، فيه هذا الالتزام وغيره .
ولكن ينبغى القول إن هناك فجوة كبيرة بين ما نظمه هذا الشاعر ، ومخترعى فن البديعيات . فإن التزاماتهم فيها أكثر وأدق وذات منهج محدود وهدف معين .

على أن صفى الدين الحلى - وهو أول مخترع لفن البديعيات كما يقول - يصرح فى مقدمة شرح بديعته بأنه ابتكر هذا الفن دون أن يتأثر بخطوة شاعر تقدمه . وسياق حديث أدباء زمانه وما بعده يشعر بأنه مبتكرها ومثلاً : روى شمس الدين السخاوى فى الضوء اللامع فى ترجمة شرف الدين السعدى ، أنه عمل بديعية على طريقة الحلى (١) .

وإليك ما ذكره ناشر البديعية مما جاء على لسان صفى الدين الحلى ، لبيان غرضه من نظمها . قال :

وقال الشيخ العالم تاج الأدباء والفضلاء ، ملك الشعراء والفصحاء ، صفى الدين أبو المحاسن عبد العزيز بن سرايا بن أبى القاسم الحلى السنبسى - رحمة الله عليه - يمدح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . - وذكر أن موجب ذلك أنه أراد أن يؤلف كتاباً يحيط بكل أنواع البديع . فعرت له علة طالبت مدتها واشتدت شدتها ، فاتفق أنه رأى فى منامه رسالة من النبى صلى الله عليه وسلم يتقاضاه الممدح ، ويعده البرء من سقمه ، فعدل عن تأليف ذلك الكتاب إلى نظم قصيدة تجمع أشتات البديع ، وتتطرز بمدح مجده الرفيع . فنظم قصيدة عدتها مائة وخمسة وأربعون بيتاً فى بحر البسيط تشتمل على مائة وواحد وخمسين نوعاً من محاسن

البديع . وجعل كل بيت منها مثالا شاهداً لذلك النوع . وربما اتفق في البيت الواحد نوعان أو ثلاثة بحسب انسجام القرينة له النظم .

ثم قال — أى صفى الدين :

« وألزمت نفسى فى نظمها عدم التكلف وترك التعسف ، والجري على ما أخذت به نفسى من رقة اللفظ وسهولته وقوة المعنى وصحته ، وبراعة المطالع والمزج وحسن المطلع والمقطع ، وتمكن قوافيها ، وظهور القوى فيها . بحيث يحسبها السامع ، غفلا من الصنائع . »

وقال أيضاً :

« فانظر أيها الناقد الأديب والعالم اللبيب ، إلى غزارة الجمع ضمن الرياقة فى السمع . فإنها نتيجة سبعين كتاباً لم أعد منها باباً . فاستغن بها عن حشو الكتب المطولة ، ووعر الألفاظ المغلغلة .

ودع كل صوت غير صوتى فإننى أما الصائح المحمكى والآخر الصدى ، الخ (١)

لم يصرح صفى الدين بأنه ببديعته عمداً إلى معارضة البردة . ولكن هذه الفكرة واضحة كل الوضوح بدليل الاتفاق فى الوزن والقافية ونوع القافية ، وموضوع القصيدة والاتجاه فى المديح .

ومن غريب الأمر توافق صفى الدين والبوصيرى فى الدافع الأصيل لنظم القصيدة . وهو المرض ورؤية الرسول عليه الصلاة والسلام فى المنام وتقاضيه المديح من كل منهما .

ولكن بينما استجاب البوصيرى فنظم البردة متواجداً مشتاقاً مستشفعاً ، إذ نظم صفى الدين ببديعته لتجمع أشتات البديع ويستعير بها عن كتاب فيه .

وقد عارض البردة من بعد صفى الدين جماعة من الشعراء ، من بينهم — كما سنبينه — تقي الدين بن حجة الحموى . وقد صرح ابن حجة فى مقدمة شرحه لبديعيته بأنه يعارض بها البردة . فقال :

« وبعد فهذه البديعية التى نسجتها بمدحه صلى الله عليه وسلم ، على منوال طرز البردة ، ... الخ (١) »

ومهما يكن من شىء فإن من المبكرين إلى معارضة البردة على هذا النسق : أبو عبدالله شمس الدين الهوارى « محمد بن أحمد » المعروف بابن جابر الأندلسى ، الذى رحل إلى مصر والشام زمننا ، واستوطن حلب زمننا آخر ، وتوفى بالأندلس عام ٧٨٠ هـ . وهو رجل ضرير . ولهذا عرفت بديعيته ببديعية العميان .

ويتنازع فى أمر ابتكار فن البديعيات هو وصفى الدين الحلى الذى توفى عام ٧٥٠ هـ . ولعل الفكرة خطرت لسكلا الرجلين فى وقت واحد (٢) .

وأقبل بعد هذين الشاعرين كثير من الشعراء ، فنظموا بديعيات أخرى على هذا الغرار ، ويعارض بها بعضهم بعضا — وامتد الأمر إلى ما بعد عصر المماليك ، فتوالى الناظمون وخرج بعض الناظمين عن بعض التزاماتها .

وعنى أكثر الناظمين فشرحوا بديعياتهم فى كتاب ، تحدثوا فيه غالباً عن أنواع البديع . فكان من البديعيات ومن شروحها مجموعة أدبية قيمة ، تستأهل بحثاً مستقلاً مفصلاً ، يتناول بالحديث منشأها وفكرتها والدوافع إليها ، وطريقة نظمها ومنهج شرحها واستقصاء ما نظم منها ، وما شطر وما خمس وما سبع ،

(١) راجع خطبة خزاة الأدب لابن حجة الحموى .

(٢) تحدث المرحوم الدكتور زكى مبارك فى كتابه « المدائح النبوية » عن البديعيات وموضوع ابتكارها . وتحدث عنها محمد بك دياب فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » طبع مطبعة جريدة الإسلام ، بمصر بحارة السقاين عام ١٣١٤ هـ — ١٨٩٧ م . وتحدث عنها جورجى زيدان فى كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ، وقد اعتمدنا على هذه الكتب .

والمطبوع منها ومن شروحها ، والمخطوط ، وتحقيق هذا كله ، إلى بيان أهميتها في عالم الشعر والأدب والعلم . وغير ذلك مما يستلزمه البحث .

وقد سمي صفي الدين بديعته : « السكافية البديعية في المدائح النبوية » (١) . وقد شرحها صفي الدين في كتاب سماه : « النتائج الإلهية في شرح السكافية البديعية » . وسمى ابن جابر الأندلسي بديعته : « الحلة السيرا في مدح خير الورى » . وقد شرحها صديقه « شهاب الدين أبو جعفر المغربي » في كتاب سماه : « طراز الحلة وشفاء الغلة » . (٢)

وحذا حذوها عز الدين الموصلى المتوفى عام ٧٨٩ هـ . والتزم في بديعته تسمية الأنواع البديعية . وأحياناً يسمى النوع ولا يذكر المثل . وسماها « الفتح الآلى في مطارحة الحلى » . وشرحها في كتاب سماه : « التوصل بالبديع إلى التوصل بالشفيع » . (٣)

وقد نقد ابن حجة في كتابه « خزنة الأدب » بديعية الموصلى نقداً مرأ . وفقى على آثارهما تقى الدين بن حجة الحموى المتوفى عام ٨٣٧ هـ . وقد دفعه إلى نظم بديعته صديقه ناصر الدين محمد بن البارزى صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية ، — أى فى القاهرة . وكان ابن حجة ينظم البيت فى معارضة بيت الحلى والموصلى ويعرضه على ابن البارزى فينقده له أو يحيزه . وهكذا حتى أتم نظمها . وسماها « تقديم أبى بكر » ، وشرحها فى كتاب جليل يعرف الآن « بخزانة الأدب » . وهو أحفل شروح البديعيات بالأدب والنقد والبلاغة

(١) يسميها بعضهم « السكافية البديعية » .

(٢) ذكر ذلك ابن حجة فى خزنة الأدب فى باب الإغراق . ونسب جورجى زيدان هذا الشرح لابن جابر ، وهو وهم — راجع جورجى زيدان ج ٣ ص ١٢٤ فى ترجمة ابن جابر — والشرح مخطوط بدار الكتب المصرية (بلاغة رقم ٢٥٧) .

(٣) شرح بديعية الموصلى مخطوط بدار الكتب المصرية (بلاغة رقم ٦٠٧) .

والتاريخ . ووازن فيها ابن حجة بين بديعيتها وبديعيتي الحلبي والموصلي بيتاً
بيتاً تقريباً .

ومن أصحاب البديعيات بعد هؤلاء في العصر المملوكي :

تاج الدين عبد الوهاب بن عربشاه المتوفى بالقاهرة عام ٩٠١ هـ واسم بديعيته
« شفاء السكيم بمدح النبي الكريم » . (١)

وجلال الدين السيوطي المتوفى عام ٩١١ هـ واسم بديعيته « نظم البديع في مدح
خير شفيع » . وقد شرحها في كتاب لطيف بسمى « شرح السيوطي » . (٢)

والسيدة عائشة الباعونية المتوفاة عام ٩٣٠ هـ ولها بديعيتان إحداهما تسمى
« الفتح المبين في مدح الأمين » ، وقد شرحها شرحاً لطيفاً . طبع على هامش إحدى
طباعات خزانة ابن حجة .

وهناك غير هؤلاء أفاضل من الناظمين . وقد اطرده وجود هذه النزعة إلى
عصرنا الحديث .

هذا . وبدهى أن البديعيات لها أهميتها من الناحية الفنية . ولكن نزعة الصناعة
بها وتكلفها أبعدها أو أبعدت أكثر أبياتهما عن جو الشعر الأصيل ، وأفقدتها
خياله الجميل وروعة تصويره وعاطفيته وسحر تراكيبه ، بل جفت فيها الحكمة
الصادقة والمثل السائغ أيضاً . ولم تستطع بديعية منها أن تتعاق من البردة بغبارها .
وحسبك أن تقرأ بعض أبياتها لتنتهي إلى الرأي الذي قلناه .

فمن بديعية صفي الدين الحلبي قوله في المطلع :

إن جئت سلماً فسل عن جيرة العلم وأقر السلام على عرب بذى سلم
فقد ضمنت وجود الدمع من عدم لهم ولم أستطع مع ذاك منع دمي

(١) راجع جورجى زيدان ج ٣ ص ١٢٧ .

(٢) شرح السيوطي مخطوط بدار الكتب المصرية (بلاغة رقم ١٣٥) .

أبيت والدمع هام هامل سرب والجسم في إضم لحم على وضم
من شأنه حمل أعباء الهوى كذا إذا همى شأنه بالدمع لم لم... الخ
وقد التزم صفي الدين - كما ترى - أن يحتوى كل بيت نوعاً بديعياً ، دون أن
يذكر اسمه . وفي الآيات ألوان مختلفة من الجناس .

ومن بديعية أتى الدين بن حجة الحموى قوله في المطلع :

لى فى ابتدا مدحكم يا عرب ذى سلم براعة تستهل الدمع فى العلم
بالله سربى فسربى طلقوا وطنى وركبوا فى ضلوعى مطلق السقم
ورمت تلقيق صبرى كى أرى قدمى يسعى معى فسعى لكن أراق دى
وذيل الهم همل الدمع لى فجرى كلاحق الغيث حيث الأرض فى ضرم . الخ
وقد التزم ابن حجة أن يضمن كل بيت نوعاً بديعياً على الأقل ، وأن يورى
بلفظ فيه عن اسم هذا النوع . وفي الآيات ألوان مختلفة من الجناس . فى الثانى
جناس مركب مطلق . والثالث جناس ملفق . والرابع جناس مزيل ولاحق .
أما الأول ففيه براعة استملال .

هذا . ونعيد الإشارة فى أعقاب هذا الحديث ، إلى أن بعض الأدباء
فيما بعد ، نظموا بديعيات لم يلتزموا فيها كل شروط البديعية التى أشرنا إليها فى
مقدمة كلامنا .

فمنهم من نظمها من غير القافية الميمية ، ومنهم من نظمها من غير بحر البسيط
ومنهم من نظمها فى غير المديح النبوى .

ومن الأمثلة لذلك : شرف الدين السعدى « عيسى بن حجاج » نظم بديعته
على طريقة الحلّى ومن قافية الرأء . (١)

(١) روى ذلك السخاوى فى الضوء اللامع . ج ٦ رقم ٤٨٤ ، وعيسى بن حجاج اشتهر بعويس
العالية ومات عام ٨٠٧ هـ .

والأديب الشيخ محمد ناظم الملتقى ، نظم بديعية قافيتها لامية ، أنمها عام ١١٠٥ هـ
وشرحها في كتابه و تحفة الأدباء وتسليية الغرباء ، (١)

هـ — الحكمة والمثل والنصيحة

الحكمة القولة الصادقة النافعة الجامعة المعللة المنتزعة من حقائق هذه الحياة
ووقائعها وتجاربها . والمثل على غرارها ولكنه منتزع من حادثة معينة قيل فيها ،
وتردده الألسنة كلما وقعت حادثة مماثلة .

وللبينة الثقافية آثارها في إبراز هذه الأغراض وإنضاجها . وقد كانا في جملة
أغراض الشعر في هذا العصر ، ولا سيما الحكمة . وقد ترددت خلال قصائد
الثناء والمدح النبوي والتصوف والزهد والشكوى وذم الشيب والزمان ، وما إلى
ذلك . وقد ينظمها الشعراء مستقلة في قصيدة أو مقطوعة .

والحكمة — في الحق — أوسع رحابة من أن تدور في ميدان التصوف والزهد ،
إذ حقائق الحياة التي تنتزع منها أبعد أفقاً وأناى مدى منهما . ولكنها في هذا
العصر نزع في أكثر أبياتها منزع الزهد والتصوف والدين .

ونظم في الحكمة كثير من الشعراء ، ومن بينهم بعض الفقهاء وعلماء الدين
والصلحاء .

غير أنها في أغلب أمرها لم تكن ولادة دراسة وحسن نظر وتفكير رتيب
فاحص ، واستنباط معمل ، أى أنها لم تكن نتيجة تعاط للفلسفة ودراسة الآراء
ورغبة لا بتسكار المذاهب وتعليلها . وإنما هي الحكمة العابرة غالباً ، العارضة
خلال الأحداث ، والتي تخرج أحياناً كثيرة ، مخرج الوصية والنصيحة .

ونبدأ لك بأبي الحسين الجزار المصرى ، الذى ينصح بالآلا يقطع المرء
عادة بر ، جرى عليها . وآلا يمسك يده عن اعتاد منه بذل المعاونة ، عقابا له
على جريرة ارتكبتها ، أو خلف اقتطفه . وينبغى ألا يعاقب المرء بقطع رزقه ،
فهذا أدعى إلى إثارة حقه وكرهه . وينبغى أن يحرص الإنسان على بذل
العفو للمسىء ، فذلك أدعى إلى استبقائه . . .

يقول الشاعر أبو الحسين الجزار ، ويستدل لقوله ويضرب المثل له :

لا تقطعن عادة بر ولا	تجعل عقاب المرء فى رزقه
واحرص على العفو فإن الذى	نرجوه عفو الله عن خلقه
وإن بدت من صاحب زلة	فاستره بالإغضاء واستبقه
فإن إثم الإفك من مسطح	يحط قدر النجم من أفقه
وقد جرى منه الذى قد جرى	وعوتب الصديق فى حقه (١)

وهذا عبد العزيز بن محمد القيسرانى الخزومى نزيل القاهرة والمتوفى عام ٧٠٩ هـ
يتحدث عن الرزق وطلبه ، ويرى أن كل امرئ يطلب الرزق من غير الله يكون
قد ضل سبيل الهدى وحاد عن نيل الأمانى . لأن الذى يعجز عن رزق نفسه
كيف يستطيع أن يرزق غيره ويحقق له أمنيته فيه . يقول :

من طلب الأرزاق من عنده	يطعمه الله ويسقيه
يكون قد ضل سبيل الهدى	وحاد عن نيل أمانيه
لأن من يعجز عن نفسه	يعجز عن أرزاق راجيه (٢)

(١) رياض الألباب لشمس الدين النواجى ، ورقة رقم ١٠ -- مخطوط بالمكتبة الأزهرية .

(٢) الدرر الكامنة ج ٢ رقم ٢٤٤٧

وتحدث تقى الدين السبكي رأس شافعية زمانه، فدعا إلى العلم والتزود بالمعرفة،
والتخلق بمكارم الأخلاق ورأى أن كمال الفتي بعلمه لا بمنصبه . وأن العلم هو علم
الشريعة الإسلامية السمحة وما يتصل بها من بحث وتحقيق وتحرير البرهان وقطع
المغالاب . ورأى أن رتبة العلم هي أعلى الرتب وأنها أسمى من المال وغيره ، وأن
العالم لا بأس عليه إذا أدبرت عنه الدنيا ومفاتنها ، فإنه قد أصاب من مشاربها
صفوها . يقول في هذه المعاني :

كمال الفتي بالعلم لا بالمناصب	ورتبة أهل العلم أسنى المراتب
هم ورثوا علم النبيين فاهتدى	بهم كل سار في الظلام وسارب
ولا غر إلا إرث شرعة أحمد	ولا فضل إلا باكتساب المناقب
وبحث وتحقيق وإيضاح مشكل	وتحرير برهان وقطع مغالاب
وأحكام آيات الكتاب وسنة	أنت عن رسول من أوى بن غالب
إذا المرء أمسى للعلوم محالفا	أضاء له منها جميع الغياهب
وينزاح عنه كل شك وشبهة	وتبدو له الأنوار من كل جانب
هي الرتبة العليا تسامى بأهلها	إلى مستقر فوق متن السكواكب
فدونكها إن كنت للرشد طالبا	تنل خير مرجو الدنا والعواقب
ولا تعدلن بالعلم مالا ورفعة	وسمر القنأ ومرهفات القواضب
وهب أدبرت دنياك عنك فلا تبلى	فعنها لقد عوضت صفو المشارب
فما قدر ذى الدنيا وما قدر أهلها	وما اللهو بالأولاد أو بالسكواعب
إذا قسمت ما بين العلوم وبينها	بعقل صحيح صادق الفكر صائب
فما لذة تبق ولا عيش يقتنى	سوى العلم أعلى من جميع المكاسب (١)

ولما ولى تاج الدين السبكي توقيع الدست بالشام لدى الأمير علاء الدين

الماردينى نائبها ، نصحه أبوه تقي الدين السبكي بعدة نصائح تتصل بهذه الصناعة ، فى مقدمتها ألا يكتب بكفه شيئا يخشى أن يراه ماثلا أمامه يوم القيامة فيحاسب عليه حسابا عسيراً ، وألا يتناول من الأموال إلا الحلال الطيب ، وأن ينأى بجانبه عن المال الحرام ، وأن يكون شعاره تقديم النصيح الخالص لصاحب الدست ، وأن تكون تقوى الله رأس ماله فى كل ما يأخذ وفى كل ما يدع .

قال تقي الدين السبكي :

أقول لنجلي البر المفدى	مقالا وثقت منه عراه
وليت كتابة أودست ملك	رست أحكامه وسمت ذراه
فلا تكتب بكفك غير شيء	يسرك فى القيامة أن تراه
ولا تأخذ من المعلوم إلا	حلالا طيبا عطرا نراه
ونصحك صاحب الدست اتخذه	شعارك فالسعادة ما تراه
ثلاث يا بنى بها أوصى	فمن يأخذ بها تحمد سراه
وتقوى الله رأس المال فالزم	فما للعبد إلا من براه (١)

ويحذر لاجين بن عبد الله الذهبى - المولود عام ٦٥٩ هـ - من الدنيا وزخارفها ومتعها وباطلها ، ويهون من شأنها ويحقر من أمرها ، وينبه الخاطر إلى أن أطيب ما كول فيها مجنى من حشرة هى النحلة ، وأنخر ملبوس فيها مأخوذ من حشرة هى الدودة . وأولى بالمرء أن يتبع الحق ويعيش لأجله ، ويتيقظ إلى أن أيام الدنيا محدودة ، وأنفاسه فيها معدودة . ولا خلود فيها . ومن بعدها الحساب . يقول :

ميلوا عن الدنيا ولذاتها	فإنها ليست بمحمودة
اتبعوا الحق كما ينبغي	فإنما الأنفاس معدودة
وأطيب المأكول من نحلة	وأنخر الملبوس من دودة (٢)

(١) طبقات السبكي ج ٦ ص ١٦٧ .

(٢) الدرر الكامنة ج ٣ رقم ٧٠٧ .

وهذان يمتان لشافع بن على العسقلاني المتوفى عام ٥٧٣ هـ ، فهما بكاء خفي مر على الأحياء الذين واراهم التراب . وفيهما أنس بهذه القبور الموحشة لما تضم من الأحبة . وفيهما العظة البالغة التي تنفر من الدنيا وباطلها وتبرز مساورها وأنها تحرم المرء أحبابه فيصبح فيها - وهي آهلة - تستشعر الوحشة منها . والآنس بالقبور . يقول :

تعجبت من أمر القرافة إذ غدت على وحشة الموتى لها قلبنا يصبو
فألفتها مأوى الأحبة كلهم ومستوطن الأحياء يصبو له القلب^(١)

وينعى مجير الدين اللطى النيمى على الأخلاء المستغلين الذى لا يبذلون الود للود ، وإنما يبذلونه لرهبة من الجاه أو لرغبة فى المال . فإخلاصهم زائف ليس نابعا من القلب ، وإنما رهين المصلحة والمنفعة . لهذا أصبح لا يستريح لرؤيتهم ولا يرجو منهم نفعا . يقول :

وزهدنى فى الخل أن وداده لرهبة جاه أو لرغبة مال
فأصبحت لا أرتاح منه لرؤية ولا أرتجى نفعا لديه بحال^(٢)

ولعل الشاعر البارع زين الدين بن الوردى من أكثر شعراء العصر حكمة ومثلا ونصيحة ، وذلك فى لاميته الزاهدة .
واطردت هذه النزعة منه فى كثير من قصائده ، وبرع فى إسداء النصيحة وسوق الحكمة وضرب المثل .

وفى إحدى قصائده الحكيمة يرسم للمرء مسالك الحياة السعيدة ويصور له أخلاق الناس وما ينبغى له عمله إزاءها .

(١) نكت الهميان للصفدى ص ١٦٣ .

(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٣٤ .

فهو يحذره من بنى الدنيا ، ويوصيه بأن يكون فى غفلة عنهم ، لا فى يقظة لأعمالهم !! وهذا اتجاه غريب ورصية تحتاج إلى نظر وتعليل . فلعله يريد ألا يشغل المرء نفسه بأعمال الناس ، وألا يقنعه لهم حتى لا يثير ذلك فى نفسه حفيظة عليهم أو حقدا لهم أو يدفعه إلى تدبير أمر لهم ، أو يثير فى نفسه أى شاغل يشغله بهم وبأعمالهم . وهو يرمى من وراء ذلك إلى أن يكون المرء فى شبه عزلة عن الناس حتى يعيش فى طمأنينة بال وبلمهينة حال .

وهو يوصى بحفظ الود القديم واحتمال الإساءة من الصديق وغفرانها له ، والإسراع إلى فعل الجميل ، فذلك ادعى إلى رده عند المناسبة . وهو يدعو إلى أن يغتنم المرء فرصة الحياة فيبادر إلى تقديم ما ينفعه فى الآخرة فالدنيا مزرعة لها ، ولتكن تقوى الله إماما له . وليعلم أن الدين مليئة بالمساوى ولا مجال إلى ملاقاتها إلا بمداواة أهلها ومصانعتهم حتى يسلم من أذاهم ، إلى آخر ما ينصح به . يقول :

واحذر بنى الدنيا وكن فى غفلة عنهم وجانب كل كلب ضارى
واحفظ لصاحبك القديم مكانه لا تترك الود القديم لطارى
وإذا أساء وفيك حمل فاحتمل إن احتمالك أعظم الأنصار
سارع إلى فعل الجميل وفقد الأعناق حسنى فالزمان عوارى
واجعل إلى الأخرى بدارك بالتقى تغنم فما الدنيا بدار بدار
واعمل لتلك الدار ما هى أهله عمل المدارى أهل هذى الدار
وتوخ فعل المكرمات تبرعا فالمكرمات حميدة الآثار
لا تأسفن لما مضى واحرص على إصلاح ما أبقيت باستكثار
فالمعسرون بنو كلاب عندهم واليوم أهل الفضل أهل يسار
جاور إذا جاورت بحرا أوفى فالجار يشرف قدره بالجار
كن عالما فى الناس أو متعلما أو سامعا فالعلم ثوب نثار
من كل فن خذ ولا تجمل به فالحر مطلع على الأسرار

ولم يترك ابن الوردي في قصيدته تلك ، الفرصة السانحة للدعوة إلى مبدئه ومذهبه الذي اعتنقه أخيراً ، وهو الخمول !! وينصح باتباعه ، لأن الخمول مع غنى النفس والقناعة ، سعادة كاملة وعز شامل ، إذ يعصم المرء من رجاء فلان واستعطاف علان . وفي سعي المرء إلى الشهرة خطر عليه فهو يعرضه للرجاء والإذلال .

وهو يطلب في الأبيات التالية أن يعجل المرء إلى التوبة والندم إذا ابتلى بزلة وتروى في خطيئته . ويدعوه إلى ألا يظلم الناس حذراً من دعواتهم في الأسحار على الظالم . وينبغي عليه أن يطيل الفكر في عواقب تصرفه حذراً من أن يقف مرة موقف الاعتذار ، فهو موقف الضعف على كل حال . وليتجه بوجهه إلى الله سبحانه وتعالى فهو مصدر المعروف دون سواه . وها هي ذى الدنيا قد خلت من الأخلاء الذين يرتجون في الشدة ويقصدون في المحنة ، ولم يجد بينهم من يتأبى على الأوزار والخطايا . ويردد ابن الوردي النصيحة الخالدة القديمة وهي الحذر من العدو مرة ومن الصديق مرارا . لأن الصديق أدرى بالسر وأعرف بالثغرة وأكشف للغيب ... إلى آخر ما نصح به هذا الشاعر البارع . وفي ذلك كله يقول :

ما العيش إلا في الخمول مع الغنى	وبالاشتهار نهاية الأخطار
واقنع فما كنز القناعة نافداً	وكفى بها عزا لغير ماري
واسأل إلهك عصمة وحماية	فالسيدات قواصف الأعمار
وإن ابتليت بزلة وخطيئة	فاندم وبادرها بالاستغفار
إياك من عسف الأنام وظلمهم	واحذر من الدعوات في الأسحار
أطل افتكارك في العواقب واجتنب	أشياء محوجة إلى الأعذار
ودع الوري وسل الذي أعطاهم	لا تطلب المعروف من أنكار
جهد الندي لجمودة الكبرا وما	جهد الندي لبرودة الأشعار
لم يبق خل للشدائد يرتجى	في نشر إحسان وطى عوار

من أين يوجد صاحب مستحسن للخير أوزار على الأوزار
احذر عدوك والمعاند مرة واحذر صديق الصديق سبع مرار
فالأصدقاء لهم بسرك خيرة ولهم به سبب إلى الأضرار
واصبر على الحساد صبر مدبر قد أظهر الإقبال في الإدبار
كم نال بالتدبير من هو صابر ما لم ينله بعسكر جرار . الخ (١)

و - الشعر الفلسفي والمذهبي

قصر شعراء هذا العصر في جملتهم في ميدان « الشعر الفلسفي والمذهبي » ،
ونعنى به الذى أساسه الفكرة المدروسة والنظرة الممحصنة والبحث العميق
والحديث العقلى عن الذات الإلهية وما وراء الطبيعة .
كانت قصارى مجهودهم فى هذا الباب ، إنتاج الحكمة العابرة والنصيحة العارضة
القصيرة العاجلة ، التى تدور غالبا فى النطاق الإسلامى ، ولا تكاد تتعداه .
ذلك لأن علوم الدين بعامة ، والفقه والعقائد الإسلامية بخاصة ، كانت
فى مقدمة علوم ذلك الزمان ، بل كانت علومه الأثيرة التى لها الصدارة فى الدروس
المقررة (٢) .

وحقا كانت هناك خوافق ، وشيوخ صوفية ، ودروس فى هذه الخوافق .
ولكن اعتقادنا أن الصوفية لم تكن فى هذا العصر تزاوّل مزاولة دراسية باحثة ،
فيها علم وفكر محض . بل مزاولة رياضية فردية . فكانت عملية روحية شخصية
هدفها الاندماج فى الذات الإلهية .

وهذا كله لا ينتج فلسفة رتيبة منظمة معللة مقارنة . ومن ثم كان لهذه الحالة

(١) ديوان ابن الوردي ص ٢٠٤ .

(٢) راجع المجلد الثالث من كتابنا عصر سلاطين المماليك .

صداها في نفوس الشعراء الذين كانوا في جملة أحوالهم بعيدين عن هذه الدراسات والرياضات. باستثناء بعض الفقهاء الذين نزعوا نزعة صوفية صحيحة وكان لهم فيها شعر صوفي زاهد اتجه نحو الحكمة والنصيحة الإسلامية، دون أن يتحول إلى دراسات فلسفية أو بحوث خلقية، مثل تقي الدين بن دقيق العيد القشيري، وتقي الدين السبكي. وباستثناء بعض الشعراء الحائزين على أهل الوحدة من الصوفية ممن يذهبون مذهب عمر بن الفارض. فقد روى أن شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي نظم قصائد نبوية حمل فيها حملة شعواء على ابن الفارض وأهل الوحدة^(١). هذه على كل حال أحوال فردية. ومن بعد، لا ترى لغيرهم فكرة مفصلة أو رأيا مدروسا معللا عن ناحية من نواحي المجتمع أو الدين أو الخلق، إلا ما ندر.

ونعود إلى الحديث عن زين الدين بن الوردى، فهو من هذا اللون النادر في العصر الذي نحن بصددده. وقد جنح في أخريات حياته إلى لون من الزهادة سماها «حياة الخنول». فاعتنق «الخنول» مذهباً ومبدأً عن عقيدة وثقة وإيمان. لقد قلب نظره فيه حتى علل جميع نواحيه وأطرافه، وردد الدعوة إليه في كل مناسبة. لقد دعا الناس إلى الزهادة والرضا بحياة الخنول، بقوة وحرارة، دعوة من يرى في هذه الحياة سعادة الناس. ففي «الخنول»، والتوازي عن الناس والرضا بالقليل وعدم الرغبة في الشهرة، والانزواء بعيداً عن الأضواء قناعة من المرء وحفظ لماء وجهه وصون لكرامته ورضا بمقسومه، وابتعاد عن مواضع الذلة ومصارع الآمال.

واندفع ابن الوردى في الدعوة إلى مذهبه، حتى عجب لنفسه كيف لم يفتن لمذهبه هذا إلا بأخرة، وحتى عجب للناس كيف يرضون بالذل في سبيل المجد

(١) راجع ديوان ابن أبي حجلة المغربي.

الزائف والجاه الباطل الذى يضيع الكرامة . وأخذ ينعى عليهم كثيرا من عاداتهم وأخلاقهم ، وبخاصة ما يتنافى منها مع مذهبه .

والآيات التالية من أبيات ابن الوردى ، تحدثك عن شيء من اتجاهه .
قال :

أتهزأ بى لما أجد وتلعب وتعجب من حالى وحالك أعجب
ألا طالما قد كنت مثلك ساعيا لجاه ومال جاهدا أطلب
وطال اجتنابى للخمول فذقته فطاب فأحببت الذى أتجنب
وما العيش إلا فى الخمول مع الغنى فشكرا لمن فى فضله أقلب
رضيت كسادى واستخرت بطالتى وقلبى مسرور وعيشى طيب
وما ذاك عن مال جزيل وإنما كفانى كفاف والقناعة تغلب
ولو ذقتم طيب القناعة متم عليها ولكن بدرها يتهيب
تركت لكم عز القضاء وجاهه وأبعدت عنه خائفا أترقب
فقوموا على ساقى حديد وشمروا لنيل علاء واهجروا النوم واطلبوا
وميلوا وجوروا واحكموا وتخولوا وصولوا وطولوا وانبدوا الزهد وانهبوا
ستعلم نفس أى حمل تحملت ليوم أسى من هوله الطفل أشيب
لقد نلت من كنز القناعة بغيتى وجانبت حرصى والحريص معذب
وعفت بنى الدنيا وغادرت برهم لغيرى فلا أشكو ولا أتعذب... الخ (١)

وابن الوردى ينوه فى أبياته بالسبب المباشر الذى دفعه إلى طلب الخمول والسعى إليه . وهو أنه كان نائب حكم فى بعض البلاد فأبعده قاضى القضاة عن مقره إلى غيره . فطلب العودة فلم يستجب له . فاستقال من الوظيفة وابتعد عن دنيا الجاه والمجد ، وارتضى حياة الخمول .

وكان من نتائج رضاه بجموله ، بل وسعيه إليه ، تحديد رأيه في الحظ . فقد أصبح الحظ ، في نظره كل شيء في الحياة . فلا هو نتيجة العمل ، ولا هو نتيجة الذكاء ، ولا هو نتيجة الكفاية .

وما دام الحظ هو كل شيء فقد استوى العلم والجهل ، بل ربما جلب العلم على صاحبه حسد الحاسدين وحقد الخاقدين . فيشوه ذلك من جمال حظه . فما الداعي إذن إلى العلم . وما ضرورته ما دام الحظ موالياً ، والأيام باسمة ، والعيشة راضية .

هكذا انتقل ابن الوردي من فكرة إلى أخرى تسلمه لها . وقد لا تكون فكرته نموذجاً يقتدى بها الناس . ولكنها على كل حال فكرة مبنية على منطق مقبول ، وهو منطق اليأس الذي ضاقت به حيله عن إصلاح الناس .
وفي ذلك يقول :

لا تحرصن على فضل ولا أدب	فقد يضر الفتى علم وتحقيق
ولا تعد من العقال بينهم	فإن كل قليل العقل مرزوق
والحظ أنفع من خط تزرقه	فما يفيد قليل الحظ تزويق
والعلم يحسب من رزق الفتى وله	بكل متسع في الفضل تضيق
أهل الفضائل والآداب قد كسبوا	والجاهلون فقد قامت لهم سوق
والناس أعداء من سارت فضائله	وإن تعمق قالوا عنه . زنديق (١)

ومن الأمثلة النادرة أيضاً ، جمال الدين بن نباتة ، فقد تحدث عن اللذة . واعتقد أن من واجبه أن ينهز فرصة حياته ليتمتع ما شاء له التمتع ، ولينعم ما أتيح له النعيم . وليطلق لنفسه عنان اللهو في ميدانه ، وكلها أمكنته الفرصة اغتنمها ، فإن الحياة لا تعود ، وإن العمر لا يتكرر . . . والأيام تمضي سراعاً .

يقول ابن نباتة :

فبادر اللذة يافلان واغنم متى أمكنك الزمان
ولا تقل مشتي ولا مصيف فكل وقت للهنأ شريف
كل زمان يتقضى بالجلد زمان عيش كيفما دار اعتدل

وهو يرجو عذوله أن يدعه يغنم عمره ، فالأعمار تسرى سرى السحاب
ولا تعود ، وأن يدع فؤاده يختار ما يختار لنفسه من أسباب اللهو قبل أن يدركه
الموت ، وهو الذى سيتحمل أوزاره وخطاياہ دون عذاله .

يقول ابن نباتة :

يا عذولى خلنى أغنم عمرى إن أعمار الورى كالسحب تسرى
دع فؤادى والذى يختاره ما على ظهرك يا عاذل وزرى
دع غوانى مجلسى تصدح لى فغدا تبسكى البواكى حول قبرى
يا نديمى وهذا يومنا يوم صحو فاجعله يوم سكر^(١)

هكذا كان رأى ابن نباتة فى اللذة واغتنامها . غير أنه لم يلح فى ترديد هذا
الرأى ، ولم يلح فى الدعوة إليه ، كما ألح ابن الوردى فى الدعوة إلى الخمول واعتزال
الناس والكف عن السعى إلى الشهرة والمجد . وإنما وردت أبيات ابن نباتة فى
ذلك لما لما فى قصائده .

وبدو أن دواعى الحاجة والبؤس التى طوقت حياة ابن نباتة ، لم تدع له
فرصة للتفلسف واعتناق فكرة معينة عن الحياة ، والإلحاح فى الدعوة إليها .
والشاعران — كما ترى — على طرفى نقيض ، وإن كانت حوافزهما
واحدة .

ز - الشعر القصصى والتمثيلي

والشعر القصصى والتمثيلي ، يصفان في أغلب أمرهما نواحي المجتمع . ولكن ذكرهما في فصل البيئة الثقافية أليق ، وذلك لأنهما نتاج للعلم والمعرفة والملاحظة والتجربة .

وقد قصر شعراء العصر المملوكي في ميدهما . وهو تقصير اطرده إليهم من العصور الأدبية السابقة . وإذا كانت قد بدرت بوادرهما في تلك العصور ، فإنها لم تجد ما ينمياها .

وقد رأينا كيف برع الشعراء المذكورون في نظم حقائق العلوم والفنون ، وكيف أجادوا . وفي جملة ما نظموه أخبار التاريخ وأسماء الملوك وطرف وجيزة من أخبارهم . ولقد اعتبرنا ذلك ضربا من نظم العلوم والفنون .

ولو أنهم أطالوا في القص ، وفصلوا في الأخبار . وأضافوا على ما سطوروا ثوبا من الحماسة ، وشفعوه بشيء من التحليل والتعليل والنقد ، وبدت فيه ملامح شخصيتهم ، وزودوه بالقليل من الخيال وجمال الأداء ، وربطوا الحوادث بعضها ببعض في تسلسل مقبول جميل ، لاستطعنا أن نعد منظوماتهم في هذا الباب ، شعراء قصصيا .

وبمناسبة هذا الحديث ، نسجل خبرين رواهما شمس الدين السخاوي ، قال :
« إن شمس الدين بن الزين ، الشاعر الأديب ، نظم قصة يوسف عليه السلام ، في ألف بيت ، » (١)

و « إن الشيخ ابن ناصر الدين ، الشاعر ، أنشأ قصة ظريفة نظما ونثرا ، على

لسان مدينة المنصورة في قاضيا شمس الدين بن كميل . (١)
وليس هاتان القصتان بين أيدينا ، حتى نستطيع الحكم عليهما ، ونعرف
مدى استيفائهما لشروط القصة ، أم هما لوان من ألوان المنظومات التاريخية .
ومهما يكن من أمر ، ففي هذا الخبر ما يشعر بأن ثمة كان اتجاه إلى صناعة
القصة الشعرية ، وأن ثمة كان استعداد لنظمها .

اللطائم والأشناف : (٢)

ولعل هذه الأرجوزة التي نظمها نحر الدين بن مكاس ، وسماها : اللطائم
والأشناف ، دليل حاسم على ما نذهب إليه ، من أن الاستعداد لنظم القصة كان
موجودا ، وعلى تمام الأبهة . ولعل حياة الإغفال والإنكار التي كانت تغمر
أكثر الشعراء ، سبب من أسباب كبت هذا الاستعداد .

أما اللطائم والأشناف ، فتقع في نحو ٥٧٣ بيتا . وهي في أغراض مختلفة .
ومنها على الترتيب : الحمد والصلاة ، وبيان الغرض العام من نظمها ، وهو النصيح
والإرشاد ، وضرب المثل وسوق الحكمة ، والدعوة إلى طلب العلم ، والنصيحة
بالتمسك بالأخلاق الفاضلة ، كالأمانة وبذل المعروف وتوقى دعوة المظلوم ،
والتحذير من مصاحبة الملوك ، والدعوة إلى قلة الكلام ، وغير ذلك من
الأغراض .

ويهمنا في هذا المقام ، التنويه بأن الشاعر كان يسوق في خلال أغراضه هذه ،
قصصا طريفة حوارية ، توضيحا لها وتأكيذا لغايتها منها .

ومن هذه القصص :

قصة الثور مع الحمار : وتتلخص في أن ثورا وحمارا عاشا معا في كنف صاحب

(١) الضوء اللامع ج ٨ رقم ٢٢٧ .

(٢) اللطائم : جمع لطيمة وهي وعاء المسك — والأشناف : جمع شنف وهو القرط .

لهما . وكان الحمار يمرح في بلهينة من العيش ، ويسعى في طمأنينة وراحة ، بينما كان الثور يشقى في عمله ويكد ويتعب . فأشفق عليه الحمار ، وأصححه بالتمارض توسلا إلى الراحة . فتمارض الثور . فتركه صاحبه وأراحه من العمل ، حتى يبرأ . وساق الحمار محله ليؤدي عمله في السقى والحراث . فشقى الحمار فيه حتى سقم وهزل بدنه . وفطن إلى أنه ما أصابه هذا الأذى إلا بسبب فلتة لسانه وعدم حيلته ، ونصيحته للثور . فأخذ يفكر ويدبر للخلاص من ورطته ، ودفع هذا الأذى عن نفسه . ثم أتى إلى الثور المتمارض الذى نعم بالراحة زمنا طويلا ، وزعم له أنه سمع صاحبهما يقول : « إن الثور إذا استمر على حاله من المرض ، يذبحه ويستريح منه . . . » . ودخلت الحيلة على الثور ، وخشى العاقبة على نفسه ، ونشط وأبدى استعدادا للعمل ، فساقه صاحبه إليه . . . فنجى الحمار بسبب حيلته . .

ويقول الشاعر فى ذلك .

كم من أسير بقبود قبله	وواقع فى الشر من فضوله
فى قصة الثور مع الحمار	عبرة من يكون ذا اعتبار
أمثالها عند جلاها الحكم	وذاك أن الحكماء قد زعموا
بأن ثورا وحمارا كانا	فى دوحه يانعة زمانا
فكان فى الروض الحمار يمرح	والثور فى بحر الشقاء يسبح
قد كل من حرث الأراضى والنصب	والدوران المستمر والتعب
فبينما بات يئن ليله	ولاله فكر يجيد الحيله
وافى الحمار نحوه مستفهما	وقال : ما بالك تشكو الألما . . الخ

وتقع هذه القصة فى نحو ٣٦ بيتا .

ومنها قصة زرادشت : وهى قصة ساخرة ، عن زرادشت الذى كان حكيما عالما ، ادعى النبوة ، وادعى الحلول ، وأن الخلود رهن بهذا الحلول . كما تقول القصة - ولم يفهمه أتباعه تمام الفهم ، بل حسبوا أنهم يخلدون ، إذا هو حل فى

جسد هم ولهذا قبضوا عليه وذبحوه ، وطموه وشربوا حساءه ، راجين الخلود من وراء ذلك . - فكانت هذه خاتمة ، بسبب خطئه واندفاعه في مقاله .

ومنها قصة الحجاج مع العراقيين : وقد أيدها بقصة أخرى ، وصف فيها غابة يونانية أتاها حاطب بفأسه فقطعها .

ومنها قصص أسطورية ، كقصة الملك الذي رأى مناما وطلب إلى وزيره تعبيره ، فاستعان الوزير بكاهن ، فعبر له الرؤيا . وكان قد انفق معه على أخذ مال منه في نظير ذلك ثم رفض أخذ المال . . . إلخ

ومنها قصة اللص والدراج^(١) . عند الأمير صقطب ، الذي ولى أمر قوص ، وعزم على محاربة اللصوص ، فشكا إليه أعيانها ، من لص كثير الاعتداء عليهم ، أعجزهم القبض عليه . فاجتهد الأمير صقطب في البحث عن هذا اللص ، وبذل في سبيل ذلك كثير من الخيل . حتى مر به غلام رائع الحسن ، محشم البزة ، فاستقدمه الأمير وأمنه ، ثم سأله عن نفسه ، فإذا هو اللص المطلوب . . .

ثم إن الأمير صاحبه وناداه ، وجعله من جلسائه ، وجعل يترقب به الفرص ، حتى احتال عليه وأوقعه باعتزافاته . ثم قبض عليه وقتله . . . إلخ^(٢)

وفي الشعر التمثيلي أو القصصى المسرحى ، لا نرى مناصا - ونحن نعتزف بتقصير الشعراء فيه - من أن نشير إلى ماورد منه في كتاب « طيف الخيال » لابن دانيال الموصلى - المتوفى عام ٧١٠ هـ - وقد أشرنا إليه فيما مر ، إشارة وجيزة عندما تحدثنا عن الألعاب . وأوضحنا أن لعبة « خيال الظل » كانت إحداها ، وأن تمثيلات « طيف الخيال » أعدت لهذه اللعبة .

(١) الدراج : على وزن رمان ، طائر .

(٢) القصيدة بتمامها في ديوان نثر الدين بن مكائس - مخطوط بدار السكتب المصرية ، ص ٢٠ .

ولقد احتوى هذا الكتاب الفريد على ثلاث تمثيلات ، تختلف كل منها عن الأخرى فى موضوعها . وقد سماها المؤلف « البابات » ،
فالأولى :

تتلخص فى أن شابا جنديا فارسا ماجنا . طوى جزءا من شبابه فى مجونه . واسمه الأمير « وصال » . ثم أراد أن يتوب بالزواج . فتقدم إلى إحدى الخاطبات وأوصاها أن تتخير له غادة حسناء . فخطبت له واحدة ، لم يرها قبل ليلة زفافها . وفى تلك الليلة ، اتضح له أنها عجوز قبيحة شوهاة . فثارت ثأثرته . . . ثم ذهب إلى بيت الله الحرام حاجا ، تائبا توبة كاملة

ويتضح للقارىء من خلال فصول القصة ، ومن أحاديثها وحوارها . صور اجتماعية ، ونقدات طريفة ، وأوصاف لطيفة ، تكشف عن كثير من نواحي المجتمع إذ ذاك : وتسمى هذه القصة « طيف الخيال » .

والثانية :

تتلخص فى بيان أحوال الغرباء المحتالين ، والأدباء المستجدين ، الذين يتجولون فى الآفاق ، ويعرضون على الناس أدبهم وألعابهم .

وهم فى تجوهم وألعابهم ، أشبه « بالسرك » المتجول ، فى أيامنا الحاضرة . وتتضمن القصة ، خمسا وعشرين لعبة مختلفة - أشرنا إليها فيما مر - ويبدو كل لاعب على المسرح فيعرض لعبته ، ويستجدى الحاضرين ، ثم ينصرف . ومن بينهم من يلعب ومعه حيوان كالفيل أو القطط أو الكلاب . أو يلعب لعبة رياضية ، أو يعرض بعض المعاجين أو الأدوية أو الرقى . الخ

وهذه القصة الاستعراضية ، تصور ألوانا من الألعاب المعروفة فى ذلك الحين . وتسمى قصة « عجيب وغريب » . وغريب هو مقدم القصة فى أول أمرها . ومن بعده يقتابع اللاعبون . ثم يختتمها . (١)

(١) توجد قصة أخرى اسمها « عجيب وغريب » فى دار الكتب المصرية ، لا يعلم مؤلفها . وهى

والثالثة :

تتلخص فى أنها قصة عاشق ومعشوق . والعاشق يقص قصته ويصف وجده
وحنيئته . ويقابله معشوقه — وهو من حى الحسينية — فيتناجيان ويتواصلان
أنا ويتجافيان أنا .. وتسمى هذه القصة « بابة المتييم والضائع اليقيم ».

هذا والبابات الثلاثة تعتبر من صميم الأدب الشعبى موضوعا وأسلوبا معا .
أما الموضوع فأمره واضح ، مما فصلناه . وأما الأسلوب فهو حوار وقص وتمثيل ،
يمتزج الشعر فيه بالنثر ، مع كثرة النثر . وشعره أبيات كاملة تتخلل فقرات نثره .
وتشيع فى سطورها العامية بالمفاظها وتراكيبها وعباراتها السائرة ، وتفيض
بالفكاهيات والمجونيات المبتذلة ، وبالأدب المكشوف . وربما كان ذلك فى
جملة أسباب عدم نموها .

وإليك سطوراً من البابة الأولى ، التى نعتبرها أكثرها حبكا وأرفاها
بشروط المسرحية : —
نشيد « الرئيس » :

يخرج « الرئيس » إلى المسرح ، ويقدم إلى المشاهدين « طيف الخيال » . وهو
شخص محدودب مضحك راقص يستجدى الناس . وهو أخو الأمير « وصال » .
فيقدمه الرئيس منشدأ نشيد الافتتاح التالى :

خيالنا هذا لأهل الرتب والفضل والبذل وأهل الأدب
حوى فنون الهزل والجد فى أحسن شكل وأنى بالعجب
فانظره يا من فهمه ثاقب فففيه للعرفان أدنى سبب

== قصة نثرية كلها ، يتخللها قليل من الشعر . وهى تتضمن قصة أخوين وقعت بينهما حوادث مروعة —
وليست هى قصة ابن دانيال الموصلى التى تتحدث عنها هنا .

إن قام فيه ناطق واحد عن كل شخص ظاهر واحتجب
ترجمته ، طيف الخيال ، الذى حكي هلالا طالعا بالحدب
مذاهب الفضل به جمّة فنقطوه سادتي بالذهب

فإذا فرغ « الرئيس » من نشيده ، ينادى : « يا طيف الخيال ، يا كامل
الاعتدال » . فيخرج شخص أحذب ، ويسلم . فيقبله « الرئيس » برد السلام ،
وينشد مادحا ومثنيا على حدبته قائلا :

قسما بحسن قوامك الفتان يا أوحدا الأمراء فى الحدبان
أنت الحسام زها ببرشق حدبة فاقث على الخطبة المران
يا مخجل الغصن الرطيب بقده حاشاك أن تعزى إلى نقصان
ماعاب قامتك الحسود جهالة إلا أجبت مقالاه ببيان
ومنه :

لولاك ما اشتقنا قباب المنحنى من حاجر والتل من عسفان
والعود أحذب وهو الهى مطرب ولقد سمعت بنغمة العيدان
وكذا سفين البحر لولا حدبة فى ظهره لم يقو للطوفان . الخ
فإذا انتهى « الرئيس » من نشيده هذا ، يطرب « طيف الخيال » ، ويرد على
« الرئيس » قائلا :

« لا فض الله فاك ، وصان من سيف الحسبة قفاك » .

ثم يأخذ « طيف الخيال » فى الرقص والغناء ، منشدا نشيدا لطيفا ، يحى به
السادة الحاضرين .

يقول فى افتتاحه :

سلام على السادة الحاضرين سلام المشوق الكئيب الحزين
سلام على من حوى ذا المقام من السادة الاتقياء الكرام

فهم خير من خوطبوا بالسلام وأكرم من صوخوا باليمين .. الخ

وإليك سطوراً من البابة الثانية « عجيب وغريب » :

يخرج شخص ويقول :

عبدكم الغريب . المشوق الكئيب . الذي أذابه الحنين . وغادره البين
حتى لا يمين . فتقاذفت به الأقطار . ودار مع الفلك الدوار . بعد أوطان
وأوطار ..

ثم ينشد قائلاً :

أرث صرف الزمان حالي فما لدهرى ترى ومالى
حتى كأني له عدو يرشقى منه بالنبال
أين زمانى الذى تقضى وأين جاهى وأين مالى
وأين خفى وطلسمانى وأين قبلى وأين قالى... الخ

ويقع هذا النشيد فى ٢٦ بيتاً ،

وبعده يقول :

« فأين تلك الأيام وطيبها . وحسن هاتيك الأوقات وأعاجيبها . فرحم الله
شيخنا ساسان . فلقد كان إنسان عين كل إنسان . قدوة الأدباء . وأنس الغرباء .
وجامع شمل كل محب بسكته . وراد كل غريب إلى وطنه .

ثم ينشد :

عجبت و شأن الحب غير عجيب إذا مات بالأشواق كل غريب
تباعدت الأجسام منا وإننا لنا جامع من رؤية وقلوب
لنا كل يوم منزل تربه النوى وقرب خليل وهو غير قريب
أفارق خلا بعد خل كأني أفارق نبلى أو أخى ونسبى... الخ

ثم يقول :

« ورحيا الله السادة الحضار . عيون الأعيان ونواظر النظار . اعلموا ياسادة الأعيان . إننى من بنى ساسان . الذين قعدت بهم زمانة الزمان الخ .

ثم يقول المؤلف :

« وبعد أن يتم حديثه يتوارى . ويخرج « شبل السباع » . ومعه الأسد والأتباع . وهو منقاد بالسلاسل والأغلال . وهو ماش تارة كالمحتال ، وآونة كالمغتال . وقد اتخذ من لبدتيه كالغيل . ورد قربته إلى يافوخه فصارت له كالإكليل . والنمر غير خائف ولا مرتاب . وكشر عن ناب غير ناب . هذا ، وشبل السباع ، وقتا يروضه . وقتا عليه يثقل جره ونهوضه ، وهو مع السكل ينشد بقوة جنان . وقلب غير جبان . ويقول :

انظرونى ياسادى كيف حالى فى مدارات ضيغم قتال
ملك جائر أروم رضاه كل يوم بذلة واحتيال
ليس يبق على إلا لانى سانس مطعم بلا إخلال
وأنا فى يديه قطعة لحم فانقذونى من ربة الآكال
فيبادرون إلى إجابة طلبه . ويستفيدون بالله من الأسد وغضبه . ثم ينصرف .
فيخرج « مبارك الفيال ... » الخ

وهكذا بالتوالى ، حتى ينتهى هذا الاستعراض الطريف .

وترى أن كل لاعب يعرض ألعابه ، ويخاطب الحاضرين بالشعر والنثر ، ويطلب منهم فى النهاية أجره ، وذلك كما يفعل الحواة واللاعبون المتجولون فى زماننا .

وإليك سطوراً من البابة الثالثة « بابة المقيم والضائع اليتيم » .

قال ابن دانيال فى مفتتحها :

« ضمنيتها طرفا من أحوال المحبين ، وطرفا من الغزل الذى هو السحر المبين .
وطرفا من الملاعب . وطرفا من المجون الذى ما عيب :
فاذا دعيت إلى مجلس صدر من صدور الزمان . فاجل الستارة وغن
فى أصفهان :

قل لسادات الزمان لا برحمتى فى أمان
وبقيتم فى نعيم ما تبقى الهرمان
فيخرج شخص هيجه الغرام . وأتلفه السقام . وأذابه الأرق . حين ذاب
لحمه ورق . فيبكي بانتحاب وينشد متأوها باكتئاب :

أهل الغرام تجمعوا وتوسلوا وتضرعوا
دقوا الأبواب الإجا به بالدعاء لتسمعوا
موتوا تعيشوا فى الهوى وتمزقوا وتقطعوا
وخذوا حديث متيم عن سواه أو دعوا ... الخ

وبعد أبيات يقول هذا الشخص :

« آه أواه . واحباه . واقلباه . المتيم المسكين . ذبح بغير سكين . من أرسل
ناظره . أتعب خاطره . ومن بذل نفسه للملكة . فليصبر على سوء الملكة .. الخ

وبعد عبارات من هذا النوع ، يقول :

هكذا كل أخى وجد يكون ما أنا وحدى فى هذا الجنون
بى من الأتراك أحوى أحور لحظه قيد فتور وفتون .. الخ

وبعد أبيات يقول :

« أيها السادة . مسيتم بسعادة . ولا بليتم بعشق متدل . ولا إفلاس عاشق
متدل ... الخ

وهكذا يستمر فى وصف قصته ، حتى يلاقه معشوقه ويناجيه ... إلى

ويلاحظ أن الأديب المؤلف ابن دانيال الموصلى ، يضع فى خلال السطور ما يعين على فهم الشخصية وتلوينها باللون الذى يريده لها . ويضع ما يوجه اللاعب إلى فهم الشخصية التى يلعبها ، وما يتصل بها من حركات وإشارات وانفعالات .

ولكننا بهذا العرض لا نبغى أن نقضى بحكم ، وهو أن هناك فى ذلك العصر ، كان شعر تمثيلى أو مسرحى أو قصصى ولكننا لا نشك أيضا فى أن فيما عرضناه ، الدليل القاطع على أن بادرة هذه الفنون بدرت فى أذهان بعض شعرائه . وأن ثمة كان لديهم استعداد لإبرازها وتتميتها ، لوهيئت لها عوامل الإبراز والتنمية .

ح - الاستجازه والإجازة

كانت هناك — على ما بينا فى وصف البيئة الثقافية — أنواع من الإجازات العلمية هى إجازة العراضة ، والإجازة برواية الحديث ، والإجازة بالفتوى أو التدريس .

وعلمنا أن الطلاب كانوا شديدي الحرص على استمناح شيوخهم هذه الإجازات ، ما داموا قد انتهوا من إحدى مراحل التعليم . بل كانوا شديدي الحرص على استمناح أكبر عدد مستطاع من شيوخهم هذه الإجازات ، توصلا إلى كثرة ما يسكون لديهم منها ، وبخاصة إذا منحوها من أكابر العلماء . وكان حرصهم بادياً بارزاً فى طلب إجازات الرواية للحديث من شيوخهم الحفاظ . إذ كان حفظ الحديث وروايته والمشافهة به ، غاية تعليمية ، من الغايات المقدمة .

(١) راجع « طيف الخيال » لابن دانيال الموصلى — مخطوط بالمسكنة التيمورية — فهرس الألعاب .

وعمد بعضهم إلى تأليف معجم لشيوخه الذين علموه والذين أجازوه .

أعتقد أن الأدباء فيما بينهم ، تأثروا بهذا المظهر العلمي ، ونسجوا على منوال الطلاب في استمناح الإجازة ، وعلى منوال العلماء في منحها لهم .

ويسمى طلب الإجازة « الاستجازة » . وقد كتبت كل منهما نثراً أو شعراً . فشهد ميدان النثر وميدان الشعر عدة من الاستجازات والإجازات الأدبية .

« والاستجازة » أن يتقدم أحد الأدباء إلى كبير من كبار الأدباء ، يكون في مقام شيخه ، أو تربطهما رابطة الصداقة والمودة ، أو رابطة الأدب والشعر . بقصيدة شعرية يستمنحه فيها إذناً منه برواية آثاره الأدبية شعراً أو نثراً أو مؤلفاته العلمية أو نحوها . - وتسمى الاستجازة أيضاً « الاستدعاء » وهو غير الاستدعاء إلى الشراب ونحوه .

« والإجازة » أن يكتب إليه هذا الأديب الكبير رداً على « استجازته » أو « استدعائه » ، قصيدة شعرية ، يأذن له فيها برواية هذه الآثار الأدبية أو العلمية .

وترى كلا من الاستجازة والإجازة مملوءة بعبارات المدح وتقارض الثناء بين المستجيز والمجيز ، وتشعر بهما وسيلتين بينهما للتكريم ولتأكيد المودة وتبادل الثقة والتقدير . فهما بهذا ضرب من ضروب الإخوانيات .

وكان من المستطاع أن نسلـكهما في عداد نتائج البيئة الاجتماعية ، لولا هذا التأثير البادى عليهما من مسلك الطلاب والعلماء في استمناح الإجازة ، وفي منحها . ولولا أن الإجازة بذلك ، يعتبر كالشهادة الدراسية .

ومن الاستجازات - أو الاستدعاءات - ما نظمه محمد بن جابر الأندلسي (١٤٣ - عصر المماليك)

الضريير ، صاحب بديعية العميان ، وأرسله إلى صلاح الدين الصفدى يطلب إليه السماح له برواية شعره ونثره .

قال ابن جابر فى المطلع يمدحه :

وكل شىء بديع أنت مغناه	إن البراعة لفظ أنت معناه
من نظم غيرك لو إسحق غناه	إنشاد نظمك أشهى عند سامعه
وعندما جثته أبدى محياه	تجيب الشعر عن قوم وقد جهدوا
فلو تكلم زهر الروض حياه	أتيت منه بمثل الروض مبتسما
محاسن الشعر إلا كنت إياه	حجرت بعد ابن حجر أن يحوز فى
إلا حبيب إذا عدت مزياه	وهل خليل إذا عدت محاسنه
قلنا لها الصفدى اليوم أنساه	إذا المعرى رامت ذكره بلد
أعلام نخر تلقتهن كفناه	أعلام كل بديع راق سامعه

ومنها يستجيزه :

محمد عند من نادى فسماه	إن ابن جابر إن تسأله معرفة
لو جال فى سمع ملحد لأحياه	لما عمرت مجال السمع منه بما
أمثالك اليوم أخرى ما سألناه	وأفاكم مستجيزا والإجازة من
ينازع الروض مرآه ورياه	فالفظ مجيزا لنا ما صنعت من كلم
لو صيغ للدر حل كان إياه	نظم ونثر يهز السامعين له
ألفت يانخبة فيمن رأيناه	إجازة شملت ما قد رويت وما
ودم لو أرف عز طاب مجناه ^(١)	فعش لنظم المعاني فى مواضعها

فنظم له صلاح الدين الصفدى « إجازة » ردأ عليه فقال من بحره ورويه :

(١) عن كتاب « نكت الهميان فى نكت العميان » للصلاح الصفدى ص ٢٤٥ فى ترجمة « محمد ابن جابر الأندلسى » .

يا فاضلا كرمتم فينا سجاياه وخصنا بالآلى في هداياه
 خصصتني بقريض شف جوهره لما تألق منه نور معناه
 من كل بيت مبانيه مشيده كم من خبايا معان في زواياه
 إذا أدبرت قوافيه وقد ثمل النديم أغنته عن راح تعاطاه
 وغير مستنكر من أهل أندلس لطف إذا هب من روض عرفناه
 هم فوارس ميدان البلاغة في يوم الفصاحة إن خطوا وإن فاهوا
 إبه تفضلت بالنظم البديع فما أعلاه عندي من عقد وأغلاه
 أقسمت لو سمعته أذن ذى حزن في الدهر ألزمه البشرى وألهاه
 أشرت فيه بأمر ما أقابله إلا بطاعة عبد خاف مولاه
 ولست أهلا لأن تروى فضائح ما عندي لأنى من التقصير أخشاه
 ولست إلا الذى ترضاه فارو عن المملوك مارحت تهواه وترضاه (١)

ونظم هذه الإجازة ، صنى الدين الحلى ، مجيزا بها الشيخ العلامة وشمس الدين
 ابن عبد اللطيف بن خليفة الهمداني ، برواية نظمه ونثره . رادا على استجازته .
 قال فى المطلع :

أنى لفضلك بالمديح نجازى شتار بين حقيقة ومجاز
 فضلا به ضاق الزمان بأسره فضلا عن الإرمال والإرجاز
 ومنها :

يا صاحب المنن التى آثارها فينا كفعل الغيث بالإرجاز
 لديار مصر لك الهناء وإن غدا للروم بعدك والعراق تعازى
 قوضت عن أعلامها فتنكرت فسكانها ثوب بغير طراز

ما للمقيم بمصر بعض صفاته
وجلوت شعري في المحافل بعدما
وخطبت مني بعد ذاك إجازة
هل يخطب المولى إجازة عبده
ولقد أجبته بأن أجرت بخدمة
وأذنت أن ترويه عني ما لكي
فهي الإجازة والوداع لأنها
متوقع الإغضاء عن تقصيره
وإذا عجزت عن الجزاء لحقكم
قبل فكيف لعابر مجتاز
أخفيته بدفاتر وجزاز
عن نقله حتى ظننتك هازي
ويروم من مولاه خط جواز
في غاية التلخيص والإيجاز
مع كل ما يعزوه نحوى عازي
صدرت ومرسلها على أوفاز
منذا يوازن فضلكم وبوازي
بمدائحي فآله خير مجازي (١)

وكتب زين الدين بن الوردى «إجازة» نثرية أجاز بها القاضي نور الدين
الفيومي . وفي سياقها نظم هذه الأبيات :

مولاي ياذا المنظر الباهر
يا حاكما شاهده حاكم
أبدعت نثرا قلت لما بدا
وقلت شعرا محكما مثله
فيا سريع النظم لازلت في
جملت مصرا أنت من أهله
فأنت نور الدين حقا ومن
وإنما كلفتنى خطة
قلت : أجزنى وأنا قطرة
يوسف أعرض ما الذى تبتغى
والمنطق المنتظم الزاهر
على العلى نفديك بالناظر
كم ترك الأول الآخر
في الدهر لم يخطر على خاطر
خير مديد كامل وافر
وسدت في البادى وفي الحاضر
سمى به غيرك كالحائر
توهى قوى المستأسد الخادر
واحدة من بحرك الزاخر
من عمر المعدول عن عامر

أمرتني ما كنت أولى به فشرف المأمور بالآمر
فإن أخالف لم يلق بي وإن أطعت أخشى هزأة الناظر
وطاعتي أمرك ألفيتها أولى وإن شقت على خاطري
أجزت مولانا كما جوزوا صرف سوى المصروف للشاعر
ضرورة إذ لست أهلا لما طننت يا طائل بالقاصر
إجازة لو أنني منصف سألتها من لفظك الغامر
مثلك لا يحمل مقداره ولا سبحانه بيتك الطاهر . . الخ (١)

وبعد فحسبنا ما سطرنا في آثار البيئة الثقافية ، ولننقل مجال البحث إلى آثار
البيئة الاجتماعية في شعر العصر ، متطلعين إلى فجاج أرحب وميادين أوسع ،
وحيث نحدثك حديثا عن الشعراء أكثر تفصيلا مما مر ، وأكثر إنصافا مما ذكر .

الفصل الرابع

أثر البيئة الاجتماعية في الشعر

في حديثنا عن البيئة الاجتماعية رسمنا صورة للشعب المصري أبرزنا فيها أهم ملامح مجتمعه في العصر الذي نؤرخ شعره . وبدت للبيئة فيها زوايا مختلفة من زواياها الكثيرة . وشهدنا كيف كانت طبقته الحاكمة ، ومن إليها ، واسعة السلطان موفورة القوة ، متعالية العيش ، مستأثرة بأسباب الجاه والثناء ، بينما أكثر الطبقة المحكومة تعيش في هوان وحرمان ، وفي ذلة وضعف ، مكبوتة الآمال محدودة التطلع ، لا حول لها ولا قوة ، على جلب الخير لنفسها ، أو دفع الضرر عنها . مع أنها القوة العاملة ، واليد المتحركة المنتجة — فيما عدا الجندية وما يتصل بها من الحروب — وهي لم يتأب عليها ولم تفر منها . بل أوضاع المجتمع حينذاك هي التي فرضت عليها ابتعادها عنها . فعاشت أكثر ما عاشت وهي تعاني تلاحق أحاسيسها وتدفق مشاعرها . واسكنها أحاسيس سرعان ما ترد إلى صدرها . ومشاعر سرعان ما تعود إلى حناياها .

عاشت إذن تجتر آلامها وآمالها ، وتشكو وتكتم ، أو تسرى عن نفسها بالسخرية والنكتة والفكاهة والنقطة اللاذعة العابرة ، التي لم ترق إلى غير آذانها ولم تجاوز مجالها ، ولم تستطع أن تهيب النفوس لعمل جماعي ذي أثر .

تنفست الجماهير إذن عن هذا الطريق ، وتنفست كذلك عن طريق الناحية الدينية . فقد كانت الحمية الدينية — كما شهدنا في كثير من هذه الفصول — آخذة بالتلاييب ، وكانت الغيرة والحماسة الإسلامية على أشد ما تكون . والرغبة في التضحية في سبيل الله والوطن الإسلامي والعربي ، تقتاد زمام النفوس سواء في ذلك الحاكم والمحكوم . إذ كل أعداء الإسلام وأعداء العرب يتربصون بهما

الدوائر ، ويطمعون في طمس معالمهما وطى بساطهما ، واحتياز الأرض التي يعيشان فيها .

كان لهذه النزعة رد فعل عظيم ، كما شهدنا ، إذ أقبل الجيش ، وتعاونت طبقات الشعب - على الدفاع تحت راية الدين وباسمه ، وأقبل الناس على تعلم علوم الدين وانتشروا لذلك في مساجده ومدارسه التي فتحت لهم أبوابها ، ويسرت لهم سبل التعليم فيها ، وأصبح هم المتعلم والمثقف أن ينال قسطاً منها ونصيباً من معرفتها ، ومشاركة في إحيائها وبعثها . وانتشرت بجوار هذا وذاك خوانق الصوفية وربطهم وزواياهم ، ووجد رجال الدين ورجال الصوفية من لدن السلاطين منزلة كريمة وتبجيلاً مطرداً وجاهاً واسعاً . ووجد هؤلاء وهؤلاء لدى جماهير الشعب سوقاً نافذة وأذناً ساهرة ونفساً طائعة ومكانة عالية ، وأقبل الناس عليهم يلتمسون عندهم الرأي ويطلبون المشورة ، ويستأمنون الفتوى لكشف المجهول وتجلية الغامض وحل المشكل ، إلى غير ذلك .

والجماهير - أو أفراد منها وجماعات - لالتقى بين هذا وذاك ، تقيء إلى اللهو فتقبس منه بمقياس ، وإلى اللعب فتأخذ منه بنصيب ، تتسلى بذلك وتتلهى عن برحائها ، وأعباء كتبها ، وتيسر لنفسها بعض رغباتها وشهواتها ، حتى تستشعر من وراء ذلك بعض الراحة والطمأنينة . وقد تنحدر وهي بسبيل من ذلك إلى المجون والتبذل - كما رأينا - فقترب الخمر ، وتعاطى الحشيشة . وتغازل النساء ، وتداعب المرء ، فتقع في المحرم الممقوت . . . ولاكتنها النفس . . . والنفس أمارة بالسوء .

وترى آثار هذا العيش ، ومظاهر هذه الحياة ، بادية في شعر شعراء العصر . والشعر ترجمان البيئة ، ورجع المجتمع بما فيها من خير وشر ، وبما فيها من سمو وضعة ، وبما فيها من صدق وزيف ، وبما فيها من نقى ونقيضه .

سترى الشعر الدينى الذى تتجلى فيه الحماسة للإسلام وحب الرسول عليه

الصلاة والسلام ، والنزوع إلى الزهد والنسك وشكوى الحياة - وإلى جانبه شعر الغزل والمجون والتبذل وشعر الخمريات ، وما إلى ذلك .

ولعل البيئة الاجتماعية هنا ، كانت أرحب البيئات أثراً في حياة الشعراء ، وأكثرها إثارة لشياطينهم ، ذلك لأنها بهم أمس وإليهم أقرب ، وبهم ألصق . ولأنهم في جملة أمورهم كانوا يعيشون عيش الجماهير ويقاسون ما تقاسيه ويعانون ما تعانيه . إلا قليلاً منهم ... وذلك أدعى لأن يحسوا بأحاسيسها لا يفتعلونها ، ويشعروا بمشاعرها لا يحاكونها ، ويتجهوا باتجاهاتها لا يتكلفونها .

والحق أن شعراء العصر ، وقد حرمتهم أوضاع المجتمع عوامل التشجيع ، ولم يجد فنههم الشاعر وسائل الحياة لدى رؤساء هذا الزمان ، ولم تجذب الدولة بضبعه ، اضطروا لأن يلتمسوا لهذا الفن أسباباً للحياة أخرى يتعلق بها ليعيش كأي نبت أغفله أهله ، وهو على الحياة أحرص . إنه ليضرب بجذره في باطن الأرض يتحسس بشعريات شمه منابع الماء حتى يجدها ...

وهكذا وجد الشعراء في نزعات العصر وفي اتجاهاته ورغباته وإحساساته ، وسيلة من وسائل الحياة لشعرهم ، فتشبثوا بها واتخذوها دعائم ليجيا بها ويعيش عليها وينمو ويزدهر . وبرهنوا بذلك على حيوية قوية وفنية طاغية جذبرة بالإعجاب ، إذ لم يأذنوا لموهبتهم أن تذبل ولا لشاعريتهم أن تموت .

وحقاً لم يعيش كثير من الشعراء لشعرهم خاصة . واتجهوا بأنفسهم ، طلباً للرزق ، اتجاهات مختلفة فنههم من صار قاضياً ، ومنهم من صار كاتباً ، ومنهم من صار محترفاً جزاراً أو دهاناً أو وراقاً أو حمامياً أو غير ذلك - كما سبقت إشارتنا - ولكن هذا كان اتجاه المضطر المسوق المرغم الذي لم يجد في سوق الشعر عيشاً رغداً ولا رزقاً ميسراً سهلاً ، سكنه مأساه ولا عنه لها ، بل ظل هو الديدن له والهوى . ولبث هو الغاية والمنى . يعود إليه بين الآونة والأخرى فينفث النفثة منه ويزفر الزفرة فيه ، فيبدأ روعه ويسكن خاطره وتستريح نفسه .

وحقاً أيضاً أن بعض الشعراء بدا منه ما يشعر بريبته في فنه وأنه إنما يلجأ إليه الفنية بعد الفنية، امتحاناً لقريحته، وتمريناً لقلبه وأسلته. وفي رأينا أن هذا اعتذار شاعر، وكم للشعراء في اعتذارهم من حيلة وستر. وما عهدنا الشعر الصادق إلا نفثة نفس وأنة فؤاد وزفرة صدر.

يقول زين الدين بن الوردى، في مقدمة ديوان شعره ما نصه: «وقد يقف الناظر في مجموعى هذا، على وصف عذار الحبيب وخده، ونعت ردفه وقده، وشكوى عشقه وصده. وذم الشئ وحده، ومدح الشخص لرفده. وجزر القول ومدّه. فيظن لذلك في الظنون، غافلاً عن قوله تعالى. «وإنهم يقولون ما لا يفعلون». وإنى إنما قلت ذلك على وجه امتحان القريحة...» (١)

وابن الوردى هذا هو الذى يقول متغزلاً:

يا هند لى نفس بكم مشغولة سياقها إلى هواكم ساقها
يقول من يقيس بلقىس بها آمرة ناهية عشاقها
إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ راقها
لو تعلم الورق بحسن جيدها لمزقت من طرب أطواقها
ولو يذوق عاذلى ريقها صبا معى لكانه ما ذاقها (٢)

تشبت الشعراء إذن بمظاهر وملابس مما هيأت له لهم البيئة الاجتماعية — بعدما جنت عليهم البيئة السياسية — فاتخذوا منها مراحات يمرح فيها شعرهم، ودعائم يسمق فوقها، وأرضا طيبة يعيش على خصبها. بعد أن قضى على زمان التكسب بالشعر، وعفت الأيام أثره وخبره. ولم يعد الوسيلة المعاصرة، التى يحيا بها الشعر. وتلاحقت إليهم عوامل الركود فى ذلك الزمان.

وتوسلت الموهبة الفنية بوسائل عدة مما أتاحته ظروف البيئة وضررياتها،

(١) مقدمة ديوان ابن الوردى ط الجواب. (٢) ديوان ابن الوردى ص ٢٢٨ ط الجواب.

لتهيء لنفسها سبيل العمل والإنتاج والبروز والمشاركة الفعلية في حياة هذه البيئة .
وقد نوهنا عند الحديث عن أثر البيئة الثقافية ببعض هذه الوسائل . وإليك بعضها
مما هيأته البيئة الاجتماعية :

فالعلاقات الشخصية كانت إحدى هذه الوسائل . وإذا كانت في كل عصر من
العصور الأدبية تلعب دوراً رئيسياً في حياة الأدب والشعر ، وكانت ذات آثار
بعيدة المدى في شحذ المواهب الفنية ، فإنها كانت في العصر المملوكي من أجمل
مظاهر المجتمع ومن أحب الروابط بين الشعراء ، ومن ثم كانت لها آثارها في
نتاج الشعر وغيره .

ونعني بهذه العلاقات ، العلاقات الإخوانية وصلات المودة وشائج الصداقة
بين الأنداد والنظراء . وقد اتخذتها نزعة الفن الشعري وسيلة إلى الحياة والإنتاج .
ووجدت فيها بديلاً وعوضاً عما فقدته من ألوان التشجيع ، أو على الأقل شيئاً من
البديل والعوض . وبها أነع الشعر الإخواني ووجد سبيله إلى البروز والجودة ،
ومازج ألواناً أخرى من الشعر كالغزل والفسكاهة والوصف والمجون والمداعبة
والمماحة وغير ذلك .

وقد روى لنا ابن فضل الله في كتابه « مسالك الأبصار ، قصة لطيفة عن أبي
الحسين الجزار المصري وصديقه سراج الدين الوراق ، وصور فيها جوا من الحرية
الفنية التي كانا يمرحان فيها ، ويعيشان لنفسيهما . قال :

« حكى أن السراج الوراق وأبا الحسين الجزار خرجا في صباحهما ، والشباب
أعقد حبهما ، يريدان النزهة . فوجدا غلاماً زامراً يتمنى منه اللقاء . ويجتمع فيه
الغصن والورقاء . يتلف بصفحة القمر المنير ، ويطرب كأنما زمرة مما أوتى
آل داود من المزامير . فلفتهاه إليهما لأمر ، وظنا أنه ستلينه لهما الخمر . فأتيا به
دير شعران ، وصعدا إليه فوجدا راهباً يصدع حبه الفؤاد . ويطلع قره ولا شيء
أحسن منه في ذلك السواد . فزاد سرورهما بحصول الزامر والراهب . وأيقنا

ببلوغ المسارب . فلما حميت فيهما سورة الحميا ، وظن كل منهما أنه قد حصل له فراشه وتها . فظن الزامر والراهب لمرادهما فتركاها ومضيا قبل التمام . وتركاهما وكل واحد منهما يشكو ضجيجا لا ينام . . .

فقال السراج :

في نخنا لم يقع الطائر لا راهب الدير ولا الزامر
فقال أبو الحسين الجزار :

فسعدنا ليس له أول ونحسنا ليس له آخر

فقال السراج :

فالقلب في إثرهما هائم

فقال الجزار مكلا : والقلب من أجلهما حائر^(١)

وفي هذه القصة ما يصور لنا بعض جوانب الشعراء وشيئا من مجونهم في عصر تفشى فيه الرقيق وذاع استخدام الجوارى والغلمان ، ويبين لنا كيف كان الفن يحيا معهم فيها ، ويستجيبون لوجيه .

وروى تقي الدين بن حجة الحموى قال :

« حكى أن نور الدين على بن سعيد المغربي صاحب المرقص والمطرب ، مر مع جماعة من الأدباء بالديار المصرية ، منهم أبو الحسين الجزار : فمروا في طريقهم بمليح نائم تحت شجرة ، وقد هب الهواء فكشف ثيابه عنه ، فقال أبو الحسين الجزار :

« قفوا . لينظم كل واحد منا في هذا شيئا ، فمالشوا إلا مقدار ساعة ، حتى

قال نور الدين على بن سعيد :

الريح أقود ما تكون لأنها تبدى خبايا الردف والأعكان
وتميل بالأغصان عند هبوبها حتى تقبل أوجه الغدران
فلذلك العشاق يتخذونها رسلا إلى الأحباب والأوطان
فقال السراج الوراق : « ما أعلم أن أحدا منا يأتي بمثل هذا . سيروا بنا ، » (١)

وروى ابن شاکر في كتابه « فوات الوفيات » أن الأديب وكال الدين بن
العديم ، كان إذا قدم مصر يلزمه أبو الحسين الجزار ، حتى كانت هذه الملازمة
مشاراً لتندر بعض أهل العصر عليهما ، فقال موريا :

يا ابن العديم عدمت كل فضيلة وغدوت تحمل راية الإدبار
ما إن رأيت ولا سمعت بمثلها نفس تلذ بصحبة الجزار (٢)

وكانت هناك صحبة أكيدة ومودة . وكان أنس متبادل ، بين الصاحب
نحر الدين بن مكاس ، والأديب البارع بدر الدين البشتكي . وقد اجتمعا معا في يوم
أنس سمياه « يوم أنس الهمايل » . - ويبدو أن الهمايل اسم مكان إذ ذاك أو روضة -
وفي اليوم المذكور وضع الشيخ بدر الدين البشتكي نفسه ، موضع الثور
في الساقية ودار بها . فأثار بذلك دعاة صديقه ابن مكاس وأثار تندرته .
فنظم نحر الدين في ذلك قصيدة فكاهية لطيفة داعب بها صديقه البدر البشتكي
ومدحه .

فقال في مطلعها :

دورة البدر في سواقي الهمايل تركت أدمع العيون هوامل
آه من للرياض ثور أديب مظهر من كلامه سحر بابل

(١) تأهب الغريب لابن حجة الحموي فصل النسيم .

(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٢٦ .

فاق سعيا على بنى عجل فى الجو د وأغنى عن الولى الهاطل
وقد مزج ابن مكانس فى أبياته بين ألفاظ الرياض والرى والماء وملائمتها ،
وبين ألفاظ الأدب والشعر ، مزجا لطيفا . واستعار من إحداهما للآخرى .
وقال :

يا سعيدا أثرى من النظم والنثر فأنسى الورى زمان الفاضل
قد سقيت الرياض يا شيخ بالدو رفها غصنها من السكر مائل
وقال :

وغدا بالظلال كل أديب فى هجير الرمضا بفضلك قائل
وبروحى عيون نرجس روض يغزل الحسن بالندى ويغازل
أنت شفتها بشعرك زهرا وبعثت المياه فيها خلاخل
وقال :

أنت لو لم تكن بحار علوم ماجرت فى الرياض منك جداول
كنت عندى أجل قدرا وقدر ت من الثور للوجود الحامل
وغدا قس بين لفظك والرو ض على الحاليتين عندك باقل... الخ (١)
وقد رد عليه الشيخ بدر الدين بقصيدة من البحر والروى ، وفى الموضوع
نفسه ، مزجها بالوصف والمدح والفكاهة .

وروى ابن حجر العسقلانى أن الشاعر الأديب الماजन « شرف الدين
الأصفهونى ، المعروف « بقطنبه » ، كانت بينه وبين معاصره الأديب « نبيه الدين

(١) القصيدة بتمامها فى ديوان نجر الدين بن مكانس - مخطوط بدار الكتب المصرية - وفى مطالع
البدور فى منازل السرور - مخطوط بالمكتبة الأزهرية وفيه رد البشتكى - وفى تأهيل الغريب لابن حجة
الخموى فصل الدوايب - مخطوط أيضا بالدار .

عبد المنعم ، محاورات ومراجعات . حتى كان أهل عصرهما يشبهونهما بالجزار والوراق^(١) .

وكانت بين صفى الدين الحلى وجمال الدين بن نباتة علاقات مودة وأدب . وقد تبادلوا قصيدتين من أروع الشعر الإخوانى . تعاطيا فيها العتاب ، وتقارضا الشناء .
فقد أرسل صفى الدين إلى ابن نباتة يقول :

من لصب أدنى البعاد وفاته إذ عداه وصل الحبيب وفاته
فاته من لقا الأحبة عيش كان يخشى قبل الوفاة فواته
كان ثبتا قبل التفرق لـكن زعزعت روعة الفراق ثباته
ويقول :

كنت مستنصرا بأسيا ف صبرى فنبئت بعد فرقة ابن نباتة
فاضل ألف الفصاحة والعلم وضمت آراؤه أشتاته
رب شعر لم يتبع ما روى النا س ولكن بالفضل يهدى غواته.. إلخ^(٢)
فأجابه ابن نباتة من البحر والروى ، وقال فى المطلع شاكيا متغزلا فى
رقة وجزالة :

ما اظبى الحى إليه التفاته بعد ما كدر المشيب حياته
لهج بالهوى وإن نفرت أيدي الليالى غزاله ومهاته
كلما قيل قد سلا عن فتاة عادته الحب فاستجد فتاته
ومنها فى الغزل أيضا :
بأبى فاطر اللحاظ غزير رام تشبيهه الغزال ففاته

(١) الدرر الكامنة ج ٢ رقم ١٥٦٦

(٢) راجع ديوان الحلى .

صائل الحسن إن رنا وتثنى سل أسيفه وهز قناته
ومنها يخاطب صفى الدين :
يا مفيد الورى لآلى بحر يعرف الذوق عذبه وفراته
وصل العبد من قريضك بر سر أحبابه وساء عداته... إلخ (١)

وفى كتاب «أحان السواجع» ، لصالح الدين الصفدى ، قصص وحوادث
لا نهاية لها ، هى وليدة العلاقات الشخصية ، ونتيجة روابط المودة والأخوة ،
وقد تولد عنها الطريف الرائع من الأدب والشعر .
ومن ذلك ما رواه الصفدى ، قال ما ملخصه :

إن شيخ الإسلام قاضى القضاة تقى الدين السبكى ، لما توفاه الله رثاه
برهان الدين القيراطى بقصيدة نونية . فأرسلها ولده الشيخ بهاء الدين السبكى
إلى الصلاح الصفدى . فنظم الصفدى قصيدة طائية مدح فيها البرهان القيراطى .
فاطلع البرهان القيراطى على طائفة الصفدى . فنظم طائفة أخرى من بحرها ،
أعاد فيها ذكر التقى السبكى ، ومدح فيها الصفدى . فما كان من الصفدى إلا أن
نظم طائفة جديدة من البحر نفسه ، يثنى فيها على القيراطى وعلى براعته الشعرية .
فهذه أربع قصائد نونية واحدة وطائيات ثلاث . وكلها وليد العلاقات
الشخصية .

فمن طائفة الصفدى الأولى فى مدح البرهان القيراطى ، قوله ، موريا باسمه
مع التجنيس :

وزنت أهل النظم فى عصرنا من غير إجحاف وإسقاط
فأهل مصر عند وزنى لهم زادوا على الدنيا بقيراط... طى ، إلخ

ومن طائفة البرهان القيراطى فى الرد على الصفدى ومدحه قوله :
يا حاكما عدل أقواله فلم يرع يوما بإسقاط
أقمت للشعر عموداً له بأرض مصر أى فسطاط
بنات أفكارك فيه غدت مصونة عن شبه الواطى
تسمو قوافيها فتحتطمها من فكركم عزيمة محتاط ... إلخ
ومن طائفة الصلاح الصفدى فى الرد على القيراطى ثانية ، قوله يمدح قوافيه
ويصفها :

غيد أما احتاجت لمشاط أم در بحر ما له شاطى
أم روضة فيحاء أم حلة من رقم تنيس ودمياط
أم شعر من زادت قناطيره فضلا وقد سمي بقيراط وطى .. (١)

والإيحاء ، كثير ما يكون وليد العلاقات الشخصية ، وأثراً من آثار
المودات . ونعنى به أن يدفع رجل - أديب أو عالم أو نحوهما - أحد الشعراء
من خلصائه وأحابيه ، إلى نظم الشعر بمناسبة من المناسبات . وقد يكون الشعر
حينذاك مدحاً نبويًا أو وصفاً أو معارضة أو غير ذلك ، كما أنه قد يكون بعيداً
عن طريق الإخوانيات . وذلك بحسب الاقتراح .

وقد كان الإيحاء وسيلة من الوسائل التى راجت فى هذا العصر ، بفعل
الصلات الاجتماعية ، واتخذتها الفنية الشاعرة تسكأة للبروز ، وفرصة للإنتاج .
وكثيراً ما كانت النزعة الفنية تعجل إلى الاستجابة كلما دعاها داعى الإيحاء .

وقد ذكر تاج الدين السبكي ما ملخصه :

أن أباه تقي الدين السبكي أنشده لنفسه قصيدته التى نظمها فى الشطرنج ،
عندما اقترح ذلك الشيخ أبو حيان على أهل العصر ، وعلى زنة خاصة .

(١) راجع « ألحان السواجع » للصلاح الصفدى وبه الأبيات جميعها - مخطوط بدار الكتب المصرية .

ومن نبأ ذلك أن أبا حيان اقترح أن ينظم الشعراء على عروض قول ابن حرمون وقافيته ، وهو قوله :

إليك إمام الخلق جبت المفارزا وخلفت خلفي صبية وعجائزا
واشترط أبو حيان على من عارضه ، أن يتغزل ، ثم يذكر الغرض ثانياً ،
ثم يمدحه ثالثاً .

فقال الشيخ تقي الدين السبكي :

أخا العذل لا تفرط وكن متجاوزا فما كل عذل في المحبة جائزا
ولا كل ذى وجد يطيق احتماله وإن كان ذا أيد شديد مبارزا
ولا كل صب يحسب الغنى رشده وكيف ومثلى من يفك المرامزا
ومنها قوله :

وإني لفي أسر الهوى ووثاقه حليف الضنى من حين كنت مناهزا
تقاذفني أمواجه وبحوره ولم ألف فيها بين بحرین حاجزاً... إلخ

قال تاج الدين السبكي إن هذه القصيدة طويلة وعدة أبياتها مائة واثناعشر بيتاً ، لم تتكرر عليه فيها قافية منها . وروى في مناسبة أخرى أنها مائة وخمسة وأربعون بيتاً . (١)

وهذه - على أى اعتبار - مقدرة من شيخ برع في الفقه وغيره من علوم الدين ، وكان رأس الشافعية في زمانه . وولى القضاء زمناً . وتبدو مقدرته بخاصة في طول القافية وعدم تسكرارها وغرابة حرفها وهو الزاى .

ولم يسجل تاج الدين السبكي في طبقاته ، من هذه القصيدة إلا أبياتاً ، وأغفل بقيتها . وكذلك أغفل تسجيل أبيات غيرها من قصائد المتبارين في مقترح أبي

(١) راجع طبقات السبكي ج ٦ في ترجمة تقي الدين السبكي ، وتقى الدين أبي الفتح السبكي

« محمد بن عبد اللطيف » .

حيان . ولو سجلها لظفرنا بمجموعة نادرة قيمة من الشعر في موضوع واحد يجد فيها الباحث مجالاً للبحث والدرس والموازنة والحكم .

وروى تاج الدين أيضاً في ترجمة تقي الدين أبي الفتح السبكي ، محمد بن عبد اللطيف ، أنه كان في عداد المتبارين في مقترح أبي حيان . وروى من أبياته عدة ، منها في المطلع يتغزل :

بنفسى غزال مر بالرمل جائزاً فصير قلبي في المحبة حائزاً
وفوق سهمي من لحاظ جفونه فأصمى وما ألقى عن القلب حاجزاً

ومنها قوله في الغزل أيضاً :

وماس فأمسى الغصن يهتز مائساً وبان فبان البدر يشرق بارزاً
ثوى في حمى نجد وليس بمنجد وفوز فاستحليت فيه المفاوزا... الخ (١)

وروى تاج الدين السبكي أيضاً ، أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، أنشد من لفظه لنفسه - ولم يكن له من النظم غيره - قوله ، وهو من الشعر الصوفي :

لو كان فيهم من عراه غرام ما عنفوني في هواه ولا مواء
وطلب إلى تلاميذه أن يحيزوه .. فأجازه منهم ، شمس الدين عمر بن عبد العزيز بن الفضل الأسواني - قاضى أسوان . فقال :

لكنهم جهلوا لذادة حسنه وعلمتها ولذا سهرت وناموا
لو يعلمون كما علمت حقيقة جنحوا إلى ذاك الجنب وهاموا
أو لو بدت أنواره لعيونهم خروا ولم تثبت لهم أقدام
فبقيت أنظره بكل مصور وبكل ملفوظ به استعجام

ومنها يمدح شيخه العز بن عبد السلام :

مولاي عز الدين عزبك العلي نخر آفدون حذاك منه الهام
لما رأينا منك علما لم يكن في الدرس قلنا إنه إلهام... إلخ (١)
وقد أنشد هذا الطالب شعره للشيخ في مجلس درسه ، وهو يسمع إليه : ولما
انتهى من إنشاده قال الشيخ : « أنت إذن فقيه شاعر » .
ولم يسجل تاج الدين السبكي غير قصيدة هذا الشاعر ، ولم يشر إلى ما عسى أن
يكون طلاب آخرون قد نظموه .

ومن أوثق ماله صلة بالإيحاء ، استعداد ذوى المنزلة في العلم أو الأدب للجلوس
بين الشعراء مجلس الحكم ، إثارة منهم لنزعات الأدب والشعر ، وإشباعا لرغبات
الأدباء والشعراء في إبراز نتائجهم .

ومن أطف ما وقع من ذلك ، هذه المحاكمة التي جلس فيها قاضي القضاة ابن
حجر العسقلاني . ليقضى في ثلاث قصائد تائية من بحر واحد . كل تائية لشاعر
يعتبر رأس طبقة . وهم ابن نباتة والبرهان القيراطي وابن حجة الحموي .
وتائية ابن نباتة مدح بها القاضي كمال الدين بن الزملكاني . ويقول في مطلعها
متغزلا :

قضى وما قضيت منكم لبانات متيم عبثت فيه الصبايات
مافاض من جفنه يوم الرحيل دم إلا وفي قلبه منكم جراحات... إلخ (٢)
وقد عارضها برهان الدين القيراطي بتائية في مدح تاج الدين السبكي صاحب
الطبقات ويقول في صدرها متغزلا :
ما لا ابتداء صبا باتى نهايات يا غاية ما لعشقى فيه غايات

(١) طبقات السبكي ج ٥ ص ١٠٢ في سياق ترجمة العز بن عبد السلام .

(٢) الفصيدة برمتها في ديوان ابن نباتة حرف التاء .

وياغزالا لنا في لحظ ناظره أسد ومن هديه للأسد غابات .. إلخ^(١)
 فعارضهما تقي الدين بن حجة بتائية ثالثة، قال في أولها متغزلا أيضا :
 لعجبه ولذيل الهجر شمرات وللقلوب من الأجفان كسرات
 وصار في درب وصلى من عوارضه وأهيف القددورات وقتلات .. إلخ^(٢)
 وقد حكاه ابن حجة الحموي في هذا التائيات ، قاضى القضاة ابن حجر . وكتب
 في ذلك يقول :

« يحسن هنا إيراد قبول البيئات المبرز في نظم التائيات ، . إذ لدور
 الكاسات تسلسل في مناظر أبياتها ، ولشرب الأدب ميل إلى الرشف من رحيق
 سلافانها . والذي أوجب هذه التسمية أن عدول الأدب قديما وحديثا ، شهدوا
 بترجيح تائية الشيخ برهان الدين القيراطي — رحمه الله تعالى — على تائية الشيخ
 جمال الدين بن نباتة — سقى الله ثراه — . والترجيح من قبل زيادة النكت
 الأدبية في القافية ، لا من قبيل انسجام الالفاظ وحشمتها ، فإن القصيدة النباتية
 من هذا القبيل مقدمة .

ورأيت جماعة من أهل العصر يقولون : إن هذه القافية صعبت على من يقتفى
 بعد الشيخين أثرها . وأن نكتتها تحجبت عن كل متأدب وأرخت سترها .
 فعززت القصيدتين بثالثة . فهي ثلاث مالهن رابع . وأقمت بينات البلاغة .
 فحكم لي قبلة هذا الفن وإمامه الذي هو لشمل العلوم جامع . — وصيغة الدعوى :

« الحمد لله الحكم العدل . يقبل الأرض . وينهى أنه انتصر بنباته الحموي لنباتي
 مصر وحلاوته . وحرر مع القيراطي موازين الأدب بمعيار البلاغة . والموجب
 لذلك أن جماعة من عدول الأدب بترجيح تائية القيراطي تشهد . وقد عارضته

(١ ، ٢) راجع تأهيل الغرب لابن حجة . وفيه لابن نباتة ٢٨ بيتا ، وللقيراطي ٥٠ ، ولابن
 حجة بيتا . وراجع أيضا روض الآداب للشهاب الحجازي ورقة رقم ١٠ — مخطوط بمكتبة الأزهر .
 وتائية ابن نباتة برمتها في ديوانه المطبوع ، وتائية القيراطي في ديوانه المخطوط ص ٤٣ .

منتصرا لمحمد . وأبو بكر أحق من تطلب لنصرة محمد . وسميت هذا التأليف :
« قبول البينات للمبرز في نظم التائيات . » والمملوك يسأل الحكم أن قبلت بيئته
تقديمه فيما ادعاه . أعز الله تعالى أحكام مولانا قاضى القضاة . »

وقد سجل ابن حجة نص حكم ابن حجر العسقلانى فى هذه القضية الأدبية .
فقال :

« نسخة ما حكم به مولانا قاضى القضاة شيخ الإسلام شهاب الدين
أبو العباس أحمد بن حجر العسقلانى . الناظر فى الحكم العزيز بالديار المصرية
وسائر الممالك الإسلامية المحروسة . أعز الله تعالى أحكامه . وأدام على المسلمين
من سطور علمه وطروسها ليلاليه وأيامه » :

« لله الأمر من قبل ومن بعد . الحكم بين النظراء إنما يحسن ممن يماثلهم
فيما به يرتفع الحكم . وفى إقدام من لم يرتق إلى تلك الطبقة نوع من الظلم .
ولا يرتاب لبيب أن كلا من الثلاثة رأس هذا الفن فى زمانه ، وأنه لا يوازنه أحد
من أقرانه . »

وثلاثة كشلاثة الراح استوى لك لونها ومذاقها وشميمها

ولكن . لما كان امتثال الأوامر من بعض فنون الأدب . وإجابة الداعى
ولا سيما ممن ظنه أهل هذا الفن أمر منتدب . ومرجع الحكم فى هذه القضية إلى
الذوق السليم ، فأمكن القول إن لم أقل وجب . فأقول مستعينا بالله متوكلا عليه .
ملتجئا فى كل الأمور إليه : الذى تبني عليه القواعد . ويشهد به الذوق السليم الذى
هو فى هذا الفن أعدل شاهد . أن الثالثة أرجح وزنا من الثانية . ولولا حرمة الكمال .
والحياء من الجمال . لقلت إن الثانية فى الرتبة الأخيرة تالية . لأن الأولى وإن
كانت من الثانية أكثر انسجاما . والثانية وإن فضلت على الأولى فى الدقات الأدبية
ابتداء واختتام . فالثالثة قد جمعت بين المعنيين . وفازت بالحسنين . ونزات فى
كل وجه من الأدب منزلة العين . وقال لسان فحوليتها عند ابن الكلام من غيرها :

لذكر مثل حظ الانثيين . وقد أتت بما غرض من الأزهار النباتية والجواهر القيراطية . وما فاق بمجموعه كل فريد . وراق مسموعه كل مجيد . حتى قال من شهد مثلي بهراعتة . وطرب لصريير يراعتة .

أقصى نهاية وصفي فيه معرفتي بالعجز منى عن إدراك معرفته (١) وبعد أن فرغ ابن حجة من إيراد حكم ابن حجر ، روى أنه حصل على فتوى أدبية أخرى بتفصيل تائيته ، من الحافظ الفقيه شمس الدين الجزرى . وأورد صورة هذه الفتوى . وهى لا تخرج عن حكم ابن حجر . وهكذا كان استعداد بعض الرجال للفصل بين الأدباء ، لو أن ألوان الإيحاء يدعو إلى الإنتاج ، ومحاولة التجويد .

وبهذه المناسبة نلفت النظر إلى أن هذه المحاكمة لون من ألوان النقد الأدبي وطريقة من طرق الموازنة بين الأعمال الأدبية . وقد كانت لهم مسالك أخرى نحو النقد والموازنة .

ولا بأس من أن نشير إلى أن تائية ابن نباتة مثبتة بتامها فى ديوانه . وعدة أبياتها نحو مائة وعشرة . وهى من أبدع قصائده وأجودها . وتمتاز فضلا عن طولها وثبات قوافيها ، بما فيها من عذوبة وتوافق لفظى ، وبما تحتويه من غرائب بديعية كثيرة ، مع تنوع أغراضها .

ونعتقد أن مجال الموازنة بين التائيات الثلاث لا يزال مفتوحا . وأن الباحث الموازن سيجد مراحا فيها للقول واسعا ، وأنه سوف يضع بينها حكما أكثر دقة وأوفى تفصيلا وتعليلًا من حكم الأديب الكبير ابن حجر . وقد ينتهى فى حكمه بما يخالف به ما ذهب إليه هذا الأديب . . لاختلاف المقاييس .

وقد ترجم تاج الدين السبكي في طبقاته لجمال الدين الزملاكانى (١) . الذى مدحه جمال الدين بن نباتة . وفوه بهذه القصيدة وسجل منها نحر ثلاثة وسبعين بيتاً . ثم قال فى نهايتها مانصه : « ولما قال ابن نباتة هذه القصيدة - فى ابن الزملاكانى - البديعة . حاول أدباء عصره معارضته ، فما أحسنوا صديعه بالكل قصر ولم يلحق . وتأخر وما جاء بالحق » .

وهذا الخبر لم يذكره ابن حجة فى حديثه عن التائيات وقصة المحاكمة بينها . كما أن تاج الدين السبكي لم يسجل شيئاً من معارضات الشعراء لتائيات ابن نباتة . ولو ذكرها لأمدنا بنصوص قيمة ، ولأتاح لنا مجالاً واسعاً للموازنة والحكم . ويهمنى فى هذا المقام الإشارة إلى أن وجود شاعر كبير كابن نباتة ، كان وحده ضرباً من ضروب الإيحاء إلى معاصريه للنسج على منواله . وهذا وحده موضوع جدير بالبحث المستقل المستوعب .

وهكذا ترى معى أن مواهب الشعراء تعلقت بكل سبب يمر بها ، يعينها تعلقها به على الحياة والينع والنمو والإثمار . ومن هذه الأسباب الاقتداء والمعارضة . وهذا أيضاً باب يحتاج إلى باحث جديد يفصل الحديث فيه .

ومن أبرز نتائج الإيحاء ، نظم بديعية ابن حجة الحموى ، وتأليفه شرحها الكبير المسمى « تقديم أبى بكر » ، والمشهور بخزانة الأدب .

فقد قص علينا ابن حجة فى مقدمة شرحه المذكور ، أن ناصر الدين البارزى رئيس ديوان الإنشاء ، هو الذى أوحى إليه بنظم هذه البديعية . وكان ابن البارزى هذا صديقاً حميماً لابن حجة . احتضنه ووظفه معه فى ديوان الإنشاء لما وفد إلى مصر فى عهد الملك المؤيد شيخ ، وأسند إليه المؤيد كتابة السر ورياسة الديوان . فجعل ابن حجة منشئاً للديوان الشريف .

(١) طبقات الشافعية للسبكي ج ٦ راجع ترجمة السكالم بن الزملاكانى .

وطلب ابن البارزى إليه أن ينظم قصيدة بديعية يعارض بها بديعية صبي الدين الحلبي ، وبديعية عز الدين الموصلى ، فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام . وشرط عليه أن يضمن كل بيت فيها نوعا بديعيا على الأقل ، وأن يشير إلى اسم النوع بلفظ فى البيت .

فأخذ ابن حجة ينظم بديعته . وكلما نظم بيتا يعارض به بيتا للحلى وبيتا للموصلى ، عرضه على ابن البارزى ليقره . فينقده ابن البارزى بما يراه ، فيعود ابن حجة فيصلح من شأن بيته . ثم ينظم غيره ، وهكذا دواليك . حتى أتم بديعته فى أكثر من مائة وأربعين بيتا . ثم شرحها فى خزانته المشهورة . وهكذا كله بفعل الإيحاء .

والرغبة فى النقد الاجتماعى ، كانت أحد الحوافز إلى النظم . والشعب المصرى نقاد بفطرته ، لا تسكاد تمر به حادثة أو يسمع بواقعة ، ثم لا ينقدها ولا يعلق عليها ولا يطلق الشائعات من حولها ، ولا يلائم بين أطرافها المتباعدة ، ثم يستنبط منها ما شاء له حدسه ، ويعلل ما يستنبط بعلة شتى .

ولعل ذلك راجع إلى ذكائه ونفاذ بصره ، أو لعله أثر من آثار ما مر به من دول وأنواع حكم ، ومن طاف به من الراحلين بين الشرق والغرب . فاطلع على نظم وإدارات ، وعلى تقاليد وعادات ، وعلى معارف وثقافات ، عودته التذوق والفهم والحكم والتعليق .

ونشطت نزعة النقد الاجتماعى فى العصر المملوكى . وشارك الشعراء فيها بقسط وافر ، ولا غرابة فهم السنة من السنة الشعب ، ولهم مشاعر ترجع مشاعر الجماهير . ولعلمهم وجدوا فى الحياة التى يحبونها ويحياها الشعب معهم ما يدعوا إلى النقد ويحفز إليه ، بل هو فعلا يدعو إليه دعوة صارخة . وكنا نحس أن الخوف ، التقليدى من الحسكام سيعصم ألسنتهم من النقد ، ويجنبهم ذائق الحديث فيه .

ولكن يبدو أنهم أمنوا جانب حكمهم حينذاك، لتعالى هؤلاء الحكام من ناحية ، ولعجمتهم من ناحية أخرى ، ومع ذلك فسرى حادثة من الحوادث اجترأ فيها أحد الشعراء على أحد القضاة فنقده وحمل عليه وهجاه ، فأوذى في سبيل ذلك ولحقه الضرر . سنفصل لك الحديث قريباً في هذا الموضوع وغيره . وسترى أن شعراء العصر - بالرغم مما كان يحيط بهم من أسباب الخوف وتوقع الهلاك ، كان لديهم - أولدى بعضهم - إقدام وجراءة في هذا الباب ، فأطلقوا منه نفثة المصدور وأنه المسكوم وعبرة الباكي وصرخة الملتاع ، بعيداً عن ميدان السياسة ، قريباً من ميدان الحياة الاجتماعية .

وبذلك شارك الشعراء - كابوصيرى وغيره - قومهم بالتعبير عن أعمق أحاسيسهم ، وأخرج مشاعرهم لهم . ولو أكثروا في هذا الباب ، لكان شعرهم فيه هو الشعر اللباب .

وهكذا تلاقت شاعريتهم - كما ترى - بأحد أسباب الحياة ، فتعلقت به لكي تعيش وتنتج .

والحق أن فن النقد الاجتماعي - وإن كان في رأينا حافزاً من حوافز الشاعرية في ذلك الزمان - استوى وبرز بروزاً ملموساً بين الأغراض الشعرية . وكان تصويراً لبعض نواحي المجتمع ، من ناحية ذكر الواقع الفاسد ، ومن ناحية شعور الناس بالآلم منه . وربما من ناحية ثالثة ، وهي بيان علة الفساد ، ورسم الطريق إلى إصلاحه . وهذه النواحي هي جماع اختصاصات وظيفية النقد الاجتماعي .

وبروز هذا الفن في عصر المماليك ظاهرة أدبية بالغة الأهمية ، لأنها نادرة الحدوث في تاريخ الأدب العربي ولعلها تقنع بعض الناس ، بأنها دليل يقظة فكرية وجراءة نفسية لدى شعرائه . ودليل على ارتباط مشاعرهم بمشاعر مجتمعاتهم ، فكانوا ألسناله وتراجمة عنه .

لقد تناولوا في نقدهم السلاطين والأمراء وموظفي الدولة ووزراءها وقضاة
الشرع وكتبة الدواوين . ونقدوا التعليم والصوفية وتقاليد الأسرة ، إلى
غير ذلك .

لقد ذكروا استبداد السلاطين والأمراء ، واستئثارهم بالأرزاق وحرمانهم
الشعب . وسجلوا على كتبة الدواوين سرقاتهم وطائفيتهم . وما كان لكل طائفة
من ادعاءات ومزاعم . ولاموا وزراء الدولة على عدم عدالتهم وعدم ضربهم على
أيدي الظالمين والأشرار . وحملوا على قضاة الشرع وإهمال بعضهم في عمله وقبوله
الرشوة وتحليل الحرام وتحريم الحلال ، لدوافع شخصية ومنافع ذاتية . ووصفوا
فساد الأسرة المصرية وما ترزح تحت أعبائه من التقاليد السخيفة والعادات
المرذولة ، وماتن منه من الأعباء الاقتصادية التي فرضتها عقليتها على نفسها ،
وسجلوا على رجال الصوفية دعاواهم العريضة وأسباب وصولهم ، وما يسترونه من
جرائمهم الآثمة باسم التصوف ، ونقدوا التعليم وحملوا على أذعياء العلم وأذعياء
الشعر . إلى غير ذلك . . .

ولا نشك مطلقاً في أن كثيراً من أشعارهم في هذا الباب الحيوى الشائق ، وفي
هذا الغرض النبيل ، قد ذهب به النسيان وطوحت به الأيام ، وطوى ما طوى من
كثير آثارهم .

والبقية الباقية من هذه الأشعار دليل واضح على أنهم طرخوا هذا الباب
ودقوه في عنف وجرأة ، وفي عمد وحنق شديد ، وفي رغبة جارفة أيضاً
في الإصلاح .

وودنا لو أنهم أفاضوا وأكثروا القول ، أو أن الزمن قد أبقى منه الكثير .
إذن لتكشف لنا صور شتى من صور الحياة الاجتماعية في هذه الحقبة .

وامتريج نقدهم الاجتماعى في أحيان كثيرة بالهجاء . وربما كان هجاءهم بدافع

شخصى . ولكنه - على كل حال - قد تناول رجلا عاما من رجال الدولة ، ومن ناحية عمله الرسمى فيها . فهو فى صميم النقد الاجتماعى .
وامتزج نقدهم - كما سترى - بالتهكم والسخرية - وبالنكتة والفكاهة ، وبالوصف وبغيره .

ونشير هنا إلى أن شرف الدين البوصيرى له قصيدتان فى النقد الاجتماعى ،
لها أهمية بالغة فى تاريخ الحياة الاجتماعية المصرية .
أولاهما : -

قصيدته التى نقد فيها مستخدمى الدراوين ووصمهم بالسرقة وبالخلافات
الطائفية ، وبالمزاعم المختلفة فى حق كل طائفة بالاستئثار بمال الدولة . وأشار
إلى خيانات القضاة وتأويلاتهم فى سبيل السحت والكسب الحرام .

وثانيتهما : -

قصيدته التى وصف فيها حال أسرته فى شهر رمضان ، وتأخر مرتبه ، وما نجم
عن ذلك من نزاع واسع النطاق بين أفراد الأسرة ، ومن خصام مستحكم بينه
وبين زوجته .

لا يهمنى فى هذا المقام أن شعر القصيدتين من النوع غير الجيد ، وأن
أسلوبهما فيه غثاء وركاكة ، بمقدار ما يهمنى ما فيهما من الصور الاجتماعية
والمعانى النقدية .

إن الصور التى سجلها البوصيرى فى هاتين القصيدتين ، صور تعدد وجودها أو
وجود أكثرها ، وتكرر وقوعها فى المجتمع المصرى ، من لدن زمان الشاعر - على
الأقل - إلى يومنا هذا . وسنرى أن ما شاع فى زمانه فى الدراوين من سرقات ومن
ارتشاء ، وما شاع فى الأسرة المصرية من تقاليد رمضان وصناعة الكعك فيه ،
والخلاف حوله . صور مما لا يزال يشيع فى بعض دواويننا ، وفى بعض أسرنا .

ومن ثم نستطيع أن نفهم إلى أى مدى قد تطور مجتمعنا فى عاداته وتقاليده من لدن الشاعر حتى أيامنا هذه .

ومن أبيات القصيدة الأولى قوله :

نقدت طوائف المستخدمين فلم أر فيهم رجلا أميناً
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم مع التجريب من عمرى سدينا
فككتاب الشمال هم جميعاً فلا صحبت شمالهم اليميناً
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا بهم فكأنهم سرقوا العيوناً

فى الأبيات يعلن الشاعر مباشرة وابتداء بأنه ينقد طوائف المستخدمين . وبأن موضع نقده عدم أمانتهم . ويدعوك الشاعر إلى تصديقه وإلى الثقة بحديثه ونقده . وذلك لأنه عاشر هؤلاء المستخدمين وخبرهم وجربهم ورأى من خيانتهم مآرعه وآله وأمضه . فهو يتحدث وينقد حديث الرأى والسماع والمعاشر ، وينقد نقد المطلع المجرب الخبير .

والحق أن الشاعر ليس فى حاجة كبيرة إلى تأكيد صدقه وإلى توثيق نقده ، وإلى تصديق اتهاماته ، ذلك لأنه فى الأبيات التالية ، وفى هذه الأبيات السابقة توجد بينات الصديق واضحة . فإنه قد عمم اتهاماته ضد المستخدمين فلم يختص بها طائفة دون أخرى ، ولم يتعصب لجماعة ضد جماعة . فالقضاة — وهم بلا ريب قضاة الشرع — خونة خانوا الأمانة وزعموا أنهم حفظتها . وأكلوا الأموال وتناولوا فى أكلها . وفى التأويل الخشية كل الخشية على أموال مصر . . وتناول الشاعر المسلمين كما تناول القبط واليهود ، على حد سواء ، ونسب إلى كل طائفة مزاعمها وادعاءاتها فى مصر وأموال مصر . فالمسلمون لهم حقوق وهم أولى الآخذين . والقبط يزعمون أنهم ملوك مصر وأن غيرهم غاصبون — وتلك دعوى لا يزال منها راسب — واليهود حملت لنفسها أموال جميع الطوائف . وهكذا ترى الشاعر قد عمم ولم يخصص ونقد ولم يتعصب .

وهكذا أيضاً ترى فوضى الدراوين وعيث موظفيها وادعاءات الطوائف ، وكلها تنزع نحو أخذ المال الحرام ، وغصب الثروة ، مع ادعاء الصلاح والنسك ، أو دون تفكير في الصالح العام ، ودون اكتراث بأهداف البلاد وتأمين حياتها في حاضرها ومستقبلها .

يقول الشاعر مخاطباً الوزير المختص ، وذاكره من أعمهم الكاذبة وساخرا ، وكأنه يستعديه عليهم ، بل وينقده هو في سكوته عن هؤلاء اللثام السكاتيين ، وعدم ضربه على أيديهم . وأنت تفهم هذا من تعبيره له بلفظ « غفلت » وهكذا نسب إليه الغفلة . يقول :

أموال الوزير غفلت عما	يتم من اللثام السكاتيين
تنسك معشر منهم وعدوا	من الزهاد والمتورعينا
وقيل لهم دعاء مستجاب	وقد ملثوا من السحت البطونا
تفقهت القضاة نغان كل	أمانته وسموه الأميना
وما أخشى على أموال مصر	سوى من معشر يتأولونا
يقول المسلمون : لنا حقوق	بها ولنحن أولى الآخذينا
وقال القبط : نحن ملوك مصر	وإن سواهم هم غاصبونا
وحملت اليهود بحفظ سبت	لهم مال الطوائف أجمعينا ... الخ (١)

وتلاحظ في الأبيات حرارة الإيمان في نزعات الشاعر ، وصدق إحساسه بماسى قومه في دواوين دولهم ، واختلاف طوائفهم وتنازع هذه الطوائف أموال مصر وغير أموالها . ويتجه الشاعر لشدة حنقه وطول غضبه وعمق شعوره وغيطه ، إلى الدعاء على هؤلاء المتنازعين ، وإلى هجائهم والزراية بهم .

ولا ندرى أبلغت هذه الشكاية مسامع الوزير ، ووجدت من لدنه أذنا صاغية

ونفساً واعية وهمة ملبية، فضرب على الأيدي ، وقضى على الآثمين ، وحسم مزاعم المدعين المتخاصمين . .

ولعل البوصيرى شقى بهؤلاء الكتاب وضابطى الحساب فى الدواوين ،
والمسيطرين على صرف الرواتب ، ولعل تأخير صرف مرتبه ، أو أكل جزء
منه ، كان له دخل فى هذا الحق والنقد .

ومن أبيات القصيدة الثانية قوله :

يأيها المولى الوزير الذى أيامه طائفة أمره
ومن له منزلة فى العلى تسكل عن أوصافها الفكره
إليك نشكو حالنا إننا حاشاك من قوم أولى عسره
فى قلة نحن ولكن لنا عائلة فى غاية الكثرة
أحدث المولى الحديث الذى جرى لهم بالخيطة والإبرة

والبوصيرى صريح كل الصراحة ، وموجز غاية فى الإيجاز . ووضح كل
الوضوح . ذلك لأنه يفصح توا فى أول قصيدته عن غرضه ، ويكشف عن هدفه ،
ويحدد لمخاطبه وسيلته التى سيسلكها لاطلاعه على أمره أو شكايته .

وقد بدأ بمخاطبة الوزير وندائه وتنبيهه إليه ، ويمدحه مدحا عاجلا لضرورة
المقام ، ولا يفيض فى المدح فإنه ليس هدفه له ، وليس من صناعته الآن .
وبكشف للوزير توا أيضاً عن هدفه - كما ذكرنا - وهو أنه يعيش فى أسرة تعاني
العسر مع كثرة أفرادها ، وأنه سيقص عليه قصتها ، ليدعم بتلك القصة دعواه ،
ثم يبين حاجته إلى العون ، وهو ليس مستجديا ولا طالب صدقة أو إحسان أو
هدية أو منحة ، وإن لا لجأ إلى المدح . . وإنما هو يطلب أجره وراتبه . وهذا
حقه . وسترى هذه المعانى فى الأبيات التالية .

والقصة التي يحكيها عن أسرته أو الصورة التي يرسمها لها ، ليست القصة المستديمة أو الصورة المطردة الوحيدة ، وإنما هي قصة من قصص ، وصورة من صور ، ترمز إلى غيرها من مماثلاتها . لأن القصص كلها أو الصور جميعها تتلاقى في جوهر دوافعها وفي عموم مظاهرها ونتائجها . ذلك أن العسر هو السبب الأصيل . وهو يدفع إلى النزاع والخصام ، ولكن مضاعفات العسر ومظاهره تختلف في كل قصة عن الأخرى . ونتائج وآثاره العملية تتغير في كل صورة عن الأخرى وتسلك مسالك جديدة .

والعسر كان - ولا يزال - في مقدمة الأسباب لقلق الأسرة المصرية وعدم استقرارها ، وشبوب المخاصمة بين أفرادها . وفي رأينا أنه ينبغي ألا يكون العسر سبباً في ذلك كله . فإن الدولة وإن كان عليها أن تهنيء أسباب الاكتفاء المناسب لكل أسرة ، لا تستطيع أن تهنيء لها كل أسباب الاستقرار ، مادام حب النفس وما دامت الأثرة طاغية بين أفرادها . وما دام كل فرد فيها ينظر إلى علاقته بالآخر ، بمنظار مصلحته الشخصية ومنافعه الفردية . فالأثرة وعدم التضحية أساس القلق المائل الذي يغشى حياة الأسرة المصرية . وكذلك عدم موازنة ميزانيتها على أساس واقعي محدد ، وفي صراحة لا مواربة فيها ، وفي دقة لا عتب عليها .

تعاودنا هذه الأفكار كلما قرأنا هذه الوثيقة الشعرية التي نظمها البوصيري وصور بها صورة من صور حياة أسرته . تلك الأسرة التي عاشت منذ نحو سبعة قرون ، وانتابها العسر ، وأصابها القلق ، ومنيت بالأثرة وحب النفس ، فاعتورها النزاع واحتدم الخصام . وطغت عليها التقاليد بسلطانها ، والعادات الظالمة بقيودها ، ف وقعت فريسة لكل هذه الأدواء ، وكادت هذه الأدواء تقضي عليها وتفرق جماعتها .

لم تكن هذه الأسرة أسرة البوصيري وحده ، بل أسرة كثيرين غيره .

ولم تكن أسرة عاشت منذ سبعة قرون في مصر بل أسرة يتكرر وجودها فيها منذ أيام البوصيرى حتى اليوم .

هذه أبيات مريرة وإن تخللها الفكاهة . وسطور باكية وإن مازجتها النكتة ، وحكاية فيها العاطفة الحانية والأمل المرجو والآثرة الجاهلة والغيرة القاتلة والوشاية الحمقاء والحيلة الضيقة والشكاية اليائسة والعادة المفترسة ، واللهفة المتحسرة والتساؤل المخرج .

يقول البوصيرى ويتحدث عن هذه الأسرة في صومها وإفطارها ، وفي استعدادها للقاء عيدها ، وفي تفكيرها في مقتضيات رمضان والعيد :

أحدث المولى الحديث الذى	جرى لهم بالخيط والإبرة
صاموا مع الناس ولسكنهم	كانوا لمن أبصرهم عبدة
إن شربوا فالبرزير لهم	ما برحت والشربة الجرة
لهم من الخبز مصلوقة	فى كل يوم يشبه النشره
أقول مهما اجتمعوا حولها	تنزهوا فى المساء والخضره
وأقبل العيد وما عندهم	قمح ولا خبز ولا فطره
فأرحمهم إن عاينوا كعكة	فى كف طفل أوراوا تمره
تشخص أبصارهم نحوها	بشمة تتبعها زفره
كم قائل يا أبنا منهم	قطعت عنا الخير فى كره
ما صرت تأتيننا بفلس ولا	بدرهم ورق ولا نقره
وأنت فى خدمة قوم فهل	تخدمهم يا أبى سخره

ويعرج البوصيرى بتعبيره السهل وأسلوبه الميسور الواضح ، بل وبألفاظه وتراكيبه العامية المفصحة ، على أخت زوجته فيصف تدخلها فى شئون أسرته وسماعها لشكوى الزوجة واندفاعها بدافع الغيرة والحق والجمال ، وبغير روية ، فتثير الزوجة على زوجها وتغريها بمنازعته والاعتداء عليه ، فيقول :

وبوم زارت أمهم أختها والاخت في الغيرة كالضرة
وأقبلت تشكو لها حالها وصبرها منى على العشرة
قالت لها : كيف تكون النساء كذا مع الأزواج يا عرة
قوى اطلبي حقه منه بلا تخلف منك ولا فترة
وإن تأبى نخذي ذقنه وانتقيها شعرة شعرة
قالت لها ما هكذا عادق فإن زوجي عنده ضجرة
أخاف إن كلبته كلبه طلقني قالت لها : بعرة
وهونت قدرى في نفسها فجاءت الزوجة مجترة
فقاتلتني فهددتها فاستقبلت رأسى بأجرة
وحق من حالته هذه أن ينظر المولى له أمره^(١)

وكان القبط - كما رأينا - من بين موظفي الدواوين وكتاب الحساب ، فكانوا بذلك هدفاً من أهداف النقد عند البوصيرى . وكذلك كانوا هدفاً عند غيره . فقد حمل عليهم الشاعر شهاب الدين الأعرج ، وحمل على الترك والسلطان معاً ، ونعى عليهم جميعاً استئثارهم بالأرزاق دون الناس ، وجمعهم الأموال من غير وجهتها ، واستبدادهم في هذا الجمع ، ودعائهم العريضة في سبيله . وحرمانهم الناس من أن ينالوا من الأموال حظاً مناسباً .

وبلغ الأمر بهذا الشاعر أن أفصح عن حظ كل طائفة منهم من الأموال ، فقال ساخراً متهمكاً إن نصيب الترك والسلطان الثلث ، ونصيب القبط وخدم النصف . أما الناس جميعاً - عدا هؤلاء - فنصيبهم السدس .

وفي إشارته إلى نصيب الترك والسلطان وأنه الثلث - أقل من نصيب القبط

(١) ديوان البوصيرى . وفوات الوفيات ج ٢ ص ٢٥٦ ط بولاق ،
(١٦ م - عصر المليك)

- شيء من الزراية بالترك والسلطان أو شيء من الاستعداد . يقول :

وكيف يروم الرزق في مصر عاقل ومن دونه الأتراك بالسيف والترس
وقد جمعته القبط من كل وجهة لأنفسهم بالربع والثلث والخمس
فللترك والسلطان ثلث خراجها وللقبط نصف والخلاتق في السدس^(١)

وروى ابن إياس ، أن الملك الأشرف « قانصوه الغوري » ، أراد أن يرد
جوامك الأيتام ، فلم يمكنه إلا تايكي « قيت الرجي » ، من ذلك . وأعطى جماعة
من الممالك ، فنزل الآخرون من القلعة دون طائل .

فنظم ابن إياس في ذلك :

سـل الله ربك من فضله إذا عرضت حاجة مقالة
ولا تقصد الترك في حاجة فأعينهم أعين ضيقة^(٢)

ومن لطيف ما تفسكه به الشاعر السكيس الأديب شهاب الدين بن أبي حجلة
المغربي ، على القبط ، وطريف ما سخر به منهم ، البيتان التاليان اللذان نظمهما
ردا على من لومه على مصاحبته للقبط ، واتخاذهم منهم أصفياء . . فقال يرد عليه
ويعال هذه الصحبة بتعليله اللبق . قال :

أيا لائمي في صحبة القبط إنني وحقك لم يفرح بصحبتهم قلبي
واكنني أصطاد رزقي بأرضهم ولا بد للصيد من صحبة السكب^(٣)

ويبدو أنه كان ثمة في دواوين الدولة ما ينفر ذوى المروءة وأصحاب الضمير ،

(١) الدرر الكامنة ج ٢ رقم ١٥٣٥ ترجمة شهاب الدين الأعرج .

(٢) بدائع ابن إياس ج ٤ في تاريخ الغوري حوادث رمضان عام ٩٠٧ هـ .

(٣) راجع ديوان ابن حجلة المغربي حرف الباء .

ويربأ بهم عن التوظيف فيها ، ويدعوهم إلى مجافاتها ، وإلى طلب الرزق من باب آخر غير بابها .

والشاعر بدر الدين الدمشقي ، كان يشتغل بالتعليم وكان مخلصا في أدائه حتى حتى اشتهر بالإجادة فيه . ثم طلب إليه أن يوظف في ديوان الإنشاء . فرفض وأبى ، لما في الديوان من ذل وهوان - بحسب تقديره - وفضل عليه صناعة التعليم . فلامه بعض الناس في ذلك ، فنظم هذه الأبيات حاملا على الديوان ورؤساء الديوان حملة شعواء ، ومواظبا موازنة يسيرة بين الصناعتين . ومبيننا أهم مواطن شكواه من الديوان وأهله . وهو غطرسة الرؤساء وازدراؤهم المرؤوسين .

قال :

لأثمي في صناعتي مستخفا بي إذ كنت للعلي مستحقا
ما غزال يقبل الكف مني بعد برى ولم يضع لي حقا
مثل تيس أبوس منه يداقد صفرت من ندى لأسأل رزقا
فيولى عني ويلوى عن رد سلامي ويزدريني حقا
فاقتصد واقتصر عليها فما عند إله السماء خير وأبقى (١)

ونعني ناصر الدين بن النقيب على بعض رؤساء زمانه أيضا ، فقال في مجهول من النظر في زمانه ما وصمه بالجهل الفاضح في صناعته واختصاصه ، وانصرافه عن معرفتهما إلى العناية بمظهره :

قالوا : فلان ناظر فأجبتهم ما ناظر إلا إلى أعطافه
لم يدر مسح الأرض قلت أزيدكم أخرى ولا مسحاً على أطرافه
وقد كرر مثل هذا النقد أو الهجاء حينما أشار إلى أحد الوزراء ، فوسمه كذلك في عمله بالجهل المطبق وبأنه لم يعد أن يكون بوقاً لغيره وطبلاً .. قال :

أبلم قلدوه أمر الرعايا وهو في حلبة الوزارة عطل
فهو بالبوق في الوزارة طبل وهو في الدست حين يجلس سطل (١)

وإليك هذه الطريفة أو الطرفة ، التي تصور لك بعض مشاعر الناس في هذا
المجتمع ، عن طريق الأداة الناقدة .

فقد روى ابن إياس أن رجلا في زمانه ، يدعى « شمس الدين بن عوض » ، كان من
فلاحى منية مسير بالغربية - أو من بانوب - دفعه حظه إلى أن صار
أستاذارا للذخيرة الشريفة ، وصار في جملة الرؤساء . ولكنه لم يخرج عن طبع
الفلاحين

وقال عنه مانصه : « فكانت عمامته عمامة الفلاحين ، وكلامه كلام الفلاحين ،
كأنه فلاح قحف ، كما جاء من وراء المحراث ، ولم ينطل في رياسته . فكان
كما قيل :

ورب قحف قد أتى لنا به الدهر غلط
سألت عنه قيل لى هذا من النخل سقط

وقال آخر في المعنى :

فقيه ريف يقول إني برعت في العلم والرواية
فقلت لاشك أنت عندي تصلح للدرس والدراية ، (٢)

وفي الشطر الأخير تورية واضحة . والأبيات مملوءة بالتندر والسخرية .
والملاحظ أن هذا التندر من ابن إياس على الفلاحين - وهم الطبقة الكادحة -

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٥٣ .

(٢) بدائع ابن إياس ج ٤ حوادث عام ٩٢٠ هـ ص ٣٧٦ .

كان ذائع التكرار على ألسنة الناس في مصر ، في حق هذه الطبقة ، حتى وقت قريب ، حتى عاجلت الثورة الكريمة هذه الجراح في أيامنا .

وتعرض لنقد الرؤساء وهجائهم أكثر من واحد من الشعراء . ومن الرؤساء - كما علمت - أمراء الدولة وقضاةها . ومن الرؤساء أيضا - كما نعلم حتى اليوم - من يقيم ببابه ، أمينا أو كاتباً ، يصرف الأمور قبل إقبالها عليه ، وينظمها ويحسن تقديمها . وقد يطغى ، ويغريه بالطغيان انصراف رئيسه عن متابعة عمله وتفتيشه ومراجعته . فيصبح بعد قليل ، هو الرئيس الفعلي والمتصرف الأول الحاسم فيما يعرض على رئيسه . ويؤدي ذلك في كثير من الأحوال إلى اضطراب الأمور وقلقها وإلى إثارة النفوس وحماتها .

ونقد هذه الأحوال وما يترتب عليها ، لون من « النقد السياسي » ، لولا أنه أشد صلة بالحياة الاجتماعية .

ويصرح الشاعر سيف الدين السامري في جرأة ووضوح ، بما كان عليه حال الأميرين « طوغان » و « إيدر » . وكان لسكل منهما أستاذار يسمى « العلم سنجر » ، ونائب بر يسمى « الشجاع همام » ، استبددا بالامر دون الأميرين ، فكتب الشاعر إليهما يقول في جرأه :

اسم الولاية للأمير وماله فيها سوى الأوزار والآثام
وجناية القتلى وكل مصيبة تجي منافعها إلى همام
سيفان قد وليا وكل منهما ماضى العزائم دائم الإقدام
وبباب كل منهما علم ينكل ما يجود به من الإنعام
وقد استحلوا منهم مالم يزل من ملهم ودمائهم بحرام
فنتى أرى الدنيا بغير تشاجر والقطع والتكميس للأعلام (١)

والشاعر سيف الدين السامري كان نزيلا بدمشق . وكانت بلاد الشام - كما علمت - في جملة أفطار السلطنة المصرية . وكان موظفو الدولة - سواء منهم الأمراء والوزراء والقضاة وكتاب السر وغيرهم - يتنقلون في سلك وظائف السلطنة من بلد إلى آخر ، في مصر أو الشام أو غيرهما ، تنقل الموظفين اليوم بين مدن الجمهورية ، وكذلك كان الأدباء والشعراء يتنقلون طلبا للرزق . وما كان يجرى من الأمور في بلاد الشام من أحداث الدواوين والرؤساء نمط مكرر بما كان يجرى في مصر غالبا .

فلا بأس من أن نروى لك أن السامري المذكور ، تندر تندرأ مرافاحشا على القاضي صدر الدين بن سناء الدولة ، وذلك لأنه عدل المدعو جمال الدين اليزدي ، وخلع عليه طيلسانا ، وأحضره في مجلس قضائه مع العدول وأشهد عليه .

ويبدو أن اليزدي ، كان معروفا لدى الشاعر بسوء الخلق ، ورأى أنه لا يصلح للجلوس مع العدول في مجلس القضاء ، وأن في هذا ظلما على المتخاصمين . فسجل السامري هذه الصورة الاجتماعية في هذه الأبيات اللاذعة الفاضحة المكشوفة ، التي رمى فيها اليزدي بكل كبيرة وصغيرة ، وتهكم بالقاضي صدر الدين ونسب إليه الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف . . قال :

طاب شرب المدام في رمضان واصطفاق العيدان عند الأذان
والزنا واللواط في حرم الله وترك الصلاة بالقرآن
منذ صار اليزدي في سكك الشام يطوف النايات بالطيلسان
وإذا صارت العدالة في الفساق واللائطين بالمردان
فجدير بأن أكون نبيا ويكون الصديق لي التلمساني
ياعدول الشام قد سمح القاضى لأصحابه بنيل الأمان
قامرواواشربواوقودواولوطوا وافسقوا والحدرا إذن بأمان

وارفعوا عنكم التستر بالفسق فلا حاجة إلى الـكتـمان . (١)
قيل : وبلغت هذه الآيات سمع القاضي صدر الدين . فتألم وغضب . وأعرض
عن جمال الدين اليزدى ، ومنعه من الشهادة . فاتصل اليزدى بالشاعر سيف الدين
السامري ، وما زال به حتى نظم شعراً استرضاه به . . .

وللقضاة وما قيل فيهم ، حديث آخر سنعرضه عليك بعد قليل ونعود إلى
ما نقد به الشعراء أحوال الدولة وجنودها وأمور الأمن فيها ، مما يعتبر نقداً
اجتماعياً وسياسياً في آن واحد .

وهاهو ذا ابن إياس الحنفى المؤرخ صاحب بدائع الزهور يسجل اضطراب
الأمن في عهد السلطان الأشرف الغورى ، وينسب هذا إلى جور الغورى وظلمه ،
فيقول في صراحة :

من دولة الغورى ومن جوره لقد حملنا فوق ما لا نطيق
وقد كفى من فعله ما جرى من قلة الأمن وقطع الطريق (٢)

وبمناسبة حديثنا عن الأشرف الغورى ودولته ، نذكر أن الأمير طرباي
الشرينى ، كان أحد كبار الأمراء في زمن هذا السلطان . وكان نافذ الكلمة واسع
السلطة . وأملى له غروره ، حتى صار عسوفاً شديد البأس زائد القوة كثير المظالم
يصادر أموال الناس ، ويمنع أرزاقهم ويحل أوقافهم . فلما مات هذا الأمير فرح
الناس بموته فرحاً عظيماً وتبادلوا التهنئة .

وابن إياس الحنفى يسجل هذا الحادث ، وينعى على الفقيد ما كان فيه من
صلف وظلم ، ويصف فرح الناس لفقده . وينشده هذه الآيات ، التى ، وإن عراها
ضعف النسيج ، تعتبر فى وصف إحدى نواحي المجتمع .

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٨٥ : (٢) بدائع الزهور ج ٤ حوادث جمادى الأولى عام ٩٠٩ هـ .

يقول ابن إياس :

بموت طراباي أفرج الله كربة
فهذا فتوح عاد في مصر ثانيا
وقد كان جبارا عنيدا معاندا
ويبطل حق الناس من كل واجب
ولما طغى ظلهما وزاد تجبرا
وأسكنه ضيق اللحد معذبا
وقد جاء يسعى للجحيم برجله
ومذشاع بين الناس أخبار موته
فيارب قابله بما يستحقه
عن الناس من خلق السموات الأرض
وعمت به الأقطار في الطول والعرض
فكم جار في الأحكام بالبرم والنقض
ويقضي خلاف الشرع في النذب والفرض
فعجل عزرائيل للروح بالقبض
وأخلى منازل في طرفه الغمض
وأجزم بعد الرفع بالنصب والخفض
فصار يهني بعض من سر للبعض
وأودعه في الأغلال للبعث والعرض (١)

وكان المماليك الجلبان - وهم ممالك الأمراء يلبغا واستمروا والجاى اليوسنى ،
على عهد الناصر حسن حفيد قلاوون - أهل فساد ورذيلة ، عانت القاهرة وأهلها ،
منهم ألوانا من العبث والأذى ، مراراً ، وكانوا سبياً في فواجع كثيرة . وقد
استمر عبثهم هذا ، بل ازداد وانتشر ، بمرور الأيام ، وعاشوا وتجددوا - كالمعتاد
- حتى بلغوا عهد الأشرف الغورى . فوقع بينهم وبين القرانصة - وهم لون
آخر من المماليك وعلى مقدار مردول من العبث أيضاً - فتن ومنافسات
لاحد لها . وكانت على أيدي هؤلاء وهؤلاء هزيمة جيش مصر في موقعة مرج دابق
التي صرع فيها الغورى عام ٩٢٢ هـ . فقد كانوا من دعائم هذا الجيش حينذاك .

لقد تناولهم الشاعر الساخر المتفكه شهاب الدين بن أبى حجلة المغربي
- شاعر السلطان الناصر حسن - فسجل عليهم ألوان عبثهم وضروب فتنهم .
وما اجتروحه في القاهرة من آثام ، إلى عهده . نظم ذلك في أسلوب كأسلوب

البوصيرى . لاجزالة فيه ولا حنكة في حبك عباراته . ولبيكنه وثيقة دمع بها هؤلاء الأشرار ، وسجل على صفحة الزمان بها إحدى صور المجتمع . قال إنهم كانوا ينزلون إلى الأسواق فيختطفون العباءم ، ويظهرون التيه وهم على ظهور خيولهم إبرازا لمهارتهم ، ويكثرون الدور ويمنعون الكراء ولا يكتبون الإيجار ، ويشنون الغارات في الطرقات ويدوسون الزروع ، ويفجرون بالعذارى والغلمان ، إلى غير ذلك قال :

غدا الجلبان في دست الخسارة	وفاتهم بما فعلوا الشطارة
ولم يعرف لهم في مصر شيء	سوى خطف العباءم والشماره
يرون التيه إن ركبوا بمصر	على ظهر الخيول من المهاره
فكم دار بمصر كوروها	جميعاً كاره من بعد كاره
وكم جاروا بمنع كراء دار	وما كتبوا لإسطبل إجاره
وكم غارت بهم من عين شخص	وكم شنوا على الطرقات غاره
وكم مزقوا السياج إلى المقاتي	وخير من خيارهم الخياره
وكم من زرع فلاح رعوه	ولكن بعدما حرثوا دياره
وكم ركب المسكارى الذل منهم	ولا سيما إذا ركبوا حماره
وكم فجروا ببنت وابن ناس	إذا انقضوا وكم فضوا بكاره (١)

ونعود إلى ذكر القضاة ، وحملات نقاد الشعراء عليهم . ويبدو أن الشعراء كانوا آمنين أمناً نسبياً ، إذا قصدوا لنقد القضاة وتفنيده أعمالهم أو أعمال بعضهم وتصرفاتهم ، آمنين أكثر مما كانوا يأمنون جانب السلاطين والأمراء .

وقد تعرض الشاعر الأديب شهاب الدين الشارمساحي لقاضى القضاة بدر الدين بن جماعة ، بأبيات رماه ورمى ولده فيها بعظائم وآثام - قيل إن أغلبها كذب

وبهتان - ولا تكنها على كل حال ، تصور لنا إحدى نواحي المجتمع ، والصورة التي سجلها الشاعر ، ولو لم تكن صادقة في واقعها ، هي صادقة الوقوع في حياة المجتمع في ظروف أخرى . فهي تحكي ما كان ينتاب أموال الأوقاف بين آن وآن ، من سلب ونهب وإغارة . وما كان ينعم به بعض الناس من ألوان النعيم ، ويشقى به بعضهم من ألوان العذاب والحرب . وما كان يصل إليه أقارب الرؤساء ، بسبب قرابتهم ، من مال محرم . . .

والحق أن الشارمساحي قد نقد فعلا ، وعاب فتحامل ، وهجا فأفدع . ومن المستطاع أن يكون النقد عفا مع لذاعته ، وبريئا مع مرارته - ومهما يكن من شيء فهذه هي أبيات الشارمساحي ، قال :

يموت عديم القوت بالجوع حسرة	ويشبع بالأوقاف أهل الطيالس
فما أحد إلا وحشو حسابه	من الغبن نار دونها نار فارس
وهذا ابن قاضي المسلمين موكل	... وراح في ظلام الحنادس
وما ذاك إلا أن والده امرؤ	جنوح لما يرضى به غير عابس
وإن رام منه مال وقف يضيعه	فما هو للأموال عنه بحابس
ونعذر نجلا هام في زمن الصبا	بكل صبي فاتر الطرف ناعس
فكم صاد غزلانا من الترك دونها	فوارس حرب يالها من فوارس
وكم باع أموال اليتامى لقربها	توسد للمردان فوق الطنافس
فسل مودع الأيتام ما صنعوا به	وقد كنسوه عامداً بالمسكانس
وجامع طولون فما كان وقفه	له إذ آتاه غير لحسة لاحس (١)

والأبيات - كما رأيت - فوق تسجيلها ما نبجلته من العبث بأموال الأوقاف وأموال اليتامى وتيسيرها للأقارب والأبناء ، دون حق . تسجل أيضاً ألواناً من الفساد والذيلة كانت منتشرة في ذلك الزمان بسبب رواج الرقيق وغيره .

ومما روى أنه في عام ٨٢١ هـ في عهد الملك المؤيد شيخ — ولي القضاء القاضي شمس الدين محمد بن عطاء الله الهروي الشافعي خلفا للقاضي جلال الدين البلقيني . وجلس السلطان مرة في أحد مجالسه فدست إليه ورقة فيها هذه الأبيات :

يأيها الملك المؤيد دعوة من مخلص في حبه لك ينصح
انظر لحال الشافعية نظرة فالقاضيان كلاهما لا يصلح
هذا أقاربه عقارب وابنه وأخ وصهر فعلمهم مستقيم
غطوا محاسنه بقبح صنيعهم ومتى دعاهم للهدى لا يفلحوا
وأخوه راة بسيرة اللئك اقتدى وله سهام في الجوائح تجرح
لا درسه يقرأ ولا أحكامه تدرى ولا حين الخطابة يفصح
فأرح هموم المسلمين بثالث فعسى فساد منهم يستصلح

وترى الشاعر المجهول قد رمى البلقيني بأمور ليست من عمله ، لقل حمل عليه إثم غيره من أقاربه . وهذا نقد ظالم . وقد رمى الهروي — أخا هراة — بالاستبداد في حكمه . والضعف في درسه ، والتعثر في خطابته . وإذا صح ذلك كان الناقد على حق في نقده له .

قيل ، وعرض السلطان الورقة على الجلساء من الفقهاء الذين يحضرون عنده ، فلم يعرفوا كاتبها . فأما الهروي فلم ينزعج مما جاء فيها . وأما البلقيني فقد انزعج انزعاجا شديدا ، وأطال البحث والتنقيب عن ناظمها . وبعضهم اتهم الشاعر وشعبان الآثاري . وبعضهم اتهم «تقي الدين بن حجة الحموي» . وبعضهم اتهم «ابن حجر العسقلاني» — قاله البدر العيني :

وبعد قليل أعيد الجلال البلقيني إلى القضاء^(١) .

وقال ابن إياس في حوادث ذي القعدة عام ٩١١ هـ ، ما ملخصه :

(١) حسن المحاضرة ج ٢ باب قضاة مصر ،

« إن القاضي محي الدين بن النقيب قاضي قضاة الشافعية ، أسند إليه القضاء ثلاث مرات ، وفي كل مرة كان يسعى إلى هذا المنصب ويبذل ما يستطيع .
ولسكنه لا يمكث إلا قليلاً ثم يعزل . »

وقال أيضاً : « وكان غير مشكور السيرة رث الهيئة ، يحافى النفس ويزدريه كل من يراه . » وقد قال فيه بعض شعراء العصر مداعبة لطيفة ، وهو قوله :
قاض إذا انفصل الخصمان ردهما إلى جدال بحكم غير منفصل
يبدى الزهادة في الدنيا وزخرفها جهرأ ويقبل سرا بكرة الجمال
وقال آخر ، وقد أحش في حقه جداً . . . قال ابن إياس : « فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وأنا أستغفر الله تعالى من ذلك ، :
يا أيها الناس قفوا واسمعوا صفات قاضينا التي تطرب
يلوط يزني ينتشى يرتشى ينم يقضى بالهوى يكذب^(١)

نقول إن هذا لون من النقد الجارح الذي ينتمى إلى الهجاء .
ومثله هذان البيتان الفكاهيان المذان عاون الشاعر فيهما جناسه ، على النقد الهاجى المقذع . وقد نظمها الشاعر الأديب عبد الكريم بن علي السهروردي القوصي ، في أحد التجار ، وكان الشاعر قد طالب منه جوزة هندية ، فرفض التاجر ، فكتب إليه :

طلبت منك جوزة منعني من قربها
وكم طلبت زوجة منك فلم تبخل بها^(٢)
والشعر على كل حال ، يصور أخلاق بعض الناس .

(١) بدائع الزهور لابن إياس ج ٤ حوادث عام ٩١١ هـ .

(٢) الطالع السعيد تحت رقم ٢٥٩

ويبدو أن بعض الشعراء استعذب نقد القضاة . ولدينا شاعر بدا في جرأة سيف الدين السامري الذي عرضنا نقده ، بل هو أجراً وأوسع تفصيلاً وأقوى بياناً وأكثر حجة وألذع هجاء . شاعر جاء أخيراً وعاش في عصر الأشرف الغوري . وملاً هجاؤه الأسماح وبلغ آذان السلطان والعامّة ، وكان له دوى وورنين لا يغفل تسجيله تاريخ الأدب .

ذلك الشاعر هو المصري الصميم جمال الدين السلهوفى ، . ويبدو أن العامّة أحبتّه لجرأته وإقدامه على نقد رجال الدولة دون خوف ولا وجل .

وفي عام ٩١١ هـ هجا هذا الشاعر ، القاضى معين الدين بن شمس ، وكيل بيت المال . وأخفش في هجائه . ومنه هذا البيت الذى فيه من الإقذاع المورى ، ما فيه ، قال :

وحرفته فاقت على كل حرفه يركب ياقوتا على فص خاتمه

فشكاه معين الدين بن شمس إلى السلطان الغورى . فقال له السلطان : « إن وجب عليه شئ بالشرع فأدبه » . فقبض عليه معين الدين ، وساقه إلى قاضى قضاة الخنفيه عبد البر بن الشحنة . فضربه ابن الشحنة وعزره ، وأشهره على حمار مكشوف الرأس ، اعتماداً على دعوى القاضى معين الدين أن السلطان هو الذى رسم بتشهيره . ولم يكن السلطان قد رسم بشئ من ذلك .

وبلغت أنباء العقوبة مسامع السلطان ، فشق ذلك عليه ، وأمر بالقبض على معين الدين وآذاه ، وأطلق سراح الشاعر .

وما إن أطلق سراح الشاعر ، حتى أطلق لسانه فى القاضى عبد البر ابن الشحنة ، وهجاه هجاء مقدحاً ، ونسب إليه جملة من الآثام والسيئات . قد يكون مبالغاً فى نسبتها إليه ، بل قد يكون كاذباً فى بعضها على الأقل ، ولكننا لا نشك مطلقاً فى أنه بقصيدته التى ضمنها هذا الهجاء ، صور وضعاً من أوضاع المجتمع وحالة من أحواله ، لا ريب فى حدوثها — بصرف النظر عن شخص القاضى

المهجو - فلا ريب أنه كان في الأحكام زور وباطل ، وأنه كانت هناك رشوة أو أجور للقضاة مبالغ في تقديرها . وأنه كانت هناك سرقات من أموال الأوقاف أو أطماع تدور حولها . وغير ذلك . وما صرخة هذا الشاعر الهاجى الذى أقذع فى الهجاء وأخش ، إلا صرخة الناقد الاجتماعى الذى راعه ما فى هذه الناحية من حياة المجتمع من ضروب العبث والفساد ، وإن أساء فى نسبتها إلى شخص معين . ومن هذه الزاوية نظرنا إلى قصيدة جمال الدين السلهونى . فإنها مصداق لما دونه التاريخ فى سير بعض القضاة .

وإليك بعض أبيات هذه القصيدة ، قال الشاعر :

فشأ الزور فى مصر وفى جنباتها	ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها
أينسكرك فى الأحكام زور وباطل	وأحكامه فيها بمختلفاتها
إذا جاءه الدينار من وجه رشوة	يرى أنه حل على شهباتها
فإسلام عبد البر ليس يرى سوى	بعمته والكفر فى سنماتها
أجاز أموراً لا تحل بملة	بجل وبرم مظهر منكراتها
ألست ترى الأوقاف كيف تبدلت	وكانت على تقديرها وثباتها
وقد وثبت فيها قضاياه بالأذى	وبالبيع شبه الأسد فى وثباتها
فإن كان فى الأقاليم بقية	تكذبنى فيما أقول فهايتها
ولا بد من بيع الجوامع تارك الجمل	أعانت منها مبطلاً جمعاتها
ولا بد أن يستبدل الناس أعبداء	بأحرارها يبعوا لنفس ذواتها
ولو أمكنته كعبة الله باعها	وأبطل منها الحج مع عمراتها
ومصداق قولى أنه كان مغرباً	ليحيى بن سبع فى خراب جهاتها ^(١)
وقد كان ذنباً لابن سبع وقومه	يطالع بالأخبار قبل روايتها
ولو يعط ديناراً وطاوعه الهوى	لأسقط عنها صومها وصلاتها

(١) ابن سبع كان أميراً لينبغ فى أول عهد النورى .

شكت ملة الإسلام مما ينالها بأفعاله ياهل تزيل شكتها
 فيبكي على الدين القويم وشرعه وأحكامه فيها بمنعوجاتها
 نعى مذهب النعمان من قبح فعله على فتوات الزور لاعن ثقاتها
 تعقب يعقوبا وخالف رأيه فكم حل من وقف وأبدى شتاتها
 وعن زفر قد زفر النقل كاذبا بتزويج أرحام لحين براتها
 وقد خان قاضي خان في فتواته بتغييرها عن مقتضى موجباتها
 فلا تخش إثما أن تخوض بعرضه فغيبته للناس خير لغاتها
 فماذا على الإسلام حل من الردى بأيام عبد البر مع سنواتها^(١)

روى ابن إياس أن القاضي عبد البر بن الشحنة - وكان صديقا للسلطان
 الغوري - شكاه إليه ما صنع السلموني فأمر السلطان باستقدمه إليه ، فقدم .
 فوضعه في القيد ووبخه توبيخا شديداً على سوء ما صنع . ثم سلمه للقاضي عبد البر
 ليحكم عليه بما يشاء إذا ثبت عليه ما قاله . فسلمه القاضي واستجوبه فأذكر أنه
 نظم شيئاً . ولكن تقدم بعض الشهود فشهدوا عليه ، وتعصب قضاة الشرع ضده ،
 وهموا بضربه بالسياط وإشهاره .

ثم ما لبث القاضي عبد البر أن اكتفى بسجنه ، وذلك خوفاً من العامة ، فقد
 كان كثير منهم يحب هذا الشاعر ويقدره ويتعصب له ، حتى إنهم هددوا القاضي
 عبد البر بالرجم بالحجارة ، إذا هو أساء إليه . .

ولبث السلموني سجيناً مدة حتى أمر السلطان بإطلاق سراحه ، وذلك في
 رمضان عام ٩١٣ هـ . وهكذا ترى أن هذه القصيدة وذيلها ونتائجها شغلت الرأي
 العام قرابة عامين .

(١) بدائع الزهور لابن إياس حوادث عام ٩١١ هـ ، ٩١٣ - وج ٣ و ص ١٩٤ ط أميرية .
 وفي بعض الأبيات لحن ، وقد روى ابن إياس هذه الأبيات وقال : « انتهى ذلك على سبيل الاختصار »
 ومعنى ذلك أن الأبيات التي رواها ليست جميع أبيات القصيدة .

وما يعتبر نقداً ووصفاً وتسجيلاً لا خلاق بعض الناس وتصرفاتهم وهذه ظاهرة اجتماعية مطردة في مجتمعنا حتى يومنا هذا — ما نظم فيه القاضي بدر الدين ابن الحبال الحنبلي ومحمد بن أحمد، المتوفى عام ٥٧٤٩ هـ، وذلك حينما عزل عن القضاء بسبب حادثة كان له بها صلة. وجاءه خبر العزل في أول النهار، وكان لديه جمع من الناس، فتفلفتوا من لدنه في الحال، وأسرعوا إلى الانصراف. وفي آخر النهار جاء أمر بإعادته إلى منصبه وعلم الناس فأقبلوا على داره زمرا وحشودا، حتى كاد باب داره يكسر بسبب زحامهم الشديد.

فقال القاضي في ذلك :

تحالف الناس والزمان فحيث كان الزمان كانوا
عاداني الدهر نصف يوم فانكشف الناس لي وبانوا
يأيها المعرضون عني عودوا فقد عارذ الزمان^(١)

ولم يسلم رجال الصوفية من خفقات أسنة الشعراء ولذعات نقدهم، وكان العصر — كما عدت — يعج بالمتصوفة، والقاهرة وظواهرها تمتلئ بخوانقهم وأربطتهم وزواياهم. وكان للسلطين والأمراء بهم عناية، إذ أسسوا لهم المدارس وأوقفوا عليهم الأوقاف وقرروا بمدارسهم الدروس، وعظموهم واستجابوا لرغباتهم وسمعوا لمشورتهم، بل والتسوا منهم البركة وتحقيق الأمل...

ولكن ما من طائفة كثيرة الجماعة، إلا ترى فيها خوارج وشواذ. وهذه إحدى الطوائف، ولا بد أنه أشيع عنها أو عن أفراد منها، أمور تشين وحوادث تناقض الطريق... والجمهور عميق الشعور بما هنالك، دقيق الحس بما يخفى، يحس وكثيراً ما يصدق حدسه. ويظن الظنون ويطلق الشائعات، وسرعان ما تتكشف الأمور عن صواب ما ظنه، وصدق ما أشاع. وكما ترى تظاهر بالتقوى ستراً لما شمه.

لقد كان بعضهم ينظر إلى الصوفية نظرة شذراء ، فيها الشك والريبة .
وكان بعضهم ينسب إليهم كبائر الإثم يرتكبونها في الخفاء . ومنهم من اتخذ
صوفيته سترا إلى بلوغ رغباته وشهواته .

فلا عجب إذا رأينا شاعرا عرف بالرزانة وعرف بالفقه والعلم ، وكتب
سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، يتخذ الصوفية هدفا لنقده وغرضا لسهامه ،
فيجهوهم ويفحش في الهجاء . ذلك الشاعر هو المؤرخ فتح الدين بن سيد الناس
اليعمري .

لقد نظم هذه الأبيات الأربعة ، وهي من الأدب المكشوف . فانظر
ما نظم ، قال :

ما شروط الصوفي في عصرنا قطعاً سوى ستة بغير زيادة
وهي والسكر والسلطة والرقص والغنا والقيادة
وإذا ما اهتدى وأبدى اتحاداً وجميلاً من خلوة وإعادة
وأنى المنكرات عقلاً وشرعاً فهو شيخ الشيوخ ذو السجادة (١)

لا تعليق لنا على هذه الشروط ، فهي واضحة لمن يريد ، وهي أشنع شروط
تشتط في عضوية ..! على أن البيتين الأخيرين جديران بالنظر والتأمل . إذ أن
الشاعر في أولهما تراه يتهكم — على ما نعتقد — بالاتحاد والإحساس به ، ويتهكم
بمن يدعيه ، وما أكثر المدعين ! ولندعه إلى البيت الأخير الذي اجتمعت فيه جميع
المنكرات . وعندنا أن أنسكى من اقتراف المنكرات وآثم من فعلها ، بذل الحيلة
في تسوينها بالعقل وبالنقل . وهذه أظلم هوة يطوح فيها المرء بنفسه ، ولا سكن
هكذا كان وما يزال ديدن بعض مدعى الصوفية وزاعميها .

وهذه الحركة التعليمية التي سبق لنا وصفها في فصل سابق ، ورأينا ما كان

يبدل في سبيلها من جهود موقفة ورعايات مطردة ، ورأينا كيف آتت أكلها طيبا ، لم تسلم هي الأخرى من لدغ النقد وذم الناقدين .

لقد استرسل كمال الدين الإدفوى صاحب كتاب الطالع السعيد ، في حنقه على التعليم في زمانه ، فسجل له صورة طريفة لاتزال بعض ألوائها وظلالها ماثلة في دور التعليم حتى اليوم . . . !

فالمباحث لانتهى إلى نهاية محمودة حاسمة ، وإنما هي مجادلات ومغالطات . والمدرس يخلط في دروسه من غير تحقيق ولا ضبط ، والمحدث يتشدد بأحاديث يرويها عن أحد الحفاظ . وهذا هو مدى علمه بالحديث . والفاضل حسبه من الفضل أن ينسب قولا إلى أرسطو أو إلى بقراط ، تماما كما يفعل بعض فضلاء عصرنا ممن ينسبون دائما إلى الفرنجة ، لا يريدون بذلك إعلان الحق بمقدار ما يبغون به الظهور والإعلان بأنفسهم ، وهم آمنون من التعقيب لجهل قرائهم أو لجهل سامعيهم .

يقول الإدفوى في أسلوب ميسور وعبارات هينة قريبة :

إن الدروس بمصرنا في عصرنا	طبعت على لغط وفراط عياط
ومباحث لانتهى	لنهاية جدلا ونقل ظاهر الأغلاط
ومدرس يبدى مباحث كلها	نشأت عن التخليط والأخلاط
ومحدث قد كان غاية علمه	أجزاء يرويها عن الدمياطى
وفلانة تروى حديثا عاليا	وفلان يروى ذاك عن أسباط
والفرق بين عزيزهم وغزيرهم	وأفصح عن الخياط والحنط
والفاضل التحرير فيهم دأبه	أقوال رسطا ليس أو بقراط
وعلم دين الله نادى جهره	هذا زمان فيه طى بساطى
ولى زمانى وانقضت أوقاته	وذهابه من جملة الأشراف (١)

(١) راجع الطالع السعيد وترجمة كمال الدين الإدفوى المتوفى عام ٧٤٨ هـ - والدرر السكامة ج ١

حتى صناعة الشعر نفسها ، لم تسلم من لذعات الشعراء . ولا غرابة فقد أصبحت في زمانهم كاسدة السوق باثرة البضاعة ، على ما وصفنا في أكثر من مناسبة ، فكان من الحق أن يستقيم إليها الشاعر ويتخذها سبيلا إلى الرزق . وقد تأبى بعض الشعراء عليها حتى ذمها وفضل عليها صناعة العلم . ويقول زين الدين بن الوردى ينصح ابنه :

بنى إياك ونظم الشعر فإنه بالعلماء يزرى
والله لو لا شهرتى وذكري بالعلم كان الشعر حط قدرى (١)

وماذا يصنع الشاعر وهو يعيش في قوم يبغضون الشعر والشعراء . إنه ولا ريب معذور إذا نقد صناعته وحمل عليها . يقول سراج الدين الوراق فيمن ازدري الشعر :

رفضوا الشعر جهدهم ورموه بينهم بالهوان والازدراء
فلو أن الكتاب كان بأيديهم محوا منه آية الشعراء (٢)
ويقول :

أصون أديم وجهي عن أناس لقاء الموت عندهم الأديب
ورب الشعر عندهم بغيض ولو وافى به لهم حبيب (٣)
وقد أشرنا إلى ذلك .

وهكذا رأينا كيف أن الرغبة في النقد الاجتماعي كانت حافزا له آثاره في بروزه بين فنون الشعر . وأن الشعراء عكسوا هذه الرغبة الشعبية البادية أو المكبوتة ، في شعرهم ، فأبرزوها وأعلنوا بها ، واتجهوا بها اتجاهات عدة ، ونقدوا المجتمع من زوايا كثيرة ، وخلقوا لنا من نقدااتهم صورا اجتماعية واضحة .

الهجاء

ولا بأس من الاستطراد - بمناسبة النقد الاجتماعي - إلى ذكر الهجاء . وقد يكون الهجاء شعراً إخوانياً دعت إليه خصومات وأحقاد مما يقع بين صاحبين ، مثلاً . ولكنه في كثير من الأحيان - أو في أغلب الأحيان - يكون شعراً اجتماعياً أعم منه إخوانياً . ويبدو بسبيل من النقد الاجتماعي ، وإن كان يتسم بالتحامل والتعجني والافتراء وساقط اللفظ وسوء العبارة ، أحيانا كثيرة . وهو على كل حال يصور بعض نواحي المجتمع ، ويركز على المساوىء الشخصية ويضخمها . ولكنه مساوىء - لا ريب - أنها تتكرر في أشخاص كثيرين ، وأفراد عدة من أفراد المجتمع .

والهجاء في العصر المملوكي ، نادر الوجود . ومن أوفى ما قرأناه منه في بابيه ، قصيدة طلية ذات نهج لافت ، نظمها الشاب الظريف . هجا بها رجلا اسمه « ابن يعقوب » . وقبل أن يصرح الشاعر باسم المهجو ، حشد في نحو تسعة عشر بيتا ، مجموعة ضخمة من نقائص البشرية ومساوىء مجتمعاتها ، بدت الأبيات التي تضمنتها كتأملات ناغم ، أو ملاحظات غاضب مستاء متألم ، أو لفتات ناقد مهتاج .. ثم عقب عليها بيت واحد ، نسب فيه هذه المجموعة كلها إلى « ابن يعقوب » ، على اعتبار أنها « صفات علا » أي أنها محاسن يزداد بها

يقول الشاب الظريف :

خذ من حديثي ما يغنيك عن نظري	فإنه سمر ناهيك من سمر
كم من أب قد غدا أما لمعشره	فأعجب لإعطاء أم وهو من ذكر
وناطح بقرون لا قرون له	وكبش قوم بنقل العلم مشتهر
ورب حامل وزر غير مجترم	ولائط وهو عف الذبل والنظر
.	
وضارب لي أهواه وأكرمه	أراه يحضر عندي وهو في النفر

وكم بليد بظهر الغيب حدثنا
وكم بدا عاقل يوما وليس له
وكم نظرت لوجه ليس في بدن
ورب ناظم أشعار وليس له
ومسك بيديه النجم يقلعه
ولابس وهو عار لا رداء له
وعابدين من المحراب قد هربوا
ومدبرين وما ولوا ولا اجترموا
وصالحين رأيت الخمر عندهم
وسالحين وما زالت طهارتهم
ونازلين بأرض قد أصابهم
وتابعين إماما وهو من خشب
عجائب ما لها حد فقل وأطل
كأنها لابن يعقوب صفات علا

وذى ذكاه رأيناه من الخمر
فسكر وليس بمنسوب إلى البشر
وكم سمعت بصخر ليس من حجر
شعر فهل مثل هذا سار في السير
وليس للمرء نيل الأنجم الزهر
كسوته أطلسا من أخشن الشعر
ترى المسيح يوافقهم على قدر
وينسبون بلا شك إلى دبر
قد حللوه بلا خوف ولا حذر
وآمنين وقد أمسوا ذوى خطر
غيم بلا بلل والقوم في مطر
وقد يؤنث في وصف وفي خبر
إن شئت أو فاق تصد في القول واقتصر
لذلك إحصاؤها أعيان على البشر^(١)

ومن حوافزهم إلى نظم الشعر الرغبة في التسلية وقطع وقت الفراغ فيما يقضى حاجة النفس من الفن . لقد تعلقت شاعريتهم بهذا الحافز أيضا ، وتوسلت به إلى حياتها واطراد نموها . ووجدوا من الخير أن يملثوا فراغهم بعمل فى يكون مسلاة لهم وملهاة . فلم ينصرفوا فى أوقات فراغهم إلى ما ينصرف إليه عامة الرجال من لعب ولهو ، وبخاصة أننا عرفنا أنه لم يكن وراء الشعر ما يغرى ، وما كان لنا أن نحمل على شعراء انصرف عنهم زمانهم فى جدتهم ، فانصرفوا عنه فى لهوهم . ولسكن الشعراء اتخذوا اللهو وأوقاته مطية إلى مناجاة الفن ووسيلة

إلى محرابه . لقد عمدوا إلى قطع الفراغ بأبيات من الشعر ينظمونها ، أو مقطوعات ، أو قصائد مطولة ، يضمنونها سائحة سنحت لخواطرهم ، أو هاتفة أهابت بنفوسهم ، أو شاردة عبرت فأمسكتها مخيلتهم ، من فكرة جميلة ، أو وصفة مبتكرة ، أو صورة ساحرة ، أو تشبيهة طريفة . أو تورية لطيفة أو غير ذلك . وكانت هي بعد ذلك ، دليل على ما يتسلون به في أوقات فراغهم السكثيرة .

ولا خرج على المواهب إذا هي تنفست في فراغها فعبثت أو جدت ، والتست بينها وبين نفسها في خلوتها حرية كاملة وطلاقة . ما دامت لا تجد مراحاتها الطبيعية ميسرة ، وميادينها الضرورية متاحة . ولعل ما تجود به الخواطر حينذاك لا يعوزه الصدق ولا حرارة الإيمان . وهو هو في صدقه وحرارته رجع البيئة ووليد ظروف المجتمع وإن كان أدل على النفس وعاطفتها .

لقد سار شعراء العصر على هذا الدرب . وفي غضون تسلياتهم وتلهيهم ، تفككوا وداعبوا وماجنوا وتشاكوا ، وتغزلوا وطارحوا ، وساءلوا ، وحاجوا ولاغزوا ، إلى غير ذلك من ألوان العبث البديع الذي أثرى الشعر من ورائه ثروة كبيرة . مما سنعرض عليك بعض آثاره ، في سطور تالية .

وتمكنوا في فراغهم وتسليتهم أن يكونوا أكثر امتزاجاً ببيئتهم وأشياءها . وبذلك صاروا أكثر خبرة بها وتجربة لها ، سواء في ذلك جليلها وحقيرها ، بديعها ووديعها ، ونابها وتافها . فوصفوا هذا وذاك وصفافيه لطف وطراقة .

وقد حدث شهاب بن فضل الله العمري قال عن دير « بلوزان » :

« مررت عليه . ونزلت إليه . ورأيت به غلاما يفوق الظبي حسنا . ويشبهه البدر أو أسنى . بخصر نحيل . وطرف كحيل . قد قطع الزنار بين خصره وردفه . ونفث السحر بين جفنه وطرفه . ثم ما كان بأعجل مما استتر بدره . ولاح ثم خفي فجره فقلت فيه :

حبذا الدير من بلوذان دارا . أى دير به وأى نصارى
 فيهم كل أحور الطرف أحوى فائق الحسن فى حياء العذارى
 وغلام رأيت ككهلل ما بدا للعيون حتى توارى
 بقوام إذا تمايل نشوا نافألحاظ مقلتيه سكارى
 ناكل العقد حل عقد اضطبارى عندما شد خصره الزنارا
 قبل رؤياه ما رأيت غزالا بات يسقى من مرشفيه العقارا (١)

هذه أبيات عذبة وهذا تشبيب رقيق . وصورة من صور الحياة فى العصر .
 وثمره من ثمار وقت الفراغ . ومظهر من مظاهر ضعف الوازع الدينى
 والانحلال الخلقى الذى تفشى نتيجة لإباحة الرقيق واستخدام الغلمان وغير
 الغلمان . .

وقد حدث أيضا شهاب الدين بن فضل الله العمرى فقال فى سياق حديثه
 عن دير « شعران » .

« حكى أن السراج الوراق مر على « دير شعران » فى حدود طرا من
 ضواحي القاهرة . فنزل به فرأى به جماعة من أودائه على راح تقدح لهم أقداحها .
 وتهدى إليهم أفراحها . وكان السراج قد طفئت فتيلته من شعلة ذلك اللهب .
 ونسكرت قافيته ذاك الذهب . فأتاه بها الساقى فردها . وواصلته فى الكأس
 فصدها . هذا حين نكس السكر سعدته . وأنفذ العمر مدته . وذكر بجلسائها
 فقد إخوانه . وذهاب زمانه . فلامه من حضر إذ صد عن الكأس . وقال أمالك
 أسوة بهؤلاء الجلاس ؟ فقال :

عجب الساقى لردى القدحا ولامر فى التصابى قدحا
 وأتانا بحميا كأسه حيث جئنا دير شعران ضحا
 قلت : يا قرة عيني ربما غض طرف بعد ما قد طمحا

لم أكن أول ولهان سلا . لا ولا أول نشوان صحا
أشرب الراح أرجى فرحا . فيتيح الحظ منها ترحا
سوء حظى لو رمى الصبح دجا . أو رمى ليل عذار وضحا
ونحول منطق بالشم لي . من أرى دهرى له ممتدحا
زاد في سبي إلى أن خلته . شهد الله به قد سبحا
أنا ما ذنبى لحي الله امرأ . لام في التوبة مثلى ولحي
ياندى أنت للراح فدعنى . أنزع الدمع إلى أن أنزحا
هى أوقات وكل آخذ . من صفها أوقاته ما سمحا (١)

هذه قطعة شعرية جزلة رقيقة عذبة جيدة من نفثات الوراق . بل هى حكاية
نفس وقصة حياة ورجوع مشاعر . وهى طرفة من طرف أوقات الفراغ
والتسلية والشيخوخة وما تدفع إليه أحيانا من زهادة .

وأثار الشعراء فيما بينهم نائرة المنافسات الأدبية ، فكانت حافزا آخر من
حوافز شاعريتهم ودافعا من دوافع إقبالهم على نظم الشعر ومزاولة الفن . لقد
اتخذتها الشاعرية ، فيما اتخذته ، إحدى وسائلها إلى الحياة والعمل .

والمنافسة عامل ضرورى لقيام أى عمل ، حتى الأعمال الفنية . ومن حسن
الخط أن اتسع أفق المنافسات الأدبية فى عصر المماليك ، بدافع من الحوافز
الأخرى . فقد كان كثير من الشعراء متواصلين تربط بينهم المودة ، فتراسلوا
بالأشعار ووصفوا فيها العواطف والمشاعر والشوق والحنين ، ووصفوا
الآمال . وقد تقع بينهم الجفوة فيبادلون العتاب والملاحاة ويعجلون إلى الشكاية
أو المشاكاة .

ويطرقون فى خلال مراسلاتهم صنوفا من الأغراض وأشتاتا من

الموضوعات ، ويعمدون إلى الإجادة ويحاولون الابتكار تنبيها على مقدرتهم وتنويعها بشاعريتهم . فتمت بذلك بينهم روح المباراة والمنافسة ، سواء منهم المرسل أو المرسل إليه ، لأنه بدوره يرد ويحاول في رده ما حاوله زميله في رسالته . ومن هنا حظيت المعارضة والمطارحة والمساءلة والملاغزة والمحاكاة والمداعبة والمماثلة ونحوها ، بنصيب وافر من عناية الشعراء وإجادتهم وإكثارهم .

وينساق بعضهم في خلال إخوانيته ، إلى وصف حالة ، أو تسجيل حادثة ، أو مقارضة ثناء ، أو نحو ذلك . ويبالغ في الوصف ويغلو في المدح حتى يظفر بنصيب مماثل - على الأقل - من زميله في الرد .

وكان ولوعهم باليديع وصناعته تكأة كبيرة ، أذكت بينهم عوامل المنافسة الأدبية ومحاولة الإجادة . وكان الحال أنه ما من خاطر من خواطرهم يقع على معنى أو فكرة أو تشبيه أو كلمة تصلح أن تسبك في قالب من قوالبه حتى يتسابق بل حتى يتواكب إليها كثير من الشعراء ، ويتلففوها في لفظة وعجلة ، وينظموها في أبيات أو مقطوعة .

وقد ينساق بعضهم بحكم هذه المنافسة والرغبة الجامحة في السبق والإجادة ، إلى الوقوع في السرقة . فيسرق اللفظ والمعنى ، أو أحدهما أو بعضهما ، ويزيد عليه أو ينقص منه ، ويحسن فيه أو يشوه . وسنحدثك في مناسبة قادمة عن بعض هذه السرقات .

وقد لمحت - ولا شك - ألوانا ووقائع من هذه المنافسات ونتائجها فيما مر .

ومن المنافسات ما وقع بين ابن نباتة ومن عارضه في بعض قصائده . وما جرى بينه وبين الحلبي من مباحة .

واشتدت المنافسة بين ابن نباتة ومعاصره وصديقه صلاح الدين الصفدي . وسطا الصفدي على كثير من أبيات ابن نباتة حتى ضج ابن نباتة وألف في ذلك

كتابته « خبز الشعير ، لأنه مأكول مذموم . أفصح فيه عن سرقات الصفدى منه .
فلما وقعت الجفوة بين الأديبين الكبيرين بسبب المنافسة فى الصناعة ، عاتب
الصفدى صديقه ابن نباتة عتاباً مرأ . فنظم إليه قصيدة ضمنها أعجاز معلقة
امرىء القيس ، فأخرج هذه الأعجاز - فى لباقة وكياسة - من طريقها فى المعلقة إلى
طريقها فى المعاتبة . وهذا الإخراج أحد فنون الشعر .

ومن قصيدة الصفدى قوله :

أفى كل يوم منك عتب يسوءنى بجلود صخر حطه السيل من عل
وترمى على طول المدى متجنياً بسهميك فى أعشار قلب مقتل
فأمسى بليل طال جنح ظلامه على بأنواع الهموم ليبتلى
وأعدو كأن القلب من وقدة الجوى إذا جاش فيه حميه على رجل .. إلخ
وقد رد عليه ابن نباتة عتاباً رقيقاً ، فى قصيدة من الوزن والروى والتضمين ،
فقال :

فطمت ولائى ثم أقبلت عاتبا أفاطم مهلاً بعض هذا التدل
بروحى ألفاظ تعرض عتبها تعرض أثناء الوشاح المفصل
فأحييت ودا كان كالرسم عافيا بسقط اللوى بين الدخول فحومل
تعنى رياح العذر منك رقومه لما نسجتهم من جنوب وشمأل .. إلخ (١)

ومن المنافسات ما نظمه شعراء مصر فى عهد الأشرف الغورى ، رداً على
بيتى الشاه إسماعيل الصفوى اللذين أرسلهما تهديداً لمصر فتنافسوا فى الرد عليهما ،
وتبارى فى ذلك نحو مائتى شاعر . وسنحدثك قريباً عن هذه الواقعة .

وفى عهد الملك المؤيد شيخ تمت عمارة مسجده المشهور بالقاهرة . وكان الناظر

عليها بهاء الدين بن البرجى . واتفق بعد بنائها بسنة واحدة أن مالت مؤذنتها التي كانت على البرج الشمالى لباب زويلة . فتبارى الشعراء فى تسجيل هذه الحادثة ، وفى تعليلها ، وفى التفكه بها .

فقال تقى الدين بن حجة الحموى مع جناس التورية ، وفيه إشارة إلى الناظر بهاء الدين بن البرجى .

على البرج من بابى زويلة أنشئت منارة بيدت الله للعمل المنجى
فأخنى بها البرج اللعين أمالها ألاصر حوايا قوم باللعن للبرج «جى»
وقال شهاب الدين بن حجر العسقلانى ، مع جناس التورية أيضاً ، وفيه إشارة إلى بدر الدين العيني :

لجامع مولانا المؤيد رونق منارته بالحسن تزهو وبالزين
تقول وقد مالت عن القصد أمهلوا فليس على جسمى أضر من العين «العيني»
فقال بدر الدين العيني ، وفيه إشارة إلى ابن حجر . .

منارة كعروس الحسن إذ جليت وهدمها بقضاء الله والقدر
قالوا أصيبت بعين قلت ذا غلط ما أوجب الهدم إلا خسة الحجر (١)

ورفعت الخواطر وتزاحمت الشعراء على وصف الروضة ودولابها ، لإجادة التورية فى «ضاع» و «دار» ...

فقال مجير الدين بن تميم .

أيا حسنهما من روضة ضاع نشرها فنادت عليه فى الرياض طيور
ودلابها كادت تعد ضلوعه لكثرة ما يسكى بها ويدور
وقال بدر الدين بن أواؤ الذهبى .

(١) القصة والأبيات فى بدائع ابن إياس ج ٢ ص ٧ ط بولاق - وحسن المحاضرة لـديوى

وروضة دولابها إلى الغصون قد شكا
من حين ضاع نشرها دار عليها وبكى

وقال جمال الدين بن نباتة المصري :

وناعورة قسمت حسنهما على واصل وعلى سامع
وقد ضاع نشر الربا فاعتدت تدور وتبكي على الضائع^(١)
وسيرد عليك فيما يلي ، وعند الحديث عن طبقات الشعراء وكثرتهم ، أمثلة
أخرى لمنافساتهم .

وبعد فهذه عدة حوافر هيأتها البيئة الاجتماعية بسياقها ومنطقها ، لمواهب
الشعراء فتعلقت بها وتشبثت . واتخذت منها وسائل ودعائم تعيش عليها وتنهض
وتنشط . إلى جانب ما هيأته لها البيئة الثقافية وغيرها ، مما سبقت إشارتنا إليه .
ونعود إلى التنبيه على أن ألوان البيئة كلها متعاونة متضافرة دائماً على توجيه
الموهبة الشعرية ، ولا نستطيع بالضبط أن نحكم بأن اتجاهها معنا تنتجه هذه
الموهبة ، ونتاجا معنا تنتجه ، هو وليد لون معين من ألوان البيئة دون سواه .
إلا أن بعض الاتجاهات وضروب النتاج ، تبرز فيه آثار بيئة معينة ، أحيانا ،
أكثر من بروز آثار بيئة أخرى .

وفي الفصول السابقة جميعاً تراءت لنا بلاريب ، جهود كثير من شعراء
العصر . مما يثبت لنا أيضاً سعة يقظتهم الفكرية والنفسية ، وضخامة نتاجهم في
نواحي الشعر وفنونه . وسرعة استجابتهم لألوان البيئة في زمانهم ، حتى إنه
لا يعيب الباحث - كما شهدنا في هذا البحث - عن أن أن يلتبس هذه البيئات في
نتاجهم .

(١) كشف اللثام لابن حجة الحموي.

وأعتقد أنه قد آن الأوان الآن في هذا البحث ، لننوه في إيجاز عن هؤلاء الشعراء الذين دللوا بوضوح على شاعرية مصر ، وعلى أن أرضها الطيبة مستعدة دائماً لأن تلد الشعراء . وأن تلد منهم عدداً كبيراً ، وأن توحى إلى كثير منهم من قوة الفن وصفاء النفس ويقظة الفكر وحسن البيان ، ما يخلد مآثرها ويسجل حوادثها ويكون مرآة لحياة أهلها .

كثرة الشعراء وطبقاتهم :

أجل ، لا أدل على طيب أرض مصر العربية ، وقوة خصبها وجمال ما توحى به إلى أبنائها ، فتمتز به مشاعرهم ، وتفيض به خواطرهم ، وتلهج به ألسنتهم ، من هذه الكثرة من شعرائها في عصر المماليك - بالرغم مما عانوه من المعوقات والمضطبات - ومن كثرة ما أنتجوه في مجالاتهم الفنية ، وما نوعوه في اتجاهاتهم الشعرية .

وإنك لتجد في كل جيل من أجيالهم جمهرة كبيرة منهم تلاحق كل طبقة منها ما يليها ، في تواصل مستمر وتواصل دائم . حتى ليخيل إليك أن البلاد رياضهم عنادها ، وبسانينهم أطيارها وبلا بلها . لا يفتنون يغردون بما تهمس به في خواطرهم من أغان ومن أهازيج وألحان ، بقيت وستبقى على تتابع الأزمان وتقلب الحدثان .

انظر إلى عهد الناصر محمد بن قلاوون - مثلاً - وأحص عدد من عاش فيه أو أدركه من الشعراء - وقد امتد عصر الناصر من سنة ٦٩٣ هـ إلى سنة ٧٤١ هـ - تجد منهم عشرات . من بينهم النابه المجيد ، والبارع المبتكر المجدد ، وفيهم المنتج المكشور . ومن هؤلاء في مصر والشام :

تاج الدين الأرميني . زين الدين بن الرعاد . جلال الدين الإسفاني . القيسراني .
عبد العزيز بن محمد . ابن دانيال الموصل . نصير الدين الحماني . شمس الدين بن

العفيف . علاء الدين الوداعي . قطنبه . ابن هبة الله الأصفهاني . السمهودي .
شمس الدين بن الصائغ . المازني الدهان . بدر الدين بن جماعة . شمس الدين بن
المشهد . بدر الدين دمشقي . مجير الدين بن الخياط . القيسراني . إسماعيل بن محمد .
شرف الدين البارزي . العكوك المصري . زين الدين بن الوردى . صفى الدين
الحلى . أبو بكر بن اللبانة . وبدر الدين الغزى الزغارى . جمال الدين السبكى .
صلاح الدين الصفدى . جمال الدين بن نباتة المصرى .

وذكر تقي الدين بن حجة الحموى شعراء مصر والشام الذين أجادوا التورية-
والتورية اتجاه أسلوبى وليد الحياة الاجتماعية — بعد القاضى الفاضل وابن سناء
الملك المصرى . فأورد منهم من شعراء العصر المملوكى إلى عهده :

الوراق . والجزار . والنصير الحماسى . وابن النقيب . وابن دانيال . وابن
عبد الظاهر . وشرف الدين الأنصارى . ومجير الدين بن تميم . وبدر الدين
الذهبي . ومحيى الدين بن قرناص . وشمس الدين بن العفيف . وسيف الدين بن
المشهد . وعلاء الدين الوداعي .

وبعد أن أورد ابن حجة طوائف عدة من توريات ابن نباتة ، قال :
« انتهى ما وقع عليه الاختيار ووعدت بإبراده من غرائب الشيخ جمال
الدين بن نباتة وبدائعہ فى باب التورية ، على اختلاف أنواعها .
وقد تقدم قولى إن الراية الفاضلية هو عرابة مجدها وواسطة عقدها وقائد
زمامها ومسك ختامها . وقدمت أيضا من مشى تحت الراية الفاضلية من ابن سناء
الملك إلى الوداعي .

ولما رفع العلم النبائى كانت هذه الفرقة التى مشى تحت هذا العلم أكثر عدداً
وأشهر ذكراً ، وأعلى رتبة ونظماً ونشراً .

وقد عن لى أن أذكر هنا لى من عاصره ومشى تحت علمه النبائى وتحلى

بنسكته الأدبية نبذة من مختار مقاطعته التي حلاوتها في الأصل نباتية ، ليظهر صدق قولى فى تفضيل الصحابة المحمدية .

وأشرع بعد ذلك فى إيراد نبذة من نظم التابعين لهم بإحسان ، وأدير هذا السكاس بحيث يتسلسل دوره إلى أهل هذا العصر والأوان .

والعصابة التى مشيت تحت العلم النبائى وتحملت بقطر نباته هم :

الشيخ صلاح الدين الصفدى . والشيخ زين الدين بن الورذى ، والشيخ برهان الدين القيرطى - ومذهبه أنه أقرب الناس إلى الشيخ جمال الدين نظما ونثرا - والشيخ شمس الدين بن الصائغ والشيخ بدر الدين بن الصاحب ، والشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى ، والشيخ إبراهيم المعمار ، والشيخ بدر الدين حسن الزغارى ، والشيخ يحيى الخباز الحموى ، والشيخ شهاب الدين الحاجبى .
وعمر أدركهم وعاصروهم المصنف - أى ابن حجة - وكتبوا إليه وكتب إليهم ، وأنشده وأنشدوهم من أهل مصر والشام

الشيخ زين الدين العجمى عين كتاب الإنشاء الشريف بالديار المصرية ، والقاضى فتح الدين بن الشهيد صاحب دواوين الإنشاء الشريف بدمشق المحروسة وناظم السيرة النبوية . نور الله ضريحه . والشيخ عز الدين الموصلى . والشيخ علاء الدين بن أيمك الدمشقى . والشيخ جلال الدين بن خطيب داريا ، والشيخ شمس الدين الرئيس الشهير بابن المزين ، والشيخ نحر الدين بن مكائس وولده الجناب المخدومى المجدى . وسيدى أبو الفضل بن أبى الوفاء - قدس الله روحه . ولما سكن ما رأيته . الشيخ شرف الدين عيسى الشهير بعويس . والشيخ شهاب الدين بن العطار ، ولما سكن ما حضرته ، والشيخ جمال الدين ولما سكن ما رأيته ، وصاحبنا الشيخ شهاب الدين المتنبى المصرى .

والفرقة التى أطال الله بقاءها وأمست قواعد الأدب بها قائمة . وختمت

بهم هذه الطريقة البديعية وأخلصوا في العمل ففازوا في الحالتين بحسن الخاتمة وهم :

القاضي بدر الدين بن الدماميني المالكي المخزومي - فسمح الله في أجله - والشيخ الإمام الحافظ العلامة شهاب الدين بن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى والشيخ بدر الدين البشتكي رحمه الله تعالى ، (١) .

ثم روى ابن حجة أبياناً لسلك شاعر من ذكرهم هنا على سبيل التمثيل .
وهكذا سجل لنا ابن حجة الحموي - وهو المتوفى عام ٨٣٧ هـ - طبقات من شعراء مصر والشام متتابعة ، من لدن القاضي الفاضل حتى زمانه .
والذي يهمنا في هذا المقام من سجلهم من طبقات الشعراء في عصر الماليك .
وقد ذكر منهم من تقدم على جمال الدين بن نباتة . ثم من عاصره ، ثم من جاء بعده في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري ، ثم من عاصرهم ابن حجة نفسه . فهذه أربع طبقات .

وننبه إلى أنه عني بذكر شعراء التورية فحسب ، لا جميع الشعراء . أما جميع الشعراء فهم أوسع عدداً من ذكر - ولا ريب - على أنه عني بذكر المشاهير دون المناكير ، فضلاً عما يلهو عنهم ويسهو عن ذكرهم ، فضلاً عما قد لا يصل خبرهم إليه .

ولا ندرى أي عدد كان يسجله ابن حجة ، ونظفر به منه ، لو أنه لم يتقيد بشعراء التورية ، وسجل أسماء الشعراء في كل فن من فنون الشعر ، وجادته ذا كرتة وتهاتت إليه الأخبار بأسمائهم جميعاً .

على أن فيمن ذكرهم مقنعاً لنا بما ذهبنا إليه ، وهي أن بلادنا هذه استطاعت في عصر ركبت فيه دواعي الاشتغال بالأدب والشعر ، أن تنجب وتلد عدداً

كبيراً من هؤلاء الأبناء الفضلاء الذين خلدوا بنتاجهم أنباء إنجابه ومجاداته .

وإليك شاهداً آخر على صدق مانقول ، وهو مارواه ابن إياس في تاريخه ،
قال مانصه :

« كان بالقاهرة سبعة من الشعراء اجتمعوا في عصر واحد ، وكل واحد يدعى
بشهاب فكان يقال : « السبعة الشهب » . وهم : الشهاب بن حجر رحمة الله عليه .
والشهاب بن الشاب التائب ، والشهاب بن أبي السعود ، والشهاب بن مبارك شاه
الدمشقي . والشهاب بن صالح . والشهاب الحجازي . والشهاب المنصوري .

فلما مات الستة رثاهم الشهاب المنصوري بهذه الأبيات :

خلت سماء المعاني من سنا الشهب	فلآن أظلم أفق الشعر والأدب
تقطب العيش وجها بعد رحلة من	تجانبوا بالمعاني مركز القطب
تعطلت خرد الأيام من درر	كانت تحلى بهامهم ومن ذهب
لو تعلم الأرض ماذا ضمنت بطرت	بهم كما يبطر الإنسان بالنسب
ولو درى المسك أن الأرض قبرهم	لود نشقة عرف من شذا الترب ، (١)

أقول : ومن هؤلاء من أدرك عصر الأشرف قايتباي ، وقد كانوا في القاهرة ،
جمعهم سماؤها كما جمعهم لقبهم . وإذن فيكم كان في القاهرة من الشعراء غيرهم ممن
لا يدعى « شهاب الدين » . ثم كم كان غيرهم في غير القاهرة .

على أن ابن إياس يقدم إلينا دليلاً آخر ومثلاً جديداً قوى الحججة بارز
البرهان . إذ يقول في مناسبة أخرى ماجمله : - وكان ذلك في عهد الأشرف
قانصوه الغوري :

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٦ ط بولاق .

« إن إسماعيل شاه بن حيدر الصوفي ، لما تمكن أمره في بلاد فارس
والعراق ، وقتل ملك التتار أذربك خان . أرسل إلى مصر بيتين من الشعر يهددها
بهما وهما :

السيف والخنجر ربحاننا أف على النرجس والآس
مدامنا من دم أعدائنا وكأسنا جمجمة الراس

فتبارى شعراء مصر في الرد على هذين البيتين من البحر والروى . وتسابق
في ذلك نحو مائتين من الشعراء .

وقد ذكر ابن إياس بعض هؤلاء الشعراء . ومنهم : ابن إياس . والسلموني ،
ومحمد بن قانصوه . والأشموقي ، وابن الحجار ، والشربيني ، وعلى الغزي ، وابن
العاقل ، والشريف العباسي ، وشهاب الدين البحيري المالكي ، وناصر الدين بن
الطحان . وموسى بن بقسمطة ، وفور الدين بن حشيش ، ومحمود الحلبي .

وسجل ابن إياس شيئاً مما رد به الشعراء على بيتي الشاه إسماعيل :
فقال الأشموقي :

يراعنا الرمح وقرطاسنا صدر عدو منكر الباس
مدادنا من دمه خطنا تاريخ طعن مذكر الناس
وقال ابن الحجار :

ياقائلا أف على نرجس أف على الباغى على الناس
فإن خير الناس من لا يرى شرب دم المسلم في الكاس
وقال الناصري محمد بن قانصوه :

العدل والحلم لناحلة حيكمت مع القوة والباس
وسنة المختار طرز لها وذكرنا تاج على الراس (١)

(١) بدائع الزهور ج ٥ حوادث ربيع الأول عام ٩١٧ هـ .

وعلى هذا النمط كانت ردود الشعراء ، لقد هبوا يذودون عن مصر ،
ويدفعون عدوها بسلاح أمضى من سلاحه ، ويذكرونه بمفاخرها وقوتها وبأسها .
ويتنافسون في أداء هذا الواجب تنافسا قويا .
وشاهدنا هو هذه الكثرة النشيطة من الشعراء ، الذين ظهروا في مناسبة
واحدة . فبلغ عددهم مائتين .

وقد كانت السلطنة المصرية — كما ذكرنا آنفا — ممتدة الرقعة واسعة النطاق
تشمل البلاد المصرية والشامية والحلبية والحجازية . وكان الاختلاط بل الامتزاج
مستديما ومطرداً بين أهل مصر والشام . وكانت الصداقات وشتى العلاقات من
إخوانية وغيرها تربط بين شعراء مصر والشام . وكانت رحلات العلماء والأدباء
والشعراء لا تنقطع بين البلدين ، وكان من النادر أن ترى أحدهما لاه الأعلام من
بلد منهما ، لارحلة له إلى البلد الآخر . ولهذا يندر أو يصعب عليك أن تميز في هذه
الحقبة بالذات ، شعراء مصر من شعراء الشام ، وهذا جمال الدين بن نباتة
شاعر مصر يمم الشام وحماة زمنا وأقام فيهما ، وهذا تقي الدين بن حجة الحموي
شاعر حماة وأديبها يمم شطر مصر وأقام بهار دحا . وهكذا دواليك . واعتقادنا
أن شعراء الشام حينذاك أفادوا من أدب مصر وثقافتها وكان لذلك أثر في شعرهم ،
في الجملة ، كما تبين من حديث ابن حجة عن شعراء التورية .

ونستطيع بعد ذلك ، القول إن هذا العصر شهد عددا من شعراء مصر
والشام ، ضخما ، ويتألف من كل طائفة متعاصرة منهم في جيل واحد ، رجال
حلبة واحدة . وماتكاد تنقضى حلبة برجالها حتى تتراءى حلبة أخرى .

وتتبع الحلبة منها الحلبة ، دون أن تمر بين الحلبتين فترة ركود أو برهة خمود .
ويكاد يكون لكل واحدة منها زعمائها ومقدموها ، بل وأميرها الذي يدينون
له بالإمارة . .

ويشهد لذلك ما قاله شهاب الدين بن حجر العسقلاني الإمام الحافظ والأديب الذواقة الشاعر ، لما حكمه تقي الدين بن حجة الحموي في قصائد تائية ثلاث من قصائد المعارضات ، أولاها لابن نباتة المصري ، وثانيها لبرهان الدين القيرواني ، وثالثها لتقي الدين بن حجة نفسه - وقد فوهنا بذلك في مناسبة سابقة .

وقد حكم ابن حجر بينها جميعا ، وقال في عداد حكمه مانصه عن أصحاب القصائد الثلاث :

« إن كلا من الثلاثة رأس الفن في زمانه ، ولا يوازنه أحد من أقرانه ، (١) والواقع أن العصر المملوكي - بين مصر والشام - شهد ست حلقات من الشعراء متعاقبة ، تتصل إحداها بالآخرى . وذلك على أساس احتساب حلبة واحدة لكل نصف قرن .

ونستطيع ترتيبها على وجه التقريب ، كما يلي ، ذاكرين بعض رجال كل حلبة منها على سبيل التمثيل ، لا الحصر :

الحلبة الأولى :

وهي الحلبة المخضمة التي شهد كثير من رجالها عهد الأيوبيين وأوائل عصر المماليك . ويعتبر محي الدين بن عبد الظاهر (٦٩٢ هـ) ، رأسها . ومن رجالها ، بين مصر والشام :

سيف الدين المشد (٦٥٥ هـ) . عبد العزيز الأنصاري (٦٦١ هـ) . أبو الحسين الجزار المصري (٦٧٩ هـ) . (٢) بدر الدين يوسف الذهبي (٦٨٠ هـ) . مجير الدين بن تميم (٦٨١ هـ) . محي الدين بن قناص الحموي (٦٨٥ هـ) ، الشاب الظريف (٦٨٨ هـ) . ظهير الدين البارزي (٦٨٨ هـ) . ناصر الدين بن النقيب

(١) تأهيل الغريب وخزانة الأدب .

(٢) ذكر ابن حجة في كتابه « كشف اللثام » أن وفاة أبي الحسين الجزار كانت عام ٦٧٢ هـ .

٦٨٧ هـ . معين الدين بن لؤلؤ الفهرى المصرى ٦٨٥ هـ . أبو جلتك الحلبي
٦٩٢ هـ . تقي الدين السروجي ٦٩٣ هـ . سراج الدين الوراق ٦٩٥ هـ .
شرف الدين البوصيري ٦٩٥ هـ . مجد الدين الإربلي ٦٩٧ هـ .

الحلبة الثانية :

وهي التي عاش أكثر رجالها في النصف الأول من القرن الثامن الهجري ،
أو أدركوه ، أو قضوا فيه أطيب أيام حياتهم : ويعتبر جمال الدين بن نباتة
المصرى ٧٦٨ هـ . وصفي الدين الحلبي ٧٥٠ هـ ، زعيمى هذه الحلبة . ومن
رجالها :

صدر الدين بن الوكيل ٧٠٥ هـ . (١) شمس الدين بن دانيال الموصلى
٧١٠ هـ . نصير الدين الحمamy ٧١٤ هـ . شمس الدين محمد بن العفيف ٧١٥ هـ .
علاء الدين الوداعي ٧١٦ هـ . شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي ٧٢٥ هـ .
مجد الدين بن الخياط ٧٣٥ هـ . شمس الدين الواعظ الواسطي ٧٤٤ هـ .
فتح الدين بن سيد الناس اليعمرى ٧٤٠ هـ . أبو حيان النحوى ٧٤٥ هـ .
جمال الدين بن غانم ٧٤٤ هـ . شهاب الدين بن فضل الله العمرى ٧٤٨ هـ .
زين الدين بن الوردى ٧٤٩ هـ . إبراهيم المعمار ٧٤٩ هـ . أبو بكر بن اللبانة
٧٥٢ هـ . بدر الدين الزغارى ٧٥٣ هـ . صلاح الدين الصفدى ٧٦٤ هـ .
نور الدين الإسعردى ٧٦٦ هـ .

وهذه الحلبة هي التي شهد رجالها عصر الناصر محمد بن قلاوون ، وقد سبقت
الإشارة إليها . وتعتبر أملاً حلبيات عصر المماليك بالرجال ورجالها أجد رجال
الحبات في جملتهم ، كثرة نتاج وجودة إخراج وتنوع افتنان ، وتعدد ألوان .
وحسبك أن من بينهم ابن نباتة ، والصفي الحلبي ، وابن الوردى ، وابن فضل الله
العمرى ، والصلاح الصفدى ، والشهاب الحلبي ، والعلاء الوداعي .

(١) ذكره ابن شاكر في فوات الوفيات ، وحدد وفاته بعام ٧١٦ هـ . ويقال له أيضا « ابن المرحل » .

الحلبة الثالثة :

هى التى ظهر أكثر رجالها فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى . وهى وثيقة الاتصال بسابقتها . ويعتبر برهان الدين القيراطى « ٥٧٨١ » ، علم هذه الحلبة . ومن رجالها :

بهاء الدين أبو حامد السبكى « ٥٧٧٣ » ، شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى « ٥٧٧٦ » . نور الدين على بن سعيد المغربى « ٥٧٧٨ » . بدر الدين بن حبيب الحلبي « ٥٧٧٩ » . أحمد سميكة « ٥٧٨٢ » . بدر الدين بن الصاحب « ٥٧٨٨ » . عز الدين الموصلى « ٥٧٨٩ » . نخر الدين بن مكائس « ٥٧٩٤ » . شمس الدين بن الصائغ « ٥٧٩١ » . شهاب الدين بن العطار « ٥٧٩٤ » . إبراهيم المعمار « ٥٧٨١ »^(١) .

ومن رجال هذه الحلبة : زين الدين الحلبي ، ويحيى الخباز الحموى ، وشهاب الدين الحاجبى .

الحلبة الرابعة :

هى التى ظهر أكثر رجالها فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى . وهى آخذة عن سابقتها ووثيقة الصلة بها أيضا . ويعتبر تقي الدين بن حجة الحموى « ٨٣٧ » ، رأس هذه الحلبة . ومن رجالها :

شهاب الدين الأوحدى « ٨١١ » . ابن خطيب داريا « ٨١٣ » . شهاب الدين الباعونى « ٨١٦ » . برهان الدين القرشى المعروف بابن زقاعة « ٨١٦ » . شهاب الدين السكاسى « ٨٢٥ » . الآثارى « ٨٢٨ » . غرس الدين خليل القاهرى « ٨٤٣ » . ابن الخراط « ٨٤٠ » . شهاب الدين بن بكتمر « ٨٤١ » . برهان الدين البهنسى « ٨٤٦ » . شمس الدين بن كميل « ٨٤٧ » . شمس الدين النواجى « ٨٥٩ » . شهاب الدين بن حجر العسقلانى « ٨٥٢ » .

(١) هذا على رأى من يؤرخ وفاته بعام ٧٨١ هـ .

ومنها زين الدين العجمي . فتح الدين بن شهيد . علاء الدين بن أيك .
شمس الدين بن المزين . مجد الدين بن مكاس . بدر الدين الدماميني . بدر الدين
البشتكي . أبو الفضل بن أبي الوفاء . شرف الدين عيسى الشهير بعويس .
شمس الدين المتنبي المصري .

الحلبة الخامسة :

هي التي ظهر أكثر رجالها في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري . وهي
كذلك شديدة الاتصال بالحلبة السابقة . ويعتبر الشهاب الحجازي « ٨٧٥ هـ »
والشهاب المنصوري « ٨٨٧ هـ » أبرز رجالها . ومنهم :
الشهاب بن الشاب التائب « ٨٦١ هـ » ، الشهاب بن صالح « ٨٦٣ هـ » ، الشهاب بن
أبي السعود « ٨٧٠ هـ » . برهان الدين الباعوني « ٨٧٠ هـ » . غرس الدين خليل بن
شاهين « ٨٧٣ هـ » ، شهاب الدين الميقاتي « ٨٩٧ هـ » .

الحلبة السادسة :

وهي التي عاش رجالها في أواخر العصر وماتوا بعد عام ٩٠٠ هـ ، وشهد عدد
منهم عصر الأشرف الغوري والغزو العثماني . ومن رجالها :
شمس الدين القادري « ٩٠٣ هـ » . بدر الدين بن جمعة « ٩١٤ هـ » . عبد القادر
الدامصي « ٩١٥ هـ » . أبو النجا القمي « ٩١٦ هـ » . علاء الدين بن ملك الحموي
« ٩١٧ هـ » . بدر الدين الزيتوني قيم الزجل « ٩٢٤ هـ » . ومنهم : جمال الدين
السلهوني . الناصري محمد بن قونصوه بن صادق . ابن إياس الحنفي المؤرخ (١) .

(١) تراجع تراجم هؤلاء الشعراء في كتب تراجم الأعلام مثل : الطالع السعيد ثم الدرر الكامنة
ثم الضوء اللامع ثم بدائع الزهور ، تابعا بحسب أجيالهم : هذا فضلا عن الواقى بالوفيات وعقد الجمان
والنهل الصافي .

نتاج هؤلاء الشعراء :

أما نتاج هؤلاء الشعراء فنقول إن لبعضهم دواوين موجودة ما بين مخطوطة ومطبوعة ، ومنهم ابن حجر العسقلاني . والصفى الحلي ، واجمال بن نباتة ، والبرهان القيراطي ، والفخر بن مكانس ، والتقي بن حجة الحموي ، والشهاب العطار ، وابن مليك الحموي .

ولكثير منهم أشعار منشورة في كتب الأدب ، وأغلب الظن أنها لم يجمعها جامع حتى اليوم . ومن هذه الكتب : تأهيل الغريب وخزانة الأدب لابن حجة الحموي ، وغيرهما من كتبه أيضاً . ومنها : تشنيف السمع في انسكاب الدمع ، و « ألحان السواجع في البادي والمراجع » وهما لصالح الدين الصفدي . ويحتوي « ألحان السواجع » وحده على أكثر من اثني عشر ألف بيت من نظم الصفدي وشعراء عصره .

ومن كتب الأدب كذلك : نهاية الأدب للنويري ، وكتب التراجم مثل فوات الوفيات والوافي بالوفيات ، والمنهل الصافي ، والضوء اللامع . وكتب التاريخ العام مثل النجوم الزاهرة وسلوك المقرئ وبدائع الزهور لابن إياس . وغير ذلك من الكتب الأدبية والتاريخية .

وإذا راعينا ما أصاب كتب العلم والدين والأدب على يد العثمانيين ، غلب الغزو وبعد الفتح طوال حكمهم ، سرقة ونهباً وتشقيتاً ، نشعر بأن هناك — ولا بد — كثير من كتب الأدب والشعر ضاعت معالمها ونسيت محتوياتها وجعلت مضموناتاً . ولو علمت وكشف عنها ، لامتد تاريخ الأدب بكثير من النصوص والمعلومات .

ونلاحظ ، ونحن نقرأ تراجم شعراء العصر ، أنباء نتاجهم الشعري ، وأخبار دواوينهم ، مما يقطع بضخامة ما خلفوه منها ، دون أن نعثر له على أثر .

وإليك مثلاً :

الشاعر « يوسف بن سيف الدولة » ، قال السيوطي عنه : « له فضل مشهور وشعر مأثور » ، (١).

والشاعر « شهاب الدين العزازی » ، قال السيوطي عنه : « له ديوان في مجلدين » ، (٢).

والشاعر « برهان الدين الباعوني » ، قال عنه السخاوي : « إنه برع في الأدب نظماً ونثراً وتصنيفاً ، حتى صار شيخ الديار الشامية في الأدب بلا منازع . » وقال أيضاً : « وله ديوان خطب وديوان شعر ، وله كتاب « الغيث الهاتن في وصف العذار الفاتن » ، وفيه نحو ١٥٠ مقطوعة شعرية في وصف العذار ابتكر معانيها . » (٣)

والشاعر « شهاب الدين الأوحدي » ، قال عنه السخاوي : « ونظمه سائر وله ديوان شعر » ، (٤).

وعن الشاعر « غرس الدين خليل بن شاهين الشينخي الظاهري » ، الذي كان مملوكاً للملك الأشرف برسباي : « إنه نظم الشعر وله فيه ديوان » ، (٥).

والشاعر « الآثاري » ، روى عنه السخاوي أن له من المؤلفات ما يربو على الثلاثين . ومنها ديوان في النبويات اسمه « المنهل العذب » ، (٦).

وفي هذا التنويه ما يكفي في مقام التدليل على ضخامة هذا النتاج الشعري .

وبعد ، إننا في هذا الفصل تحدثنا عن بعض الحوافز التي ولدتها البيئة الاجتماعية ، وكان لها أثر كبير في توجيه الشعراء نحو نتاج شعري معين ، وفصلنا القول تفصيلاً مناسباً في هذا النتاج .

(٢،١) راجع حسن المحاضرة تحت عنوان الشعراء .

(٣،٤،٥،٦) راجع الضوء اللامع في تراجم هؤلاء الشعراء .

وليس وحده هو كل ما ولدته البيئة الاجتماعية . ولا كل ما استجاب لها به شعراؤها . فلنبحث الخطأ إذن للتفصيل والإفاضة حتى نعطي لكل ذى حق حقه . ولنتحدث فى أغراض شعرية أخرى هى وليدة المجتمع - كما سبقنا إشارتنا إلى ذلك فى أكثر من مناسبة -

فمن أغراض الشعر :

١ - المديح النبوى :

لا يزال المديح النبوى من لدن الرسول عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا ، يحتل ، باعتباره فنا من فنون الشعر ، مكاناً مرموقاً . لما للممدوح عليه الصلاة والسلام من منزلة عظيمة عندنا معشر المسلمين . ولما له من جليل الأثر فى تعليم الناس وتهذيب البشرية وتبليغ رسالات ربه .

وقد امتزج منذ مطلعته عند الأعشى بالمدح والمنافرة على طريقة الجاهليين ، وكذلك بالغزل والاعتذار عند كعب بن زهير . ولما تسلم حسان بن ثابت راية هذا الفن الجليل مدح الرسول عليه السلام مبهوراً بجلال دعوته ، مسحوراً بجمال رسالته وعظمة عمله . فمدحه مدح المدافع المفدى ، والجندى المضحى فى سبيل قائده وفى سبيل عقيدته .

ثم أخذ هذا الفن بعد صدر الإسلام ، على يد الحكيم وغيره يمتزج بالنزعة السياسية والاحتجاجات المذهبية ، واتخذوه وسيلة إلى نصرة أوليائهم من أهل البيت وتسفيه أعدائهم .

وما زال هذا الفن حتى وافى العصر المملوكى . وقد رأينا كيف كانت النزعة الدينية به طاغية ، وكان لها آثارها الضخمة فى الحياة السياسية ، وكيف غدت العواطف الثقافية ، وكيف عاش المجتمع على دعامة قوية منها . وكيف كانت العناية بارزة ، بدراسة حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبروايته وشرحه .

أضف إلى ذلك حياة الشظف والضنك والحرمان والسكبت التي عاناها هذا الشعب العربي ، في مرتزقه ومعاشه ، ومن أداة حكمه التركية والجركسية ، مما يدعو بعض الناس - ولا ريب - إلى اللياذ بالزهادة ، والجنوح إلى حالة من التصوف ، ونوع من التطرف الديني ، يجد فيه ملجأ وراحة وتفسيراً يخدع به نفسه عن حقيقة الحرمان ويبعدها عن آلامه .

تأثرت نزعات الشعراء بهذا كله ، واستجابوا - أو استجاب كثير من منهم - لذلك وكانت الاستجابة قوية وسريعة وبارزة وواسعة النطاق . وكان المديح النبوي ميداناً واسعاً لهذه الاستجابة ، وتلقف شرف الدين البوصيري « ٦٩٥ هـ » ، هذا الفن ، فنظم فيه مدائحه المشهورة ، ولا سيما قصيدته « البردة » . فنقله نقلة واسعة المدى ، وخلصه من شوائب المنافرات والمفاخرات ، وشوائب السياسة والدعاية . جرده من ذلك ، ونحا به منحى جديداً وهو مزجه بالحب الخالص والوجد الصفو ، واللوعة القلبية الصادقة نحو الرسول عليه الصلاة والسلام . وأساس ذلك تقديس المحبوب إكباراً لعمله وإجلالاً لخلقته وتعظيماً لجمال نفسه ورحابة قلبه . ويتبع ذلك الشوق والحنين إليه وإلى دياره المباركة الشريفة ، ومعاهد رسالته ، وذكر معالم سيرته ، والتودد إليه والاستشفاع به لدى رب العالمين .

وقد ظل هذا النهج دستوراً قائماً حتى يومنا هذا . اتبعه - ولا يزال يتبعه - شعراء المديح النبوي . وما كان أكثرهم وأكثر نتاجهم في العصر المملوكي .

وما من جيل من أجيال الشعر - بعد البوصيري - إلا قد سعد بطائفة من الشعراء ، أبدعوا في هذا الفن ماشاء لهم الإبداع ، وأطالوا فيه ماشاء لهم طول أنفسهم ، وتباروا فيه مباراة الحريص على النصر والظفر ، وعارضوا فيه القدماء والمحدثين فيما نظموا فيه . حتى صار هذا الفن ينتاج الشعراء فيه ، جديراً

بدراسة خاصة مستقلة فيها استيعاب وتفصيل وعمق ، يبين معالمه ويفصح عن اتجاهاته ومبتكراته ، معانى وصناعة .. (١)

ومن هؤلاء الشعراء من اتخذ قصيدة البردة وحدها — بحراً وقافية — نموذجاً له يحتذيه وينظم على نمطه . ويضمنه موارقه من ألوان البديع . ومن ثم تولد فن في الشعر جديد هو « البديعيات » الذي تحدثنا عنه في الفصل الخاص ببيان أثر البيئة الثقافية .

ومن شعراء المديح النبوى فى العصر المملوكى : الشاب الظريف . ومحيى الدين بن عبد الظاهر ، وتقى الدين بن دقيق القشيرى ، وزين الدين بن الوردى . والشهاب محمود الحلبي . وابن أبى حجلة المغربى . وتقى الدين بن بنت الأعز ، والفتح بين سيد الناس اليعمرى . وشمس الدين الباعونى ، وجمال الدين بن نبانة المصرى ، والبرهان القيراطى ، والنواجى ، وشهاب الدين بن حجر العسقلانى . وزين الدين بن الشحنة . والشهاب المنصورى . وعبد العزيز الدرينى والبهاء السبكى ، ونجم الدين الخضر اوى ، وتاج الدين بن عربشاه . وصفى الدين الحلى . وعائشة الباعونية . وعز الدين الموصلى . والتقى بن حجة وغيرهم .

وبعض هؤلاء له أكثر من مدحة ، وبعضهم أطال فى مدائحه وأسهب . وبعضهم نظم فى المديح النبوى ديواناً بأكمله أو أكثر من ديوان .

وعلى سبيل المثال نذكر أن شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى ، ذكر فى مقدمة ديوانه - المخطوط بدار الكتبة المصرية - أنه نظم فى مدح الرسول أربعة دواوين .

(١) للمرحوم زكى مبارك كتيب فى تاريخ المدائح وهو « المدائح النبوية » — وهناك ديوان جمع مئات من هذه المدائح وهو « المجموعة البهائية » .

ونذكر أن فتح الدين بن سيد الناس له فيه ديوان « بشرى اللبيب في ذكرى الحبيب » وهو مرتب على حروف المعجم ومبدوء بقصيدة تعارض « بانث سعاد » . (١)

وقصيدة البردة التي نظمها شرف الدين البوصيري ، كانت طليعة هذا الفن كما ذكرنا . والرؤيا التي رآها البوصيري قبل نظمها وهو مريض ، وتحدث عن رؤيته النبي عليه الصلاة والسلام فيها ، وأنه تقاضاه المديح ، تلقى ضوءاً عند تفسيرها ، على صواب ما قلناه من نزوع بعضهم نحو الزهادة والتطرف الديني بدافع حوادث الحياة - وإن تسكن للبوصيري حالات شخصية فإنما هي نموذج لحالات غيرها كثيرة .

ومهما يكن من شيء ، فالبردة أجود المدائح النبوية التي نظمها البوصيري - ومنها الهمزيمة والمضرية - وأفضلها أسلوباً وعبارة وأجمعها أغراضاً وأروعها أمثالا ، كما أنها أبلغها أثراً في الأدب العربي . وقد اجتمعت فيها أغراض متعددة كذكر ديار الرسول عليه الصلاة والسلام والتشوق إليها والتحذير من هوى النفس ومدح صفات الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذكر مولده ومعجزاته وبخاصة القرآن الكريم ، وذكر الإسراء والمعراج والجهاد ، إلى غير ذلك من حوادث السيرة النبوية الشريفة ، فضلاً عن ذلك التوسل والاستشفاع والمناجاة . ولأول مرة في تاريخ الشعر ، تجتمع هذه الأغراض في قصيدة واحدة بمثل هذا الطول . لقد بلغت عدة أبياتها نحو مائة وستين بيتاً . ويقول البوصيري في مطلعها متشوقاً إلى ديار الرسول عليه الصلاة والسلام :

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضم

فما اعينيك إن قلت اكففاهمما وما لقلبك إن قلت استفق بهم

ويقول في تحذير النفس من الهوى مشيراً إلى الشيب :

فإن أمارتي بالسوء ما اتعظت من جهلها بنذير الشيب والهرم
ولا أعدت من الفعل الجميل قرى ضيف ألم برأسي غير محتشم

ويقول :

من لى برد جماح من غوايتها كما يرد جماح الخيل باللجم
فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها إن الطعام يقوى شهوة النهم
والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفضمه ينفطم

ويقول في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذكر صفاته الكريمة
وأخلاقه العظيمة :

ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى أن اشتكت قدماه الضر من ورم
وشد من سغب أحشاءه وطوى تحت الحجارة كشحا مترف الأدم
ورأودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شم
وأكدت زهده فيها ضرورته إن الضرورة لا تعدو على العصم

وتتخلل القصيدة أبيات بارعة جرت مجرى الأمثال ، لحكمتها ورصانة
نظمها . ومن أمثلة ذلك قوله :

محضتني النصيح لسن لست أسمعها إن المحب عن العذال في صمم
وقوله :

واخش الدسائس من جوع ومن شبع قرب مخمصة شر من التخم
وقوله :

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصيح فاتهم

وقوله :

وقاية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عال من الأطم

وقد أثرى الأدب العربي ثراء كبيرا من وراء هذه البردة ، فإنها - كما نوهنا - فسحت أمامه أفقا جديدا للشعر ، واقتدى بها كثير من الشعراء على مر العصور حتى يومنا هذا ، معارضة أو نظم بديعية . كما أكتثروا من تشطيرها أو تخميسها أو تسبيعها . كما وضع لها كرام من الأدباء شروحا عدة .

ومن هذا كله ترى أن البردة وأثرها في الأدب العربي ، موضوع جدير بدراسة مستقلة .

ولم يقتصر المديح النبوي على معارضته البردة والنسيج على منوالها ، ولا على معارضة الهمزية واحتذاءها ، ولا على معارضة « بانث سعاد » والافتداء بها ، ولا على معارضة غيرها من مشهورات المدائح ، ولا تشطيرها أو تخميسها أو نحو ذلك .

بل كان أفق المديح النبوي أوسع مدى من هذه الأعمال الأدبية ، وأكثر حرية من أن يدور في فلكها .

والحق أن قصائد هذا المديح ، أكثر من أن تعد أو تحصى ، نقصد القصائد التي لم تتأثر بهذه المدائح الرئيسية في بحرها وقافيتها . بل تعددت فيها البحور والقوافي .

ولكن الذي لا ريب فيه ، أنها كلها نهجت نهج البردة ، في جملة أغراضها ، وفي اللون العاطفي الذي برز فيها .

وهذا الشاب الظريف ، يقول في مدحه نبوية ، ويشيد بذكر العرب وسكان طيبة :

أرض الأحبة من سفح ومن كشب سقاك منهمر الأنواء من كشب
ولا عدت أهلك النائين من نفس الصبا تحية عانى القلب مكتتب
قوم هم العرب المحمي جارهم فلا رعى الله إلا أوجه العرب
أعز عندي من سمعي ومن بصرى ومن فؤادى ومن أهلى ومن نسبي
لهم على حقوق منذ عرفتهم كأننى بين أم منهم وأب
إن كان أحسن ما فى الشعر أ كذبه فحسن شعري فيهم غير ذى كذب
حياك يا تربة الهادى الشفيع حيا بمنطق الرعد باد من فم السحب
يا سا كنى طيبة الفيحاء هل زمن يدنى المحب لنيل الحب والأرب
ضمت أعظم من يدعى بأعظم من يسعى إليه أخو صدق فلم يخب
وحزت أفصح من يهدى وأوضح من يبدى وأرجح من يعزى إلى نسب. إلخ (١)

والشباب الظريف فى أبياته هذه ، يفصح عما فى نفسه من حب العرب ،
ويشيد بهم وبمجادتهم . ويطفر من قلبه على لسانه ، هذا الدعاء الحار : « فلا رعى
الله إلا أوجه العرب » . وهو دعاء مزدوج . هو دعاء للعرب ، ودعاء على غير
العرب .. - أى الترك - لأنهم أقرب غير العرب إليه سكننا ...

بذلك زفر الشاعر زفرته ، ونفس عن كبته ، وأفصح عما يعاينيه هو وأمثاله
العرب ، على يد حكاهم غير العرب ، وهم الترك الغرباء الأعاجم ...

ويقول الشاعر « تقى الدين شبيب بن حمدان » الطبيب الكحال المتوفى عام
٦٧٥ هـ ، مادحا . وهو فى مدحه يعكس مشاعره وأحاسيس نفسه ، عن مقام
الرسول عليه الصلاة والسلام .

فهو يستجلى منه نور الهداية ، ويلثم ترابه المسكى ، ويستجير بحماه ،

ويستوضح به الحق من نور الإله ، هذا النور الذى تجاوز اشرفه فلك الأثير الأكبر .

يقول شبيب :

هذا مقام محمد والمنير فاستجل أنوار الهداية وانظر
والثم ثرى ذاك الجنب معفرا فى مسك تربته حدودك وانخر
واحلل على حرم النبوة واستعجر بحماه من جور الزمان المنكر
فهنالك من نور الإله سريرة كشفت غطاء الحق للمستبصر
نور تجسم فارتقى متجاوزا شرفا على الفلك الأثير الأكبر .. إلخ (١)
وفى البيت الثالث ، استجارة صارخة ، واستغاثة ضارعة ، للرسول عليه
الصلاة والسلام ، من جور الزمان المنكر . وما يمثّل جوره إلا فى حكامه الطغاة ،
وسلاطينه البغاة ، الذين استأثروا بأطيب الرزق وأرفه العيش ، قوة واقتداراً ،
دون الشعب المسكافح .
وسترى مثل هذه الاستجارة والاستغاثة فى أبيات قريبة لابن نباتة ،
تذكرها بعد .

وزين الدين بن الوردى ، يمدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، فيصفه بعلو
القدر وعظم التقى وتمام الجاه وكمال الحجا . . . إلى أمثال ذلك من
الصفات الجليلة .

ولكن ذلك نمط من المديح العادى ، لم يبلغ به ما ينبغى لمقام الرسول عليه
السلام . واسكنها اللغة وحدودها اللفظية . . .
ثم أخذ الشاعر فى بيان مشاعره ، وفى الحديث عن معجزات الرسول
عليه السلام . . .

(١) فوات الوفيات ج ١ فى ترجمة شبيب بن حمدان .

يقول ابن الوردي :

أعلى الورى قدرا وأعظمهم تقى وأنهم جاها وأكلمهم حججا
وأحدهم سيفاً وأكثرهم ندى وأعز منزلة وأعظم منهجاً
من أين فى الثقلين مثل محمد نرجوه فى كرباتنا أن تفرجا
كم للنبي محمد من معجز أو هى قوى من عاندوه وأزعجا

ويقول مستشفعا :

كن لى شفيعاً إن ظهري مثقل بالسيئات وقد شجاني ماشجاً
كم ذا أسوف بالمتاب توانياً حق لدعنى بالدما أن يمزجا
إنى لأحوج مذهب لشفاعة إن الكرام يقدمون الأحوجا . الخ (١)

ولجمال الدين بن نباتة المصرى ، أكثر من مدحة نبوية جيدة . ومن بينها قصيدته الرائية البارعة التى يقول فى أولها :

صحبا القلب لولا نسمة تتخطر ولمعة برق بالغضى تتسعر

ويقول منها فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام :

نبي له مجد قديم وسؤدد صميم وأخبار تجل وتخبر
تحزم جبريل لخدمة وحيه وأقبل عيسى بالبشارة يجهم
فمنذا يضاهيه وجبريل خادم لمقدمه العالى وعيسى مبشر

ويقول :

علا عن محاكاة الغمام لفضله وكيف يحاكيه الخديم المسخر

ويقول :

هو البحر فياض الموارد للورى ولكنك العذب الذى لا يكدر

ويستشفع ابن نباتة بالرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو لا يستشفعه ابتغاء
أن يغفر الله له ذنوبه في الآخرة فحسب . بل أن يهي له أسباب الخير والراحة
والعزة في الحياة ...

وكان مثار شكواه الذي تقدم بها بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ،
اثنين : الدنيا والآخرة :

الدنيا ، لما أصابه فيها من ذل وغربة ، وعيش مرير ، ولما حرمه فيها من
عز وقرار بالوطن .

والآخرة ، لما آده من ذنوب ، وأوقر ظهره من آثام ، ولما أصاب عزمه
من ضعف ، عن أن يقوم بما تتطلبه الآخرة من صالح الأعمال ...

وإذا تأملنا شكواه من الدنيا وأسبابها ، تبدت لنا مساوىء العصر بعامه ،
ممثلة في أبياته وشكواه . إنها الذل والغربة . إنها الذل في الوطن لأن أسباب
العزة معقودة بيد غير يد أهله . والغربة عن الوطن ، لأن أسباب الاستقرار
فيه ، لا يملكها ذووه .

وفي رأي أن الغربة التي يكره عليها المرء ، مظهر صارخ من مظاهر الذل
أو الإذلال . ولعلها أشق ألوانه على نفس الحر المحب لوطنه ، إلا إذا كان
اغترابه في سبيل وطنه وفي سبيل مجده .

هكذا يلجأ الشاعر إلى حمى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وإلى قلبه
الرحيم ، ليشفع له عند الله سبحانه وتعالى ، أن يرحمه مما يعانيه من ذل وغربة .
وفي اللجوء راحة وأمل ، تستشفى بهما النفس المعذبة .

يقول ابن نباتة :

إليك رسول الله مدت مطالي	على أنها أضحت على الفور تقصر
خلقت شفيحاً للأنام مشفعاً	فرجواك في الدارين أخرى وأجدر
ولى حالتنا دنيا وأخرى أراهما	يمران بي في عيشه تتمرر

حياة واسكن بين ذل وغربة فلا العز يستجلى ولا البين يقتل
وعزم إلى الأخرى بهم نهوضه واسكنه بالذنب كالظهر موقر
تصبرت في هـ ذا وذاك كأني من العجز والبؤس قتل مصير . الخ (١)

ب - الزهد والتصوف :

وأشعار الزهد والتصوف ، مضاعفة من مضاعفات النزعات الدينية الجارفة .
فلا غرابة إذا قيض لها الذبوع والانتشار ، فقد توافرت عواملها ودواعيها ، مما
أشرنا إليه عند حديثنا عن المديح النبوى .

وكان هذا اللون الشعري ، قد ذاع في العصر الأيوبي ، الذى نضج فيه الغزل
الإلهي وشعر الدعوة إلى الفناء في الذات الإلهية ، والعزوف عن الدنيا وما فيها ،
طلبا للآخرة .

وورث العصر المملوكى نزعات كثيرة من العصر المذكور . على أن الأتراك
كانوا أميل ، في جملتهم ، إلى التصوف ، وإلى اصطناع الزهادة ، وإلى حب العبادة ،
وتعظيم الصوفية والعناية بهم وبخوانقهم وزواياهم .

وهذا هو ما شهدناه في العصر المملوكى ، حتى غلا بعض ملوكهم وظنوا أن
بعض المتصوفة لهم دعاء مستجاب ، ولهم رأى يستلهمون فيه الغيب ، فوثقوا
بهم ، واستشاروهم ، واثتمروا بأمرهم أحيانا .

ولعل ذلك ، كان من بعضهم تظاهرا بالتقوى وحب المتقين ، سترا لطغيانهم
واستهتارهم ، أو تغطية لجونهم واستهتارهم . أو لعل ذلك كان زلفى إلى الله ، طلبا
لمغفرته ورضاه . . .

وسرت هذه الروح وبدا صداها في الشعر . ولعل شعر الزهد قد صادف هوى في

نفوس بعض الشعراء ، فقد كانت أسباب الحرمان موفورة من حولهم ، فوجدوا في الزهد سترًا وسأوى وغنية ، هي غنية المضطر وسأوى المغلوب .
يقول جمال الدين بن نباتة :

منعتني الدنيا جنى فزهد ت ولكن زهد المغلوب

نظم بعض الشعراء - ومنهم الفقهاء والمتصوفة - في هذا الغرض الذي ينفس عن المرء بعض كربه ، ويعبر بصدق عن بعض ما يصيبه من بؤس أو يأس ، تنبئ من أجله الدنيا أمامه شمطاء خادعة ، لاحسناء بارعة رائعة . إذ تتكشف لعبينه محاسنها ومفاتها عن زيف باطل وبهرج كاذب ، وتترأى وعودها سرايا أخاذًا خادعًا لاماء فيه . وخير منها الدار الآخرة ، فنعيمها مقيم حافل ، والله يحزى به عباده الشاكرين الطائعين . فما بالهم لا يتبتلون له ، ولا يتبتلون إليه ، ليحسن عقباهم ويجعل الجنة مثواهم . وما بالهم إذن لا يكرهون الدنيا ويمقتون غرورها ويعزفون عنها . . .

في فلك هذه المعاني دارت أبيات الشعراء ، حينما تصدوا للنظم في الزهد والنسك والتصوف . معبرين فيها عن أنفسهم وداعين إليها غيرهم ومصورين بذلك بعض جوانب حياتهم وحياة الناس من حولهم ، صادقين لا كاذبين ولكن دون أن يتجهوا فيها اتجاها علميا أو فلسفيا خاصا يشرح وجهة نظر فكرية مما يتجه إليه الصوفية ، ويوضح معالمها وأدلتها ودرجات المسير فيها ، وطرق الوصول إلى أهدافها ، على نمط من أنماط ابن الفارض ، إلا ما ندر .

فإننا - على طول ما قرأناه من تراجم أعلام الشعر في هذا العصر - ومن بينهم رجال الصوفية وهم كثير العدد ، لم نجد بينهم شاعرا اتجه في شعره اتجاها ابن الفارض أو قريبا منه ، إلا نادرا - كما ذكرنا -

ومن هذا النادر الشاعر المتصوف ابن وفاء السكندري ، والفقيه الصوفي

عبد العزيز بن أبي فارس المتوفى عام ٥٧٠ هـ ، إذ قيل إن له ديواناً شعرياً في التصوف . وإنه كان يميل إلى القول بالاتحاد ، ويتبع ابن عربي . ومن شعره في ذلك قوله :

وجدت بقاءً عند فقد وجودي فلم يبق حد جامع لحدودي
والغيت سرى من ضميري ملوحاً برمز إشاراتي وفك قيودي
فأصبحت منى دانياً بمعاري وقد كنت عنى نائياً بجمودي^(١)

ووقف بعض الشعراء قصيدة برمتها على الزهد والتصوف ، على النظم الذي أشرنا إليه ، وقد ينساب منه إلى الحكمة وضرب المثل ، وتتفاعل فيه حينذاك آثار الثقافة والمجتمع . وقد ينساب إلى شكوى الحال ودم الدنيا وما إلى ذلك .

ومن رجال هذا الفن على هذا النحو ، الشاعر المجيد زين الدين بن الوردى . وله في الزهد والنسك والتصوف أكثر من قصيدة . وغلبت عليه هذه النزعة أخيراً بسبب ما قاساه من تنكر له وقسوة عليه . وما لاقاه من رؤسائه في مناصب القضاء من التجنى . فقد كان يشتغل في قضاء بعض نواحي الشام ، فنقل إلى ناحية أخرى لم يسترح إليها . وألح في العودة فلم يسمح له ولم يلتفت إلى إلحاحه ورجا فلم يسمح لرجائه . فوجد في نفسه ، وشعر أن كرامته جرحت ، وأن مكانته زحزحت . فطلق القضاء والوظائف ثلاثاً ، بغير رجعة . وتركها لطلاب الجاه الزائف والمجد المبهرج الباطل ، مبقياً على كرامته . وآثر التوارى عن الأضواء إرضاء لضميره وإراحة لنفسه . وقنع بالقبوع في داره ، واعتنق مبدأ الخمول الذي سبق لنا التنويه به والحديث عنه في الفصل السابق .

واتجه ابن الوردى بشعره أو بكثير من أبياته إلى الزهد والنسك والدعوة

إليهما ، وإسداء النصيحة إلى الناس بهجر الدنيا وزخارفها ، والسعى إلى الآخرة بالعمل الصالح والتقوى . وله في هذا الباب قصيدته اللامية المشهورة التي أثنى الأدب من ورائها ثروة لا بأس بها .

وهي في نحو سبعين بيتاً ، من أجود ما نظم ابن الوردى ، ومن أجمعه للحكمة والعظة . لقد دعا فيها إلى التدبر في الأمر قبل الإقدام عليه ، وفي التفكير في العاقبة قبل بلوغها . ودعا المرء إلى هجر المنكرات من غناء وغزل وخمر وحب مرد ومداعبة نساء وهزل ، وحببه في طلب العلم ففيه الخير . ورغبه في العمل الصالح وهجر النوم ، والعزوف عن الدنيا . ونهاه عن طلب المال والجاه لأنه متاع زائف . ونصحه بعدم الفخر بالنفس لأن أصل الناس واحد ، ولا يفترقون إلا بصالح الأعمال والتقوى . ورأى له أن يحسن السياسة والمصانعة حين تدعو ضرورة إلى ذلك . ولا يعلق أملة بمنصب ، ولا ينخدع بالظواهر ، إلى غير ذلك من النصائح .

واللامية في جملتها سلسلة العبارة سائغة الأسلوب واضحة المعاني ، مما حبيها إلى الناس وسهل لهم ترديد أبياتها . ولذلك ذاع منها الكثير على ألسنتهم .

ويقول في مطلعها :

اعتزل ذكر الأغاني والغزل وقل الفصل وجانب من هزل
ودع الذكر لأيام الصبا فلايام الصبا نجم أقل

ويبغض في العشق وحب الخمر فيقول معللاً :

وافتكّر في منتهى حسن الذي أنت تهواه تجد أمراً جليل
واهجر الخمر إن كنت فتى كيف يسعى في جنون من عقل

ويذكر بالله وقدرته بالموت ونزلاته :

حارت الأفكار في قدرة من قد هدانا سبلنا عز وجل

كتب الموت على الخلق فكم قل من جمع وأفنى من دول

ويرجع أصل الفتى إلى خلقه وعمله لا إلى حسبه ونسبه :

لا تقل أصلى وفصلى أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل
قد يسود المرء من غير أب وبحسن السبك قد ينفي الزغل

ويقول :

قيمة الإنسان ما يحسنه أكثر الإنسان منه أو أقل . الخ (١)

وعلى نمط مما رأيناه في البردة ، عني بعض الأدباء بتشطيرها وتخمينها
وشرحها . وذلك يستأهل أيضاً بحثاً مستقلاً .

وراج شعر الزهد والنسك والتصوف على السنة كثير من الشعراء غير ابن
الوردى ، فقهاء وغير فقهاء .

وشمس الدين بن القيم كان أحد فقهاء الحنابلة البارزين ، وهو تلميذ ابن تيمية
الحراني . وقد ألف كثيراً من الكتب في علوم دينية مختلفة ومنها : مدارج
السالكين ، وهو في صميم التصوف الإسلامي والأخلاق .

هذا الفقيه رأينا من بين فرائد شعره ، قصيدة شائقة هي نتاج الصوفية
الصحيحة التي هي رجع النفس الورعة التقية الصافية التي راضها الدين القويم
وتعاليم السمحة . لقد اتجه في قصيدته هذه وجهة ندر أن اتجه إليها غيره ، وهي
وصف الجنة وما فيها ، وصف الحب الواله المشوق المترقب . وفيها يقول :

فلله ما في حشوها من مسرة وأصناف لذات بها يتنعم
ولله برد العيش بين خيامها وروضاتها والثغر في الروض يبسم
ولله وادها الذي هو موعد السهمز يد لو فد الحب لو كنت منهم

بذيالك الوادى بهيم صباية محب يرى أن الصباية مغنم
ولله أفراح المحبين عندما يخاطبهم من فوقهم ويسلم
ولله أبصار ترى الله جهرة فلا الضم يغشاها ولا هى تسام
فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضرة أمن بعدها يسلو المحب المتيم... إلخ (١)

ومن الشعراء فى هذا الباب ، الحافظ الكبير صلاح الدين كبكلى العلأى .
وفى إحدى قصائده يقرر خصالا ثلاثا يرغب فى الحياة من أجلها . وشتان بين
ثلاثه هذه وثلاث شاعر الجاهلية طرفة صاحب الدالية .

يقول :

ألا إنما الدنيا مطية راكب تسير به فى مهمه وسباسب
فإما إلى خير يسر نواله بها وإما إلى شر وسوء معاطب
فلولا ثلاث هن أفضل مقصد لما كنت فى طول الحياة براغب
ملازمة خير اعتقاد منزهاً عن النقص والتشبيه زين المواهب
ونشر علوم للشرعية ناظماً عقود معانيها لتفهم طالب
وصوفى نفسى عن مزاحمة على دنى حطام أو على مناصب
ففى ذاك عز بالقنوع وراحة معجلة من خوف ضد مغالب... إلخ (٢)

وجماع هذه الثلاث - كما ترى - العمل بالشرعية ونشرها والقناعة . وفى الحق
ليس هناك سعادة أوسع ولا أروح للنفس من هذه الثلاث ، ففيها غنى الدنيا وثراء
الآخرة . وفيها توفى مواطن المذلة والهوان ، وفيها التصون عن مزلق
الآمل الخادع .

وجمال الدين بن نباتة شاعر عصره ، بمن ضربوا فى هذا الميدان بسهم وافر .

(١) كتاب « حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح » لابن القيم .

(٢) طبقات السبكي ج ٦ ص ١٦٢ فى ترجمة تقي الدين السبكي .

وكم له من أبيات عزف فيها عن الدنيا ونعى عليها فتونها وندم على ذنوبه وتاب عنها
وزجر نفسه ودعا ربه وذكر الموت ، ونزع في ذلك منزع الحكمة والنسك . يقول
في إحدى قصائده :

إليك مدير السكاس عني فإنني	رأيت دموع الخوف تقطع للصدى
وإياك بالهيام يشرق خدها	فإني لم آنس على ناره هدى
نزعت فلا الساقى لدى براكع	ولست أباريق المدامة سجدا
وما أنا بالساعى لمحراب طرة	على طلعة كانت لعشقى مشهدا
كفى ما استبنت اليوم لى من جرائم	إذا لم أبدلها فياخجلى غدا
إلهى قد مد الرجا يد قاصد	وجودك أولى أن تبخله يدا
وقد بنت آباء ونسلا فكيف لى	بباقية والأصل والفرع قد غدا
وفاض ولى من دموعى فعله	يكون وليا للإنباة مرشدا
بروحى أناسا قبلنا قد تقدموا	ونادوا بنا لو أننا نسمع النداء
وسارت بهم سير المطى نفوسهم	وبعض أنين القادمين لهم حدا
وأمسوا على البيداء ينتظروننا	إلى سفر يقضى بأن ننزودا
فريدون فى أجداثهم بفعالهم	وكم بينهم من ساق جندا مجندا
تساووا عدى تحت الثرى وأحبة	فلا فرق ما بين الأحبة والعدى . إلخ (١)

ونهج هذا الشاعر نهج أبى العلاء فى زهدياته ، ونظم قصيدة بارعة استقل بها
هذا الغرض الشعرى دون سواه ، واجتمع فيها كل أسباب الزهد ومعائب الحياة
التي تنفر منها .

وقد بدأها الشاعر بالاستغفار ، وإعلان الزهادة فى الدين ، وأنه لم يعد يأسى
على فراغها ولا يحزن على انقضائها . فإنه ، وهو فيها ، كان سىء الحظ كثير النكد .

أما إذ اضمه التراب فله من التراب جلاء ... ثم أفصح الشاعر عن مشاعره بالحياة وعن مدى تصوره لها ولمتعتها الباطلة ونعيمها الحائل . فليست في نظره غير سجن وفيه الهم والسكد . وما نفعه فيه عيشه إن لم تسعه رحمة الله . وأخذ ينعى على جامع المال والبخيل المتكبر والواثق بالليالي ، إلى غير هذا وذاك ، وذكرهم بلقاء الموت في غدهم ، وضجعتهم من بعد في التراب في هوان ومذلة ... إلى غير ذلك . يقول :

أستغفر الله لا مالى ولا ولدى أسى عليه إذا ضم الثرى جسدى
عفت الإقامة فى الدينا لو انشرحت حالى فكيف وما حظى سوى النكد
وقد صدئت ولى تحت التراب جلا إن التراب لجلاء لكل صدى
ويقول :

حياة كل امرئ سجن بمهجته فاعجب اطالب طول السجن والسكد
أما الهموم فبحر خضت زاخره أما ترى فوق رأسى فائض الزبد
وعشت بين بنى الأيام منفردا ورب منفعة فى عيش منفرد
لأتركن فريدا فى التراب غدا ولو تكثر ما بين الورى عددى
ما نفعى سعة فى العيش أو حرج إن لم تسعنى رضى الواحد الصمد
يا جامع المال إن العمر منصرم فابخل بمالك مهما شئت أو جدد
ويا عزيزا يخيظ العجب ناظره اذكر هوانك تحت التراب واتدد
قالوا ترقى فلان اليوم منزلة فقلت ينزله عنها لقاء غد
كم واثق بالليالى مد راحتته إلى المرام فتاداه الحمام قد
وباسط يده حكما ومقدرة ووارد الموت أدنى من فم ليد ... إلخ (١)

> - الشكوى :

والشكوى أدنى وشيخة وأقرب نسباً إلى الزهد والتصوف . وشعر الزهد يعتمد اعتماداً أصيلاً على الشكوى . فلا بد فيه من شكوى الدنيا وذم الزمان والنعي على أخلاق بعض الناس ممن لا وفاء لهم ولا مروءة ... والآيات السالفة لم تخل من عنصر الشكوى .

وفن الشكوى في الشعر المملوكي كان أرحب أفقاً وأوسع ميداناً من صلته بالزهد أو التصوف أو ذم الدنيا ونحوه . ولعل شعراء العصر كانوا أحق بالشكاية وأولى . وكانوا أجدر بالتصريح بها والإلحاح عليها وإعلانها . إذ حرمتهم الدنيا - أو حرمت الكثير منهم - الخير والجاه والمنصب ، مما كان له أهلاً . بل ربما حرمت بعضهم حتى اضطر إزاء إلحاح الحاجة عليه أن يتمكفف الرؤساء والأعيان بشعره ، وأن يرحل من بلد إلى بلد سعياً وراء قوته وقوت عياله . وأن يصرح بحاجته ويكشف عن هوانه ويسأل العطاء ... بل ربما ألحت على بعضهم فأوهنت ثقته بصناعته وفنه ...

كان الشعراء إذن ، أو كان بعضهم على الأقل ، أحق بأن يكون فن الشكوى فناً أصيلاً في شعرهم ، وخصوصية مميزة تطبع الكثير من قصائدهم بطابعها ، وإن كانت تهدف إلى أغراض أخرى .

ترى ذلك في أبياتهم في النقد الاجتماعي وفي إخوانياتهم وفي المدح ، بل وتراه في شعرهم الفكاهي . ولعل الفكاهة كانت به أمس وأصدق ، بل لعلها كانت مظهراً من مظاهر الشكاية ووسيلة من وسائلها .

لقد تناولوا في شكواهم ذم الزمان لصروفه وغيره وغدره . وأخلاق الناس لحقدهم وحسدكم ومكايدهم وأثرهم . وذكروا الشباب الماضي وتحسروا ، والشيب الفاضح وحزنوا ، وذكريات الصبا وبكوا ، وعهود الوصال المنقضى والتاعوا ...

وبهذا كله سجلوا بعض نواحي المجتمع ، وصوروه في جانب من أهم جوانبه النفسية .

ولابن الوردي معان في الشكاية ردها أكثر من مرة ، وهي شكوى حاسديه والحاقدين عليه ، لما له من الفضل والعلم . حتى كانوا بذلك في جملة أسباب اعتزاله منصبه ، بل واعتزال الناس جملة . وأدت به إلى حياة من الخمول فرضها على نفسه ، وقنع بها وسعد - كما أشرنا فقال :

أشكو إلى الله زمانى الذى صرت إليه وتحيرت فيه
أى امرئ جربت من أهله يظهر منه كل أمر كربه
كم حاسد كم مارد كم عدى كم عائب كم مبغض كم سفيه
فليفعل الحاسد فى دهره ماشاء لا بد وأن يلتقيه
ما بين أعدائى وبينى سوى أن بهم جهلا وأنى فقيه (١)

وفي الأبيات التالية يعرى الزمان من مروءته ويشكوه إلى الله لأنه قلب الحقائق فأعز العبيد وأذل الأحرار . وينعى على حساده ويطلب الرحمة لهم طلب المغيظ المحقق ، لقد حقدوا عليه وكرهوا ذكره وكرهوا أن الله رعاه ، وما ذلك إلا لاتقاد قريحته وسعة علمه ، حتى بلغت أخباره الأقطار . . .

وترى ابن الوردي في الأبيات المذكورة مزج الشكوى بالفخر ، وكاد يخرج بالشكوى إلى طريق الهجاء . قال في جودة وجزالة .

ماللزمان عن المروءة عارى ما عنده فى منكر من عار
أشكو إلى الله الزمان فدأبه عز العبيد وذلة الأحرار
لا غرو إن حسدت بنوه مناقبى كل على مجرى أبيه جار
وارحمنا للحاسدين فنارهم قد سعرت بعدا لهم من نار

وإذا جرى ذكرى تكاد قلوبهم تنشق أو تغتالي بشرار
 كرهوا عطاء الله لي يا ويحهم لشقاؤهم كرهوا صنيع الباري
 ويزيدهم ناراً وقوداً قريبتي . وبلوغ أخباري إلى الأقطار
 يا سعد ساعدني على هجرانهم في الله هجر بجانب متواري
 واحذر بني الدنيا وكن في غفلة عنهم وجانب كل كلب ضاري . (١)

وهذا الشاب الظريف الذي ذوى عوده وهو في عمر الورد ، وانتهى أجله وهو لما يتمتع بالشباب ، كان يشكو .

وفي سياق إحدى مدائحه يحنج إلى شكواه فيبث أبياته حديث نفسه وهجس فؤاده ، ويستعيزك الله مما يكابد من اللهم ، وما يلقاه من الدهر من جهل بمقداره . هذا الدهر الذي لم يستقر بوجه غير مبتذل ، ولا يأمن جار له بوائقه . . الخ .

يقول في جودة وجزالة أيضاً ، وهو يخاطب ممدوحه :

أعاذك الله من هم أكابده أقول كرها لأحشائي به ذوبى
 ملئت بالدهر علماً وهو يملأ لي جهلاً ويحسب مني غير محسوب
 إحدى الأعاجيب عندي منه لو وصفت لكان وصفي لها إحدى الأعاجيب
 لا يستقر بوجه غير مبتذل ولا يسير بعرض غير مسلوب
 ولا يبيت له جار بلا فرق ولا يسر له ضيف بترحيب
 يصدعني إذا قابلته غضباً ككافر صد عن بعض المحاريب
 ولو ضربت بأدنى الفكر قلت له قتلت في شر ضرب شر مضروب
 يفدى نعالك ما ضمت أسرته وإن فدين بمقوت ومسبوب
 إن المعالي براء من تجشمها تلبس المجد فيه بالأكاذيب
 فليت كل مريب غاب عاتبه فداه كل برى العرض معتوب

وليت أنى لم أدفع إلى زمن ألقى الأسود به طوع الأرائيب
 إن يحجب الأضعف الأقوى فلا عجب قرب عقل يستر الوهم محجوب
 والدهر ليس بمأمون على بشر يديره بين تنعيم وتعذيب
 فلم يرق مسكن فيه لساكنه ولم يشق صاحب فيه بمصحوب^(١)

ومن المبرزين في هذا الباب جمال الدين بن نباتة ، وكان كثير الشكاية دائبها ،
 وكادت الشكاية تكون في شعره كله مزاجا مشتركا . فقد تضافرت عليه فاقة آلفة
 وحرمان مصاحب مقيم . ونكران معن ، وشيب عاجل مبكر ، وأبناء صغار
 كثير يعجل إليهم الموت .

فضلا عما لقيه من رؤساء زمانه ، من تنكير لفضله وجحود لبلاغته ، وتجاهل
 لمنزلاته من الأدب والشعر ، وحقده عليه ، وتجناف عنه ، وإبعاد له عن مناصب
 الدولة . حتى اضطر إلى النزوح عن بلده مصر للارتزاق ، كما اضطر غيره من
 الشعراء أمثاله ، إلى الاحتراف للارتزاق أيضاً : فمن أولى منه بدم الزمان
 وشكواه . . .

يقول وقد دهمه المشيب في أوان الصبا :

عجبت خلتي لوخط مشيبي في أوان الصبا وغير عجيب
 من يعم في بحار همى يظهر زبد فوق فرعاه الغريب
 من يحارب حوادث الدهر يخفى لون فوديه في غبار الحروب
 أى فرع جون على عنت الأيام يبقى وأى غصن رطيب
 لوهمى ماء معطى من الدين لأفتته مهجتي بلهيب
 رب يوم لو لم أخف فيه عقي سوء حالي لحقت عقي ذنوبي
 ظاهر دون باطن مستجار ليت حالي يكون بالمقلوب

منعتني الدنيا جنى فزهديت ولكن تزهديت المغلوب
ووهت قوتي فأعرضت كرها عن لقاء المكروه والمحبوب... الخ (١)

وامتزجت الشكوى بالفكاهة في إحدى قصائد الشاعر الساخر الهازل شمس الدين بن دانيال الموصلی ، التي وصف فيها حالته مع زوجته ، عارضا أمرها على القاضي ، قال :

بك أشكو من زوجة صيرتني غائبا بين سائر الحضار
غيبتني عني بما أطعمتني فأنا الدهر مفكر في انتظار
غبت حتى لو أنهم صفعوني قلت كفوا والله عن صفع جاري
فنهاري من البلادة ليل في التساوى والليل مثل النهار
دار رأسي عن باب داري فبالله أخبروني ياسادتي أين داري
ملككتني عيارة عيارا حين زادت بالدرديدس عياري
أين مخ الجمال من طبع مخي في التساوى وأين مخ الحمار
غفر الله لي بما رحت للبحر من البرد أصطلي بالنار
وتجردت للسباحة في الآ ل لظني به الزلال الجاري
ولكم قد عصيت رجلي برؤيا أوطأتني حلما على مسماري... الخ (٢)

د - الشعر الإخواني :

وشهد الشعر الإخواني في هذا العصر فترة ذهبية كريمة ، فقد انهمزت الشعاعية فرصتها في العلاقات الحبية والموادات الإخوانية التي استعاض بها الشعراء من مودة المجتمع وعرفانه . فتشبهت بها واتخذتها وسيلة إلى الظهور - كما وصفنا آنفا -

(١) ديوان ابن نباتة ص ٢٣

(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ . والعيارة الكبيرة الحركة الذكية الطوافه .

والشعر الإخواني ، وإن بدأ شخصياً فردياً ، هو في مجموعه صورة بارزة من أهم صور المجتمع . فهو وليد الصداقات بين أفراد . وكثيراً ما يحيون فيه حياة نفسية صادقة ، يتبين لنا من ورائها مجموعة من أخلاق المجتمع والصفات المشتركة بين أفراد ، وما يحرون عليه في حياتهم من عادات وتقاليد وصلات . وقد اتسع نطاقه وتعددت آفاقه . فمن تشوق إلى غائب ، إلى لوم لهاجر ، إلى عتاب لمخطيء ، إلى تذكير لصائد ناس .

والشاعر يحن إلى أسرته وأولاده ، ويتشوق إليهم ويتلهف على لقائهم . وذلك إذا طوحت به أيدي الزمان مرغماً ففرقت شمله وباعدت بينه وبين فلذات كبده . وحن إلى أصدقائه وخلاته ، إذا زايلاه وتركوه وحيداً ، إلى ديار أخرى . أو صدرا عنه وتجاؤا ، وقاطعوه لسبب ما كنميمة أو وشاية أو وقعة . فيتشوق ويلوم وبذم الواشي والنمام ، ويعتذر ويتبرأ ، إلى غير ذلك مما تستدعيه الأخوة الأكيدة والمودة السكريمة .

ولج شعراء العصر باب هذه الأغراض بخطى واسعة ، وشغلوا أنفسهم بها وأجادوها وصدقوا فيها ، وأكثروا منها ، حتى إنه ربما كان لأحدهم الديوان الكامل فيها .

فإذا ذكروا وحنوا ، استرجعوا العمود المواضي وأيام الوصل واللقاء . وتذكروا ما كان بها من روفق الحياة وطيبها ، وسماح الدهر وكرمه ، وتهلل الوجوه وبشرها ، وامتلاء الدار بالأنس والطمأنينة ، وخلود القلب إلى الراحة والسكينة .

وإذا ذكروا البين وصفوا طوله ولوعته ، ولهب أشواقهم فيه ، واشتعال وجدهم ، ودموع حزنهم . وتعلقوا بالأمل المضي في اللقاء والوفاء ، ودعوا للمنازل وتشوقوا إلى الأحياء ، وتلمسوا الرسل وتنسموا الأخبار ، وساءلوا البريد ، وخاضبوا البرق . وبشوا كل ما يعتلج في صدورهم من المحبة ، وما يعانونه من القلق والانتظار .

وقد يمتزج بالإخوانيات غيرها من الأغراض ، كالوصف والمدح
وذكر الحوادث .

وكان بين الشعراء الأديبين علاء الدين بن غانم ، وصلاح الدين الصفدى ،
مراسلات إخوانية طلبية . وقد أرسل الأول من دمشق ، إلى الثانى بمصر ، يتشوق ،
فذكر ضرام الفراق ونبو المقام من بعده . وذكر أيام أحبابه بمصر فكأنها مرت
بها أحلام . وتمنى عود الزمان بهم . إلى آخر ما تعيه هذه الأبيات ، قال :

لى فى الضمير من الفراق ضرام وهوى يهيج به جوى وغرام
مذغاب عنى من ألفت دنوهم ونبا بهم بعد المقام مقام
واستوطنوا مصر التى طابت لهم دارا وأين ديارهم والشام
سمحت بهم أيدى النوى واسترجعت فكأنما سمحت بهم أحلام
أترى يعود بهم زمان قد مضى أم هل يرى لى بعدهم إمام
غابوا فلم تطب الحياة لبينهم والنوم بعدهم على حرام
والدهر كان بهم كيوم واحد وأراه عيدا كله لو داموا
كان الزمان بهم ربيعا وجهه متللى بدنوهم بسلام
وناوا فقطب بالفراق فوجههم جهم وسحب المبهجات جهام
لا أوحشت دار خلت من أنسهم فضياؤها فى ناظرى ظلام
يا غائبين نأى السرور لبينهم فعليهم وعلى السرور سلام
لى كلما هجع الخلى من الهوى دمع يقرح مقلتى وهيام . . إلخ (١)

وقد رد الصلاح الصفدى بقصيدة مماثلة من البحر والروى ، ومعها رسالة
منشورة ، وقد بادله شوقا بشوق وحنينا بحنين ، وشكاية بشكاية وأملا بأمل . وقد
قال من قصيدته :

(١) ألحان السواجع للصفدى مخطوط بدار الكتب - ورقة رقم ١٣ ، ١٤ .

وإني كتابك فاستنار ظلام
يا كاتباً كبت العدى لما كبت
صلى ورامك في القريض جماعة
أهديت لى طرسا سطور بيانه
وكأنما تلك الحروف جواهر
لا بل كئوس مدامة من فوقها
لا بدع إن مالت بعطفي نشوة
ياساكنين دمشق لى فيكم وإن
بينى وبينكم إذا حققتم
بحياتكم راعوا الوداد فإنكم
وتذكروا تلك الليلات التي
وغدت بدور الأفق وهى تمام
من خلفه فى شوطها الأقلام
من يعانسه وأنت إمام
روض ومعناها البديع حمام
فيها تألق جمده النظام
قد در من مسك الختام ختام
فمن الكلام إذا اعتبرت مدام
طال البعاد صباية وغرام
عهد به شهد الصفا وذمام
عندى على بخل الزمان كرام
فى عودها قد خانت الأيام .. إلخ (١)

ومن جزل الشعر وعذبه ، ورقيق النظم ورطبه ، مادبجه الأديب البارع
شهاب الدين محمود الحلبي ، من الديار المصرية إلى صديقه ، تقي الدين الصالحى ،
بجبل الصالحية بالشام . يتشوق إليه ويعتب عليه ، فيقول :

هل عند من عندهم برى وأقسامى
وأن قلبى وجفنى بعد بعدهم
بانوا فبان رقادى يوم بينهم
كتمت شأن الهوى يوم النوى فتما
كانت لىالى بيضا فى دنوهم
ضنيت وجدا بهم والناس تحسب بى
وليس أصل ضنى جسمى النحيل سوى
علم بأن نواهم أصل آلامى
ذا دائم وجده فيهم وذا دامى
فلست أطمع فى طيف بالمام
بسرره من جفونى أى تمام
فلا تسل بعدهم عن حال أيامى
سقما فأبهم حالى عند لواى
فرط اشتياقى إلى لقيا ابن تمام

مولى متى أخل من بر برؤيته خلوت منه بأشجان وأسقام
نأى ورؤيته عندى أحب إلى قلبي من الماء عند الحائم الظام
وصدعنى ولم يسأل بحفوته عن هائم دمه من بعده هامي
يا ليت شعري ألم يبلغه أن له أخا بمصر ضعيف الجسم مذ عام
ما كان ظنى هذا في مودته ولا الحديث كذا عن ساكني الشام
يا غائبا داره قلبي ولو هجعت عيني لأدنته مني رسل أحلامي
أصبحت بعد اشتطاطي في الحقيقة من لقياك أخدع آمالي بأوهامي ... إلخ (١)

ورد عليه تقي الدين بن تمام الصالحى بقصيدة من الوزن والقافية ، طاف فيها
بما طاف به الحلبي ، من المعاني النفسية والخواطر الإخوانية ، فقال من
قصيدته الطويلة :

يا ساكني مصر فيكم ساكن الشام يكابد الشوق من عام إلى عام
الله في رفق أودى السقام به كم ذا يعلل فيه نضرو أسقام
ما ظنكم ببيعيد الدار منفرد حليف هم وأحزان وآلام
يا نازحين متى تدنو النوى بكم حالت لبعيدكم حالي وأيامي
كم أسأل الطرف عن طيف يعاوده وما لجفني من عهد بأحلام
أستودع الله قلبي في رحالكم عهدته منذ أزمان وأعوام
وما قضى بكم من حبهكم أربا ولو قضى فهو من وجد بكم ظامي
منذا يلوم أخا وجد يحبهكم وأبعد الله عذالي ولوأمي
في ذمة الله قوما ما ذكرتهم إلا ونم بوجدى مدمعي الدامى
قوم أذاب فؤادى فرط حبههم وقد ألم بقلبي أى إلمام ... إلخ (٢)

هـ - الاستدعاء :

هذا لون من ألوان الشعر الإخواني . وهو دعوة الخالص والاحباب إلى مجلس أنس أو حفل سمر أو مائدة شراب . حيث تتوافر أسباب اللهو ودواعي التسلية وأدوات اللذة والمتعة ، من كل ما تهفو إليه النفوس ، وترفونحوه الحواس من المأكول والمشروب ، ومن المسموع والمشموم والمنظور . . . وهو غير الاستدعاء الذي هو بمعنى الاستجازه .

وتعقد هذه المجالس في الليل ، عادة ، إذ يكثر الفراغ ، وبفرغ القلب ، وتطلب الراحة ، ويحلو اللهو ، ويطيب الحديث . دفعاً للأحزان وجمعاً لشمل الإخوان ، ومحاربة للوحدة ، وتمكيناً للألفة ، وتقوية للمودة ، وتجديداً للعهود والمواثيق ، وتنشيطاً للعقول والنفوس ، وملء للبطن ، وقضاء للشهوات . . .

واعتماد المستدعى أن يهيئ لمدعويه كل أسباب المرح واللهو والتمتع . فمثلاً يعد المسكان ويختار الزمان ، ويبسط الأثاث ويمهد الرياش ، من كل ناعم وثير ، وخز وحرير . وتمد الموائد ، وتزود بأنيق الأدوات وحالي الأواني . ويعد مالذ وطاب من الطعام والشراب ، من خمر عتيق ولحم لذيد وفاكهة طازجة ، وغير ذلك .

ويوكل أمر الخدمة إلى الحسان من الجوارى والغلمان والندمان ، الذين مهرؤا في فن هذه الخدمة ، وعرفوا معنى النظرة والبسمة ، وتأدبوا بآداب هذه المجتمعات ، حتى صاروا فيها نجوماً لامعة وبدوراً ساطعة ، يدورون على الجلاس بالإيناس ، ويمثلون الكسبوس ، ويروون بمحاسنهم ظماً النفوس . . .

وقد وضعوا للنديم والمنادمة آداباً تتبع واشترطوا فيهما شروطاً تلتزم .

ولا ينسى الداعي أمر الغناء ، فيتخير له من يرى من مهرة الفنانين والفنانات . فيلعبون بالعود ، ويضربون بالجنك ويدقون بالدف .

والأزهار هنا وهناك ، منشورة ، من كل ورد جميل أو قرنفل عاطر ، أو
ياسمين ضاحك أو غير ذلك . ورائحة الند تملأ الأنفاس والخياشيم ببخورها
المنعش وبخارها الحفاز

شاعت هذه المجالس الصاخبة اللاهية في عصر المماليك ، وشاعت
الاستدعاءات إليها ، وشارك الشعراء بدورهم بتسجيلها ورسم صورها . فنظموا
الاشعار وقصدوا القصائد وأرسلوا الرسل : ووصفوا لإخوانهم ما هيء لهم في
المجلس الخافل من طعام وشراب وغللمان وجوار ونداح وسقاة وأقداح . . .
وأثنوا عليهم الثناء المستطاب .
وبذلك أبرزوا جانباً حياً نابضاً من جوانب المجتمع يتحرك بالعواطف
والأحاسيس .

لقد كان الشعراء يصفون - عادة - لإخوانهم ، كيف أهدوا العدة للقاء ،
وأخذوا الحيلة من الرقيب ، ورفعوا عنهم أسباب الخوف والحذر ، وضاعفوا
دواعي السرور والصفو ، وحثوهم على الحضور ، والبركة في البكور

وترى استدعاءاتهم مزوجة غالباً بخمريات عذبة ومجونيات سائغة أو سافرة ،
وفكاهيات نادرة فضلا عما فيها من الأوصاف والغزليات والإخوانيات ، كالشوق
والعتاب على القطيعة ونحوها .

على أن الاستدعاءات من أجمل ضروب الإخوانيات وأنسبها ، وأطربها
وأعذبها ، ومن أصدقها لا أكذبها .

وكثيراً ما يرد المدعو على الداعي مستجيباً له . بشكر رقيق وشعر أنيق ،
يحمد له فيه اهتمامه به ودعوته له واشتياقه إليه ، ويثني على همته العالية
وشهامته النبيلة .

ولا يفوتنا أن نذكر أن بعض الشعراء نظموا في الاستدعاء تمريناً للقريحة
وتنفيساً عن الأمانى المكبوتة . . ولم يخرجوا - مع هذا - عن أن يكونوا
قد سجلوا هذا الجانب الطريف من جوانب المجتمع .

وقد حكى الأدفوى في كتابه « الطالع السعيد » عن الشاعر « الحسن بن هبة الله الأدفوى » أنه كان خفيف الروح ، ينظم الزجل والشعر . وتوفي عام ٧٢٠ هـ .

ومن استدعاءات هذا الشاعر ، قوله ، وقد هيا للمستدعى كل وسائل الأنس واللمو والتسلية . وقد جانس بين قوافي الأبيات :

إن المليحة والمليح كلاهما حضرا ومزمار هناك وعود
والروض فتحت الصبا أكامه فكأنه مسك يفوح وعود
ومدامة تجلي الهموم فبادروا واستغنموا فرص الزمان وعودوا^(١)

وللأديب الألمعى الشاعر نخر الدين بن مكائس شعر في هذا الباب . ومن بينه قصيدة دالية فيها وصف ومجون مكشوف ، وفيها دعاية وشوق وعتاب على طول البعدو الصد .

وقد قدمها الأديب تقي الدين بن حجة الحموى بقوله :

« ونقلت من خط صاحب نخر الدين بن مكائس ما صورته : كتبت إلى صاحبنا الأديب الفقيه العالم الحافظ الراوية أبي حفص سراج الدين عمر السكندري الشهير بالقوصي ، أستدعيه وفي الاستدعاء بعض المداعبة :

« الحمد لله المحيب لمن دعاه .

يا ذا الذي فكره مثل اسمه يقدر فندت عنا وما من شأنك الفند
بم اعتذارك عن هذا الصدود لنا هذا وقد ضمنا بالجيرة البـلد
عافاك ربك من داء القطيعة بل شفاك من كل داء أمره نكد
فيم التواني وشهر الصوم مقتبل عن خمرة ضوؤها في الكأس يتقد
وفتية مخلصين الودَّ قد جبلوا على المحبة لاحقد ولا حسد

إن ذاع وصفك في ناديتهم ضربوا
 إن لم تشرف بناديتهم فما شرفوا
 لم ذا هجرت بني الآداب فابد لنا
 قد صرت توحشهم بعداً وإن قربوا
 تركت عشرتهم لما رغبت إلى
 ما هكذا تفعل الدنيا بصاحبها
 وبعد فاحضر فذنب البعد مغتفر
 أو لا فعصبة فسق كلهم شبق
 لهم قيام طول دهرهم
 أو جال ذكرك فيما بينهم سجدوا
 أو لم تنفق لهم آدابهم كسدوا
 بم اعتذارك لا أهل ولا ولد
 وكنت تؤنسهم قرباً وإن بعدوا
 جاه طويل عريض زانه مدد
 فالناس بالناس والأحوال تنتقد
 ولو تطاول من هجرانك الأمد
 سود غلاظ شداد ما لهم عدد
 من حين إدراكهم بالجلس مارقدوا

وسدر الشاعر في مجونه الفاحش وأدبه المكشوف ، حتى قال :

ومن رأى وقعتى هذى وليس يرى
 بادر لنا فبنو الآداب كلهم
 مولاى إني محب فاتخذ كلمى
 وأنت أدرى بقوم إن قلوا سلقوا
 لا زالت ترقى على زهر النجوم على
 وأعدوك فإن لم تأت نحوهم
 عقيها حاضراً لم يلهمه أحد
 تجمعوا من فجاج الأرض واحتشدوا
 بصحبة فعلها الخل يعتمد
 بالسن ما لقتلى حربها قود
 ما حلت الريح أقوام وما رصدوا
 فكلهم منجز في الحال ما يعد (١)

ونظم صفي الدين الحلى استدعاء عرض فيه مالدیه من المعدات وأدوات
 التسلية واللهو . قال :

أيا ابن الكرام الحكمة الحماة كنوز العفاف وكهف العفاة
 ويا من يرى الجود حتما عليه وفرض الصلوات كفرض الصلاة

(١) تأهيل الغريب ، باب الاستدعاءات — ومطالع البدور في منازل السرور للغزولى مخطوط
 بالمكتبة الأزهرية .

ومن رأيه في الأمور الجسا م سبل النجاح وسفن النجاة
لقد ساعد الفطر رب الصيام بعيد مواف وعيش موات
وعندي ظي غريب الجمال غزير الصفاء عزيز الصفات
يدير الصفاء كماء الحيا وماء الحياء وماء الحياة
وقد طبق الجو غيم جهام أحاط به من جميع الجهات
ونحن نقاتل جيش الربيع بزف الهناء وزن الهنات
فساعد سعدت بنيل الوفاق لأهل الوفاء قبيل الوفاة
وزرنا فإن ألد الهبات إعادة أيا منا الداهيات^(١)

والصفي الدين أيضاً في المعنى نفسه :

ليس عنك مصطبر حين أسعد القدر
إن صفو عيشتنا لا يشوبه كدر
فابتدر لمجلسنا فاللبيب يبتدر
واستجب لشمس ضحا قد سعى بها قمر
والخطوب غافلة والرفاق قد حضروا
والعيون ناظرة والقلوب تنتظر
غير أنهم نفر عن رضاك ما نفروا
إن منعهم شكروا أو منعهم عذروا^(٢)

ولشباب الظريف يستدعي أحد أصدقائه :

يوم أتانا برده في برده أضحي بها مثل الحديد الماء
والأرض قد بسطت لحسن صنيعة بالثلج في الأرض اليد البيضاء

فاحضر فنحن كما تحب بمجلس لو لم تغيب تمت به السراء

ومما له صلة وثيقة بالاستدعاء ، الحديث عن آداب النديم والمنادمة . ولا بأس بالاستطراد إلى ذكر شيء منه لما له من الصلة ولما فيه من الطرافة . ولدلالاته كذلك على بعض آداب المجتمع . وقد تحدثوا عنه نثرا وشعرا . وقرأنا النثر .

وقد نظم الشاعر الكيس الظريف الأديب نخر الدين بن مكائس قصيدة عذبة رائقة فكاهية في هذا الموضوع . وهي مزدوجة مجزوءة تقع في نحو ثمانين بيتا ، وضع فيها للنديم منهاج المنادمة ، وخط له سبيل المشاركة . وسماها « عمدة الحرفاء وقدوة الظرفاء » . وقد قال عنها تقي الدين بن حجة الحموي « إنها طريقة من الطرف » . وضمنها نصائح وآدابا اجتماعية صادقة

قال نخر الدين بن مكائس في مطلعها .

هل من فتى ظريف	معاشر	حريف
يسمع من مقال	ما يهر	اللاكي
أمنحه وصيه	سارية	سرية
تير في الدياجي	كلعة	السراج
رشيقة الألفاظ	تسهل	للحفاظ
جادت بها القريحة	في معرض	النصيحة

ومنها يقن للنديم آداب المنادمة ، فيقول :

ألبس حلا الخلاعة	واخلع ردا الرقاعة
ولا تطاول بنشب	ولا تفاخر بنسب
المراء ابن اليوم	والعقل زين القوم
ما أروض السياسة	لجراح الرياسة
إن شئت تلقى محسنا	فلا تقل قط أنا

وإن أردت لاتهن إذا ائتمنت لا تخن
العز في الأمانة والكيس في الفطانة
لا تغضب الجليسا لا تسخط الرئيسا
لا تصحب الخسيسا لا توحش الأنيسا
لا تكثر العتبابا تنفر الأصحابا
فكثرة المعاتبة تدعو إلى المجانبة
وإن حملت مجلسا بين سراة رؤسا
أقصد رضا الجماعة وكن غلام الطاعة
واختصر السؤال وقلل المقالا
ولا تكن معربدا ولا بغیضا نكددا
ولا تكن مقداما تسطو على الندامى
لا تمسك الأقداحا تنغص الأفراحا . الخ (١)

إلى آخر هذه الأرجوزة الطريفة . وترى فيها ما يتطلبه القوم من آداب في
النديم ، وأخلاق وعادات منه وقت المنادمة . ومن ذلك أن يتحلى بالخلاعة
ولا يتوانى في ذلك متراقعا . وألا يفخر أمام الجلاس بحسبه أو نسبه لأن ذلك
يؤدى إلى نفورهم منه . وأن يكون كيسا لبقا ذا سياسة ومصانعة حتى يخضع له
القوم ويقبلوا عليه . وألا يتشدد بمفاخر نفسه ، وأن يكون أمينا لطيف الحديث
لا يغضب جليسه ولا يسخط رئيسه . . إلى آخر ما رأيت في هذه الآداب .

وهي آداب في جملتها تدل على أن المجتمع وصل إلى قدر كبير من الحضارة
والأناقة في مجالس لهوه ومنادمته ، حتى أصبح سماره من رهاقة الحس ورقة
الشعور إلى هذه الدرجة التي تطلبت من النديم كل هذه الآداب .

(١) راجع تأهيل الغريب باب « النديم » - ومطالع الدور في منازل السرور للغزولى ج ١ - مخطوط
بالمكتبة الأزهرية ورقة ٨٩ وروض الأداب للشهاب الحجازى مخطوط بالمكتبة الأزهرية - وديوان
نفر الدين بن مكاس مخطوط بدار الكتب المصرية .

و - المجون :

ولعل حديثنا عن الاستدعاء والمنادمة يجرنا إلى التحدث عن مجونياتهم .
والشعر لم يقصر في أن يكون صدى لما يحدث في مجالس مجونهم ، أو يكون ترجمانا
لما يدور بينهم من ضروب المجون . بل لقد انحدر الشعر إلى أن يكون في وصف
المجون صريحا مكشوفاً ، يصطنع القول المرذول واللفظ الساقط العبارة . واعتقادنا
أنه بذلك معبر تمام التعبير عن واقع المجتمع . ونحن لانزال حتى اليوم نن أنينا
متواصلا من سلاطة ألسنة الناس واندفاعهم في ذكر فاحش اللفظ والتعبير ، في
مجونياتهم وغير مجونياتهم .

نقول إن الشعر هنا عبر فأحسن التعبير عن واقع المجتمع ، وإن كنا نربأ
بالشعر أن يهوى إلى هذا الخفيض من اللفظ المكشوف ، وإن فاته الصدق
وجانبته الأمانة ...

ونحن نحدثك هنا في حذر واقتضاب دون أن ننساب في التمثيل مع المنسابين
في التعبير ...

على أنه لا بد من القول إنه ما من مجتمع خلا من خلاعة ومجانة ، فهما في
المجتمعات فطرة لا فرار منها ، شأنها في ذلك شأن الغزل . وكثيراً ما يكون
المجون أحد منحدرات الغزل ، حينما لا يتورع العاشق المفتون عن أن ينساق في
غزله إلى وصف دقائق الصلات الحسية بين العاشق والمعشوق .

والمجون قديم في الشعر العربي من لدن الجاهلية حتى اليوم . وقد راج في العصر
المملوكي رواجاً عظيماً ، إذ كان المراح ومرعا والمرعى خصيباً . فقد امتلأت بيئاته
بأسبابه ودواعيه ، وتوافرت أنواع اللهو ما بين خمور وحشيش ورقص وغناء ،
إلى ما كان مباحاً من الأرقاء الحسان ، سواء من الجوارى أو الغلمان . لقد كثرت
التسرى واستخدم الغلمان في ألوان الخدمة ، مع ما لهم من جمال أخاذ ومحاسن

فاتنة ، فدعرت بسبب ذلك جوانب من الحياة ، وفجر كثير من الناس ، وتنفس
بعض الشعراء فسجلوا ما يرون وما يسمعون وما يقتفون أو ما ينقمون .

وكما يدفع ضيق الحياة وشظف العيش ومعاناة الحرمان والفراغ من العمل
الجدى ، إلى لون من ألوان اليأس ، يفضى بالمرء إلى الزهادة والنسك والتصوف
- كما أشرنا - قد يفضى به أيضا إلى التهالك على طلب اللذة والاستمتاع ،
ما وجد إلى ذلك سبيلا ، ليعوض نفسه ما فقدته ، ويتنفس بها عما كبته .

وقد يبالغ في ذلك ، حتى يتهوى إلى المجون والمبتذلات ، تشفيا من زمانه
الجاحد ، وأيامه المشقية ...

يقول زين الدين بن الوردى مصورا بقلم الناصح المرشد الحكيم المتبرىء ،
ما استشرى بين قومه من محبة الغلمان ، وما اندفع إليه الشعراء من وصف
هؤلاء الحسان :

من قال بالمرء فاحذر أن تصاحبه	فإن فعلت فتق بالعار والنار
بضاعة ما اشتراها غير بائعها	بئس البضاعة والمشرى والشارى
يا قوم صار اللواط اليوم مشتهراً	وشائعا ذائعا من غير إنكار
ذنب به هلك من قبلنا أمم	والعرش يهتز منه هز إكبار
جنات عدن عن اللواط قد حرمت	الله أكبر ما أعصاه للبارى
أستغفر الله من شعر تقدم لى	فى المرد قصدى به ترويح أشعارى
لمكن ذلك قول ليس يتبعه	خنا وحاشاى من أفعال أشرار
[قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم]	دون النساء ولو باتت بأطهار ^(١)

ومهما يكن من شيء، فقد صار في الشعر معارض حافلة لهذه الحياة الماجنة التي اتصلت حبائلها بشرب الخمر ونحوه، وبالإستدعاء إلى مجالس الأتس والمنادمة، وبالرغبة في التفكه والدعابة.

ومن بجان العصر : الوراق والجزار والسروجى والإسعدى وابن دانيال الموصلى وإبراهيم المعيار والصلاح الصفدى والفخر بن مكائس .
ولم يحتشم بعض كبار الشعراء والجادون منهم عن الإسفاف إلى المجون والتصریح بما لا ينبغى التصريح به . ومن هؤلاء الجمال بن نباتة ، والصفى الحلى والزین بن الوردی ومحيى الدين بن عبد الظاهر .

ومن مجونيات محيى الدين بن عبد الظاهر قوله :

أنا فى العالم طرفة من أشد الناس حرقة
إن أجد ردفاً ثقيلاً كان فى الصرة خفة
أو أجد هذا وهذا لم أجد فى الحال غرفة
أو أجد دهن جميعاً كان فى الآلة وقفة
فترانى طول دهرى تائباً من غير عفة (١)

والصلاح الدين الصفدى فى غلام :

أهوى بمر شفاهى إلى وقالها ويلاه من رشأ أطاع وقالها
فرشفت من رشقاته معسولها وضممت من أعطافه عسائها
وظفرت فى اليقظات منه بخلوة ما كنت آمل فى المنام خيالها (٢)

ولفخر الدين بن مكّان من قصيدة استدعائه الماجنة ، يصف عددا من رفاقه
المجان :

لهم ... قيام طول دهرهم من حين إدراكهم بالحس مارقدوا
كأنهم من حديد جمعوا زبرا يستوثبون فلايقواهم الأسد
من كل ... يحك السحب هامته بهيج كالبحر إذ يبدو له زبد
من نفل مكفهر مغضب شرس لظهره جملونات بها عقد
مسكرج الرأس في عرنيته شمم معشر الدور في حلقومه غمد
تلك تراهم في بكورهم كأنهم تحت فسطاط السها عمد^(١)

ولعز الدين الموصلى وفيه اقتباس وتورية :

قد سلونا عن المليح بخود ذات وجه به الجمال تفنن
ورجعنا عن النهك فيه ودفعناه بالتي هي أحسن^(٢)

وقال الأديب عبد الكريم بن علي السهروردي القوصي المتوفى بعد عام ٧٠٠هـ
يهجر بعض التجار ، وكان قد طلب «جوزة هندية» ، فلم يرسلها إليه :

طلبت منه جوزة منعني من قربها
وكم طلبت زوجة منك فلم تبخل بها^(٣)

ولصفي الدين الحلي يصف ليلة سهاد :

وليلة طال سهادي بها فزارني إبليس عند الرقاد
فقال لي : هل لك في شقفة كبشية تطرد عنا السهاد

(٢) خزانة الأدب ص ٢٥٤ ،

(١) عن دمنة الباكي للصفدي .

(٣) الطالع السعيد رقم ٢٥٩ .

قلت : نعم . قال : وفي قهوة عتقها العاصر من عهد عاد
قلت : نعم . قال : وفي مطرب إذا شدا يطرب منه الجماد
قلت : نعم . قال : وفي طفلة في وجنتيها للحياء انقاد
قلت : نعم . قال : وفي شادن قد كحلت أجفانه بالسواد
قلت : نعم : فقال : نعم آمنا يا كعبة الفسق وركن الفساد^(١)

ومن مجونيات علاء الدين الوداعي قوله :

قيل إن شئت أن تكون غنيا فزوج تكن من المحصنين
قلت ما يقطع الإله بحر لم يضع بين أظهر المسلمين^(٢)

ز - الخمریات :

والمجونيات موصولة الحبيل بالخمریات ، فهما في أكثر الأحوال شقيقتان متلازمان ، أو صنوان لا يفترقان . وقد وجدت الخمریات لها رجالا من شعراء العصر . كما وجدت في سائر عصور الأدب . فالخمر لازم من لوازم هذه البشرية الشقية . سعى إليها السلطان والأمير والشریف والحقير والكبير والصغير ، وامتدت راياتها ودارت كاساتها وانتصب سقاتها وتتابع رواتها ، واجتمعت من حول مجالسها المفاسد والشرور ، ومغامرات الفجور . وشدا بذكرها الشادي وتغزل فيها الغزل ، وانقطع لها المنقطع .

وهكذا استشتري خطرها في عصر المماليك ، وخطر الحشيشة معها . وتعددت لها الدور ، واتسعت لها الصدور وحارل بعض العلماء الأعلام محاربتها غيرة على الدين والخلق الكريم ، فأمر بعض الحكام بكفاحها والقضاء عليها وعلى أنصارها هي والحشيشة سواء بسواء . ومنهم الظاهر بيبرس والظاهر لاجين : ولاكن هيئات هيئات لإنسان سدر في غيه وانصرف إلى هواه . . .

ونظم بعض الشعراء فيها فوصفوها في قناتها ودنانها ، وفي قديمها وحديثها
وفي خباياها وجلالها . وفي ألوانها وأشعتها ، ووازنوا بينها وبين الشمس والقمر ،
وبين السحب والمطر . وفاضلوا بينها وبين الحشيشة الخضراء ، وما تصنع كل منهما
في عقول الأنصار والمغرمين . وتحدثوا عن مجالسهما ووصفوا ما تفعل كل منهما
في نفس الكريم والبخيل ، والفارس والجبان .

وذكروا ، عند ذكر الخمر ، جمال الليل ولمعان النجم ودنو الفجر وحسن
السقاة وحديث الندامى ، وخلطوا الغزل بها بالغزل في المعشوقين ، ومزجوا
محاسنها بمحاسنهم ، ومفاتيحها بمفاتيحهم ، حتى صار قولهم فيها صرفا مرة ، ومقتولا
مرة أخرى . وأحله بعضهم في مطالع القصائد محل الغزل .

وهكذا كان شعرهم فيها رجعا للبيئة وأثرا من آثارها وصورة لأحد جوانبها .
ولا نجزم بدليل قاطع على أن أحد هؤلاء الشعراء قد اقترب ، إنهما فعلا
وارتكب موبقتها عملا ، إلا إذا نص على ذلك نص تاريخي وثيق .

ولنور الدين الأسعردى المتوفى عام ٦٥٦ هـ قصيدتان داليتان من بحر الطويل ،
يفضل في أولهما الحشيشة على الخمر ، ويفضل في ثانيتهما الخمر على الحشيشة .
وقد علق ابن شاكر السكتي في كتابه « فوات الوفيات » على ذلك بقوله :

« تأمل هاتين القصيدتين وكيف ناقض بينهما . وبهذا يعرف حذق الشاعر ،
فإنه يمدح الشيء ويذم ضده ثم يعكس . فيميل الطباع إلى ممدح ويصرفها عما ذم ،
من غير أن يغير حقيقة هذا ولا هذا ، (١) .

فمن قصيدته الأولى يفضل الحشيشة على الخمر قوله :

لك الخير لا تسمع كلام المفند ودونك في فتياك غير مقلد
سألت عن الخضراء والخمر فاستمع مقالة ذى رأى مصيب مسدد

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٠٢ وبه القصيدتان .

وحقك ما بالخمر بعض صناعاتها أتشرب جهرأ في رباط ومسجد
عليك بها خضراء غير مبالغ بأبيض ورق أو بأحمر عسجد
واكن على رغم المدام هدية تنزه عن بيع بغير التزهد
رياضية يحكي الجنان أخضرارها وخمرهم كالمارج المتوقد
مدامهم ينسى المعاني وهذه تذكر أسرار الجمال الموحد .. الخ (١)

ومن قصيدته الثانية يفضل الخمر على الحشيشة قوله :

فديتك نور الحق قد لاح فاهتد نديمي وكن في اللهو غير مقلد
أنرضى بأن تسمى شبيه بهيمة بأكل حشيش يابس غير أرغد
فدع رأى قوم كالذباب ولا تدر سوى درة كالسكوب المتوقد
مدام إذا ما لاح للركب نورها وقد ضل ليلا عاد بالنور يهتدى
حشيشتهم تكسو المهيب مهانة فتلفاه مثل القاتل المتعمد
ويبدو على خديه مثل أخضرارها فيضحى برجه مظلم اللون أربد
وتفسد من ذهن النديم خياله فينظر مبيض الصباح كأسود
وخمرتنا تكسوا الذليل مهابة وعزا فتلقى دونه كل سيد .. الخ (٢)

وقد مدحني الدين بن عبد الظاهر هذه المائدة ، ودعا إليها الأحباب ، فاستطابوا
هذا الشراب . فنظم وقال :

خمرة للشقيق أمست شقيقه بنت كرم بالمكرمات خليفه
قال قوم من لطفها هي في الكأس س مجاز والكأس قالت حقيقه
كيف تغدو عتيقة لدنان وهي في قبضة الندامى رقيقه
نتجت فرحة وجاءت بكأس صبغت حمرة فنعم العقيقه

هي مخلوقة من الماء فأعجب كيف نار من مزنة مخلوقة
 كم تبدت بها معاني سرور بسوى الماء لم تكن مطروقة
 سلفتنا على العقول وقالت بتوالى الحباب كنت الوثيقة
 حملت همنا فحمدا وشكرا لعجزوز على بنيتها شفيقة
 كم بدت بالدموع منها الروايد ق ووجنات جبهتها مشقوقة
 أتراني أعصى إلهي فيها ثم أخشى من أن يقول الخليفة (١)

وه حكي أن السراج الوراق ، كان يغشى راهباً بدير شعران ، وافر العقل كامل
 الفضل . فخرج إليه في جماعة من أهل الأدب . وشعبان قد بقى على أقل من نصفه ،
 وبدره قد أخذ يتقهقر إلى خلفه . وشهر رمضان قد آن له أن تغل فيه شياطين
 الأنام . ويختم فيه على الأفواه بالصيام . فأنفوا الراهب وقد لبس مسحه وساح .
 وعزل الدير فما هبت فيه رائحة راح .

فلما رأوا أن دين رمضان قد حان حلول أجله . وأن وجه الدير الوقاح
 مادبت فيه من الخمر حمرة خجله . خافوا أن يأتى الصيام ، وما تشعشع سوى قنديل
 سحوره الذى بان . ولا ملك مدام يأتى منه أوائل ورد فى أواخر شعبان .

فندب السراج إليه راهبا من شباب الدير ، ليتبعه . وكتب معه :

أبلغ الفاضل الرئيس السلاما شق عن زهره الصباح كما
 قل له : أيها الحكيم الذى فى دين عيسى قد برهن الأحكاما
 كم رقبناك كالهلال إلى أن لحت للناظرين بدرا تماما
 يا أبا الملة المسيحية ارحم معشرا منزعجت عنهم يتامى
 فظموا من رضاع كأس الحميا وهى أنكى للمرضعين فظاما

واستحلوا وضع الصليب من الرا ووق من بعد حمله أعواما
 عدموا راحة النفوس من الرا ح فدارك بالأنفس الأجساما
 وأطالوا حبس المدامة في الد ن ويكفي حبس المدامة عاما
 ودعا الديك للصباح فهبوا كالحبين لا يعون الملاما
 فاسقمهم من سلافة تطرد لهم وعجل لهم بذاك اهتماما
 وعسى قائل يقول لحظي ونصبي: أطلت في ذا الكلاما
 كذب المدعى وآخر شعبا ن يناديني الصيام الصياما^(١)

ومدح جمال الدين بن نباتة ، كمال الدين بن الزملاكاني فصدر مدحته له
 بأبيات خميرية عذبة جزلة . وقد أشرنا إليها عند حديثنا عن « الإيحاء » ، وما كان
 من أمر المحاكاة بينها وبين تائيقي القيراطي وابن حجة .

والحق أن ابن نباتة أجاد فيها وأبدع ، وأفاد وأمتع . وقص خلالها قصته
 مع الخمر وندمانها وسقاتها ومغناها . وقد كان يطرق حانتها مبكرا في الليل إذ كانت
 له في صباحه إليها عادات بالسبق ، ويقصد ديرها البعيد الذي أضاء - تحت جناح
 الليل ، فتتبدى له في حجبها فيكشفها عنها ، وبزحف بها على جيش همومه ويجلوها
 الندمان . مع أنها مصونة انقطعت دونها الغايات ، ومضيئة من حولها أشعتها .
 وإذا بشرها يصرعون دون مجلسها ! وهكذا تأرت منهم لأنهم داسوها قديما
 بأرجلهم . . . إلى آخر ما وصف .

قال في أسلوب جزل وعبارة طلية ، ومعاني اللهج المستمتع النشوان :

ورب حانة خمار طرقت ولا حانت ولا طرقت للقصف حانات
 سبقت قاصد مغناها وكنت فتي إلى المدام له بالسبق عادات

أعشو إلى ديرها الأقصى وقد لمعت
وأكشف الحجب عنها وهي صافية
راح زحفت على جيش الهموم بها
وبت أجلو على الندمان رونقها
مصونة السمات دون غايتها
تجول حول أوانيها أشعتها
ويصبح الشرب صرعى دون مجلسها
تذكرت عند قوم درس أرجلهم
واستضحكت فلها في كل ناحية
كانها في أكف الطائفين بها
من كل أغيد في دينار وجنته
مبلبل الصدغ طول الوصل منعطف
ترنحت وهي في كفيه من طرب
وقمت أشرب من فيه وخمرته
تحت الدجى فكان الدير مشكاة
لم يبق في دنها إلا صبايات
حتى كأن سنا الأكواب رايات
حتى لقد أصبحوا من قبل ما مانوا
حاجات قوم وللحاجات أوقات
كانما هي للكاسات كاسات
وهي الحياة كأن الشرب أموات
فاسترجعت من رهوس القوم ثارات
هبات حسن وفي الآناف هبات
نار تطوف بها في الأرض جنات
توزعت من قلوب الناس حبات
كأن أصداغه للعطف واوات
حتى لقد رقصت تلك الزجاجات
شربا تشن به في العقل غارات... إلخ (١)

ويكاد برهان الدين القيراطي يجري في نظم خمرياته وبناء أبياتها وإسكانها
المعاني ، على تصميم نباتي متين ، وفي إحدى هذه الخمريات يبدع ويبتكر ، ويعجل
إلى الخمر فينادم بدرسمائها ، ويرى شمسها تشرق في أكف السقاة ، وقد ركب إليها
الليالي دهما ، ورفع كئوسها على جباهها غررا ، وأنفق ديناره وأعوامه على
دينارها وساعاتها... إلخ .

يقول :

كم ليلة نادمت بدرسمائها والشمس تشرق في أكف سقاتها
وجرت بنا دهم الليالي للصبا وكئوسنا غرر على جبهاتها

فصرفت دينارى على دينارها وقضيت أعوامى على ساعاتها
 حالفت فى الصبهاء كل مقلد وسعيت مجتهدا إلى حاناتها
 فتحير الخمار أن دنائها حتى اهتدى بالطيب من نفحاتها
 فشممتها ورأيتها ولمستها وشربتها وسمعت حسن صفاتها
 وتبعت كل مطاوع لا يخشى عند ارتكاب ذنوبها تبعاتها
 يأتى إلى الذات من أبوابها ويحج للصمب—اء فى ميقاتها
 ياصاح قد نطق الهزار مؤذنا أيليق بالأوتار طول سسكانها
 نخذ ارتفاع الشمس من أقداحنا وأقم صلاة اللهو فى أرقانها
 إن كان عندك يا شراب بقبة مما تزيل به العقول فساتها
 وإذا العقود من الحباب تنظمت إياك والتفريط فى حباتها... (١)

وملاً صدر الدين بن الوكيل المصرى بعض زجاجاته من هذا الفن ، فعتقت ،
 ولم يبال فى سبيل ذلك بلوامه ولا بفضته ولا ذهبه ، ولم يأسف على مال تتلفه
 السقاة والخرد ، فما كسوه حلة من راحها إلا خلعوا عنه ثوب الهم : وما هى إلا
 التبر المسبوك . وقيراط منها على قنطار من الحزن ، يحيله أفراحا... إلى غير
 ذلك من المعانى الغزلية الخيرية قال :

ليذهبوا فى ملاهى أية ذهبوا فالخمر لا فضة تبقى ولا ذهب
 لا تأسفن على مال تمزقة أيدى سقاة الطلا والخرد العرب
 فما كسوا راحتى من راحها حملا إلا وعروا فؤادى الهم واستلبوا
 راح بها راحتى فى راحتى حصلت فتم عجبى بها وازداد لى العجب
 إذ ينبع الدر من حلو مذاقته والتبر منسبك فى الكأس ينسكب

(١) تأهبل الغريب باب الخمرات - ورياض الألباب النواجى مخطوط - ومطالع البدور للغزولى -
 مخطوط بمكتبة الأزهر - وروض الآداب للشهاب الحجازى ورقة رتم ١٣ - مخطوط بمكتبة الأزهر .

وليسست الكيمياء في غيرها وجدت وكل ما قيل في أبوابها كذب
 قيراط خمر على القنطار من حزن يعود في الحال أفراحا وينقلب
 عناصر أربع في الكأس قد جمعت وفوقها الفلك السيار والشهب
 ماء ونار هواء أرضها قدح وطرفها فلك والأنجم الحبيب ... إلخ (١)

ومن الطريف أن الظاهر بيهرس ، لما أمر بإبطال شرب الخمر والحشيش ،
 جعل الحد على إثمها الضرب بالسيف . فأمسك المدعو « ابن الكازروني » وهو
 سكران . فأمر الظاهر بصلبه وفي حلقه جرة خمر ...

فقال شمس الدين بن دانيال الموصلی :

لقد كان حد السكر من قبل صلبه خفيف الأذى إذ كان في شرعنا جلدا
 فلما بدا المصلوب قلت لصاحبي ألا تب فإن الحد قد جاوز الحد (٢)

وهكذا يسجل ابن دانيال واقعة التحريم وواقعة العقوبة ، بأسلوبه الفكاهي ،
 الذي لم يخل من النكتة ومن النقد . إذ ذكر أن العقوبة قد جاوزت الحد الذي
 رسمه الشرع ...

ومن هذا القبيل أيضاً ، بيتاه الآتيان . وفيهما يذكر نهى السلطان بالعقوبة
 التي قررها كذلك . ويتفكه ابن دانيال فيهما ، ويذكر أن ملوك الجن خشيت
 العقوبة — وهي ملوك — فلم تجسر أن تدخل في القناني .
 يقول ابن دانيال :

نهى السلطان عن شرب الحميا وصير حدها حد اليماني

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٣١٧ — ومطالع البدور للغزولي — مخطوط بمكتبة الأزهر .

(٢) فوات الوفيات لابن شاكر ج ١ ص ١١٥ ، ١١٦ ط بولاق .

فما جسرت ملوك الجن خوفاً لأجل الخمر تدخل في القناني^(١)

ويتفهم الشاعر ناصر الدين بن النقيب ، ويسخر بإبليس ، بهذه المناسبة . ويرى أنه لم يعد له في مصر ، ماء ولا مرعى . أى لم تعد له فيها وسائل الحياة . والشاعر يرمز بالماء والمرعى إلى الخمر والحشيش . فقال موريا :

منع الظاهر الحشيش مع الخمر فولى إبليس من مصر يسعى
قال مالى والمقام بأرض لم أمتع فيها بماء ومرعى^(٢)

وهكذا اضطر إبليس اضطرارا - بفضل السلطان الظاهر بيبرس - إلى عدم دخول مصر . ولم يعد له في ربوعها طمع . وأصبحت غير بلاد هذا السلطان هي مأواه . وإلى هذا المعنى يشير الشاعر « القاضي ناصر الدين بن المنير » ، ويرمز أيضاً بالماء والمرعى ، كما رمز ابن النقيب ، فيقول .

ليس لإبليس عندنا طمع غير بلاد الأمير مأواه
منعته الخمر والحشيش معاً أحرمته ماءه ومرعاه^(٣)

ولا بأس من أن نذكر لك في أعقاب هذا الحديث ، أن الزجل شارك الشعر في هذا الباب ، كما شارك في كثير من الأبواب . ومن بدائع ما نظمته في ذلك منه الشاعر ابن دانيال أيضاً وله زجلية فريدة في هذا الباب بموضوعها وطولها وتفصيلها ، لما سجلته من النوازع النفسية والانهكالات العميقة . التي تدل على تأثر عظيم بحادث النهى عن شرب الخمر وفداحة العقوبة عليه . وهذا مع البساطة في التعبير ، والوضوح في الصورة ، وإسباغ الجو الفكاهي المعتاد من ابن دانيال ، وهو الجو الغالب ، الذي تشيعه الروح المصرية المرححة الناقدة .^(٤)

(١) (٣، ٢، ١) فوات الوفيات لابن شاكر ج ١ ص ١١٥، ١١٦ ط بولاق .

(٢) (٤) تراجع زجلية ابن دانيال في بدائع الزهور لابن إلياس ج ١ ص ١٠٥ .

ح - الغزل :

وتسلمنا الخمریات إلى الغزل . وكثيرا ما يكون أحدهما داعيا إلى الآخر .
وللمرء أن يتساءل : هل كان الناس في ذلك الزمان يعشقون ويتغزلون . وهل
كانوا يمشون للوصول ويحزنون للفراق . وهل كانوا يسعدون والأشواق تلعب
بهم ، والآمال تداعب نفوسهم . وهل كان شعراؤهم على غرارهم يعشقون ويتألمون
وينفثون أشواقهم وأحاسيسهم شعرا سائغا وغزلا رطبا . ويعبرون بذلك عن
مكنون آلامهم وآمالهم ويصورون به صورة طليقة من صور المجتمع . صورة
من أهم صور النفسية . وأدق مظاهره العاطفية ؟؟

وكيف لا ، وأسباب الحب من حولهم موفورة ، ودواعي العشق متكاملة .
والعصر عصر الرقيق وعصر التسرى وعصر حرية خلقية واسعة النطاق ، لا حرج
فيها ولا خشية منها ولا رقيب عليها ، إلا الوازع الشخصي . . .

لقد كانت مجالس الأتس والشراب حافلة ، وأوقاته معمورة يغشاها الغنى
المترف ليصيب بماله ما شاء من اللذة . ويختلف إليها الفقير المدقع ليدفن فيها
ما أشقاه من الهموم ، ويذيب أحزانه بشرابه ، ويفرج من كربته بغزله ومرحه . .
والشاعر يرى ويحس ويشارك ، فيغنى نفسه وغيره ، ويصور عصره . .

لا عجب إذا ما رأينا الغزل بين فنون شعرهم حينذاك ، بل في مقدمتها . لقد
نظم فيه شعراء العصر وأجادوه ، وافتنوا فيه ونوعوه . ومقطوعاتهم فيه لا تعد
ولا تحصى . ومطولاتهم أكثر من أن تستقصى .

نظمه بعضهم وهو صادق في شعره ومعبر عن نفسه وضميره . ونظمه بعضهم
تقليدا ومحاكاة وتمرينا للقريحة . ونظمه بعضهم لالتئام ضرب فيه من ضروب
البديع كتورية أو اقتباس أو تضمين أو جناس أو مطابقة أو غيرها . ونظمه
بعضهم ممزجا بالوصف أو الخمریات . وأغرم به الأدباء كما نظمها العلماء والفقهاء

بل والنسك والاتقياء ككشرف الدين البوصيرى وشهاب الدين بن حجر
العسقلانى .

ويختلط الغزل ببث الأشواق وشكوى الفراق ، وذكر الهجر والصد ،
ووصف السهد والوجد ، أو نعت الطرف والحد ، والردف والقدر . واستعطاف
الجمال ، واستسماح الدلال . وذكر الواشى النمام ، والرقب المحتال . والعذول
القوال . أو مناجاة الطيف ونوصية الرسول ومساءلة النسيم ، أو مخاطبة منازل
الأحبة . ومغازلة الرياض الرطبة . وما فيها من الورود والأزاهير . والعنادل
والطيور . وقد ينزلق المتغزل إلى المجون ، وإلى اللفظ كيف يكون . . وفى كثير من
غزلياتهم همسات نفسية جميلة ، وهجسات عاطفية نبيلة . .

وغلب عندهم تذكير المحبوب على تأنيثه . ولعل بعضهم أراد بذلك تذكير
اللفظ فحسب مع تأنيث المعنى . . . ولكن إلى جوار ذلك تغزلوا فى المذكر غزلا
صريحا لامواربة فيه ولا تأويل له . فوصفوا مثلا عذاره وعارضه ، ونعتوا
فروسيته وفتكه بعاشقه وذكر واسباله وشاربه . وغير ذلك .

وحوادث العصر وجملة وقائعه الأدبية تدل على أن الشعراء تغزلوا بالمدكر
على الحقيقة لا على المجاز . وأن محاولتهم للاتصال بالذكران ، مذكورة . ولا عجب !
فهذا عصر المملوك والرقيق ، وبينهم المحبوب والصديق . وجمال الترك والجر كس
ومن إليهم صارخ ، مع سهولة الوصول ، والبلوغ إلى المأمول . .

يقول صلاح الدين الصفدى فى مقدمة كتابه « دمنة الباكى » ، ما مؤاده : « إنه
كان خاليا من العشق والهيام حتى صادف جماعة من الغلمان الأتراك . فأصابه مس
من الهوى . ولا سيما من أحدهم . ثم أتاحت له فرصة الاختلاء به . فعنفه هذا
الغلام على حبه . بعدما كان يزجر المحبين من قبله . فادعى له أنه قدر محتوم وقسم
مكتوب . ثم طفقاً يتناجيان الغرام واللوعة . ويتبادلان اللثمة والدمعة . وكل
ذلك فى لطف عبارة وجميل إشارة . ثم افترقا بعد أن تشاكيا . وتواعدا ثم

تراسلاً ثم تلاقيا . . . وهكذا . . . (١)

وقال الصفدى يصف غلمان الأتراك :

لم تترك الأتراك بعد جمالها حسنا لمخلوق سواها يخلق
جذبوا القسى إلى قسى حواجب من تحتها نبيل اللواحق ترشق
نشروا الشعور فكل قد منهم لدن عليه من الذوائب سنجق
لى منهم رشاً إذا قابلتـه كادت لواحقه بسحر تنطق
إن شاء يلقانى بخلق واسع عند اللقاء نهاه طرف ضيق (٢)

وقال الصفدى أيضاً يذكر العارض .

وأهيف كالغصن الرطيب إذا انثنى تميل حمامات الأراك إليه
له عارض لما رأى الطرف ناعسا أتى خده سرّاً فدب عليه (٣)
ويصف جمال الدين بن نباتة العذار السائل ، وقد أجاد التضمين والتورية ،
وأخرج المضمن مخرجاً جديداً :

وضعت سلاح الصبر عنه فـالـه يقاتل بالألحاظ من لا يقاتله
وسال عذار فوق خديه جائر على مهجتي فليتق الله سائله (٤)

ويتغزل بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى ، غزلاً مذكراً رقيقاً جداً ، فيذكر
ريح العطف وشبا الطرف ، وبرد الثغر وبدر الأفق ونبت العذار . .
ويستمر فى توجيهاته المورية الطريفة ، التى استمدتها من الذهب وصرفه
وحاصله وباقية المنتظر عليه والمسكور منه . . الخ .

(٢) دمه الباكي للصفدى .

(١) مقدمة دمة الباكي للصفدى .

(٣) خزنة الأدب باب . .

(٤) ديوان ابن نباتة حرف اللام .

يقول:

وافى يصول بأسمر من عطفه وبأبيض ماضى الشبا من طرفه
يفتر عن برد بفيه أذابني ظمأ وكدت أذيه من رشفه
عاينت بدرا فى الثريا طالعاً من وجه لما بدا فى شفه
وسنان ساجى الطرف نبت عذاره غصن يصاب بذابل من عطفه
فارحم معنى فى هـواك معنفاً قد شفـه ألم القطيعة فاشفه
ألقاه كالذهب الخلاص زمانه فلذاك قد أجنى عليه بصرفه
متصرف فى الحب حاصل دمه كاف وباقى صبره لم يكفه
فإلى متى يشكو ظلامه ناظر أو حاجب لا يرعوى فى عشفه
فالقلب مكسور على بح الضنى ومتى استقال من الهوى لم يعفه (١)

وللعلامة شمس الدين بن خلسكان المؤرخ ، قصيدة غزلية رقيقة ، نسب فيها ،
وذكر حالى لياليه الماضية مع أحبابه ، وخاطب فيها ديارهم ، وتشوق إليهم ،
وشكا فراقهم ، وتمنى فى المنام زيارة طيفهم ، ورجا من الله قريب وصالحهم . . .
قال فى رقة وفى لفظ غزل عذب ، وقافية ناعمة لدنة . . .

ياديار الأحباب لازالت الأد مع فى ترب ساحتك مساله
وتمشى النسيم وهو عليل . . فى مغانيك ساحبا أذياله
أين عيش مضى لنا فيك ما أسـرع عنا ذهبه وزواله
حيث وجه الشباب طلق نضير والتصابى غصونه مياله
ولنا فيك طيب أوقات أنس ليمتنا فى المنام نلقى مثاله
وبأرجاء جوك الرحب سرب كل عين تراه تهوى جماله
من فتاة بدیعة الحسن ترنو من جفون لحاظها مغتاله

ورخيم الدلال حلو المعاني تتشنى أعطافه محتاله
ذوقوام تود كل غصون بان لو أنها تحاكي اعتداله
وجمه في الظلام بدر تمام وعذاراه حوله كالهاله
ظبية تهر العيون جمالا وغزال تغار منه الغزالة . . . الخ (١)

وما كان أكثر غزليات الشاب الظريف . وما كان أرقها وأعذبها ، وما كان
أدلها على نفس عاشقة ، وقلب مشوق . وأغلب ما في ديوانه غزل رقيق تتدفق منه
العاطفة . ولعله أصدق الشعراء غزلا وأرقهم تشبيهاً .

وها هي ذى بعض أبيانه التي تنم عن محب مغرم ، شفه الوجد . ونم عليه الدمع
والسهد . قال في صدر إحدى مدائحه :

لى من هو اك بعيده وقريبه ولك الجمال بديعه وغريبه
يا من أعين جماله بجلاله حذرا عليه من العيون تصيبه
إن لم تكن عيني فإنك نورها أو لم تكن قلبي فأنت حبيبها
هل حرمة أو رحمة لمتيم قد قل فيك نصيره ونصيبه
ألف القصائد في هواك تغزلا حتى كأن بك النسيب نسيبه
هب لى فؤادا بالغرام تشبه واستبق فودا بالصدود تشبيهه . . . الخ (٢)

وتقى الدين السروجي يذيع هواه المكتوم ويشرح هواه المضنى ويقرأ كتاب
أشواقه ويترجمه بدمعه ويكتبه على خده . ويقول مخاطباً معشوقه :

سأودعك السر الذي قد كتمته وأعلمك الأمر الذي قد علمته
وأفهمك المعنى اللطيف من الهوى وأشرحه حتى تقول فهمته

فَعِنْدِي حَدِيثُ مَنْكَ سَوْفَ أَقُولُهُ إِذَا مَا خَلَوْنَا سَاعَةَ الْوَصْلِ قَلْبُهُ
وَتَقْرَأُ مِنْ شَوْقِي كِتَابًا بِمُتَرَجِّمًا بَدَعِي عَلَى خَدِي إِلَيْكَ كَتَبْتُهُ
وَبِي مَنْكَ دَاهُ أَصْلُهُ كَانَ نَظْرُهُ عَدِمْتُ أَصْطَبَارِي عَنْكَ لَمَّا رَجَدْتُهُ . الخ (١)

وتغزل سراج الدين الوراق ، غزلا مؤثنا . وفي قوله مناجاة وقصة ، قال :

شمت برقاً من ثغرها الوضاح والدجى سيره مهبض الجناح
فمأرى شكى به ويقينى هل تجلى الصباح قبل الصباح
فأجابت متى تبسم صبح عن حباب أو لؤلؤ أو أفاح
ومتى كان للصباح شميم مسك أو نكهة كصرف الراح
سلر حيق المسكوب تسأل خبيراً باغتباق من خمرة واصطباح
قلت مالى وللسكارى فقالت أنت أيضاً من الهوى غير صاح
حجة من مليحة قطعتنى هكذا كل حجة للملاح
لا ولخط كفترة النرجس الغض وخذ كحمرة التفاح
ماتيقنت بل ظننت وما فى ظن ياهذه كبير جناح
وكثيراً شبهت بالبدر والشمس س وسامحت فارجعى للسماح
وافعلى ذامن ذلك واطرحى القو ل اطراحي عليك قول الملاح (٢)

وصدر الشاعر المجيد شمس الدين القادرى إحدى مدائحه بغزل مؤنث تقليدى .
ولكنك ستشعر من أبيانه بأنه ينفثها من ذات نفسه ومن بين أضالعه . ومنج
فيها بين الوصف الحسى والمعنوى مزجا شهما ، لم تزايله العاطفة ولم يفارقه لونه
الوجدانى . قال فى عبارات فحلة وتراكيب جزلة :

وبى غادة كالشمس فى أفق حسنهما نأت وبقلبي حرها يتسوقد

ولو هددت رضوى بتبريح حجرها لا مسى من التهديد وهو مهدد
خفيفة أعطاف نشارى من الصبا ثقيلة أرداف تقيم وتقع
من النافثات السحر فى عقد النهى بنجلاء عنها سحر هاروت يسند
وعينى تروى عن معين دموعها وسمعى عن عذل العذول مسدد
وأعجب من جسم حكي الماء رقة يقل بلطف قلبها وهو جليد
محيا كبد التم فى جنح طرة يظل به غصن النقا يتأود
وجنات وجنات بماء نعيمها على النور نار أصبحت تتوقد
مهارة إذا استنتت بعود أراكمة على متن سمطى أولو يتردد
تركك ثنيات العقيق وبارق جلالى النقا منه العذيب المبرد... الخ (١)

وتها لك صدر الدين بن الوكيل على الخمر ، فشذب بها ، وملاً أقداح فنه من
ذهبها . وانساب فى إحدى خمرياته إلى وصف منادمته فى شربه ، وهى حسناء من
بنات الترك ، لها بها ، فألهته عن خمره ، وأيقظته على ملاحظتها فأنشئ يصفها
وينعت محاسنها ويبدئ أبيانه فيها ، ما فى قلبه من حس بها ولا عجة بحبها .
قال :

عاطيتها من بنات الترك عاطية لحاظها للأسود الغلب قد غلبوا
هيفاء جارية للراح ساقية من فوق ساقية تجرى وتنسرب
من وجهها وتثنيها وقامتها تخشى الأهله والقضبان والقضب
يا قلب أردافها مهما مررت بها قف بى عليها وقل لى هذه الكشب
وإن مررت بشعر فوق قامتها بالله قل لى كيف البان والعذب
ترك وجنتها ما فى زجاجتها لكن مذاقته للريق : تنسب
تحكى الشبايا الذى أبدنه من حبيب لقد حكيت ولكن فاتك الشنب... الخ (٢)

وانختتم الحديث عن فن الغزل بالإشارة إلى غزله شرف الدين البوصيرى ، صاحب البردة ومادح الرسول عليه السلام ، ذلك الشاعر الذى كان فى عصر الماليك صاحب مدرسة فى هذا الباب ، على ما رأينا ، وكان رجلا تغلب عليه التقوى وينزع نحو التصوف . فهو بفطرته ونشأته واتجاه الحياة به ، أبعد عن الغزل ومغامراته .

نقول ذلك لأن له قصيدة كاملة فى الغزل . وهى قصة وصف فيها مغامرة طريفة وقعت له مع جارية حسناء . فهى من الفن الشعرى الرقيق الذى سبق به امرؤ القيس وأرسى دعائمه عمر بن أبى ربيعة .

وهى إلى جانب غزلها القصصى والحوارى ، وإلى حوادثها أو خطواتها الواقعية التى تجعلها من قبيل الاعترافات ، تصاحبها الفكاهة والنكتة وأساليب العامة وأمثالها ، كمعادته .

يقول الشاعر :

أهوى والمشيب قد حال دونه	والتصايب بعد المشيب رعونة
أبت النفس أن تطيع وقالت	إن حبي لا يدخل القنينة
كيف أعصى الهوى وطينة قلبي	بالهوى قبل آدم معجونة
سلبته الرقاد بيضة خدر	ذات حسن كالدرة المكنونة
سمتها قبلة تسر بها النفس فقالت	: كذا أكون حزينة
قلت : لا بد أن تسيرى إلى الدا	ر فقالت : عسى أنا مجنونة
قلت سيرى فإننى لك خير	من أب راحم وأم حنونة
أنا نعم القرين إن كنت تبغين حللا	وأنت نعم القرينة
قالت : اضرب عن وصل مثلى صفحا	واضرب الخل أو يصير طحينه
لا أرى أن تمسنى يد شيخ	كيف أرضى به لطشتى مشينة
قلت إنى كثير مال فقالت	هبك أنت المبارز القارونة
سيدي لا تخف على خروجي	فى عروضى فقطنتى موزونة

كل بحر إن شئت فيه اختبرني لا تكذب فإنني يقطينة (١)

لقد علق المرحوم زكي مبارك على هذه القصيدة وقال عنها : وهذا أيضاً شعر ضعيف وليسكن فيه حكاية ظريفة من حكايات مولانا الشيخ رضى الله عنه وأرضاه (٢).

والشعر ضعيف حقاً . وهو مستوى البوصيرى فى النظم - فيما عدا البردة - غير أن الناقد يتهم بالرجل . ويغلب على الظن . بل نعتقد أن البوصيرى ساق القصة ، وللخيال فيها أكبر نصيب . دأبه فى ذلك دأب كثيرين غيره من شعراء عصره ، ممن دفعهم التقليد إلى تكلف الغزل . وحسب البوصيرى من هذه القصة اختبار الفريجة وتمرين الخيال والشاعرية .

والقصة بعد ، بعيدة الوقوع من رجل كالـبوصيرى غلبت عليه نزعة التصوف والتوجه إلى الله ورسوله . أو لم ينظمها وقد خطه المشيب ؟ وهو نفسه يقول :
أهوى والمشيب قد حال دونه والتصابى بعد المشيب رعونة

ونعتقد أنه مشيب فى زمانه وموعده ، وليس مبكراً . والاستفهام فى البيت للتعجب أو الدهشة أو الإنكار . وهو دليل على ضعف الشيخوخة الذى يشعر به الشاعر ، وهو لا يعين على التصابى . . وبعد فليس فى القصة حرارة الشباب ولا اندفاع الرغبة ولا حيلة الغزل . . إنما هى مرادة مكشوفة ساذجة ، ومحادثة عشق فائرة ، ومغريات لافتنان فيها ، لا يلهمج بها عادة رائد من رواد العشق والغزل ، فضلاً عن شاعر يصدر عن مشاعر صادقة ، ويترجم عن نفس مؤمنة بما تقول . .

ويشير ذكر الغزل فى خواطرننا ، ما تناوله الشعراء من نواحي الجمال الإنساني فوصفوه وأبدعوا فى إبراز صفاته . فمن ذلك ما قالوه :

(١) فوات الوفيات لابن شاكر ج ٢ ص ٢٥٨ .

(٢) المدائح النبوية لزكى مبارك .

في العيون :

قول علاء الدين الوداعي في سود العيون ، التي رمت فأصمت ولم تخطيء ، لأنها
سهام ليل :

رمتني سود عينيهِ فأصمتني ولم تخط
وما في ذلك من بدع سهام الليل ما تخطي^(١)

وجمال الدين بن نباتة يحد في لحاظ العين أسهما مسددة رشيقة ، ومن سحرها
تجرد فيلقاً غازياً يلقي به في الهلاك ، يقول :

حربي من مفهف القد رام أسهم اللحظ ما أسد وأرشق
كلها قلت يفتح الله بالوصل رماني من سحر عينيهِ فيلق^(٢)
وكرر ابن نباتة ذكر سحر العينين وقرنه بقوسى الحاجبين ، في قوله
مع الاقتباس :

وأغيد جارت في القلوب لحاظه وأسهرت الأجفان أجفانه الوسنى
أجل نظراً في حاجبيه وطرفه تر السحر منه قاب قوسين أو أدنى^(٣)
ووصف شهاب الدين بن حجر العسقلاني تفويق سهم الألاحظ وتقوس
الحاجبين في قوله :

سألت من لحظه وحاجبه كالقوس والسهم موعداً حسنا
ف فوق السهم من لواظظه وانقوس الحاجبان وقت رنا^(٤)
وفي قوله : « وقت رنا ، أو « واقتربنا ، جناس التورية .

في اللحظ :

لقد تخيلوه سهما وسيفا ، وتخيّلوا الطرف سيفا ، والجفن غمدا . وتلاعبوا
بلفظي السيف والغمد ، كما شاء لهم الخيال . والسهم يجرّح ، والسيف يردى ،
وكلاهما يخشيان ..

ويقول مجير الدين بن تميم في ذلك ، مع التضمنين البديع :
بروحى من الأتراك ظي تخافه إذا ما سطا أسد الشرى وتحاذره
فما حيلتى فيمن إذا رمت وصله ثنى طرفه نحو الحسام يشاوره (١)
ويقول شمس الدين بن الصائغ :

قد زاد في التفنيد لى عاذلى على هوى من لم أطق بينها
حتى بدا من لحظها صارم فقر لما أن رأى عينها (٢)

وكثيراً ما يقف العذار ناهياً عن المحبة ، ومحدراً من الدنو ، وعاذلاً رقيباً
في طريق الهوى ، فيغرى اللحظ بها ويدفع إليها . وفي هذه المعانى يقول ابن نباتة
مضمناً أحد مطالع أبى تمام ، ويخرج بشطر البيت المضمن عن طريقه الأول إلى
طريق الغزل . يقول :

خط العذار نهانى عن محبته وقال حسبك قد أسرفت فى الطلب
ولحظه قال لى سلوانه غلط والسيف أصدق أنباء من الكتب (٣)

ويستعير ابن العفيف ، السنان للحظ . ويتلاعب بلفظ السنان . ويمهد
لتلاعبه . وذلك بقوله :

بدوى كم جدلت مقلته عاشقا فى مقاتل الفرسان

ذو محيا يصيح بالهلال ولحاظ يقول بالسنان (١)
 وجمع البرهان القيراطى بين السيف والسنان فى قوله ، مع التورية اللطيفة :
 شبه السيف والسنان بعينى من لقتلى دون الأنام استحلا
 فأبى السيف والسنان وقالأ حدنا دون ذاك حاشا وكلا (٢)
 وجمع ابن نباتة بين الهلال فى الوجه ، وبين الغزال فى جمال العين وسحرها ،
 وذلك بقوله مع التورية فى توكيده :

نسبوه حسنا للهلال وعينه للظبي تنسب لا رميت بينه
 فإذا بدا فالى هلال أصله وإذارنا فهو الغزال بعينه (٣)
 وينتقل مجير الدين بن تميم باللاحظ إلى الصهباء . فيمزج بينهما مزجا لطيفا ،
 ويجمع شملهما . ويقم من اللاحظ ساقيا لها ، ويمهد بذلك لذكر انكسار
 الطرف . يقول :

روحي الفداء لمن أدار بلاحظه صهباء فى عقلى لها تأثير
 فاعجب له أنى يصون بلاحظه مشمولة وإنأوها مكسور (٤)
 وتغار عيون النرجس من عيون الحبيب . وفى الجمع بينهما على أساس من
 الغيرة ، تشبيهه ضمنى طريف . — لقد نظم ذلك المعنى ، الأديب شهاب الدين بن
 حجر العسقلانى ، فى بيتيه اللذين يصور فيهما زيارة حبيبه المروضة . يقول :
 ولم أنس إذ زار الحبيب بروضة فغارت من المعشوق أعينها المرضى
 ولاح بخد الورد حمرة خجلة إلى أن رأينا طرف نرجسه غضا (٥)
 وفى لفظ «المعشوق» تورية بمعنى المحبوب ، وبمعنى مكان ومنزه فى الروضة .
 — وفى لفظ «غض» تورية أخرى بمعنى الفعل أو الاسم .
 وفى سحر العيون تحدث ناصر الدين بن النقيب ، فقال :

ومابى سوى عين نظرت لحسنها وذاك لجهلى بالعيون وعرتى
وقالوا به فى الحب عين ونظرة لقد صدقوا عين الحبيب ونظرتى (١)
وصرح شهاب الدين أحمد بن عبد الدايم ، بما فعلته به العيون ، وما رمت
به القلوب . وهو إلى هذا يدعو لها . ويقول :

لا واخذ الله عينيه فقد نشطت إلى تلافى وفيها غاية الكسل
ترمى القلوب فما ندرى أقام بها هارون أم ذاك رام من بنى ثعل (٢)
وجمع تقى الدين شبيب النيرى بين شقائق الخلد ولآلىء الشجر وغز الى الطرف ،
موريا بأسماء بعض الأعلام ، فقال :

ومفهم قسم الملاحه ربها فيه وأردعها بغير مثال
فلخذ النعمان روض شقائق ولشجره النظام عقد لآلى
ولطرفه الغزال إحياء الهوى وكذلك الإحياء للغزال (٣)
ويدعو الشاب الظريف للعيون بأن يعز الله أنصارها ويخلد ملكها ،
ويضاعف بفتورها اقتدارها . يقول :

أعز الله أنصار العيون وخلد ملك هاتيك الجفون
وضاعف بالفتور لها اقتدارا وإن تك أضعفت عقلى ودينى (٤)

فى الدمع :

ومن لوازم المحبين ، وجد مقيم وعذاب أليم . وشوق وحنين ، وبكاء وأنين ،
وزفرات حارة حامية ، ودموع واكفة جارية . وهذه الدموع من أعذب ما تفيض
به الطبيعة وتسيل به محاسنها ، تخفيفاً للوعة ، أو تنفيساً لسكرية ، أو عوناً على هم
ناصب ، أو جلباباً لعطف حبيب ، أو استشفاعاً لبلوغ أمل ، أو اعتذاراً عن

(٢، ١) تأهيل الغريب باب استعارات السنان للخط .

(٣ ، ٤) المصدر السابق .

ذنب . فهي فطرة من فطر الإنسان طبع عليها ولازمته ، واتصلت اتصالاً وثيقاً بمشاعره وعواطفه ، بل هي الناطق عنها والمعبر بلسانها ، والبرهان على صدقها . وقد افتن الشعراء في وصف هذه الدموع الجارية . ومنهم شعراء العصر المملوكي ، وذلك في سياق أغراضهم الشعرية .

وقد قال صلاح الدين الصفدي في مقدمة كتابه « تشنيف السمع بانسكاب الدمع ، مالم يخلصه :

« رأيت الشعراء قد أطنبوا في ذكر الدمع . وبالغوا في وصفه ضمن الرثاء والتشبيب . وتفننوا وسلسكوا في تشبيهه طرقاً متشعبة ، واستعملوا فيها ضرباً مختلفة ، لأنه فاضح سرهم ، وكاشف أمرهم ، لمن يحاولون كتمانهم عن ذوى قرابة المحبوب والرقباء ، ويجعلون الذنب في إفشاء السر المسكّن لهم . ومنهم من ذكره بغير مبالغة ، ومنهم من أخرجه عن دائرة المعمود ، فجعلوه متصل الجرى دائم الهمول ، من غير فترة في وقت دون وقت . ومنهم من ادعى أنه مثل المطر ، حتى سقوا به الديار ، ورووا به الأطلال الدارسة المقفرة . ومنهم من تجاوز به فشبهه بالأنهار الجارية ، والغدران الطافية ، والسيول المنحدرة من أعلى الربا إلى بطون الوهاد . وغلا بعضهم ، فوجده في البحار وشبهه بالطوفان . ومنهم من بدل الدم به ، وشبهه بالعقيق والمرجان وبالياقوت . وجرح به الأجفان وقرح المسآقي ، وأذهب العين . أو جمده فلم يذب . واستنصروا به على الوجد والحزن . واستعانوا به على الهجر والصد ، واستشهدوا به على العشق والسهد . أو استنجدوا به الإخوان والأصفياء ، أو استرحموا به العذال والحساد والرقباء . إلى غير ذلك ، (١) .

وقد فتح شعراء العصر المملوكي ، عيونهم على الدمع فلم يغفلوه ، واستسقوه فلم يبخل عليهم . فجاد خاطرهم بكثير من الأبيات وصفاله وتصويرا .

وهذا شهاب الدين محمود الحاي يطلب إلى صديقيه اللذين فقدهما ألا يلوماه
إذا أجرت حرقته ماء عينيه نهرا :

لأنلوماني إذا أجرت لظي حرقتي من ماء عيني نهرا
فالذي قد راعني من فقدكم يقتضي أكثر مما قد جرى^(١)

ونم قلبه إلى طرفه بما كنتم أحبابه ، فجرى بدمعه خلفهم يقول :

سخوا بروحي وشجوا بالوداع على عيني فما زدوها منهم نظرا
ونم قلبي إلى طرفي بما كنتموا عنهم فساد على آثارهم وجرى^(٢)

وتفيض عيون الشهاب محمود بدموع الفرح ، وقد لاح له نور القرب ،
وأصبح قاب قوسين أو أدنى من ديار الأحبة . وفي ذلك يقول في جزالة :

غنى بذكر الحمى فارتاح كل شج وخاض بالدمع حادى الركب في لجج
حتى إذا لاح نور القرب وابتسمت تلك الشنيات عن وجه الحمى البهيج
فأى ماء دموع لم ترق فرحا وأى نار ضلوع ثم لم تلج
وكم لسان فصيح كل من دهش فصاح نحو لسان المدمع اللهب^(٣)

ويرى أبو الحسين الجزار ، أن الجفون مواطن الكرى ، فإذا نأى عنها بكته ،
وهذا من العجب ، ويرى أن طرف الحب فم ، وأن دمه لسان عنه يذيع خبر
الجوى عن الحب إن صمت لسانه ، يقول :

طرف الحب فم يذاع به الجوى والدمع إن صمت اللسان لسان
تبكى الجفون على الكرى فاعجب لمن تبكى عليه إذا نأى الأوطان^(٤)
ويحيل سراج الدين الوراق دموع محاجر دماء . ليبكى بها ليالى حاجر . حيث
أحبته وذكرياته ويتجاوب بأرقه مع ورقاء هيجته . فقال :

(١) تأهيل الغريب باب وصف الدمع ،

(٢) المصدر نفسه .

(٣) تشنيف السمع ص ٤٧ .

(٤) تشنيف السمع ص ٥٠ .

دع مقلتي للدمع والارق الذي كم هيجته حمامة ورقاء
أبكي ليالى حاجر بمحاجر بهوى العقيق دموعهن دماء (١)

ويقف مجير الدين بن تميم دمه على محبوبه النائي ، فيقول موريا :

لما لبست لبعده ثوب الضنى وغدوت من ثوب اصطبارى عاريا
أجريت واقف أدمعى من بعده وجعلته وقفا عليه جاريا (٢)
ولمحي الدين بن عبد الظاهر ، وقد جمع بين دمع العين ودم القلب ، مع تورية .
قال :

ياسيدى إن جرى من مدمعى ودمى للعين والقلب مسفوح ومسفوك
لا تخش من قود يقتص منك به فالعين جارية والقلب مملوك (٣)

وشبه صلاح الدين الصفدى ، الدموع بالغواذى . وورى بما صنعتته على
الخد ، فقال :

إن عيني مذغاب شخصك عنهما يأمر السهد فى كراها وينهى
بدموع قد أشبهتها الغواذى لا تسل ما جرى على الخد منها (٤)

وافتن صلاح الدين الصفدى كذلك ، وتصرف فى المعنى . ورفع لمعشوقه
قصة حاله مكتوبة بدموع عينه ، فقال :

رفعت له فى شرح حالى قصة وقد كتبت عيني على طرسها سطرأ
وأوصى بجسمى أن تعنى رسومه فقلت له : دمعى ، فوقع أن يجرى (٥)

وجعل ابن نباتة دمه سائلا ومجيبا فى آن واحد ، فقال موريا .

إذا سألونى عن هوى قد كتمته سمكت أراعى وأشيا ورقبها

(١) تشنيف السمع ص ٦٥ . (٥ ، ٤ ، ٣ ، ٢) تأهيل الغريب باب وصف الدمع .

وجاوب عني سائل من مدامعي فله دمعي سائلا ومجيبا (١)
وجمع ابن نباتة أيضا بين دمعته وخذ معشوقته فجمع بين غدير وروضة ،
فقال :

أسرت إلى سمعي غداة ترحلت حديثا إلى حفظ العهود يشير
وهييج عندي قرب خدي لخدتها بكا فتلاقي روضة وغدير (٢)

قال ابن حجة إن ابن نباتة أخذه من قول خالد الكاتب :
إن كان أضحي فوق خديك روضة فإن على خدي غديرا من الدمع (٣)
ولكننا نرى أن ابن نباتة فرق بين الخدين ، ولاقي بين الروضة والغدير ،
بينما فرق بينهما خالد الكاتب .

واستبقى الشهاب محمود الحلبي الروضة بجمال أحبابه ، وحول الغدير أنهارا .
فقال :

أحبابنا إن نأت عني دياركم بعدا وفارقت أوطانا وأطارا
فإن لي نصب عيني من جمالكم روضا نصيرا ومن عيني أنهارا (٤)
ويقف أبو الحسين الجزار المصري ، في وقت السحر يوم الرحيل ، يودع
أحبابه الذين سحروا قلبه وطاروا بفؤاده ، ولهج القلب فترك الطرف ، فأبت
جفونه مؤتمرة بأمر القلب ، لتعينه على ما هو بصده من هم وحزن ووله . .
وهو موقف نفسي يتكرر للشاعر ، فتكرر معه همومه وأحزانه ، وتفيض
له المآقي بعبراتها ، والجفون بدموعها .
يقول الشاعر :

أستودع الله من ودعتهم سحرا يوم الرحيل وهم للقلب قد سحروا

وقال قلبي لطرفي عند فرقتهم ماذا لدمعك فيه اليوم تنتظر
 هناك آبت جفوني وهي مسرعة إن الجفون بأمر القلب تأتمر^(١)
 وتملاً الخيرة فؤاد الشهاب الحلبي ، وهو يودع أحبابه . ويهوله الموقف وقد
 أذنوه بين . يودعهم وعينه تتملأ برؤيتهم قبل الرحيل . فتمتلىء بعبراتها ألماله ،
 فلا يدرى أعبرات الفرح بهذا القرب الحالى ، أم دموع الحزن لهذا البين المنتظر .
 قال :

قالوا الرحيل وما تملت باللقاء عيني ولا امتلأت بغير مدامعى
 حيران لا أدرى لقرب أننى أذى المدامع أو لبين رائع^(٢)

ويعقد صلاح الدين الصفدى مسابقة فى الجرى غريبة ، بين قلبه وأدمعه ،
 فلقد وقف لوداع حبيبته ، فعجل قلبه فسار فى ركبه قدامه . وعجلت أدمعه فجرت
 خلفه فلم تلحقه . ومطابقتها فى البيتين التالين هينة لطيفة طبيعية . قال :

لما اعتنقنا لوداع الهوى وكدت من جمر الجوى أحرقة
 رأيت قلبي سار قدامه وأدمعى تجرى فدا تاحقه^(٣)
 وقد هدا لفظ كدت ، من نتيجة ، أحرقة . . .

ويقع الصفدى بين الرغبة فى البسكاء ليهدى من تلظى قلبه ، ويستعين بدمعه
 على آلام سهره ، وبين الرغبة فى السكتان مخافة أن تفضحه عبونه أمام الرقباء .
 فيحار دمه فى جفنه ولا يدرى هو كيف يصرفه ، أينعه أو يجريه . . . يقول
 متعجباً .

قد حار دمعى فى جفنى مخافة أن يدرى الرقيب بأن الجفن يدرى
 يا للرجال لأمر قد بليت به على سهادى وقلبي فى تلظيسته

حتى ولا دمع عيني لم أجد فرجا منه ولم أتصرف بالبسكا فيه^(١)
ويحيل السراج الوراق أدمعه جمانا وعقيقا ، في أبيات عاطفية تصويرية جيدة ،
يقول فيها :

لست أنسى ساعة البين وقد وجم الشائق منا والمشوق
ورجوعي بدموعي عاثرا لست أدري بعدهم أين الطريق
وعلى الأكوار منهم قمر ليس للأقمار إن لاح شروق
كلها أم العقيق امتزجت أدمعي فهي جمان وعقيق^(٢)
وجعل الصاحب زين الدين ، والسراج الوراق ، الدمع بينهما حديثا جرى ،
على إثر حديث نسيات الصبا لهما عن أحبابهما .
يقول الصاحب زين الدين للوراق :

أهدى له البرق من أحبابه خبرا فبات ناظره يستعذب السهرا
وحدثنه نسيات الصبا سحرا فلا تسئل عن حديث الدمع كيف جرى
فأجاب الوراق ، وزاد ، بهذه الأبيات :

جاءت مخبرة عنهم معطرة منهم وطيب شذاها أوضح الخبرا
هيئات أن يجمع المشتاق مندنا وأيا جنبا لمهد ولا جفنا لطيب كرى
يا منزلا بالحنى حبيت من وطن كم بلغتني أيامى به وطرا
فجاءك الغيث إني يوم بينهم أفنيت دمعى وقد أوصى به الخبرا^(٣)
ويطرح السراج الوراق حماسة أذابت فؤاده بتغنيها وشكواها وأنينها . وما
تغنت إلا بشكواه هو ، وما صدحت إلا بأنينه . وكلاهما يبكي هواه وشجوه .
ويفضلها هو بعبوته الفائضة المستمرة .. قال :

ألا قاتل الله الحماسة إنها أذابت فؤاد الصب لما تغنت

أطارحها شكوى الغرام وبثه فما صدحت إلا أجبت بأنتى
كلانا بكى شوقا ومعتبر الهوى يفضلى عنها بفائض عبرتى
وإن قيل لا يبلى على الدهر طوقها كذلك لا تبلى عمود أحبتى^(١)

فى العذار .

وافتن الشعراء فى وصف العذار ، وتأثروا بمن سبقهم من الفحول وتصرفوا
فى المعانى والصور ما شاء لهم الفن والإبداع . وأطالوا فى ذلك وأسهبوا
ما طأوعهم النفس الشعرى . وراج هذا الفن لديهم بروج الرقيق واستخدام
الممالك الغلمان فى المنزل وغير المنزل . .

وافتنوا بالعذار واستشعروا فيه ألوانا من الجمال ، جذبت إليه العيون
والنفوس . وأجادوا فى تشبيهه ، وتناولوه بالحديث فى غزلهم بالمذكر ، بل ربما
كان أحد أسباب توسعهم وإطالتهم فى هذا الضرب من الغزل .

لقد شبهوه بالليل المظلم ، وقالوا عنه إنه من الجفون ، وديب النمل ، وأوائل
الريحان فى أواخر الورد . وإنه نبت الخد ترعاه العين . وإنه الآس وإنه البنفسج
واعتبروه زردا للخد وحارسا يحميه من القبل . ورأوا فى حركته دورا وتسلسلا .
ووجدوه قد دار حول الخد كاللام ... إلى غير ذلك من التصورات البديعة التى
تبرزها التأملات النفسية العاطفية . فتبدو ترجمانا عنها ولسانا لها ..

ويعتبر أن حجة الحموى هذين البيتين التالين ، من المخترع المبتكر فى معناه
وتصوره ، وهما لصدر الدين بن الوكيل قال :

إذا قلت ثغرك صن باللشام يقول سيحمية صارم جفنى
وإن قلت قد صار فى قتله كليلا يقول عذارى مسنى^(٢)

(١) تشنيف السم ص ٨٤ .

(٢) تأهيل الغريب فصل العذار .

وأنبت بحير الدين بن تميم هذا العذار نباتا حسنا ، وكفله . . . إذ قال مع التورية :

قالوا بدا نبت خديه فـذـبـلا عنه فقلت لهم حاشاه حاشاه
إن لاح في خده نبت فلا عجب الله أنبته والعين ترعاه^(١)
وقال أيضا وقد بدا لعينه العذار الأشقر :

شبهت خدك يا حبيبي عندما أبدى الجمال به عذارا أشقرا
تفاحة حمراء قد كتبوا بها خطأ دقيقا بالنضار مشعرا^(٢)
وفي وصفه سيما الترف والحضارة . .

والسراج الوراق يشبه العذار بالزرد للخد ، يحميه من لحاظ العين
أو القبلية ، يقول :

وفاتك يخرج سيف لحظه مجرداً من جفنه ومغمدا
خاف على خديه من لحاظه فبات في عذاره مزرداً^(٣)

ومن طرائف الشباب الظريف قوله في العذار مع التورية في الدور والتسلسل :
لحاظك أسياف ذكور فـهاـ كما زعموا مثل الأراذل تغزل
وما بال برهان العذار مسلما ويلزمه دور وفيه تسلسل^(٤)

وقال أيضا - ويعده ابن حجة من المخترع - مع التورية في « باقل » :
أيسعدني يا طلعة البدر طالع ومن شقوتي خط بخدك نازل
ولو أن قسا واصف منك وجنة لأعجزه نبت بها وهو باقل^(٥)

وأبدع صلاح الدين الصفدى في وصف العذار والصدغ فقال :

أقول له ما كان خدك هكذا ولا الصدغ حتى سال في الشفق الدجى
فمن أين هذا الحسن والظرف قالى تفتح وردى والعذار تخرجا^(٦)

وأجاد ابن نباتة وصف العذار مع التورية والتضمين . وقد أخرج عبارته المضمنة عن طريقها في المدح إلى طريقه في الغزل . فأضاف فنا إلى فن . وقال :
وضعت سلاح الصبر عنه فما له يقاتل بالأحاط من لا يقاتله
وسال عذار فوق خديه جائر على مهجتي فليتنق الله سائله (١)
وجمع ابن نباتة بين الصدغ والخد والعذار ، فجمع بين المرعى والماء والظل ،
في قوله :

بأبي من إذا تثني دلالا أطرقت في رياضها القضب خجلى
مد صدغا على عذار وخد فرأينا مرعى وماء وظلا (٢)
وتلطف ابن حجة الحموى في وصف مرور العارض ، فقال :

يقول عارض حبي حين مر على روض الخدود كمر الطيف في الوسن
أصبحت أطف من مر النسيم سرى على الرياض نسيم الوشم يؤلمنى (٣)
ونخر الدين بن مكائس يفقد صبره وتسل سيفه ، حين بدا آس العوارض ،
فيقول لمن يلومه موريا :

يالائمي إن فقدت الصبر في قمر أصدغه سلبت أهل الهوى وسبت
كلت سيوف اصطبارى عنه حين بدا آس العوارض في وجناته ونبت (٤)
ويستدل سراج الدين الوراق على أن معشوقه غصن آس ، باخضرار
عارضيه ، فيقول :

وأهيف لم يزل للبيان متهما وللأراك بقدر منه مياس
حتى إذا اخضر في خديه عارضه ما ارتبت في أنه غصن من الآس (٥)

— — —

(١) تأهيل الغريب - فصل العذار ،

(٢، ٣) خلع العذار في وصف العذار لشهاب الدين عبد الوهاب الحنفى المصرى مخطوط بمكتبة بلدية المنصورة .

(٤، ٥) خلع العذار في وصف العذار .

في الخال :

وعلى الخد الوسيم يقف الخال الكريم . ! فيضني بسواده على احمرار الخد
جمالا وحسنا . وينقطه قدشرق بهجته ، وتتفتح وسامته ، ويزيد طبيعة الجمال
جمالا ، وموضع الحسن حسنا .

وتلاعب الشعراء بالفاظ الخال والحسنة والشامة ونحوها . وتولدت لهم من
ذلك معان كثيرة ، وصور عدة ، مع التوريات اللطيفة الممتعة . وقد تغزلوا في
خد الحبيب وخاله . ووصفوا اجتماعهما وسرح خيالهم في ذلك مسرعا واسعا ،
فسحه لهم هذا الجمال الطبيعي المحبوب ، الذي غمر عصرهم .

وهذا ابن نباتة يذكر هذه الحسنات ، ويغفر من أجلها السيئات ! فيقول :

إن أساء الحبيب قامت بعذر وجنة منه فوقها شامات
يا لها وجنة أقابل منها حسنات تحمي بها السيئات (١)

وابن نباتة يأتي إلا أن يورث الخال ! ولكن أي خال وأي ميراث؟ يقول :

لله خال على خد الحبيب له في العاشقين كما شاء الهوى عبث
أورثته حبة القلب القتييل به وكان عمدي أن الخال لا يرث (٢)

وبرهان الدين القيراطي يورى بكلمة « الخال » ويحشد له الحسن كله .

ويقول :

بروحى أفدى خاله فوق خده ومن أنا في الدنيا فأفديه بالمال
تبارك من أخلى من الشعر خده وأسكن كل الحسن في ذلك الخال (٣)

ويأتي تقي الدين السروجي إلا أن « يمسك » الخال ، وأن يعجمه ، وذلك بقوله

في تورياته :

في الجانب الايمن من خدها نقطة مسك أشتهى شمها

حسبته لما بدا خالها وجدته من حسنه عمها (١)

ويمزج عز الدين الموصلى بين الخال والعم كذلك ، ويقول :

لحظت من وجنتها شامة فابتسمت تعجب من حالى

قالت قفوا واستمعوا ما جرى قد هام عمى الشيخ فى خالى (٢)

ويقيم ابن العفيف من الخال حارسا لخضرة العارض ، ثم يعاتبه على قيامه بهذه الحراسة ، ويقول :

يا خاله خضرة بعارضه حرسها عن متم مغرى

كف عن العاشقين مقتصرا هل أنت إلا حويرس الخضرا (٣)

ويصور علاء الدين الوداعى من مسك الخال ورحيق الثغر ، جنة لاريب فيها ، ويقول :

انظر إلى الجنة فى ثغره لاريب فى ذاك ولاشك

أما ترى فيها الرحيق الذى ختامه من خاله مسك (٤)

ومجبر الدين بن تميم يروعه عدد من الخال ، قد بدا فى خلال العذار ، فقال مشبها :

ومفهمف خياله وعذاره قد جاوزا حد الجمال فأفرطا

فكأنما كتب العذار بخده سطورا بحبات القلوب منقطا (٥)

وجمع ابن نبابة بين الخال والثغر واللى ، وعقد بهذا الجمع تشبيها طريفا ، وأطلق فيه بلالا بين الصبح والسحر . قال :

عرج على حرم المحبوب منتصبا لقبله الحسن واعذرني على سهرى

وانظر إلى الخال فوق الثغر دون لى نجد بلالا يراعى الصبح فى السحر (٦)

مواضع أخرى :

ومواضع الجمال والحسن الإنساني كثيرة ، عداما تناولناه بالحديث . ومنها :
الخصر والردف والقَد ، والشعر والشفاه والعطف والخذ والهدب والأجفان ،
والحاجب والأسنان والسوالف والشعور . وثمار السكواعب في الصدور ... حتى
الشيب الباكر والشباب الطائر ... إلى غير ذلك .

اتجه الشعراء بنفوسهم وخواطرهم إلى هذه المواضع ، وكان لهم فيها رجع
بعيد وأثر جديد . لقد مدوا إليها العين واللسان ، لكي يزودوا منها ، ويحسنوا
في وصفها البيان . ومنزجوا هذا الوصف مزجا مشهيا بأغزاهم البديعة .
ويطول المقام إذا ذهبنا نفصل القول في كل منها ، فلنجتزئ من ذلك بالآيات
الآتية في وصف بعضها :

ويعتبر ابن نباتة المصري في مقدمة الغزلين جنانا وإسانا . وقد تغزل في
صدر إحدى مدائحهم في «رשא» ، فوصف المقلة والسوالف والأعطاف والقامة ،
وأفصح عن بعض آثارها في النفوس والقلوب .
فالمقلة الكحلأ علمة الجنون بالسوداء . وديب النمل في السوالف آثار
خواطر الشعراء ، وضيق العين ينبئ عن بخل يعني : وهذه الأعطاف يشتهي منها
اللقاء . وتثنى القامة للدنة كعطو الظبية الدراء ... إلخ .
يقول الشاعر موريا :

قام يرنو بمقلة كحلأ علمتي الجنون بالسوداء
رשאذب في سوالفه النمل فهامت خواطر الشعراء
روض حسن غني لنا فوقه الحلي فأهلا بالروضة الغناء
ومنها :

ضيق العين إن رنا واستمحننا وعناء تسمع البخلأ
(٢٣م - عصر المليك)

ليت أعطافه ولو في منام وعدت باستراحة للقاء
يتثنى كقامة الغصن اللدن ويعطو كالظبية الأدماء
ياشبيهه الغصون رفقا بصب نأخ في الهوى مع الوراق (١)

ومن قصيدة أخرى يذكر ابن نباتة صولة الحسن من غزال جميل ، فاتر
اللحاظ ، يسل أسياف عينه ، ويهز قناة قده ، ويشور ورد خده ، فيحلو لمحبه أن
يفديه بأبيه ، وإن هدد بالبعد وعاقب بالسهاد . . . إلخ .

يقول الشاعر :

بأبي فاتر اللحاظ غرير رام تشبيهه الغزال ففاته
صائل الحسن إن رنا ونثنى سل أسيافه وهز قناته
لعيون الوري بخديه ورد طالما عاقب السهاد جناته (٢)

وقد جمع هذا الشاعر المبدع في إحدى قصائده ، مجموعة من هذه المحاسن
والمفاتن . وما منها إلا وله في النفس مكانه ، ومن الوصف بيانه فاللحظ مهند
يسطو . والقدر تروى عنه صحاح العوالى ، والردف والعطف يشجيان بالعود
والقيام . وثغره خانم عقيبى يغرى بالثم . . إلخ .

يقول الشاعر :

غزال يناجيني بلفظ معرب ولكنه يسطو بلحظ مهند
وقد روت عن لينه واعتداله صحاح العوالى مسندا بعد مسند
إذا قعدت أردافه قام عطفه فيا طول شجوى من مقيم ومقعد
كلفت به من قبل ما طال قده فطوله فرط العناق المردد
وعاينت من فبه العقيقى خاتما فصغت له بالثم فص زبرجد
وحدثنى من ثغره ورضابه عن الجوهري المشتقى والمبرد
وكنت حذرت الخود حين تمرت فأوقعنى طرفى لأمرد أمرد

يخيل لي أني له لست عاشقا لأن ليس لي في حبه من مفند
ولولا الهوى ما بت بالدع غارقا عليه وأشكو للورى غلة الصدى
والثم عطفه وجفنيه بعد ما قتلت برح منهما ومهند ... إلخ (١)

ويذهب الشاعر الغزل العذب ، نخر الدين بن مكاس ، هذا المذهب ، في صدر
إحدى قصائده ، فيجمع في أبياته بين مواضع عدة من مواضع الحسن الأخاذة ،
ومواطن الجمال المثيرة ، كالمراشف للعساء والحدود النارية واللحاظ الفاتكة
الساحرة ، والأجفان السقيمة ، وسهامها المفوكة ، والصفائر المرسلّة الجعدة إلخ .
يقول الشاعر في رقة وجزالة :

شفي العس المرأشف ألى	بحدود من نارها يعصر الما
لا تقل زينب وهند وسعدى	وسعاد فإنما هي أسما
إن حمت ثغرها بجاه لحاظ	ففؤادى بجاه وجسدى أحمى
يا لحاظا بسحرها فتننا	وأرتنا من صحة الجفن سقا
لم أمست جفونها ناظرات	مقلنى والحديد ما زال أعمى
وسهاما إن فوقت عن قسى	لم تدع فى الفؤاد للصبر سهما
إن بدت خلفها الصفائر تسعى	حية زد هوى ولا تخش وهما
كم نذلت للرسول وكم قلد	ت له يارسول من برحى
رح إليها واستطلع السر منها	فى دجى الليل إن فى السكتم حز ما .. إلخ (٢)

وعلى نمط من نخر الدين بن مكاس ، ترى غزل البرهان القيروطى ، الذى سحرت
نفسه بالعيون القاتلة للأساد فى غاباتها ، وبالأجفان السود التى تفتك ألحاظها فتك
السيوف ، مع أنها وسنانة ، وبالمعاطف التى فضحت بتثنيها الغصون . .

(١) ديوان ابن نباتة حرف الدال .

(٢) ديوان نخر الدين بن مكاس ورقة ٧ — مخطوط بدار الكتب المصرية — أدب ٨٢ م .

يقول الشاعر :

أما عيونك فهي من عاداتها أن تقتل الآساد في غاباتها
أجفانها السود التي ألحاظها تحكي فعال البيض في فتكاتها
وسنانة هجرت جفون محبها لنعاسها في الحب وصل سباتها
ومفهمف من صده ووصاله يلقي النفوس بموتها وحياتها
فضحت معاطفه الغصون لأنه حركاته تغنيك عن حركاتها . (١)

والشيب أحد مظاهر الطبيعة البشرية . يأتي بعد شباب نضر مليء بالقوة
والأمل والمغامرة العذبة . وتصاحب الشيب عادة ملاح الضعف واليأس والالام .
ولهذا ندر أن مدحه أحد أو أثني عليه . وأكثر الشعراء من ذمه وإظهار الأسف
لقدومه ، وتذكروا الشباب وعنده السمع الجميل ، ولياليه العذاب .

ووصفوا الشيب بالنهار ، والشباب بالليل ، واعتبروه في الرأس اشتعالا ،
 واعتبروه يقظة من حلم الشباب ، ومطرا للدمع ، وثوبا من أثواب التقى . ورأوه
قذى أمام الحبيب ، وآية لهب في الرأس ، وتبسما وضحكا على ذقن الفتى ... الخ .

ويقول صلاح الدين الصفدى :

ياساحبا ذيل الصبا في الهوى أبليته في الغى وهو القشيب
فاسبل بدمع العين ثوب التقى ونقه من بعد عصر المشيب (٢)

ويقول برهان الدين القيراطى :

غير تنى المشيب وهو وقار ليس فى الشيب يا أمامة عار
لم تخافى شبيبتي وهى ليل كيف خنت المشيب وهو نهار (٣)

(١) ديوان القيراطى - مخطوط بالمسكنة الأزهرية - ورقة رقم ٨٩ .

(٢) تأهيل الغريب - باب إنذار المشيب .

(٣) ديوان القيراطى ورقة رقم ٢٨ .

وأبدع جمال الدين بن نباتة في وصفه . فقال في إحدى نبرياية يصفه ويصور ماخلفه ظهوره في نفسه من حسرة :

سقى الله أكناف الغضى سائل الحيا وإن كنت أسقى أدمعاً تتحدر
وعيشاً نضا عنه الزمان بياضه وخلفه في الرأس يزهو ويزهو
وكان الصبا ليلاً وكنت كحالم فيا أسفا والشيب كالصبح يسفر
يعلمني تحت العمامة كتمه فيعتاد قلبي حسرة حين يحسر
وينسكني ليلى وما خلت أنه إذا وضع المرء العمامة ينكر
إذا حل مبيض المشيب بعارض فما هو إلا للمداعم مطر^(١)

ي - تسجيل الحوادث والعادات :

إن اتجاه الشعراء إلى تسجيل الحوادث التي تمر بالبلاد ، هو إحساس اجتماعي كريم ، يدل على يقظة نفسية قوية تربطهم بالبيئة التي يعيشون فيها . وتدل على مشاعرهم بشأن هذه البيئة ، وبأن ما يجري عليها من حوادث وما يقع فيها من وقائع ، إنما هم فيه معها شركاء . وبخاصة حوادثها العامة ، وما يتصل منها بصميم الحياة ووسائلها ومظاهرها ، وما يمس العمر والرزق من بينها .

ونعتقد أن هذا الاتجاه يعتبر في جملة مميزات الشعر في هذا العصر ، وما يضاف على شعرائه تقديرهم أهل له . ولا يقلل من أهمية هذا الاتجاه أننا سنرى فيما نعرضه ، شعراً ركيكاً أو غثاً . إن هذا لا يطعن في شعور الناظم ولا يغض من تقديره .

لقد شارك كثير من الشعراء في وصف حوادث الزلازل والسنين التي عمت فيها الأوبئة ونزلت الطواعين . ووقفوا عند مواسم الغرق والجفاف ، ومشاهد

(٤) ديوان ابن نباتة ، حرف الراء .

الجدب والقهط . وارتفع أسعار القوت واشتداد الغلاء . مما له رجوع بعيد المدى في حياة الناس وقلق نفوسهم جميعاً وارتفاع عقائرهم بالشكوى ، واضطراب موازين الأخلاق ، وغير ذلك من مضاعفات تتوالد في مثل هذه الفواجع . كما شاركوا في رثاء الموتي من أعلام البلاد .

ولم يقصروا أيضاً في تناول الحوادث المقابلة ، أعنى التي تشيع فيها البهجة وتعم آيات السرور .

على أن في مقدمة ما يعنينا في هذا المقام ، استجابة الشعراء لمقتضيات البيئة في هذا المجال ، وتسجيلهم صوراً من مظاهر المجتمع فيه . وإن خلطوا الوصف والتسجيل بالفكاهة والسخرية أو غيرهما .

وفي عام ٦٩٥ هـ شح النيل وأجدبت الأرض ، وصار الناس يتساقطون موتى حتى خلت منهم شوارع وأزقة . فقال إبراهيم الميموني :

يا طالباً للموت قم واغتنم هذا أوان الموت ما فاتنا
قد رخص الموت على أهله ومات من لا عمره ماتاً (١)

وفي عام ٧٦٢ هـ زاد النيل زيادة فادحة حتى أغرق نواحي البلاد . وبسبب ذلك انتشرت الأوبئة . فنظم الشاعر شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي قصيدة طريفة ، تحدث فيها عن أحوال الناس حينذاك ، ووصف أخلاقهم ومشاربهم وأقوالهم . وترحم على من مات منهم ، وعلل وقال :

عم الوباء لأن الناس قد باءوا وزاد طغيانهم لما طغى الماء
باءوا بياثم وتاب الآن طائعهم وما لعاصيهم لام ولا باء
تالله ماراعهم من موت أكبرهم بمصر ميم ولا واو ولا تاء
يا واسع الجود رفقا بالعباد فقد ضاقت بمصر من الأموات أحياء

(١) بدائع الزهور ج ١ حوادث عام ٦٩٥ هـ .

يارب إن الوباحمت ركائبه وحل بالناس لما حم حماه
 مستهم منه صفرا لا مساس لها لو مسها حاجر مسته ضراء
 أمسى الطبيب مريضاً كالمرضى بها حديث هذا وذا رمز وإيماء
 تغير الريح في مصر فساكنها إذا سرى نكبتة منه نكباء
 هذا على قول قوم لا عقول لهم في زعمهم أنهم قوم أطباء
 وقائل هذه سوداء محرقة ثارت بهم في جميع الناس صفراء
 وقائل إن ماء النيل حين علا وعم عم الورى من أجله داء
 هيات قل الذى يهذى بحكمته عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء .. إلخ (١)

وفي عام ٦٩٣ هـ بلغ ارتفاع النيل إلى خمسة عشر ذراعاً وثلاث . فغلت الأسعار وتضاعفت نتاج هذا الغلاء .

وقد انبرى الشاعر « شهاب الدين البزاغى » بقصيدة ميمية طويلة سجل فيها أنباء هذا الغلاء ومضاعفاته ، من بكاء الناس وانتشار الموت وشمول الأسى والحزن ، فضلاً عن موت الخيل وكساد الأسواق وقلة الأقوات ، إلى غير ذلك . يقول الشاعر ، وإن كان شعره غير جيد النسيج :

ولما غاض بحر النيل فاضت دموع من محاجرهم سجام
 ومد به من الأموات سليل لنقص عبابه منه تمام
 عروا مما عراهم فى شعاب الـ أسى وجرت مداهم فعاموا
 قضى بعض على بعض من الحزن ن واستولت على الموتى الهوام
 فلا دار يقر بها قرار ولا سفر يجر له زمام
 ولما أن نأت عنهم جميع البلاد بكتهم حتى الشام
 وماتت خيلهم حتى المواشى وأخلى السرج واجتنب اللجام

وباد الزارعون وخلفوا كل م ما زرعوا وفاتهم الصرام
وأرباب الصنائع قارنتهم نحوس للكساد بها لزام
وأسواق البضائع حل فيها وقوف للعقود به قيام .. إلخ (١)

ولا بأس من أن ننقل إليك ، ما سجله الجلال السيوطي في كتابه « كوكب
الروضة » بمناسبة توقف النيل عن الزيادة في ميعادها ، عام ٧٠٩ هـ . وهو في جملته
تصوير لمشاعر الناس وعقائدهم إذ ذاك ، في إحدى نواحي حياتهم .
قال السيوطي :

« قال الشهاب الحجازي : « وجدت في رسالة في وصف النيل :
« كتب الشيخ نور الدين علي ، سبط الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض ،
إلى القاضي معين الدين بن حشيش - وهو يومئذ بالشام :

« المملوك ينهى أنه كان في سنة ٧٠٩ هـ ، لما كان مولانا السلطان الملك
الناصر بالكرك ، غضب النيل على أهل مصر ، لغضبه . ففعل بهم ما فعل
وترك مترك . - تذكر كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إلى
نيل مصر ، عند توقفه في زمانه . وهو كتاب مبارك تشرف النيل بعنوانه . وافتخر
بخطاب ابن الخطاب له وقبلة وقبله وجرى . ببركة أم المدائن والقرى . ولم يتقبل
منهم بعد ذلك قريانا ولا قرى . فطاف المملوك بمغنائه . ونظم في معناه . وقال :

يأيها النيل المبارك إن تكن من عند ربك تاجر فاجر بأمره
أو إن تكن من عند نفسك آتيا فالله ببسط بره في بره
كم من بلاد لست تعرف أرضها ملاً إلا به بيوتها من بره
ياذا الوفاء أراك جئت بلادنا والحر لم يشن الوفاء بغدره
إن كان رفدك لا يجيء تأدبا إلا بإذن مليك فبعذره

فإذا الصليبي اللعين بجهله والكفر يركض في جوانب صدره
 مسرى سرى والنيل أصبح واقفا قد فاتنا تعلية في شهره
 ففضى النسيء وليس فيه زيادة إن النسيء زيادة في كفره
 أهون به وبشهره ونسيئه وشهيد شهره وطينة بثره
 نحن الذين لنا بجاء محمد عند الإله بحمده وبشكره
 ما يرتجيه غنينا بغنائه وفقيرنا بالمال زار بفقره
 تدعو ونستسقى الغمام بوجهه فبذاك أخبر عمه في شعره ، ... الخ ،
 وبعد أن أتم القصيدة - قال - أى الشاعر - :

« وكتب المملوك بهذه الأبيات العربية ، وجعلها في قصة فارسية . وألقاها
 في البحر عند المقياس . على ذلك المقياس . فتفجر الماء من منابعه . وأشار إلى
 ألوف بأصابعه . واستمرت الزيادة قبل الوفاء وبعده على العادة . حتى انتهى إلى
 حده . وجبر الله تعالى القلوب بكسر سده . وعمر الأرض بهركات عمر . وعمر
 آجال الأنهار وعمر . وأقبل أمين الماء يهمل ويلبى . ويقول : هذا رحمة من ربى .
 وانحط السعر الغالى . وتواضع قدره العالى . وذهب البأس واليأس . وذلك من
 فضل الله علينا وعلى الناس » . (١)

أما شمس الدين النواجى صاحب قصيدته الفائية الممتعة ، التى سجلناها فى
 فى المجلد السابع ، وسميها « تسبيحة النواجى أو تغريدته » ، وهى التى همل فيها
 وكبر بوفاء النيل عام ٨٥٥ هـ ، « فقد كان فى عام ٨٥٤ هـ سجل فى إحدى قصائده عدم
 بلوغ النيل حد الوفاء فى ميعاده ، إذ هبط وشرقت الأراضى ووقع الجذب وانتشر
 الغلاء فارتفعت أصوات الناس بالشكاية .

(١) عن كوكب الروضة ص ١١٩ ، والقصيدة والقصة فيه برمتها - وفى الدر الفاخر
 للدوادارى ، نسب الأبيات للشهاب محمود الحلبي ، وقد أشرنا إلى ذلك فى المجلد السابع هامش ص ٣٧٩

والنواجي في قصيدته تلك يسجل حادث نقص النيل وشكوى الغلاء ،
ويصور ما انتشر من الجذب ويحدث عن دموع الناس وفاقة الأغنياء بله الفقراء ،
ويعجل إلى الله سبحانه مستغيثاً مستسقياً بحاه النبي عليه الصلاة والسلام .

يقول النواجي :

لرب العلاء نشكو أذى القحط والغلاء	وما مسنا فيه من الضر والبلاء
ونسأله في البأس واليأس والرجا	رجا فقد متنا وعاجلنا البلى
غلا أرخص الأرواح لما تسعرت	بمور ضرام في صميم الحشاغلي
ودارت رحاء الجذب في كل بلدة	وما تركت للخصب في مصر منزلا
فلا بر برجى منه بر بهرة	ولا بحر رى طاب عذبا وسلسلا
ولا عين أرض قد بكت فتفجرت	علينا ولا دمع من الغيث أهملنا
ولم يتخلق بالوفا نيل مصرنا	ولا ذيل ستر بالهنا راح مسبلا
ومذ غاض مقياس المني ضاق عيشنا	وأحل ربع الأنس والصبر ماحلا
به الأغنيا يشكون فقرا وفاقة	فكيف بمن أمسى معيلا ومعو لا
حنانا حنانا يا مغيث الورى فقد	يئسنا وكل الخلق أصبح مبتلى
فما مملق إلا إلى بابك التجا	ولا معدم إلا عليك توكلنا
وسقيا ورعيا للهواشى فقد بدت	كلاها وكل السير في طلب الحلى
وإن تاه قوم بالغلا وترفعوا	علينا ومالوا للقطيعة والقلى
فوالله لا نرجو سواك ولا نرى	علينا لهم فضلا بيوم ولا ولا
إليك توسلنا بحاه نبينا	فما خاب من أمسى به متوسلا ^(١)

ولا بن إياس الحنفي المؤرخ بيتان طريفان قالهما في الطاعون الجارف الذي

أصاب البلاد عام ٩٠٣ هـ . وقد مزج الشاعر في بيتيه بين النقد والوصف والفكاهة . فقال :

قد قلت للطعن والمهايلك جزئاً لما ألد في النكايه
ترفقا بالورى قليلا في واحد منكم كفاية .

وفي وباء عام ٩١٠ هـ نظم الجلال السيوطي هذه الأبيات يشكو ويدعو ويصف وهي - وإن كانت ركيكة النسيج - صادرة من شعور صادق وقلب متأثر ، قال :

يارب بالهادى النبي المجتبى	أغمد عن الإسلام أسياف الوباء
يارب لا تشكو أليم عذابه	إلا إليك فقد أخاف وأرعبا
كم حل في دار فبدد شمل من	فيها فلا يجدون منه مهربا
يارب لطفنا بالعباد فما لهم	رب سواك يقيهم المستعصبا
إنا اعترفنا بالذنوب فكلنا	عاص مسيء للعذاب استوجبا
لكن إذا قرنت عظيم ذنوبنا	بعظيم عفوك كان عفوك أغلبا
إن كان لا يرجوك إلا محسن	في العالمين فمن يحير المذنب . الخ (١)

وانتشرت موجة غلاء فاحش في عام ٨٥٣ هـ وارتفعت أسعار الخبز ، وضج الناس . فروى أن بعض الشعراء رثى الخبز هذا الرثاء الفكاهي الطريف ، فقال ، وهو غزل لطيف في جماعات الرغيف . والجوع يثير أثرة الفن . . .

قسما بلوح الخبز عند خروجه من فرنه وله الغداة فوار
ورغائف منه تروفاك وهي في سحب الثفال كأنها أقمار
من كل مصقول السوالف أحمر الـ خدين للشونيز فيه عذار

كالفضة البيضاء لكن يغدى ذهباً إذا قويت عليه النار
تلقى عليه في الخوان جلاله لا تستطيع تحدها الأبصار
فكأن باطنه بكفك درهم وكأن ظاهر لونه دينار
ما كان أجهلنا بواجب حقه لو لم تبينه لنا الأسرار
إن دام هذا السعر فاعلم أنه لا حبة تبقى ولا معيار (١)

وفي عام ٥٧٦٢ سقطت إحدى منارات جامع السلطان حسن . وهي المنارة
التي على الباب . فهلك تحتها نحو ثلاثمائة نفس من الأيتام الذين كانوا قد رتبوا
بمكتب السبيل ، ومن غيرهم . فلم يج الناس بأن ذلك ينذر بزوال دولة السلطان .
فنظم الشيخ بهاء الدين السبكي في ذلك ، هذه الأبيات الطريفة . وفيها يعلل لسقوط
المنارة تعليقات أدبية ، منها أنه قرىء القرآن من تحتها فاستمعت إليه ومالت
لخشيته من الله . . ومنها أن سلطانها كان قد غاب عنها فاستوحشت فرمت
بنفسها بسبب الجوى . . قال الشاعر يخاطب السلطان :

أبشر فسعدك ياسلطان مصر أتى بشيره بمقال سار كالمثل
إن المنارة لم تسقط لمنقصة لكن لسر خفي قد تبين لي
من تحتها قرىء القرآن فاستمعت فالوجد في الحال أداها إلى الميل
لو أنزل الله قرآنا على جبل تصدعت رأسه من شدة الوجل
تلك الحجارة لم تنقض بل هبطت من خشية الله لا للضعف والخلل
وغاب سلطانها فاستوحشت فرمت بنفسها لجوى في القلب مشتعل
فالحمد لله حظ العين زال بما قد كان قدره الرحمن في الأزل
لا يعترى البؤس بعد اليوم مدرسة شيدت بنيانها للعلم والعمل
ودمت حتى ترى الدنيا بها أمثالات علما فليس بمصر غير مشتغل (٢)

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ٢ حوادث عام ٨٥٢ هـ .

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ عند ذكر مدرسة السلطان حسن .

ومن لطيف ما سجله الشعر ، وسجله بأسلوب ناقد وعبارة ساخرة ، ما وقع لليهود والنصارى فى مصر والشام عام ٥٧٠٠ هـ . فقد أمر السلطان أن يلبس اليهود العمامة الصفراء ، والنصارى العمامة الزرق ، والسامرة العمامة الحمراء . فسخر بهم علماء الدين الوداعى وقال :

لقد ألزموا الكفار شاشات ذلة تزيدهم من لعنة الله تشويشا
فقلت لهم ما ألبسوكم عماما ولاكنهم قد ألبسوكم براطيشا^(١)
ولفظ البراطيش ، عامى ومعناه معروف إلى زماننا ، وهى الأحذية القديمة المتسعة غير المنتظمة المتهاكة لكثرة الاستعمال .

وقال شاعر آخر :

تعجبوا للنصارى واليهود معا والسامريين لما عجموا الخرقا
كأنما بات بالأصباغ منسجلا نسر السماء وأضحى فوقهم فرقا ،^(٢)
وفضلا عن تسجيل هذه الصور ، ينم الشعر هنا عن لون من الشعور العام نحو هؤلاء وهؤلاء حينذاك .

وانظر إلى مارسمه السلطان للأشراف بالديار المصرية والشامية عام ٥٧٧٣ هـ ، وهو أن يلبسوا عمامة بعلامة خضراء تميزا لهم عن الناس . ففعلوا ذلك فى مصر والشام . فنظم فى هذه الحادثة جماعة من الشعراء . قال السيوطى : « ما يطول ذكره » . ومنهم الأديب شمس الدين محمد بن إبراهيم الدهشقى . قال :

أطراف تيجان أتت من سندس خضر بأعلام على الأشراف
والأشراف السلطان خصصهم بها شرفا ليعرفهم من الأطراف^(٣)
وتستطيع أن تفرن بين العاطفة فى هذين البيتين ، وبين العاطفة فى الأبيات السابقة ، وتستنبط ما تشاء .

(٢، ١) حسن المحاضرة ج ٢ باب ذكر الحوادث الغريبة .

(٣) حسن المحاضر ج ٢ باب ذكر الحوادث الغريبة .

رثاء الأعلام :

وقد يعتبر من قبيل تسجيل الحوادث ، رثاء من يموت من أعلام البلاد في العلم أو الأدب . ولعل العلاقات الشخصية ذات صلة بهذا الرثاء . أو لعلها الدافع إليه . ولـكننا في هذا المقام ننظر من زاوية خاصة ، وهى مايتصل بالبلاد بعامة . فليس موت أحد أعلامها أمراً هيناً عليها ، ولا هو ككل حوادث الموت وليس الرثاء فيه ككل وقائع الرثاء . ولا ريب أن موت أعلامها يصحبه حزن شامل وجزع عام . ولا بد للشعراء من التعبير عن أنفسهم وأنفس الناس ، في مثل هذه المناسبات . وهذا مظهر اجتماعي نبيل ، فيه تقدير ووفاء .

وحصيلة الشعر المملوكى في هذا الباب وفيرة زاخرة . وفي المراثى ذرفوا الدموع ، واستبكوا الرياض والأزهار والأطيار . وذكروا الوحشة والغربة . وجاشوا بالزفرة ، وامتثلوا حزناً بغير صبر ، وجزعاً بدون أناة . وخاطبوا القبر واستوصوه بالخير . واستمطروا الغيث واستنزلوا الرحمة . واستظلموا الليل ودجاءه ، وسخطوا على الحمام وما جناه . وتحسروا على البيوت وقد خوت ، وعجبوا من القبور وقد امتلأت . وتوقعوا الشر لما كان الفقيد يليه . وسجلوا المحامد . وتمنوا فداء الميت . إلى غير ذلك من مظاهر الحسرة والتفجع .

ولم يصلوا في أغلب مراثيهم إلى مرحلة التعميم والشمول ، حيث تمتجه النفس ويتنبه الخاطر إلى التقاط الحكمة وقيد المثل .

ومن المبرزين في المراثى العامة : ابن نباتة والصفدى والقيراطى وابن الوردى ، وابن حجر العسقلانى ، وابن حجة الخوى والشهاب المنصورى ، والشهاب الحجازى ، والجلال السيوطى . وغيرهم كثير ون .

وروى أنه لما مات العالم الكبير تقي الدين السبكي عام ٧٥٦ هـ - وكان رأس الشافعية فى زمانه وأحد كبار أئمتهم - رثاه جمع من الشعراء ، منهم ابن نباتة والصفدى والقيراطى ، وأطالوا .

ومما قاله ابن نباتة :

نعاه للفضل والعلياء والنسب	ناعيه للأرض والأفلاك والشهب
ندب رأينا وجوب الندب حين مضى	فأى حزن وقلب فيه لم يجب
نعم إلى الأرض ينعى والسماء على	فقيدكم يا سداة المجد والحسب
بالعلم والعمل المبرور قد ملئت	أرض بكم وسماء عن أب فاب . . إلخ (١)

ومما قاله صلاح الدين الصفدى :

أى طود من الشريعة مالا	زعزعت ركنه المنون فالا
أى ظل قد قلصته المنايا	حين أعيا على الملوك انتقالا
أى بحر كم فاض بالعلم حتى	كان منه بحر البسيطة آلا
أى حبر مضى وقد كان بحرا	فاض للواردين عذبا زلالا . . إلخ (٢)

ومما قاله البرهان القيراطى :

أمسى ضريحك موطن الغفران	ومحل وفد ملائكة الرحمن
حيا المهيمن منك روحا قد علت	حييت بذاك الروح والريحان
وتبوات غرف الجنان وجوزيت	فيها على الإحسان بالإحسان
وتلقيت بتحية وأنت لها	تحف الجنان على يدى رضوان . . إلخ (٣)

وشيوخ الإسلام سراج الدين البلقينى ، كان البعض يعتقد أنه العالم المبعوث على رأس المائة التاسعة . فلما مات رثاه الحافظ العلامة الأديب شهاب الدين بن حجر العسقلانى ، وضمن رثاءه رثاء الحافظ زين الدين العراقى . وعدة أبيات هذه

(١) ديوان ابن نباتة - وحسن المحاضرة ج ١ باب ذكر الأئمة المجتهدين - وطبقات الشافعية للناج السبكى ، فى ترجمة تقي الدين السبكى .
(٢، ٣) حسن المحاضر ج ١ باب ذكر الأئمة المجتهدين - وطبقات السبكى ج ٦ فى ترجمة تقي الدين السبكى .

المرثية المزدوجة نحو ١١٧ بيتاً . (١)

ومراتى هذا العصر كثيرة وأوفر من أن تعد أو تحصى .

رثاء بركة الرطلى :

ولعل من المراتى التى ينبغى الاستطراد إليها ، لطرافتها وندرتها فى هذا العصر ، بل وربما لندرتهما فى الأدب العربى كله . هذه المرثية التى نظمها الشاعر الأديب الزجال البارع بدر الدين الزيتونى ، ورثى بها حى « بركة الرطلى » . ونعقبها ذات صلة وثقى بموضوعنا الذى نتحدث عنه ، وهو العناية بتسجيل الحوادث العامة .

وقد كانت « بركة الرطلى » سوقاً أهلة وحياً عامراً ومنزهاً مقصوداً ومرتاداً للهو مفضلاً فى ذلك الزمان - وقد أشرنا إلى ذلك فيما مر من الحديث - وفى عام ٩٢٢ هـ خرج سلطان مصر الملك الأشرف قانصوه الغورى إلى قتال العثمانيين المغيرين على السلطنة ، حيث لقيهم فى « مرج دابق » . فكان ذلك آخر عهده بمصر ، وعهدا به .

وأناب السلطان عنه أثناء غيبته الأمير الدوادار « طومان باى » . فأمر الناس بعدم السكنى بحجر بركة الرطلى وبعض نواحيها ، خوفاً على أسر المختربين فى الحرب ، أن يقعوا فى الفتنة . ولم تجد عنده شفاعة الشفعاء . وبذلك أخذ عمار البركة يتناقص . ومن ثم أدركها الخراب وانطوى ما كان فيها من العمار ، وانقضت بها أسباب الهو .

فنظم بدر الدين الزيتونى قصيدته هذه يرثى البركة ويذكر أيامها ولياليها ، وما كان فيها من هو وسمر وسهر ، ولذة ومجون ومباذل . ثم ما أدركها فى حاضرها من خراب ودمار .

(١) المرتبة بتمامها سجلها السيوطى فى حسن المحاضرة .

والقصيدة - وإن كانت ركيكة النسخ ضعيفة العبارة - وثيقة تاريخية نادرة سجلها الأدب بخياله الشعري وعاطفته الحارة . وطرق فيها مرأى ومشاهد يقل الظفر بها في كيب التاريخ . وصور بذلك زاوية من زوايا المجتمع .

وقد بدأها الشاعر بوصف عواطفه نحو سلطان بلاده الأشرف الغورى الذى خرج لقتال أعداء البلاد ، قال :

سألت إله العرش ينعم بالنصر لسلطاننا الغورى فهو أبو النصر
ملك عزيز أشرف ومظفر مؤيد دين ظاهر كامل القدر
لغيبته أضحى على الكون وحشة فما بركة الرطلى مدمعها يجرى
ومنها ينوه بما كان يظفر به الخلعاء فيها من الوصل . ويذكر جميزتها التى
طاب ظلمها ، وساقيتها التى بكى على جسر ها . قال :

لقد كان فيها للخليع نواصل لعمر ك إن الوصل خير من الهجر
وكان بها جميزة طاب ظلمها فراح عليها الطير والوحش فى القفر
على ما جرى للجسر ساقية بكى وصاحت بقلب صار فى غاية الكسر
وقد أصبحت دوحة الجسر تبكى بجماعه . والشامى يبكى على حكره ، وبيوته
خالية لا يسكن مالكمها ولا مؤجرها ، وخلت قصوره من أهلها يقول :

ودوحته تبكى بجماعه دما وقد أصبح الشامى يبكى على الحكر
وأضحت بيوت الجسر خالية فلا لصاحبها سكنى ولا أحد يكرى
وقد أصبحت تلك القصور خواليا فيا وحشة السكان من كل ذى قصر

ويبكى الشاعر وينوح ويندب . ثم يصور لنا صوراً طريفة جداً من المناظر الشعبية اليومية المنتشرة فى الأسواق والأحياء الأهلة بجمهير الشعب . ونحن مضطرون إلى إثبات هذه الصور - بالرغم من ركاكة الشعر وضعف أبياته . لقد ذكر فيها القادسى وحلاته ومشبكه ، وبائع الفاكهة وخوخه ورمانه ، والورود والأزهار ، وبائع الجبن ، وآكلى القطائف المحشوة . وذكر متعاطى الحشيشة والخمر وما كانا يصيبانه فيها من راحة وهناء . وراكبى المراكب (م ٢٤ - عصر المالك)

والمغنين والمنشدين والمطربين وآلاتهم، إلى غير ذلك مما درست معاهده وناحت عليها الغربان والبوم . قال الشاعر :

على بركة الرطلى نوحوا وعددوا لما حل فيها من نكال ومن خسر
فكان بها للقادسي حلاوة مشبكها يشدو من المسك والعمار
وكان بها الفسكاه يسعى بمركب بخوخ ورماني يبشر بالبشر
وزهر ونسرين وآس ونوفر لها بهجة للمرء طيبة النشر
وكان بها الجبان يقلى بمركب فيجمع بين النار والماء في البحر
وكان بها الآكلين قطائف بها عطش تسقى من الغيث بالقطر
لها رونق في الصحن من فستق بها وسكرها بروى حديث أبي ذر
وكان بها الحشاش يسرد بهجة فخذ قطعوا لذاته صار في فكر
وكان بها السكير في غاية الهنا يدير كئوس الراح في ليلة البدر
وكان بها للراكبين مراكب مسترة فيها وأخرى بلا ستر
وكم داخل فيها مغن ومنشد بنغمة فم من خفيف ومن شعر
وكم آلة للمطربين عمدتها وجنك وأعواد تغرد كالقمرى
وقد درست تلك المعاهد كلها وناحت بها الغربان والبوم في الوكر. إلخ^(١)
ونجزيء بالآيات السابقة عن بقية القصيدة . وحسبنا أن أوضحنا شيئاً منها
ومما صورته .

هذه البركة التي رثاها الزيتوني ، شهدت ليالي مرح وأيام فرح ، لا عدد لها .
وقد أقام كاتب السر القاضي أبو بكر بن مزهر عام ٨٨٦ هـ احتفالاً عظيماً لختان
أولاده - سبق التنويه به - وكان ذلك في بركة الرطلى . قال ابن إلياس إن
بعض الشعراء نظم في ذلك شعراً ، منه :

طابت على بركة الرطلى ليلتنا حتى تباغت على الخلجان والبرك

(١) القصيدة بتمامها في بدائع ابن إلياس ج ٣ ص ٣٨ ط بولاق .

حفت بضوء مصابيح زهت و غدت تضىء فى حندس الديجور والحلك
فكان لما تنامى حسن وقدها تخفى شمس الضحا فى وقدة الفلك (١)
وقال فى ذلك شمس الدين القادرى :

تاه الأنام بجنح الليل فانخذوا لهم دليلا لدى الظلما من اللهب
حتى كأن جلايب الدجى رغبى عن لونها وكأن الشمس لم تغب (٢)

و يصف المؤرخ ابن إياس ، فى قصيدة خفيفة ، ليلة حافلة قضاهها السلطان الأشرف الغورى بقصره فى مقياس النيل عام ٩١٨ هـ وسجل فيها ما كان خلالها من مرح ولهو ، وما صحبها من مواكب حافلة ، وما أطلق أثناءها من ألعاب نارية ، كما سجل فيها بعض عادات الشعب وتقاليده فى هذه المناسبة وأمثالها . قال منها :

لم يسمح الدهر فيما جاد من فرج كليلة سمحت للأشرف الغورى
فإن ترد وصفها أنشدت مرتجلا فى وقدة الليل بالأملاك والدور
من بر مصر ومقياس يقابله كان التقابل بين النار والنور
حاكت مصابيحها ضوء النجوم إذا ما أزهرت بالدجى فى ليل ديحور
وكم رأينا قلاعا فى ذخائرها صوارخ بضيا فى الجو منشور
كواكب النقط قد حاكت لنا قرا بضوء زهر بدا فى المساء منشور
قلوب أزياره صارت مفرقة من وهج نيرانها فى زى مقهور
وصوت باروده مثل الرعود إذا ما صرخوه يحاكى نفخة الصور
وضاق رحب الفضاء فى البحر من سفن لما بدت فى ازدحام كل شختور
وكم سمعنا مغن صوته طرب يشدو على آلى عود وطنبور
قالت لنا روضة المقياس ذا عجب هل بعد يوم الوفا جبر لمكسور (٣)

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٠٨ حوادث عام ٨٨٦ هـ . (٢) المصدر نفسه .

(٣) يدافع ابن إياس ج ٤ حوادث عام ٩١٨ هـ ١٣ جمادى الآخرة .

نسكتفى بهذا القدر من قصيدة ابن إياس . ونثنى العنان إلى فن من الشعر ،
قريب من تسجيل الحوادث البيئية ، وهو وصف أدوات البيئة الاجتماعية ،
فنقول :

ك - وصف أدوات البيئة :

وأدوات البيئة التى نقصدها ، هى التى فرض المجتمع بعاداته وتقاليده
واستخدامها فى المنزل والسوق والمحفل والديوان ، ونحو ذلك من الأدوات
التي تتطلبها طبيعة العمل أو العادة ، وفقا لمقتضيات الحضارة القائمة والنظم
المتبعة . وذلك كالسكين والمبراة ، والقلم والسجادة والمبخرة والإبريق .

ونعتبر وصف الشعراء لهذه الأدوات لونا من استجاباتهم لوحى البيئة
الاجتماعية ، وإن بدا تسلية وقطع وقت فراغ ، فليس إفلاسا من موضوعات
الشعر الجدية ، وبخاصة بعد أن طرقتنا معهم أغراضا شتى من أغراض الشعر .
لقد دل الشعراء بوصف هذه الأدوات على عمق امتزاجهم ببيئتهم ، وصدق
إحساسهم بوجود هذه الأدوات التى تشاركهم حياتهم ، ولها فى هذه الحياة دور
عملى تقوم به ولا غنى عنها للقيام به . فمن حقها عليهم أن تشغل بالهم بعض الشغل ،
وتأخذ من أدهم وشعرهم نصيبا . ومن حقها عليهم أن يسجلوها تسجيلا يخلد
ذكرها ويبقى مآثرها . ويستكملوا بوصفها بعض جوانب المجتمع .

وكم من أداة - فى عصرنا الحديث - مستحدثة ، وكم من آلة مبتكرة ونافعة ،
محبوبة ومحلية يستخدمها الناس فى منازلهم ، يستخدمها الشعراء أيضا ،
ولا يكادون - حتى اليوم - يعرفون اسمها ، فضلا عن دراسة خصائصها
وأجزائها والطريقة التى تعمل هى بها ، هذا كله فضلا عن أن يفتنوا إلى ما ينبغى
لها من الوصف والتشبيه لإخراجها وتسجيلها فى صورة أدبية طليقة .

وذلك كالثلاجة والموقد الغازى والعصارة والخلاط والتلفزيون ومئات

من ادوات المطبخ ، والسيارة ووسائل النقل الحديث والإضاءة والسقي ، إلى غير ذلك .

فيا الله أسلافنا الذين أعطوا أدوات مجتمعاتهم - مع الفارق - هذا الفيض من العناية ، وشعروا بها وكأنها أحياء تحس وتتحرك وتشاركهم مشاعرهم . فوصفوها وشبهوها وأبرزوا معالمها ومعالم عملها إبرازاً جميلاً ، وعالموا تعليقات أدبية لما يصادفهم أحياناً من طبيعة صنعها أو عملها .

وعن وصف شيئاً منها أشاعر سراج الدين المجان . لقد تناول إبريقاً من الفخار فقال فيه :

يا حبذا شكل إبريق تميل له	منى القلوب وتصبو نحوه الحدق
يروق لى حين أجلوه ويعجبني	منه طلاوة ذاك الجسم والعنق
كم قد شربت به ماء الحياة وإن	ينالني منه لا غص ولا شرق
حتى غدا خجلاً مما أقبله	فظل برشح من أعطافه العرق (١)

ووصف قنديلاً فقال :

يا حسن بهجة قنديل خلوت به	والليل قد أسبلت منا ستاره
أضاء كالـكوكب الدرى متقدداً	فراق باطنه نورا وظاهره
تريده ظلمة الليل البهيم سنا	كأنما الليل طرف وهو باصره (٢)

ووصف شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي ، بمخرة ، فقال :

ومبخرة تحكى المتيم في الهوى	تبوح بما تلقاه من شدة الكرب
تقول وقد نمت بعرف بخورها	أأ كتم ما ألقاه والنار في قلبي (٣)

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٣٩ ، ١٤٠

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ديوان ابن أبي حجلة .

ووصف محي الدين أبو الحسين النحوى المتوفى عام ٧٤٦ هـ كتابا فقال :
 وافى الكتاب فلا عدمت أنا ملا رقت على ذلك البياض سطورا
 منظوم در لو تجسم لفظه لحسبت ذلك لؤلؤا منشورا (١)
 ووصف الشاب الظريف القلم ، فى سياق مدحة له جزلة مشهورة ، لمحي الدين
 ابن عبد الظاهر كاتب الإنشاء البارع . فناسب أن وصف له أقلامه ، فقال :
 توحى إلى كل قرطاس بلاغته سحر البيان ومن أقلامه الرسل
 سمر تروك رأى العين عارية ومن بديع معانيه لها حل
 من الأسنة فى أطرافها سنة لولا النضارة قلنا إنها ذبل
 من كل معتدل كالليل إن رمدت عين المعالى فقيمها نفسه كحل . (٢)

ومن عني بوصف القلم وتشبيهه ، تقي الدين بن حجة الحموى . وقد قال فى إحدى
 قصائده التى مدح بها القاضى علاء الدين بن أبى البقاء الشافعى :

له يراع سعيد فى قلبه إن خط خطا أطاعته المقادير
 محبر وبتحرير العلوم إذا جرى يرى منه تحرير وتحرير
 غصن عليه طيور العلم عاكفة وجانس النور من أوراقه النور
 وأشقر يده البيضاء غرته له إلى الرزق فوق الطرس تسيير
 بل أسمر عينه الكحلاء تلحظنا وهذب أجفانها تلك التشاعير
 أو سهم علم بأطراف السطور غدا مريشا وله فى الضد تأشير
 ومن أقام حدود الله فى يده ولاح فى مهبج الأعداء تشطير
 قلنا وقد لاح هذا ذو الفقار بدا لنا بكف على وهو مشهور
 كذا محايره سود العيون فإن دانت أياديه ففى الأعين الحور . الخ (٣)

(١) الدرر الكامنة ج ٣ رقم ٤٨٦ .

(٢) ديوان الشات الظريف .

(٣) ديوان ابن حجة الحموى « الثرات الشبيهة من الفواكه الحموية » ، مخطوط بدار الكتب المصرية

ومن قبل ابن حجة ، أكثر ابن نباتة المصرى شاعر عصره ، من وصف
أقلام مدوحيه ، ممن اتخذوا السكتابة صناعة ومن ديوان الإنشاء مناصب .

ومن ذلك وصفه البديع النادر لأقلام بدر الدين بن فضل الله العمرى ، فى
سياق مدحة جيدة قدمها إليه . يقول فيها :

بكم آل فضل الله تمت مقاصدى وتم على نبح الرجاء بكم نسكى
رفضت الورى لما علقت جبالكم ونزهت دين الحب فيكم عن الشرك
وستر فؤادى أن أقلام بدركم سرور لذى ود وغيظ لذى محك
لأقلام مولانا ثنا متضوع فهل هى فى الكافور تكتب بالمسك
وما هى إلا القضيبي إما موائسا وإما مواضى الحد تحمى حمى الملك
إذا ما دعاها الرأى يا عزة الهدى بذأ قد دعاها السطو يا ذلة الشرك
إذا أنبت ألقاظها بصريرها طربنا لأقوال البلاغة فى هنك
إذا ما اليد البيضاء ألفت عضائها تلقف صنع الحق صنع ذوى الإفك
وإن لم تكن موسى فإن محمداً كثير الأيادى البيض فى الظلم الحلك
نعم إنها فى كفه قصب العلى بسفن وتحملن العلى ضخمة السمك
دقاق تحمار الجليل وتشتكى إليها فلا تشكو ولاسكنها تشكى
تربت بآكام الأسود تراها مواقع سحب مانداها بمنفك
جاءت تحاكى الأسود والسحب سطوة وجودا وللحاكى نثار على المحكى
مسخرة تجرى بما ينفع الورى على يده فانظر إلى البحر والفلك
مؤمرة تسرى إلى حومة الوغى ومن أسود فى أبيض علم الرنك
مسددة الأفعال والبأس والندى مثقفة الآراء فى الأخذ والترك
فأحسن بها فى الطرس هيفاً كحيلة ترك قدود العرب مع ثقل الترك
وأعجب بها كالنبيل تنكى وتارة تحصن من وقع النبال التى تنكى
وبالظل منها وهو ظل براعة تمر على الدنيا ستورا من الهتك
هى الألفات المائلات بكفه على أنها اللامات فى المعرك الضنك

قصار تحامها الرماح طويلة نواحل يستشفى بها الحال من وعك
وأقسم ما الشهب المنيرة في السما إذا كتبت يمناه أرفع من تلك.. الخ (١)

وبعد . حسبنا هذا في بيان استجابة الشعراء لوصف البيئة الاجتماعية . لقد
اتجهنا بالشعراء إلى جملة زوايا من زوايا مجتمعاتهم ، ورأينا كيف كانوا ملين لها
متأثرين بها . لقد سجلوا صورة هذه البيئة من كثير من زواياها . بما لا يدع مجالا
للشك ، في يقظتهم الفكرية والنفسية .

والآن ، وقد أنهينا الحديث عن بيان آثار ألوان البيئة كلها في شعر شعرائها ،
نثني عنان البحث إلى بيان الناحية الفنية لهذا الشعر . وذلك بدراسة طرق تصويره
وقوالب معانيه . إلى غير ذلك .

ومن أجل هذا نعقد الفصل الخامس التالي .

الفصل الخامس

أثر البيئة بأنواعها

في نواحي الشعر الفنية

أساليبه وطرق تعبيره وعرض معانيه

لا نشك في أن البيئة بشتى نواحيها ، ذات سيطرة واسعة في توجيه الأدب والشعر ، سواء أفى الموضوع كان ذلك أم فى الأسلوب .

وباختلاف البيئة وأنواعها ، فى مصر دون مصر ، وفى عصر دون عصر ، تختلف موضوعات الأدب وأساليبه . وقد تتشابه بعض الموضوعات ، وتماثل بعض الأساليب فى أدب عصرين . ولكن موضوعات أدب عصر وخصائص أساليبه ، تختلف فى جملتها — ولا ريب — عن موضوعات أدب عصر آخر وخصائص أساليبه ، فى جملتها .

وهذا الاختلاف من صنع البيئة وألوانها . فهى السبب الاصيل فى إبراز شخصية الأدب وأقلبته .

وقد يكون لأديب أو آخر ، جهود فى ابتكار موضوع ، أو خلق أسلوب ، قد لا يشاركه غيره فى ابتكاره أو خلقه . إلا أن هذه حالة فردية . ولا يصعب ردها إلى موحيات البيئة ، إن لم ترد إلى طبيعة خاصة بارزة فى الأديب وحده ، لا يشاركه فيها غيره .

وبعد أن تحدثنا طويلا عن أثر البيئة فى موضوعات الشعر ، فى العصر المملوكى ، نتحدث فى السطور التالية عن سمات أساليبه وخصائصه الفنية ، لنرى مبلغ أثر البيئة فى إيجادها .

ونحن ، إذ نتحدث عن ذلك ، نقرر مبكرين ، أن هذه السمات والخصائص الفنية ، إنما هي الصفات والاتجاهات الغالبة في شعر العصر المذكور . وهي نتيجة لتأثر شعرائه بموحيات البيئة المشتركة .

ويضاف إلى ذلك سمات أخرى لمعت وبرزت أكثر من بروزها في أى عصر مضى حتى لفتت الأنظار ، وقد يكون بعضها عيباً من عيوب الشعر الفصيح ، ولكنها برزت بفعل البيئة وألوانها ، وإن لم تغض في جملة أمرها من براعة شعراء العصر .

عن هذه وتلك نتحدث في هذا الباب ، حديثاً مدعوماً بالنصوص والنماذج ، المعززة بالشرح المفصل ، والإيضاح المناسب .

أ - توخى السهولة

كان أحد الفضلاء قد سمع شعر صفي الدين الحلي فقال : لا عيب فيه سوى قلة استعماله للغة العربية . - وهو يعنى بذلك أن لفظه سهل لا غرابة فيه . - فكتب إليه صفي الدين هذه الأبيات :

إنما الحيزبون والدرديس والطخا والنقاخ والعلطيس
والحراجين والشقحطب والصقعب والعنفيز والعنتريس
والغطاريس والعفئقس والعفلق والجر بضيض والعيطموس
والسبنتي والحقص والهيقي والهجرش والطرفسان والعسطوس
لغة تنفر المسامع منها حين تروى وتشمئز النفوس
وقبيح أن يذكر النافر الوحشي منها ويترك المأنوس
أين قولي : هذا كئيب قديم ومقالى : عقتل قدهوس
لم نجد شاديا يغنى : قفانبك على العود إذ تدار الكنوس
لا ولا من شدا : أقيموا بني أمى إذا ما أديرت الخندريس

ومنها :

خل الأصمعي جوب الفيا في نشاف تخف فيها الرؤوس
وسؤال الأعراب عن ضيعة اللفظ إذا أشكلت عليه الأسوس
درست تلسم اللغات وأمسى مذهب الناس مايقول الرئيس
إنما هذه القلوب حديد ولذيذ الألفاظ مغاطيس (١)

وصفي الدين الحلي فحل شعراء الجزيرة في زمانه ، وند جمال الدين بن نباتة
المصري شاعر مصر والشام في وقته . وصفي الدين - وإن لم يعيش في مصر
زمناً يسمح لنا بأن نسلكه في عداد شعرائها - نعتقد أنه قد تأثر بالثقافة المصرية
وبالاتجاهات المصرية في الأدب واصطناع الأسلوب - ولو إلى حد - إذ
كانت هذه الثقافة واتجاهاتها الأدبية قد فرضت نفسها على شتى أرجاء العالم
العربي ، لمكانة مصر من زعامتها وقوتها بينها ، ولأنها دار الخلافة إذ ذاك ومثابة
علوم الدين واللغة . وكذلك رحل صفي الدين إلى مصر ، وأقام بهار دحا في عهد
ملكها الناصر محمد بن قلاوون ، ونال من صلاته ومدحه ووصف ربيع مصر في
قصيدة مشهورة . واتصل برجال الناصرو ومن بينهم علاء الدين بن الأثير كاتب السر ،
وهو الذي أشار على صفي الدين بجمع ديوان شعره .

نقول هذا لنسجل أن صفي الدين وشعره واتجاهاته الأدبية ، ليست مقطوعة

(١) ديوان الحلي ص ٤١٨ ط بيروت ، والخيريون : العجوز - الدرديس : الداهية والشيخة
الفانية - الطخا : أصله الطخاء وهو السحاب المرتفع ، والكرب على القاب - النفاخ : الماء البارد
والعذب الصافي - العاطيس : الأملس البراق - الشقحطب : الكيش له قرنان أو أربعة كشق حطب :
وجعه شقحط أو شقاطب - الصقعب : الطويل - الفطريس : جمع فطريس بكسر أول وثالثة ، وهو
الظالم المتكبر - العنفس : اللئيم - العفلق : الفرج الواسع الرخو ، والمرأة الخرقاء السيئة المنطق -
العيظموس : التامة الخلق من الإبل والنساء ، والمرأة الجيلة أو الحسنة الطويلة - السبتي : الجريء
والنمر - الحقص : الشد - الطرفسان : القطعة من الرمل - العسطوس : شجرة كالحيزران ، ورأس
النصارى بالرومية - العنقل : الكتيب - القدموس : القديم - الخندريس : الخمر .

الوشيجة بشعر مصر واتجاهاتها الأدبية . ومن المستطاع الاستئناس بهما ، ونحن نتحدث عن البيئة المصرية وتأثيرها في الشعر وطرق تعبيره .

لقد توخى شعراء مصر في تلك الحقبة التي نؤرخ شعرها ، السهولة في أكثر ما نظموه منه . اختاروا اللفظ السهل العذب الرقيق ، والأساليب المستساغة والتراكيب السمحة . وابتعدوا عن الألفاظ الغريبة والجميل والعبارات القوية التي تلفت السمع بجلبة رنينها وصلابة حروفها ، مما يتسم بالجزالة الصوتية قبل أن يؤدي معنى من المعاني ، ومما يتصف بالفحولة قبل أن يعبر عن فكرة من الأفكار .

وأبيات صفي الدين التي صدرنا بها هذا المقال ، شهادة عنيدة على ما توخاه القوم إذ ذاك من لفظ وأسلوب .

ولعل صفي الدين لم يكن فيها يدافع عن أسلوبه ، بمقدار ما كان يقنن للأسلوب الشعري ويدل على سلامة هذا التقنين بهذا الحشد العظيم من الكلمات اللغوية الغريبة الثقيلة المتنافرة التي كتبها ، فظاهرت مظهرة صاخبة عززت رأيه . وهو بهذا يعبر عن ذوق العصر وعن اتجاه شعرائه بعامية . قال زين الدين ابن الوردي .

إذا أحببت نظم الشعر فاختر لنظمك كل سهل ذي امتناع
ولا تقصد مجانسة ومكن قوافيه وكله إلى الطباع

ولا ندرى بالضبط كيف نعلل هذه الظاهرة ، فهل سببها بعد العهد بشعراء العصر عن أيام الجاهلية وأيام غرابة اللغة ؟ نعتقد أن هذا ليس السبب الأصيل ، ذلك لأن اصطناع السهل المألوف من اللفظ المفرد والتركيب ، ظاهرة عرفت في العصر العباسي . ونحن أهل العصر الحديث أشد بعداً عن أيام الجاهلية ، ولكن

شعراءنا في جملةهم أجزل لفظاً وأقوى أسلوباً من أسلافهم في عصر الماليك .
فهل سببها ضعف الثقافة اللغوية بين ألوان الثقافات التي تنقف بها الشعراء
— ومن بين الشعراء أميون لا يقرءون ولا يكتبون — لا نستطيع الجزم
بذلك بالنسبة للجميع ، لأن من بينهم أصحاب ثقافات عالية ، ومنهم من قلب في
اللغة وأدبها في عصورها الماضية وأرخ لها وشرحها ونقدها ، أمثال شهاب الدين
ابن فضل الله العمري ، والجمال بن نباتة والصلاح الصفدي والتقي بن حجة الحموي
— وفي شعرهم سهولة ووضوح .

يبدو أن السبب الاصيل لذلك أو صاحب الأثر الأول ، هو طبيعة الشعب
المصري — كما أشرنا آنفاً — الناشئة من طبيعة أرضه السمحة السهلة الواضحة
ومن جود أرضه ومن رغد عيشه وتوافر طعامه وسهولة حصوله عليه ، فلم
يكدح حينذاك كما يكدح سكان الجبال ولم يتعرض للهلاك كما يتعرض الباحثون
عن المعادن ، فلم يكسبه ذلك رغبة في التعمق عند التفكير ، ولا مشقة عند
التعبير ، بل أطلق اللفظة على سجيتهما . يعبر بها عن ضميره ، ويصور بها ما يدور
في نفسه ، في بساطة وسهولة .

وهكذا درج على توخي السهولة اللفظية عند الحديث ، واختيار اللفظ
والتركيب المتسم بالسماحة والكثير التداول الذي يعذب سماعه ويتحقق فهم
معناه فور النطق به .

وكان شعراؤه حينذاك منغمرين غالباً في أوساط العامة ، وهم منهم ، فتأثروا
بأساليبهم وتوخوا فيها ما يتوخونه . فاصطنعوا العذب السائغ المقبول ، وتجاؤوا
عن الصلب والغريب والطنان .

وهذا النحو من الأسلوب هو الشائع الذائع بين شعراء جيلنا الآن بحجة أن
الشعر من الشعب وإلى الشعب ، فينبغي أن يكون بلفظه وأسلوبه ، ومختاراً من
معجمه ليفهمه ويتأثر به دون حاجة إلى وسيط .

وهذا اتجاه خطير في حاجة قصوى إلى مناقشة حاسمة . فإن بعض الشعر الحديث قد أمعن في السهولة وتخفف ما استطاع من الجزالة ، واصطنع الدائر على أسنة العامة ، حتى صار شعره أشبه بالأزجال وأسجاع العامة .

والأدب العربي ولغته إنما يحيان بشعر جزل قوى فيه صلابة لا تخرجه عن موسيقاه ، وفيه تماسك واكتناز لا يبعده عن رفته وعذوبته . وفيه ثقافة أدبية متنوعة تثقف العامة وتمهدها وتسمو بمستواها ، فستفيد بذلك من الأدب واللغة .

ولم تصل سهولة الشعر المملوكى إلى مستوى سهولة بعض الشعر فى جيلنا الحاضر . فقد كانت سهولة مقبولة فى جملتها ، وكانت هذه السهولة وسيلة إلى تأدية المعانى واضحة جليلة ، يستطيع الطالب استيعابها فى يسر وسرعة .

والملاحظ أن هذه الظاهرة بدت فى المطارحات والمراسلات الإخوانية والمعارضات والمساءلات والمناقضات والسرقات والتوشیحات والمقطوعات الوصفية ، والغزل والمجون والاستدعاء ، أكثر مما بدت فى سواها .

ومن الشعر السهل السائغ قول الشاب الظریف يشكو ويتغزل .

نمت بما تحنو عليه ضلوعه	أسقامه وشـجونه ودموعه
جلبت نواظره لمهجته أسى	وجوى يذرب ببعضه بمجموعه
مغرى بوسنان اللحاظ وإنما	فى حبه هجر المحب هجوعه
أبدى محياه وأسبل شعره	والبدر يحسن فى الظلام طلوعه
للطرف فيه سنا وفيه بارق	هذا وذاك يروقه ويروعه
دارت عقارب صدغه فى خده	فغدا وقلبي فى الهوى ملسوعه
يا وافر البحر الطويل توسلى	فيه ألا وعد يجرود سريعه
نبه جفونك من نعاس فتورها	لترى محيا ذاب فىك جميعه

ما أنت يا طرفي بمتهم على سرى فكيف إلى الوشاة تذيعه . إلخ (١)

ومنه قول جمال الدين بن نباتة المصري في صدر مدحه ، يتغزل :

لا ونخر با بلية في ثنايا لؤلؤية
لا رقي سفع دموعي في هوى تلك الثنية
ربع سلواني خراب وشجوني عامرية
حربي من ذات حسن باسم تبكي البرية
غادة يروي لهاها عن صحاح جوهرية
من بيوت الترك ترمي عن قسي عربية ... إلخ (٢)

ولصفي الدين الحلي يتشوق :

إن غبت عن عياني يا غاية الأمان
فالفكر في ضميري والذكر في لساني
ما حال عنك عمدي ولا انثني عناني
شوقي إليك باق والصبر عنك فان (٣)

ولبدر الدين الذهبي يصف دولابا في روضة :

وروضة دولابها إلى الغصون قد شكا
من حين ضاع نشرها دار عليها وبكى (٤)

ولصلاح الدين الصفدي في وصف الدموع :

جرحت قلبي فأجربت الدموع دما ففيض دمعي من تلك الجراحات

(١) عن ديوان الشاب الظريف . (٢) عن ديوان ابن نباتة ص ٦١ .

(٣) ديوان الحلي ط بيروت ص ٢٨٢ . (٤) كشف اللثام لابن حجة .

وراح دمعى يحارى فيك نطق فى فاشان فى عبراتى والعبارات (١)

ونماذج الشعر السهل الرائق السائغ كثيرة موفورة .

غير أننا نحب - بعد ما أوردناه منها - أن ننبه إلى أننا حينما نتحدث عن إحدى الظواهر الأدبية التى نمت عن تأثيرات البيئة ، نتحدث عن ظواهر غالبية لا عامة شاملة ، وعن اتجاه يتكرر أكثر من تكرار غيره . وعلى هذا نتوقع أن يكون هناك من الجزئيات ما يخالف هذه الظواهر ، ومن النماذج ما يغير هذا الاتجاه ، ولا يصعب تعليل وجود هذه الجزئيات والنماذج أيضا . كما سترى .

نقول ذلك بمناسبة ما نراه من الجزالة بل القوة والصلابة فى أساليب بعض الشعراء ، وما يجنحون إليه أحيانا من غريب اللفظ وحوشية .

حتى صفى الدين الحلى نفسه ، ذلك الشاعر الذى نعى على الغرابة والحوشية وسفه الناقد الذى عاب شعره لخلوه من الألفاظ الغريبة ، نقول حتى صفى الدين هذا ، الذى استشهدنا بشيء من شعره السهل الرقيق ، نرى له أحيانا شعرا جز لا قويا ، بل صلبا حوشيا ، لا نبالغ إذا شبهناه بشعر البداءة فى الجاهلية ، وبنظم الأعراب .

وقد أشرنا إلى أن صفى الدين يرجع فى ثقافته إلى العراق ، وقد يكون متأثرا بالثقافة المصرية التى كانت - ولا ريب - أوسع أفقا فى جملتها من ثقافة العراق آنذاك ، ولا نرتاب فى أن ثقافة العراق إذ ذاك قد أفادت منها .

فاعتقادنا أن جنوح صفى الدين إلى الغرابة والصلابة أحيانا ، ليس وليدا للثقافة اللغوية التى أفادها من هنا أو من هناك . بل يرجع إلى مقدرة خاصة وإلى ثقافة فردية أفاد منها عند المناسبة ، وعندما أراد أن يثبت لنفسه أمام

نقاده مقدرة فنية وثروة لغوية وتصرفا أدبيا متنوعا . وبهذا جمع الفضل من أقطاره
وملك الأدب من نواصيه .

على أن أمثال صفى الدين فى هذه الخصوصية قليلون . وسنرى فيما يلى من
النماذج شيئا من شعرهم جميعا . وقبل أن نوردنا نلاحظ - بصفة إجمالية - أن
الشعراء الذين اشتغلوا بالكتابة - كابن عبد الظاهر وابن نباتة والصفدى وابن
حجة - كانت لغوياتهم أكثر وأبرز من سواهم . إذ كانت صناعة الكتابة أشد
احتياجا إلى معجم لغوى واسع . ونلاحظ أيضا أن المحصول اللغوى فى مجموع
الشعر كان يقل تدريجيا كلما سارت الأيام إلى نهاية العصر . ونلاحظ أن الجزالة
والغربة اتصلتا ببعض أغراض الشعر أكثر من سواها من الأغراض ، كالممدح
والنبويات والوصف والفخر .

ومن شعر صفى الدين الحلى بفخر بقومه ويصف الخيل فى المطلع ، يقول :

لمن الشواذب كالنعام الجفل	كسيت جلالا من غبار القسطل
يبرزن فى حلل العجاج عوابسا	يحملن كل مدرع ومسربل
شبهه العرائس تجتلى فكأنها	فى الخدر من ذيل العجاج المسبل
فعلت قوائمن عند طرادها	فعل الصوالج فى كرات الجندل
فتظل ترقم فى الصخور أهلة	بشبا حوافرها وإن لم تنعل .. الخ (١)

ومن جزالة ابن نباتة وقوة ديباجته قوله فى إحدى نبوياته ، يتذكروا تشوق
ويتشكى :

(١) ديوان الحلى ط بيروت ص ١١ - الشواذب : الضامرة - الجفل : النافرة .. الجلال : جمع جل
هو ما تلبسه الدابة صيانة لها - الطراد : المطاردة . الصوالج : جمع صولجان وهو المحجن ، أداة للصد أو
الصرف أو الجذب كمضرب السكره .

صحا القلب لولا نسمة تتخطر ولمعة برق بالغضى تسعـ
وذكر جبين البابية إذ بدا هلال الدجى والشئ بالشئ يذكر
سقى الله أكناف الغضا سائل الحيا وإن كنت أسقى أدمعا تتحدر
وعيشا نضا عنه الزمان بياضه وخلفه فى الرأس يزهر ويزهر
تغير ذاك اللون مع من أحبه ومن ذا الذى ياعز لا يتغير... الخ (١)

ومدح الشاب الظريف محي الدين بن عبد الظاهر ، فقال من قصيدة جيدة
جزلة :

أضحت يداه لعقد الجود واسطة فليس يدرى لجود بعده عطل
يجود حتى يمل الناس أنعمه وليس يدركه من بذها ملل
سادت وسارت بها الأفواه معلنة فقد غدت مثلا يغدو بها المثل
بنى لأبنائه بيت العلى وثوى فيما بناه له آباؤه الأول
كانوا أتم الورى جودا وإن صمتوا وأعظم الناس أحلاما وإن جملوا... الخ (٢)

٢ - اصطناع البديع

يعتبر هذا العصر عصر البديع ، لقد أغرق فيه كتابه وشعراؤه إغراقا منقطع
النظير ، لا شبيه له فى أى عصر أدبى آخر . ومرجع ذلك فى رأينا إلى عدة أمور
تعاونت على توجيه الأدب فى هذا الاتجاه ، منها (٣) :

أثر الدول الحاكمة :

توالى الدول الحاكمة على البلاد من خارج حدودها ، ومنها الدولة القائمة

(١) ديوان ابن نباتة حرف الراى . (٢) ديوان الشاب الظريف ،

(٣) نوهنا بشئ من ذلك عند حديثنا عن خصائص النثر .

التركية أو الجر كسية . فقد تتابع على البلاد بعد الفتح العربى بزمن حكام طارئون من غير أبنائها ، وكانت جيوشهم فى أغلب أمرها من غير هؤلاء الأبناء . وكانت الصلة بينهم وبين شعبها صلة الحاكم الظالم الطاغية المستعلى المستبد ، بالمحكوم المستغل المظلوم المسوق الخائف المترقب . فأورث ذلك أبنائه حقدا دفينالم يستطع إبرازه إبرازا إيجابيا إلا لملما ، وكتبته فى نفسه ومعه مرارة بالغة . وتنفس عن طريق النقدة العابرة واللذعة الطائرة والمؤاخذه الساخرة المتفككة والنكتة المتنكرة . واحتمل فى حديثه فاصطنع التورية والإيهام والاستخدام لما فيها من المعانى المتشابهة التى تدعو إلى الريث وتعنى من اللوم ، وتبىء التبرىء ... إلى غير ذلك من مسالك الأسلوب التى رسخت فى ذوق هذا الشعب الذكى الكريم الحيلة . وانطبع شعراؤه بطابعها ، فكانوا أدنى شعراء عصر إلى تمثيل أهله .

وملأت الدولة الحاكمة وأمرأؤها وجنودها ومن لف لفهم من أعيان البلاد ورؤسائها ، أنظار الناس بما دفعوا إليه من حضارة ومدنية وصناعة وفن ، قوامها جميعاً التمويه والزخرف والتهويل والمبالغة فى اللون والشكل ، بدا ذلك فيما اتخذ من الملابس والمطاعم والمشارب ، وفيما أقيم من الحفل فى الأعياد والمواسم ، وفيما شيد من الأبنية والعمائر والمساجد والسبل ، وفيما اصطنع من الأثاث والرياش . إلى غير ذلك مما لا يزال ماثلا فى آثارهم .

فبهروا الأنظار وسحروا الخواطر وطبعوا الأذواق بطابع التلوين والصبغ والتشابه والزخرف ، وكان لذلك أثره الماثل فى تخاطبهم وأحاديثهم . وانطبع شعراؤهم بطابعهم . فأقبلوا على المماثلة وعقد التشابه والاحتيال والتلوين فى الأسلوب وربط الألفاظ بعضها ببعض بمجانسة أو ازدواج أو مطابقة أو مقابلة أو لف أو نشر ... وانساقوا إلى الحلية والزينة ، واتخذوا ذلك أساسا ودعامة يبنون عليها بيوب الشعر ويشيدون القصائد .

مذهب القاضي الفاضل :

وهناك عامل ثقافي له خطورته وأثره في هذا الاتجاه ، وهو مذهب القاضي الفاضل في أساليب الكتابة والشعر . لقد كان هذا المذهب الدعامة الأولى التي اتخذها الشعراء أساساً لتنظيم الشعر . ولقد كان القاضي الفاضل إماماً في ذلك له قدسيته .

عاش القاضي الفاضل في أواخر العصر الفاطمي وأوائل العصر الأيوبي ، وشهد عصر صلاح الدين الأيوبي وكان وزيراً له دبر له دولته برأيه وشبابة قلبه . وابتدع مذهبه هذا الذي يعتبر في جملة امتداد المذهب ابن العميد .

لقد لمع البديع وبرزت منه أنواع عدة منذ فجر الأدب . وعرف من أنواعه في العصر الجاهلي - مثلاً - السجع والازواج . وما زالت تبرز ألوانه حتى ظهر ابن العميد - توفي عام ٣٦٠ هـ - فسلك في الأسلوب مسلكه وزهبه مذهبه . واستحسن السجع وقصر الفقرات واستملح الجناس ، واستطاب الطباق والمقابلة والتضمين والاقتراس والتلميح ، واستعمل شيئاً من غريب اللفظ . وعنى بالتشبيه والاستعارة ، إلى غير ذلك ، مما هو معروف عن طريقته التي كان لها أثرها في الكتابة والشعر .

وزادت موجة البديع بعد ابن العميد ، ودخلت أساليب الأدب في طور هندسة وزخرف بتأثير اتساع الحضارة ونقشي الصناعات والفنون ، وتنافس الدول الإسلامية الناشئة بجوار الدولة العباسية ، في ذلك .

وورث القاضي الفاضل كل هذا التراث ، وبخاصة بعد العصر الفاطمي الذي شغل الناس بمواسمه وأعياده وبمواكبهم واحتفالاته ، وبرايانه وشعاراته . فارتضى لنفسه التزام مستحسنات ابن العميد . وزاد عليها دقة في نظام الفقرات ، وإصراراً على التورية والاستخدام ، وعمقاً وتعقيداً في اصطناع التشبيه والاستعارة ، وتوسعا في استعمال التضمين والاقتراس . إلى غير ذلك من لوازم

طريقته . وذاع ذلك في زمانه وفي دولة بني أبوب ، بين كتابها وشعرائها في الجملة . واتجهوا بذلك نحو الزخرف والزينة .

وكان عصر المماليك في جملة مظاهر امتدادا لعصر بني أبوب . وزادت الأسباب الداعية إلى الاحتيال في الأسلوب ، والجهد في تزيينه وتجميله كما سبق . فأوسع ذلك ميدان الانتصار أمام مذهب القاضي الفاضل ، ووجد من أسباب الرواج والانتشار ما لم يجده في عصر آخر ، فقد وافق أذواق الناس والشعراء والكتاب ، وأقبل النقاد أنفسهم يتحدثون في نقد الشعر والنثر على أساسه وعلى هدى منه . وأكثر ابن حجة الحموي - مثلاً - في خزنة أدبه من الإشادة بالفاضل وكتابته وشعره ومذهبه وذوقه ، وهو يدرس الشعر والكتابة . واعتبر أن له راية هي «الراية الفاضلية» ، وأن له «عصبة» من أدباء عصر المماليك ، ساروا تحت رايته ..

هذا وغيره ، يشعرونا بما كان لمذهب هذا الأديب الكبير ، دراسة وتذوقاً ، من أثر ضخيم في طبع أساليب الأدب في عصر المماليك بطابعه .

وخلف من بعده خلف كان على رأسهم جمال الدين بن نباتة الذي أتم تمصير مذهب القاضي الفاضل ، وطبعه بطابع الذوق المصري الأصيل ، وذلك بالإكثار من التورية والاستخدام ، وباستعمالها بلباقة ورقة ولطف لا تظفر بها في أدب الفاضل ، وبالسماحة البادية في استعمال التشبيه والاستعارة ، وبإخراج الجناس ممزوجاً بالتورية حتى تذهب عنه عقادته ، وبالتفكة وإطلاق النكتة المليحة . إلى غير ذلك .

لقد اعتبره ابن حجة الزعيم للثاني للطريقة الفاضلية ، وأن له راية خاصة هي «الراية النباتية» . وأحصى عدداً من الأدباء مشوا تحت هذه الراية . وهم عصابته وأتباعه .

وحق ابن نباتة أن يعتبر زعياً مستقلاً ، ذا طريقة خاصة ، يتمثل فيها
الذوق المصرى الصميم .

أمثلة من شعر الفاضل :

ومن شعر الفاضل قوله يمدح الملك العادل ، من قصيدة :

أهذى كفه أم غيث غوث ولا بلغ السحاب ولا كرامة
وهذا بشره أم لمع برق ومن للبرق فينا بالإقامة
وهذا الجيش أم صرف الليالى ولا سبقت حوادثها زحامة
وهذا الدهر أم عبد لديه يصرف عن عزيمة زمامه
وهذا نصل غمد أم هلال إذا أمسى كنون أو قلامه
وهذا الترب أم خد لثنا فآثار الشفاه عليه شامه

ومنها :

وهذا الدر منشور ولكن أرونى غير أقالمى نظامه
وهذه روضة تندى وسطرى بها غصن وقافيتى حمامه
وهذا الكأس روق من بنانى وذكرك كان من مسك ختامه^(١)

وقد قدم ابن حجة الحموى هذه الأبيات بقوله :

« قول إمام هذه الصناعة . ومالك أزمة البلاغة والبراعة . القاضى الفاضل ،
وعلق عليها أيضاً بقوله :

« سبحان المانح هذا الأديب الذى لم ينسج الأوائل على منواله ، ولا تتعلق
الأفاضل من المتأخرين بغبار أذياله » .
وأنت ترى فى هذه الأبيات فنوناً من البلاغة والبديع . وذلك كالتشابه

(١) خزائن الأدب ص ١٥٥ ، باب تجاهل العارف .

في السكف والغوث . وفي البشر ولمع البرق . وفي الجيش وصرف الليالي ، وفي
الدهر والعيد ، وفي نصل الغمد والهلل . وفي القلاوة والنون والهلل . إلى غير ذلك .
وفيها تجاهل العارف . وهو واضح في الاستفهامات المتوالية في الآيات
كقوله : أهذى كفه . أهذا بشره . أهذا جيشه . . إلخ .

ومن أبدع تمثيله وأجمل مخترعانه قوله :

وهذى روضة تندى وسطرى بها غصن وقافيتي حمامه
وهو يقصد بالروضة الصحيفة التي يكتب فيها . فسطره فيها غصن ، وقافيته
حمامة ساجدة . .

ومن شعره يشبه ثلاثاً بثلاث :

كأن ضلوعى والزفير وأدمعى طول وريح عاصف وسيول

ومن طريف تورياته قوله يتغزل :

وكننت وكنا والزمان مساعد فصرت وصرنا وهو غير مساعد
وزاحمنى فى ورد ريقك شارب ونفسى تأبى شركها فى الموارد (١)
والتورية فى لفظ « شارب » بمعنى شعر الفم أو اسم الفاعل من
شرب يشرب .

ومن جناسه وفيه تورية أيضاً قوله :

لو كنت جاوبت الحمام نأحما قال الوشاة أذاع شرك بأحما
سل طائعا صدع الفؤاد بسحره أتراه عرض صادعا أم صادحا
ياضعف من أمسى الفريسة فى الهوى وغدا الحمام له هنالك جارحا (٢)

(١) خزانة الأدب باب التورية - الأبيات وما قبلها .

(٢) تأهبا القريب باب الأغوال البدعة .

والجناس : بين نأخ وبأخ ، وبين صادع وصادح . والتورية في « جارحا ،
أراد من جرح يحرح فهو جارح ، أو صار من الطيور الجوارح .

هــذا وسنسوق لك أمثلة ونماذج من شعر جمال الدين بن نباتة في عداد
ما سنسوق من أمثلة ونماذج . وسنوضح لك فيها ما تحتوى عليه من ألوان بديعية .

وبعد فهذه الصناعة البديعية لم يعد أكثر نقادنا وأدبائنا في العصر الحديث
يأبهون لها . بل يحملون عليها ويعيبونها وينادون بالانصراف عنها إلى إجادة
الفكرة وتمحيصها ودقة إخراجها .

وملابسات عصرنا وتوثبه الثقافي وتتابع وفود الثقافات الأجنبية إلينا ،
وسهولة وصولها وسرعتها ، وعجلة تطور الحياة وتجدد أسبابه ، كل هذا كان له أكبر
الأثر في انصراف أدبائنا عن الصناعة البديعية ، إلى صناعة الفكرة وخلق المعنى
وإبراز الخلجات النفسية .

ولكن من الحظ أن نعيب شعراء هذا الزمان البعيد لولوعهم بالبديع ،
ونقيسهم بمقاييسنا ، ونحكم فيهم أذواقنا ، دون رعاية لملابسات حياتهم وما كان
هذا الولوع إلا طورا طبيعيا وضروريا ، من أطوار حياة الأساليب الأدبية .

ونحن لاندافع عن البديع ولا نتحذاه . ولكننا لانستطيع أن نغفل أنه فن
جميل من فنون القول . لانستطيع أن ننكر ما فيه من براعة وكياسة وذوق .
لانستطيع أن نجهل أن بعض ألوانه يعتبر أحيانا ضرورة من ضرورات التعبير ،
ولا نستطيع كذلك أن ننسى أن في لغة عامة بلادنا منذ ذلك الزمان حتى يومنا
هذا أصباغ منه عدة . لانستطيع كذلك أن نفرق بين الأسلوب الأدبي -
والشعري بخاصة - وبين غيره من أساليب القول ، إذا لم يكن مزودا بالوان منه
ومعتمدا على مسالك من مسالكه . وليس هو الذي يتود الأسلوب ، ولكن

سوء استعماله هو الذى يشوده ثم كم بين الأساليب غير البديعية من غث وضعف ومستزذل ...

على أن أدباء عصر المماليك وشعراءه ، استطاعوا باصطناع البديع ، وبرعاية قوانينه التى وجدوا فيها رجعا لما فى نفوسهم ، وموافقة لأذواقهم ، أن يدالوا عمليا على عمق فهمهم للفن ، وأن يبرزوا ما فى ألفاظ العربية من أسرار ومزايا ، وما بينها من ألفة وتقارب ، وما فى طبيعتها من تعاون وتأزر على تصوير المعانى . وأن يجلووا ضروبا من جمال اللغة كانت خافية مجهولة . واستخرجوا من مفرداتها الملتشابه والمتقارب والمشارك والمتضاد وغيرها ، وجذبوا بها بصفاتها هذه - إلى ميدان الفكر والأدب والتعبير ، وذلك بالاستعمال .

بهذا وذاك أصبح البديع وقبوده ميزانا من موازين الأدب لدى نقاد العصر . كما نوهنا - وقد وزنوا به النثر والشعر ووزنوا به الشعر أكثر مما وزنوا به النثر - كما يترأى ذلك فى خزانة الأدب لابن حجة - وتلك سنة قديمة للنقاد أن يهتموا بنقد الشعر أكثر من اهتمامهم بنقد النثر .

واعتبر نقاد العصر كل نوع من أنواع البديع ، مسلكا من مسالك البلاغة ، وبذلك رادفوا بين البديع والبلاغة .

ولم يكن الشعراء - وإن مشوا جميعا تحت راية البديع ونظموا من أنواعه - على مستوى واحد من الإجادة ، ولا على درجة من الإقبال واحدة ، على كل ألوانه . فمنهم من أجاد التورية ومنهم من أخفق فيها ، ومنهم من جانبها . ومنهم من عف عن الجناس إلا إذا كان غير متكلف ، أو أخرجه مخرج التورية ، ومنهم من أقبل على الجناس بجمع نفسه ولو كان متكلفا ساقطاً ، أو كان عارياً عن التورية . وهكذا .

لم يسيروا جميعاً على وتيرة واحدة لاختلاف الذوق والثقافة والمقدرة . وقد

كان أديب كبير كشهاب الدين الحلبي ، وأديب بارع كشهاب الدين بن فضل الله ، لا يقبلان على صوغ التورية ، ولم يعتبر كلا الرجلين من فرسانها . وكان جمال الدين ابن نباتة و تقي الدين بن حجة الحموي لا يميلان إلى الجناس ، وإذا صاغه ابن نباتة لم يكن متكلفاً في صياغته . واستحسن أن يمتزج بالتورية . وكان صلاح الدين الصفدي مولعاً ولوعاً شديداً بالجناس يتكلفه ، ويعلم أنه يتكلفه ، وألف كتاباً سماه « جنان الجناس » ، وأن ابن نباتة قرأه هكذا « جنان الخناس » .

وإننا بعد ذلك لا ننكر أن اللجاج في استعمال البديع وعدم الخنكة والكياسة في صوغه ، يسقطه ويوقع في التكلف المرذول ، ويبعد به عن سميت البلاغة ، وقد يحيل الأسلوب إلى آجر يابس لا بشاشة فيه .

ولا ننكر أن الانصراف إلى إجادة البديع ليكون وسيلة إلى الزينة والحلية ، يستنفد من الشاعر مجهوداً ضخماً ، أجدر به أن ينفقه في ابتكار الرأي وخلق المعنى ، ولا سيما في زماننا .

الدراسات القرآنية :

وهذا عامل آخر له أهميته في اتجاه أدباء العصر نحو البديع ، فقد عني النقاد والدارسون بدراسة أساليب القرآن الكريم ، وطريقة نظمها ، وكانت دراستهم أساسها التسليم بإعجاز القرآن وبلوغ أساليبه حد الجمال الفني في الصوغ والتأليف . ولهذا كان همهم متجهاً إلى بيان وجوه إعجازه ووجوه الجمال في أساليبه . وكلها تنبه خاطرهم إلى وجهه من الوجوه ، أو إلى توافق ما ، عدوا ذلك لوناً من ألوان البديع .

وتحدث نقادهم وتسكلم بلاغيوهم ، في أبواب النقد والبلاغة . وقدموا في الاستشهاد في كل باب ، نموذجاً أو أكثر من آيات القرآن الكريم . واتضح ذلك بعد ، في كتاب « حسن التوسل » للشهاب الحلبي ، و « خزانة الأدب » لابن حجة .

هذا الاتجاه أوسع الميدان أيضاً أمام مذهب القاضى الفاضل ومذهب جمال الدين بن نباتة ، فانتصرا على طول الخط .

وبهذا وذاك صار العصر عصر البديع ، وأغرق فيه كتابه وشعراؤه إغراقاً منقطع النظير ، كما أشرنا .

وفي السطور التالية نتحدث عن بعض ألوان البديع التى ظهرت فى شعر هذا العصر ، وكانت لها سيادة فيه وسيطرة عليه ، مع أمثلتها وتحليل بعض هذه الأمثلة بالقدر المناسب .

وان نستطيع أن ندرس كل ألوان البديع ، لسكثرتها وترادف أنواعها . ولأن دراستها جميعاً تخرج بنا عن نطاق بحثنا . وقصارانا هنا فتح الباب بالتمثيل القليل والشرح المناسب .

على أن الذى نريد التنبيه عليه ، هو أن شعراء العصر لم يتركوا - أو لم يكادوا يتركوا - نوعاً بديعياً إلا وقد نظموا فيه . ومن الأنواع ما كانوا يتنافسون فى إجادته وفى الإكثار منه كالتورية .

وحسبك أن تعلم أن شعراء البديعات ضمنوا بديعاتهم نحو مائة وأربعين نوعاً بديعياً . وفى هذا كله ما فيه من تكلف . فمن هذه الأنواع (١) .

(١) براعة الاستهلال :

براعة الاستهلال أو براعة المطلع ، يسميها ابن المعتز « حسن الابتداء » . ويفرق بعضهم بين براعة الاستهلال وحسن الابتداء .

(١) من الكتب التى ألفت فى عصر المالك وتحدثت عن أنواع البديع وشرحت كل نوع ومثلت له : حسن التوسل للطحى ، خزائن الأدب لابن حجة . جنان التجاسى للصفدى . كشف اللثام لابن حجة . وشروح البديعات وهى كثيرة .

ويشترط في مطلع القصيدة لكي يكون بارع الاستهلال جملة شروط ، منها :

١ — أن يكون مطلع القصيدة مستقلا في معناه عما بعده فلا يتعلق به .

٢ — أن يكون رقيق النسيج متخير اللفظ غير حوشيه .

٣ — أن يكون فيه من المعاني ما يشعر بالغرض العام من القصيدة ،

أو الغرض الرئيسي لها .

٤ — أن يحتوى كل واحد من شطريه على معانٍ مساوية لما يحتوى عليه

الآخر ، فلا يثقل ميزان أحدهما ويخف ميزان الآخر .

٥ — أن تكون معاني كل من الشطرين من واد واحد ، حتى يكون التناسب

بينهما واضحا تماما . فلا يكون أحدهما في المدح ، والثاني في الغزل مثلا :

ومن الأمثلة الى ضربوها لذلك ، مطلع معلقة امرئ القيس . وهو قوله :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحول

ومطلع قصيدة النابغة الذبياني ، وهو قوله :

كليني لهم يا أميمة ناصب ليل أقالسيه بطل ، بطى الكواكب

وفضلوا الثاني على الأول ، لاستيفائه الشروط المطلوبة في براعة الاستهلال .

ولأن بيت امرئ القيس اكتنزت معانيه في شطره الأول ، وكاد يخلو منها

شطره الثاني ، بخلاف مطلع النابغة فالمعاني فيه موزعة على الشطرين .

قال ابن حجة : « وقد سمي ابن المعتز براعة الاستهلال ، حسن الابتداء ، »

وفي هذه التسمية تنبيه على تحسين المطالع ، وإن أخل الناظم بهذه الشروط

لم يأت بشيء من حسن الابتداء ، وأورد في هذا الباب قول النابغة : كليني

لهم . . . الخ ، وقال :

« قال زكي الدين بن أبي الأصبع : لعمرى لقد أحسن ابن المعتز الاختيار .

فإني أظنه نظر بين هذا الابتداء وبين ابتداء امرئ القيس حيث قال :

قفا بنك . . إلخ . فرأى ابتداء أمرى القيس على تقدمه وكثرة معانيه متفاوت القسمين جدا ، لأن صدر البيت جمع بين عذوبة اللفظ وسهولة السبك وكثرة المعاني ، وليس فى الشطر الثانى شىء من ذلك . وعلى هذا التقدير مطلع النابغة أفضل من جهة ملاءمة ألفاظه وتناسب قسميه . ، إلخ (١) .

وعلى أننا نلاحظ أن المطلع - مع براعة استهلاله - كثير أ ما يتخلف فيه شرط الإشعار بغرض القصيدة . وربما صدر الشاعر قصيدة المديح - مثلا - بأبيات غزلية أو خمرية ، لا تشعر بما يليها من المديح .

وقد تبارى الشعراء - شعراء عصر المهالك - فى تجويد مطالعهم جاهدين فى أن تكون مستوفاة الشروط . وقد بلغوا من ذلك مبلغا محمودا .

ومن براعة الاستهلال قول جمال الدين بن تباة :

فى الريق سكر وفى الأصداغ تجميد هذى المدام وهاتيك العناقيد

وترى فى البيت استقلالا فى المعنى - كما اشترطوا - عما بعده ، لانهاء معناه بانتهائه . وترى عذوبة ألفاظه بادية . وأى عذوبة تفوق ريق الحبيب . إنها عذوبة السكر والمدام . - وأصداغه بتجاعيد واواتها صاوت شبيهة بعناقيد السكرم .

وقد عقد الشاعر تشبيها واسع النطاق بين صورتين معشوقتين محبوبتين هما ينبوع لذة ومعين متعة ، يشترك فيها الذرق والشم والبصر . الصورة الأولى : ثغر الحبيب بما فيه من الربق العذب المسكر المشهى ، وبما يتدلى على مقربة منه من خصلات الشعر المجددة . والصورة الثانية : السكرمة وما فيها من عناقيد جميلة مدلاة بفروعها وما تحتوى عليه من خمرة لذة للشاربين .

ويبدو أنه كان من عادات نسائهم وجمالياتهم ومحجوباتهم عقد الشعر وعقده ،
وجمع كل طائفة من تجاعيده في تشكيلة واحدة مثناة ، فبدأ في مثنياته المدلاة من
أصولها ، كالعناقيد المدلاة من غصونها .

والملاحظ أن هذا البيت في صدر قصيدة مديح ، ومع هذا لم يشعر بغرض
القصيدة . فلعل الشاعر تجاوز عن هذا الشرط فلم يرتبط به كل الارتباط .

والملاحظ أيضاً أن المنشئين كانوا أكثر ارتباطاً بهذا الشرط . وأدق رعاية
له في رسائلهم ، من الشعراء . ولعل ذلك كان بسبب ما للرسائل - وبخاصة
الديوانية منها - من جدية ، وبسبب ما لها من رسوم موضوعة مقررة في
الديوان ، لا يحيد عن اتباعها . هذا إلى ما يتمتع به الشعر والشاعر من حرية
نسبية . لبعده - عادة - عن الرسميات والديوانيات .

ومن براعة استهلال ابن نباتة أيضاً - وثقافته المصرية خالصة - قوله في
مطلع قصيدته التي هنأ بها الملك الأفضل صاحب حماة على توليه عرش أبيه الملك
المؤيد إسماعيل بعد وفاته :

هناء محاذك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما
لقد هنأه بولاية العرش ، وعزاه بفقد أبيه ، فجمع بذلك بين غرضين
متضادين . وهذا الجمع يسمى « الافتنان » . ويعد مطالع هذا من أبرع المطالع
استهلالاً . فإنه مع عذوبته ووضوح معانيه وتوزيع أجزاء المعاني على قسميه
بالتساوي ، واستقلاله عما بعده ، قد جمع خلاصة الموقف الذي سبقت فيه
القصيدة . وما جاء بعده من أبياتها تفصيل لما أجمل فيه .

وقد أورد ابن حجة الحموى في خزنة الأدب . أمثلة كثيرة لبراعة الاستهلال
نذكر لك بعضاً منها على سبيل التمثيل ، مما نظمه شعراء العصر .

فمن ذلك قول الشاب الظريف :
 أعز الله أنصار العيون وخلد ملك هاتيك الجفون
 وقول ظهير الدين بن البارزى :
 يذكرنى وجدى الحمام إذا غنى لأن كلانا فى الهوى يعشق الغصنا
 وقول صفى الدين الحلى :
 قفى ودعينا قبل وشك التفرق فما أنا من يحيا إلى حين نلتقى
 وقول عز الدين الموصلى :
 سمعنا حمام الدوح فى روضة غنى فأذكرنا ربيع الحبايب والمغنى
 وقول الجمال بن نباتة فى رثاء ولده :
 الله جارك إن دمعى جارى ياموحش الأوطان والأوطار
 وقول علاء الدين الوداعى :
 بدر إذا ما بدا محياها أقول : ربى وربك الله

(ب) الجناس :

الجناس هو أن يكون فى الكلام لفظان على الأقل ، بينهما توافق ما فى نطق حروفهما ، مع الاختلاف فى المعنى . وذلك كقول جمال الدين بن نباتة :
 هات كأسى وإن لحنت من السكر م فلا تلحنى إذا قلت هاته
 فبين اللفظين « لحنت » و « تلحنى » توافق ما فى نطق الحروف ، مع الاختلاف فى المعنى . فالأول من اللحن والثانى من لحنى يلحنى .
 والجناس عرض من أعراض الأساليب الأدبية . وقد أخذ يروج ويلعب لما اتجه العباسيون إلى اصطناع البديع وتكلفه ، وأغرم به الصاحب بن عباد غراما شديدا .

واطرده بروزه بين سائر ضروب البديع حتى العصر المملوكى ، ويكاد يكون هناك إجماع من الأدباء فى العصر المذكور على أن الجنس محسن لفظى وأنه أقل رتبة من غيره ، ولا سيما التورية والاستخدام والاستعارة والتشبيه ، وأنه يعوق الأديب عن ابتكار المعانى .

قال ابن حجة : « أما الجنس فإنه غير مذهبى ومذهب من نسجت على منواله من أهل الأدب . وكذلك كثرة اشتقاق الألفاظ ، فإن كلا منهما يؤدى إلى العقادة والتقييد عن إطلاق عنان البلاغة فى مضمار المعانى المبتكرة ،

وقال أيضاً : « ولا بأس به فى مطالع القصائد إن تعذر على الناظم أن يركبه تورية ، فإنه نوع متوسط بالنسبة إلى ما فوقه من أنواع البديع ، كما قرره مشايخه ، كالتورية والاستخدام والاستعارة والتشبيه ، وما قارب ذلك من أنواع البديع ، (١) .

وابن حجة بآرائه فى خزانة الأدب وغيرها من كتبه . يمثل روح عصره واتجاه الأدباء فيه . ومن ذلك رأيه فى الجنس . وأدباء عصره لا يمنعون استخدام الجنس إذا جاء حسناً .

وقد قال الشهاب الحلبي : « وإنما يحسن الجنس إذا قل وأتى فى الكلام عفواً من غير كمد ولا استعكراه ولا بعد ولا ميل إلى جانب الركة ، (٢) »

وبما يرفع عن الجنس عقادته وثقله مزجه بالتورية . وهذا هو مذهب ابن نباتة ومن سار تحت لوائه . ولم يشذ عن أدباء العصر إلا من ندر . وفى المقدمة صلاح الدين الصفدى ، فإنه أروع بالجناس وجن به . فهو فى هذا الولوع شبيهه بالصاحب بن عباد . وقد ألف كتاباً فى الجنس سماه « جنان الجنس » ، ملأه

(١) خزانة الأدب باب الجنس .

(٢) راجع حسن التوسل .

بجناساته الثقيلة المتكلفة . فكان هدفاً للنقد الناقدين . حتى إن ابن نباتة قرأه هكذا
« جنان الجناس » . — كما سبقت إشارتنا —

ومن جناس الصلاح الصفدى قوله :

ومر على غيرى سقام وصحة ولم يرقان مثل ذى يرقان
قال ابن حجة : « ورأيت بخط الشيخ بدر الدين البشتكى تحت هذا البيت
والذى قبله : « وهو الضعيف باليرقان وأن من ذلك مبلغه من النظم لجدير أن
يقعد مع صغار المتأدين » .

والجناس أنواع كثيرة تحدث عنها كتب البلاغة والنقد ، ومنها :

الجناس المركب :

وهو أن يكون أحد الركنين كلمة مفردة والأخرى مركبة من كلمتين ، وهو
على ضربين :

الأول : ما تشابه لفظاً وخطاً ويسمى « المتشابه » . ومثاله قول شمس الدين
محمد بن عبد الوهاب .

حار فى سقمى من بعدهم كل من فى الحى داوى أورق
بعدهم لا طل وادى المنحنى وكذا بان الحى لا أورقا^(١)
والجناس بين « أورق » و « أورقا » . الأولى رقى يرقى ، والثانية أورق يورق .
ومثاله أيضاً قولى صلاح الدين الصفدى « فى كتابه جنان الجناس » .

يا من إذا ما أتاه أهل المودة أولم
أنا محبك حقاً إن كنت فى القوم أولم

(١) هذان البيتان وما يليهما فى خزائن الأدب أو دواوين الشعراء .

والجناس بين « أولم » من الوليمة ، و « أولم » لم حرف تنفي .

والثاني : ما تشابه لفظا لا خطأ ويسمى « المفروق » .

ومثاله قول العلامة شهاب الدين محمود الحلبي .

ولم أر مثل نشر الروض لما تلاقينا ببنت العامري
جری دمعی وأومض برق فيها فقال الروض في ذا العام ربي

والجناس بين « العامري » و « العام ربي » .

ومثاله أيضا قول ابن نباته :

قمرا نراه أم مليحا أمردا ولحاظه بين الجوانح أم ردى

والجناس بين « أمردا » و « أم ردى » .

ومثاله أيضا قول القاضي بهاء الدين السبكي :

كن كيف شئت عن الهوى لا أنتهى حتى تعود لى الحياة وأنت هى

والجناس بين « أنتهى » و « وأنت هى » .

هذا ومن أنواع المركب نوع يسمى « المرفو » ، وهو أن يكون أحد الركنين جزءا مستقلا ، والآخر جزءا من كلمة أخرى . وهو لا يخلو من عقادة وتعسف ، — هكذا قال ابن حجة .

الجناس التام :

وهو ما توافق فيه الركنان توافقا كاملا فى الحروف نطقا وعددا وترتيبا وشكلا .

ومثاله قول شمس الدين الكوفي :

إن لم تقرح أدمعى أجفانى من بعد بعدكم فما أجفانى
والجناس بين « أجفانى » و « أجفانى » . الأولى جمع جفن ، والثانية أفعل تعجب .

ومثاله أيضا قول صفي الدين الحلبي :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا فتركن حبات القلوب ذوائبا
والجناس بين « ذوائبا » و « ذوائبا » الأولى جمع ذؤابة ، والثانية جمع ذائبة .

الجناس الناقص :

وهو ما فقد فيه أحد الركنين واحدا مما توافق فيه حروف ركني الجناس التام :
ومثاله قول ابن نباته :

الله جارك إن دمعى جارى ياموحش الأوطان والأوطار
والجناس بين « الأوطان » و « الأوطار » . افترقا في الحرف الأخير .
ومثاله أيضا قول شمس الدين الكوفي :

مالى وللأيام شئت خطبها شملى وخلانى بلا خلان
والجناس بين « خلانى » و « خلان » الأولى بفتح الخاء ، والثانية بضمها .

الجناس الملفق :

وهو ما كان كل ركن من ركنيه مكونا من أكثر من كلمة . وبعضهم لا يفرق
بينه وبين الجناس المركب .

ومثاله قول تقي الدين بن حجة الحموى ، فى بديعته مشيرا إلى اسم النوع .

ورمت تلفيق صبرى كى أرى قدمى يسعى معى فسعى لىكن أراق دى
والجناس بين « أرى قدمى » و « وأراق دى » - وقد أشار إلى اسم النوع
فى قوله « تلفيق » .

ومثاله أيضا قول صفي الدين الحلبي فى بديعته مع تسمية النوع :

وقد ضمنت وجود الدمع من عدم لهم ولم أستطع مع ذلك منع دى
الجناس بين « من عدم » و « منع دى » .

هذه أنواع من الجناس . وأنواع الجناس كثيرة منها المذيل والمضارع والمقلوب وغير ذلك . وحسبنا ذكر ما مر من أنواعه ونماذجها .

جناس التورية :

وهو ضرب من الجناس أيضا ، ولكن ينحصر فيه المعنيان في ركن واحد . ويروق هذا النوع ابن حجة ومن على شاكلته ويقول عنه :

« فإذا جعلت الجناس تورية ، انحصر المعنيان في ركن واحد وخلصت من عقادة الجناس وحركت الأذواق وأبهجت خاطر السامع بما أتخفته من بديع تركيبها وتأهيله بغريبها » .

ومن جناس التورية قول شهاب الدين بن حجر العسقلاني :

سألت من لحظه وحاجبه كالسهم والقوس موعدا حسنا
ففوق السهم من لواحظه وانقوس الحاجبان وقت رنا واقترنا .^(١)

وجناس التورية في قوله « وقت رنا » بمعنى « حين رنا » ، أو « واقترنا » من الاقتران . وقد اجتمع المعنيان في لفظ واحد ، ولكل معنى اعتبار في اللفظ يوجه إليه .

ومثاله أيضاً قول الأديب القاضي مجد الدين بن مكائس :

أقول لحبي قم ومس يا معذبي كيسة خود حرك السكر رأسها
ولا تسه عن شيء إذا ما حكيتها فقام كغصن البان لنا وماسها^(٢)

وجناس التورية في قوله « ماسها » من ماس يميس ، أو من سها يسمو ، وما نافية .

ومثاله أيضاً قول المعمار :

وخادم يعملو على عشاقه برتبة من الجمال نالها
واسمه وهو العجيب محسن وكم دموع في الهوى أسالها^(١)

وجناس التورية في قوله « أسالها » من أسال يسيل ، أو من أساء يسيء ،
حذفت همزته .

ج - التورية :

التورية أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان حقيقيان أو أحدهما حقيقة
والآخر مجاز . أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة ، والآخر بعيد ودلالة
اللفظ عليه خفية . ويريد المتكلم المعنى البعيد ويورى عنه بالمعنى القريب .
فيتوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب ، وليس كذلك .

ومثال ذلك قول بدر الدين الذهبي في وصف حمامة :

أنى تبارينى جوى وصباية وكآبة وأسى وفيض مآقى
وأنا الذى أملى الجوى من خاطرى وهى التى تملى من الأوراق^(١)

والتورية في قوله : « الأوراق » والمعنى القريب غير المراد هو « أوراق
الكتابة » وشرح له بقوله « أملى وتملى » . والمعنى البعيد وهو المراد
« أوراق الأشجار » .

والتورية والاستخدام والتضمين تعتبر من الأنواع البديعية التى أولع بها
أكثر شعراء العصر المملوكى ، وقد أكثروا من التورية وأجادوها ، وتفقوا
بذلك على أدباء العصور السابقة واللاحقة ، حتى عدوا بحق شعراء التورية

وزعماءها . ولم يأت من بعدهم من تعصب لها وابتسكارها وأحسن استخراجها
وسلك سبيلها في التعبير .

والتورية تتم بحسن اختيارها ولطف ابتكارها ، عن ذوق سليم وطبع قويم
وأدب جم وحس لطيف وفهم دقيق .

ويعتبرها أدباء العصر المملوكي ، في جملتهم ، من أغلى فنون الأدب ومن أرقها
وأدقها بين مسالك التعبير ، ومن أعلاها رتبة . ويقول ابن حجة : « إن لها سحراً
ينفث في القلوب ويفتح أبواب عطف ومحبة » .

والحق أن التورية من أجمل الأساليب الأدبية وأعذبها وأدقها في تأدية
المعاني ، ففيها مداعبة للفكر ومفاكهة للنفس ، وحسن في التصوير ، لوجود
مرشحات المعاني ، ودفع إلى الموازنة بين المعنيين ، وإلى بحث الرابط بين المجتمعين ،
وإلى الفحص عنه للوصول إلى المعنى المراد . إلى غير ذلك .

والتورية كانت - ولا تزال حتى يومنا هذا - من صميم مسالك التعبير
لدى الشعب المصري . وكثيراً ما ترى الرجل العامي الأمل ، ينظم في عباراته
التورية السائغة العذبة يخرج بها معانيه ويصل بها إلى هدفه ، من إيضاح أو مقارنة
أو مفاكهة أو تندر أو نقد أو غير ذلك .

وبروزها في الشعر الفصيح في العصر المملوكي من أبرز الأدلة على مدى تأثير
شعرائه بأساليب الشعب وتعبيراته البديهة .

وقد عدد ابن حجة في خزانة الأدب - باب التورية - شعراء التورية
وأحصاهم على وجه التقريب . من لدن القاضي الفاضل حتى زمانه . وقد أشرنا
إليهم عند حديثنا عن طبقات الشعراء .

ونحن نعتقد أن ابن نباتة كان فارس التورية غير منازع . وأن الشهاب
الحلبي والشهاب بن فضل الله العمرى لم يكونا من فرسانها - كما أشرنا - .

ومثال التورية قول عز الدين الموصلى :

لقد كنت لى وحدى ووجهك قبلتى وكنا وكانت الزمان مواهب
فعارضنى فى ورد خدك عارض وزاحمنى فى ورد ريقك شارب^(١)
والتورية فى قوله : عارض ، بمعنى المعارض والمزاحم ، وبمعنى شعر صفحة
الخد ، وهو المراد .

وفى قوله : « شارب » ، بمعنى المزاحم الذى يشرب ، وبمعنى شعر أعلى الفم ،
وهو المراد .

ومثالها أيضاً قول الجمل بن نباتة .

قبلته عند النوى فتمررت تملك الحلاوة بالتفرق والجوى
ولثته عند القدوم فخبذا رطب الشفاء السكرى بلا نوى
والتورية فى قوله « نوى » ، بمعنى « بذر الرطب » ، وبمعنى « الفراق » ، وهو
المراد .

ومثالها أيضاً قول الجمل بن نباتة كذلك . وقد مزجه بالتضمين ونقل المضمن
من باب المدح إلى باب الغزل ، فافتن بذلك ضروبا من الافتتان :

وضعت سلاح الصبر عنه فما له يقاتل بالألحاظ من لا يقاتله
وسال عذار فوق خديه جائر على مـجـتى فليتيق الله سائله^(٢)

وقد ضمن بيته الثانى جزءا من بيت أبى تمام وهو قوله فى المدح :

ولو لم يكن فى كفه غير روحه لجاد بها فليتيق الله سائله
والتورية فى قوله « سائله » ، من سأل يسأل ، أو من سال يسيل وهو المراد .

ومثالها أيضاً قول سراج الدين الوراق :

رأيت قطوف عفوك دانيات فنحن على المسدى نجنى ونجنى
وكم بات المسىء قرير عين وسيفك إن حملت قرير جفن
والتورية في قوله « جفن » بمعنى « جفن العين » ويلزم منه الراحة والطمأنينة ،
وبمعنى « قراب السيف » ويلزم عنه الاستقرار أيضاً ، وهو المراد .

ومثالها أيضاً قول محي الدين بن قريظ :

مذ أتينا نبغى زيارة دوح قد حباننا بالجود والإكرام
ناولتنا أيدي الغصون ثماراً أخرجتها لنا من الأكمام
والتورية في قوله « الأكمام » بمعنى أطراف الثياب مما يكون على الأيدي .
وبمعنى مكان خروج الثمر ، وهو جمع « كم » ، وهو المعنى المراد .

د — الاستخدام :

وهو لون بديعي طريف ، ومسلك تعبيرى جميل ، قريب الشبه بالتورية ،
وهو على ضربين :

الأول : استعمال اللفظ بمعنى من معانيه اللغوية ، ثم إعادة ضمير أو أكثر ،
عليه بمعنى آخر من معانيه قد يكون حقيقياً ، وقد يكون مجازياً .

والثاني : استعمال لفظ له معنيان — أى من المشترك الحقيقى أو المجازى —
وفي الكلام ما يرشح لمعناه الأول ، وما يرشح لمعناه الثانى ، ويراد كلا المعنيين .

ومن النوع الأول قول ابن نباتة :

سقى الله أكناف الغضى سائل الحيا وإن كنت أسقى أدهما تتحدر
وعيشاً نضاً عنه الزمان بياضه وخلفه فى الرأس يزهر ويزهر

والاستخدام في قوله « بياضه وخلفه » فالمراد ببياض العيش صفوه وجماله ورخاؤه وأمنه . والمراد بالضمير في « خلفه » - وهو يعود على « بياض العيش » - الشيب .

ومثاله أيضاً قول ابن نباتة من القصيدة نفسها :

إذا لم تفض عيني العقيق فلا رأيت منازله بالوصل تبهى وتبهر
وإن لم تواصل عادة السفح مقلتي فلا عاها عيش بمغناه أخضر

والاستخدام في قوله « العقيق » فهو بمعنى الدمع ، وفي الضمير الراجع إليه في « منازل » استخدام بمعنى المكان المسمى « العقيق » .

وكذلك في قوله « السفح » فهو بمعنى ذرف الدموع . وفي الضمير الراجع إليه في « مغناه » استخدام بمعنى المكان المسمى « السفح » .

ومثاله أيضاً قول تقي الدين بن حجة في بديعيته مشيراً إلى اسم النوع :

واستخدموا العين منى فهمى جارية وكم سمحت بها أيام عسرهم
والاستخدام في قوله « العين » فهمى العين الباكية ، وأعاد عليها في قوله « بها » بمعنى المال .

والثاني : استخدام لفظ له معنيان ، يتوسط بين ما يرشحه لأحد المعنيين ، ويسبقه ، وبين ما يرشحه للمعنى الثاني ويلحقه .

وينسب هذا النوع إلى الشيخ بدر الدين بن مالك .

قال ابن حجة نقلاً عن الصفدى في كتابه « فض الختام » :

وأعظم الشواهد على طريقة ابن مالك ومن تبعه ، قوله تعالى : « لكل أجل كتاب يمحوا الله ما يشاء ويثبت » . فإن لفظة « كتاب » يحتمل أن يراد بها الأجل المحتوم ، والكتاب المكتوب . وقد توسطت بين لفظتي : « أجل

ويعجو ، . فاستخدمت أحد مفهوميها — وهو الأمد — بقرينة الأجل .
واستخدمت المفهوم الآخر — وهو السكتاب المكتوب — بقرينة يعجو ، .
قال ابن حجة : « ومنه قوله من القصيدة النباتية :

حويت ريقاً نباتياً حلا فغدا ينظم الدر عقدا من ثناياك
فإن لفظة « نباتي »، يحتمل الاشتراك بالنسبة إلى السكر . وإلى ابن نباتة
الشاعر . وقد توسطت بين الريق وحلاوته ، وبين الدر والنظم والعقد .
فاستخدمت أحد مفهوميها وهو السكر النباتي بذكر الريق والحلاوة ، واستخدمت
المفهوم الآخر وهو قول الشاعر النباتي بذكر النظم والدر والعقد . وليس في
جانب من المفهومين أشكال ،^(١) .

والنوع الأول هو الذائع الشائع . قال عنه ابن حجة : « وعلى هذه الطريقة
مشى أصحاب البديعيات والشيخ صفي الدين الحلي والعميان — أي ابن جابر الأندلسي —
والشيخ عز الدين ، — « أي الموصلی ، — وهلم جرا ، .

والاستخدام — كما رأيت — مسلك دقيق لا يتيسر لـكل أديب . قال عنه
صلاح الدين الصفدي في كتابه : « فض الختام ، :

« ومن أنواع البديع ما هو نادر الوقوع ملحق بالمستحيل الممنوع . وهو
نوع التورية والاستخدام . الذي تقف الأفهام حسرى دون غايته عند
مراعى المرام ، .

وروى أن الأوائل لم يستطيعوا أن يتغلبوا على صعابها ويزللوا جمهورهما
حتى جاء القاضي الفاضل . قال الصفدي :

« وأظن أن القاضي الفاضل — رحمه الله تعالى — هو الذي ذلل منهما

الصعاب . وأنزل الناس بهذه الساحات والرحاب . . . إلخ .

وسار على نهج الفاضل كثيرون بعده وزادوا عليه .

وابن حجة يقدم الاستخدام على التورية ، ويقول ما نصه :

« وهو أعلى رتبة عند علماء البديع من التورية ، وأحلى موقعا في الأذواق السليمة . ولكن قل من ظفر منه بسلامة التخلص من علق النقد ، وصعد من غور التعسف إلى نجد السهولة » .

ونلاحظ . أخيراً على الاستخدام أنه قابل الورد في النثر بالنسبة إلى الشعر ، وأنه في الجملة من أندر أنواع البديع وقوعاً في أساليب الأدباء . وأن نوعه الأول أكثر ذيوفاً من نوعه الثاني - كما يقول ابن حجة - ولكن كان ذلك في زمانه . أما في عصرنا الحديث الذي نفى فيه الأدباء يدهم من كثير من أصباغ البديع وزايلوا بذلك كثيراً من مناهج العادة ومسالكهم في التعبير ، فإننا نشعر بإقبال العامة على اصطناع الاستخدام في تعبيراتهم ، ولا سيما نوعه الثاني فإنه أكثر رواجاً .

هـ - التضمين :

التضمين هو أن يدخل الشاعر في شعره بعض المأثور من كلام غيره ، بتصرف أو بغير تصرف . وقد يكون هذا التصرف قليلاً أو كثيراً . وقد يكون بشيء من التخيير في اللفظ يقتضيه المقام . وإذا استطاع المضمن أن يغير تضمينه عن اتجاهه الأصلي ، دل بذلك على قدرة أدبية ولطف ذوق عميق . كأن يوجهه - مثلاً - من الغزل إلى الهجاء ، أو من المدح إلى الغزل ويعتبر هذا أحد فنون الأدب ، ولا ريب .

وقد سمي ابن حجة هذا النوع « الإيداع » . وعرف ، التضمين ، بأنه توقف

البيت في معناه على البيت الذي بعده . - وهذا الذي يسميه بعضهم « الإيطاء » .
والتضمين - أو الإيداع على رأى ابن حجة - في مقدمة مسالك البديع
الى اصطنعها أدباء العصر المملوكى . وأولعوا بها وأكثروا منها كثرة ملحوظة ،
وتلاعبوا بها وأجادوا فيها ، وخرجوا بالمضمن فيها من بابها إلى أبواب أخرى .
ويصرح بحير الدين بن تميم بولوعه بالتضمين فيقول :

أطالع كل ديوان أراه ولم أزجر عن التضمين طيرى
أضمن كل بيت فيه معنى فشعري نصفه من شعر غيرى ^(١)

ومن يستدل بكثرة تضمينهم على ضعفهم وقلة حيلتهم في ابتكار الجديد ،
وعلى جنوحهم إلى السرقة ، يظلمهم ظلما مسرفا . فإن الناظر في أغلب تضميناتهم
يرى فيها سيما التجديد وسعة الحيلة ورهافة الذوق ، في تحويل المضمن عن مناسبتها
الأولى إلى مناسبتها الجديدة . دون أن يعتريه قلق أو نبو أو غربة ، لما يتمتع به
فيها من حسن ربط ودقة صلة وطيب جوار .

وقد قال ابن حجة : « وأحسن الإيداع ما صرف عن معنى غرض
الناظم الأول . . » .

والتضمين أنواع ، منها أن يختار الشاعر شطربيت - صدره أو عجزه -
ويضمنه شعره فينظم للصدر عجزا ، أو للعجز صدرا . وقد يضمن البيت كله ،
ويدخله في عداد قصيدته . وقد يضمنها أكثر من صدر ، أو أكثر من عجز ،
أو أكثر من بيت . كما قد يتخذ صدور قصيدة بأكملها أو جزء كبير منها ، وينظم
لها أعجازا ، أو العكس .

والتضمن يفترق عن التشطير . إذ التشطير أن ينظم الشاعر لصدر البيت
المضمن عجزا ، ثم في بيت آخر ينظم لعجزه صدرا . وهلم جرا في بقية أبيات
القصيدة المشطرة .

والتشطير بهذا يتصل حديثه بحديث الوزن والقافية ، دون أن يكون من فنون البديع .

وهو أيضاً غير التشطير الذى هو ضرب من ضروب السجع ، يقتضى تقسيم كل شطر فى البيت شطرين ، يصرع بينهما بقافية واحدة ، مع المغايرة بين قافيتى الشطر الأول من البيت ، وقافيتى الشطر الثانى منه .

ومثاله قول صنى الدين الحلّى فى بديعيته :

بكل منتصر للفتح منتظر وكل معتمزم بالحق ملتزم

وأولع شعراء العصر المملوكى بهذا التضمين أو الإيداع . وبأبى ذوق ابن نباتة ومن سار تحت لوائه ونهج نهجه من فحول الشعراء ، أن يصطنعوا هذا التضمين دون أن يحلوه بالتورية أو ما يناسبها من أنواع البديع .

وقد قال جلال الدين القزوينى فى التلخيص :

« وأحسنه مازاد على الأصل بنسكته كالتورية والتشبيه » (١)

ومن لطائفهم فى التضمين ، ما تبادله جمال الدين بن نباتة وصلاح الدين الصفدى ، من العتاب . فقد عمد كل فحل من هذين الفحولين إلى معلقة امرئ القيس ، فضمن قصيدة عتابه أعجازها ، فأخرجها بذلك عن مناسباتها القديمة سواء أكانت فى الوصف أم الغزل أو غيرهما ، وأحلها كريمة مطمئة فى مناسباتها الجديدة .

وبدأ الصفدى تضمينه فقال معاتباً الجمال بن نباتة :

أفى كل يوم منك عتب يسوءنى كجلود صخر حطه السيل من عل
وترمى على طول المدى متجنياً بسهميك فى أعشار قلب مقتل

فأمسى بليل طال جنح ظلامه على بأنواع الهموم ليبتلى
وأغدو كأن القلب من وقدة الجوى إذا جاش فيه حميه على مرجل .. إلخ^(١)
وأجابه الجمل بن نباتة فقال :

فطمتم ولائى ثم أقبلت عاتبا أفاطم مهلا بعض هذا التدلل
بروحى ألفاظ تعرض عتبا تعرض أثناء الوشاح المفصل
فأحييت ودأ كان كالرسم عافيا بسقط اللوى بين الدخول فومل
تعفى رياح العذر منك رسومه لما نسجتها من جنوب وشمال .. إلخ^(٢)

وقد سار كل من الشعارين هذا المسار إلى آخر قصيدته . فأخرجنا أعجاز
المعلقة عن طريقها إلى طريق العتاب والمودة .

وانظر إلى التورية اللطيفة في قول ابن نباتة : « أفاطم » وقد مهد لها بقوله
« فطمتم ولائى » ، فصارت ذات معنيين : المعنى الاصلى على التشبيه . والمعنى
الجديد اسم فاعل من فطم ، وهو المراد هنا .

وقوله : « أفاطم مهلا .. » إلخ صدر بيت في المعلقة وليس عجزا - بخلاف
الأسطر الأخرى .

وبمناسبة تضمين أسطر المعلقة نذكر ما رواه ابن حجة ، قال :

« وأما أعجاز قصيدة امرئ القيس اللامية المعلقة ، فإن جماعة من أهل الأدب
تابروا على تضمينها وتضمين البعض منها وسبكوها في قوالب مختلفة الأنواع » .

نقول ، ومن ذلك قصيدة في التشويق أرسلها صدر الدين بن الأدمى الحنفى
إلى تقي الدين بن حجة الحموى ، ضمنها أعجاز المعلقة . ورد عليه ابن حجة بقصيدة
ضمنها أعجاز من المعلقة .

وداعب الأديب البارع والشاعر المصرى المبدع ، نحر الدين بن مكائس ، رجلا

من أصحابه كان كبير الأنف ، فوصف أنفه بأبيات ضمنها أعجازا من معلقة امرئ القيس ، فأخرجها إلى وصف الأنف مع الدعابة والسخرية والهجاء .

وقد قال ابن حجة عن أبيات ابن مكاس :

« والذي أقوله إن المبيع الذي اخترعه الصاحب نخر الدين بن مكاس ، ومشى عليه في تضمين هذه المعلقة يعد من المعلقات في بابه وأتى بمالا اختلج في صدر متأدب ، ولا سمع بعده المرقص والمطرب » .

ومن أبيات الفخر بن مكاس قوله :

تأنف عن وصف الغزال تغزلى بلحمة أنف ذى عقاص ومرسل
من البق فيها جملة قد تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل
فياقبح شعر فوق أنف معرقص أثبت كقنؤ الذخلة المتعشك
وقالوا اختبا في شعره فسكانه كبير أناس في بجاد مزمل .. الخ (١)

هذا ومن تضميناتهم كذلك قول ابن نباتة :

يا من يوفر طيفها سهري لقد أمن ازديارك في الدجى الرقباء
فيه تضمين لشطر من بيت المتنبي :
أمن ازديارك في الدجى الرقباء إذ حيث كنت من العيون ضياء

ولسراج الدين الوراق :

وضاع خصر لها ما زلت أنشده إذ رق لى ورثى للسقم من بدنى
وقال لى بلسان من مناطقه لولا مخاطبتى إياك لم ترنى
ضمنه الشطر الثانى من بيت المتنبي :

كفى بجسمي نحولا أني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترفي

وللشباب الظريف في الغزل :

وأهيف فاق الورد حسنا بوجنة أنزه طرفي في رياض جنانها
كأن بها من حول خاليه حمرة تشب لمقرورين يصطليانها
ضمنه الشطر الأول للأعشى في المحلق :

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى و المحلق

(و) الاقتباس :

الاقتباس تضمنين الكلام بعضاً من آي القرآن الكريم . ويصح أن يكون هذا المضمن غير خارج عن معناه الذي ورد به في القرآن الكريم . ويصح أن يكون خارجاً عنه بشيء من التصرف . وفي الحالة الأولى يعتبر المضمن قرآناً ، بشرط ألا يكون فيه أدنى تحريف لفظي . وفي الحالة الثانية لا يعتبر قرآناً ولو لم يتغير لفظه . ولو ضمن بشيء من التغيير اللفظي فلا يعتبر قرآناً ولو وافق في معناه معنى ما اقتبس منه . - وفي رأي أن هذا اللون ضرب من ضروب الحل ، وعلى كل ، فهذه كلها ضروب من الاقتباس ، وهي أنواع بديعية .

وأكثر مقتبسات الشعراء من النوع الذي فيه لفظ القرآن دون معناه ، ودون شبه مناسبته . أو دون المحافظة الدقيقة على معناه .

وبعض علماء البديع يعتبرون التضمنين من كلام الرسول عليه الصلاة والسلام ، اقتباساً .

وبعضهم يدخل في الاقتباس : التضمنين ، الإيداع ، ، والتوجيه . بمصطلحات العلوم ومأثور ألفاظها ، وبذلك يجعله أعم .

والاقتباس في الجملة أدق من التضمنين ، نظراً لما له من الصلة بكلام الله عز وجل . وهو أخرج منه إلى الذوق الصقيل والأدب الكامل والفهم الدقيق ، الذي يحسن اختيار المناسبة ، دون أن يعترى اللفظ شذوذاً أو قلقاً أو حرجاً ، ودون أن يبدو الكلام مردولاً مردوداً ، لامقبولاً محموداً . وإذا كان في النثر محتاجاً إلى دقة وسعة ذوق ، فهو في الشعر أشد احتياجاً إلى ذلك .

هذا . ولا بد من القول إن فطنة الشعراء في اقتباساتهم لفتتنا إلى كثير من الآيات القرآنية التي جاءت على موازين الشعر . والاقتباس بدوره أحد الأدلة البارزة على تأثير الأدباء بالدراسات القرآنية .

وقد افتن شعراء العصر المملوكي في هذا اللون البديعي الجميل . ومن يستقرى اقتباساتهم يشهد لهم بطول الباع واليد الصناع ، والأدب الجمل والذوق الأصيل . ونادر أن تجد من بينهم شاعراً ليس له اقتباسات .

وكثيراً ما أودعوه مقطوعاتهم ، أو نظموا المقطوعة ونحوها من أجله ، حينما يستقيم لهم معنى يروق فيه اقتباس . وسلكوا به مسالك الغزل والمدح والوصف والإخوانيات بل والحماسة والرثاء وغيرها . وكثيراً ما جعلوا به قصائدهم ومطولاتهم ، ومنزجوه بالتورية أو غيرها .

ومن الاقتباسات قول محي الدين بن عبد الظاهر في النسيم :

إن كانت العشاق من أشواقهم جعلوا النسيم إلى الحبيب رسولا
فأنا الذي أتلو لهم ياليتني كنت اتخذت مع الرسول سبيلا
ومنه قول جمال الدين بن نباتة :

سكنت وابني بدار قوم أوقاتنا تارة وتارة
فإنها بالخصام نار وقودها الناس والحجارة

ومنه قول ابن حجر العسقلاني :

خاض العواذل في حديث مدامي
خبسته لأصون سر هواكم
ولما جرى كالبحر سرعة سيره
حتى يخوضوا في حديث غيره
ومنه قول صفي الدين الحلي :

قلوبنا مودعة عندهم
إن لم تصونوها بإحسانكم
أمانة يعجز عن حملها
أدوا الأمانات إلى أهلها^(١)

ولمحي الدين بن عبد الظاهر في الحماسة ووصف الحرب :

وجاءت جنود الله في العدد التي
فعمنا بسد من حديد سباحة
تميس لها الأبطال يوم الوغى عجباً
إليهم فما استطاع العدو له نقبا^(٢)
ولا بن نباتة :

سألت قلبي عن ذوى العشق وعن
فقال لي إني وجدت امرأة
ما أوتيته من فنون الحسن مى
تملكهم وأوتيت من كل شى^(٣)

ز - الطباق :

الطباق ذكر الشىء وضده . وفيه تفصيل واسع لا مجال لبيان في هذا المقام .
ونجتزىء بأمثلة له . فمنها : قول لمحي الدين بن عبد الظاهر في وصف الشباب :

وناطقة بالنفخ عن روح ربها
سكتتنا وقالت للفلوب فأطربت
تدبر عما عندنا وتترجم
فنحن سكوت والهوى يتكلم

والطباق بين « سكوت » و « يتكلم » .

ولمحيير الدين بن تميم مع التورية في الشكوى :

(٣، ٢١) راجع خزانة الأدب باب الاقتباس ، وفراة الوفيات ج ١ في ترجمة ابن عبد الظاهر
وراجع كتب تراجم الشعراء ودواونهم .

لما لبست لبعده ثوب الضنى وغدوت من ثوب اضطبارى عاريا
أجريت واقف مدمعى من بعده وجعلته وقفا عليه جاريا
والطباق بين « لبست وعاريا » وبين « أجريت وواقف مدمعى » . -
والتورية فى « وقفا وجاريا » .

ولجمال الدين بن نباتة مع التورية أيضاً فى المدح :
قصدت معاليك أرجو الندى وأشكو من العسر داء دفيننا
فما كان يبنى وبين اليسار سوى أن مددت إليك يميننا
والطباق بين « اليسار واليمين » وفى « اليسار » تورية ، بمعنى اليد ، وبمعنى
الغنى وهو المراد .

ونجتزئ فيما يلى بذكر أمثلة لأنواع أخرى راج استعمالها حينذاك . فمهما :

ح - المقابلة :

ومنها قول صفي الدين الحلى :

ورنح الرقص منه عطفاً خف به اللطف والدخول
فعطفه داخل خفيف وردفه خارج ثقیل
والمقابلة بين « داخل خفيف » و « خارج ثقیل » ، وهى مصطلحات موسيقية
ورى بها .

ولابن حجة فى بديعته :

قابلتهم بالرضا والسلم منشراحا ولو غضابا فيا حربي اغيظهم

والمقابلة واضحة بين ألفاظ الشطر الأول ، ونظائرها فى الشطر الثانى .

ط - الاكتفاء : وهو حذف كلمة أو جزء من كلمة من القافية ، يتطلبه المعنى ، ولكنه مع حذفه يفهم من السياق . ومنه قول ابن نباتة :

ما كان في العشرين يهفو منطقي أيكون في الخمسين فعل هافي
شيم عن السلف الذكي ورثتها لا في الصبا عيب على ولا في^(٢)
أي ، ولا في الكبير .

وقوله أيضا :

في نظمه عنكم وخط يراعه صفر فلا ألفا أجاد ولا با
باب البديع فتوحكم وأنا امرؤ لا طاقة لي في البديع ولا با^(٣)
أي ، ولا باب ، أو ، ولا باع .

ي - حسن التعليل : وهو ذكر علة أدبية لظاهرة أو حادثة :

ومنه قول الشاب الظريف مادحا لابن عبد الظاهر :

أغر ما أبدت السحب الحيا لسوى تقصيرها عن نداه حين ينهمل^(٤)

ك - لزوم ما يلزم : وهو التقييد بقيود في القافية ، لا يشترطها العروضيون .
ومنه قول ابن أبي حجلة المغربي يمدح القاضي ناصر الدين النشائي
كاتب الدست ، قال .

قال العواذل في المحبوب ماشاءوا ومادروا أن أذن الصب طرشاء
يا عاذلي دع ملاحي في الحبيب فما عيني كعينك في رؤياه خفشاء

هذا الحبيب لنا ورد بوجنته وابن النشائي له كالزهر إنشاء
لناصر الدين أوراق مدبجة كأنها روضة بالزهر رقشاء ... الخ (١)
الزم الشاعر في القافية الهمزة الممدودة والشين قبلها .

ل - التورية بالمصطلحات :

ومنه قول ناصر الدين بن النقيب .
يا مالكي ولديك ذلي شافعي مالى سألت فما أجبت سؤالي
فوخدك النعمان إن بليتى وشكيتى من طرفك الغزالي (٢)
استخدم الشاعر الألفاظ : مالكي وشافعي وأجبت سؤالي والنعمان
والغزالي . وهي معروفة في الفقه والعلوم .

ومثله قول الشاب الظريف :

يا ساكنا قلبي المعنى وليس فيه هواك ثاني
لاى معنى كسرت قلبي وما التقي فيه ساكنان
استخدم الشاعر : ساكن ، وقلب ، وكسرت ، والتقى ساكنان ، وهي
معروفة في النحو والصرف .

ومن التوجيه بالمصطلحات أيضاً قول علاء الدين الوداعي مادحا ،
مع التورية :

من أم بابك لم تبرح حوارحه تروى أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن قرّة والكف عن صلة والقلب عن جابر والأذن عن حسن

(١) ديوان ابن أبي حجلة المغربي .

(٢) فوات الوفيات ج ١ ص ١٥٠ .

والتوجيه في قوله : قرّة ، وصلّة ، وجابر ، وحسن - وهم من رواة الحديث .
وكلها توريّات مناسبة لما سبقها .

وهناك ألوان بديعية كثيرة . وقد بلغت ألوان البديع أكثر من مائة وخمسين ، من بينها ما يصطنع في النثر ، وقد بدا ذلك في خزّانة الأدب وشروح البديعيات ، وغيرها من الكتب التي تحدثت عن فنون البلاغة والبديع .
وقد استنفد شعراء العصر المملوكي جهداً كبيراً في اصطناعها ، بل وتسابقوا في إبرازها ، ولم يبرأ شعرهم فيها من التكلف بل ومن الغثاثة والسقوط أحياناً . ولكن هذا كله يرسم لنا صورة عنهم وعن مدى تأثرهم بالوان الثقافات التي تفتقروا فيها ، وبملايسات البيئّة التي سبقت لنا الإشارة إليها .
وليس من همتنا هنا الاستيعاب والاستقصاء ، ولكن التمثيل والتدليل .
فحسبنا من أصباغ البديع ما ذكرنا ، ومثلنا له .

٣ - الوضوح

نقصد بالوضوح أن تكون المعاني قريبة التناول يفهمها القارئ المتعاطي للأدب عند قراءتها ، ويفطن إلى مراميها ويدرك تصورات أساليبها . دون حاجة إلى كد الذهن وشحذ القريحة وإجهاد النفس وحسن النظر . ويكاد يفهمها دون معاودة . وأن تكون المعاني غير عميقة وليست معقدة تعقيداً يعدها عن الإدراك ويخفيها عن الفهم ، وأن تكون نتيجة النظرة الأولى للموضوع ، تناولته من جهته البارزة الواضحة التي يفطن إليها الباحث لأول وهلة ، دون تناول لأطرافه وتفصيله ودون سوق لتعليقاته ، ودون تسجيل لموازنة أو مقارنة أو استنباط ،

ووضوح المعاني والأخيلة ، قد تكون نتيجة من نتائج تمكن الشاعر من اللغة ، وقدرته التامة على التعبير عن تصوراته بأساليب سهلة ذات ألفاظ وتراكيب لا تند عن معاجم أو ساط القراء ، بل عذبة مستساغة لا يستنفهم غموض ولا يشوبها إبهام . وهو أيضاً قد يكون نتيجة من نتائج سيطرة الشاعر على تصورات مع وضوح هذه التصورات في عالم خياله وضوحاً كاملاً ، ومع استساغته التامة لما وقع عليه خاطره وخياله من هذه التصورات . وقد يكون أيضاً نتيجة من نتائج الفنية الشعرية الموهوبة التي تفتن خواطرها إلى الألفاظ السائغة المناسبة لإسكان شوارد المعاني ، فتبدو فيها مستقرة مطمئنة واضحة المعالم لا خفاء فيها ولا غموض .

وقد تكون المعاني هنا عميقة أو مركبة أو معقدة ، وقد تكون التصويرات بعيدة ، لا يقدر على استحضار مضمونها خاطر المثقف العادى — عادة — ولكن تمكن الشاعر من اللغة وطرق أدائها ، وهيمنته على تصورات وإدراكه التام لها ، وفطنة موهبته الفنية ، كفيل بأن يقدره على صلبها في قوالب من اللفظ يسهل منها إدراكها . أما إذا تعثر في إخراجها واستعان ببعض التشبيهات الغريبة أو السكنايات البعيدة ، أو قدم وأخر ، أو حذف أو ذكر ، دون غاية بلاغية وضرورة معنوية ، ودرن هدف مقصود . فإن هذا يوقعه في الغرابة .

وإذا طغى الاشتغال بالعلوم العقلية ، والنظر في المذاهب الفلسفية ، والتعمق في دراسات العلوم المختلفة ونحو ذلك على الشاعر ، أبعدته عن الوضوح وقرب بينه وبين التعقيد . إذ من شأن هذه الدراسات أن تنضح على الدارس وتجنح به إلى المعاني والأفكار البعيدة الغور ، الغريبة التصور ، التي لا تشغل — عادة — عامة القراء ، والتي تند — عادة — عن مداركهم . إذ لا بد لإدراكها من معلومات خاصة ومقدمات متعددة تمهد لها ، ولا بد لإدراكها من استعداد هذب طول النظر ، وإطلاع على آراء ومصطلحات ، مع مقارنات وموازنات ، إلى غير ذلك .

والوضوح صفة غالبية على معاني الشعراء في عصر المماليك . ويبدو أن العوامل التي نوهنا بها لها دخل في هذه الظاهرة وبروزها . وقد كان الشعراء ألصق بالشعب منهم بالخاصة . فضلاً عن أنهم كانوا من صميمه في هذا الوقت الذي ساد فيه نظام الطبقات ، أو على الأقل نظام طبقتين لا تجانس بينهما ولا جامعة تربط صلتهما سوى الدين .

ولا نشك قط في أن نشأة الأكثرية الساحقة من شعراء العصر ، من بين الأوساط الشعبية الصميمة . بل ومن الممتننين للحرف الدنيا من حرف المجتمع ، مع شدة لصوقهم بالشعب وضعف تماقثهم - كمكثير من أسلافهم - على الاتصال بالخاصة وأشباه الخاصة والتسرح بأعتابهم واستجدائهم . نقول لا نشك في أن ذلك كان له أثره في ظواهر عدة بدت في أشعارهم ، من بينها هذا الوضوح والقرب .

فالشعب المصري منذ زمن قديم عاش وهو يتأني بفطرته ونشأته في بيئته الطبيعية ، على الغموض والإبهام ، ويجنح غالباً إلى الصراحة والوضوح . ومنذ زمن قديم وهو يتأني على الغوص الشديد وراء المعاني المعقدة ، ويتأني على حياة الفلاسف المعقدة ، التي تنشأ عادة عن عمق النظر وطول البحث ودقة المقارنة الحرة ، والجرى وراء الحقائق العقلية والاستدلال عليها قانعاً بما يجيء إليه من الأديان ، وبما توحى به من النظر والإيمان .

وهذه أيضاً طبيعة الشعر العربي كله ، منذ العصر الجاهلي . حتى جعلوا ذلك « عموداً » للشعر ، من خرج عليه حمل عليه النقاد ، كحلمتهم على أبي تمام . ولذلك قالوا : أبو تمام والمتنبى حكيان ، والشاعر هو الباحثري . وذلك لأنه شعر طبع ، أو كأنه شعر طبع ، لأنه لم يزايل عمود الشعر .^(١)

(١) راجع كتاب « النابغة الذبياني » في فصل أثر الشعراء في الشعر الجاهلي . وكتاب « الفتوة عند العرب » في فصل العقلية العربية . والكتبان للأستاذ عمر الدسوقي .

وفي هذا العصر بالذات لم ترج حركة ترجمة المبعولات . ولم يكن هناك جنوح كبير نحو الدراسات العقلية والبحوث الفلسفية ، لأن العصر كان عصر تجديد وإحياء لعلوم الدين وبعث لحقائق الإسلام ، وكفاح في سبيل تثبيت عقائده ونشرها وإيضاحها وتعليلها .

لقد شمر الفقهاء — فقهاء هذا العصر — عن ساعد الجد فألفوا في الفقه وجمعوا معلوماته واجتهدوا فيه بالرأى . ونشط علماء الكلام فكتبوا الرسائل وتناقشوا في المجالس والمحاضرات وحلقات الدرس ، في مسائله ، ورد بعضهم على بعض . وكافح بعضهم الشذاذ والخارجين ، وامتلات المكتبات برسائلهم في هذا السبيل ، كما حفلت كتب التاريخ بأبنائهم وشنوا الغارة على الرافضة والجهمية والمعطلة والنصرانية وغيرهم . ودار ذلك في فلك الإسلام وآرائه وروحه .

فلا غرابة وقد نشأ الشعراء في هذا المجتمع — أن يتأثروا بنزعاته ، وأن يغلب عليهم الوضوح والقرب في تسجيل المعاني وتصويرها .

وأعتقد أن هذه الخصوصية جعلت نتاجهم أحب إلى القلوب وأقرب إلى العقول وأشهى إلى النفوس من نتاج غيرهم . فليست هاتان الصفتان قدحا في نتاجهم ولا عيبا في شعرهم ، بل هي أدل على شاعريتهم وفهمهم لرسالة الشعر ، فالشعر — كان وسيبقى — عاطفة قبل أن يكون فكراً ، ووجداناً قبل أن يكون رأياً ، وخيالاً قبل أن يكون حقيقة ، وتأثيراً نفسياً عاجلاً قبل أن يكون حثاً على النظر الرتيب الوئيد .

ولا يقلل من شأن هاتين الصفتين أو يطعن فيهما ، اتجاه الشعراء إلى الحلية البديعية . فقد يقال إن الحلية تؤدي إلى الغموض والإبهام . وحقاً قد تؤدي إليهما ، ولكن هذا ليس إلا نادراً . والحلية إنما تصطنع تجميلاً للمعنى وإبرازاً له في صورة واضحة مزدانة تتضح فيها محاسن له خافية ، ومفان له مستكنة ، وظلال له كانت حائلة .

يتكامل هذا العمل لأصباغ البديع ما دامت محبوبة في حنكة ، ومصوغة في حكمة ، وموشاة في ذوق ، ليس فيها من المبالغة ما يبيج ، ولا من الثقل ما يستسبح ، ولا من التهويل ما يهرج ، شأنها في ذلك شأن كل أسلوب .

وإليك بعض الشواهد على « الوضوح والقرب » ، فضلا عما قدمنا ، ولم تقلل من شأنهما وبروزهما أصباغ البديع .

يقول تقي الدين بن حجة الحموي متغزلا وموريا تورية مجنسة :

هويت غصنا لأطيار القلوب على قوامه في رياض الوجد تغريد
قالت لو أحظه إنا نسود على بيض الظبا فلت أتم أعين سود وسوداء (١)

المعنى الواضح :

أحب الشاعر معشوقا معتدل القامة كالغصن ، إذا رآته القلوب الشبيهة بالأطيار في حركاتها غردت وغنت على قوامه - أي بسببه - في رياض وجدها . والوجد - عادة - نار ولوعة ، ولكنه رياض لما يتمتع به المحب فيه من اللذة .

ولوا حظ المعشوق - يريد عيونه - قالت إنها تسود على بيض الظبا . أي أنها أحد من السيوف وأقطع من الأسلحة . ولهذا تكون لها السيادة عليها . فقال لها الشاعر : أنتم أعين سود . متصفة بهذا السواد الذي هو جمال جذاب فلها أن تسود .

وفي قول الشاعر : « سود ، تورية مجنسة . لها معنيان : الأول جمع سوداء ، والثاني فعل أمر من ساد يسود .

وفي البيتين أصباغ بديعية منها : الاستعارة المصروفة في « غصنا » ، والتشبيه

البليغ في «أطيار القلوب» ، و «رياض الوجد» . والاستعارة المصروفة في «تغريد» بمعنى حركات القلوب واستبشارها . والاستعارة التبعية في «قالت لوحظه» . والتورية في «سرد» . والطباق في «بيض وسود» . ومراعاة النظير في ذكر الغصن والأطيار والرياض والتغريد .

ومدح ابن نباتة الملك المؤيد صاحب حماة في قصيدة قال منها :

ملك باهر المكارم يروى وجهه لقياء عن عطاء وبشر
زرت أبوابه فقرب شخصى ومحا عسرتى ونوه ذكرى
ونحاي من المكارم نحوا صاننى عن لقاء زيد وعمرو
وتفننت فى مفاوضة الشكر م إلى أن أعيى التطول شكرى

يقول الشاعر إن هذا الملك مكارمه كثيرة ونفيسة ومبدولة بغير كلفة ، فهى باهرة . ولقاؤه يؤذن بالعطاء والبشر ، العطاء الكثير الباهر ، والبشر الدال على أصالة الأريحية وعراقة الكرم وطيب اللقاء والفرح به . فليس فيه زيف . والشاعر يورى أو يوجه بلفظتى «عطاء وبشر» كأنهما من رجال الحديث . ومهد لذلك بكلمة «يروى» .

وفى كل ذلك — مع وضوح المعانى وكثرتها ووجازة التعبير عنها — إثارات فكرية لمعان أخرى ، وتذكير بميدان آخر غير ميدان المكارم والمنح ، وتوجيه إلى الموازنة والربط بين الميدانين .

وفى البيت الثانى يصرح الشاعر فى وضوح ، بأنه زار أبواب هذا الملك ، فحظى من لدنه بالقرب وطيب اللقاء . وفى هذا ما يشعر برفع المنزلة وتقدير الأدب ولطف الحديث . ويصرح الشاعر بأن الملك محاسنته . ودل بذلك على أنه كان يعانى ضنكا وضيقا فمحاها الملك ، ونوه ذكره أن رفع مكانته وبسط له فى مجلسه .

تطالعك هذه المعاني في يسر وسهولة وسرعة . وفي البيت رسم وإيضاح كامل لحالة الشاعر قبل رحيله إلى هذا الملك ، وبعد وصوله إليه . فكأنما هي قصته حكاها في بيت واحد .

وفي البيت الثالث يلقي الشاعر على قصته هذه أضواء جديدة ، ويوضح منها ما أجمله في البيت السابق . فيذكر أن المؤيد افتن في مكارمه ، وسلك بها سبيلا صان بها الشاعر من حاجته إلى الناس على اختلافهم . ومن كان الشاعر قد يحتاج إليهم ويقصدهم دون تصون ، ودون تأكد من أنهم سيعطونه أو يحرمونه .

ويبدو لك أدب الشاعر الجم وفنه الطريف في إسناد هذه الأفعال إلى الملك نفسه وهي على التوالي : قرب ومحا ونوه ونحا وصان . ولم يذهب للمجهول أو يسندها إلى نفسه .

وفي البيت الرابع يذكر أن نتيجة ذلك وجوب الشكر عليه للملك ، وأنه افتن في شكره فعبجز افتنانه عن إيفاء الملك حقه من الثناء جزاء ما قدم من إحسان ، ولتطوله المستمر والمتنوع .

ومن يتأمل الأبيات في قليل من الردية والدقة يجد فيها جملة من المعاني الأخرى غير ما ذكرناه ، دون جهد ولا شقة ولا معاناة .

ومن اليسر أن تستخرج من الأبيات جملة صور ولوحات فنية طريفة أعان على إبرازها وإيضاحها فن الشاعر الموهوب ، وامتلاكه ناصية القول ، وصدق شعوره وسلامة عاطفته .

ومن خمرات الشاعر الأديب إبراهيم بن علي الحراني المشهور « بعين بصل » ما ساقه خلال قصيدة يصف فيها دمشق . قال :

ورب صافية في الكأس مشرقة كانت وما كان في العليا كيوان

راح أراحت لمن حلت براحتة روحا لها القار والفخار جثمان
صبت لنا فهي ماء في زجاجتها وأشرقت فهي في الكاسات نيران
يسعى بها رشأ بالسحر مكتحل حلو الدلال لجند الحسن سلطان
يصف الشاعر في هذه الأبيات الخمر فيقول إنها قديمة قبل أن يوجد النجم
« كيوان » وهو زحل . وأثبت لها صفتين : الصفاء والإشراق .

وهذه الراح ساقطت إلى يد شاربها روحا - وهي هي الروح - كان الفخار
والقار عليه ، جسدا لها .

ولها حالتان متضادتان : فهي ماء ونار . ماء وهي في زجاجتها . ونار حينما
أشرقت في كاساتها ، هي ماء لسيولتها واستقرارها ، وهي نار بلونها ومتناثر
حبابها وبما تثيره من دفء وحرارة .

وقد سعى بها غلام جميل كالظبي الصغير رقة عطف وخفة ظل ورشاقة
حركة . اكتحلت عيناه بالسحر ، وامتلا جانبه بالدلال الحلو المحبوب ، فصار
سلطانا لجنود الحسن .

هذه معان واضحة جميلة تطالعك رائقة صافية مشرقة في أساليب شفافة
وتراكيب جزلة في رقة .

ولم يثقل ما في الأبيات من ألوان بديعية . بل إن بعضها لا يكاد يلحظ ،
لاهتمامه مع السياق ، ولتطلب المعنى له ، ومن ذلك المقابلة في قوله : « كانت
وما كان » . و « الماء والنيران » . - والجناس في قوله : راحت وأراحت ، .
ويبدو أن تكرار الراء والحاء أضاف ثقلا إلى ثقل الجناس .

وتستطيع قياسا على ما تقدم أن تلاحظ ما ذهبنا إليه من غلبة هاتين الصفتين
على معاني الشعر وهما : الوضوح والقرب .

وقد قلنا ، غلبة هاتين الصفتين ، ، لأنه ربما فأك نص ترى فيه غموضاً وتعقيداً .

ويبدو الغموض والتعقيد — عادة — في حالتين :

الأولى : عندما يحنح الشاعر إلى التفلسف وذكر المبادئ والنظريات والحديث عن العقيدة .

والثانية : عندما يقصد إلى الإلغاز والمحاجة . والإلغاز هو التعمية .

ومن أمثلة ذلك ما رواه ابن حجر العسقلاني قال :

« إن محمد بن أب بكر السكاكيني نظم أبياتاً على لسان ذي ، في إنكار القدر ، وأولها :

أيا علماء الدين ذي دينكم تحير دلوه بأعظم حجة
إذا ما قضى ربي بكفري بزعمكم ولم يرضه مني فما وجه حيلتي .. الخ
وقد رد عليه جمع من العلماء من بينهم العالم المجتهد الإمام تقي الدين بن تيمية
الحراني . قال ابن حجر ما نصه : فوقف عليها ابن تيمية فثنى إحدى رجليه على
الأخرى وأجاب في مجلسه قبل أن يقوم بمائة وتسعة عشر بيتاً ، (١)
ومن أبيات ابن تيمية قوله :

سؤالك يا هذا سؤال معاند يخاصم رب العرش رب البرية
وهذا سؤال خاصم الملأ العلى قديماً به إبليس أصل البلية
وأصل ضلال الخلق من كل فرقة هو الخوض في فعل الإله بعلة
فإن جميع الكون أوجب فعله مشيئة رب العرش باري الخليفة الخ (٢)

(١) راجع ترجمة ابن تيمية في الدرر الكامنة ج ١ رقم ٤٠٩ .

(٢) راجع الأبيات في طبقات السبكي ج ٦ ص ٢٢٩ في ترجمة العلاء الباجي .

وقد أشرنا عند الحديث عن « المساءلات » في باب أثر البيئة الثقافية ، إلى أبيات هذا الذمى ، وإلى أبيات من ردوا عليه من العلماء .
والسؤال يدور حول مسألة شائكة اختلفت فيها مذاهب أهل الكلام ، واختلفت استدلالاتهم . وهى أعمال العبد ، هل هى من فعله ابتداء ، أو هى بما قدره الله عليه فلا مشيئة له فيها . فقوم يقولون إنها من فعل العبد ابتداء ، هو الذى ينشئها ، ولهذا يحاسبه الله سبحانه ، وبثيبه أو يعاقبه . وعدالة الله تأبى أن يعاقب العبد على شئ قدره هو عليه ولا مفر له من عمله . — وقوم يقولون إنها من تقدير الله على العبد ، ولا يمكن أن تكون من صنع العبد ابتداء ، لأن فى ذلك مسامحة بعلم الذات الإلهية ومشيمتها وقدرتها . أما محاسبة العبد فإنما تجرى لجهله بما قدر الله عليه ، فهو محجوب عن معرفة الغيب ، وله القدرة على الاختيار ، فى ظاهر الأمر .

والكلام فى هذا يطول ، وتفترق عنده المذاهب وتتعدد الفرق الكلامية . وأنت ترى أن الموضوع دنى فيه نظر وفلسفة وعمق . ولكن مهما يكن من أمره فقد كان ولا يزال حديثا للعامة ، وإن كانت ثأثرته قد هذأت فى عصرنا الحديث نسبيا ومع أنه من حديث العامة ، هو من الأحاديث الشائكة التى يتعثر فيها المتحدث ما لم يكن على ذكر من العلم .

وأبيات السائل صريحة فى موضوعها إذ يقول : ما وجه حيلته إذا كان الله قد قضى بكفره وأرغمه عليه ثم لم يرضه منه وعاقبه عليه .

وأبيات ابن تيمية طويلة فى موضوع الرد . والأبيات الأربعة التى سجلناها هنا ، ترد على السائل وتضمنه بأنه معاند وأنه يخاصم الله جل جلاله وهو رب العرش ورب البرية ، وينبغى له بهذه الصفة الخضوع والاستسلام لمشيئته . وفى وصف الله سبحانه بهاتين الصفتين إشعار بهيئته على جميع خلقه بما له وبما عليه .

ويذكر ابن تيمية أن السؤال كان سببا فى أن إبليس قد صم الملائكة الأعلى ، وأن سبب ضلال الخلق من كل فرقة ، هو البحث فى موضوع شائك ، وهو فعل

الإله وأن جميع الـكون - وقد برأه الله وخلقه - أو جبت مشيئته تعالى فعله ، وأنها هي التي قدرته وقضت به .

لسنا هنا نتحدث عن هذه العقيدة ، وعن هذا الموضوع الخطير ، ولاكننا أردنا بالحديث المقتضب السالف ، بيان ما في الآيات من المعاني التي دارت حوله . ووضح كل الموضوع الصعوبة النسبية التي تعترض المتفهم للآيات بسبب عمق الموضوع ومشقة تصور معانيه بطبيعتها . إذ استغلقت هذه المعاني بسبب هذه الطبيعة لا بسبب الألفاظ المعبرة عنها أو غرابة التراكيب .

ومن أمثلة الألغاز ما نظمه تقي الدين حجة الجوى في « قصب السكر » وأرسله إلى صديقه المقر الأشرف الناصري محمد بن البارزي الجهنى ، وقد نظمه في ٢٢ بيتاً . نرى لك منها الآيات الآتية :

وعسالة تبدر بغير أسنة	ولاطعن فيها وهي داخلة الصدر
مشقة هيفاء حلو قوامها	به تطرح المراق في المهمه القفر
منعمة لفاء مهضومة الحشا	تكاد بأن تنقد من رقة الخصر
وتخلو على البيض الرشاق شمائلها	إذا ما تثنت في غلائلها الخضر
يلد قبيل العصر في الظهر رشفها	وبرد لماها من أليم الجوى يبرى
وإن سقيت ماء سقتك سلافة	بطيب مزاج وهي طيبة النشر .. الخ (١)

واللغز - كما أشرنا - يعتمد على التعمية وقصد الغموض ، وذلك بالتصحييف وبالعكس ، وبذكر الصفات المشتركة ، وبالتوريثات ، وبالألفاظ والمرشحات التي تقرب معنى وتبعد آخر ، وبغير ذلك مما يدعو إلى كد الذهن وإجهاد الخاطر حتى تصل الفطنة إلى المعاني المطلوبة ، وتقع على محل اللغز . وليس هنا سبب الغموض صعوبة المعاني وعمقها وعقاداتها ووعورتها ، بل

استخدام الألفاظ والتراكيب استخداما قصدا فيه إلى التعمية بها ، بذكرها محتملة لعدة معان ، أو موجهة إلى معنى غير مقصود ، وهلم جرا .

والشاعر في أبياته هذه « يقصد بالعسالة » عيدان القصب لما تحتوى عليه من العسل ، أو تصنعه أو تعطيه منه . وهو يشبهها بالرماح العسالة في اهتزازها . « تبدو بغير أسنة » فذكر « الأسنة » يوجه إلى معنى الرماح وهو في الوقت نفسه يفتن إلى غيرها . - وكذلك قوله « ولا طعن فيها » وقوله : « وهى داخلية الصدر » وهذه كلها من ملابسات الرماح . واختياره للفظ « عسالة » مناسب للمقام .

ويقول إنها « مشقة » أى ممدودة حسنة القوام رقيقة الجانب تزرى بالرماح الصلبة . وإنها نشأت في نعمة أو أنها ناعمة الملمس . وإنها لقاء فيها سمن وشيء من الصخامة ، ومع ذلك فيها لطف في شمسها ، ورقة في جانبها ، ودقة في باطنها ، حتى إنها تكاد تقطع من رققتها .

وهى أحلى من الحسان الجميلات الرقيقات في شمائلها ، وبخاصة إذا تمايلت في شعاراتها الرقيقة الخضراء .

ويبدو أن الشطر الثانى من البيت الرابع وصف للعسالة لا البيض الرشاقي - مع احتماله العكس - ويريد حينئذ بالغلائل الخضراء ، أوراقها .

وفى البيت الخامس يورى الشاعر بلفظ « العصر » وهو الوقت ، ويريد به تحويل القصب عصير أ .

وفى البيت السادس يشبهه عصيرها بسلاقة ممزوجة طيبة النشر إلخ .

هذان مثلان أحدهما سؤال عن « القدر » ، وثانيهما لغز عن « القصب » . وقد بدت فيهما غموضة المعانى وصعوبة استنباطها . فى الأول لو عورة المنزع وطبيعة

الموضوع . وفى الثانى لقصد التعمية ، وللإشتراك فى الوصف ، ولذكر ملائسات كثيرة المعنى القريب غير المراد .

ولكن ليس التفلسف والكلام عن العقيدة ، وليس الإلغاز ، هما كل الشعر ، ولا معظمه . بل هما فنان من فنونه الكثيرة .

٤ - الوصف والتصوير والتشخيص

الوصف والتصوير ظاهرة من الظواهر التى بدت فى أساليب الشعراء عند أداء المعانى . ونقص المعانى الجزئية . ومن شأن العناية بوصفها وبحسن تصويرها أن تؤدى إلى وضوحها . فهما إذن دعامتان من دعائم الوضوح الذى تحدثنا عنه .

لقد جنحوا فى توضيح المعانى - فى كثير من أساليبهم - إلى الوصف والتصوير ، حتى لم يمكن تسميتها بالأساليب الوصفية أو التصويرية . وترجحت بين الوصف الحسى والمعنوى ، وإن كان الأول بروز وغلبة .

ويعتمدون فيها على ألوان من البديع كالتورية والتضمن والاقتراس ، وألوان من البيان كالتشبيه والمجاز والكنائية أحيانا .

ويلعب الخيال الشعرى دوره الكبير فى ابتكار الصورة والملاءمة بين أجزائها ، وعقد الشبه بينها وبين غيرها ، وفى تكوينها أو تحريكها ، أو تعقيل مالا يعقل من أدائها وأجزائها . ويلعب الخاطر الملمم دوره كذلك فى تخير اللفظ وانتقاء التركيب .

ونقص بالخيال الشعرى إحدى القوى الذهنية التى عملها الانتفاع بالحقائق والمعلومات المخزنة فى خزانة الذهن لتوليد الجديد من الصور ، وتكوين المبتكر من الأشكال ، التى تصب فيها التصورات التى يسرح إليها الخيال ، أو تطفر على صفحته . والتى ترتب فيها الحقائق ترتيبا جديدا لاعهد للذهن به من قبل .

ويقوم الخيال بعمله تحت تأثير الانفعالات العاطفية والسمو الفكرى . وهو الذى يبرز الصور المولدة ، والأشكال المبتكرة فى أثواب من الألفاظ جميلة خلاصة لامعة ، وقوالب من التراكيب جذابة رائعة ، فيها للقارئ متعة ولها فى قلوبهم أثر ، وفى نفوسهم هزة وطرب .

هذا الخيال المبتكر المجدد ، هو الذى يكشف الخفى ، ويوضح الغامض ويفخم الضئيل . وهو الذى يضفى على الأدب جدة وينشر فيه روحا ، ويربط بين الفارىء والحياة . ويصل ما بين نفسه ونفس الأديب . وهو الذى يخلق من الحياة العامة الهادئة ضروبا من الحياة متحركة صاحبة مدوية مليئة ، فيها قصص وروايات ، ووقائع وحادثات ، وفيها موافق تحدث الوجدان وتثير العاطفة وتنطق الجماد والحيوان ، وتنسب إليهما من صفات الإنسان ما هو مقصور عليه . ومن ألوان المعانى والأفكار ما هو خاص به (١) .

« وللخيال شأن فى تحويل المدركات ، فهو يخرج من الصامت صوراً تفيض بالحياة ، ويحول المحسوس إلى معنى ، والجماد إلى مدرك وجدانى ، تهتز له النفس . فتترى المحسوس المجسم وقد تحول إلى فكرة متموجة قائمة ، ننعم بجمالها الفنى وقوتها المعنوية » (٢) .

وإذا كان شعراء العصر العباسى لهم فضل السبق والإجادة فى هذا الباب . وبخاصة باصطناع أساليب البيان ، فاعتقادنا أن شعراء العصر المملوكى يفوقونهم فيه باصطناع أساليب البديع ، ولا سيما ما كان لها منها السيادة فيه كالتورية والافتباس والتضمن والطباق - إلى جانب ما أجاده من أساليب البيان .

(١) راجع المجلد السادس من كتابنا عصر المماليك ص ٣٢٥ .

(٢) الأصول الفنية للأدب ، للأستاذ عبد الحميد حسن ص ٩٨ فى سياق فصل « الخيال » .

وإليك قول جمال الدين بن نباتة :

ورب حانة خمار طرقت وما حانت ولا طرقت للقصف حانات
سبقت قاصد مغناها وكنت فتي إلى المدام له بالسبق عادات
أعشو إلى ديرها الأقصى وقد لمعت تحت الدجى فكأن الدير مشكاة
وأكشف الحجب عنها وهي صافية لم يبق في دنها إلا صبابات
مصونة السرح ماتت دون غايتها حاجات قوم وللحاجات أوقات
راح زحفت على جيش الهموم بها حتى كأن سنا الأكوأب رايات
وبت أجالو على الندمان رونقها حتى لقد أصبحوا من بعد ما ماتوا
تجول حول أرائيمها أشعتها كأنما هي للسكاسات كاسات (١)

يصف الشاعر ذهابه المبكر إلى حانة الخمر ليلبتاع ويشرب ويسمر . ويبين لك هذا البكور بأنه قبل ميعاد فتحها وطرقها للهو . أى قبل أن يقصدها روادها . ويؤكد هذا المعنى في البيت الثانى ، ويزيد عليه بأنه له بالسبق إليها عادات . وهو بذلك يصف نفسه بحبها وإدمانها متفوقا بذلك على غيره من محبيها .

وفى البيت الثالث إيضاح جديد لسيره إليها . فهو يعشو إلى ديرها الثانى البعيد على هدى ضوءها — وقد لمعت تحت الدجى — فيبدو له الدير كالمشكاة أى كاللإضاءة التى ينبعث منها الضوء وسط هذا الظلام الدامس .

فإذا بلغ خبائها كشف عنها حجابها ، فبدت له صافية خالصة من أوشابها وقد انتفت عنها أكارها ، فلم يبق في دنها إلا صبابات ، هى إكسيراها وروحها وجوهرها . وفى هذا دلالة على أنها معتقة مصونة محفوظة ، تطلع كثير من المحبين إليها فلم يظفروا بها ، لأن ميعاد وصالها لم يحن . ولهذا قال فى البيت الخامس مصونة السرح . . إلى آخر البيت .

ثم لاشك أن الشاعر العاشق قد ظفر بهذه الصبايات ، وتغلب بها على جيش همومه وأحزانه ، وأنها أعادت إليه عهد أنسه وسروره . ولهذا يقول : «راح زحفت على جيش الهموم بها . الخ . وهذه إحدى صفاتها . ويمهد بها إلى تشبيهه الطريف وهو تمثيل سنا الأكوأب بالرايات .

وبعد أن قص الشاعر قصة رحيله إليها ، أخذ يقص قصة إخوانه الذين لحقوه إلى الدير ، فقد أخذ يجلوها عليهم ويعرض محاسنها على أنظارهم . ففسوا منها حتى بعثوا من جديد إلى حياة السرور بعدما أمانهم الجد والهم .

وصارت الخمر تجول أشعتها حول أوانيها وكاساتها حتى أصبحت كاسات حول الكاسات .

وفي كل ما ذكرنا أوصاف وصور :

فن الأوصاف : قص القصة ، وهي قصة الرحيل إلى معشوقته الخمر في ديرها ليلا ، وتشبيه الدير بالمشاة ، ووصفها بالمحجبة المخدرة ، وبالصفاء وذهاب أكثر ما خالطها ، وبأنها مصونة السرح ممنوعة لا يقرب حماتها أحد ، ولا يستطيع اقتحامه أحد . وبأنها معشوقة مات دون وصالها عاشقون وذوت آمالهم . وبأنها تعين على إزالة الهموم ومحاربتها ، وبأن سنا أكوأبها كالرايات وبأن أشعتها كالـكاسات .

ومن الصور : صورته وهو يسير ليلا تحت جناح الدجى نحو الدير البعيد اللامع في الظلام كالـمشكاة ، سباقا إليها كعادته .

وصورته وهو يقربها وهي بمنعة محجبة ، فيحتال لبلوغها فيجدها جواهر أو إكسيراً قد ذهب عنها ما خالطها .

وصورتها وهي مصونة ممنوعة السرح يتهاى دون الوصول إليها عشاقها وتنتهى آمالهم دون بلوغها .

وصورته مع الندامى الذين نشطوا من عقال وصحوا من موت ، وأفاقوا من

سبات الهم ، وأوانها تجول بينهم وأشعتها تملأ العيون ، حتى بدت كأنها كاسات
حول كاساتها .

وترى في الأبيات ألوانا من الحسيات ، كاللمع تحت الدجى ، وتشبيه الدير
بالمشكاة ، والسنا بالرايات ، والأشعة بالكاسات .

ولكنها حظيت بجانب ذلك بلفقات معنوية عدة ، وتنبيهات نفسية . كعادته
بالسبق إلى المدام ، وعشوه إلى ديرها في الظلام ، ونسبة الدير إليها ، وكشفه
الحجب عنها ، وصفائها ..

وفي قوله : أكشف الحجب عنها ، ومصونة السرح ، تشبيه لها بالمخدرة
المرجوة . وهو تصوير معنوى . وكذلك قوله : ماتت الغايات دونها وزحفت
على جيش الهموم بها ، تصوران معنويان .

وفي نسبة الحجب إليها ، وكذلك السرح ، واتخاذها معينة له في حرب
الهموم ، تشخيص لها .

ومن رقيق الشعر ورائقه ما وصف به شمس الدين المشد ، محمد بن داود
ابن علي ، المتوفى عام ٧٣٤ هـ ، حادثة شمعة ، إذ قال :

وذى شنب مالت إلى فيه شمعة فردت لإشفاق القلوب عليه
فمالت إلى أقدامه شغفا به فقبلت البطحاء بين يديه
وقالت بدا من فيه شهد فمزني تذكر أوطاني فملت إليه
فحالت يد الأيام بيني وبينه فعفرت أجفاني على قدميه (١)

هذه قصة طريفة تتجلى في هذه الأبيات الوصفية الرقيقة . وهي واقعة
سريعة عاجلة من الوقائع العارضة ، يبرزها الشاعر الرقيق في أبيات جميلة معاملة

مطربة ، ليست قصة صامئة جامدة ، واسكنها ناطقة متحركة ، ومبتدئة ومنتهية معاً في حركات طبيعية وخطوات لا تكلف فيها . وقد امتزج فيها الوصف العذب بالغزل الجميل .

وتتلخص القصة في أن شمعة موقدة مالت إلى فم هذا المحبوب . ويبدو أنها لمستته أو كادت تلمسه ، وكادت تسيء إليه ، فانزعج وابتعد ، فسقطت على قدميه ولمست الأرض .

وأبى خيال الشاعر إلا أن ينسجها قصة كما رأيت ، فيها من البيان تشبيه لشنب المحبوب بالشهد . وفيها من البديع مراجعة ، وهي ترديد ما وقع في شكل قصصى . وفيها تعليلان أدبيان طريضان .

وفيها تشخيص وإسناد صفات العاقل لغيره ، وذلك من صنع الخيال الشعري . انظر إليه يقول إن الشمعة مالت إلى أقدام المحبوب . وإلى هنا لم يظهر الخيال ولا التشخيص ، واسكن التعليل بقوله « شغفا به » أبرزه في قوة ووثوب . فقد جعل ميلها إليه عن سبب دفعها وعاطفة حركتها . واستمر بروزه بإسناد تقبيل البطحاء بين يديه ثم بإسناد القول إليها ، واهتزازها لتذكر الأوطان ، وتعفيرها أجفانها إحياء لذكرى أوطانها .

وفي هذه الأبيات التي تصف مشهداً حسياً بحتاً ، ترى الشاعر خرج به بكياسة إلى نطاق المعنويات ، فأصبحت القصة نفسية رائعة ، تملأ جوانبها العاطفيات والمشاعر ، كالشغف والتقبيل وتذكر الأوطان ، وتعفير الأجفان إحياء للذكرى . . هذا كله فضلاً عن التشخيص ، كما أشرنا .

ومن أوفق ألفاظها قوله على لسان الشمعة : « فمزني » . إنها رقيقة لينة ، وضعت في أنسب موضع . والتورية فيها جميلة ممتعة . رجحتها بين الاهتزاز الحسى ، لوقوعها على الأرض . وبين الاهتزاز المعنوى ، لتذكر الأوطان .

ولعل جمال الدين بن نباتة ألمع شعراء العصر اتجاهاً نحو الوصف والتصوير،
- كما رأيت - وإخراج المعنى كاملاً بذيوله وحواشيه وظلاله . سواء احتاج في
أدائه إلى مسالك بيانية أو ألوان بديعية ، أم لم يحتج .

وقد أبدع ابن نباتة أيضاً في تصوير الخمر وبيان الكثير من صفاتها المحبوبة
عند ندمانها . وذلك في أبيات صدر بها إحدى مؤيدياته . يقول :

عوض بكأسك ما أتلقت من نشب فالكأس من فضة والراح من ذهب
واخطب إلى الشرب أم الدهر إن نسيت أخت المسرة واللهو ابنة العنب
غراء حالية الأعطاف تخطر في ثوب من النور أو عقد من الحبيب
عذراء تنجز ميعاد السرور فما ترمى إليك بكف غير مختضب
مصونة تجعل الاستار ظاهرة وجنة تتلقى العين باللمب

فهو يبرز لك الخمر حسناء جميلة غراء حالية الأعطاف ، مضيئة مشرقة ، عليها
عقودها ، يبرزها لك بذلك في أجمل صفاتها وأشدها إغراء . لقد جعلها إنسانة
فتانة جمعت الجمال والأصالة والكرم من أطرافها .

انظر إليه وإلى طرائفه ، لقد أخذ يشير لك إلى نسبها ، وهو نسب كريم ذو
حسب عظيم ، فهي أم الدهر ، وأخت المسرة ، وأخت اللهو ، وابنة العنب ،
وهذه أسرة كريمة بلا ريب . - وإن لم يوفق الشاعر في وصفها « بالأم » ، في هذا
المقام .. وإن أراد به قدمها .

وبالدهر أثبت لها قدم النسب ، وبالمسرة وصفها بطيب العشرة وحسن
المصاحبة ، وباللهو وصفها بقدرتها على إزالة الأحزان ومحو الهموم ، وبالعنب
أفصح عن حلاوة منبتها وعذوبة منشئها وكرم أصلها .

وهذه صفات حسية ومعنوية يرغب فيها الخاطب ، وتزدان بها العروس ،
وتتليه العذراء ..

وقد أفصح الشاعر عن أنها عذراء ، بعد أن أضفى عليها أثواب جمال أخرى

فهى غراء بيضاء مشرقة لامعة تلفت النظر وتنبه الخاطر ، وهى مزدانة الجوانب متجملة المظهر ، فوق جمال أصلها وكرم محتدها ، وهى تخطر كما تخطر العروس أو الفتاة إذا ازداد جمالها . - والحسن بالتيه يأمر - وهى تخطر فى ثوبها الموشى بما يشبه الزهر ، أو المضىء بما ينبعث منه الضوء والنور ، وعليها حببها عقدا منظوما جميلا محببا ..

ومع أنها عذراء فهى تنجز ميعاد السرور ، فتريح عشاقها ، وتفى بميعادها ، وتمد إليهم كفها غير الخضيبه داعية راضية . ومع أنها مصونة ، فإن أستارها ظاهرة قريبة ، وإذا تلفتك - وهى الجنة - باللهب ، ففيها من اللهب الاصفرار واللمعان والدفع ، وهى تريح النفس كما تريحها الجنة . . .

وهكذا اعتمد ابن نباتة على الوصف ورسم الصور فى إبراز محاسن الخمر . وفى كل بيت من أبيانه الخمسة صورة .

الاولى : رجل جلس إلى مائدة الشراب ينفق الذهب فى سبيل الخمر ويحتسبها فى كأسها الفضى ليعوض ما أنفق .

الثانية : خاطب يتقدم إلى خطبة عذراء ذات حسب ونسب ، وصفت حبيبة إلى الزوج .

الثالثة : فتاة جميلة حسناء مشرقة الجبين تخطر فى أثوابها الموشاة وعقودها المحلاة . مقبلة إقبال الدنيا إذا رضيت ، والحظ إذا ابتسم .

الرابعة : عذراء بكر تدعو عشاقها وتمد إليهم أكفها الرخصة ، التى لم تحتج إلى خضاب .

الخامسة : الفتاة المصونة التى يتهافت إليها عشاقها ويسعون إلى أستارها الطاهرة . . . وأكثر هذه التصورات - كما ترى - تصورات معنوية .

واصطنع الشاعر ألوانا من البيان ، ومنها السكنايات فى البيت الثانى فى أم الدهر ، وأخت المسرة واللهم ، وابنة العنب .

ومنها الاستعارات في قوله : حالة الأعطاف . وعذراء . وتنجز ، وتومي .
وكف . وأستار .

والتشبيه في قوله : الراح من ذهب . وثوب من النور . وجنة . وعذراء .
واصطنع ألوانا من البديع ومنها : الطباق بين فضة وذهب ، وجنة ولهب .
ومراعاة النظير في أم وأخت وابنة .

اطردت هذه النزعة على وجه التقريب ، في كل ما تناوله الشعراء من أغراض
الشعر ، حتى الرثاء والنقد والفكاهة والشكوى وغير ذلك .

وإليك أبياتا أخرى في أغراض مختلفة ترى فيها هذه النزعة . فمن ذلك :

قول الشاب الظريف في الغزل :

في غزلي من لحظ ذاك الغزال أخبر صب قتلته النبال
غصن سقته أدمع ثم ما أثمر لما مال نحو الملل
وهبت ياقوت دمعى ولا يسمح لي مبسمة بالآل
حل ثلاثا يوم حمامه ذواثبا تعبق منها الخوال
فقلت والقصد ذواثباته يأسهرى في ذى الليالى الطوال (١)

وقول مجير الدين بن تميم في وصف نهر وقت الأصيل :

ونهر إذا ما الشمس حان غروبها ولاحت عليه في غلائلها الصفر
رأينا الذى أبقت به من شعاعها كأننا أرقنا فيه كأسا من الخمر (٢)

وقول شرف الدين الرومى المتوفى سنة ٧٠٧ هـ في طالب المستحيل :

ومن يقصد الأمر الذى ليس ممكنا ويطمع أن يسمى به وهو ظافر
كباحث صخر يبتغى فيه حاجة أمامه تدمى ونحني الأظافر

وقول علاء الدين بن أيبك المتوفى عام ٨٠٣ هـ . من خمر ياته الغزلية :
 كأن الراح لما راح يسعى بها في الراح مياس القوام
 سنا المريح في كف الثريا يحيينا به بدر التمام
 وقد انصرفت عناية ابن أيبك ، إلى إيضاح الراح والساق إيضاحا حسيا ،
 وذلك بذكر السنا والمريح والكف والثريا وبدر التمام . وتركيب التشبيهه جميعه
 حسي كذلك ، وإن تخللته التحية ، فإنها مشتركة بين الحسي والمعنوي .

وقول مجير الدين بن تميم ، في وصف جواد كميته :
 وطرف يفوق البرق لونا وسرعة فكالصخر إذ يهوى وكالماء إذ يجري
 تبدى بعرف أسود فوق أحمر فقل في دخان تحته لخب الجمر^(١)
 وترى الوصف الحسي طاعيا في بيتي مجير الدين . إنه لم يتجه إلى وصف
 أخلاق جواده ونعت تصرفاته . وإنما اتجه إلى إبراز لونه وسرعته . ففارق بين
 البرق وبينه في هاتين الصفتين الحسيتين الواضحتين في البرق . ثم ثنى بتشبيهين
 آخرين حسيين ، قوى بهما تصور السرعة وأوضح مقدارها ، فهو في سرعته
 كالصخر ، إذ يهوى ، وكالماء إذ يجري .

ويبدو لأول وهلة أنه بهما أضعف تشبيهه الأول ، إذ أن البرق أشد
 سرعة - ولا ريب - من الصخر ومن الماء . ولكن هوى الصخر فيه ضراوة
 وقسوة وتحطيم ، وجريان الماء فيه اكتساح وتفتيت وحمل . وهذا مالا
 يصاحب البرق .

وترى الألوان الحسية بارزة في بيته الثاني ، وفي تشبيهه . فقد عني - كما ترى -
 بإبراز لوني الجواد ، وهما السواد والاحمر ، بعقد هذا التشبيه التمثيل الذي من
 عناصره الدخان الأسود إلى أعلى ، واحمرار الجمر أسفل منه .

(١) راجع تأهيل الغريب ، باب وصف الخيل .

هـ — الفكاهة والنسكته

وقل ألا نجد في شعر قوم فكاهة يتسلون بها أو نسكته يتندرون بها . غير أن شعراء العصر المملوكي دعنهم إلى الشعر الفكاهي دواع كثيرة أربت على ما عند غيرهم من شعراء العصور الأخرى . ومن ذلك فراغ بعضهم من العمل الجدى ، أو بعدهم عن المناصب الرفيعة ذات الشأن التي تدعو إلى الجد وتذود عن مهاوى الهذر والمزاح . هذا إلى ولوعهم بالبديع ومحسناته وما فيها من تورية وتوجيه وإبهام وغيره . وقد كان هذا الولوع مزاجاً متأصلاً في الشعراء كما نوهنا ، حتى عددناه أحد حوافزهم إلى النظم .

على أنه مما لا ريب فيه أن تتابع الدول الحاكمة الطارئة من خارج البلاد ، ووقوع شعب البلاد فريسة باردة لهذه الدول ، وفي جملة دولتنا المماليك ، رسب في النفوس مرارة بالغة ، مازجها الخوف من البطش ، والخشية من غلظة الحاكمين فتتنفست هذه النفوس عن طريق الفكاهة لتتسلى وتتعزى وتسرى عن برحائها ، وعن طريق النسكته والنقده والسخرية لتعبر في هواده عن آلامها وعن شقائها بزمانها وحكامه وعيظه .

وجرى ذلك على ألسنة الشعراء فكانوا مرآة لمعاصريهم .

على أن عزوف الدهر عن كثير من هؤلاء الشعراء . وإنكار العصر لهم ونقصه من مقدارهم ، دعاهم إلى الشكاية ، ودفعهم إلى السخرية والهجاء ، ولكن في رق وكياسة ، وفي حياء لبق ، عرف عن أهل مصر .

كانت الفكاهة إذأ في مقدمة أساليبهم الشعرية ، وكانت النسكته وسيلة من وسائل التعبير وإبراز المعنى فبدت الشكاية ظريفة كيدسة والنقده اللاذعة لطيفة ضاحكة ، وسرت هذه الروح في فجاج كثيرة من فجاج الشعر ، فقد تراها في الوصف والغزل والهجاء والعتاب وغيرها .

وقد نظم شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي ، على لسان دابته تشكو الجوع إلى السلطان الناصر حسن ، وتطلب إليه شعير آ ، قال من قصيدة في ذلك :

وجع الجوع ماله من طيب غير أكل الشعير عند الغروب
ليت شعري هل للشعير غبار فأراه وقت العليق نصيب
أوقف الضعف حالي حين أمسى بعد جرى بقوة ووئوب
كنت كالطير في المسير إلى أن أوقعتني مع الأديب ذنوب
فتراني صفراء من غير عشق وصدود جرعته من حبيب .. الخ (١)

ولشهاب الدين بن أبي حجلة كذلك ، هذه الأبيات الخفيفة الإخوانية الفكاهية العاتبة . وقد أهدى إليه أحد أصدقائه خروفا ، فقال :

أتاني كبشكم في العيد يمرح بكاموس ببحر الدهن يسبح
سمت نحو السماء له قرون فبات لجديها والثور ينطح
لئن أمسى كهدي قلده فكم لي في القلائد فيه مطمح
فكبشكم المليح أتى وليكن رضاكم مع وصول الكبش أملح
فمن لي لو رضيتم بعد عتب كناية من التصريح أصرح
وقد وشحتموه ببعض غيظ فطرفي بالدموع أتاه يرشح
وعندي مثل غيظكم وليكن إذا أنصفت كان الصالح أصلح
نفذ ما شئته واستبق ودي فأخذ الروح عندي منه أروح
وإن تذبح محبك بعد هذا فعيد النحر قد وافاك فاذبح
لئن سددت باب العتب عني بما أبديته فالله يفتح
وإن ألمت يوما ما بذنب فمثلك من يرى ذنبا ويفصح
وما للعبد ذنب غير قولي لعيدكم بباب الدار : افتح (٢)

(١) ديوان ابن أبي حجلة — مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٢) ديوان ابن أبي حجلة

ونظم الأديب كمال الدين الأعشى المتوفى عام ٦٩٢ هـ قصيدة طويلة يذم فيها دار
سكنه . فقال في أولها :

دار سكنت بها أقل صفاتها أن تسكن الحشرات في جنباتها
الخير عنها نازح متباعد والشر دان من جميع جهاتها
من بعض ما فيها البعوض عدته كم أعدم الأجفان طيب سناتها
وتبيت تسعد بها براغيث متى غنت لها رقصة على نغماتها
رقص بتنغيص ولكن قافه قد قدمت فيه على أخواتها . . إلخ (١)

ولأبي الحسين الجزار المصري يصف داره المنهدمة بهذه الأبيات المشهورة :

ودار خراب بها قد نزلت ولكن نزلت إلى السابعة
طريق من الطرق مسلوكة محجتها للورى شاسعة
فلا فرق ما بين أنى أكون بها أو أكون على القارعة
تساورها هفوات النسيم فتصغى بلا أذن سامعة
وأخشى بها أن أقيم الصلاة فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأت إذا زلزلت خشيت بأن تقرأ الواقعة (٢)

وكتب صاحب تاج الدين بن صاحب نحر الدين - المتوفى عام ٧٠٧ هـ -
إلى الشاعر سراج الدين الوراق . وكان قد سقط حماره في بئر فمات :

يفديك جحشك إذ مضى مترديا وبتالد يفدى الأديب رطاف
عدم الشعير فلم يحده ولا رأى تبنا وراح من الظما كالتالف
ورأى البؤيرة غير خاف ماؤها فرمى حشاشة نفسه لمخاوف

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٠٢ .

(٢) خزنة الأدب ص ٢٥١ .

فهو الشهيد لكم بوافر فضلكم هذى المكارم لاجماعة خاطف
قوم يموت حمارهم عطشا لفرأزروا بجانم فى الزمان السالف
وقد أجابه السراج الوراق من الوزن والقافية ، فقال :
أدنت ثمار قطوفها للقاطف وثنت بأنفاس النسيم معاطفي
ومنها :

ولكم بكيت عليه عند مرابع ومراتع رشت بدمعى الذارف
يمشى على عسرى ويسرى صابرا بمعارف تلهيه دون معالف
وقد استمر على القناعة يقتدى بى وهى فى ذا الوقت جل وظائفى
ودعاه للبئر الصدى فأجابه واعتاقه صرف الحمام الآزف
وهو المدل بألفة طالت وما أنسى حقوق مراتعى ومآلى (١) إلخ (١)

٦ - المعارضات والمناقضات

كانت المعارضات والمناقضات أسلوبا من أساليب الشعراء ومسلكا من المسالك التى طرقوها لعرض معانيهم . وليست أسلوبا خاصا وقالبا يصب فيه المعنى الجزئى ، على نمط ما رأينا فيما سبق . ولكنها كانت أسلوبا عاما ، وشكلا من أشكال القصيدة .

والمعارضة أن ينظم الشاعر قصيدة على نمط قصيدة لشاعر آخر ، يتفق معه فى بحرهما ورويها وموضوعها ، سواء أكان الشاعران متعاصرين أم غير متعاصرين . ويجرى ذلك بدافع المناقشة أو المباراة أو الرغبة فى إظهار البراعة والتفوق ، أو نحو ذلك .

والمناقضة ضرب من ضروب المعارضة . غير أنها تكون ردا ونقضا للقصيدة المعارضة .

وقد ترى في عصر من عصور الأدب عددا من المعارضات والمناقضات .
ولكن العصر المملوكي كان بحق عصر هذا اللون من الشعر ، ولا سيما المعارضات
التي نعتقد أن محصولها فيه يربى على محصولها في أي عصر آخر . ويندر أن ترى
شاعرا كبيرا لم يطرق باب المعارضات .

ولعل سبب ذلك الرغبة الجارحة في إظهار البراعة والتفوق ، إذ يبدو ذلك
في المعارضات بدوا وانحازا بارزا ، وبخاصة في معارضة شاعر سابق انعقد له الرأي
على إجادته وسبقه . أو شاعر معاصر تقدم الصفوف وانعقد له لواء الزعامة في
ميدان الشعر . وقد يكون السبب تأثير المعارض بغيره إلى حد الرغبة في تقليده
ومحاكاته .

وكثيرا ما عاونت العلاقات الإخوانية معاونة كبيرة على رواج هذه
المعارضات بين المتعاصرين . إذ دفعتهم إلى التسلي بالتراسل والمساءلة ، فكثرت
بينهم المراسلات والمساءلات الشعرية ، وكانت وسيلة أخرى من وسائل إبراز
الموهبة الفنية ، وأسلوبا تعلقت به لتتنفس عن طريقه وتثمر ثمارها .

وهذه المراسلات والمساءلات - وقد سبقت لنا إلماعة إليها - كانت تنظم
إحداها وترسل إلى صديق فيرد عليها بقصيدة من بحرها ورويها وفي موضوعها .

ومن المعارضات ما رواه صلاح الدين الصفدى في كتابه « ألحان السوابع » ،
قال : إن قاضى القضاة أحمد بن على السبكى ، مدح السكاتب المنشئ كاتب السر
القاضى علاء الدين بن فضل الله العمرى بقصيدة من بحر السكامل قافيتها هائية
مكسورة ، مطلعها :

كن كيف شئت عن الهوى لا أنتهى حتى تعود لى الحياة وأنت هى
فعارضه صلاح الدين الصفدى بقصيدة من البحر والروى ، يمدح بها القاضى
علاء الدين أيضاً ، وتغزل في صدرها وشكا ، فقال :

حاشا لهم - وردى فى الصبابة أن تهى أو أن تحسن لى السلو فانهى
يا عز عزى فى هواك - مذلة وتوالى بك قد قضى بتولوى
أصبحت منك توجعى ومن الجفا ء توحشى وإلى حماك توجهى
فترفق بى فى الهوى وترفعى عن قتلتى وعن الصدود ترفعى
قد زاد فىك تألفى بتألمى وتفكرى فىك انتهى لتفكره
ومنها فى المدح :

ذى نسبة قرشية عدوية عمرية وإلى على تنتهى
فالعلم معلمه به لم يندرس رعياله والحلم لم يتسفه
مادبر الأملاك مثل يراعه حفظ النظام به فدام ولم يه ... إلخ (١)
وتلاحظ عناية الصفدى بالجناس وتكافئه .

ومن المعارضات قصيدة صفى الدين الحلى البائية ، التى مدح بها الملك الناصر
محمد بن قلاوون سلطان مصر لعمده . وقد عارض بها بائية أبى الطيب المتنبي ،
واقترحها عليه بعض رجال الناصر عام ٨٢٦ هـ حينما مر بمصر عائدا من الحجاز .
ومطلع بائية المتنبي :

بأبى الشموس الجانحات غاربا اللابسات من الحرير جلابيا
فقال صفى الدين متغزلا المطلع :
أسبلن من فوق النهود ذوائبا فجعلن حبات القلوب ذوائبا
وجلون من صبح الوجوه أشعة غادرن فود الليل منها شائبا
بيض دعاهن الغي كواعبا ولو استبان الرشيد قال : كواكبا
سفهن رأى المانوية عندما أسبلن من ظلم الشعور غياها

(١) الحان السواجم للصفدى :

وسفرن لي فرأين شخصا حاضراً شـدـهـت بصيرته وقلبا غائبا
أشرقن في حلال كأن وميضها شفق تدرعه الشـمـوس جلابيا
وغربن في كل فقلت لصاحبي بأبي الشـمـوس الجانحات غواربا.. إلخ (١)

ونظم جمال الدين بن نباتة تائية طويلة في مدح كمال الدين بن الزملكاني ، وهي
من أجود الشعر ، وهي التي وصف فيها الخمر وفي مطلعها يقول النسيب :

قضى وما قضيت منكم لبانات متم عبث فيه الصبايات
مافاض من جفنه يوم الرحيل دم إلا وفي قلبه منكم جراحات
أحبابنا كل عضو في محبتكم كليم وجد فهل للوصل ميعات

وقد ذكرها تاج الدين السبكي في كتابه « طبقات الشافعية » في سياق ترجمة
كمال الدين بن الزملكاني فقال :

« ولما قال ابن نباتة هذه القصيدة في ابن الزملكاني ، البديعة ، حاول أدباء عصره
معارضته فما أحسنوا صنيعه ، بل كل قصر ولم يلحق ، وتأخر وما جاء بالحق ، (٢)
ومن عارض ابن نباتة في قصيدته تلك من معاصريه : شمس الدين بن يوسف
المعروف بالخياط الشاعر . وكان قد أنكر على ابن نباتة أن يتغزل وينسب
على الوجه الذي جاء في مطلع مدحته ، وهو يمدح عالما من علماء المسلمين ،
فنظم قصيدته المعارضة مادحاً بها أيضاً ابن الزملكاني . ومن أبياتها قوله -
وكأنه ينعي على ابن نباتة وينقده :

ما شاد مدحي لكم ذكر المدام ولا أضحت جوامع لفظي وهي حانات
ولا طرقت حمى خمارة سحرا ولا اكتست لي بكأس الرأس راحات

(١) ديوان الحلي باب الناصريات ص ٥٥ القسم الثاني .

(٢) طبقات السبكي ج ٥ ص ٢٥٥ وقد توفي ابن الزملكاني عام ٧٢٧ هـ

وإنما أسـكر الجلاس من أدب يدور منه على الأكياس كاسات . . الخ
والقصيد — كما نرى — فيها نزعة المناقضة .

ولا بن نباتة أيضاً قصيدته النبوية الرائية البديعة التي مطلعها :

صحا القلب لولا نسمة تتخطر ولمعة برق بالغضى تتسعر

وقد ذكرها ابن حجة الحموى فى خزانة الأدب ، وعقب عليها بقوله :

« وعارض الشيخ جمال الدين بن نباتة جماعة نسجوا على منواله فى عصره .

لكن الذوق السليم يشهد أنهم كانوا خلاصة قطره ، وهذا الشرح هو جامعهم
الكبير . وإذا ذكرت فيه نظائره ، فاعلم أنه ليس له فيهم نظير . »

ورقائع المعارضات كثيرة ، ومنها « البديعيات » التى سبق لنا الحديث عنها ،
وهى — أو أغلبها — معارضات لبردة البوصيرى شاركتها فى البحر والروى
ونوع القافية والموضوع وأغراضه الجزئية .

أما المناقضات فهى — كما نوهنا — نادرة .

وبما عثرنا عليه من المناقضات الطريفة ، أبيات للشاعر ابن البقي المصرى
المتوفى عام ٥٧٠ هـ . وذلك أنه سمع أبياتاً للفقيه الكبير الأديب القاضى تقي
الدين بن دقيق العيد القشيرى — المتوفى عام ٥٧٠ هـ — يوازن فيها بين أهل المراتب
وأهل الفضائل ، ويقول :

أهل المراتب فى الدنيا ورفعتها أهل الفضائل مرذولون بينهم
فما لهم فى توقى ضرنا نظر ولا لهم فى ترقى قدرنا همم
قد أنزلونا لأننا غير جنسهم منازل الوحش فى الإهمال عندهم
فليتنا لو قدرنا أن نعرفهم مقدارهم عندنا أو لودروه هم

لهم مريحان من جهل وفضل غنى وعندنا المتعبان العلم والعدم
والآيات - كما ترى - جيدة النسيج جزلة التراكيب موفقة التعبير ، واضحة
المعاني ، تناولت إحدى ظواهر المجتمع ، وهي ظاهرة مطردة البروز في كثير
من المجتمعات الشرقية والعربية ، وقصاراتها استعلاء الرؤساء والحكام على العلماء
وأهل الفضل ، لما لهم من الجاه والغنى ، ولـكنهم مع ذلك جهلاء أراحمهم الجهل
من فهم الحق ومعرفة منازل الناس ، بينما أتعب العلم والعدم أهل الفضل ، وقللا
من منازلهم .

وقد جرى ابن البقي في أبيانه المناقضة شوطا قليلا مع أبيات ابن دقيق
العيد ، وخالفه في أن هؤلاء الحكام وأصحاب المراتب لا قيمة لهم بالنسبة إلى
العلماء ، وهم في حقيقة الأمر وحوش ونعم ، وإنما تقودهم حكمة العلماء . وأن
العلماء لم يحظوا لديهم بالمنازل التي يستأهلونها ، لأنهم أهملوا ذلك ، ولأن أهل
المراتب لا ضمير لهم ولا شعور ، وما العلم والعدم إلا مريحان للعلماء . وما الجهل
والغنى إلا متعبان لأهل المراتب .

وهاك أبيات ابن البقي :

أين المراتب في الدنيا ورفعتها	من الذي حاز علماً ليس عندهم
لا شك أن لهم قدراً رأوه وما	لمثلهم عندنا قدر ولا لهم
هم الوحوش ونحن الإنس حكمتنا	تقودهم حيثما شئنا وهم نعم
وليس شيء سوى الإهمال يقطعنا	عنهم لأنهم وجدانهم عدم
لنا المريحان من علم ومن عدم	وفيهما المتعبان الجهل والحشم ^(١)

وقريب من ذلك أيضاً ما رواه شهاب الدين بن حجر العسقلاني أيضاً من
أن كمال الدين الشريشي - المتوفى عام ٧١٨ هـ - والذي كان فقيها ومدرسا - كتب

إلى بدر الدين - لعله بدر الدين بن الصاحب - هذين البيتين المشهورين
« هكذا وصفهما ابن حجر ، - يعاتبه موريا بلفظ « السكال » ، وهو لقبه :

مولاي بدر الدين صل مدنفًا صيره حبك مثل الخلال
لا تخش من عيب إذا زرتَه فما يعاب البدر عند السكال
فبلغ ذلك صدر الدين بن الوكيل ، فناقضهما بقوله من البحر والروى .

يا بدر لاتسمع كلام السكال فكل ما نطق زور محال
فالنقص يعرف البدر في تمه وربما يخسف عند السكال (١)

أما المراسلات الشعرية فقد كانت كثيرة متداولة بين الشعراء ، وكانت
أسلوبًا إخوانيًا متبعًا بينهم ، وقد تكون مستقلة ، أو يصاحبها النثر .

والمراسلات لون من المعارضات ، لما كان يتوخاه المرسل إليه من الاقتداء
بصديقه المرسل في بحره ورويه ونوع قافيته وموضوعه ، مع سمة الرد والإجابة
ومبادلة العاطفة .

ومن المراسلات ما بعث به علاء الدين بن غانم الشاعر الأديب ، إلى العلامة
شهاب الدين محمود الحلبي صاحب ديوان الإنشاء بدمشق إذ ذاك ، يشكو إليه
طول غيابه عنه ، فقال :

لقد غبت عنا والذي غاب محسود وأنت على ما اخترت من ذاك محمود
حللنا محلا بعد بعدك بمحلا به كل شيء ما خلا الستر مفقود
به الباب مفتوح إلى كل شقوة ولكن به باب السعادة مسدود
فأجابه الشهاب محمود بقوله من البحر والقافية :

أحبابنا بنتم وشط مزارنا برغمي وحالت دون وصلكم البيد

وروعتم روض الحى بفراقكم فشابت نواصى بانه وهو مولود
ومن لم تهجه الورق وجدأ عليكم توهم أن النوح في الدوح تغريد (١)
« روى الأبيات صاحب فوات الوفيات . ونرجح أن لها بقية طويلة ،
لم يثبتها صاحب الفوات مجتزئاً بهذه الأبيات » .

ومن المراسلات أيضاً ما نظمه الأدب جمال الدين بن غانم - وهو في
دمشق - إلى الصلاح الصفدى - وهو في مصر - قال :

ذكرت قلبي حين شط مزارهم بهم فتاب عن الهوى تذكّارهم
وبكى فؤادى وهو منزل حبيهم وأحق من تبكى الأحبة دارهم
وبجلق الجفن الهمول كأنما لمحتة عند مرورهم أنوارهم
تذرى الدموع عليهم وكأنهم زهر الربا وكأنها أمطارهم . إلخ

فرد عليه الصلاح الصفدى من الوزن والقافية فقال :

أفدى الذين إذا تناءت دارهم أدناهم من دارهم تذكّارهم
في جلق الفيحاء منزلهم وفي مصر بقلب الصب تضرع نارهم
قوم بذكرهم الندامى أعرضوا عن كأسهم وكفتهم أخبارهم
وإذا الشاء على محاسنهم أتى طربوا له وتعطرت أوتارهم . إلخ (٢)
والقصيدتان طويلتان .

وفي أعقاب حديثنا هذا عن المعارضات والمناقضات والمراسلات وما يتصل
بها ، نلقت النظر إلى أن هذا الموضوع يستأهل بحثاً مستقلاً ، تبحث فيه أسبابه
وعلله ودوافعه في كل عصر من عصور الأدب ، وتسجيل أهم القصائد وأجودها ،

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٩٨ .

(٢) فوات الوفيات ج ١ ص ٩٢١ وبه القصيدتان بتمامهما .

مع شرحها وضبطها والتعليق عليها ، وتحليلها ، والموازنة بينها ، والتنويه بالثروة الأدبية التي نجمت عنها ، إلى غير ذلك مما يترأى للباحث .

٧ - السرقات الشعرية

وحديث المعارضات يجرنا إلى الحديث عن السرقات الشعرية بعامة . وذلك لأن المعارض قصاراه أن يدور في فلك من يعارضه ، ويتحذاه ويقتدى به متأثراً بنهجه وأسلوبه ومعانيه . وقد يؤدي به هذا إلى الوقوع في السرقة الشعرية .

وفي الحق ، لم يكن الوقوع في السرقة الشعرية أمراً مقصوراً على المعارضين ، ولكنه كان شائعاً أيضاً عند غيرهم . بل نود أن نقول إنه كان اتجاهاً وأسلوباً عند كثير من الشعراء في العصر الذي نتحدث عنه .

بل يبدو لنا أنه كان ظاهرة أدبية برزت في العصر المذكور أكثر من بروزها في غيرها .

ويستطيع أى ناقد أن يتخذ هذه الظاهرة وسيلة للحط من قدر شعراء العصر وقيمة شعرهم . ولكن ينبغى له أن يضع في الاعتبار أسباباً جوهرية جذبت هؤلاء الشعراء إلى نطاق السرقات . ومنها رغبة بعضهم في المعابشة والمداعبة الأدبية ، وإثارة المنافسة والمنازعة . كما أن حب البديع كان سبباً أساسياً في هذا الاتجاه ، فكثيراً ما كان يقع خاطر أحدهم على لفظ أو تركيب نضجت له فيه تورية ، أو حلاً جناس ، أو استعظام معه طباق أو اقتباس . أو نحو ذلك . فينظم البيت أو البيتين فيه يضمهما إياه . وما هو إلا أن ينظمه حتى يشرق ويغرب . فيتهافت عليه ويتهارى إليه كثير من الشعراء يعارضونه . فيعجبون بالمعنى أو الصورة اللفظية ، ويحبون إظهار براعتهم ومقدرتهم في هذه المعارضة . فينظمون له البيت أو البيتين أيضاً ، من بحره ورويه أو غيرهما يضمونهما المعنى أو يزيدون

عليه أو ينقصون منه ، وبلفظه ، أو بجزء منه ، أو بلفظ مغاير له .
وهكذا ترى حب المعارضة - وهو وحده أسلوب - قد جر إلى السرقة -
وهي أيضاً أسلوب من الأساليب .
وليست السرقة الشعرية معيبة دائماً ، بل منها ما يعد تجديداً وتوليداً فيه متعة
وطرافة ، كما سترى .

وقعت السرقات - كما أشرنا - من كثير من شعراء العصر . ووقعت من فحولهم
ومجيدهم . وعيبت من بعضهم وعدت من هئاتهم . ومنهم : علاء الدين الوداعي .
وجمال الدين بن نباتة المصري وصلاح الدين الصفدي . وزين الدين بن الوردى .
وشهاب الدين بن أبي حجلة المغربي . وغيرهم من الفحول .

وروى ابن حجة الجوى قال :

« إن الشيخ علاء الدين الوداعي سبك التورية في قوالب لم يسبقه أحد من هذه
الجماعة إليها . ولا سقط فكره عليها ومع علو قدر الشيخ جمال الدين بن نباتة -
وهو الذى مشى ملوك الأدب قاطبة بعد الفاضل تحت أعلامه - تطفل على موائد
نسكت الوداعي ومعانيه » (١) .

وروى أيضاً أن صلاح الدين الصفدي كان يسرق معاني ابن نباتة . فبكى سلط
ابن نباتة على علاء الدين الوداعي ، سلط الصفدي عليه . وقد حداه هذا إلى أن
يؤلف كتاباً سماه « خبز الشعير » بين فيه سرقات الصفدي من شعره .

قال ابن حجة فى ذلك مانصه ، وهو يتحدث عن براعة الاستهلال :

« وأما براعة الشيخ جمال الدين بن نباتة فى خطبة كتابه المسمى « بخبز الشعير »
فإنها خاص الخاص .

ولا بد من مقدمة تكون هي النتيجة الموجبة لتسمية هذا الكتاب بخزن الشعير . فإنه ما كول مذموم وما ذاك إلا أنه كان يخترع المعنى الذى لم يسبق إليه ، ويسكنه بيتا من أبياته العامة بالمحسن . فإخذه صلاح الدين الصفدى بلفظه ، ولا يغير فيه غير البحر ، وربما عام به فى بحر طويل يفتقر إلى كثرة الحشد واستعمال ما لا يلائم .

فلم يسع الشيخ جمال الدين إلا أنه جمعه من نظمه ونظم الشيخ صلاح الدين . واستهل خطبته بقوله تعالى : « رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا » . ورتب كتابه على قوله : قلت أنا . فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال . . الخ (١)

وروى ابن حجة جزءا آخر من خطبة ابن نباتة ، أنه قال :

« بلغنى أن بعض أدباء عصرنا ممن منحته ودى وأنفقت على ذهنه الطالب ما عندى . وأقمته - وهو لا يدرى الوزن - مقام من زكاه نقدى . وأودعته ذخائر فكبرى وأنفقها . وأعرتة أوراق العتيقة ، فلا والله ما ردها ولا أعتقها . بل إنه غير الشاء بالهجماء . والولاء بالجفاء . ونسبني إلى سرقة بيوت الأشعار مع الغنى عنها والغناء . فتعاضيت وقلت : همار مشاء بنميم . وغصة صديق أنجرعها ولو كانت من حميم . وأخليت من حديثه باب فنى ومجلس صدرى وصرفت ذكره عن فكبرى .

ولكن وقفت على تصانيف فى علم الأدب - والعلم عند الله تعالى - وشجها بشعره ، وشعرى المغصوب المنهوب يقول يا صاحبي ألا لا . وما يتوضح من تلك الأشعار لمعة إلا ومن لفظى مشكاتها . ولا تتضوع زهرة إلا ومنى فى الحقيقة . نباتها . فضحكك والله من ذهنه الذاهل . وذكرت على زعمه قول ألقائل :

وفنى يقول الشعر إلا أنه فم علمنا يسرق المسروقا

وعجيب له كيف رضى لنفسه هذا الأمر مذكرا . وكيف حلا لذرقه اللطيف
هذا الحرام مكررا .

وقد أوردت في هذا الكتاب قدرا كافيا . ووزنا من الشعر وافيا . وسميته
« خبز الشعير » المأكول المذموم . وعرضته على معدلة مولانا ليعلم أينما مع
خليله مظلوم . .

وقد اشتهرت سرقات صلاح الدين خليل الصفدى من ابن نباتة ومن غيره .
فقد قال فيه الأديب شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى - موريا - وذلك لأنه
سرق معنى للنسيم نظمه محبى الدين بن عبد الظاهر :

إن ابن أيبك لم تزل سرقاته تأتى بكل قبيحة وقبيح
نسب المعانى فى النسيم لنفسه جملا فراح كلامه فى الريح (١)

ومن طريف ما اعترف به زين الدين بن الوردى على نفسه بالسرقات
قوله الصريح :

وأسرق ما استطعت من المعانى فإن فقت القديم حمدت سبرى
وإن ساويت من قبل فحسبى مساواة القديم وذا لخبرى
وإن كان القديم أتم معنى فذلك مبلغى ومطار طبرى
فإن الدرهم المضروب باسمى أحب إلى من دينار غيرى (٢)

واجتمع من سرقاتهم الشئ الكثير مما حدا ببعض الناقدين إلى تتبعها وردها

(١) خزانة الأدب باب براعة الاستهلال وباب التورية .

(٢) ديوان 'بن الوردى' ص ٢٣٣ ط الجوائب .

إلى مصادرهما وبيان الطريف منها وغير الطريف . ومنهم ابن نباتة في كتابه
السالف الذكر « خبز الشعير » في سرقات الصفدى منه :

وقد أثبت ابن حجة في كتابيه « خزنة الأدب » و « تأهيل الغريب » كثيراً
من هذه السرقات في أبواب عدة . وألف شمس الدين النواجى كتابه « المحجة في
سرقات ابن حجة » .

ونورد فيما يلى أمثلة وشواهد من سرقاتهم على اختلاف ضروبها . فمنها :

قول شيخ الشيوخ عبد العزيز الأنصارى :

وبدر دجى لم ينتقل كسميه ولكنه مازال فى القلب والطرف
يلوح لعينى ما شقانون صدغه فأعبد خلاقى على ذلك الحرف
قال ابن حجة : هذه النكتة أخذها ابن الوردى بقافيتها وغالب ألفاظها
ومعناها . ولعمري إنها سرقة فاحشة .

قال ابن الوردى :

يا بدر تم نوره باهر منزله فى القلب والطرف
صدغك حرف النون فى مشقه من يعبد الله على حرف

وقال شيخ الشيوخ أيضاً :

أفدى حبیباً رزقت منه عطف محب على حبيب
بوجنة ما أتم ربى وقد غدا وردها نصيبى

أخذه ابن نباتة فقال :

فديتك غصنا ليس يبرح مثمرا من الحسن فى الدنيا بكل غريب
تفتح فى وجناته الورد أحمر فيأليت ذاك الورد كان نصيبى
والسرقة فى البيت الثانى . وتنصب على التورية فى قوله « نصيبى » ، وترى أن

ابن نباتة تصرف في الترشيح لتوريته ، وذلك بذكر الورد الأحمر في الشطر الأول . وقد خلا منه بيت شيخ الشيوخ . وقرنه ابن نباتة بالبنى أيضا . - وعلى كل فالفضل للمتقدم .

وقال جمال الدين بن نباتة :

ومـولع بفخاخ يـدها وشبـاك
قالت لى العين ماذا يصيد قلت كراك كراكى ،

ورى الشاعر فى قوله « كراك » وهو الكرى . أو جمع كركى وفيه جناس التورية .

أخذه صلاح الدين الصفدى فقال :

أغار على سرح الكرى عندما رمى الكراكى غزال للبدور يحاكى
فقلت ارجعى يا عين عن ورد حسنه ألم تنظريه كيف صاد كراكى « كراك »
أطال الصفدى فى بيته الأول وذكر الكرى والكراكى ، وأفصح عن الغزال
الصائد . وهو الغلام الجميل . وتكلف فى التعبير وأطال حينما قال « أغار على
سرح الكرى » - والبيت الأول لابن نباتة يتضمن هذا كله - باستثناء الكراكى
التي لم تزد بيت الصفدى إلا ثقلا .

وأطال الصفدى كذلك فى بيته الثانى دون معنى قيم ، وتكلف فى ذلك
يهد للتورية .

وقد بلغ ابن نباتة هدفه من ذلك كله دون تكلف وفى إيجاز ، وفى بحر من
الشعر قصير .

وقال القاضى الفاضل موريا :

وكنت وكنا والزمان مساعد فصرت وصرنا وهو غير مساعد
وزاحنى فى ورد ريفك شارب ونفسى تأبى شركها فى الموارد

فأخذه عز الدين الموصلى وقال :

لقد كنت لى وحدى ووجهك حضرنى وكنا وكانت الزمان مواهب
فعارضنى فى ورد خدك عارض وزاحنى فى ورد ثغرك شارب
والبيت الأول واضح السرقة بالمعنى وأكثر اللفظ . مع تغيير لفظ
« مساعد » بلفظ « مواهب » . هذا إلى أن بيت الموصلى يتضمن نصف المعنى
لا المعنى كله ، فقد أغفل معنى النصف الثانى من البيت .
وفى بيته الثانى اختلس قول الفاضل « وزاحنى فى ورد ريفك شارب »
بتغيير غير جوهرى فى لفظ « ريفك » ، إذ استبدل به « ثغرك » . وحقيقة
زاد عن الفاضل معنى الشطر الأول وألفاظه وهو قوله « فعارضنى فى ورد
خدك عارض » .

وقال محي الدين بن عبد الظاهر فى النسمة :

شكرا لنسمة أرضكم كم بلغت منى تحية
لا غرو إن حفظت أحبا ديث الهوى فمى الذكية
والنسمة فى قوله « الذكية » بمعنى اليقظة اللببية الفطنة . وبمعنى الذاكية
النشر الضائعة العطر . وهو المراد من التورية .

فأخذ المعنى صلاح الدين الصفدى وقال :

يا طيب نشر هب لى من نحوكم فأثار كامن لوعتى وتهتكى
أهدى تحيتكم وأشبه لطفكم وروى شذاكم إن نشركم ذكى
وبيتا ابن عبد الظاهر أوجز وأبعد عن الحشو ، وأبعد عن تكلف التمهيد
إلى النسمة .

وهذه السرقة هى التى أشار إليها ابن أبى حجلة المغربى فى بيته نقدا
للصفدى . وقال إنه نسب المعانى فى النسيم لنفسه فراح كلامه فى الريح .

ومن بديع ما صرر به أبو نواس الكاسات ، قوله في خمرياته
 بنينا على كسرى سماء مدامة مكاملة حافتها بنجوم
 فلو رد في كسرى بن ساسان روحه إذا لاصطفاني دون كل نديم
 وقد ألم بهذا التصوير أكثر من شاعر . ومن ألم به صلاح الدين الصفدى
 وأجاد إلى الغاية مع التضمنين ، فقال :

ومشمولة قد هام كسرى بكأسها فأضحى ينادى وهو فيها مصور
 وقفت لشوقي من وراء زجاجة إلى الدار من فرط الصبابة أنظر
 وألم به بعده صاحب نحر الدين بن مكاس فقال :
 إذا ما أدير في حشاً عسجدية بها كل ذى تاج وقصر تصورا
 فحسبك نبلا في السيادة أن ترى نديمك في الكاسات كسرى وقيصر

وقال محي الدين بن قريظ الجوى :

وحديقة غناء ينتظم الندى بفروعها كالدر في الأسلاك
 والبدر يشرق من خلال غصونها مثل المليح يطل من شباك
 وأخذه صلاح الدين الصفدى فقال :

كأنما الأغصان لما انثنت أمام بدر التم في غيبه
 بنت مليك خلف شباكها تفرجت منه على موكبه

ذكر ابن حجة أن هذا التشبيه غير بليغ . وروى ما نقده به بدر الدين
 الدماميني في كتابه « نزول الغيث الذى انسجم » . حيث قال :

« إن ظاهر عبارة الشيخ صلاح الدين تشبيه الأغصان في حالة انثنائها أمام
 البدر في الدجى ، ببنت مليك تطل من شباكها للنظر في موكب أبيها . وذلك عن
 مظان التشبيه بمعزل . ومقصوده أن البدر في حالة ظهوره من خلال الأغصان
 المنثنية على الصفة المذكورة ، يشبه بنت مليك على تلك الحالة تمثيلا للهيمه

الاجتماعية . لكن اللفظ لا يساعده على ذلك المطلوب . فإنه جعل الأغصان مبتدأ ، وأخبر عنه بقوله : « بنت ملك » فلم يتم له المراد .
ونقول إن الصفدى سرق الفكرة وتصويرها من ابن قرناص . وقد صورها ابن قرناص في بيت واحد هو البيت الثانى . وأجاد مع الوضوح ودقة التشبيه وجمال الصورة . أما الصفدى فقد صورها في بيتين . واعتاص عليه إبراز التشبيه كما نقده ابن الدمامنى .

وقال علاء الدين الوداعى :

من أخذ من خده بدم الشهيد المغرم
فالريح ريح المسك منه ولونه لون الدم

فأخذه ابن نباتة وقال :

لا ينكر الكاسر من جفنه دم الشهيد الصابر المغرم
فالريح ريح المسك من خده كما ترى واللون لون الدم^(١)

وترى جوهر المعنى واحدا . وأطال ابن نباتة في إبرازه ، وحوره بعض التحوير الذى لا طرافة فيه . وحشا فى قوله « الصابر » وقوله « كما ترى » . -
وطالب الوداعى بأخذ الدم ، وسكت عنه ابن نباتة . وذكر الوداعى أن الدم يؤخذ من الخد - وكأنه هو سبب القتل أو هو القاتل . واحمراره دليل على جانيته ومناسبة ذلك واضحة . - أما ابن نباتة فجعل القاتل هو الجفن . وبدهى أن الجفن أقتل من الخد ولكن أين الدليل ، وهو الاحمرار ؟ . لقد سقط دليل ابن نباتة ، إلا إذا جعل الاحمرار فى الجفن ، وليس فى ذلك ملاحظة .

وحسبنا بهذا ما سجلنا من السرقات على اعتبار أنها لون من أساليبهم . على أنك ولا ريب لحظت فيما سجلناه أذواقا أدبية ونفوسا شاعرة وعقولا ذكية ،

(١) ارجع فى نماذج هذا الفضل إلى خزائن الأدب باب التشبيه وباب التورية وباب السرقات ، وأيضا كتابه تأهيل الغريب . ودواوين الشعراء ،

وأذهانا مصورة وخيالا مبتكرا . وإن لم تدفع إليه عاطفة جياشة
أو وجدان ثائر .

وليس معنى هذا أنهم لم يقعوا على القديم ، ولم يقتدرا بالسابقين ولم يحاكوهم .
بل نقول إن هذه هي المهمة التي يرمى بها شعراء العصر الذي نحن بصددده . وأن
قصاراهم المحاكاة والتقليد .

فلا بأس بنا وقد استطرنا إلى هذا الموضوع أن نتحدث في وجازة عن
الشعراء بين التقليد والتجديد .

التقليد والتجديد :

انهم شعراء العصر بأنهم مقلدون لا جديدين عندهم ولا ابتكار دار بأذهانهم .
والتقليد والمحاكاة قصارى رأى السادة الناقدين والمؤرخين - أو أكثرهم -
من تصدوا للحديث عن هذا العصر بأجمعه وعن شعرائه وأدبائه وعلمائه .

وهذه فرية إن دلت فإنما تدل على أن السادة لم يستوفوا أطراف البحث ،
ولم يدوروا في فجاج العصر ، ولم يفتشوا تفتيش المستقرى المستقصى ، وحكموا
حكما فجا على العصر وأهله . مأخوذين بما أحاط بالعصر من مشبطات الأدب
ومعوقانه .

والعصر المملوكى - كمثل عصور الأدب بعامة - فيه المحاكاة والتقليد ،
وفيه الابتكار والتجديد . فى المعانى وأساليب تصويرها وإبرازها .
واستقراؤنا ثبت أمامنا هذه النظرة ، وأقر هذا الرأى .

إننا - وقد آمنا بشاعرية هؤلاء الشعراء وآمنا بصفاء قرائنهم وأصالة
مواهبهم ونقاء فطرتهم - لانستطيع أن نجردهم من صدق تجاربهم النفسية وعمق
انفعالاتهم العاطفية ، وشدة امتزاجهم بما حولهم من أجزاء البيئة ونواحيها .
وهذا من شأنه أن يدفع إلى الابتكار والتجديد دون مشقة .

والبحث في أساليب عصر من العصور ، وفي معاني الشعر فيه ، لاستخراج الجديد من بينها ، والمبتكر الذي لم يطرقة طارق ولم يسبق إليه سابق ، مهيع شاق وطريق وعر ، يحتاج إلى جهد مستقل ومقام غير هذا المقام . يستطيع فيه الباحث ارتياد ميادين الأساليب والمعاني الشعرية في كل عصر أدبي ، ليعقد الموازنة والمقارنة ، حتى يستخرج الجديد من بينها والمبتكر ، في العصر الذي نؤرخه . على أننا نسكتفي في هذا المقام بأن نورد لك جملة من النماذج يبدو لك فيها جديد الأسلوب وطريف المعنى ، فمن ذلك :

قول نحر الدين بن مكاس في قصيدته البارعة في وصف « سرحة النيل »
يصف انحناءها فوق النهر :

مالت على النهر إذ جاش الخريز به كأنها أذن مالت لإصغاء

الشطر الأول من البيت تعبير عادي جدا ، يصف المنظر وصفا طبيعيا لا خيال فيه . ولكن الشطر الثاني أكسبه روعة وأجرى بما فيه من الخيال ، روحا قوية دافقة في أوصاله . وأبرز السريحة حسناء جميلة عاشقة حانية عاطفة أثار أحاسيسها جيش النهر بخريزه ، فأنجذبت إليه سامعة متلهفة .
قال ابن حجة :

« الذي يظهر لي أن صاحب نحر الدين بن مكاس ولد هذا المعنى من قول الأرجاني :

كم طعنة نجلاء تعرض بالحمى من دون نظرة مقلة نجلاء
فتحدثا سرا فحول قبابها سمر الرماح يملن للإصغاء (١)

ومن تصور ابن العفيف وتصويره ، قوله مع الاقتباس والتوجيه :
لو لم تكن إبنة العنقود في فمه ما كان في خده القاني أبو لب

(١) تأهيل الغريب باب انزل الحمس .

تبت يدا عاذلى فيه فوجنته حمالة الورد لا حمالة الخطب (١)
قال ابن حجة ما معناه : إن الشعراء بعد ابن العفيف تلاعبوا بهذه النكتة
الأدبية وأغاروا عليها .

ومن طرائف مجير الدين بن تميم قوله من خمرياته :
وليلة بت أسقى فى غياهاها راحا تسل شباني من يد الهرم
مازلت أشربها حتى نظرت إلى غزالة الصبح ترعى نرجس الظلم (٢)

وذكر ابن حجة قول أبى نواس فى مدح الأمين :
إذا نحن أثنينا عليك بصلح فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى
وإن جرت الألفاظ يوما بمدحة لغيرك إنسانا فأنت الذى نعنى
ثم قال : وهذا المعنى أهل الشيخ جمال الدين بن نباتة غريبه فى مدح الملك
المؤيد صاحب حماة المحروسة ، فجاء أبدع وأغرب وأبلغ ، حيث قال :
من مخبر الملك المؤيد أننى لولاه ما سميت نفسى شاعرا
وحلفت لم أمدح سواه لرغبة لـكننى جربت فيه الخاطرا (٣)
أقول إن ابن نباتة كرر هذا المعنى ، مع التوليد منه ، فى أكثر من مناسبة ،
فمن ذلك قوله من مؤيدية :

أجابنى قبل أن ناديت جودك إذ ناديت جود بنى الدنيا فلم يجب
فإن يكن بعض أمداح الورى كذبا فإن مدحك تكفير عن الكذب (٤)

ومن غريب مآصوره ابن حجة الحموى فى مدح الملك المؤيد شيخ بعدانته صاره

(١) خزنة الأدب ص ٣٣٦

(٢) التأهيل : باب التشبيه .

(٣) التأهيل باب المديح .

(٤) ديوان ابن نباتة حرف الباء .

على السلطان فرج بن برقوق ورجال جيشه ، قوله يصف حركة قتاله لأعدائه وقتله إياهم :

وإذا مددت يراع رحك ماله إلا قلوب الدار عين محابر
ونعال خيلك كالعيون وما لها إلا جماجم من قتلت محاجر
وكتبت بالهندي فيهم أسطرا وصدورهم تحت الدروع مساطر (١)
وتراه قد مزج بين أدراك الكتابة ومصطلحاتها ، وأدوات الحرب
ومصطلحاتها ، واستعار البعض للبعض ، وأدى ذلك تأدية مقبولة ، وأخرج هذه
المعاني الطريقة بهذا التصوير البارع الواضح .
فالريح يراع ، والقلوب محابر ، والصدور مساطر - ويراع الريح انغمس في محابر
القلوب ، والسيوف تسكتب سطورها على الصدور .
وفي البيت ، جعل نعال الخيل كالعيون . وجماجم الأعداء كالمحاجر .
وتوريته في قوله « بالهندي » طريقة ، إذ فيها معنى الخط الهندي ، ومعنى السيف
الهندي . .

ولشهاب الدين بن حجر العسقلاني في وصف روضة ، مع التورية :
ولم أنس إذ زاد الحبيب بروضة فغارت من المعشوق أعينها المرضى
ولاح بخد الورد حمرة خجله إلى أن رأينا طرف نرجسه غضا (٢)

ولسراج الدين الوراق يتغزل في بدوية ويورى في كلمة « البادى » :
وبى من البدو كلاء الجفون بدت فى قومها كهواة بين آساد
فلو بدت لحسان الحضرة لها على الرؤوس وقلن الفضل للبادى (٣)

(١) تأهيل الغريب باب المديح .

(٢) التأهيل : باب الاستعارة .

(٣) التأهيل باب غزل التورية .

ولمجيير الدين بن تميم يصف وردة مبكرة :

سبقت إليك من الحقائق وردة وأنتك قبل أوانها تطفيلاً
طمعت بلثمك إذ رأتك فجمعت فمها إليك كطالبت تقيلاً (١)
وله أيضاً يصف الآذريون :

وكأن آذريونها في روضة سرج تضيء على صفاء أنهارها
والسرج تخفيها الشموس وهذه سرج تزيد الشمس في أنوارها (٢)
ولمحيي الدين بن قرناص يهيم بالرياض :

لم لا أهيمن إلى الرياض وطبيها وأعيش منها تحت ظل واف
والزهر يلقياني بشعر باسم والنهر يلقياني بقلب صاف (٣)
ولعلاء الدين الوداعي من خمرياته :

قم هاتها يا صاح مشمولة تحسبها في السكاس مصباحا
جسم بلا روح ولما كنتها تحدث في الأجسام أرواحا (٤)
واسيف الدين بن المشد يصف مطرباً بشباية :

ومطرب قد رأيت في أنامله شباية لسرور النفس أهلها
كأنه عاشق وافت حبيبته فضمها بيديه ثم قبلها (٥)

٨ - العبارات والأمثال السوقية

يلوك العامة في لغتهم المعاشية الرتيبة ألواناً من العبارات ، ويرددون

(١) التأهيل باب الربيعيات .
(٢) التأهيل باب الربيعيات .
(٣) التأهيل باب الربيعيات .
(٤) التأهيل باب الخمريات .
(٥) التأهيل : باب ما ورد من الغريب في مدح المغنين .

أخلاقاً من الأمثال يعبرون بها أو يضربونها في مناسبات حياتهم ، في منازلهم وفي مجالسهم وفي أسواقهم وما إلى ذلك .

ويكثر منهم تكرارها واختيارها كلها دعت مناسبة ، وكلها عنت ضرورة ، في حديث أو جدال أو بيع أو شراء أو حفل أو سمر أو نحو ذلك . وقد يكون لها أو لبعضها وقع خاص في النفوس ومحل قبول - وقد يؤدي بعضها معنى لا تؤديه لغة الخاصة بإيجازه ووضوحه .

هذه العبارات والأمثال هي ما نطلق عليه العبارات والأمثال السوقية .

وبدهى أنها من صنع الشعوب غالباً ، أى عوام الشعوب . وأنها كثيراً ما تتغير وتتجدد بتغير الشعوب وتتجدد الأجيال .

وفي الشعوب العربية صارت هذه العبارات والأمثال السوقية عامية منذ أمد بعيد . بل أصبحت غارقة في العامية وإن كانت محرفة عن الفصيحة ، أو يمكن تفصيحها بشيء قليل أو كثير من الإعراب . وربما صارت مبتذلة بكثرة استعمالها لدى العامة ، فأصبح الخواص والفصحاء ينظرون إليها نظرة شذراء ، ويأنفون من التعبير بها واصطناعها في أساليبهم سواء في النثر كان ذلك أم الشعر . ويسمو بعضهم عنها إلى أفق أعلى فيه الفصاحة والجزالة .

في حين أن بعض الخواص والفصحاء هؤلاء ، يرى أحياناً في بعض هذه العبارات والأمثال ملاحظة ، أو تضطره مناسبة ، فيستعملها بين كلامه . فينصب بذلك لنفسه شركاً يقع فيه ، يتصيد من خلاله النقاد وحفاظ الفصيحة . مع أنه يفصحها قبل استعمالها ويضفي عليها ثوباً من الإعراب . وإن لم يستر هذا الثوب عاميتها .

والشعب المصري في عصر المماليك كانت لغته في مخاطبه ، العامية المحرفة عن الفصيحة ، التي بها لوثة من التركية . وكانت - ولاريب - ملأى بالعبارات والأمثال السوقية .

ولا يمكننا لا نستطيع أن نحكم حكماً قاطعاً على عبارة معينة أو مثل معين ،
بأنهما من وضع عصر بعينه ، إذ ليست لدينا نصوص تاريخية ولا صوتية كافية
تمدنا بالدليل القاطع في هذا الموضوع .

غير أننا على ضوء ما نعرفه من عامة زماننا ، وقياساً على ما نفهمه من
عباراتها وأمثالها ، نستطيع أن نحكم على عبارة ما ، أو مثل ما ، وردا في نص
من أحد العصور ، بأنهما كانا حينذاك عامين أو سوقيين .

وعلى هذا الأساس نستطيع القول إنه ما من شاعر من شعراء العصر
المملوكي إلا والتاث شعره بعبارات عامة وأمثال سوقية كثيرة . وندر أن سلم
أحدهم من العيب جملة . .

ونقول « هذا العيب » ، لأننا من أنصار الفصحى ومن المتعصبين لها والحريصين
عليها ، والداعين إلى استخدامها حتى في لغة التخاطب والمحادثة . . .

غير أن ذلك لا يمنعنا تعليل هذه الظاهرة - ظاهرة بروز العامة في الشعر
الفصيح - تعليلاً مقبولا مستساغاً ، فيه عدل وإنصاف ، لا ظلم وإجحاف .
ويكون هو التعليل الحق الذي لازيف فيه ولا باطل .

ذلك لأن بعض النقاد ينعى على الشعراء ، استخدامهم شيئاً من عامى عصرهم ،
وينسب ذلك إلى ضعف ثقافتهم ، وضيق معجمهم اللغوى ، وقرب أفقهم الأدبي
حتى إن من بينهم شعراء أميين لا يقرءون ولا يكتبون . . .

وليس استعمال العامى دليلاً على ذلك ، ومن الحق أن تهم شعراء فحولا
محببين أمثال شهاب الدين الحلبي ومحيي الدين بن عبد الظاهر ، وشهاب الدين بن
فضل الله العمرى ، وجمال الدين بن نباتة المصرى ، وصلاح الدين الصفدى ، وتقي
الدين بن حجة الحموى ، بضعف الثقافة أو ضيق المعجم أو بغيره . وما منهم إلا
وفى شعره عبارات وأمثال سوقية .

وإذا كان من بين شعراء العصر أميون ، فلا طعن على شاعريتهم من هذه الناحية . لأن الأمية لا تكبت الشاعرية ولأن شعراء الجاهلية كانوا أميين ، ولم يطعن فيهم طاعن ، لا مبيتهم وقد ألمعنا إلى ذلك .

والتعليل الذى ندين به ، أن شعراء العصر نشئوا فى بيئات شعبية ، وهى بيئات عاشت أكثر حياتها فى شبه عزلة وانقطاع عن البيئة الحاكمة المستعالية . ولم تمكن سياقات الحياة - لكثير من هؤلاء الشعراء أن يعيشوا بعيدين عن بيئات الشعب وعوامه . فلا غرابة أن تأثروا بعباراتهم وأمثالهم ، ورسخت هذه العبارات والأمثال فى ألسنتهم وجرت فى منطقتهم . وتهاووا إليها فى شعرهم الفصيح تأثرا بذلك أو تفكها بها واستطابة لها ، وليكنوا أدنى ، باستخدامها ، إلى نفوس العامة وقد استخدموها بعد تفصيحها .

لقد استطاع الشعراء بذلك أن يكونوا ، فى أساليبهم ، أدنى إلى تمثيل جمهورهم وأدل على بيئتهم ، من كثير من شعراء العصور الأدبية الأخرى .

والآن نسوق إليك نماذج مما وقع للشعراء من عبارات وأمثال سوقية . فمنها :

ما نظمه الشاعر على بن برد بك . فى صديقه بدر الدين الدميرى « محمد بن يوسف المتوفى عام ٨٨٧ هـ » ، موريا عن « كتكوت » ، وهو لفظ كان يطلقه الناس على الدميرى المذكور . قال :

إن الدميرى صديقى فلا أسمع فيه قول واش ولاح
ولا أرى كالغير تقبيحه بل هو عندى من ملاح الملاح
والنسكة واللفظ العامى فى قوله « ملاح الملاح » أى من الكسكايت .

و « ملاح الملاح ، نداء ينادى به باعة الكتاكيت ، عليها . ولا يزال نداء مستعملا في هذا المعنى حتى يومنا .

وما نظمه الكاتب المنشي الكبير والشاعر البارع القدير محي الدين ابن عبد الظاهر :

يارب كأس صرت من شربها من بعد رشفي ريق معشوق
ملتهب الأحشاء نارا لأن شربتها منه على الريق^(١)

والشطر الثاني تعبير عامي ويتضمن تورية لطيفة . ويقصد به أنه شرب الكأس بعد رشف ريق معشوقه ، وكان الريق أحلى وأعذب وأجمل إطفاء لنار الأحشاء من الكأس - أما المعنى العامي وهو غير المراد فإنه شربها قبل أن يطعم شيئا . والتعبير المذكور هو « شربها على الريق » .

وما نظمه جمال الدين بن نباتة في الشكوى :

قل عوني على الزمان فأصبحت صبورا على مراد الزمان
حابس اللفظ واليراع عن الناس فلا من يدي ولا من لسان^(٢)

وفي الشطر الثاني عبارة عامية وهي « لا من يدي ولا من لسان » ومعناها ضعيف الحيلة . ويريد بها أنه لم يعد يصل إليهم من يده مكاتبة ولا من لسانه حديث . وفي البيت لف ونشر ، وفيه اكتفاء أيضا .

وما نظمه شمس الدين بن دانيال الموصلی في شكوى حظه ، ويذكر أنه باع حماره وعبده معا ، فأصبح بذلك فقيرا لا يملك شروى نقيير ولا قطمير . قال :

(١) خزانة الأدب ص ٢٥٥ .

(٢) ديوان ابن نباتة ص ٥٣٦ ،

ما عاينت عيناي في عطقتي أقل من حظي ومن بختي
قد بعث عبدي وحماري وقد أصبحت لا فوق ولا تحتي (١)

والبيتان معا ، شر بان بروح العامة . ولا سيما قوله « أصبحت لا فوق ولا تحتي » ، فهي عبارة عامة لا تزال تتردد في العامة حتى يومنا هذا . يعبرون بها عن نفاق المال والجاه .

وفي البيت الثاني لف ونشر ، وفيه اكتفاء أيضا . وفيه مجانة يفظن إليها اللبيب . . .

وما نظمه زين الدين بن الوردى متغزلا في « تاجر مليح » :

وتاجر شاهدت عشاقه والحرب فيما بينهم سائر
قال : علام اقتتلوا هكذا قلت : على عينك يا تاجر (٢)

والبيت الثاني عامى التعبير وذلك في قوله : « علام اقتتلوا هكذا » . وفي قوله : « على عينك يا تاجر » ، ولا تزال عوام بلادنا ترددهما حتى اليوم . والعبارة الثانية حملها الشاعر بما مهد في البيت الأول ، تورية معناها القريب « صراحة وعلى المكشوف دون موارد وخفاء » ، والمعنى البعيد المراد « بسبب عينك الساحرة أيها التاجر المليح ، وما فيها من فتنة » .

وما نظمه صلاح الدين الصفدى يصف جرة خمر :

وجرة قدموها تنفي الهموم الحزينة
بسكر عروس جملوها والراح فيها كمينية

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٤٧ وديوان ابن الوردى .

شممت طينة فيها فرحت سكران طينة (١)

وقوله : « سكران طينة » تعبير عامي تستعمله العامة حتى اليوم ، ومعناه « سكران جداً » ، وتدل على المبالغة في السكر لكثرته أو أصالة الخمر . ومهد له الشاعر بقوله « شممت طينة فيها » فحملته التورية .

وما نظمه زين الدين بن الوردي أيضاً في لاميته المشهورة :

واهجر الخمرة إن كنت فتى كيف يسعى في جنون من عقل (٢)

وعبارته « إن كنت فتى » عامية إذ يريد بها بالضبط معنى العبارة العامية « إن كنت جدع » . أي شهما عاقلاً ، وذلك بدليل الشطر الثاني .
وليس من معاني « الفتى » الشهم أو العاقل ، إلا بتجاوز أو لزوم . والفتى هو الشاب السخى الكريم ، والفتوة الكريم .

والذي أبرز عامية التعبير هنا . وضع العبارة في صورة الشرط . فإن الشاعر شرط هجر الخمرة بحالة الفتاء . وهي حالة موقوتة . والشاعر — ولا ريب — يريد لها نصيحة غير موقوتة ومن هنا فسرنا قوله « إن كنت فتى » بمعنى « إن كنت جدع » العامية ، فهي مرادفة لها .

وما نظمه ناصر الدين بن النقيب يشكو نحول جسده :

يقول جسمي لنحولي وقد أفرط بي فرط ضنى واكتئاب

فعلت بي يا سقم مالم يكن يلبس والله عليه الثياب (٣)

وقوله : « يلبس عليه الثياب » تعبير عامي شائع تردده النسوة بمعنى « لا يطاق ولا يحتمل » ، وحماها الشاعر تورية ، والمعنى البعيد المراد « النحول » فالسقم أنحل جسده حتى أصبح غير صالح لحمل الثياب .

(١) تأهيل الغريب ص ١٣٠ ورياض الألباب لشمس الدين - مخطوط بمكتبة الأزهر ورقة رقم ٧٩

(٢) ديوان ابن الوردي ولاميته ، (٣) فوات الوفيات ج ١ ص ١٥٣

وما نظمه أيضاً جمال الدين بن نباتة متغزلاً :

سألت النقا والغصن يحكى لناظرى روادف أو أعطاف من زاد صدها
فقال كشييب الرمل ما أنا حملها وقال قضيب البان ما أنا قددها (١)

وفي البيت الثانى توريتان هما : « ما أنا حملها ، و « ما أنا قددها ، وهما تعبيران عاميان ، الأول بمعنى « لا أستطيع بحاراتها ومنافستها ، والثانى بمعنى « لست مثلها ، وهما متقاربان فى المعنى أو لازمه .

وقد استخدمها الشاعر بلباقة وبراعة ورعاية نظير جيدة . فقد قدم لذكر « الحمل ، بذكر « كشييب الرمل ، وهو مناسب له . وقدم لذكر « القد ، بذكر « قضيب البان ، وهو مناسب له أيضاً . ومراده بالقد الجسم وطوله وامتداده .

والمعنى : ما حملى كحملها فى ضخامته ولينه وما قدى كقددها فى طوله وامتداده واستقامته .

وإصنى الدين الحلى فى معرض الغزل ، يصف الصباح :

والصبح قد أخلقت ثوب الدجى يده وليته جاء للعشاق بالخلق (٢)
وفي الشطر الثانى تعبير عامى . وقد مهد له الشاعر تمهيداً سائغاً ، وهو قوله « أخلقت ، فى الشطر الأول ، ومراده بالعبرة « لبت الليل جاء بأثواب خلقة ستر بها العشاق ، .

وما نظمه شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى ، يهجو صلاح الدين الصفدى لسرقته الشعرية :

إن ابن أبيك لم تزل سرقاته تأتى بكل قبيحة وقبيح
نسب المعاني في النسب لنفسه جهلا فراح كلامه في الريح (١)
والتعبير العامى هو قوله : « فراح الكلام في الريح » ، ومعناه أنه ذهب عبثاً
دون جدوى وتطايير ولم يثبت . وفيه تورية . والمعنى القريب أنه أراد أن يصف
النسب فوصف الريح ، فكأنه لم يوفق في وصفه .
والذى أكسب التعبير قوة التورية ، هو المعنى العامى الذى يحمله .

وما نظمه سراج الدين الوراق يتغزل :

ومفهمف عنى يميل ولم يعمل يوماً إلى فقلت من ألم الجوى
لم لا تميل إلى يا غصن النقا فأجاب كيف وأنت من جهة الهواء (٢)
وشاهدنا في قول الشاعر : « أنت من جهة الهواء » . وهو تعبير عامى ،
معناه هنا : أن عاشق الغصن يقف فى مكان يمر به الهواء أولاً ، ثم يمر على غصن
النقا فيميله بعيداً عن عاشقه ولا يمكن أن يميل الغصن إلى عاشقه أو مخاطبه ،
وهو بهذا الوضع .

وفى التعبير تورية . والمعنى القريب هو ما أشرنا إليه ، والبعيد أنه من جهة
الهوى - لا الهواء - أى من جهة العشق والحب ، لذلك فهو يتأبى على
الميل إليه . .

وما نظمه برهان الدين القيراطى فى شكوى الهجر :

يا هاجرا أوقعنى هجره وصده فى حالة صعبة
أخذت قلبى بالتجنى وما تركت لى منه ولا حبة (٣)

(١) خزانة الأدب باب التورية وباب السرقات . (٢) خزانة الأدب باب التورية .

(٣) تأهيل الغريب ص ٧٣ .

وفي عجزى البيتين عبارات عامية . وفي قوله « حبة » تورية ، يربد حبة القلب
وسويداءه . ورى عنها بمعنى « حبة » وهو « قليل » .

وما نظمه ناصر الدين بن النقيب :

ودعهم ثم انثيت بحسرة تركت معالم معهدى كالبلقع
ورجعت لا أدري الطريق ولا تسلى رجعت عداك المبعضون كرجعى (١)
والشطر الأخير مفصح العبارة العامية « رجعت رجعة الأعدى » . ومعناها
أنه رجعت فى حالة يرثى لها كما يرجع الأعدى المهزومون . أو كما ترجو أن يرجع
أعدائك . - وفى شطر البيت دعاء على الأعداء .

وما نظمه شرف الدين البوصيرى صاحب البردة . وذلك فى قصيدته التى يشكو
فيها إلى أحد الوزراء حال أسرته :

فى قلة نحن ولكن لنا عائلة فى غاية الكثرة
أحدث المولى الحديث الذى جرى لهم بالخيطة والإبرة (٢)
والبيتان - بل والقصيدة - تتراءى فيها عامية التعبير . وتبدو فى البيتين
فى قوله « فى غاية الكثرة » بمعنى كثيرة العدد جداً . وفى قوله « جرى بالخيطة
والإبرة » أى جميعه . ولا يزال عوام بلادنا يستخدمون هذا التعبير - أو بالخيطة
والنخياط - فى المعنى نفسه .

وما نظمه شمس الدين بن دانيال الموصلى فى إحدى قصائده المأجنة :

وإذا ما خلوت فى خلوة المسجد قل للضيوف : عندى ضيوف (٣)

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ١٥٤ .

(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ٥٥٨ ، (٣) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٣٩ .

والعامية بادية في قوله : « قل عندى ضيوف » .

وما نظممه جمال الدين بن نباتة في آخر قصيدة إلى صفي الدين الحلي في المعاتبة الإخوانية :

زوجتنا حماة نعمى يديه فغدا كلنا يحب حماته (١)

والعامية بادية في قوله : « يحب حماته » . وقد أخرجها مخرج التورية : والمعنى البعيد اسم المدينة « حماة » .

وما نظممه شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي :

لئن سددت باب العتت عني بما أبديته فالله يفتح
وإن ألمحت يوما ما بذنب فشلك من يرى ذنبنا ويصفح (٢)

والعبارة العامية قوله « فالله يفتح » . وهي كثير الاستعمال في الأسواق ومقامات البيع والشراء ، وتحمل معنى « الرفض وعدم الرضا » . وهي تحمل هنا تورية . ومعناها الفريب أن الله يفتح باب العتاب ، ورشحه بقوله « سددت باب العتب » . والمعنى البعيد المراد هو ما أشرنا إليه أولا . وقد حملها التورية المعنى الذي تستعمل فيه في العامية .

وما نظممه صلاح الدين الصفدى يتغزل :

أنفقت كنز مدائحي في ثغره وجمعت فيه كل معنى شارد
وطلبت منه جزاء ذلك قبلة فأبى وراح تغزلى في البارد (٣)

(١) ديوان ابن نباتة ص ٢٣ .

(٢) ديوان ابن أبي حجلة المغربي - مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٣) تأهيل الغريب ص ٨٤ .

والشاهد في قوله : « راح في البارد » ، وهو تعبير عامي معناه « ذهب بغير فائدة ردون جدوى » ، — وفي رأينا — أن هذا المعنى هو المعنى المراد من التورية بهذا التعبير — والمعنى الآخر أن تغزله انحصر في ثغر حبيبه العذب البارد . ويمكن أن يحمل لفظ « راح » معنى استمر واطرد ، ومعنى ذهب ولم ينفع .

وما نظمه بدر الدين بن صاحب يرد على لائم ويتغزل فيه :

ولائم زاد لوما في أسود أشتهيه
وقال : أسود تهوى فقلت : عيناك فيه (١)

وقوله : عيناك فيه . تعبير عامي . ومعناه « أنك تشتهيه . أو أنك تحسده » . وورى به عن معنى آخر وهو أن عيني اللائم سوداوان ، انتقل سوادهما إلى هذا الأسود ، فزينه وجمله وحبيه — وهو تعليل لطيف .

وبعد فهذه أمثلة متعددة — وهناك أمثلة أخرى كثيرة — تدل على مدى ما كان في الشعر الفصيح من عبارات وأمثال عامية .

ونحن — كما أشرنا — ننظر إليها ، أو إلى ظاهرها هنا ، من زاوية معينة . أعني من ناحية دلالتها على مدى تأثير شعراء الفصيحة بعامة زمانهم ، ومدى تأثير هذه العامية وسلطانها على هؤلاء الشعراء .

وباستجابة الشعراء لهذا التأثير وانصياعهم له ، وإنتاجهم بوحى منه ، عاونوا على إبراز إقليمية الشعر بصورة أخرى وبمظهر جديد .

ونحن نرى أن هذه الإقليمية التي أخذت تبدورويدا رويدا في الأدب العربي المصري ، منذ زمن بعيد ، قد لمعت وبرزت وقويت في هذا الأدب ، وفي هذا العصر الذي نورخه .

وما ظهور الأمثال السوقية والعبارات العامية فيه حينذاك ، وفي هذا النطاق
الواسع إلا برهان قوى على توطد هذه الإقليمية وهى بروز خصائص الإقليم
فى أدبه ، وبها يتميز عما عداه من آداب الأقاليم الأخرى .

على أن لهذه الأمثال والعبارات السوقية المترددة فى الشعر الفصيح ، أو فى
الأدب بعامة ، دلالة أخرى تبين لنا طرفا من ارتباط لغتنا العامية الحاضرة بلغة
آبائنا وأجدادنا العامية ، ومدى تطور هذه العامية وتحولها حتى وصلت إلينا .
وكذلك تفصح عن طريقة تصورهم للمعاني وتصويرهم لها ، وعلى قدرتهم فى
استخدام الأساليب المختلفة فى المناسبات المتعددة . ثم على مبلغ نصيبنا نحن
من هذا كله ، ومبلغ الارتباط بيننا وبينهم فى ذلك ، ومدى تطورنا وتحولنا فى هذا
التصور والتصوير .

٩ - الخروج عن اللغة وكثرة الضرورات الشعرية

والحديث عن الأمثال والتعبيرات السوقية يجرنا إلى ذكر عيب من العيوب
التي لحقت الشعر المملوكى وهو الخروج عن اللغة .
ونقصد به استخدام اللفظ العامى المخرف عن العربية ، واللفظ الدخيل غير
العربى ، واللحن وهو عدم رعاية قواعد النحو ، وعدم التزام الإعراب .
وكذلك الانحراف عن الاستعمال العربى الصحيح ، والاشتقاق دون قاعدة
صحيحة . إلى غير ذلك من ألوان الخروج عما تلتزمه العربية الفصيحة .

وهذه ظاهرة اتضحت فى أشعار الكثيرين ومنهم الفحول . ولدينا عليها
أمثلة وشواهد لا حصر لها .

ونعود إلى القول إن هذه الظاهرة دعت بعض النقاد إلى رمى الشعراء ، بمن
التأت شعركم بهذا العيب أو لم يلتفت ، بضعف الثقافة وضيق الأفق وقلة بضاعتهم

من العربية الصحيحة ، حتى إنهم لم يميزوا بين الفصيح وغير الفصيح . . . إلى آخر
 ما رددناه في الفصل السابق ، وهو فصل الحديث عن الأمثال والتعبيرات السوقية .
 ولنا من أنصار استخدام العامية في الأساليب الفصيحة مطلقا ، إذ أن هذا
 — في رأينا — يشوه جمالها ويغض من محاسنها . وهو خطر إذا استشرى وامتد
 قضى على الفصيحة .

لذلك عينا على الشعراء استخدام الأمثال والتعبيرات العامية . ولكننا — مع
 هذا — عللنا له ، ونفينا عنهم ما وصموا به من جرائم ، واتخذناه دليلا على تمكن
 الصلة بينهم وبين بيئتهم ، وعلى اتجاههم إلى تمثيل بيئتهم في أساليبها ، إلى آخر
 ما تحدثنا إليك به .

ولعل في جملة الأسباب التي دعتنا إلى ذلك ، أنهم فصحوا هذه الأمثال
 والتعبيرات وأعربوها .

أما أنهم يلحنون أو يضعون اللفظ عاميا أو دخيلا كما جرت به ألسنة العوام ،
 فهذا ما نأباه عليهم ونعيبهم به . ونود لو برئوا منه . وبخاصة فحولهم ، حتى لا يبدو
 في شعرهم — كما بدا — كلفا في صفحة البدر .

ولكن ينبغي ألا نتخذ هذه الظاهرة دليلا حاسما على الضعف الثقافي أو قلة
 البضاعة من العربية الصحيحة . فإن تاريخ بعضهم ونشأته وآثاره الأدبية تكذب
 هذا الدليل .

وإنما التأت شعرهم بهذا العيب لشدة انطباعهم بطابع العامة ، وانفعالهم
 بانفعالها ، بالإضافة إلى ما أغرموا به من فسكاهة أو دعاية أو مجانة أو بديع
 وصناعة ، يدفع ببعضهم إلى الخروج عن اللغة والتزاماتها ، ليصل بهذا الخروج
 إلى تحقيق هدفه .

ومن اللطائف التي تساق في هذا المقام ، تصريح جمال الدين بن نباتة المصري
 — وهو فن زمانه وشاعر أوانه — بتعمد اللحن لتستقيم القافية ، مع التعليل
 (م ٣١ - عصر المايك)

الأدبي الطريف ، حيث يقول لنا في قصيدة تائية جيدة جزلة يرد بها على عتاب صفي الدين الحلي :

ساقى الراح بادكار لقاه لا عد منا ذاك اللقا وسقاه
هات كأسى وإن لحنت من السكر فلا تلحنى إذا قلت هاته (١)
وقد لحن في قوله « هاته » بفتح التاء طوعا للقفائية . وهو يعرف أنه يلحن إذا
قال هذا . ويعلمه بسكره ، ويعتذر ويطلب عدم اللوم . فلا لوم عليه إذن
ولا تثريب . . .

ومن الشواهد في هذا الباب :

قول إبراهيم المعمار في وصف مغن ومشبيب :

مغنى نأفسه مشبيب لما جلس
فذاك لان قوله وذا تكلم بنفس (٢)
ترى الشاعر قد أثبت ياء « مغن » وسكن ميم « تكلم » .

وقد علق ابن حجة على هذين البيتين بقوله : « سكون تكلم يغتفر له . فإن
الجماعة ساحوه في جميع اللحن لغرابة نكته الأدبية » .

ولم يشر ابن حجة إلى لحن الشاعر في قوله « مغنى » . ولكنه نبه إلى أن
المعمار - وهذا طريف - يعرف عن نفسه اللحن ، وأشار إلى ذلك في بيتين
فكاهيين ناقدين ، هما :

يقولون هذا ما له عربية وليس نراه للنحاة يحارى
فقلت لهم من أين لى عربية وما فزت فى الدنيا بغير حمار (٣)

(١) ديوان ابن نباتة ص ٧٢ قافية التاء .

(٢ ، ٣) تأهبل الغريب : فصل فيما ورد من الغريب في مدحهم « مدح المغنين » .

وقد كان المعمار أمياً ، فله عذره في اللحن . وبدهى أنه كان أمياً لا كأمية شعراء الجاهلية . ذلك لأن أميتهم كانت فصيحة معربة ، وأميته لاجة في العامى والدخيل لفظاً وأسلوباً .

وفى بيتي المعمار دليل ناطق على أن أهل عصره وأدباءه كانوا يؤخذون الشاعر إذا لحن وخرج عن اللغة .

ومن الشواهد قول نصير الدين الحماي يصف شخصاً ويتفكه :

رأيت شخصاً آكلاً كرشة وهو أخو ذوق وفيه فطن
وقال : ما زلت محباً لها قلت : من الإيمان حب الوطن (١)
واللفظ « كرشة » عامى ، وعريبه « كرش » على مثال « كتف » .

ومنها قول أبى الحسين الجزار المصرى يصف أحد الأتراك :

وكم قابلت تركياً بمدحى فكاد لما أحاول منه يحنق
وبلطمنى إذا ما قلت « أطن » ويرمقنى إذا ما قلت « يرمق »
وتسقط حرمتى أبداً لديه فلو أنى عطست لقال « يشمق » (٢)
والكلمات : أطن . يرمق . يشمق ، غير عربية . فهمى دخيلة .

ومنها قول زين الدين بن الوردى فى ليلة عناق ، وفى صبح حاسد :

قلت : وقد عانقته عندى من الصبح قلق

(١) فوات الوفيات ترجمة النصير الحماي .

(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٩٩ .

قال : وهل يحسدنا قلت : نعم . قال : انفلق (١)

ولفظ « انفلق » عربى فصيح . ولاكنه انحرف إلى العامية وأغرق كما هو بنطقه دون معناه . إذ أصبح معناه « دعاء على الحاسد مثلاً أو العذول والعدو » . وفى اللفظ هنا تورية معناها « طلع الصبح » وهو غير مراد . والمعنى الثانى المراد ، هو الدعاء على الحاسد بمعنى « یرن ویطق » كما یراد فى العامية . — والملاحظ أن لفظ « انفلق » هنا ، بهذا المعنى الثانى ، فعل ماض ، وحقه أن يكون مضارعاً .

ومنها قول شمس الدين الواعظ الواسطى من قصيدة يتذكر فيها أيامه الماضية :

فلله ما أحلى قديم حديثكم وأطيب عندى من عشائى وغدوقى
عسى تسمح الأيام تجمع شملنا وترجع أوطارى ولذتى التى (٢)
حذف الشاعر صلة الموصول فى الشطر الأخير بعد قوله « التى » . وهى
لون من البديع فى نظره ، وهو الاكتفاء .

ومنها قول زين الدين بن الوردى يهجو ويتفكه ساخرأ من أحد القضاة :

لا تقصد القاضى إذا أدبرت دنيأك واقصد من جواد كريم
كيف ترجى الرزق من عند من يفتى بأن الفلس مال عظيم (٣)
وفى الشطر الثانى عدى الفعل « اقصد » بحرف الجر « من » ، وحقه أن
يتعدى بنفسه ولعل الشاعر حذف المفعول به . ومراده : اقصد الرزق أو
المال مثلاً .

(١) ديوان ابن الوردى ص ٢٦٥ ط الجوائب .

(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٦٧ (٣) ديوان ابن الوردى ط الجوائب .

ومنها قول شرف الدين البوصيرى من قصيدته التى ينقد فيها مستخدمى
الدواوين فى زمانه :

وأقلام الجماعة جائلات كأسياف بأيدي لاعبيننا
وقد ساومتهم حرفا بحرف وكل اسم يخطو منه سيدنا (١)

فى الشطر الأخير حذف نون الرفع من « يخطون » بغير ناصب ولا جازم .
وقد ألقاه إلى ذلك الضرورة الشعرية .

ومنها قول الشاعر الكبير جمال الدين بن نباتة فى المديح :

أخذ الإمام مديحى فى كل صاحب رتبة
قاضى القضاة الملبي تاج السراة الألبسة (٢)
جمع الشاعر « لبيب » على « ألبة » وصوابه « الألباء » .

ومنها قول مجير الدين بن تميم يصف النرجسة :

شبهت نرجسة أهدى إلى بها خلى وقد جمت فى التشبيه بالعجب
كفها من الفضة البيضاء ساعدها زمرد وسطه كأس من الذهب (٣)
الشاهد فى قوله « أهدى إلى بها » وصوابه « أهداها إلى » .

ومنها قول ناصر الدين بن النقيب فى وصف الحرب :

ولما تراءينا الفرات بخيلنا سكرناه منها بالقوى والقوائم
فأوقفت التيار عن جريانه إلى حيث عدنا بالغنى والغنائم (٤)

(٢) ديوان ابن نباتة ص ٥١ ، ٥٢

(٤) فوات الوفيات ج ١ ص ١١١

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٥٧

(٣) تأهيل الغريب ص ١١١

الشاهد في قوله « تراءينا الفرات » عدى الفعل ، وحقه أن يتبعه الجار فيقول :
تراءينا على الفرات ، ، وقد يكون الشاعر ضمنه معنى « قابلنا » المتعدى ، وهو
بعيد . — وهذا وذاك ضرورة لجأ إليهما الشاعر .

وقوله : « سكرناه » بفتح السين والكاف ، معناه « سددهناه » وإذا كان من
السكر ، فهو لازم ويكون الشاعر قد عداه إلى المفعول . وهي ضرورة أخرى .

ومنها قول صدر الدين بن الوكيل المصري في إحدى خمرياته في سياق وصف
السكاس :

وإن أقطب وجهها حين تبسم لي فعند بسط الموالى يحسن الأدب

عاطيتها من بنات الترك عاطية لحاظها الأسود الغلب قد غلبوا (١)

في الشطر الأول حرك باء « أقطب » مع أنها مجزومة بإن الشرطية . وهو لحن
ألجأته إليه الضرورة . وفي قوله « غلبوا » عدى الفعل بحرف الجر فقال قبله
« الأسود » . وفيه واو الجماعة تعود على غير العاقل .

ومنها قول تقي الدين بن حجة الحموى في سياق لغزه عن « قصب السكر » :

منعمة لقاء مفضومة الحشا تكاد بأن تنقد من رقة الخصر (٢)

زاد الشاعر باء الجر في خبر كاد ، وهي ضرورة .

ومنها قول صفي الدين الحلي في قصيدة عتاب إلى ابن نباتة ، ويمدحه :

وهبتسه العلياء هممة قلب ظهرت من شوائب العيب ذاته (٣)

(٢) تأهيل الغريب ص ٨٩

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٣١٧

(٣) ديوان الحلي حرف التاء باب الإخوانيات ،

وصوابه ، وهبت له .

ومنها قول سراج الدين الوراق يهني برهان الدين الخضر بن الحسن
السنجاري باستقراره وزيار الديار المصرية .

تمن بخلاعة لبست جمالا بوجه منك سمح يجتلوه
وقال الناس حين طلعت فيها أهذا البدر قلت لهم : أخوه (١)
حذف نون الرفع في قوله « يجتلوه » بدون مناصب أو جازم .

ومنها قول تقي الدين السبكي في سياق قصيدة أجاب بها على سؤال عن السماع
والغيبة - عند المتصوفة على ما يبدو - قال :

والعارف المشتاق إن هو هزه وجد فقام يهيم في سكرات
لا لوم يلحقه ويحمد حاله ياطيب ما يلقي من الذات
إن نلت ذا يوما فقد نلت المنى وغنيت فيه عن فتاوى الفائق (١)
والشاهد في قوله « الفائق » صاغه من الثلاثي ، وحقه من الرباعي
فيقول « أفقي » .
هذا والأمثلة كثيرة .

وقد رأيت فيما سقناه من الأمثلة أن الشاعر أحيانا يخرج عن اللغة والتزاماتها
بدافع ضرورة الشعر ، فيلجئه الوزن إلى زيادة حرف جر ، أو تعدية بغير
الجار ، أو حذف نون الرفع ، أو نحو ذلك .

والضرورات الشعرية تسوق أحيانا إلى مد المقصور ، أو قصر الممدود —

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤١ .

(٢) طبقات الشافعية للتاج السبكي ج ٦ ص ١٦٣ .

مثلاً — أو إلى صرف الممنوع من الصرف ، أو منع ما يصرف ، أو تحريك المجزوم ، أو نحو ذلك . وهذه ضرورات مباحة . ولا تعتبر خروجاً عن اللغة أو التزاماتها .

ومن الضرورات أيضاً زيادة الظروف وألفاظ القسم والتوكيد والشرط والأمراً مثلاً دون غاية بلاغية . وهى عيوب فى الشعر وأسلوبه وليست خروجاً عن اللغة والتزاماتها .

وقد وقعت هذه الضرورات فى الشعر المملوكى . وهى فى جملتها عيوب فى الشعر ، وإن لم تكن كلها خروجاً عن اللغة كما أشرنا .

على أن العروضيين أباحوا للشعراء أن يلجئوا إلى الضرورات — إذا احتاج الأمر — بشرط ألا تكون خروجاً عن اللغة ، وبشرط عدم الإكثار منها والاعتماد عليها .

ومن لطيف ما نظمه الشاعر المصرى الكبير ابن نباتة فى هذا المعنى قوله :
قالوا عهدناك ذا شعر نلذ به ما باله قد تولى حسنه الآتى
فقلت من كثر ما أشكو به ضرراً والشعر يفسده كثر الضرورات (١)

ومن شواهد الضرورات الشعرية :

قول نور الدين الإسعردى فى قصيدته المأجنة التى يفضل فيها الخمر على الحشيش :

فدع رأى قوم كالدواب ولا تدر سوى درة كالكوكب المتوقد
دعاه الوزن إلى عدم تشديد باء «الدواب» وهى جمع دابة .

وقول ابن نباتة في غزله :

رب ليل زار فيه قمر خده المحمر بالأقمار شامت
ذو نطاق وسوار لم يدع ناطقا غيرهما عندي وصامت^(١)
سكن التاء في « صامت » للضرورة . وحقه النصب .

وقول ابن نباتة أيضاً :

حي له حب الشا اعليه هذا لعمر أبيك مع هذا فشا
قاضي القضاة وإنها لمكانة خطبت تقاه كما نشا وكما يشا^(٢)
في البيتين عدة ضرورات منها حذف همزة : الشنا . ونشا ويشا . ومنها أيضاً
القسم في قوله « لعمر أبيك » .

وقول شمس الدين الخياط « محمد بن يوسف » من قصيدته التي مدح بها
كمال الدين بن الزمكاني ويعارض تائيه ابن نباتة في مدحه :
عن منظر الروض يقنعني القريض وعن رقص الزجاجات تلهيني الحرات
عشوت منها إلى نور الكمال ولم يرد على خاطري دير ومشكاة^(٣)
الفعل « يقنعني » مرفوع وينبغي تحريك العين فيه بالضم . فسكنها الشاعر
للضرورة . فالبحر بسيط .

وقول بدر الدين بن الدماميني في سياق قصيدة ألغز بها في « قربة » :
تشدّ وكم في الأرض قار أمالها وصدق إذا ما قيل تملى وتسكتب

(٢) ديوان ابن نباتة حرف الشين .

(١) ديوان ابن نباتة ص ٧٨

(٣) طبقات السبكي ج ٥ ص ٢٠٥ .

والفظ « قار » هنا اسم فاعل من قرأ ، سهلت همزته وعومل معاملة المعتل .
فاشتق منه اسم فاعل عومل معاملة المنقوص .

وقول تقي الدين السبكي مر قصيدة ينصح فيها ابنه الأكبر :
واخش المهيمن وأت ما تدعو إليه وانتهى عما نهى وتزهّد (١)
والشاهد في قوله : « وانتهى » أثبت فيه حرف العلة - وهو الياء - مع
أنه فعل أمر مبني على حذف حرف العلة .

الأوزان والقوافي وما يتصل بها

من المناسب أن نختم هذا الباب بحديث وجيز عن الأوزان والقوافي
وما يتصل بها ، لما لها من الصلة الوثيقة بأساليب التعبير ، فهمي - في الواقع -
وعاؤها وإنائها . وهي - في الحق - الأسلوب الأول للشعر ، والقالب
الأساسي الذي على مقداره تصب الأساليب والتراكيب ، وبه تكتسب نصيباً
وافراً من الموسيقية التي لا طعم للشعر بدونها .

المطولات والمقطوعات :

وقبل أن نتحدث في صميم الموضوع يجب أن نشير إلى مطولات الشعر
ومقطوعاته ، وهي تمت إليه متاناً تاماً وبخاصة إلى القوافي .

وقد لحظنا في استقراءنا لشعر هذا العصر ، أن الكثير من شعرائه قصائد
مطولة تعد أبيات كل منها بالعشرات بل بالمئات أحياناً . وبينها الكثير
المبني على قافية واحدة . طرّقوا بها أغراض الشعر وأبوابه مع المحافظة على

مستوى الأسلوب ، في الجملة . وهذا دليل بارز على طول أنفسهم وتمسكهم من صناعاتهم وأصالة فنهم وواسع ثقافتهم .

ومن مطولانهم : بردة البوصيرى ، والبديعيات التى عارضتها . وتزيد أبيات كل بديعية على المائة . ومنها قصيدة « مصائد الشوارد » أو « نظم السلوك » لجمال الدين بن نباتة . وهى أرجوزة فريدة وصف بها الصيد والغنص فى وديان حماة ، وتقع فى أكثر من مائة وستين بيتا . وتائية فى مدح كمال الدين بن الزمايكافى وهى من أروع قصائده ومن أجود الشعر ، وتقع فى نحو مائة وعشرة أبيات . ولفخر الدين بن مكائس قصيدة جيدة فى وصف سرحة الليل فى نحو ستة وخمسين بيتا . وللشباب الظريف قصيدة فى مدح القاضى محيى الدين بن النحاس فى نحو ستين بيتا . ولصفي الدين الحلى عشرات القصائد المطولة مثبتة فى ديوانه ، ولتقى الدين حجة الحموى فى مدح المؤيد شيخ ، ومدح الناصرى بن البارزى عدد من المطولات .

ولا ننسى فى هذا المقام منظومات حقائق العلوم فقد بلغ بعضها مئات الأبيات .

أما المقطوعات فقد راجت فى هذا العصر رواجاً عظيماً ، وأقبل الشعراء على نظمها إقبالاً ملبوساً . بدافع حبهم لأصباغ البديع وصناعة التشبيه والتورية ، وبدافع حب الوصف والتصوير . فنتى سنحت لهم لفظة ينسبك معها لون بديعى أو يحلو به مجاز طريف أو تشبيه مبتكر ، عجلوا إلى نظمها فى البيت أو البيتين مثلاً . وأذكى بينهم هذه العجالة حب الابتكار والإبداع ، ورغبة المنافسة والتفوق ، والميل إلى التلمى والتسلى والمداعبة والمماجنة .

لهذا كله تعتبر مقطوعاتهم مجلى واسعا لفنيتهم الأصلية ، ودليلاً عليها وعلى حضور بديعتهم وحسن إيجازهم ودوام اتصالهم بصناعاتهم وانشغالهم بها .

لقد قيدوا بهذه المقطوعات خواطر شاردة وأخيلة كثيرة عابرة ، ومعاني
عدة جديدة وطرقوا بها أبواب المجون والفكاهة والغزل واللغز وغيرها .

ومن أخبار المقطوعات وأنباء رجالها أن زين الدين بن الوردى ، له كتاب
« الكلام على مائة غلام » ، وبه مائة مقطوعة لطيفة . وكتاب « الدرارى السارية
في مائة جارية » ، وبه مائة مقطوعة أخرى .

وروى في تاريخ الشاعر « زين الدين بن الرعاد » أن له مقطوعات كثيرة
نقل منها أبو حيان في كتابه « مجانى العصر » .

ومن شعراء المقطوعات « بدر الدين بن الصاحب » ، فقد روى أنه أجاد
المقطوعات وأكثر منها وأفرد لها ديوانا خاصا سماه « مقطعات النبل » .

ومنهم « شهاب الدين بن المطار » ، و « أحمد بن مسعود » و « تقي الدين السبكي »
و « شمس الدين الدمشقي » .

وما من فحل من فحول شعراء العصر إلا وله عدد كبير من المقطوعات .
ومنهم : الجزار والوراق وابن النقيب وابن عبد الظاهر وابن نباتة والصلاح
الصفدى والتقى بن حجة وابن أبي حجلة والعلاء الوداعى والفخر بن مكاس
والبدر الدمامينى والبرهان القيراطى والشاب الظريف وسراج الدين المحار وغيرهم .

ونسوق إليك أمثلة من هذه المقطوعات :

من مفاكمات صفي الدين الحلى ومجائته قوله :

وليـلة زارنى فقيـهـ	فى رـشده لـيس بالفـقيهـ
رأى يـمـنـاى كـأس خـمـر	فـظـل يـنـأى و يـتـقـيهـ
فـقـلت : هـلا فـقـال كـلا	فـقـلت لـم لا فـقـال إيهـ

ما ذاك فنى فقلت عدل أنزه الكأس عن سفيه (١)

ومن اقتباسات الشاب الظريف وجناساه قوله :

كيف يذوق عاشق	حلاوة فى صبره
فأعجب لنور زهره	وأعجب لنور زهره
يا عاشقين حاذروا	من غدره ومكره
وطرفه الساحر من	شككم فى أمره
يريد أن يخرجكم	من أرضكم بسحره (٢)

ومن اقتباسات علاء الدين الوداعى ومطابقاته قوله :

الزهر فى الأكام راح مقطباً	والريح قد خطرت عليه بذيلها
وغدت تبشره بإقبال الحيا	حتى تبسم ضاحكاً من قولها (٣)

ومن مراجعات سراج الدين الوراق وتوريته بلبقه قوله ، وقد علاه الشيب :

وقالت ياسراج علاك شيب	فدع لجديده خلع العذار
فقلت لها : نهار بعد ليل	فما يدعوك أنت إلى النفار
فقلت : قد صدقت وما علمنا	بأضيع من سراج فى نهار (٤)

ومن تشبيهات سراج الدين المحار ، يصف قنديلا ، قوله :

يا حسن بهجة قنديل خلوت به	والليل قد أسبلت منا ستاره
أضاء كالنور الدرى متقددا	فراق باطنه نورا وظاهره

١- ديوان الصفي الحلى ط بيروت ص ٣٣١ ٢- ديوان الشاب الظريف ص ٣٨

٣- الوفيات ج ٢ ص ١١٢ ٤- فوات الوفيات ج ٢ ص ١٣٥

تزيده ظلمة الليل البهيم سنا كأنما الليل طرف رهو باصره (١)
ومن تضمينات ابن نباتة واكتفاءاته ، قوله يتغزل ويمدح ابن العديم :
جن الدجا واشتقت حسنك وقرعت يا ذا العذل سنك
يا عاذلى فى الحب أو يا ليل سهدى ما أجنك
عشقى كجور ابن العديم م نخل فى السلوان ظنك
قاضى القضاة أبا التقي لا يعدم الطلاب منك
أكدت فى فى الشنا وفى الندى والعلم فنك
فالناس تعلم أننى فى النظم أر فى الفضل أنك
وفلاشكرنك ما حييت م وإن أمت فلتشكرنك ، (٢)

الأوزان القديمة :

وقد بان لنا من ترادف الأمثلة والشواهد أن الأوزان القديمة المعروفة ،
كانت - فى الغالب - قوالب الشعر وموسيقاه الملتزمة . سواء أ كان ذك فى
مطولانهم أم مقطوعاتهم . وعلى نمط مما ورثوه عن أسلافهم .
وبنسبة ما نظم الأقدمون من كل بحر ، نظموا هم أيضاً ، على وجه التقريب .
فكانت كثرة نتاجهم من الطويل والكامل والبسيط والرجز والوافر والرمل ،
فالمتقارب والسريع والمنسرح والمجثث ، فغير ذلك من بحور الشعر .
نظموا من هذه البحور كاملة ومجزوءة ومشطورة .

وانضرب لك أمثلة من شعر شاعر واحد هو جمال الدين بن نباتة ، مكتفين
به عن سائر الشعراء فى هذا المقام .

فمن الطويل قوله مهتماً بقدرم من الحج :

قدمت قدوم الغيث والحى مجذب وعدت كعود البدر والأفق غيمب

وسرت بك الأوطان فالغصن شاخ دلالا على الأنهار والروض معجب
ومن الكامل قوله متغزلا في صدر مدحة :

شب الحشا قول الكواعب شابا واهما لمن كواعبا وشبابا
ومضى الصبا ومن التصابي بعده صيرت للدمع الدماء خضابا
ومن البسيط قوله يخاطب دار لهوه ، في صدر مدحة :

سقى حماك من الوسمى باكره حتى تبسم من عجب أزاهره
يا دار لهوى لا واش أكانمه ولا رقيب بمغناه أحاذره
ومن الرجز قوله في مز دوجته « مصائد الشوارد » :

أثنى شذا الروض على فضل السحب واشتملت بالوشى أرداف السكب
ما بين نور مسفر اللثام وزهر يضحك في الأكام
ومن الوافر قوله ، في مطلع مدحة يمدح بها جمال الدين بن الشهاب محمود ،
يتغزل :

بدت ورنيت لواحظه دلالا فما أبهى الغزالة والغزالا
وأسفر عن سننا قر منير ولاكنى وجدت به الضلالا

ومن الخفيف قوله في الخمریات ، في مطلع مدحة يمدح بها ابن اليزدى :
من عذيرى من الطلا والأغانى وليال مرت على حلوان
ذهبت بالذى ملكت من الما ل كأنى سببكته فى القنانى
ومن الرمل قوله فى الغزل فى مطلع مدحة :

بأبى مائسة يثنى على قدما بان النقا إذ تنثنى
نطقت وابتسمت عن جوهر ياله فى فمها من معدن

ومن المتقارب قوله يخاطب معشوقته فى مطلع قصيدة :
غنيت بحسبك عن واصف وما كل غانية غانية

ووافقتني في طريق الردى حسام لو احظك العاديه
ومن السريع قوله في أول مدحه :

صيرني في كل راد أهم
من حظ قلبي منه هاء وميم
مبخل يشبه ريم الفلا وأطول شجوى من بخيل كريم

ومن المنسرح - وهو نادر في شعره - قوله يتغزل :

وغادة في جفـونها مرض في قربه لى الشفا من المرض
خوفنى الناس سهم مقلتها وما دروا أن سهمها غرضى
ومن مخلص البسيط قوله يصف جوادا :

وأدهم اللون حـدى فى جريه للورى عجائب
يقصر جرى الرياح عنه فكلها خلفه جنائب
ومن المجتث قوله يستعطف :

مولاي رفقا بصب صدعته بجفائك
لا تكسرن إناء مـلأته بولائك

ومن مجزوء الرمل قوله :

أيها الكامل قصرا وولاء وثناء
أحمد الله الذى قد جعل الشمس ضياء

ومن مجزوء الكامل قوله :

ماذا على ذى الحسن لو أفضى إلى إحسانه
ملك الملاح كما ترى والكل من غلمانه

ومن مجزوء الرجز قوله :

يا سيـدا حاز المعـا لى طولها وعرضها

لى جبة رفوت منها البعض إذ لم أرضها
فأعجب لها عتيقة دبرت منها بعضها^(١)

القوافى :

وعند حديثنا عن مطولاتهم أشرنا إلى أن بعضها يحتوى على عشرات الأبيات . وهى مبنية على القافية الواحدة . ويدل ذلك على المقدرة والتمكن وسعة المعجم .

ولم يقتصروا فى قوافيهم على الحروف السهلة الميسورة ، والكثيرة الدوران فى أواخر الكلمات ، كالباء والراء والذال واللام والميم والسين والفاء والقاف والنون . بل أقدموا على غيرها من الحروف الصعبة النادرة والشاقة مثل : الضاد والظاء والخاء والغين والشاء والزاي . إلا أن الإقدام عليها أقل من الإقدام على غيرها .

ومن نظم فى القوافى الصعبة : جمال الدين بن نباتة ، وصفي الدين الحلى ، وزين الدين بن الوردى . مع تمكنهم .

ومن نظم ابن نباتة :

فى قافية الشاء قوله فى مدح العلاء بن فضل الله العمرى :

أرى لعل رتبة وفضائل تقر لها هذى النجوم المواقث
فأحجم إجلالا عن القول واللقا ويبعثنى من سائق البر باعث
وأحلف ما فى الدهر مثل عليه ويحلف أهل العصر ما أنا حاث
وفى قافية الخاء قوله :

أخط سؤالى بالرقاع ولا أرى جفءك يا هذا بوصلك ينسخ
ويذبح جفنى بالدموع وما له سوى الشهر بعد الشهر فى البعد يسلمخ

(١) هذه النماذج جميعها من شعر ابن نباتة — راجع ديوانه فى حروف القوافى .
(م ٣٢ - عصر المماليك)

وفي قافية الذال قوله :

أفدى غزالا من الأتراك مقلته في صنعة السحر أعيت كل أستاذ
نبأذ عهد بذاك اللحظ يسحرفي يا حسرتي بين سحر ونبأذ

وفي قافية الشين قوله :

مذ قيل فرعك بالذرائب عرشا شرب المقيم كأس حبك وانثى
وبعض ما فعلت بقلبي في الهوى عيناك صار الليث صيدا للرشا

وفي قافية الصاد قوله :

ليهن حمى الشهباء قاض حوت به كالا على تفضيله اتفق النص
فلو مثلت كتب النحاة بنعته لما جاز أن يجرى على نعته النقص

وفي قافية الطاء قوله :

وأعيد كل شيء منه يعجبني كأنما هو مخلوق على شرطى
أجفانه السود لا يخطئ إذا رشقت سهامها وسهام الليل لا تخطئ

ومن قافية الظاء قوله في مدحة لبهاء الدين السبكي :

أعيد بالكهف ألاحظا مناقضة تخلص رقودا وهي أيقاظ
ومبسا لبهى الدر متسقاً كأنه لبهاء الدين ألفاظ

ومن قافية الغين قوله :

رشأ رشفت رضا به أو ثعلب ما للمحب إلى رضا بلوغ
حلو اللبى متمنع يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ^(١)

دار الشعراء — كما رأيت — في فلك الأوزان القديمة . ولكنهم منحوا
أنفسهم بعض الحرية والتحلل من ربقها ، فخرجوا بعض الخروج على ما رسمه
الخليل والأخفش . كما خرج الأندلسيون من قبلهم .

(١) الأبيات وما سبقها من ديوان ابن تباة — راجع حروف القوافي .

ومما يذكر أن جمال الدين بن نباتة له قصيدة ، يتكون كل شطر منها من
تفعيلة واحدة وزنها « مستفعلان » إحدى تفعيلات الرجز . والتزم في جميع
ضروبها وأعاريضها حرفاً واحداً هو حرف الراء . وقيل إنه اقتدى فيها بقصيدة
للشاعر المشهور « أسعد بن عمار » .

ومن أبيات هذه الأرجوزة النباتية قوله :

أفدى قر عقى قر ثم غدر لما قدر
فلا وزر ولا مفر يامن شهر سيف الحور
على البشر فما فتر حتى استعر وهج الفكر
ولو أمر ذاك الخصر من الثغر أطفأ شرر الخ (١)

ولعل من المناسب في هذا المقام ، الإشارة إلى ما ذكره « محمد بك دياب »
في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وهو يتحدث عن الرجز المجزوء ،
إذا قال :

« قال الزجاج : ولو جاء منه شعر على جزء واحد مقفى لاحتل ذلك ،
كقول عبد الصمد بن المعذل :

قالت أجل ماذا الخجل هذا الرجل حين احتفل أهدي بصل
فجاء بالقصيدة على « مستفعلان » . ومثله قول يحيى بن على المنجم :

طيف ألم بذى سلم بعد العتم يطوى الأكم
جاء بغم وملتزم فيه نظم إذا يضم
ويقال إن أول من انتزع مثل هذا « سلم الخاسر » في قصيدة مدح بها موسى
الهادى رابع خلفاء العباسيين وهى :

موسى المطر غيث بكر ثم انهمر أروى المدر
كم أعتسر ثم ايتسر وكم قدر ثم غفر . الخ

ثم قال : « ولم يسمع شيء من هذا عن العرب . وأقبل ما سمع لهم على جزئين » .

هذا ولم يذكر دياب بك ما نظمه جمال الدين بن نباتة . يرمى من قوله : « ولم يسمع شيء من هذا عن العرب » إلى العرب الذين يحتاج بشعرهم ، وأخذ عنهم الخليل بن أحمد أبجره وقوافيه .

ومن غريب ما تصرف فيه محي الدين بن عبد الظاهر ، أبيات نظمها من بحر الكامل ، مع بناء الشطر الأول من كل بيت ، على ثلاث تفاعيل من « متفاعان » . وبناء الشطر الثاني على تفعيلتين فقط . مع ترفيف في آخره .

وكان قد كتب تقليدا شريفا - أى أمر تعيين - للأمير بيدرا ، عن لسان السلطان ، يذنيه عنه فى قلعة الصبيبية . وهو تقليد نثرى طويل . وقد ختمه بهذه الأبيات التى أشرنا إليها . وفيها يمدح الملك الأشرف خليل بن قلاوون . . قال منهما :

متكرم يهب الحصون مع القلا	ع بكل ما فيها ومنها
ويرى له الذكر الجميل مخلدا	ومعوضا عنه وعنهما
كم رامت السحب الهواطل أن تكو	ن كراحتيه فلم تكنها
ومن الحصون الشاخات له العطا	« يعاب جود لم يزنها ... إلخ (١) »

وأقبل بعض الأدباء على نظم الموشحات والأزجال والبلايق والمواليا والدوبيت .

وسنحدثك فى إيجاز عن الموشحات والأزجال . أما الدوبيت فقد نظموه ملحونا . ويتكون من بيتين لـ شكل بيت شطران . ويتوافق الشطر الأربعة فى الوزن والقافية . وقد يخالفها الثالث فى القافية فقط .

وقيل إن وزن الدريبت هو « فعلان متفاعلان فعولان فعلان ، في كل شطر .
ولكن الاستقراء يدلنا على أنه يحىء بأرزان مختلفة ، ولعلها محرفة عن
هذا الأصل .

ومما نظمه ابن الوردى من الدريبت الفصيح المعرب قوله :

ياروضة حسن ليتهالى وحدى الشركة فيك قد أذابت كبدى
ماضرك أن تسقى بماء فرد والواجب أن يكون ماء الوردى والورد^(١)

ومن نظمه أيضاً وهو يخالف البيتين السابقين فى الوزن :

قالوا فلان أبدا زنديق فى حبك قلت يكذب الزنديق
من أين لرفض هنا تصديق واسمى عمر وجدى الصديق^(٢)

ومن نظم الدريبت والموالي ناصر الدين الواسطى الواعظ الأديب الصوفى
- المتوفى عام ٧٧٧ هـ - ومما نظمه فى الدريبت مما يبدو فصيحاً قوله :

إن ضرمى بجذوة التذكار حى وبرى جسمى شكرت البارى
فالعاذل فى هـواه لاعقل له ما أبلد عاذل وأذكى نارى
ونلاحظ فى دريبت ابن الوردى توافق الأشطر الأربعة فى القافية . وفى
دريبت ناصر الدين اختلاف الشطر الثالث عن الثلاثة الآخر .
وبدور أن الدريبت كان مستقلاً فلم يقبل على نظمه كثيرون .

وأقبل كثير من الأدباء أيضاً على تخميس بعض القصائد المشهورة كبردة
البوصيرمى .

والتخميس الذى نقصده ، هو أن يأتى الشاعر بثلاثة أشطر من نظمه ، على

وزن القصيدة الخمسة ، ثم يتبعها بيت من القصيدة المذكورة . وهذا هو المتبع المشهور .

وقد يخالف الخمس هذا النظام فيبدأ مثلاً بصدر بيت من القصيدة ثم ثلاثة أشطر من عنده ثم عجز البيت .

ونذكر - على سبيل المثال - بعض الذين خمسوا البردة ، فمنهم : مجد الدين إسماعيل السكتاني - المتوفى عام ٨٠٢ هـ وبرهان الدين البهسي - المتوفى عام ٨٤٦ هـ - وقد اتبع في تخميسه النظام الثاني^(١) ، وناصر الدين المنزلي ، وقد خمسها وخمس بديعية صفي الدين الحلبي ، وخمس غيرها . وشمس الدين القادري ، وناصر الدين الحمدي ، وغيرهم كثيرون .

ومن تعاطى التخميس : تقي الدين بن حجة الحموي . فقد خمس قصيدة السهيلي التي منها :

يامن يرجى للشـدائد كلها يامن إليه المشتكى والمفزع

فقال ابن حجة :

قالواعداك وأنت لاتسمع قد أضروا لك مصرعا وتوقعوا ناديت والأجفان مني تدمع

يامن يرى ما في الضمير ويسمع أنت المعبد لكل مايتوقع

وهكذا... إلخ^(٢)

والملاحظ في التخميس أن قوافي الأشطر الثلاثة الأولى تكون على وفق قافية الشطر الأول من البيت الخمس . ولم نلاحظ إقبال الأدباء على التشطير الذي هو إضافة عجز إلى صدر بيت ، ثم تقديم عجزه بصدر آخر .

(١) الضوء اللامع ج ١ رقم ٨١ :

(٢) تأهيل الغريب باب المواعظ : وفيه التخميس جميعه :

وقد أقبلوا حقا على « التضمين » أو « الإيداع » وهو وضع بيت أو نصف في خلال أبيات القصيدة ، مع تمام مناسبتها .
وقد أشرنا فيما سبق إلى أن جمال الدين بن نباتة وصلاح الدين الصفدى تبادلوا قصيدتين في العتاب ، ضمن كل منهما أبياتهما أعجاز معلقة امرئ القيس . وهذا من « التضمين » لا « التشطير » لعدم اطراد .

الموشحات :

أفردنا الموشحات بالذكر لأهميتها وكثرة نتاج الشعراء في ميدانها . وقد تهاوى هذا الفن إلى الشرق من الأندلس . فعرفه المصريون قبل العصر المملوكي كابن سناء الملك . وأخذوا في تقليده ومحاكائه إظهارا للقدرة والبراعة ، وسدأ حاجة مجالس اللهو والغناء . واستمر ذلك .

والملاحظ في الموشحات أنها لون من التحرر من التزام البحور القوافي المأثورة . قد تنظم من وزن واحد ، أو من أوزان متعددة ملفقة تمازجت تفعيلاتها . ولاكنها مع هذا وذاك لا بد فيها من اختلاف القوافي .

وهذا المزيج من التفعيلات الملفقة والقوافي المتنوعة ، يلتزم شكله في كل مجموعة من مجموعات أبيات الموشحة ، وبذلك يتم الترابط الموسيقي بين أجزائها .

ولا ريب أن الموشحة أخف حملا من القصيدة ، وألذوقا ، وأكثر موسيقية ، وأنسب للتلحين والغناء لما فيها من المخالقات الموسيقية المتفقه في المتناظرات .

وتمتاز الموشحة - عادة - بركة ألفاظها وسلاسة تراكيبها . وبهذا كله يقبل عليها العامة والخاصة .

وتتألف الموشحة - عادة - من بيتين في مفتتحها ، يكون لوزنهما وقافيتهما أثر كبير في بناء الموشحة ، ويسميان « مذهبا » أو « قفلا » . ثم يليهما ستة أوزار - أو أبيات -

يتألف كل درر - أو بيت - منها ، من مجموعة من الأبيات المعتادة في القصيدة المألوفة . وقد تكون هذه المجموعة ثلاثة أبيات منها ، يليها بيتان على نسق بيتي القفل وزنا وقافية . - ثم يتكرر هذا النظام نفسه فيما بقى من المجموعات .

على أن الملاحظ أن هذا النظام في جملة ، لم يتبع في دقة في كل الأحوال . وأصبح الشاعر ذا حرية واسعة في ابتداع النظام الذي يروقه في بناء موشحته ، مادام مراعيًا في جميع مجموعاتها - أدرارها - نظامًا واحدًا والتزامات مشتركة . ومراعيًا النظام الذي بدأه في القفل وفي البيت الأول - أعني المجموعة الأولى - كما أنه لم يلتزم في كل موشحة أن تكون مجموعاتها ستا .

وراجت هذه الموشحات في عصر المماليك - كما أشرنا - وأقبل على نظمها فحول الشعراء كالشباب الظريف وابن نباتة وصفي الدين الحلبي وابن حجر العسقلاني وصدر الدين بن الوكيل وأبو حيان النحوي وتقي الدين السروجي وسراج الدين المحار - وله فيها ديوان مستقل - ونصير الدين الحماني ، وأبو بكر الخطيب قاضي صفد المتوفى في دمياط عام ٧٤٠ هـ . وأحمد بن عبد الملك العزازي وابن وفاء السكندري المتوفى عام ٨٠٧ هـ ، وغيرهم^(١) .

ونظمها الشعراء في أنواع مختلفة من الشعر ومنها: الممدح والغزل والوصف والخمرات والوعظيات حتى الرثاء ، ومن نظمها في الوعظيات صفي الدين الحلبي وابن وفاء السكندري .

ومن موشحاتهم:

خمرة للشاعر أحمد بن عبد الملك العزازي قال فيها :

ياليلة الوصل وكأس العمار دون استتار علمتاني كيف خلع العذار

* * *

اغتنم اللذات قبل الذهاب وجر أذيال الصبار الشباب وإشرب فقد طابت كئوس الشراب
على حدود تنبت الجلائر ذات احمرار طرزها الحسن بأس العذار.. الخ (١)

يلاحظ في هذه الموشحة أن القفل - أو المذهب - يتألف من ثلاثة أشطر .
الأول والثالث من وزن السريع مع زيادة حرف ساكن في التفعيلة الأخيرة .
والبيت - أو الدور - يتألف من ثلاثة أشطر من بحر السريع . ثم ثلاثة
أشطر على نظام القفل . وهكذا .

وغزلية لشهاب الدين بن حجر العسقلاني يشكو فيها الفراق . قال فيها :

سقت من بعدكم فعودوا فما على محسن جناح
عشقت بدرا بلا مرأ فلحت من بعده فلاح

* * *

بدر أنا في الهوى شهيد لما بسيف الجفون صال
وطرفه والجفا رجيد ماض ومستقبل وحال
لو صدقت باللقا وعوده ماعلل القلب بالمحال
رأى الذي لامني سديد حق وحق الهوى صراح
لكنتي لست باختياري يا عاذلي في هوى الملاح.. الخ (٢)

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٦١ ورياض الألباب لشمس الدين النواجي - مخطوط ورقه رقم ٥٨ -

(٢) عن ديوان ابن حجر - مخطوط بدار السكتب المصرية .

ويلاحظ أن وزن هذا الموشح هو مخلع البسيط . واطرد ذلك في القفل
والبيت على السواء .

واختلف في القفل قافية الشطر الأول والثالث . واطرد هذا الاختلاف
في نظائرها في كل بيت . مع التزام قافية الشطر الأول في القفل - وهي الدال -
في نظائره . وكذلك التزام قافية الشطر الثاني والرابع من القفل في نظائرها -
وهي الحاء .

وغزلية لصدر الدين بن الوكيل ، قال منها :

ما أخجل قده غصون البان بين الورق
إلا سلب المها مع الغزلان حسن الحدق

* * *

قاسوا غلطا من حاز حسن البشر
بالبدر يلوح في دياجى الشعر
لا كيد ولا كرامة للقمر
الحب جماله مدى الأزمان معناه بقى
وازداد سنا وخص بالنقصان بدر الأفق ... الخ (١)

هذا الموشح عارض به صدر الدين بن الوكيل ، موشحاً اسراج الدين المحار .
والمحار بدوره نظم موشحه هذا معارضاً به موشحاً للشاعر أحمد الموصلى .
ويلاحظ أن الشطر الأول من الموشح من وزن غريب ، ويبدو أنه ملفق
من تفعيلات متفرقة .

ولا يعسر على القارئ ملاحظة ما فيه من مخالقات وموافقات ، قياساً على ما مر من شرحنا .

وغزلية للشاب الظريف ، قال منها :

بدر عن الوصل في الهوى عدلاً مالى عنه إن جار أو عدلاً
مذهب

مترك اللحظ لفظه خنث إليه تصبو الحشا وتنبعث
أشكو إليه وليس يكثرث
دعا فؤادى بأن يذوب قلى الموت والله من مقالى لا ... الخ (١)
أقرب

وغزلية لجمال الدين بن نباتة . قال منها :

زحفت بيض الظبا لما رنا فتلقاها سريعاً مقتلى

ملك عم الورى بالمن وكفاهم مرتبات المحن
ظاهر الأسرار شهم العن
راقب الله وأسدى المننا فهو الوسى فينا والولى ... (٢)

ويستطيع القارئ على ضوء ما شرحن أن يلاحظ وزن هذين الموشحين ، وما في كل من مخالقات وموافقات .

الزجل :

وقد رأينا فيما سلف كيف انساق بعض الشعراء إلى اصطناع الأمثال والتعبيرات السوقية ، وإلى الخروج عن قواعد اللغة والتزاماتها . وذلك بدافع انتشار اللغة العامية والدخيلة ، وبدافع نشأة الشعراء في بيئات الشعب .

ورأينا كذلك كيف حرر كثير من الشعراء شعرهم من قيد الوزن والقافية ، فنشأ من ذلك فن التوشيح الذي لا نعهده جديداً في المشرق ، فقد انبثق من قبل في بلاد الأندلس .

وباستשרاء هذه الظاهرات واتساع مداها ، ورغبة بعض الأدباء في تقديم لون شعري إلى العامة هو أقرب إلى فهمها وأدنى إلى تذوقها ، نشأ فن الزجل . وفن الزجل هو فن الشعر الشعبي الذي تلتزم فيه اللغة العامية ، ويكون الإعراب فيه من عيوبه .

وقد ذاع الزجل — كما ذاع التوشيح — في بلاد الأندلس أيضاً ، لانتشار العامية ، ومنها رحل إلى المشرق وأقبل عليه أدباء العصر المملوكي . لاستשרاء العامية واستعجام الخاصة والعامة ، حتى كان بعض الخاصة يشجعون أهله .

وفن الزجل أكثر حرية في أوزانه وقوافيه من التوشيح ، وليس معنى ذلك أنه خال من القيود والنظم الرتيبة ، فقد يلتزم الزجال في زجله قيوداً ونظماً تفوق في الدقة والحنكة والرعاية ما يلتزم في الموشح .

راج الزجل إذاً في مصر في العصر المملوكي وشجعه آل قلاوون وآل برقوق وغيرهم . وأقبل الزجالون ينظمونه في أغراض الشعر كافة ، ولم يقتصروا فيه على أبواب دون أبواب ، حتى زاحم بذلك الشعر الفصيح في مجالاته وفنونه .

فطرقوا به باب الوصف والمدح والفسكاهة والمجون والخريات والنقد الاجتماعي والغزل وتسجيل الحوادث العامة ورثاء الدل والزائلة والأحياء الدارسة ، والحامسة ووصف الحروب والرثاء والشكوى والحكمة ، وغير ذلك ، واصطنعوا فيه ألوان البديع وزخارفه وأصباغه .

وتسجيل الزجل والعناية بدراسته أمر ضروري لاستكمال تاريخ الأمة الأدبي . فقد ترى في أبياته من ألوان الأخيصة والتصورات ما لا تراه في الشعر الفصيح ، ويصادفك فيه من الآراء والأفكار والنقد ما يعز وجوده في سواه . وهو من أهم الصفحات التي تطالع فيها اللغات الشعبية وتطوراتها .

والعقبة الكأداء في سبيل دراسة الزجل - زجل العصور الأدبية السابقة - هي عدم درايتنا السكاملة الصحيحة بطرق أدائه وقراءته . فليس لدينا منه تسجيل صوتي يرشدنا إلى حقيقة ذلك والزجل حينما يسجل في السكتب والمؤلفات يفقد كثير من روائه وحقيقة أدائه ، إذ أنه - عادة - يفصح عند التسجيل ، ويكتب بمألوف ما تكتب به اللغة الفصيحة . وقد فطن تقي الدين بن حجة لهذا المعنى فقال :

« والزجل فن يتمسكن الناظم فيه من المعاني لجولاتها في ميادين الأغصان والخرجات . وهو لا يحسن رسمه في السكتابة إلا من عرف اصطلاحه ، (١) . وقال أيضاً ، بعد أن سجل زجلاً للقيم ابن مقاتل ، تغزل فيه في خياط ، ومطلعه :

نهوى خياط سبحان تبارك من بالجمال جملو

وكأنى بمأمل نظر في رسم كسابة هذا الزجل ، فأذكره ، لبعده عن رسم الألفاظ المعربة الخالية من اللحن ويعذر في ذلك ، لأنه ليس له إلمام بمصطلح

رسمه . ومن رسمه على غير هذا الطريق لم ينفذ له مرسوم . فإنه يؤديه إلى خطأ في وزنه وإعراب لحنه .

ومصنفه أبو بكر بن يحيى بن قزمان الوزير ، قال في خطبته : وقد جردته من الإعراب تجريد السيف من القراب . ولم يطلب من الزجل غير عذوبة ألفاظه وغرابة معانيه .

ولا ريب أن تسجيل الأغاني والأناشيد والأزجال والقصص والمسرحيات في العصر الحديث تسجيلاً صوتياً ، سيعاون معاونة قيمة عند تاريخ لغة الأمة ولغة عوامها ، إذ أنه سيكون مدعوماً بأمثلة ونصوص صوتية حاسمة في الدلالة . وسيكون مدداً لكتابة تاريخ أدبنا الشعبي بصورة أصح .

وقيل إن الفصيحة الزجلية تسمى «حملًا» تشبيهاً لها بحمل الدابة ، لأن شطورها الرباعية - غالباً - منقسمة إلى قسمين ، كل واحد منهما يشبه أحد جزئي الحمل ويقطعون «الحمل» أو «الزجلية» إلى جملة أدوار . ويتألف كل دور من أبيات ذات أشطر . ويبدو أن هذا هو النظام الذي كان متبعاً أو مألوفاً عند بدء النظم والأزجال . ولكننا بالاستقراء ، وباستقراء أزجال المصريين أو الشاميين في العصر المملوكي ، نشعر أن نظام الأزجال وأوزانها أوسع من هذا ، وأنها تنوعت في أوزانها وفي قوافيها كما كان الشأن في الموشحات ، على نحو ما أشرنا آنفاً .

وهناك أوزان أخرى ، أو فنون أخرى من الشعر العامي غير المعرب . منها : القوما وكان وكان والمواليا والدوبيت . ولها نظام خاص في صوغها . ويعتبرها بعض الأدباء ألواناً أخرى غير الزجل .

وأشرنا إلى أن الدوبيت منه المعرب وغير المعرب .

أما القوما أو القومة ، فيتكون كل دور فيه من بيتين على وزن «مستفعلن

مستفعل ، وهو لون من مجزوء الرجز ، وتمتدقوا في شطورها ماعدا الثالث فيخالفها . وكان يسحر به في شهر رمضان . ولم نجد له رواجاً في العصر المملوكي . وكان وكان ، يتألف كل دور في موشحته من أربعة أشطر . الأول والثالث من وزن المجثث ، مستفعلن فاعلان ، . والثاني والرابع من مجزوء الرجز ، مستفعلن مستفعلن ، . وتلتزم قافية الرابع في كل قافية رابعة من أدواره . ولم نجد له أيضاً رواجاً وذبوعاً في العصر المملوكي .

والمواليا ، قيل كان أول ظهورها في بغداد على لسان موالى البرامكة ، ثم ذاعت . ويتألف — عادة — من أربعة - وقد تكون خمسة أو سبعة - كلها من البسيط . وتنفق جميعها في القافية . وقد يختلف ثالثها عنها . فإذا كانت سبعة أشطر اتحد كل ثلاثة أشطر ، ثم اتفق الأخير مع الثلاثة الأول .

ويبدو أن هذا اللون من الزجل حاز إعجاب الناظرين في العصر المملوكي ، وأنه صادف موقع القبول من نفوس العامة . فأقبل الناظمون على نظمه وكان له نتاج لا بأس به .

وباستقراءنا صادفنا نماذج من الزجل والمواليا والدوبيت فحسب . وكان الزجل أوفاهما نصيباً .

وما يذكر أنهم أطلقوا لفظ البلايق ، على نتاج الزجالين . وذكر الإدفوى في ترجمة « الحسن بن هبة الله » الزجال ، قال : « إنه أخذ ورقة وكتب هذه البليقة ، ثم سجل الإدفوى زجلية للحسن . ثم قال : « أما البليقة ففي الفسكاهة والنقد ، (١) .

وكذلك كانوا يسمون الزجال المشهور : « القيم » .

ومن نظم الزجل أو المواليا ونحوهما في مصر في العصر المملوكي :
خلف الغبارى وعاش في عصر آل قلاوون . وقد استخدم الزجل في كثير
من أغراض الشعر .

ومنهم الشيخ أحمد الدرويش البرلسي . والشيخ علاء الدين بن مقاتل الحموي .
وشمس الدين بن دانيال الموصلى الشاعر السكحالى . والمؤرخ ابن إياس الحنفى .
وبدر الدين أبو النجاة الزيتونى العوفى . والحسن بن هبة الله بن عبد السيد الأدفوى .
وصدر الدين بن عبد الحق . وصدر الدين بن الوكيل ، وشرف الدين بن أسد المصرى .
وزين الدين بن الوردى محبى الدين بن عبد الظاهر . وزين الدين العجمى وحطبية .
وناصر الدين الواسطى . والرويس . وزين الدين الشهرزورى وابن الطفال ،
والأمشاطى ، وغيرهم .

وإليك بعض نماذج الزجل ، ويتضح لك منها بعض الأدوار الأدبية
والاجتماعية الهامة التى أداها الزجل ، وشارك بها فى الحياة القائمة . واستجاب
بها للبيئة التى عاش فيها فتأثر بها فتم عنها وتكلم بلسانها وصور جملة من نواحيها .
فمنها :

أنه لما وفى النيل عام ٩٠٢ هـ قبل شهرى مسرى على غير عادته ، فرح
الناس واستبشروا وصنف منادى البجر أغنية منها .

يا حبيب اهنأ وطيب النيل أوفى فى أبيب
وقد بقينا فى هنا يافرحنا . . . الخ (١)

ولما عزل السلطان الناصر محمد بن قلاوون نفسه من الملك - وكان به بعض
العرج - قام من بعده بالسلطنة الملك ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، وكان

العامّة يلقبونه « الركين » ، وكان نائب سلطنته الأمير « سلال » ، وكان أجرد في فمه بعض شعرات ، لأن أصله من التتار ...

وشح النيل في ذلك العام - عام ٧٠٩ هـ - فنظم بعض العامّة زجلا يتفكّمون به ، جمعوا فيه بين هذه الحوادث ، وعبروا فيه عن مشاعرهم إزاءها . فقالوا :

سلطاننا ركين ونائبو دقّين يحينا الماء من اين
هاتوا لنا الأعرج يعجى الماء يدحرج .. الخ (١)

قيل - فكان هذا الزجل سبباً في قطع السنة بعض العامّة بأمر هذا السلطان لما بلغه الزجل

واهتم السلطان قانصوه الغورى بإقامة المنشآت والعمائر ، فانساق إلى أن أكره القاضى شهاب الدين أحمد ناظر الجيش ، ابن يوسف ناظر الخاص ، أن يعطيه قطع الرخام المثلث الموجد بقاعة والده المسماة « نصف الدنيا » ليستخدمها في بناء قاعة البيسرية . فقال ابن إياس الحنفى في ذلك ناقدًا موريا :

سلطاننا الغورى قد جار والصبر منا قد أعيا
وصار في ذا الجور عمال حتى خرب نصف الدنيا (٢)

ومن الزجالين الممتازين ، القيم خلف الغبارى - وتعتبر زجلياته فريدة في بابها . ومن بينها زجليات سجل فيها بعض حوادث مصر ، مما لا نظير له بنظير في الشعر الفصيح .

ومن زجلياته زجلية هنا بها الأشرف شعبان حفيد الناصر بن قلاوون

(١) بدائع الزهور ج ١ حوادث عام ٧٠٩ هـ

(٢) بدائع الزهور ج ٤

باعتلاء السلطنة عام ٧٦٤. وكان الأشرف صغير السن. وزجلية أخرى رثاه بها لما قتل عام ٧٧٨ هـ^(١) وقد سبقت إشارتنا إلى ذلك.

ومن زجليات الغبارى أيضا ما سجل فيه اعتداء عرب البحيرة بزعامه أميرهم ابن سلام، على مدينة دمنهور عام ٧٨١ هـ، وقيام فريق من جنود المماليك الأتراك بقيادة الأمير «إيتشمش» بصددهم والإيقاع بهم.

وقد سجل الغبارى هذه الواقعة فى نحو ٦٧ بيتا وفصل فيها الوقائع والأحداث والأسباب والنتائج بما لا تظفر به فى كتب التاريخ. قال فى المطلع:

باسم رب السما ابتدى فارج الهم والكرب
ويفيد للذى حضر قصة الترك والعرب... الخ^(٢)

ولخلف الغبارى غزليات عذبة، ومنها زجلية افتتحها بقوله مع التورية والتوجيه:

جار حبيبي فقلت دالحجاج حايحور أو يزيد
لو عدل عشت بو مسرور ويسكون الرشيد... الخ^(٣)

ومن أبرع الزجالين الشيخ بدر الدين الزيتونى الذى عاصر قايتباى وشهد عصر الغورى ومات عام ٩٢٤ هـ. وكان علامة زمانه فى فنون الزجل. وقد سجل فى ديوان زجله جملة من حوادث زمانه لم ينض الشعر الفصيح إلى تسجيلها. وله زجلية سجل فيها رحلة قايتباى إلى الديار الشامية عام ٨٨٢ هـ حيث قضى

(١) بدائع الزهور ج ١ حوادث عام ٧٦٤ هـ. وحوادث عام ٧٧٨ هـ وفيه الزجلتان.

(٢) بدائع الزهور ج ١ ص ٢٥٢ حوادث عام ٧٨١ هـ وفيه الزجلية بأكملها.

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية لمحمد دياب ج ١ ص ١٣٥ - وبه الزجلية بأكملها.

نحو أربعة أشهر ، قام خلالها هناك بأعمال وإنشاءات جليلة . ومنها يقول .
سلطاننا الأشرف خرج في أربعين من العساكر حين سافر حماه
ومن حلب عدى يروم الفرات فاسقى الخيول من ماء ور به حماه ... الخ (١)

وفي سنة ٨٩٧ هـ انتشر طاعون بالديار المصرية أباد كثيرا من الناس . فوصفه
الزيتوني ورثي لأهل مصر مما أصابهم وقال :
وحدو من قد حكم بالموت ونفذ حكمه بما يختار
واحتجب عن العيون سبجان جل من لا تدركو الأبصار .. الخ (٢)

ولما مات الأشرف قايتباي عام ٩٠١ هـ رثاه الزيتوني بـزجالية طريفة ضمنها
كثيرا من صفاته وحوادثه وأعماله (٣) .

وفي عهد الظاهر قانصوه ثار عربان عزالة على كاشف البحيرة فجرده عليهم
السلطان حملة شتتت شملهم وذلك عام ٩٠٤ هـ . وقد سجل هذه الحادثة وما جرى
فيها ، بدر الدين بن الزيتوني (٤) .

ولما مات الأشرف الغوري - أو قتل - في موقعة مرج دابق عام ٩٢٢ هـ
رثاه الزيتوني ورثي دولته في قصيدة زجلية جميلة جميلة أبياتها ١١٧ بيتا . طرق
فيها الشاعر أبوابا وفنونا . لقد تتبع حملة الغوري فوصفها في ترتيب طبيعي تقريبا ،
من لدن خروجها من مصر حتى تمام الهزيمة وما أعقبها . وقد سجل أسباب الحملة
وأسماء كبار الأمراء الذين صاحبوها ومشوراتهم وترتيباتهم وتاريخ خروج الحملة

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٦٨ وفيه النص بأكمله .

(٢) بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٧٥ ط بولاق . وفيه النص بأكمله .

(٣) بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٩٨ ط بولاق المثلثة بأجمعها

(٤) بدائع الزهور حوادث عام ٩٠٤ هـ

ووصف هذا الخروج ودخولها بلاد الشام فخاب ، وأشار إلى خديعة السلطان
سليم بطلب المصالحة ، وميل الغورى إلى ذلك ثم إشاره القتال . ووصف المعركة
وانتصاره المصرى على الرومى ، ثم انشغال الجيش بجمع الغنائم ، ثم مفاجأة
الغورى بمن قتله . وهنا يتفجع الشاعر لمقتله ويتوجع ويذكر محاسنه ومحامده ،
وينوه بمن كان معه آنذاك من الأمراء والعسكر ، وما تحملوا به من الهممة والشجاعة .
ثم ما أصابهم من القتل والتشتيت والنهيل على يد ابن عثمان - السلطان
سليم -

وفي نهاية الزجلية يذكر الشاعر اسمه وصناعته ويتمدح بهما . وتلك كانت
عادته فى زجله .

ويقول فى المطلع وبه براعة استهلال .

غربت شمس دولة الغورى وابن عثمان نجمو طلع ساير
وبهذارب السما قد حكم والفلك دار ولم يزل دابر

ابن عثمان باداه بأخذ القلع وبمنع التاجر مع الجلاب
أن يجيبوا إلى مصر مملوك ولا فروة سمور ولا سنجاب
ولا وشق ولا ثعلب يجلبوا ومن الصوف ما عاد يحبينا ثياب
على الصوف ياما قعدنا سنين ما يبعى من عندو ولا تاجر
والأماره جو للملك قالوا ابن عثمان باغى علينا جابر

ومنها يبدى عواطفه لمقتل الغورى فيقول :

أشهى النار لقتلة الغورى ولعللى أن أبلغ الأوطار
والتهانى ذاك النهار عندى ويغنوا على وتر أوطار
بعد هذا ما أخشى غراب البين إن زعق فى دارنا أوطار

والعجائب في قتلة الغورى راح برجلو لقتلته خاطر
وحسبنا كل الحساب إلا ما جرى لو ما مر بالخاطر... الخ (١)

ومن بدائع الأزجال ما نظمه الأديب إبراهيم المعمار حينما أمر الملك الظاهر
ببهرس بإغلاق محال الفسق والخمور . فقال المعمار :

منعونا ماء العنب ياسين رب سلم لم يمنعونا التين

* * *

هات قل لي إذا منعنا الراح وحرمننا من الوجوه الصباح
بيش تبقى نستجلب الأفراح والخليع كيف نراه يعيش مسكين... الخ (٢)

ومن المواليا قول حطية ، يشكو ذل العشق :

سرى فضحته وأنتم سركم قد صنت فقصدي رضاكم وأنتم تطلبون العنت
ذليت من بعد عزى في هواكم هنت ياليت في الخلق لا كنتم ولا أنا كنت (٣)
وهذه مواليا لزين الدين العجمي ، في غزل التورية :

للحب قالوا معنك الذي أذبتو جد لو بقبله ففعلو فيك خبلتو
فقال أقسم لو أن البوس سبلتو ومات للشرق ما درتو وقبلتو (٤)

ونختتم حديث الزجل وما إليه ، بأن نذكر العلامة ابن خلدون سجل في

(١) بدائع الزهور لابن إلياس ج ٣ حوادث عام ٩٢٢ هـ .

(٢) الزجلية في ٣٩ بيتاً سجلها ابن إلياس ج ١ ص ١٠٥ ط بولاق .

(٣) الضوء اللامع ج ٣ رقم ٦٢١ . وحطية — بالتصغير — أديب زجال جذب بسبب عشقه ،

ومات في دمياط عام ٨٠٨ هـ .

(٤) كشف اللثام لابن حجة الحموي .

مقدمته تحت عنوان : الموشحات والأزجال للأندلس ، أمثلة عدة للمواليا
والدوبيت ، مما نظمها القاهريون .

بهذا الفصل نكون قد طفنا بالبيئات المصرية على اختلافها ، وبآثارها في
النتاج الشعري بموضوعاته وأساليبه . وآن لنا أن نختم هذا البحث بالكلمة
التالية .

خاتمة

وبعد . إن من أهم ما يعنى به تاريخ الأدب وتهدف إليه بحوثه ، الوقوف على شخصية الشعوب ومعرفة مدى يقظتها العاطفية والعقلية وإحساساتها ، ممثلة في أدبائها وشعرائها ، وذلك عن طريق بحث كبحثنا هذا ، في ميدان الشعر أو النثر . وقد كان هذا هو هدفنا من بحثنا في المجلدين السابع والثامن من هذه الموسوعة ، اللذين درسنا فيهما شعر البيئتين المصرية .

وقد راعينا في عرض نماذج الشعر أحياناً ، شيئاً من الاستقصاء وإيراد النص الكامل . وذلك حينما رأينا ضرورة للبرهنة على أصالة فكرة أو اتجاه . ولا تتم إلا بهذا الاستقصاء والإيراد . كما راعينا أحياناً التحليل الدقيق للنص ما استطعنا ، وبمقدار يطيقه البحث ، توصلنا إلى فهم صناعة ، أو إيضاح معنى ، أو كشف عاطفة .

وراعينا كذلك ، ما استطعنا ، أن نجتمع بين نتائج كثير من الشعراء في موضوع معين ، عن التصدي للحديث عنه ، توضيحاً له ، وتأكيذاً لما ذهبنا إليه فيه . فإن تأثر مجموعة من الشعراء بموضوع واحد ، مع تماثلهم في الأحاسيس والمشاعر ، يجعل الجمع بين نتائجهم الشعري فيه ، ضرورياً لتوضيحه وفهمه . فحين يكون عدة أدباء من بلد واحد وعصر واحد ، ينتسبون إلى مدرسة ، واحدة ، أو يعرف بعضهم بعضاً ، أو قرأ بعضهم لبعض ، أو أعجبوا جميعاً بنموذج واحد ، أو خضعوا جميعاً لنفس التأثيرات الفلسفية والأخلاقية والدينية والفنية ، بل والاجتماعية والسياسية ، أو عبروا جميعاً في عصر واحد عن أفكار واحدة ، أو استعملوا جميعاً أسلوباً واحداً ، فلا شك أن الواجب

في هذه الحالة أن يجمعهم الكتاب ، كما جمعتهم الحياة . (١)

ولقد بحثت عن شعر هذه الحقبة - العصر المملوكي - في كل مكان استطعت الوصول إليه . بحثت في دواوين شعرائه وكتب تراجم رجاله ، وكتب تاريخه العام ، وكتب خطظه وغيرها .

وهكذا طفت في جوانب العصر ، واستغرقت في هذا الطواف - كما ترى - زمناً طويلاً ، وبذلت جهداً كبيراً فيه ، حتى دخلت إليه في أكثر زواياه ، وتجولت في أكثر نواحيه ، وتبينت أكثر أوضاعه ومعالمه . واستطعت أن أكشف كثيراً مما تردد خلاله من أفكار وخواطر ، وما جاش فيه من عواطف ومشاعر . وكان شعراء هذا الشعب ، فيما قرصوه ، ألسنته وتراجمته - كما أشرنا في المقدمة - .

ولقد كان الشعب يعشق طبيعة بلاده ، ويقدس نيلها المبارك ، فتغنى بهما شعراؤه . وقد أكدنا بمدارسنا من أشعارهم ، هذا العشق والتقدير ، وقضينا في حزم ، على تلك الأكاذوبة المفتراة عن بلادة حسهم نحو بلادهم ونحو نيلها ، وهو سبب حياتهم .

وقد كشفنا مبلغ اهتمامهم بسياسة بلادهم ، ومدى اشتراكهم في حوادثها بأحاسيسهم وعواطفهم ، على الرغم مما اقتضته ظروف الحكم من إبعادهم عن مسرحها عملياً .

ورأينا أن مصر كانت محوراً ومصدراً للثقافة الإسلامية والعربية ، وأن الشعر ترجم هذا بلغته وفي ميدانه ورأينا أن مصر كانت تحيا حياة حضارية ، قد تكون أرقى ألوان الحياة الحضارية في زمانها . وأن الشعر كان مرآة لها في ذلك : بدت فيها محاسنها ومساوئها ، وسموها ومباذلها ، وحقها وزيفها . وأن السنة

الشعراء كانت وراء حواث المجتمع ، ووراء مظاهر حضارته ، تسير معها وتتابعها ، أو تصفها وتسجلها ، أو تنقدها وتحمل عليها .

وبذلك كله تعرفنا على بعض جوانب الشخصية المصرية حينذاك ، وعرفنا كيف كان الشعب يقضى في أموره ويعالج مشاكله ، ويتصل بصميم حياته ويزاولها ، وأنه - في الحق - لم يكن بعيدا عنها ، ولو بمشاعره .

هذه نتائج وصلنا إليها عن طريق دراسة الشعر ، وربطه بأسبابه البيئية ، بعد دراسة هذه الأسباب . وإذا كنا قد وصلنا إليها وكشفنا عنها ، فلن ننكر ما لاحظناه من أن الشعر كان يشتد صوته ويعلو ضجيجيه ، بل قد يلد لحنه ويروق نغمه ويطول نفسه وتنشط أوتاره ، في موضع ، ويهدأ أو يخبوق في مواضع أخرى . وشأنه في ذلك شأن الشعر في عصور الأدب كافة . غير أن الهدأة لا يصعب تحليلها ولا يعسر بيان سببها .

لقد رأينا الشعر محتفلا على الصوت جميل اللحن ، إذا غنى بالطبيعة أو بالنيل أو بالرياض . ورأيناه وثيق الصلة ببيئة الثقافية والاجتماعية ، ورأيناه ذا اهتمام واسع بالسياسة وأحداثها وحروبها .

ولكن اهتمامه بالسياسة ، كان في أوائل العصر ، أكثر مما كان في أواخره . ولا يصعب تحليل ذلك ، فقد كانت أحداث السياسة في أوائله متجهة في أغلب أمرها ، إلى مكافحة العدو الخارجي ، وإلى حربه . وكان هذا الاتجاه وثيق الصلة بآمال الشعب وعواطفه ، فوجد صدهاء في الشعر . وكانت أحداث السياسة في أواخره متجهة في أغلب أمرها ، إلى مقاومة الفتن والمؤامرات في الداخل ، فكانت أشبه بالحروب الداخلية ، وكان الطرفان المتنازعان ، وهما من رجال الطبقة الحاكمة ، متساويين - غالبا - في المنزلة في نظر الشعب . وهو نزاع على حكمه ، فهو ضحية الغالب منهما على كل حال . لذلك لم يشعر الشعب أن هذا النزاع نزاعه ، فلم يشترك فيه شعراؤه ، إلا لما .

وفي الحق أيضاً ، لم نظفر بين شعراء الطبيعة ، بشعر يصف الريف ومحاسنه ،
ويمجد الفلاح ويحيى كفاحه - والفلاح - كما نعلم - اليد العاملة ، والقوة المحركة
المنتجة ، يحرق الأرض ويسقيها ، ويبذر الحب ويتعمده ، ويرعى النبات ويحصد
ثمره . فالحقل والفلاح ، سبب النعمة لهذه الأمة ، بعد النيل . فلماذا لم يتغن بهما
شعراؤها .

نقول - فضلا عن أن أكثر من عرفنا من الشعراء كانوا يعيشون في المدن ،
بعيدين عن الريف والفلاح - إن الشاعر الذي قال :
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار
قد صدق ، وبالحق نطق .

قل لي ، أين هو الحقل ، وأين هو الفلاح السعيد بحقله ، في ذلك الزمان ، حتى
يحبيهما الشعراء ، ويمجدوهما ويهزجوا باسمهما ، ويترجموا عن سعادة الحقل
بفلاحه ، وسعادة الفلاح بحقله

لقد كان الحقل إقطاعا يحتازه سلطان أو أمير . وكان فلاح الحقل عبدا قنا
الإقطاع الذي يعيش فيه ، وقفا على العمل به ، هو ومن يولد له . يعمل ويكدح ،
ويسقى وينفخ ، ويحني ويحصد ، ويجمع ويحمل ، في سبيل صاحب الإقطاع ، وفي
سبيل رفاهيته وسعادته . فماذا جنى الفلاح من الأرض غير الشقاء ، وماذا جنت
الأرض غير الاغتراب والاعتصاب .

هكذا كان الريف مصدر شقاء للفلاح وبلاء . فكيف يحكى الشاعر أحاسيس
هذا الفلاح ، ويغنى أهاليه ويرتل أناشيده

ولقد كانت الأمة غارقة في حياة إقطاع ، مرت عليها حقبتها ، وهي غافلة عن
حقيقته غفلة دعمها تسلسل الأيام وأوضاعها . فلم يكن ثم شعور قوى يربط بينها
وبين أرضها وحقوقها .

وبعد ، فقد عانيت في هذا البحث ما عانيت ، وجاهدت فيه ما استطعت .
ورجوت أن يحقق الهدف الذى له سعيت ، وهو التدليل على أن الشعب المصرى
في العصر المملوكى ، كان يقظ الفكر والعاطفة . ودلت على ذلك عن طريق
دراسة شعره مرتباً بعوامل بيئانه . وأعتقد أننى حققت هذا الهدف .

ولا أستطيع أن أزعم أن هذا البحث هو آخر البحوث في موضوعه ، ولا
أنا بلغت به حد الكمال . بل أعتقد أننى فتحت به باب البحث ، ويسرت سبيله
لمن يلج طريقه ، ويلج حبه ، ويتبع نهجه .

وقد طفت - كما ذكرت - بكثير من الدواوين الشعرية وجماعها وكتب
التاريخ ونحوها ، مخطوطة ومطبوعة ، ولا أقول إننى حملت فى ذلك مشقة ،
فالمشقة ضرورة مطردة من ضرورات البحث .

ولكن موضوع الشكاية حقاً ، فقدان كثير من المراجع ، التى كان من
المستطاع والمترب أن تمدنا بنصوص ووثائق قيمة فى الموضوع ، تعين على دراسة
مكتملة ، وعلى حكم أكثر صحة .

ومنها على سبيل المثال - لا الاستقصاء - هذه الدواوين الشعرية :

١ - ديوان نور الدين الأسعدى ويسمى « سلافة الزرجون فى الخلعة
والمجون » .

٢ - ديوان أبى الحسين الجزار المصرى ويسمى « تقاطيف الجزار » .

٣ - ديوان ناصر الدين بن النقيب : وقيل إنه فى مجلدين ملاحظهما بالمقطعات .

٤ - ديوان سراج الدين المحار : وقيل إنه ديوان موشحات مشهور .

٥ - ديوان صدر الدين بن المرحل : واسمه « طراز الدار » وهو مملوء
بالموشحات .

٦ - ديوان شمس الدين بن الصائغ : قيل إنه فى مجلدين .

٧ - ديوان إبراهيم المعمار : قيل إنه كان مشهوراً .

بل قل : أين شعر ابن عبد الظاهر جميعه ، وكذلك شعر الشاب الظريف ،
والسراج الوراق ، وشمس الدين القادرى ، والشهاب الحجازى ، والجمال
السلهونى ، وغيرهم .

إن هذه الدواوين ، وشعر هؤلاء الشعراء ، فى حاجة إلى باحث يكشف عنها
ويبرزها أو يجمعها وينشرها . على أن شعر العصر فى جملة ، لم تبذل له مصر من
العناية والاهتمام ، جزم أنما بذلته وتبذله لشعر العصور الأخرى . إنه فى حاجة إلى
بذل وعناية ، لتحقيق المخطوط وضبطه وشرحه والتعليق عليه ، وطبعه ، وذلك
كديوان القيراطى وابن حجة وابن حجر ، ومثل مجاميع ألحان السوابع للصفدى ،
وتأهيل الغريب لابن حجة الجوى ، وروض الآداب للشهاب الحجازى ، ورياض
الآلباب للشمس النواجى ، وكوكب الروضة للجلال السيوطى - وهذه الدواوين
والمجاميع المخطوطة موجودة حالياً بدور المكتب .

وكذلك إنه فى حاجة إلى إعادة طبع ماسبق طبعه ، بعد التحقيق والضبط
والشرح والتعليق ، ومنه ديوان ابن نباتة وصفي الدين الخلى والشاب الظريف .

هذا كله عدا ضرورة جميع المتناثر من شعر العصر فى كتب التاريخ العام
وتراجم الأعلام وكتب السير والخطط وغيرها .

وإذا كان لنا أن نضيف إلى ماتقدم ، موضوعات جديدة جديدة بالدراسة
والمعالجة والبحث ، فإننا نضيف مايلى إلى ماسبق أيضاً التنويه به خلال سطور
هذا البحث :

١ - المدائح النبوية فى العصر المملوكى ، عوامها ، اتجاهاتها ، أنواعها ،
نتائجها الخ .

٢ - بردة البوصيرى وأثرها فى الأدب ، اتجاهها ، معارضاتها ومنها
البديعيات ، تشطيرها ، تخميسها ، شروحها ...

- ٣ - البديعيات ، منزاتها وشروحها .
- ٤ - النكتة والفكاهة في الشعر المملوكي .
- ٥ - الشعر المملوكي بين الفكر والعاطفة ، وبين الطبع والصنعة . أو مدارس الشعراء في العصر المملوكي .
- ٦ - النيل في الأدب المملوكي شعره ونثره .
- ٧ - صدى الإسلام في الأدب المملوكي ، موضوعا وأسلوبا .
- ٨ - صوت العروبة ، في الأدب المملوكي .
- ٩ - العلاقات الإخوانية ونتائجها في الأدب المملوكي .
- ١٠ - دراسات مفصلة عن كل شاعر من شعراء العصر ، أمثال : الشاب الظريف . ابن عبد الظاهر . القيراطي ، ابن حجة . ابن حجر : الشمس النواجي الخ .

والله أعلم

بذلك انتهت هذه الموسوعة والحمد لله رب العالمين
رمضان المعظم عام ١٣٨٥ هـ - يناير عام ١٩٦٦

من مراجع المجلد الثامن

- ١ - ابن نباتة المصرى أمير شعراء المشرق للأستاذ عمر موسى .
- ٢ - ألحان السواجع لصلاح الدين الصفدى - خط بدار الكتب المصرية .
- ٣ - الأصول الفنية للأدب للأستاذ الجليل عبد الحميد حسن .
- ٤ - الألفاظ الخفية فى سيرة الملك الأشرف خليل بن قلاوون لمحى الدين ابن عبد الظاهر .
- ٥ - بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس الحنفى .
- ٦ - تأهيل الغريب لتقى الدين بن حجة الحموى - خط بمعهد الإسكندرية الدينى ودار الكتب المصرية .
- ٧ - - تشرىف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور «قلاوون» لمحى الدين ابن عبد الظاهر - نشر الدكتور مراد كامل .
- ٨ - الثرات الشهية «جنى الجنتين» - ديوان ابن حجة الحموى - خط بدار الكتب المصرية .
- ٩ - جنان الجناس لصلاح الدين الصفدى .
- ١٠ - حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لشمس الدين بن القيم .
- ١١ - حسن التوسل بصناعة الترسل لشهاب الدين محمود الحلبي .
- ١٢ - حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطى .
- ١٣ - خزانة الأدب «تقديم أبى بكر» لتقى الدين بن حجة الحموى .
- ١٤ - الخطط لتقى الدين المقرئ .
- ١٥ - خلع العذار فى وصف العذار لشهاب الدين عبد الوهاب الحنفى - خط بدار الكتب بالمنصورة .

- ١٦ — الدر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لشهاب الدين بن حجر العسقلاني .
- ١٧ — الدر الفاخر لأبي بكر الدوادارى .
- ١٨ — دمة الباكي ولوغة الشاكي لصالح الدين الصفدى .
- ١٩ — دولة المماليك البحرية للسير ولیم مویر - تعريب الاستاذين محمود عابدين وسليم حسن .
- ٢٠ — ديوان برهان الدين القيراطى « مطلع النيرين » - خط بالمكتبة الأزهرية .
- ٢١ — ديوان جمال الدين بن نباتة المصرى .
- ٢٢ — ديوان زين الدين بن الوردى ط الجوائب .
- ٢٣ — ديوان الشاب الظريف .
- ٢٤ — ديوان شرف الدين البوصيرى .
- ٢٥ — ديوان شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى — خط بدار الكتب المصرية .
- ٢٦ — ديوان شهاب الدين بن حجر العسقلاني — خط بالمكتبة الأزهرية .
- ٢٧ — ديوان الصبابة لشهاب الدين بن أبى حجلة المغربى .
- ٢٨ — ديوان صفى الدين الحلى — ط النجف .
- ٢٩ — ديوان نحر الدين بن مكائس — خط بدار الكتب المصرية .
- ٣٠ — روض الآداب لشهاب الدين الحجازى — خط بالمكتبة الأزهرية .
- ٣١ — رياض الالباب لشمس الدين النواجى — خط بالمكتبة الأزهرية .
- ٣٢ — زبدة الفكرة لبيرس الدوادارى — مصور بمكتبة جامعة القاهرة .
- ٣٣ — السلوك لتقى الدين المقرئى .
- ٣٤ — صبح الأعشى لشهاب الدين القلقشندى .

- ٣٥ — الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع لشمس الدين السخاوى .
- ٣٦ — الطالع السعيد لسكمال الدين الأدفوى .
- ٣٧ — طبقات الشافعية لتاج الدين السبكي .
- ٣٨ — العبر وديوان المبتدأ والخبر لولى الدين بن خلدون .
- ٣٩ — عقد الجمان لبدر الدين العيني ، مصور بدار السكتب المصرية .
- ٤٠ — الفتوة عند العرب للأستاذ عمر الدسوقي .
- ٤١ — فوات الوفيات لابن شاكر السبكي .
- ٤٢ — كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام لتقى الدين بن حجة الحموى .
- ٤٣ — كنز الدرر وجامع الغرر لأبى بكر الدوادارى .
- ٤٤ — كوكب الروضة لجلال الدين السيوطى - خط بدار السكتب المصرية .
- ٤٥ — كيف يعمل العقل للسيرسرل برت - تعريب الأستاذ محمد خلف الله أحمد .
- ٤٦ — المدائح النبوية للدكتور زكى مبارك .
- ٤٧ — مسالك الأبصار لشهاب الدين بن فضل الله العمرى .
- ٤٨ — مصر فى العصور الوسطى للدكتور على إبراهيم حسن .
- ٤٩ — معجم البلدان لياقوت الحموى .
- ٥٠ — مطالع البدور فى منازل السرور ، للغزولى ، خط بالمكتبة الأزهرية .
- ٥١ — المنهل الصافى لأبى المحاسن بن تغرى بردى .
- ٥٢ — النابغة الذيبانى للأستاذ عمر الدسوقي .
- ٥٣ — نكت الهميان للصغدى .
- ٥٤ — نهاية الأرب لشهاب الدين النويرى .
- ٥٥ — الهامش على سلوك المقرئى للدكتور محمد مصطفى زيادة .

فهرس موضوعات المجلد الثامن

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٣	المقدمة	٣١	تسجيل ابن عبد الظاهر
		٣١	مع المنصور قلاوون
٦	في أثر البيئة السياسية في الشعر	٣٢	استيلاؤه على حمص ، يسجله
٦	الشعر بين دوافع البيئة وموانعها		ابن عبد الظاهر
٨	اتجاه ابن نباتة	٣٣	وصف فتح الدين بن عبد الظاهر
١٠	اتجاه صفي الدين الحلبي		لمعركة حمص
١١	فرار بعض الشعراء	٣٤	وصف ناصر الدين بن النقيب
١٥	من نتاج البيئة السياسية		لفتح حمص
١٧	شجاعة بيبرس	٣٥	وصف بدر الدين البزاز المنبجي
١٨	فتح بلاد سويس يسجله ابن	٣٦	فتح قلاوون لحصن المرقب
	عبد الظاهر	٣٧	الشعر يسجل هذا الفتح
٢٤	الظاهر بيبرس يعبر الفرات -	٣٨	شعر ابن عبد الظاهر في وصفه
	وصف ابن عبد الظاهر	٣٩	قصيدة أخرى له في وصفه
٢٥	وصف بدر الدين بن يوسف	٤١	وفاة المنصور قلاوون
	المهمندار	٤٢	مرثية لمحيي الدين عبد الظاهر
٢٦	تسجيل شهاب الدين محمود الحلبي	٤٥	في عصر الأشرف خليل
٢٦	ناصر الدين محمود النقيب	٤٦	هدية سياسية للأشرف خليل
٣٠	موت بيبرس ورثاء ابن عبد	٤٦	محيي الدين بن عبد الظاهر يصف
	الظاهر		الهدية
٣٠	وفد من التتار يلجأ إلى بيبرس	٤٧	لعبد الشواني

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٤٧	وصف ابن عبد الظاهر لها	٧٧	عين الشعر بين الناصر محمد والمظفر بيبرس
٤٨	الأشرف خليل يفتح عكا	٧٧	موقف صدر الدين بن المرحل وغيره من الناصر محمد بن قلاوون
٤٨	تنبؤ البوصيرى بفتح عكا	٧٨	الشارح مساحى يهني الناصر بعودته إلى السلطنة
٤٩	شعر ابن العنبرى فى استقبال الأشرف خليل	٧٨	الزجل ينادى بعودة الناصر
٥١	الشهاب الحلبي يسجل فتح عكا	٧٩	الوداعى والصفدى وابن النقيب وغيرهم يرحبون بعودة الناصر ويهنتونه بها
٥٧	شمس الدين بن الصائغ يهني بفتح عكا ويصفه	٨٠	الألغاز فى ميدان السياسة
٥٨	بدر الدين المنبجى يهني بفتح عكا	٨١	أبيات ملغزة لصدر الدين بن المرحل فى تحذير الأفرم
٥٨	الأشرف خليل يفتح قلعة الروم والشهاب الحلبي يصف الفتح ويمدح الأشرف	٨١	نائب الشام من الناصر محمد صفى الدين الحلبي والناصر بن قلاوون وعلاء الدين بن الأثير
٦٢	عصر الناصر بن قلاوون	٨٢	تجنيس لصفى الدين الحلبي يعارض به الشاب الظريف
٦٣	شعراء عصر الناصر بن قلاوون	٨٢	صفى الدين الحلبي يمدح الناصر ابن قلاوون
٦٤	مبلغ صلة ابن نباتة بالناصر بن قلاوون	٨٤	الناصر بن قلاوون فى شعر ابن نباتة
٦٥	موقعة مرج راهط وانتصار الناصر فيها	٨٥	خلفاء الناصر والشعر
٦٦	علاء الدين بن عبد الظاهر يتغنى بموقعة مرج راهط		
٦٧	أبيات لنجم الدين بن العيني فى وصف المعركة		
٦٩	مطولة فريدة فى وصف المعركة		
٧٤	لابى بكر قاضى عجلون أحسن ما قيل فى هذه المعركة ، من نظم شمس الدين الطيبي		

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٨٧	صلاح الدين الصفدى والمظفر حاجى	١٠٩	والأمير دمرداش من الخاصكى ابن حجر العسقلانى والخليفة المستعين بالله .
٨٨	الزجل فى الميدان	١١٢	قصائد لابن حجر العسقلانى ، فى مدح ملوك الين وتونس .
٨٩	ابن نباتة والناصر حسن	١١٥	تقى الدين بن حجة الحموى يمدح المؤيد شيخا
٩٠	ابن نباتة يرثى تقى الدين السبكى ويتشوق إلى مصر	١١٨	تقى الدين بن حجة وصاحب تونس
٩١	ابن نباتة يمدح الناصر حسن بن الناصر محمد	١٢٠	زين الدين بن الخراط
٩٣	ابن أبى حجلة المغربى والناصر حسن ورجال عصره	١٢١	تأديب ملك قبرص ، وشعر ابن الخراط فى ذلك .
٩٤	ابن أبى حجلة المغربى والامير سعد الدين الجمدار	١٢٢	عودة الزجل وظهور بدر الدين الزيتونى .
٩٤	ابن أبى حجلة المغربى والامير يلبغا العمرى .	١٢٤	الشهاب المنصورى يسجل حادث سوار
٩٧	ابن أبى حجلة المغربى يمدح الناصر حسنا	١٢٤	الزيتونى يسجل رحلة قايتباى إلى الشام
٩٩	برهان الدين القيراطى يمدح الناصر حسنا	١٢٥	الزيتونى يرثى قايتباى
١٠٠	خلف الغبارى والأشرف شعبان	١٢٦	الزيتونى يسجل ثورة عرب عزالة
١٠٣	خلف الغبارى والظاهر برقوق	١٢٧	الزيتونى يرثى دولة الغورى
١٠٥	تقى الدين بن حجة الحموى والامير منطاش .	١٣١	الفصل الثالث
١٠٧	تقى الدين بن حجة الحموى		فى أثر البيئة الثقافية فى الشعر

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
شروط العالم		بين العلم والشعر	١٣١
أرجوزة السيوطي في التثبيات	١٦٥	شعراء علماء	١٣٢
عند التثبيات ،		أبيات لتقى الدين السبكي في	١٣٤
(ب) الأسئلة والأجوبة	١٦٦	الروافض	
أبيات ابن الثقفى الزنديق ورد	١٦٧	أبيات لابن دقيق العيد في مدح	١٣٤
العلماء عليه		الرسول عليه الصلاة والسلام	
أبيات تتضمن أسئلة في النحو	١٦٩	أبيات لابن حجر في مدح	١٣٤
وجواب ذلك		الرسول عليه الصلاة والسلام	
أبيات تتضمن أسئلة في الفقه	١٧٠	غزليات للسبكي وابن دقيق العيد	١٣٥
وجواب ذلك .		وابن حجر	
(ج) الأغاز والأحاجي	١٧١	شعراء أميون	١٣٦
أحمد بن عبد الملك العزازی	١٧٣	ثقافة الشعراء	١٣٩
يلغز في شبابة		من أسباب نشاط الشعراء	١٤٦
لغز في « من » للشهاب الحاي	١٧٣	الرغبة في إظهار العلم	١٤٦
لغز في دينار للصالح الصفدى	١٧٤	حب البديع	١٤٨
لغز في كوز لمحي الدين بن عبد	١٧٥	النقد الأدبي	١٥١
الظاهر		نتاج النشاط	١٥٧
لغز في باب له أيضاً	١٧٥	(١) حقائق العلوم	١٥٧
أغاز أخرى	١٧٦	شعراء نظموا في العلوم	١٦٠
(د) البديعيات	١٧٧	أبيات في الشجاعة لعلاء الد	١٦٣
أبيات بديعية لأمين الدين	١٧٨	القونوى	
السليمانى		أبيات لشهاب الدين بن فضل الله	١٦٤
صفي الدين الحلى مخترع	١٨٠	العمرى في تاريخ الخلفاء	
البديعيات		الفاطميين .	
أشهر البديعيات	١٨٣	أبيات لعلاء الدين الباجى في	١٦٤

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
١٨٤	أبيات من بديعية صفى الدين	١٩٨	(ز) الشعر القصصى والنميلي
	الحلى	١٩٩	اللطائم والأشناف لفخر الدين
١٨٥	أبيات من بديعية ابن حجة		ابن مكانس
	الحموى .	٢٠١	طيف الخيال لابن دانيال
١٨٦	(هـ) الحكمة والمثل والنصيحة		الموصلى
١٨٧	أبيات لأبى الحسين الجزار	٢٠٨	(ح) الاستجازه والإجازة
	المصرى فى الكرم	٢٠٩	استجازه لمحمد بن جابر الأندلسى
١٨٧	أبيات للقيسرانى فى طلب الرزق		للفقدى .
١٨٨	أبيات لتقى الدين السبكى فى	٢١٠	إجازة الصفدى له .
	الدعوة إلى العلم والخلق	٢١١	إجازة لصفى الدين الحلى
١٨٩	تقى الدين السبكى يوصى ولده	٢١٢	إجازة لزين الدين بن الوردى
١٩٠	أبيات لشافعى بن على ومجير الدين		
	المطى		
١٩٠	ابن الوردى وشعر الحكمة	٢١٤	الفصل الرابع
	والتنويه بلاميته		
١٩١	تحذيرات ووصايا لزين الدين بن		
	الوردى ودعوة إلى اعتزال	٢١٥	فى أثر البيئة الاجتماعية فى الشعر
	الناس		استبداد الطبقة الحاكمة وأثره
١٩٢	أبيات أخرى فى المعنى نفسه	٢١٥	تنفس الجماهير عن طريق النسيئة
			والحماسة الدينية وأثر ذلك
١٩٣	(و) الشعر الفلسفى والمذهبى		فى الشعر
١٩٤	ابن الوردى وحياة الخمول	٢١٦	الشعراء وطلب الرزق
١٩٥	أبيات من شعره يدعو إلى	٢١٧	ابن الوردى وتمرين القريحة
	الزهد والخمول	٢١٨	العلاقات الشخصية وأثرها فى
١٩٦	ابن نباتة يتحدث عن طلب اللذة		الشعر

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢١٨	قصة عن السراج الوراق وأبي الحسين الجزار		الاجتماعي
٢١٩	قصة عن نور الدين بن سعيد وجماعة من الأدباء	٢٣٦	تحليل للقصيدة الأولى وتلخيص لمعانيها .
٢٢٠	مفاكمة بين نحر الدين بن مكانس وبدر الدين البشتكي	٢٣٨	تحليل للقصيدة الثانية وتلخيص لمعانيها
٢٢١	بين الأصفوني ونبيه الدين .	٢٤١	شهاب الدين الأعرج يحمل على القبط والترك والسلطان ، وينعى عليهم استئثارهم بالرزق
٢٢٢	معاقبة بين الصفي الحلبي وابن نباتة		ابن إياس الحنفي ينقد الأتراك
٢٢٣	كتاب ألحان السواجع للصفدي	٢٤٢	ابن أبي حجلة المغربي يتهمكم على القبط .
٢٢٣	طائيات بين الصفدي والقيراطي		بدر الدين الدمشقي ينقد وظائف الدواوين ويفضل عليها صناعة التعليم
٢٢٤	الإيحاء	٢٤٣	ناصر الدين بن النقيب ينعى على بعض رؤساء زمانه
٢٢٤	الشطرنج بين تقي الدين السبكي وأبي حيان		ابن إياس يتهمكم بشمس الدين ابن عوض
٢٢٦	العز بن عبد السلام يجيزه تلاميذه	٢٤٣	سيف الدين السامري يسخر بالأميرين : طوغان وإيدمر سيف الدين السامري ينقد أحد القضاة .
٢٢٧	ابن حجر العسقلاني يحكم بين ابن حجة وابن نباتة والقيراطي	٢٤٤	
٢٣١	ناصر الدين البارزي وبديعية ابن حجة الحموي	٢٤٥	
٢٣٢	الرغبة في النقد الاجتماعي	٢٤٦	
٢٣٥	قصيدتان للبوصيري في النقد		

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٢٤٧	ابن إياس الحنفي يصف جور الغورى	٢٥٩	صناعة الشعر
٢٤٨	ابن إياس الحنفي يصف فرح الناس بموت الأمير طرا باى لشدة جوره وعسفه .	٢٦٠	سراج الدين الوراق يسخر بصناعة الشعر الهجاء
٢٤٨	ابن أبى حجلة المغربي يحمل على الجلبان ويصف عبثهم وظلمهم للناس .	٢٦٠	الشباب الظريف يهجو ابن بعقوب من الخوافز إلى الشعر الرغبة فى التسليمة
٢٤٩	الشار مساحى الشاعر يهجو القاضى بدر الدين بن جماعة .	٢٦٢	شهاب الدين بن فضل الله يصف دير بلوذان
٢٥١	شاعر يشكو القاضيين الهروى والبلقيني إلى الملك المؤيد	٢٦٣	السراج الوراق ودير شعران المنافسات الأدبية
٢٥٢	القاضى ابن النقيب بين نقد الشعراء	٢٦٤	المنافسة بين ابن نباتة والصفدى أبياب من معانيهما .
٢٥٢	السهروردي الشاعر يهجو ناجرا جمال الدين السلمونى الشاعر يهجو معين الدين بن شمس	٢٦٥	مداعبات بين ابن حجر والبدر العيني وبهاء الدين البرجى .
١٥٣	جمال الدين السلمونى الشاعر يهجو القاضى عبد البر بن الشحنة .	٢٦٦	محير الدين بن تميم وغيره يصف الروضة والدولاب
٢٥٣	القاضى ابن الحبال الحنبلى يتهكم بزواره المناققين .	٢٦٧	كثرة الشعراء وطبقاتهم شعراء عصر الناصر بن قلاوون شعراء التورية .
٢٥٦	فتح الدين بن سيد الناس يتهكم بالصوفية	٢٦٩	السبعة الشهب
٢٥٧	كمال الدين الأدفوى ينقد التعليم والمتعلمين .	٢٧٠	الشاه إسماعيل يتهكم بالغورى ومصر ، فيرد عليه نحو مائتى شاعر .
٢٥٨	زين الدين الوردى ينصح بترك	٢٧٣	امتزاج شعراء مصر والشام
٢٥٩		٢٧٤	حلبات الشعراء

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٢٨٠	نتاج هؤلاء الشعراء	٣٠٤	(د) الشعر الإخواني
٢٨٢	من أغراض الشعر	٣٠٦	شوقيات بين علاء الدين بن غانم والصفدى
٢٨٢	(١) المديح النبوى	٣٠٧	معانيات بين الشهاب الحلبي وتقى الدين الصالحى
٢٨٤	شعراء المديح النبوى	٣٠٩	هـ - الاستدعاء
٢٨٥	بردة البوصيرى وأثرها	٣١١	استدعاء لفخر الدين بن مكائس
٢٨٧	مدحة نبوية للشاب الظريف	٣١٢	استدعاء للصفى الحلى
٢٨٨	مدحة نبوية لتقى الدين شبيب ابن حمدان	٣١٣	استدعاء آخر للصفى الحلى
٢٨٩	مديح نبوى لزبن الدين بن الوردى	٣١٣	استدعاء للشاب الظريف .
٢٩٠	رائية ابن نباتة فى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام .	٣١٤	عمدة الحرفاء وقدره الظرفاء . فى آداب المنادمة لفخر الدين بن مكائس
٢٩٢	(ب) الزهد والتصوف	٣١٦	و - المجون
٢٩٣	من شعراء هذا الفن	٣١٧	زين الدين بن الوردى يحذر من حب المرء .
٢٩٤	حديث عن لامية ابن الوردى	٣١٨	من مجونيات محبى الدين بن عبد الظاهر .
٢٩٦	أبيات لشمس الدين بن القيم فى وصف الجنة	٣١٨	الصفدى يصف غلاما
٢٩٧	صلاح الدين كيكلى والحياة	٣١٩	نحر الدين بن مكائس يصف بعض المجان
٢٩٧	ابن نباتة والزهد	٣١٩	أبيات أخرى فى المعنى لبعض الشعراء .
٣٠٠	(ح) الشكوى :	٣٣٠	ز - الخريات
٣٠١	ابن الوردى يشكو الزمان وأهله	٣٣١	نور الدين الإسعردى يفضل الحشيشة على الخمر .
٣٠٢	الشاب الظريف يبت همه ويشكو الزمان		
٣٠٣	ابن نباتة يعلل لتبكير شبيهه		
٣٠٤	ابن دانيال الموصلى يشكو زوجته		

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٣٢٢	ثم بفضل الخمر على الحشيشة	٣٥١	وصف الخال
٣٢٢	خمرية لمحي الدين بن عبد الظاهر	٣٥٢	وصف مواضع أخرى من
٣٢٣	السراج الوراق وراهب دير		مواضع الجمال
	شعران	٣٥٧	ي - تسجيل الحوادث والعادات
٣٢٤	أبيات خمرية في صدر مدحة	٣٥٨	أبيات المعمار وابن أبي حجلة
	لابن نباتة		في وصف الوباء
٣٢٥	خمرية لبرهان الدين القيراطي	٣٥٩	أبيات للبزاغي في نقص النيل
٣٢٦	صدر الدين بن الوكيل يصف الخمر	٣٦٠	شاعر يخاطب النيل ليزيد
٣٢٧	أبيات لابن دانيال الموصلی	٣٦١	شمس الدين النواجي ونقصان
٣٢٨	ابن النقيب وابن المنير يسخران		النيل
	بإبليس وخمره	٣٦٣	شكوى السيوطي من وباء
٣٢٩	ح - الغزل		عام ٩١٠ هـ
٣٣١	الصفدي وغلتمان الأتراك	٣٦٣	شاعر يتغزل في الرغيف
٣٣١	ابن نباتة يصف العارض		لارتفاع الأسعار
٣٣١	غزل مذكر لبدر الدين بن يوسف	٣٦٤	بهاء الدين يعلى لسقوط منارات
	المهندار		جامع السلطان حسن .
٣٣٢	غزلية لابن خلكان	٣٦٥	نماذج أخرى للوداعي وغيره
٣٣٣	غزلية للشباب الظريف		في ملابس الطوائف .
٣٣٣	أبيات في المعنى لتقى الدين	٣٦٦	رثاء الأعلام .
	السروجي وغيره	٣٦٨	رثاء بركة الرطلي لبدر الدين
٣٣٦	قصة غزلية لشرف الدين		الزيتوني .
	البوصيري	٣٧٠	وصف ليلة من لياليها لابن إياس
٣٣٨	وصف العيون		الحنفي .
٣٣٩	وصف اللحظ	٣٧١	وصف ليلة بالمقياس لابن
٣٤١	وصف الدمع		إياس الحنفي
٣٤٨	وصف العذار	٣٧٢	ك - وصف أدوات البيئة :

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٧٤	وصف إبريق لسراج الدين المجلان	٤٢٠	الاكتفاء . حسن . التعليل .
٣٧٤	وصف قنديل له أيضاً		لزوم ما لا يلزم
٣٧٤	وصف مبخرة لابن أبي حجلة	٤٢١	التورية بالمصطلحات
٣٧٥	وصف القلم للشباب الظريف	٤٢٢	٣ - الوضوح
	وابن حجة الحموي	٤٣٢	٤ - الوصف والتصوير
٣٧٦	وصف القلم لابن نباتة .		والتشخيص
٣٧٧	الفصل الخامس	٤٣٦	تحليل أبيات خمرية لابن نباتة
	في أثر البيئة بأنواعها في نواحي	٤٣٨	وصف الشمعة لشمس الدين المشد
	الشعر الفنية	٤٤٠	تحليل أبيات خمرية أخرى
٣٧٧	أساليب الشعر وطرق تعبيره		لابن نباتة
	وعرض معانيه	٤٤٢	نماذج أخرى للشباب الظريف
٣٧٨	١ - توخي السهولة		وغيره
٣٨٦	٢ - اصطناع البديع	٤٤٤	٥ - الفكاهة والنكتة
٣٨٦	أثر الدولة الحاكمة	٤٤٧	٦ - المعارضات والمناقضات
٣٨٨	مذهب القاضي الفاضل	٤٥٥	٧ - السرقات الشعرية
٣٩٠	أمثلة من شعر الفاضل	٤٦٥	التقليد والتجديد
٣٩٤	الدراسات القرآنية	٤٦٨	٨ - العبارات والأمثال السوقية
٣٩٥	براعة الاستهلال	٤٨٠	٩ - الخروج عن اللغة وكثرة
٣٩٩	الجناس		الضرورات الشعرية
٤٠٤	جناس التورية	٤٩٠	الأوزان والقوافي وما يتصل بها
٤٠٥	التورية	٤٩٠	المطولات والمقطوعات
٤٠٨	الاستخدام	٤٩٤	الأوزان القديمة
٤١١	التضمن	٤٩٧	القوافي
٤١٦	الافتباس	٥٠٣	الموشحات
٤١٨	الطباق	٥٠٨	الزجل
٤١٩	المقابلة	٥١٩	خاتمة

فهرس أعلام المجلد الثامن

١٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ،

٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ،

٢٦٨ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ،

٢٨٠ ، ٣٢٨ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ،

٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ،

٣٧٢ .

ابن البقي المصري : ٤٥١ ، ٤٥٢ ،

ابن تغري بردى « أبو المحاسن » :

١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ٢٧٩ ،

٢٨٠ .

ابن تقي : ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،

ابن الثقي : ١٦٧ ،

ابن جابر الأنداسي : ١٨٢ ، ١٨٣ ،

٢٠٩ ، ٤١٠ ،

ابن حجاج : ١٤٤ .

ابن الحجار الشاعر : ٢٧٤ .

ابن حجر العسقلاني « شهاب الدين » :

١٢ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١١٤ ،

١٢١ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٧ ،

١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٦٢ ،

١٦٧ ، ١٧٦ ، ١٨٧ ، ٢٢١ ،

٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٤٢ ،

٢٤٣ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ،

٢٦٧ ، ١٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٨ ، ٢٧٦ ،

(١)

الآثاري : ٢٧٨ ، ٢٨١ .

أبان بن عبد الحميد اللاحقي : ١٥٧ .

إبراهيم بن علي الحرائي الشهير بعين

بصل : ٤٢٨ .

إبراهيم المعجار : ٦٣ ، ١٣٦ ، ٢٧١ ،

٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٣١٨ ، ٣٥٨ ،

٤٠٥ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٥١٧ ، ٥٢٣ ،

الأبرقوهي : ١٤٣ .

أبغا التتري : ١٩ ، ٣٨ .

ابن أبي حجلة المغربي « شهاب الدين » :

٩ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ١٠٠ ، ١٥٣ ،

١٥٦ ، ١٩٤ ، ٢٤٢ ، ٢٤٨ ، ٢٧١ ،

١٧٨ ، ٢٨٤ ، ٣٥٨ ، ٣٧٣ ،

٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٤٥ ، ٤٥٦ ،

٤٦١ ، ٤٧٥ ، ٤٧٨ ، ٤٩٢ .

ابن أبي الوفاء « أبو الفضل » :

٢٧١ ، ٢٧٩ .

ابن الأثير « صاحب المثل السائر » :

٢٧١ ، ٢٧٩ .

ابن إلياس الحنفى المؤرخ : ٢١ ، ٦٦ ،

٧٨ ، ١٠٠ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ،

١١٤ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ٣٠ ،

ابن خلكان « شمس الدين » : ٢٣٣ .

ابن دانيال الموصلي « شمس الدين » :

١٢ ، ١٥ ، ٦٣ ، ١٦١ ، ٢٠١ ،

٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ،

٢٧٧ ، ٢٠٤ ، ٣١٨ ، ٣١٧ ، ٣٢٨ ،

٤٧٢ ، ٤٧٧ ، ٥١٢ .

ابن دقيق العيد القشيري « تقي الدين »

١٢ ، ١٢٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ،

١٦٧ ، ١٩٤ ، ٢٨٤ ، ٤٥٠ .

ابن الربيع « مجاهد بن سليمان » : ١٣٦

ابن زيدون الشاعر : ١

ابن سلام « أمير العرب » : ٥١٤

ابن سناء الملك : ٢٧٠

ابن سيد الناس اليعمرى « فتح الدين » :

٦٣ ، ١٤٣ ، ٢٥٧ ، ٢٧٧ ،

٢٨٤ ، ٢٨٥

ابن سينا : ١٦٣

ابن شاكر الكنتي : ١٣٦ ، ١٤٢ ،

١٤٤ ، ١٩٠ ، ٢٢٠ ، ٢٣٧ ،

٢٢٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ،

٢٥٧ ، ٢٨٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٨ ،

٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٢٢٧ ،

٢٢٨ ، ٢٣٤ ، ٢٢٧ ، ٢٧٣ ،

٤٤٦ ، ٤٥٤ .

ابن شاهد الجيش : ١٤٥

ابن ضامن الضمير : ٥٠

ابن الطفال : ٥١٢

ابن العاقل الشاعر : ٢٧٤

٢٧٩ ، ٢٠ ، ٢٨٤ ، ٢٩٤ ،

٢٩٨ ، ٢٤٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،

٣٧٤ ، ٤٠٤ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ،

٤٣٨ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٦٧ ،

٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ،

٥١٥ ، ٥٢٥ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ .

ابن حجة الحموي « تقي الدين » : ٩ .

١٢ ، ٨٩ ، ١٠٥ ، إلى ١٠٩ ، ١١٤ ،

١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،

١٢٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٣ ، ١٥٣ ،

١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٨٢ ،

إلى ٨٥ ، ٩٠ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،

٢٢٧ ، إلى ٢٣٢ ، ٢٤٩ ، ٢٥٩ ، ٢٦٦ ،

إلى ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٣١١ ، إلى

٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ،

٣٢٦ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ،

٣٥٢ ، ٣٥١ ، ٣٥٠ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ،

٣٥٦ ، ٣٦٦ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٨١ ،

٣٨٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٠ ،

٣٩١ ، ٩٤ ، إلى ٤١٩ ، ٤٢٦ ، ٤٢٢ ،

٤٤٢ ، ٤٥٠ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ،

٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٤٨٢ ، ٤٨٥ ،

٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٥٠٢ ، ٥٠٩ ، ٥١٧ ،

٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٥ .

ابن حرمون : ٢٢٥ .

ابن الخراط : في زين الدين .

ابن خطيب داريا : ٢٧٨ .

ابن خطيب المزة : ١٤٣

ابن خلدون : ٦٦ ، ٥١٧

٢٧١، ٢٢١، ٢٢٠، ٢٠١، ١٩٩
٣١٥، ٣١٤، ٣١١، ٢٨٠، ٢٧٨
، ٣٥٥ ، ٣٥٠ ، ٣١٩ ، ٣١٨
٠٤٩٢، ٤٦٥، ٤٦٢، ٤١٥، ٤١٤
ابن مكناس «مجد الدين» : ٢٧١ ،
٤٠٤ ، ٢٧٩

ابن ميكال : ٣٩

ابن ناصر الدين الشاعر : ١٩٨

ابن نباتة المصري «جمال الدين محمد» :

٨ إلى ١٣ ، ٢٩ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٨٢
إلى ٨٨ ، ٩٠ إلى ٩٥ ، ١٤٣ إلى ١٤٦
١٩٧ ، ١٩٦ ، ١٥٦ ، ١٥٣ ، ٥٢
٢٣٠ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٢
٢٦٨ ، ٢٦٦ ، ٢٦٥ ، ٢٤٣ ، ٢٢١
٢٧٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٥ ، ٢١٢ ، ٣٧٠
٢٩٢ ، ٢٩١ ، ٢٩٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٠
٣٠٤ ، ٣٠٣ ، ٢٩٩ ، ٢٩٨ ، ١٩٧
٣٣٨ ، ٣٣١ ، ٣٢٥ ، ٣٢٤ ، ٢١٨
٣٥٧ إلى ٣٥٠ ، ٣٤٥ ، ٢٤٤ ، ٣٢٩
٣٧٩ ، ٣٧٦ ، ٣٧٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٦
، ٣٨٩ ، ٣٨٦ ، ٣٨٥ ، ٣٨٣ ، ٣٨١
، ٤٠٦ ، ٤٠٣ ، ٤٠٢ ، ٤٠١ ، ٣٩٩
إلى ٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٠٧ ، ٤٣١ ،
٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٥٠ ، ٤٥٦ ، إلى ٤٦٠ ،
٤٦٣ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٧٥ ،
٤٨٨ ، ٤٨٥ ، ٤٨٢ ، ٤٨١ ، ٤٧٨
، ٤٩٥ ، ٤٩٤ ، ٤٩٢ ، ٤٩١ ، ٤٨٩
، ٥٠٤ ، ٥٠٣ ، ٥٠٠ ، ٤٩٩ ، ٤٩٧
٥٢٤ ، ٥٠٧

ابن عبد الظاهر «محيي الدين» : ٩ ، ١٢
١٦ إلى ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٧ ، إلى ٤٨
٢٨٤ ، ٢٧٠ ، ١٧٥ ، ١٦٠ ، ١٢٩ ، ٨٣
٣٨٦ ، ٣٨٥ ، ٣٧٤ ، ٣٢٢ ، ٣١٨ ،
٤٦١ ، ٤٥٨ ، ٤٢٠ ، ٤١٨ ، ٤١٧
، ٥١٢ ، ٥٠٠ ، ٤٩٢ ، ٤٧٢ ، ٤٧٠
٥٢٥ ، ٥٢٤

ابن عساكر : ١٦٠

ابن العفيف : ٤٦٥

ابن الهمام الحنبلي : ١٧٦

ابن العميد : ٣٨٨

ابن العنبري الراعي : ٤٩ ، ٥٠

ابن فضل الله العمرى «شهاب الدين» :

٨٤ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٥ ،
١٦٤ ، ٢١٨ ، ٢٠٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣
٢٧٧ ، ٣٨١ ، ٣٩٤ ، ٤٠٦ ، ٤٧٠
٤٩٧

ابن فضل الله العمرى «علاء الدين» :

٨٤ ، ٩٠ ، ٣٢٤ ، ٤٤٨

ابن قاضي شهاب : ١٤٠

ابن قزمان : ٥١٠

ابن الكازروني : ٣٢٧

ابن كثير : ٥٧

ابن مالك الأندلسي النحوى «جمال

الدين» : ١٥٨

ابن المطهر الرافضى : ١٣٤

ابن المعتز : ٣٩٦ ، ٣٩٥

ابن مقاتل : ٥١٢ ، ٥٠٩

ابن مكناس «فخر الدين» : ٨٨ ،

أبو الفداء إسماعيل « المؤيد صاحب
حماة » : ٩ ، ١٠ ، ٢٩ ، ٦٥ ، ٨٤ ،

٣٩٨ ، ٩٢ ، ٤٠٧ ، ٤٦٦ .

أبو الفضل العراقي : ١٤٥

أبو المحاسن بن تغري بردى « جمال

الدين » : في ابن تغري بردى

أثير الدين أبو حيان النجوى الأندلسى

١٤٠ ، ٢١٤ ، إلى ٢٢٧ ، ٤٩٢ ، ٥٠٤

أبو النجا القمى : ٢٧١

أبو نواس : ٤٦٦ ، ٥٠٤

أحمد بن عبد ربه : ٥

أحمد بن عبد الملك العزازى : ١٧٣

أحمد الدرويش البراسى ٥١٢

أحمد سمكة : ٢٧٨

الأرجانى : ٤٦٥ .

ارغون شاه ٩٦

أركاس « أمير مجلس » : ١٢٩

أزبك بن ططخ « الأتابكى » : ١٧٣

الإسكندر الأكبر : ٩١

أسعد بن ممتاى : ٤٩٩

الأشرف إسماعيل « صاحب اليمن » : ١١٣

الأشرف برسباى : فى برسباى

الأشرف خليل بن قلاوون : فى قلاوون

الأشرف شعبان حفيد قلاوون : فى شعبان

الأشرف طومان باى : فى طومان باى

الأشرف قانصوه الغورى : فى قانصوه

الأشرف قايتباى : فى قايتباى

الأشعرونى الشاعر : ٢٧٤

أعشى قيس : ٢٨٢

ابن النقيب « ناصر الدين » : ٢٧ ،

٣٤ ، ٧٩ ، ١٧٣ ، ١٤٣ ، ١٧٠ ،

٢٧٦ ، ٣٢٨ ، ٣٤٠ ، ٤٢١ ،

٨٤ ، ٤٧٧ ، ٤٨٥ ، ٤٩٢ ، ٤٩٧ ،

٥١٣ ، ٥١٢ ، ٥٠١

ابن الوردى « زين الدين » : ٦٣ ،

٦٢ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، إلى ١٩٦ ،

٢ ، ٣ ، ٢ ، ٢١٧ ، ٢٥٩ ، ٢٧٠ ،

٢٠١ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ،

٢٩٤ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٧ ،

٣١٨ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٨٠ ، ٤٥٦ ،

٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٠٣ ،

٤٨٤ ، ٤٩٢

ابن وفاء السكندرى : ٢٩٢ ، ٥٠٤

ابن هبة الله الاصفونى : ٢٧٠

ابن هشام : ١٦٢

ابن اليزدى : ٤٩٥

أبو بكر بن دريد : ٢٩

أبو بكر بن اللبانة : ٢٧٠ ، ٢٧٧

أبو بكر الصديق : ٩١ ، ١٣٤

أبو بكر فاضى عجلون : ٦٩

أبو تمام « حبيب بن أوس الطائى » : فى حبيب

أبو جنك الحلبى : ١٧٧

أبو الحسين الجزار المصرى : ١٢ ، ١٤

١٥٠ ، ٦٠ ، ١٨٧ ، ٢١٨ ، ٢٠٩ ،

٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٧٠٠ ، ٢٧٦ ، ٣١٨ ، ٢٤٣

٣٤٥ ، ٢٧٤ ، ٤٤٦ ، ٤٨٣ ، ٤٩٢ ، ٥٢٣

أبو الطيب المتنبى : فى المتنبى

أبو العلاء المعرى : ٢٩٨

٢٧٩ ، ٢٦٧ ، ٢٥١ ، ١٦١
 بدر الدين بن فضل الله العمرى : ٣٧٥
 بدر الدين بن مالك : ٤٠٩
 بدر الدين البشتكى : ١٤٦ ، ١٥٠ ،
 ٤٠١ ، ٢٧٩ ، ٢٧٢ ، ٢٢١ ، ٢٠٠
 بدر الدين الدميرى : ٤٧١
 بدر الدين الذهبي : ٣٨٢ ، ٤٠٥
 بدر الدين الزيتوني : ٨٨ ، ١٠٢ ،
 ١٢٢ ، الى ١٢٨ ، ٢٠٩ ، ٣٦٨ ،
 ٢٦٩ ، ٣٧٠ ، ٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥١٥
 بدر الدين محمد بن يوسف المهندار :
 في محمد
 بدر الدين محمد المنبجي البراز :
 في محمد
 برسباي « الملك الأشرف » : ١٢١ ،
 ١٢٣ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ٢٨١
 البرسى « من أمراء النوبة » : ٤٦
 برقوق « الملك الظاهر » : ١٠٣ ،
 ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٩
 بركة « الأمير » : ١٠٣
 برهان الدين البقاعي : ١٦٠
 برهان الدين البهنسى : ٢٧٨ ، ٥٠٢
 برهان الدين العزازي : ١٤٠
 برهان الدين القرشي « ابن زعاقه » :
 ٢٧٨
 بهاء الدين الباعوني : ١٦ ، ١٦١ ،
 ٢٧٩ ، ٢٨١

الأفضل « صاحب حماة » : ٩ ، ١٠ ،
 ٢٩ ، ٦٥ ، ٨٤ ، ٩٢ ، ٢٩١
 أقبر دى الدوادار : ١٢٦
 امرؤ القيس : ٣٢٦ ، ٢٩٦ ، ٣٩٧
 ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٥٠٣
 الأمشاطى : ٥١٢
 أمير حاج بن شعبان « الملك » :
 ١٠٠ ، ١٠٤
 أمين الدين الأنصارى : ١٧٦
 أنصباي « حاجب الحجاب » : ١٢٩
 الأوحدي « شهاب الدين » : ٧٨
 إيتشمش « الأمير » : ١٠٣ ، ٥١٤

(ب)

البجترى الشاعر : ٤٩ ، ٤٤
 بدر الدين بن جماعة : ٧٧ ، ١٦١ ،
 ٢٤٩ ، ٢٧٠
 بدر الدين بن جمعة : ٢٧٩
 بدر الدين بن الحبال الحنبلي : ٢٥٦
 بدر الدين بن حبيب الحلبي : ٢٧٨
 بدر الدين بن الدمامني : ٢٧٢ ،
 ٢٧٩ ، ٤٦٣ ، ٤٨٩ ، ٤٩٢
 بدر الدين بن سلام : ١٠٤
 بدر الدين بن الصاحب : ٨٨ ، ٢٧٠
 ٢٧٨ ، ٤٥٣ ، ٤٧٩ ، ٤٩٢
 بدر الدين بن العيني : ٤٦ ، ٥٨٠ ، ٥٧
 ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٦

بهاء الدين البرجي : ٢٦٧
 بهاء الدين السبكي « أبو حامد » :
 ٢٨٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٣ ، ٧٠ ، ٨٨
 ٤٩٨ ، ٤٠٢ ، ٤٠٨ ، ٤٩٨
 البوصيري « شرف الدين » : ٤٩ ، ٤٨
 ١٧٨ ، ٢٢٣ ، ٢٣٥ ، الى ٢٤١ ،
 ٢٤٨ ، ٢٧٧ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ،
 ٣٢٦ ، ٣٣٧ ، ٤٥١ ، ٤٧٧ ، ٤٨٥ ،
 ٥٢٤ ، ٤٩١
 بيبرس الجاشنكير « الملك المظفر » :
 ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٧ ، ٧٨
 ٨٥ ، ٧٩
 بيبرس الدواداري المنصور : ٢٧ ،
 ٥٨ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٤ ، ٧٨ ،
 ٨١ ، ٨٠
 بيبرس « الملك الظاهر ركن الدين »
 ٩ ، ١٦ ، الى ١٩ ، ٢٢ ، الى ٣٧ ،
 ١٤٠ ، ١٦٠ ، ٢٢٠ ، ٢٢٧ ، ٢٣٨ ،
 بيبغا أروس : ٨٩ ، ٩٦
 بيدرا « نائب السلطنة » : ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٠٠ ،
 ٤٩٠ ، ٤٩٢

(ت)

تاج الدين بن صاحب نغر الدين : ٤٤٦
 تاج الدين بن عربشاه : ١٦١ ،
 ١٧٤ ، ٢٨٤
 تاج الدين الأرمني : ٢٦٩
 تاج الدين السبكي : ١٥٤ ، ١٥٥ ،
 ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،

تقي الدين السروجي : ٢٧٧ ، ٢١٨ ،
 ٣٢٣ ، ٢٥٠ ، ٥٠٤
 تقي الدين شبيب بن حمدان : ٢٨٨ ،
 ٢٨٩ ، ٣٤١
 تقي الدين الصالحى : ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،
 تقي الدين المقرئى : فى القرئى
 تكمدار أحمد « ملك التتار » : ٣٨

تيمور انك التتري : ١٠٩

(ج)

الجامي اليوسفي : ٢٤٨

جريس النوبى : ٤٦

جرير بن عطية : ١٥٥

جلال الدين بن خطيب داريا : ٢٧١

جلال الدين الإسنائى : ٢٦٩

جلال الدين البلقينى : ٢٥١

جلال الدين السيوطى : فى السيوطى

جلال الدين القزوينى : ٤١٣

جمال الدين بن ظهيرة : ١٤٦

جمال الدين بن غانم : ٤٠٤

جمال الدين بن نباتة المصرى : فى

ابن نباتة

جمال الدين أبو بكر قاضى عجلون : فى

أبو بكر

جمال الدين الأفرم نائب الشام : ٨٠

جمال الدين السبكى : ١٧٦ ، ٢٧٠

جمال الدين السلونى الشاعر : ١٢٧ ،

٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤

جمال الدين اليزدى : ٢٤٦ ، ٢٤٨

جورجى زيدان : ١٦٠ ، ١٦١ ،

١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤

جينوس بن جاك : ١٢١

(ح)

حاجى « الملك المظفر » ٨٧ ، ٨٩

حبيب بن أوس الطائى « أبو تمام » :

٥١٠٩ ، ٤٢٤

حسان بن ثابت الأنصارى : ٢٨٢

حسن بن السيد : ١٤٥

حسن بن محمد « الملك الناصر حفيد

قلاوون » : ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١٠٠ ،

٢٤٨ ، ٢٦١

الحسن بن هبة الله الأدفوى : ٥١٢ ، ٥١٣

حسن الطويل « ملك العراق » :

١٢٣

حطية : ٥١٢ ، ٥١٧

الحكم بن عقال : ١٥٢ ، ١٥٥

(خ)

خالد بن الوليد : ٣٢

خر بندا ملك التتار : ٨٠

خلف الغبارى : ٨٨ ، ٠٠ الى ١٠٢

١٢٢ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤

خليل بن أيبك « صلاح الدين الصفدى »

١٢ ، ٦٣ ، ٧٩ ، ٨٧ ، ١٤٢ ، ١٥٣ ، الى

١٥٦ ، ١٦٠ ، ١٦٩ الى ١٧٥ ،

١٩٠ ، ٢١٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،

٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ،

٢٨٠ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٩ ،

٢٢٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،

٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٨ ،

٣١٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ،

٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٣٩٤ ،

٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ، ٤٤٨ ،

٤٤٩ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ،

٤٦٠ الى ٤٦٣ ، ٤٧٠ ، ٤٧٣ ، ٤٨٥ ،

٤٧٨ ، ٤٩٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٢٥

خليل بن قلاوون « الملك الأشرف » :
 ٤٥ إلى ٥٩ ، ٦٢ ، ٥٠٠
 (د)
 دمر داش الخاصكى : ١٧
 (ر)
 ركن الدين بيبرس « الملك الظاهر »
 فى بيبرس
 ركن الدين بيبرس « الملك المظفر » :
 فى بيبرس
 الرويس : ٥١٢
 (ز)
 الزجاج : ٤٩٩
 زكى الدين بن أبى الأصبع : ٣٩٦
 زكى مبارك : ١٨٢ ، ٢٨٤ ، ٣٣٧
 الزخشرى : ١٦٢
 زين الدين بن الخراط : ٢٠ ، ١٢١
 ٢٧٨
 زين الدين بن الرعاد : ٤٩
 زين الدين بن الشحنة : ١٦١ ، ٢٨٤
 زين الدين بن العجمى : ١٧٦
 ٢٧١ ، ٢٧٩ ، ٥١٢ ، ٥١٧
 زين الدين بن الوردى : فى ابن الوردى
 زين الدين الشهرزورى : ٥١٢
 زين الدين العراقى : ٢٦٧
 (س)
 سراج الدين البلقينى : ٣٦٧
 سراج الدين عمر السكندرى القوصى :
 ٣١١

سراج الدين الحجان : ٣٧٣
 سراج الدين المحار : ٤٩ ، ٤٩٣ ،
 ٥٠٤ ، ٥٠٦ ، ٥٢٣
 سراج الدين الوراق : فى الوراق
 سعد الدين بشير الجدار : ٩٤
 السعيد بن بيبرس « الملك » : ٢٨
 إلى ٣١
 سلار المنصورى « نائب السلطنة » :
 ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٨ ، ٥١٣
 سلامش بن بيبرس « الملك » : ٢٨ ، ٣١
 سلم الخاسر : ٤٩٩
 سليم الأول : ١٢٩ ، ٥١٦
 سليم حسن : ٥٠
 السهمودى : ٢٧٠
 سنقر الأشقر : ٣٢
 السميل : ٥٠٢
 سوار « ملك الأبلستين » : ٢٣ ،
 ١٢٤ ، ١٢٥
 سودون العجمى « الأتابكى » : ١٢٩
 سودون الدوادارى : ١٢٩
 سيف الدولة الحمدانى : ٩ ، ١
 سيف الدين السامرى : ٢٠٥ ، ٢٤٦
 ٢٤٧ ، ٢٥٠
 سيف الدين المشد : ٢٨٠ ، ٢٧٦ ، ٤٦٨
 السيوطى « جلال الدين » : ٧٩ ، ٨٦
 ٨٧ ، ١١٢ ، ١٣٢ ، ١٦٠ ، ١٦١ ،
 ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٤ ، ١٨٤ ، ٢٥٢ ،
 ٢٨١ ، ٣٣٥ ، ٣٦٠ إلى ٣٦٨ ، ٥٢٤
 الشاب الظريف : ١٨٢ ، ١٤١ ،
 ١٤٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٧٦ ، ٢٨٤ ،
 ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٣٠٣ ، ٣١٣ ،

شمس الدين بن مسلم : ١٤٠
شمس الدين بن المشد : ٢٠
شمس الدين بن النقيب : ٢٠ ٢٧٧
شمس الدين الأسواني : ٢٢٦
شمس الدين الأصفهاني « محمود بن
عبدالرحمن » : ١٤٠
شمس الدين الباعوني : ١٦ : ١٦١ :
٢٨٤ .

شمس الدين البرماوى : ١٦٢
شمس الدين الخياط : ٤٨٩
شمس الدين الدمشقي الدهان : ١٥ : ٣٦٥ ،
٤٩٢
شمس الدين السخاوى : ١٤٥ : ١٨٠

١٨٥ : ١٩٨ : ٣٨٠
شمس الدين الطيبي : ٧٤
شمس الدين القادري : ٢٧٩ : ٣٣٤ ، ٥٢٤
شمس الدين قرا سنقر المنصوري : ٨٠
شمس الدين الكوفي : ٤٠٢ ، ٤٠٣
شمس الدين محمد بن عبد الوهاب : ٤٠١
شمس الدين المشد « محمد بن داود بن
على » : ٤٢٨

شمس الدين المنصوري « ابن كميل » : ١٢٠
١٩٩ ، ٢٠٨ ، ٢٨٤
شمس الدين النواجي : في النواجي
شمس الدين الواعظ : ٤٨٤
شمس الدين الهيتي : ١٤٤
شهاب الدين بن أبي السعود : ٢٧٩
شهاب الدين بن بكتمر : ٢٧٨
شهاب الدين بن حجر العسقلاني : في

٣٨٢ ، ٤٧٤ ، ٣٤٩ ، ٣٤١ ، ٣٣٣ ،
٤٢٠ ، ٤١٦ ، ٣٩٩ ، ٣٨٦ ، ٣٨٣ ،
٤٩٣ ، ٤٩٢ ، ٤٩١ ، ٤٢٢ ، ٢٤٢ ، ٤٢١ ،
٥٢٥ ، ٥٢٤ ، ٥٠٦ ، ٥٠٤ ،
شافع بن علي العسقلاني : ١٩٠
الشريفي الشاعر : ٢٧٤
شرف الدين بن أسد المصري :
٢١٨١ ، ١٣٦ ، ٥

شرف الدين الأنصاري : ٢٧٠
شرف الدين البارزي : ٢٧٠
شرف الدين البوصيري : في البوصيري
شرف الدين الرومي : ٤٠٢ ،
الشريف العباسي : ٢٧٤
شعبان « الملك الأشرف » : ١٩٥ : ٢١٤
٥١٣

شعبان « الملك الكامل » : ٨٦
شمس الدين بن الجزري : ١٤٦ : ٢٢٠ ،
شمس الدين بن دانيال الموصلی : في
ابن دانيال
شمس الدين بن سواده : ٧٩
شمس الدين بن الصائغ : ٤٧ ، ١٤٠ ،
٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٨ ، ٢٢٩ : ٥٢

شمس الدين بن عبد اللطيف : ٢١١
شمس الدين بن إعدلان : ٧٧ : ٧٨
شمس الدين بن عوض : ٢٤٤
شمس الدين بن القيم : ١٦٢ : ٢١٦ ؛
٢٠٧ .

شمس الدين بن اللبان : ١٦٧
شمس الدين بن المزين : ١٩٨ : ٢٧١ ،
٢٧٩ .

ابن حجر

شهاب الدين بن الشاب التائب : ٢٧٩

شهاب الدين بن صالح : ٢٧٣ ، ٢٧٩

شهاب الدين بن عربشاه : ١٦٠

شهاب الدين بن فضل الله العمرى «أحمد»

في ابن فضل الله

شهاب الدين بن مبارك شاه الدمشقي :

٢٧٣ .

شهاب الدين أبو جعفر المغربي : ١٨٣

شهاب الدين أبو العباس «أحمد بن

عبدالله بن مالك» : ١٧٤

شهاب الدين أحمد ناظر الجيش : ٥١٣

شهاب الدين الأعرج : ٢٤١

شهاب الدين الأوحدي : ٢٨١

شهاب الدين البزاعى : ٣٥٩

شهاب الدين التنوخى : ١٦٢

شهاب الدين الحاجي : ٢٧١

شهاب الدين الحجازي : ٢٢٨ ، ٢٧٣

٢٧٩ ، ٢٢٦ ، ٢٦٠ ، ٣٦٦ ، ٥٢٤

شهاب الدين الحلبي «أبو التناء محمود» :

في محمود

شهاب الدين الشار مساحي «أحمد بن

عبدالدايم» : ٧٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٤١

شهاب الدين عبد الوهاب الحنفى

المصرى : ٢٥٠

شهاب الدين العزازى : ٢٨١

شهاب الدين العطار : ٨٨ ، ٢٧١ ،

٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٩٢

شهاب الدين الكاسى : ٢٧٨

شهاب الدين المنصورى : ١٢٤ ، ١٧٣

٢٧٩ ، ٣٦٦ .

شهاب الدين النويرى : في النويرى

شيخ المحمودى «الملك المؤيد» : ٩ ،

٨٩ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٥

١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٦١ ، ٢٥١

٢٦٦ ، ٤٩١

شيخو العمرى : ٨٩ ، ٩٦ .

(ص)

الصابونى : ١٤٥

الصاحب زين الدين : ٢٤٧

الصالح بن ططر «الملك» : ١٢٣

الصالح الأرتقى : ١٠

الصالح صلاح الدين حفيد قلاوون :

٩٦ ، ١٠١

صدر الدين الآدمى الحنفى : ٤١٤

صدر الدين بن سناء الدولة : ٢٤٦ ،

٢٠٧ .

صدر الدين بن عبد الحنفى : ٥١٢

صدر الدين بن الوكيل : ٧٧ ، ٧٨ ،

٨٠ ، ٨١ ، ٢٧٧ ، ٣٦ ، ٢٣٥ ،

٢٨ ، ٢٨٦ ، ٥٠٤ ، ٥٠٦ ، ٥١٢ ، ٥٢٣

صر غتمش : ٨٩ ، ٩٦ .

صفى الدين الحلى «عبدالعزى بن سرايا» :

في عبدالعزى

عبد العزيز بن سرايا الطائي « صفي
الدين الحلبي » : ١٠ ، ١١ ، ٦٣ ، ٦٤ ،
٨١ ، إلى ٨٤ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٥٦ ،
١٨٠ ، إلى ١٨٥ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٢٢ ،
٢٣٢ ، ٢٧٠ ، ٢٧٧ ، ٢٨ ،
٢٨٤ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٨ ،
٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ،
٣٨٠ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ،
٣٩٩ ، ٤٣ ، ٤١٣ ، ٤١٨ ،
٤١٩ ، ٤٢٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٩ ، ٤٧٥ ،
٤٧٨ ، ٤٨٢ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٧ ، ٥٠٢ ،
٥٠٤ ، ٥٠٥

عبد العزيز بن عبد السلام « عز الدين » :

١٠ ، ٢١٦ ، ٧٧

عبد العزيز بن محمد : ٢٦٩

عبد العزيز الأنصاري : ١٧٦ ، ٤٥٩

عبد العزيز الحصري : ١٢٣

عبد العزيز الدريفي : ١٦٢ ، ٢٨٤

عبد العزيز القيسراني : ١٨٧

عبد القادر الدماصي : ٢٧٩

عبد الكريم بن علي السهروردي

القوصي : ٢٠٢ ، ٣١٩

العكوك المصري : ٧٠

عز الدين الموصل : ٨٨ ، ١٤٤ ،

١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢٣٢ ، ٢٧١ ،

٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٣١٩ ، ٣٥٢ ،

٣٩٩ ، ٤٠٧ ، ٤١ ، ٤٦١ ،

العزیز بن سبای « الملك » : ١٣٣

علاء الدين بن أبي البقاء : ٣٧٤

علاء الدين بن الأثير : ٦٠ ، ٨١ ،

٨٢ ، ٨٤ ، ٣٨٩

صلاح الدين الأيوبي : في يوسف

صلاح الدين الصفدي « خليل بن أيبك »

في خليل

صلاح الدين كبسكدي العلائي : ٢٩٧

(ط)

طاز « الأمير » : ٩ ، ٩٦

طراباي الشريفي « الأمير » : ٢٤٧

ططر « الملك الظاهر » : ٢٣

طومان باي « الملك الأشرف » :

٢٢ ، ٢٦٨

طومان باي « الملك العادل » : ١١٧

(ظ)

الظاهر برقوق « الملك » : في برقوق

الظاهر بيبرس « الملك » في بيبرس

الظاهر قانصوه « الملك » : ٥١٥

ظهير الدين البارزي : ٢٧٦ ، ٢٩٩

(ع)

عائشة الباعونية : ١٨٤ ، ٢٨٤

عبد البر بن الشحنة : ٢٥٣ ، ٢٥٥

عبد الحميد حسن : ٤٣٥

عبد الرحيم البيساني « القاضي الفاضل » :

١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٢٧٠ ،

٣٧٢ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٦ ،

٣٩٥ ، ٤٠٦ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤٥٦ ،

٤٦٠ ، ٤٦١

عبد الرحيم الدميري : ١٤٢

عبد الصمد بن المعذل : ٤٩٩

عبد العزيز بن أبي فارس : ٢٩٤

(غ)

عازان التتري : ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٦
غازي الخلاوي : ١٤٣
غرس الدين خليل بن شاهين القاهري
٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨١
الغزولي « صاحب مطالع البدور » .
٢٦ ، ١٧٧ ، ٢٢١ ، ٣١٢ ، ٣١٥
٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧

(ف)

فان تيجم : ٥٢٠
فتح الدين بن سيد الناس اليعمرى ؛
في ابن سيد الناس
فتح الدين بن الشهيد : ٢٧١ ، ٢٧٩
نخر الدين الخصيب : ٩٣
نخر الدين بن مكانس : في ابن مكانس
فرج بن برقوق « الملك الناصر » :
١٠٩ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ٤٦٧

(ق)

القاضي القاضل عبدالرحيم البيسانى ؛
في عبدالرحيم .
فانصوه الغورى « الملك الأشرف » .
٢٢ ، ١٢٧ ، إلى ١٣٠ ، ٢٤٢ ،
٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٣
٢٧٩ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٥١٣
٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦
فايتباي « الملك الأشرف » : ١٢٣ ،
إلى ١٢٦ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ٢٧٣ .
٥١٤ ، ٥١٥
قطز « الملك المظفر » : ١٨ .

علاء الدين بن أبيك الدمشقي : ٢٧١

٢٧٩ ، ٤٤٣ -

علاء الدين بن عبدالظاهر : ٦٦ ، ٦٧ ،

٧٧

علاء الدين بن غانم : ٣٠٦ ، ٤٥٢ ،

علاء الدين بن مليك الحموي : ١٥ ،

٢٧٩ ، ٢٨٠

علاء الدين الباجي : ١٦٥ ، ١٦٥ ،

١٦٧ ، ٤٣٠

علاء الدين علي بن القضاى : ١٤١

علاء الدين القونوى : ١٦٣ ، ١٦٨ ،

علاء الدين الوداعي : ٦٣ ، ٧٩ ،

١٤٠ ، ٢٧٠ ، ٢٧٧ ، ٣٣٠ ،

٣٣٨ ، ٣٥٢ ، ٣٦٥ ، ٣٩٩ ،

٤٢١ ، ٥٦ ، ٤٥٣ ، ٤٦٨ ، ٤٩٢ ،

٤٩٣

علم الدين سنجر : ٢٤٥

علي إبراهيم حسن : ١٩

علي بن أبي طاب : ٩١

علي بن برد بك : ٤٧١

عمر بن أبي ربيعة : ٢٢٦

عمر بن الفارض : ٢٦٠

عمر بن الخطاب : ٦١ ، ٩١ ، ١٣٤

٢٦٠ ، ٢٦١

عمر الدسوقي : ٤٢٤

عمر موسى : ١٤٤

عويس العاينة الشاعر « شرف الدين

عيسى » : ٧١ ، ٢٧٩ .

عيسى بن بقر : ٦٥

(ل)

لاجين بن عبد الله الذهبي : ١٨٩
 لاجين ، الملك المنصور : ٨٠ ، ٦٣ ،
 ٣٣٠
 ليفون بن هيتوم «التكفور» : ١٨ ،
 ٢٤ ، ٢٣ ، ١٩

(م)

المؤيد شيخ المحمودى «الملك» : فى شيخ
 المازنى الدهان الشاعر : ٢٧٠
 المتنبي أبو الطيب : ٩ ، ٨٣ ، ١٤٥ ،
 ٤٤٩
 المتنبي المصرى « شهاب الدين » :
 ٢٧٩ ، ٢٧١

المتوكل « الخليفة العباسى » : ٩
 مجد الدين بن الخياط : ١٣٧ ، ٢٧٠ ،
 ٢٧٧

مجد الدين بن الظهير : ١٧٣
 مجد الدين بن مكانس : فى ابن مكانس
 مجد الدين الأربلى : ٢٧٧
 مجد الدين إسماعيل السكناوى : ٥٠٢
 مجير الدين بن تميم : ٢٦٧ ، ٢٧٠ ،
 ٢٧٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ،
 ٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ٤٢٢ ، ٤١٨ ،
 ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٨٥

مجير الدين اللمطى : ١٩٠
 محمد بن أبى بكر السكاكى : ١٦٨ ،
 ٤٣٠

قطلو شاه التترى : ٦٥

قطنبة « شرف الدين الأصفونى » :
 ٢٢١ ، ٢٧٠
 قلاوون « الملك المنصور » : ٩ ، ٢٠ ،
 ٢٤ ، ٣١ إلى ٤٦ ، ٨٠ ، ٧٨ ، ١٠٠ ،
 ٥١٢ ، ٥٩

قيت الرجبى : ٢٤٢

القيراطى « برهان الدين إبراهيم » :
 ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٤٥ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،
 ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ،
 ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٤٠ ،
 ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ،
 ٤٧٦ ، ٤٩٢ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥
 القيسرانى الشاعر « إسماعيل بن محمد »
 ٢٦٩ ، ٢٧٠

(ك)

كتبغا المنصورى « الملك » : ٦٣
 كجك « علاء الدين الملك » : ٨٥

كعب بن زهير : ٢٨٢
 كمال الدين بن الزملكانى : ٩٥ ، ٢٢٧ ،
 ٢٣١ ، ٣٢٤ ، ٤٥٠ ، ٤٩١
 كمال الدين بن العليم : ٢٢٠
 كمال الدين الأدفوى : ٢٥٢ ، ٢٥٨ ،

٢٧٩ ، ٣١١ ، ٣١٩

كمال الدين الأعمى : ٤٤٦
 كمال الدين الشريشى : ٤٥٢

كينخسرو : ٥٩

كيتباز : ٥٩

محمود الحليلي الشاعر : ٢٧٤
 محي الدين بن النحاس : ٩١
 محي الدين بن عبد الظاهر : في ابن
 عبد الظاهر
 محي الدين بن قرناص : ٤٠٨ ، ٤٦٢ ،
 ٤٦٨ ، ٤٦٣
 محي الدين بن النقيب : ٢٥٢
 محي الدين النووي : ١
 مراد كامل : ٢٤
 المستعين بالله العباسي « الخليفة » :
 ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ،
 ١١٣ ، ١١٧
 المستكفي بالله العباسي : ٧٢ ، ٧٧
 المعتصم « الخليفة العباسي » : ٩
 معين الدين بن حشيش : ٣٦٠
 معين الدين بن شمس : ٢٥٣
 معين الدين بن أوو الفهرى : ٢٧٧
 المقرئ « تقي الدين » : ٢٢ ، ٢٤ ،
 ٣٦ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٦ ،
 ١٠٧ ، ١٤٠ ، ١٨٠
 المنصور الأرتقي : ١٠ ، ١١
 المنصور أبو بكر « الملك » : ١٥
 المنصور « صاحب حماة » : ١٩
 المنصور عبد العزيز « صاحب تونس » :
 ١١٣
 المنصور علي بن الأشرف : ١٠
 ١٠٣
 المنصور قلاوون : في قلاوون

محمد بن أحمد بن عمر « بدر الدين البزاز
 المنبجي » ٣٥ ، ٥٨ ، ٦٧ ، ٧٩
 محمد بن الأحمر : ١١٨
 محمد بن البارزي « الناصري » : ١١٤
 ١٢٠ ، ١٨٣ ، ٢٣١ ، ٤٩١
 محمد بن حاجي « الملك المنصور » : ٨٩
 ٩٧ ؛ ١٠١ ؛ ١٠٢
 محمد بن قانصوه الغوري « الناصري » :
 ١٢٩
 محمد بن قايتباي « الملك الناصر » : ١٢٦
 محمد بن قلاوون « الملك الناصر » : ٨
 ٦٢ إلى ٦٧ ، ٧٤ ، ٧٦ إلى ٨٥ ،
 ٨٨ ، ٩٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٧ ، ٣٦٠ ،
 ٣٦٥ ، ٢٧٩ ، ٤٤٩ ، ٥١٢ ، ٥١٣
 محمد بن قونصوه بن صادق الشاعر
 « الناصري » : ١٢٧ ، ١٣٥ ، ٢٧٩
 محمد بن موسى : ٧٩
 محمد بن يوسف المهندار « بدر الدين » :
 ٢٥ ، ٣٣١
 محمد جميل الشطبي : ١٦٢
 محمد دياب : ١٨٢ ، ٤٩٩
 محمد ناظم الملتقي : ١٨٦
 محمود الحلبي « شهاب الدين أبو الشناء » :
 ١٢ ، ٢٦ ، ٥١ إلى ٥٨ ، ٨٣ ،
 ١٥٢ ، ١٧٣ ، ٢٧٧ ، ٢٨٤ ،
 ٣٠٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ،
 ٣٦١ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٤٠٠ ،
 ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٧٠

نصير الدين الحماني : ١٥٠١٢ ، ٢٦٩ ،
٥٠٤ ، ٤٨٣ ، ٢٧٧ ، ٢٧٠

النواجي « شمس الدين » : ١٨٧ ، ١٥٣ ،

٢٧٨ ، ٢٨٤ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، ٣٦١ ،

٥٠٥ ، ٥٢٤ ، ٥٠٥ ، ٣٥٩

نور الدين الإسعدي : ٣١٨ ، ٢٧٧ ،

٥٢٣ ، ٤٨٨ ، ٣٢١

نور الدين الفيومي : ٢١٢

نور الدين علي بن سعيد المغربي :

٢٧٨ ، ٣١٩

نور الدين علي سبط ابن الفارض :

٢٦٠

نور الدين المقرئ : ١٦٢

نوروز الحافظي : ١٠٩ ، ١١٠ ،

١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ،

النويري « شهاب الدين » : ٥٧ ، ٥٨ ،

٢٨٠

(ه)

هلاون « هولاكو التتري » : ٣٧ ، ٣٨ ،

(و)

الوراق « سراج الدين » : ١٢ ، ١٣ ،

١٥ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ،

٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٢٧٠ ، ٣١٨ ،

٢٢٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٣ ، ٣٤٧ ،

٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٤٠٧ ، ٤١٥ ،

٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٦٧ ، ٤٧٦ ،

٤٨٧ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٥٢٤

المنصور لاجين « الملك » : في لاجين

منطاش « الأمير تبرغا الأفضلي » :

١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٤٤٠

موسى بن بقسماطة الشاعر : ٢٧٤

موسى الهادي : ٤٩٩٠

(ن)

النابغة الذبياني : ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٢٤ ،

ناصر الدين بن الطحان : ٢٧٤

ناصر الدين بن المنير الشاعر : ٢٢٨

ناصر الدين بن النقيب : في ابن النقيب

ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر :

٧٩ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،

ناصر الدين المنزلي : ٢٠٥

ناصر الدين الواسطي : ١٠٥ ، ٥١٢ ،

الناصر فرج بن برقوق « الملك » : في

فرج

الناصر محمد بن قايتباي « الملك » : في

محمد

الناصر محمد بن قلاوون « الملك » : في

محمد

الناصرى محمد بن البارزى . في محمد

ناصر الدين النشائي : ٤٢٠

الناصرى محمد بن قونصوة بن صادق :

في محمد

نبيه الدين عبد المنعم : ٢٢١ ، ٢٢٢ ،

نجم الدين بن العيني : ٦٧٠

نجم الدين الحضراوى : ١٦٢ ، ٢٦٤ ،

نجم الدين الطوسى : ١٦٧

نجم الدين المرجاني : ١٤٦

يشبك الدوادار : ١٢٣ ، ١٢٤
 يلبغا العمرى الناصرى : ٨٩ ، ٩٤ ،
 ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ٢٤٨
 يوسف بن أيوب « صلاح الدين
 الأيوبي » : ٣٦ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٣٣٨
 يوسف بن سيف الدولة الشاعر : ٣٨١

ولى الدين أبو زرعة العراقى : ١٤٦
 وليم موير : ٥٠

(ى)

يحيى بن سبع : ٢٥٤
 يحيى بن على المنجم : ٤٩٩
 يحيى الخباز الحموى : ٢٧١

اتتهى والله أعلم . والحمد لله من قبل ومن بعد

DATE DUE



سليم، محمود رزق،
عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01034437

